لا تطفئ الشمس

الجزء الثاني

الناشر : مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي "الفجالة"
سعيد جوده السحار وشركاه

دار مصر للطباعة
٣٧ شارع كامل صدقي



١

وكان صباح ..

ووقف أحمد أمام دولاب ملابسه ، والتقط بدلة ليرتديها .. بدلة كاملة ، فهو قد تعود على ارتداء بدلته كاملة ، ليبدو جادا وقورا كما أراد دائما أن يبدو أمام الناس .. وبدأ يرتدى ثيابه . ارتدى القميص ، والبنطلون ، ثم جلس ولبس الجورب والحذاء ، ثم قام ومد يده الى الكرافتة السوداء ، ولفها حول عنقه ، وجذب الجاكتة ، وهم أن يرتديها .. وفجأة توقف .. وفكر برهة .. ثم .. وبلا تردد .. أعاد الجاكتة فوق المشجب ووضعها داخل الدولاب . ونزع الكرافتة من حول عنقه وأعادها الى مكانها .. وفك زرار قميصه .. ثم فك زرارا آخر ، فانكشف القميص عن صدره .. ووقف أمام المرآة يشمر أكمام القميص ، وبين شفتيه ابتسامة صغيرة .. ثم جذب بنطلونه الى أسفل جذبة خفيفة ، حتى تعلق البنطلون بأسفل خصره .. وسار فى خطوات واسعة بطيئة خارج الغرفة ، وهو يبدو كبطل من أبطال أفلام رعاة البقر ..

ومر فى طريقه بأخواته البنات جالسات فى الصالة ، مرتديات الثياب السود .. فنظرن اليه بدهشة .. انهن لم يرينه أبدا يخرج بالقميص والبنطلون .. وقالت ليلى ، وهى تراه يتجه الى باب الخروج : انت حا تخرج كده يا آبيه ؟ ..

قال أحمد وهو يبتسم لها : أيوه .. مش احسن ؟ ..

وقالت ليلى وهى ترد ابتسامته : احسن قوى ! ..

وقال أحمد وهو ينظر الى أخواته بعينين حانيتين وابتسامته لا تزال بين شفتيه :

ـ وانتم مش حا تخرجوا ؟ ·· مش حاتروحى الكلية يا فيفى ؟

ونظرت اليه فيفى فى دهشة ، وقالت :

ـ أروح الكلية ازاى ؟ ·· ده لسه مافاتش خمستاشر يوم ··

وقال أحمد فى بساطة :

ـ انتى اللى كسلانة ·· قومى يا شـيخة روحى عالكلية ·· وانتى كمان يا نبيلة ·· وانتى يا ليلى شوفى لك حتة تروحيها ·· ما تبتدى تروحى المعهد تانى ··

ونظرن اليه فى دهشة ، كأنهن يرينه لأول مرة ·· كأنه ليس أخاهن أحمد الذى يعرفنه ·· أحمد المتزمت ، الوقور ، الجاد الذى يخفنه ، ويخفن عقليته ··

ولم يرد أحمد على دهشتهن ··

وعندما أدار لهن ظهره وخرج ·· خيل اليهن أن الذى خرج هو ·· ممدوح ··

وسار أحمد فى الشارع الممتـد على شاطىء النيل ، مرتديا القميص والبنطـلون ·· أول مرة يخرج الى الشـارع بالقميص والبنطلون ··

وكان يحس أحيانا كأنه يسير عاريا ·· كأن الناس تنظر اليه فى تعجب ، وتقف لتتفرج عليه ·· ولم يكن أحد ينظر اليه أو يتفرج عليه ·· انه مجرد احساس ، وهو يعلم أنه مجرد احسـاس ·· ويحاول أن يتغلب على هذا الاحساس ، فيضع على شفتيه ابتسامة كبيرة ، ويتلفت حوله بعينين مبتسمتين متفائلتين كأنه ينظـر الى الدنيا بعينين جديدتين ·· عينى أخيه ممدوح ·· لقد كان ممدوح متفائلا دائما ·· كانت الحياة تسير من حوله سهلة بسيطة زاخرة بالآمال ·· كل شىء ممكن ·· وكل شىء بسيط ·· لا عقد ·· ولا

مجادلات نفسية ·· ولا نفاق ولا ادعاء ·· الحياة ضحكة كبيرة ·· وفى كل لحظة فكرة جديدة تفتح بابا جديدا من أبواب الأمل ·· ان الحياة تتطلب منك أن تقبل عليها ، وأن تفكر من أجلها ·· ان الحياة كالزوجة ، يجب أن تتقدم لخطبتها ، وأن تقنعها بنفسك ، وأن تؤثث لها بيتا ، وأن تستغل عقلك فى الارتقاء بها ، وعندما ترتقى الحياة ، ترتقى معها ··

وأحمد ـ دون أن يعى وعيا كاملاً ما يفعله ، ودون أن يتعمد ـ وجد نفسه يحاول أن يقلد ممدوح فى اقباله على الحياة ·· أو على الأقل فى مظهر اقباله على الحياة ·· فى بساطته ·· وانطلاقه ·· وجرأته ·· ان احساس أحمد بالذنب ·· احساسه بأنه تسبب فى موت أخيه ، دفعه الى أن يقلده ·· كأنه يحاول أن يعوض نفسه عنه ·· كأنه يحاول أن يحيى ممدوح فى شخصه ·· كأنه يحاول أن ينال صفحه بأن يتبنى شخصيته وأفكاره ·· !

وخلال الأيام الطويلة التى قضاها وحيدا فى غرفته ، كان أحمد يستعرض حياة ممدوح كلها ، ويقنع نفسه بأنه كان على حق فى كل فكرة خطرت له ، وفى كل مظهر من مظاهر حياته ·· فى اصراره على الاكتفاء بارتداء القميص والبنطلون ·· وفى اصراره على أن يشترى « فسبا » ·· وفى مطالبته بعد أن اشترى « الفسبا » أن يشترى سيارة ·· وفى صداقاته المتعددة مع البنات ·· وفى محاولته بيع الصحف والمجلات لطلبة الجامعة ·· وفى تفكيره أن يشتغل هو وزملاؤه سائقين بالساعة لأصحاب السيارات الذين لا يستخدمون سائقين ·· ثم فى اصراره على أن يترك الجامعة ويشارك الأسطى عفيفى فى افتتاح ورشة ·· كل كلمة قالها ممدوح ·· وكل فكرة خطرت له ·· وكل تصرف من تصرفاته ·· كانت حقا رائعة ··

وأصبح أحمد مقتنعا بأن ممدوح كان شابا مثاليا ·· كان الشاب الكامل ·· كان أسطورة ·· ووجد نفسه ينساق ليعيش فى هذه الأسطورة ·· ليكون كممدوح ·· ليقلده ··

وكان أحمد يكتشف أحيانا ـ خلال تفكيره الطويل ـ انه تنقصه معلومات كثيرة عن تفاصيل حياة ممدوح ·· عن تصرفاته مع أصدقائه ، ومع البنات ، وعن الطريقة التى كان يكسب بها القلوب ، ويقدم بها على تنفيذ مشروعاته ·· لقد كان لممدوح أصدقاء من العمال ، ومن باعة الصحف ، ومن أولاد البلد ·· فكيف استطاع أن يكتسب صداقة كل هؤلاء ؟ ·· وكانت له صداقات متعددة مع البنات ، احتفظ بها كلها ، دون أن تغضب احداهن ، أو تثور عليه ، أو تكرهه ·· فكيف استطاع ذلك ؟ ان أحمد لا يدرى ، فقد كان يضع بينه وبين أخيه حجابا مفتعلا من الجد والوقار ، حرمه من أن يعرف دقائق حياته وتفاصيلها ··

وكان أحمد فى هذه الحالة يحاول أن يتخيل ما ينقصه من معلومات عن حياة أخيه ·· كان يتصور نفسه ممدوح ، ويتصور أنه يحادث فتاة ، ثم يبدأ ـ بخياله ـ فى تقليد الطريقة التى يتحدث بها أخوه ·· وفى تقليد ابتسامته وحركاته ·· وتقليد عقليته ·· أو يتصور نفسه يحادث الأسطى عفيفى بالطريقة التى يمكن أن يحادثه بها ممدوح ··

ثم استبد به خياله المنبعث من احساسه بالذنب ، حتى وجد نفسه يقف أمام المرآة ، ويحاول أن يرى وجه ممدوح فى وجهه ثم ·· بلا تردد ·· ارتدى القميص والبنطلون ـ كما كان يفعل ممدوح ـ وخرج من البيت ··

وظل أحمد سائرا على قدميه ، يتلفت حوله بعينين متفائلتين ·· تفاؤلهما مصطنع ·· وعلى شفتيه ابتسامة كبيرة مرحة جريئة كابتسامة ممدوح ·· ثم حاول أن يصفر بشفتيه أثناء سيره ، ولكن

صفيره احتبس بين شفتيه ، فعدل عنه ··

ووصل الى محل جروبى فى ميـدان سليمان باشا ، وهم أن يدخله ليتناول فيه طعام افطاره كعادته ·· ولكنه توقف عند الباب فجأة ·· لماذا يصر على أن يتنــاول افطاره فى جروبى ؟ ·· انه محل معتم ، رطب ، صامت ، لا يضم الا العجائز ، وكبار الموظفين ·· كأنه آخر محطة فى الحياة ··

وهز كتفيه ساخرا من جروبى ، ثم استدار وسار على قدميه فى شارع سليمان باشا ، ودخل محلا لبيع الساندويتش ·· ووقف يقضم فى قطعة ســاندويتش ، ويلتقط قطــع المخلل ، ويملأ أذنيه بضجيج الشارع ، ويملأ عينيه بالزحام النشط الذى يضم آلاف المتجهين لعملهم ·· ويبتسم فى حبور ·· يبتسم لكل وجه يمر أمام عينيه ·· وهو يحس أنه واقف وسط الحياة ··

ثم طلب فنجانا من الشاى شربه وهو واقف أيضــا ·· وقد علق يده فى خاصرته ، وارتكز بكوعه على رخامة « البار » كأنه بطل كبير فى انتظار أن يحين الوقت ليبدأ مهمته ··

وانتهى من شرب الشاى ، ثم سار على قدميه ، حتى وصــل الى وزارة الماليــة ·· وارتقى الســلم قفزا دون أن يحرص على الاحتفاظ بقناع الجد والوقار ·· وصاح عندما مر بمتولى الساعى: صباح الخير يا عم متولى ··

ونظر اليه متولى فى دهشة ، وقال كأن الدهشة ألجمت لسانه :

ــ صباح الخير يا أحمد بيه ··

ودخل أحمد على زملائه ، وصاح فيهم : صباح الخير يا جماعة·

ورفع الزملاء رؤوسهم الواحد تلو الآخر ، ونظروا اليه ، وكل منهم يهم بأن يرد تحيته ، ثم تلجم الدهشة لسانه ·· انهــا المرة الأولى التى يدخل اليهم موظف منهم يرتدى القميص والبنطلون ··

ثم ·· ان أخاه لم ينقض على وفاته أكثر من خمسة عشر يوما ·· فما سر هذا المرح ؟ ·· ماذا حدث ؟ ··

وانتبه الزملاء الى وجومهم ، فأفاقوا مرة واحدة ، وصاحوا فى أصوات متتالية تشبه طلقات مدفع المترليوز :

ـ صباح الخير يا أحمد بيه ··

ثم قاموا من وراء مكاتبهم يصافحونه ، ويكررون له التعزية فى وفاة أخيه ·· وهو يتمتم بشفتيه كلمات مبهمة كأنه يرفض تعزيتهم ، أو يسد أذنيه عنها ··

وعاد الزملاء الى مكاتبهم ·· وظلوا ينظرون اليه بعيون واسعة ·· وجلس أحمد الى مكتبه ، وهو يقول فى بساطة وابتسامته معلقة بين شفتيه : مالكم مبلمين كده ليه ؟ ··

وقال زميله فرحات عبد الله عبد الخالق ، فى سخرية لا تخلو من حقد وغيظ : أصلك النهارده سبور خالص ··

وقال أحمد وهو ينظر الى قميصه وبنطلونه :

ـ أصلى اكتشفت ان الناس اللى بيلبسوا بدل كلهم مغفلين ·· لازمتها ايه الجاكتة ·· ولازمتها ايه خنقة الياقة والكرافتة ·· فى أوربا بيلبسوا الجاكتة والكرافتة علشان الدنيا عندهم برد ·· انما احنا نلبسهم ليه ؟ ··

وقال فريد أفندى ابراهيم ، وصوته ينطلق من أنفه كالصفير :

ـ بقى احنا مغفلين ·· الله يسامحك يا أحمد بيه ··

وقال أحمد وهو يبتسم ابتسامة يتودد بها الى فريد أفندى :

ـ مش قصدى يا فريد أفندى ·· قصدى انى أنا كنت مغفل

وقال الأستاذ بسيونى عبد الفتاح :

ـ الغرابة ان أولاد الأغنيا اللى يقدروا يشتروا بدل وكرافتات بيلبسوا القميص والبنطلون ، وأولاد الفقرا اللى زينا هم اللى لازم يلبسوا بدلة كاملة ·· طول النهار شايف أولاد الذوات دايرين

بالقميص والبنطلون ، والواد ابنى من يوم ما دخل الثانوى وهو قاعد يزن عايز بدلة كاملة ·· جاكتة وبنطلون طويل ··

وقال أحمد فى حماس غريب ، كأنه وجد لأول مرة شيئا يتحمس له :

ـ المسألة مش مسألة فقرا وأغنيا ·· المسألة مسألة جو ·· بيئة ·· احنا محتاجين نلبس ايه ؟ ·· قميص وبنطلون ·· والا بدلة كاملة ؟ ·· ده السؤال المهم ·· تفتكروا ان لبس الجلابية لبس غلط ·· أبدا ·· دى أحسن حاجة تتناسب مع جو بلادنا ·· عندك فى اسكندرية مثلا بيلبسوا البنطلون اللى بيسموه سروال ·· بيلبسوه من قبل ما تلبسه أوربا ·· ليه ؟ ·· لأنهم لو لبسوا جلاليب ، هوا البحر بيطيرها ·· يبقى لازم يلبسوا بنطلون ضيق من عند الرجلين علشان الهوا ما يطيروش ·· المسألة مسألة احنا محتاجين نلبس ايه ؟ ·· وصحيح ان الجلابية مابقتش تنفع دلوقت لأنها بتضايق الحركة ·· كانت كويسة أيام ما كنا بنركب حمير وعربيات سوارس ، انما لما بقينا نركب ترموايات وأوتوبيسات ، ما بقتش تنفع ·· انما كمان الجاكتة والكرافتة مالهومش لازمة عندنا ، كفاية علينا البنطلون والقميص ··

وسكت أحمد عن الكلام ، كأنه يستمع الى نفسه ·· الى شخص آخر يتحدث من داخله ··

وظل الزملاء صامتين من حوله كأنهم مبهوتون لانطلاقه وآرائه التى لم يسمعوها منه من قبل ، ثم قال الأستاذ عبد العظيم فهمى ، كأنه وجد ما يفحم به أحمد :

ـ يا سيدى المثل بيقول : كل ما تشتهى ، والبس ما تشتهى الناس ·· والناس بتشتهى اننا نلبس جاكتات وكرافتات ، علشان نبقى أفندية محترمين ··

وقال أحمد : لو كان المثل ده صحيح كان زماننا لابسين الجبة

والقفطان لغاية دلوقت ·· من خمسين سنة بس ، كان الراجل المحترم هو اللى بيلبس جبة وقفطان ··

وقال فريد أفندى :

– يعنى عايز تلغى الجاكتة والكرافتة كده مرة واحدة ·· ده احنا ماقدرناش نستغنى عن الطربوش الا لما قامت ثورة ·· يبقى لازم تقوم ثورة تانية علشان تلغى الجاكتة والكرافتة ··

وقال الأستاذ بسيونى عبد الفتاح :

– بقى أنا لو قمت دلوقت ودخلت للريس بالبنطلون والقميص ما اترفدش ! ؟ ··

وقال الأستاذ فرحات عبد الله عبد الخالق ، كأنه يحاول أن يثير أحمد : انت تترفد ·· انما أحمد بيه ما يترفدش ·· طبعا ··

ولم يثر أحمد ، وقال فى هدوء وهو ينظر الى زميله فرحات فى تحد : ولا انت تترفد ·· ماحدش يترفد ·· ايه رأيكم لو جينا بكره كلنا بالقميص والبنطلون ؟ ··

وقال فريد أفندى : يفتكرونا جايين نلعب كوره ··

وقال أحمد : أنا باتكلم جد ·· وعلى عهدتى ·· انتم مش عارفين ان خالى يبقى وكيل الوزارة ·· أنا أضمن لكم ان خالى مش حايسمح ان حد يترفد ··

ولم يكن أحمد يعنى ما قاله ، وانما فقط كان يشجع زملاءه على الاقتناع بفكرته ·· فهو يعلم أن خاله آخر من يقر أن يدخل اليه الموظفون بالبنطلون والقميص ··

وقال الأستاذ عبد العظيم فهمى : أنا بقى لى تلاتين سنة بالبس الجاكتة والكرافتة ·· خلاص ·· خدت عليهم حتى فى عز الحر ·· لو قلعتهم بيتهيأ لى انى عريان ··

وقال فريد أفندى : وأنا زيك تمام يا اخويا ··

وقال أحمد فى تفاؤل : كلها كام سنة وماتلاقوش موظف فى

الحكومة كلها لابس جاكتة ·· كلنا حانلبس قميص وبنطلون فى الصيف وفى الشتا ·· ولما الدنيا تبرد نلبس بلوفر ··

وقال الأستاذ عبد العظيم : ربنا يسمع منك ، على الأقل الواد ابنى يبطل زن على ودانى ·· عايز بدلة ·· الله يلعنه ويلعن البدلة ·

وقام أحمد واقفا ، وقال فى حماس : أنا حاقوم ادخل للريس بتاعنا ، وحاقول له اننا حانيجى كلنا بكره بالقميص والبنطلون

وصرخ فريد أفندي : أنا ماليش دعوه بالحكاية دى ·· ماقلتش انى حاالبس قميص وبنطلون ··

وقال الأستاذ بسيونى عبد الفتاح : اتكلم عن نفسك يا أستاذ احمد ·· ماتحشرناش فى الموضوع ده ، اعمل معروف ··

وقال فرحات عبد الله عبد الخالق ، والحقد يقطر منَ لسانه

ـ يا بخت من كان وكيل الوزارة خاله ··

ولم يرد عليه أحمد ، وقال وقد ارتفع صوته كأنه يخطب فى زملائه : انتم مش اقتنعتم بأننا لازم نيجى بالقميص والبنطلون ·· يبقى خلاص ·· خايفين من ايه ؟ ! ··

وقال الأستاذ عبد العظيم :

ـ مش كفاية اننا نقتنع ، لازم الحكومة كمان تقتنع ··

وصرخ أحمد : يعنى لازم الحكومة تصدر قانون بأن النـاس تلبس قميص وبنطلون ؟ ! ··

وقال فريد أفندى وصوته ينطلق من أنفه :

ـ أيوه ·· احنا أصحاب عيال يا أحمد بيه ··

وخرج أحمد من وراء مكتبه ، وقال وهو يتجه خارج الغـرفة فى خطوات واسعة : أنا حاكلم الريس بتاعنا ··

ثم خرج وسار فى طرقات الوزارة ، وقد ازدرد وجهه من كثرة ما انحبس فى صدره من حماس ·· وطرق باب مكتب رئيس القلم ، وسمع صوتا أجش يصيح من الداخل : ادخل ··

وفتح الباب بقوة ·· ودخل ·· ورفع رئيس القلم رأسه ، وارتعشت عيناه خلف زجاج نظارته ، ثم تقلص وجهه كأنه يرى أمامه فعلا فاضحا يثير الامتعاض ، وقام من وراء مكتبه ، ومد يده الى أحمد وشفتاه مقلوبتان ، وقال وهو ينظر متعمدا الى القميص والبنطلون كأنه ينبه أحمد الى الفضيحة التى يأتى بها :

ـ نكرر التعازى يا أستاذ أحمد ··

وصدمت الكلمة أذنى أحمد ·· انه لا يريد أن يسمع كلمة تعزية ·· لا يريد أن يعزيه أحد فى ممدوح ·· ان ممدوح لم يمت ·· ان ممدوح رسالة لا تزال حية ·· انه هو شخصيا ممدوح ·

ولم يرد على تعزية رئيسه ، كأنه لم يسمعها ، وقال وهو يبتسم ابتسامة مهذبة : أنا جيت أستأذن سيادتكم فى انى آجى الوزارة بالقميص والبنطلون ··

واغتصب رئيس القلم ابتسامة وضعها فوق شفتيه ، كأنه تذكر انه يخاطب ابن أخت وكيل الوزارة ، وقال وهو يعود ليجلس الى مكتبه : بس العادة ماجرتش بكده ··

وقال أحمد فى صوت رزين كأنه يبدأ فى القاء محاضرة :

ـ المسألة مش مسألة عادة ·· مسألة اقناع ·· ولاشك أن لبس البنطلون والقميص يتيح فرصة أكثر للعمل ، ويتناسب مع جو بلدنا ·· ويريح الموظف ·· الجاكتة والكرافتة مالهومش لازمة ·· و ··

وقاطعه رئيس القلم وهو يبذل مجهودا كبيرا للاحتفاظ بهدوئه :

ـ لو كان على الراحة ، كان الموظفين جت الوزارة بالجلابية والا بالبيجاما ·· انما فيه حاجة تانية غير الراحة ·· الاحترام ·· المظهر المحترم ··

وقال أحمد فى هدوء : الاحترام هو الشخصية المحترمة ·· مش البدلة ·· ولا الجلابية ·· فيه أفندية كتير مش محترمين ··

وفيه ناس بالبنطلون والقميص محترمين ..

وقال الرئيس كأنه يتحدى أحمد فى مناقشة جدلية ، ليثبت له أنه رئيسه فى كل شيء : الثياب من مكملات الشخصية ..

وقال أحمد وقد بدأ يحتد : يعنى الناس اللى بيستحموا بالمايوهات مش محترمين .. ومالهومش شخصية ؟ ..

وقال الرئيس : احنا هنا فى وزارة ، مش على البلاج ..

وقال أحمد :

ـ أنا مابقولش اننا نلبس مايوهات فى الوزارة . انما نلبس قميص وبنطلون .. فيها ايه لما نلبس قميص وبنطلون ؟ ..

وقال رئيس القلم ، كأنه يتخلص من مسئولية اتخاذ قرار

ـ على كل حال ، اذا كان خالك عزت بيه موافق على رأيك أنا كمان موافق ..

وقال أحمد وقد اشتد احتداده :

ـ خالى مالوش دعوة .. ماعندوش خبر بالموضوع كله . انما أنا اتفقت مع زملائى على اننا نيجى كلنا بالقميص والبنطلون

وقام رئيس القلم من على مقعده منتفضا ، وقال وهو يدق على مكتبه بقبضة يده :

ـ لا يا أستاذ أحمد .. أنا مش ممكن أسمح بالفوضى دى .. أنا مسئول عن القلم بتاعى ومش ممكن أقر الاخلال بالنظام والاحترام .. اذا كانت الوزارة موافقة على أن الموظفين تيجى بالقميص والبنطلون .. يبقى خلاص ولازم يجينى قرار رسمى أو على الأقل يكلمنى سعادة وكيل الوزارة شخصيا .. وقبل كده فأنا مضطر انى أوقع الجزاء على كل موظف يدخل لى بالقميص والبنطلون ..

وسكت أحمد .. وفى عينيه نظرات غاضبة محتدة .. ولم يكن غاضبا من رئيسه ، بل كان كل ما يتراءى فى مخيلته . هو

وجه خاله ·· وجهه المنتفخ ، وكرشه المندلق فوق ساقيه ·· وخيل اليه أن مئات من الوجوه المنتفخة والكروش المندلقة تملأ الأرض والسماء من حوله ·· وجوه تعبر عن عقليات جامدة متحجرة ·· العقليات التى قتلت ممدوح ·· والتى تحرم الموظفين من ارتداء القميص والبنطلون ·· يجب أن ينتصر على هذه العقليات ·· أن يقتلها ·· انها معركة كبيرة ·· انها مذبحة ·· مذبحة فكرية ·· فكرة تذبح فكرة ·· ورأى يقتل رأيا ··

وخرج رئيس القلم من وراء مكتبه ، وقال وعلى شفتيه ابتسامة كأنه عاد وتذكر أن الواقف أمامه هو ابن أخت وكيل الوزارة : أنا آسف يا أستاذ أحمد ·· أرجوك تقدر موقفى ··

وقال أحمد : أنا كمان آسف ··

واستدار ، وخرج من الغرفة دون أن يحيى رئيسه ·· ولم يعد الى مكتبه ، سار بخطوات واسعة فى طرقات الوزارة ·· ثم نزل السلم قفزا ·· وهو يشعر أن وراءه مهمة خطيرة ·· وهو لا يدرى بالضبط تفاصيل هذه المهمة ·· انه منفعل بهـا ، ولكنه لا يدرى تفصيلها··· وانفعاله بها يثير فى صدره الحماس ·· والحيـاة ·· شىء لم يكن يحس به من قبل عندما كان منطويا تحت شخصية الشاب الوقور الجاد ورغم ذلك فهو يحس فى أعمـاقه أن هـذا الحماس ليس حماسه ·· انه حماس دخيل عليه ·· يحس احساسا بعيدا أن هذه الشخصية الجديدة ليست شخصيته ·· انها شخصية ممدوح ·· ولكنه متمسك بهذه الشخصية ·· متشبث بها ·· كأنه متشبث بحلقة النجاة ·· نجاته من أحاسيس أخرى تعذبه ··

وخرج من الوزارة ، وجرى متولى الساعى بين يديه قائلا

ــ أجيب تاكسى يا أحمد بيه ؟ ··

وقال أحمد وهو مستمر سائرا فى طريقه :

ــ لا ·· متشكر ·· أنا حا امشى على رجلية ! ··

وسار احمد على قدميه ، وهو يحاول قدر استطاعته أن يبدو شابا منطلقا ، متفائلا ، جريئا ، مرحا .. وأن يقنع نفسه بأنه هو هذا الشاب .. الى أن وصل الى موقف سيارات الأجرة ، ووضع نفسه فى احداها ، وصاح فى السائق : نادى الجزيرة يا أسطى .

وانطلقت السيارة فى الطريق الى نادى الجزيرة .. ولمح أحمد شابا يقود فسبا ويتراقص بها فى جنون فوق كوبرى قصر النيل .. وأدار رأسه بسرعة ، كأنه يهرب بعينيه من شىء .. كأنه رأى ممدوح .. ثم عاد وضغط على نفسه ونظر وراء الشاب الذى يقود الفسبا .. لماذا لا يشترى لنفسه فسبا ؟ .. وتصور نفسه يقود الفسبا .. والهواء يخبط صدره ويطير خصلات شعره .. نعم ، سيشترى فسبا .. ولكن لماذا فسبا ؟ .. لماذا لا يشترى سيارة ؟ .. نعم سيشترى سيارة ..

ونزل أمام باب نادى الجزيرة .. ونظر الى ملاحظ النادى كأنه يتحداه .. لقد كان يرتبك دائما كلما مر أمام ملاحظ النادى ، وكان يحتار .. هل يحييه أم يتجاهله ؟ .. ولكنه لن يرتبك اليوم ، ولن يحتار .. سيحييه .. ورفع يده بالتحية ، وقال من طرف أنفه :

ـ ازيك يا عوض ..

ولكن عوض كان قد انشغل بالحديث مع بعض الوافدين من أعضاء النادى ، فلم ينتبه الى تحية أحمد ، ولم يرد عليها ..

وهز أحمد كتفيه فى استهتار ، ثم صعد الدرجات المؤدية الى الشرفة المطلة على حوض السباحة .. ثم توقف قليلا قبل أن يدخل الى الشرفة .. هل يجد هناك شهيرة ؟ ..

أنه لا يريد أن يراها فى هذا اليوم بالذات .

أحس كأنه لو رآها فسينهار أمامها .. ستنهار شخصيته الجديدة .. ستكشفه .. ستفضحه .. سيعود الى شخصيته القديمة المنطوية ، التائهة ..

وهز كتفيه مرة ثانية فى استهتار ، وتقدم ··

ووقف على باب الشرفة ينظر الى الأعضاء المنتشرين حول الموائد ، بعينين ثابتتين كأنه يقدم لهم نفسه لأول مرة ·· وقامته طويلة ، وقميصه مفتوح عن صدره العريض الخشن ، وبنطلونه معلق فى أسفل خاصرته ، والهواء يطير خصلات من شعره ·· فبدا كتمثال جميل لأحد أبطال الرومان ··

الحمد لله ·· ان شهيرة ليست هنا ··

وعند حافة الحوض ، لمح جرمين ·· الفتاة التى تمنى دائما أن يأكلها ·· جالسة تقرأ فى كتاب ، مرتدية بنطلونا قصيرا ·· قصيرا جدا ·· كأنه يحاول أن يهرب من فوق ساقيها الدقيقتين المفرودتين أمامها ··

وابتسم ابتسامة كبيرة ··

ثم دار بعينيه حتى سقطتا على شلة من الشبان والبنات ملتفين حول احدى الموائد ·· انهم شلة شهيرة ·· أصدقاؤها ·· وقد عرفهم جميعا ، وخرج معهم كثيرا ، ولكنه كان دائما يعتبرهم أصدقاء شهيرة ، لم يعتبرهم أبدا أصدقاءه ·· لا يدرى لماذا ؟ ··

وسار فى خطوات واسعة بطيئة ، وخصره يتكسر فوق ساقيه كأنه أحد أبطال رعاة البقر ، يثقل خاصرتيه حمل المسدس · وتقدم من أفراد الشلة ، وابتسامة كبيرة فوق شفتيه ، وصاح ، وهو يتعمد أن يحيى كلا منهم باسمه :

– ازيك يا رؤوف ·· هاى نيللى ·· هاللو مرفت ·· هاى حسن ··

ثم التفت الى مدحت خيرى ·· الصديق الذى يغار منه دائما ·· يغار من انطلاقه ونجاحه فى عمله ، ولأنه يستطيع دائما أن يجد شيئا يقوله ·· لماذا يغار منه ؟ ·· انه يستطيع أن ينطلق مثله ·· ويتحدث مثله ·· وقد غلبه مرة فى الشطرنج ، ويستطيع أن يغلبه

فى أى شىء ، واستطرد يحيى مدحت وهو يمنحه ابتسامة أكبر :

ـ ازيك يا مدحت ٠٠ وحشتنا ٠٠

ورد أفراد الشلة تحيته ، وهم ينظرون اليه فى دهشة ٠٠ انها المرة الأولى التى يرونه فيها بالقميص والبنطلون ، والمرة الأولى التى يحييهم فيها بهذا الانطلاق ٠٠ المرة الأولى التى يبدو فيها مثلهم ، كواحد منهم ٠٠ وسحبوا دهشتهم سريعا كأنهم قدروا حالته ٠٠ ولم يحاول أحد منهم أن يلقى اليه بكلمة تعزية كأنهم عرفوا أنه يحاول أن يعزى نفسه ٠٠

وشد أحمد مقعدا وجلس بينهم دون أن ينتظر دعوتهم ٠٠ ثم التفت ناحية جرمين وألقى عليها نظرة ، وابتسم بينه وبين نفسه ٠

وقال رؤوف يكمل حديثا قطعه مجىء أحمد :

ـ الامتحان بتاع وزارة الخارجية بسيط خالص ٠٠ زى ماتكون فى مدرسة ابتدائى ٠٠

والتفت اليه أحمد قائلا : انت حاتتعين فى الخارجية ؟ ٠٠

وقال رؤوف : باذن الله ٠٠

وقال أحمد فى بساطة : ليه ؟ ٠٠

وقبل أن يسمع رد رؤوف ، عاد وألقى نظرة على جرمين ٠٠

وقال رؤوف : لأن طول عمرى وانا عايز اتعين فى السلك السياسى ٠

وقال أحمد : علشان تسافر بره ٠٠ مش كده ؟ ! ٠٠

وقال رؤوف فى دهشة لتحدى أحمد :

ـ لا ٠٠ انما لانى غاوى انى ابقى ف الخارجية ٠٠ عندك مانع ؟

وقال أحمد : أصل الواحد لازم يختار شغلة يكون وراها هدف ٠٠ واللى بيشتغلوا فى الخارجية مالهومش هدف الا انهم يسافروا بره ٠

وابتسم أحمد كأنه أعجب بنفسه لانطلاقه فى الحديث ، ثم ألقى

نظرة من طرف عينيه على جرمين ..

وقال رؤوف وقد ضاق بتحدى أحمد : تسمح تقول لى هدفك ايه من وظيفتك اللى فى ادارة المعاشات ؟ ..

وقال أحمد فى بساطة :

ـ مالهاش هدف .. علشان كده عايز أسيبها ..

وقال مدحت كأنه يحاول أن يسخر من أحمد :

ـ وايه الشغلة اللى لها هدف بقى ؟ ..

وقال أحمد وهو يهز كتفيه بلا مبالاة :

ـ لو الواحد فتح محل فول ، أحسن من انه يتوظف فى الحكومة.

ثم عاد ينظر بطرف عينيه الى جرمين ..

وقال رؤوف : طيب افتح انت محل فول ، وأنا اتعين فى الخارجية ، وأبقى آجى آكل عندك ..

وقال أحمد دون أن يهتز : بتوع الخارجية ما بياكلوش فول

ثم خبط بيديه فجأة على مسندى مقعده ، وقام واقفا وهو يشد من صدره نفسا عميقا ، وقال : عن اذنكم ..

ثم سار بخطواته الواسعة المتسكعة الى حيث تجلس جرمين وأفراد الشلة يتبعونه بعيونهم ..

وارتكز أحمد بكلتا يديه فوق المائدة التى تجلس اليها جرمين وهو لا يزال واقفا ، وقال والكلمات ترتعش بين شفتيه ارتعاشة خفيفة ، كأنه يحاول محاولة شاقة جديدة عليه :

ـ انتى قاعدة لوحدك ليه ؟ ..

ورفعت جرمين رأسها من فوق الكتاب ، وابتسمت فى دهشة عندما اصطدمت عيناها بوجه أحمد ، وقالت فى لهجتها العربية المكسرة : هاللو أحمد ..

وقال أحمد والكلمات لا تزال ترتعش فوق ابتسامته :

ـ تسمحى تورينى عنيكى ؟ ..

قالت وابتسامتها تتسع : ليه ؟ ··

قال : لأن ما دام قاعدة لوحدك ، يبقى لازم بتحبى ·· وعايز أشوف فى عنيكى حبك وصل أى درجة ·· ؟ متهيأ لى انه وصل درجة واحد وأربعين ؟ ··

ثم وضع يده على جبينها كأنه يتحسس درجة حرارتها واستطرد قائلا : وريني كده ·· لا ·· ده حب بارد قوى ··

وقالت ضاحكة : يا خيبتك ·· هى اللى بتحب تقعد لوحدها ·

قال وهو يعتدل في وقفته : أنا خيبة ·· طيب قومى اتمشى معايا ·

قالت وهى تغلق الكتاب بين يديها : «له شهيرة شافتك معايا ؟

قال : حا اقول لها انك أختى ! ··

وقالت جرمين ضاحكة : ايه ده كله ·· ده انت ادردحت قوى تعال ··

وقامت واقفة وسارت بجانبه ·· وبنطلونها القصير يزداد هروبا من فوق ساقيها ·· وأفراد الشلة يتبعونهما بعيونهم ·· وأطلق أحدهم من شفتيه صفيرا طويلا ·· وصاح رؤوف وراءهما :

ـ حاسب على الهدف يا أحمد ··

والفت أحمد اليهم ، ورفع ذراعه يلوح لهم بيده ، كأنه يعلن أمامهم انتصاره ·· انتصاره على نفسه ··

وسار أحمد بجانب جرمين فى ملاعب النادى ، وهو يحاول أن يبدو مرحا ·· منطلقا ·· جريئا ·· لا يهمه شىء ·· ولا يختار ألفاظه ·· ويحاول أن يقلد فى حركاته شبان النادى ·· انه لا يقلد ممدوح فحسب ، بل يقلد كل الشبان الذين يعتقد أنهم من جيل ممدوح وعقليته ·· وفوجىء بجرمين وهى تبدو سعيدة لكلامه ·· وتضحك ·· تضحك من كل قلبها ·· وقد كان يعتقد أن مثل هذا الكلام الذى يقوله الآن ، كلام تافه ، سخيف ، فارغ ، لا يصح أن

يقوله ، ولا أن يسمعه ·· كان يرتفع بنفسه عن مستوى هذا الكلام ·· ولكن يبدى أن الكلام التافه هو الذى يعجب البنات ويأخذ بقلوبهن ·· وجرمين تضحك ·· وضحكاتها تسعده ، تقنعه بأنه يستطيع أن يكون مرحا ، خفيف الدم ·· وهو يحس أن جرمين تأخذه معها الى عالم جديد ·· بعيد ·· عالم يستطيع أن ينسى فيه نفسه ·· وينسى عذابه ·· وينسى أحاسيسه التى تؤرقه ··

ووصلا الى الشجرة الضخمة القائمة وسط ملعب الجولف ·· وجلست جرمين على الأرض مسندة ظهرها على جذع الشجرة وقالت : كفاية كده ·· انت مشتنى النهاردة قد اللى مشيته طول عمرى ··

وقال وهو يجلس بجانبها :

ـ انتى حاتفضلى ماشية معايا على طول ··

قالت وهى تضحك : تتعب ··

قال وهو ينظر اليها بعينيه كأنه يتحداها :

ـ حانشوف مين اللى حا يتعب الأول ··

ثم مد جسده ، واستلقى على الأرض ، وقد شبك يديه تحت رأسه ، ليتخذ منهما وسادة ··

وفجأة خطرت له فكرة ·· لماذا لا يقبل جرمين ؟ ·· يقبلها الآن ··

ولكنه لا يحس برغبة فى تقبيلها ·· قلبه لا ينتفض لقبلة ، ولا جسد ·· ثم ان هذه هى أول مرة ينفرد فيها بجرمين وقد لا يكون من اللائق أن يحاول تقبيلها ·· ولكن لم لا ·· حتى لو لم يكن يشتهى تقبيلها ، فلم لا يقبلها لمجرد الشقاوة ؟ ·· ان كل الشبان يقبلون البنات لمجرد الشقاوة ، وقتل الوقت ·· ثم انه رأى شبانا كثيرين يقبلون فتيات فى ملعب الجولف ·· وجرمين بالذات فتاة سهلة يقبلها كل الشبان ··

وجرمين تتكلم ·· انها تصف له حفلة صاخبة كانت ساهرة فيها ليلة أمس ·· ولكنه لا يسمع تماما ما تقوله ·· صوتها يأتى اليه من بعيد ·· وكل فكره محصور فى مشروع القبلة ·· سيجذبها اليه ·· ويقبلها فوق خدها ·· لا ·· لو قبلها فوق خدها فستعتبرها جرمين قبلة عيال ·· وربما سخرت منه ·· ان الشبان المنطلقين لا يقبلون جرمين فوق خدها ·· وانما فوق شفتيها ··

وجرمين لا تزال تتكلم ··

يجب أن يقبلها ··

الآن ·· وهى لا تزال تتكلم ··

انها تتكلم كثيرا ·· ان صوتها يملأ رأسه كالضجيج ·· لماذا لا تسكت قليلا حتى يهدأ ·· يجب أن يسكتها ·· انه لن يستطيع اسكاتها الا اذا قبلها ··

وفجأة ·· بلا مقدمات ·· مد يده وقبض على شعرها ، وجذبها اليه بعنف ، وألصق شفتيه بشفتيها ·· والدماء قد ارتفعت الى وجهه ·· وأنفاسه تتردد بسرعة ·· ولم يدر ماذا يصنع بشفتيها وهما بين شفتيه ·· فظل يضغط عليهما ·· ويضغط ·· ولا يدرى الى أين يؤدى به هذا الضغط ··

وتملصت جرمين من بين ذراعيه ، وخلصت شعرها من كفه واعتدلت جالسة ، وأنفاسها مبهورة من المفاجأة ·· وقالت وهى تساوى خصلات شعرها : ايه ده يا أحمد ؟ حد يعمل كده ؟ ··

وقال أحمد فى كلمات ممزقة ، يحاول أن يدارى ارتباكه ، ووجهه لا يزال محتقنا : أنا كان نفسى أعمل كده من زمان ··

قالت بلهجتها العربية المكسرة : انما انت غشيم خالص ··

ونظرت اليه بكل عينيها ، كأنها تقلب أمام عينيها بضاعه ثمينة مغرية وقالت فى جرأة : تعال اما اعلمك ··

ثم ألقت صدرها فوق صدره برفق ، وقربت وجهها من وجهه ··

وانفاسها الساخنة تطوف حوله كأنها تنفخ فيه النار ·· ثم التقطت شفتيه بشفتيها ·· وأغمضت عينيها ··

وعيناه لا تزالان مفتوحتين ·

وشفتاها تعبثان بشفتيه ، وأنفاسها تسرى فى أعصابه

وبدأت جفونه تسقط فوق عينيه ·· رويدا ، رويدا ·· كأنه يقع تحت تأثير مخدر لذيذ ··

انه ينسى ·· ينسى أنه فى ملعب الجولف ·· وينسى ممدوح ··

وينسى شخصيته الجديدة ، وشخصيته القديمة ··

وينسى أنه أحمد ·· المخدر لذيذ ··

مزيدا من المخدر ·· لا تكفى عنى ·· لا تبتعدى ··

والنار تسرى فى جسده ·· بطيئة ، بطيئة ·· ولكنه يشتعل ·· كل قطعة منه تشتعل ··

ومد ذراعيه ـ بلا تعمد ـ وأحاط خصرها ·· وضمها اليه بقوة ·· مزيدا من القوة ·· انه يعرف الآن طريقه ·· يعرفه وهو مغمض العينين ·· طريق النسيان ··

وزاد من ضغطها اليه ، ثم تحرك فى رقدته ·· يحاول أن يأخذ أكثر ·· وأكثر ·· وابتعدت عنه جرمين ··

واعتدل جالسا ، مادا اليها ذراعيه ، يحاول أن يعيدها الى صدره ·· لا ·· لا تبتعدى ·· انى فى حاجة اليك ·· فى حاجة الى كل هذا ··

وقالت جرمين ضاحكة : كفاية كده ·· ده الدرس الأول

وقال أحمد وهو يأكلها بعينيه ، ويقترب منها :

ـ ما فهمتوش ·· فهمينى تانى ··

قالت وهى تقوم واقفة : لا ··

قال : أصلى غبى ··

قالت : انما لذيذ ! ··

وقام أحمد واقفا بجانبها ، ووجهه يلمع بالانفعال ، كأنه قطعة من النحاس الأحمر مصهورة بالنار ، وقال :

ـ انتى حا تعملى ايه الليلة ؟ ..

قالت : الليلة !! الليلة حا قابل شـاب طويل عريض لذيذ .. لسه فى سنة أولى ..

قال مبتسما : الساعة كام ؟ ..

قالت : الساعة تسعة ونص .

قال : فين ؟ ..

قالت : انت عندك عربية ؟ ..

وأحس أحمد كأن الدنيا كلها ضـاعت من يديه لأنه لا يملك سيارة .. يجب أن يشترى سيارة .. انه شاب ، ومن حقـه أن تكون لديه سيارة .. وقال مبتسما ليدارى احساسه بالنقص .. نقص السيارة :

ـ عندى عشر عربيات .. تلاقيهم واقفين مترصصين فى أول الشارع بتاعنا ..

قالت وهى تلوى شفتيها : قصدك تاكسى .. مش كده ؟!..

قال وهو يطأطىء رأسه : أيوه ..

قالت : ما ينفعش .. نبقى نتقابل فى لاباس ..

وسارا عائدين الى الشرفة المطلة على حمام السباحة .. وهو ينظر اليها بين كل خطوة وأخرى كأنه يستجديها أن تحقنه بالمخدر .. المخدر اللذيذ .. وهى تنظر اليه نظرات نهمة كأنها تعده بالكثير .. وكلامهما ممزق ، كأنهمـا شبعا من الكلام ، وأصبحا فى حاجة الى ما هو أكثر من الكلام ..

واقتربا من حمام السباحة .. ورفع رأسـه فجأة ليجد أمامه شهيرة .. واقفة تنقل عينيها بينه وبين جرمين .. عينان مملوءتان بالدهشة ، والعجب ، واللوم ..

ووقف أمامهـا لا يستطيع أن ينطق ·· أحس كأن يدا عنيفة هزته من نوم عميق ·· نوم هو فىّ حاجة اليه ··

وشهيرة تنظر اليه ولا تتكلم ··

وقالت جرمين فى ارتباك ، والكلمات تتعثر فوق لسانها :

ـ باى باى بقى ·· أنا حاسبقكم ·· ولم يرد عليها أحدهما

وسارت فى خطوات سريعة وبنطلونها القصير يهرب من فوق ساقيها ·

وقالت شهيرة ، وهى لا تزال تنظر فى وجه أحمد كأنها تبحث فيه عن انسان جديد لا تعرفه : البقية فى حياتك يا أحمد ··

وشبك أحمد أصابعه فى حافة بنطلونه ، وثنى خصره وضرب الأرض بقدمه ، فى سخط وملل ، وقال وهو ينظر الى الأرض :

ـ متشكر ··

قالت : أنا ماكنتش عارفة أعمل ايه لما سمعت بالخبر ·· ما قدرتش آجى بنفسى لأنى ما اعرفش اخواتك ·· حاولت اتصل بيك فى التليفون ، كانوا دايما يقولوا لى انك مش موجود ··

قال وهو يزفر ·· انه لا يريد أن يسمع هذا الكلام ·· ولا يريد أن يذكره أحد بأن أخاه قد مات ·· لقد شبع من البكاء على أخيه ·· ضاق بالحزن عليه ·· كفى ·· كفى ·· انه يريد أن ينسى ·· أن يعيش حياته الجديدة ، وشخصيته الجديدة ·· وقال من بين أسنانه : متشكر ··

ونظرت شهيرة فى وجهه ، وقالت : انت مالك يا أحمد ؟ ··

قال · وهو يحفر الأرض ببوز حذائه : ولا حاجة ·· زهقان ··

قالت وهى تبتسم ابتسامة مسكينة : وكنت بتتسلى مع جرمين ؟

قال فى برود : أيوه ·· كنت باتمشى ··

قالت كأنها صفحت عنه : تحب نروح نقعد فى التراس ؟ ··

قال : لا ·· لازم أروح ·· زمان اخواتى مستنيننى على الغدا · أوريفوار ··

وأدار لها ظهره ، وهم أن يبتعد ، فصاحت وراءه : أحمد ··

والتفت اليها وقال فى ملل : نعم ··

قالت فى حنان : خد بالك من نفسك ·· علشان خاطرى ··

ورفع حاجبيه فى دهشة ·· لماذا تقول له هذا الكلام ؟ ·· هل يبدو عليه انه مريض ؟ ·· هل يبدو عليه أنه مجنون ؟ ·· هل يبدو عليه شىء جديد ؟ ·· أم أن كل ما لاحظتـه أنه يرتدى القميص والبنطلون ·· ولكن جرمين كانت معه منذ لحظات ، ولم تلحظ عليه شيئا ·· عاملته على أنه انسان عادى ليس فى حاجة لأن يأخذ باله من نفسه ·· ان جرمين فتاة بسيطة مرحة ، ليست معقدة كشهيرة ·· شهيرة فتاة معقدة ، وتحاول أن تعقده معها ·· ولم يرد على شهيرة ··

عاد يدير لها ظهره ·· وابتعد وهو يحاول أن يسير فى خطوات واسعة بطيئة ·· لكن خطواته لم تخل من الارتباك ··

وخرج من النادى ، وركب سيارة تاكسى :

ــ الروضة يا اسطى ·· شارع الاخشيد ··

وجلس فى السيارة ساهما ·· انه يعرف الآن ما يريد ·· يريد أن ينسى ·· ينسى كل عمره ·· وكل شخصيته ·· ويعيش فى عمر جديد ، وشخصية جديدة ·· مهما حدث ·· يجب أن ينسى ·· ولو اضطر أن ينسى عواطفه ·· وينسى شهيرة ··

ودخل البيت ، وقميصه يكشف عن صدره ، وشعره مهوش فوق رأسه ·· والتقى بأخواته وأمه جالسات فى الصالة الخارجية متشحات بالسواد ، يخيم عليهن حزن ثقيل مفزع ··

ونظر اليهن وعلق بين شفتيه ابتسامة ، وقال ويداه فى خاصرتيه :

ـ مالكم قاعدين زى الغربان كده ، انتم ماخرجتوش النهاردة ؟
وقالت فيفى فى امتعاض : لا ·· ماخرجناش ··
وقال أحمد : أنا عايز أفهم ايه آخرة القعدة السودة دى ؟·· من بكرة مش عايز اشوف حد قاعد فى البيت ··

وقالت الأم فى ضعف وهى تنظر الى ابنها كأنها تلومه .
ـ مش بس لما يفوت الاربعين يا أحمد ؟!··

وصرخ أحمد : اشمعنى الاربعين ؟ ·· ليه مايكونش خمسين والا تلاتين ؟ ·· أنا بدى افهم ايه بيحصل لما يفوت عشرين يوم ؟··

واتسعت عينا الأم فى فزع ·· كأنها سمعت صوت ممدوح وكأنها ترى أمامها ممدوح ·· ولم ترد ·· لقد تعلمت ألا ترد أبدا على ممدوح حتى لا يموت مرة ثانية ··

وقالت نبيلة : أهو الناس كلها بتعمل كده ··

وانفجر أحمد : الناس مغفلين ·· بيعملوا حاجات ، وبيؤمنوا بخرافات ، من غير ما يسألوا أنفسهم هم بيعملوها ليه ، والا بيؤمنوا بيها ليه ؟ ·· أنا ما اعرفش حاجة اسمها اربعين والا خمسين ، واللى مش حاتروح الكلية بكره ، مش حاتروحها طول عمرها ·· وسكتت العائلة من حوله ··

وخطا أحمد فى عصبية ، ودخل غرفته ، وأغلق الباب وراءه ·· وألقى نفسه على المقعد ·· وتنهد فى ألم ·· كأنه يحاول أن يلقى عن صدره عذابا كبيرا ·· ليستريح ·· ليستريح من دور يقوم بتمثيله ·· ليستريح من الحياة كلها ··

والبنات وأمهن مجتمعات فى الصالة ·· صامتات ·· متشحات بالسواد ·· وكلمات أحمد تطرق رؤوسهن فى عنف ·· وتثير فيهن دهشة ·· وخوفا ·· ثم استسلاما ··

وليلى تنظر من خلال باب حجرة الصالون الى البيانو ·· انها لن تمسه بأصابعها ·· لا بعد الأربعين ·· ولا بعد سنة ·· كتب

عليها أن تحرم منه . وقد مرت عليها لحظات خيل اليها خلالها أنها ستجن ان لم تعزف على البيانو .. كانت تريد أن تعزف عليه لتعبر عن حزنها .. عن لوعتها .. عن شقائها .. تريد أن تخاطب ممدوح بالبيانو .. ان الموسيقى هى أقرب سلم الى السماء .. والى سكان السماء .. لماذا يحرمونها من العزف على البيانو .. لماذا يعتبر الناس الموسيقى مجرد تعبير عن فرح .. ورقص .. ان الموسيقى تعبير عن كل العواطف الانسانية .. عن الحزن ، والأسى، والحب ، والموت ..

وهى تريد أن تعزف حزنها ، على البيانو ..

تريد أن تقوم الآن .. حالا .. وتجلس الى البيانو .. وتعزف وتعزف .. الى أن تنفض كل حزنها ، وكل لوعتها ..

الآن .. الآن ..

ان أصابعها متشنجة .. وقلبها يختنق بحزنها ..

ولكنهم لن يسمحوا لها بالعزف على البيانو .. أهلها .. والجيران .. والناس كلهم .. وهى تعرف أين تجد بيانو تعزف عليه .

وستذهب .. وتعزف ..

وخنقتها عواطفها المكبوتة ، فانهمرت دموعها فوق وجنتيها .

ورأت فيفى ونبيلة دموع أختهما .. فشاركتاها البكاء ..

وألقت الأم رأسها بين يديها ، وقالت فى صوت ضعيف .. كأنه صوت صادر من وراء قبر :

ـ قوموا اندهو لأخوكم يا بنات .. خلونا نتغدى .. أنا عارفة بناكل ليه ؟ .. والا عايشين ليه ؟ ..

٣

واجتمعت العائلة حول مائدة الغداء ·· ومقعد ممدوح خال ·· لا يجلس فيه أحد ·· ولا ينظر اليه أحد ·· كأنه قبر أقيم فى البيت·

والكل صامتون ·· لا أحد يتكلم ·· وعيونهم ملقاة فى أطباقهم ·· لا أحد ينظر الى الآخر ·· كأنهم يأكلون نظراتهم ··

وقام أحمد قبل أن يتنــاول الفاكهة ، ودخل غرفتــه ، وأغلق بابها عليه ··

وقامت البنات والتففن حول أمهن فى البهو الخارجى ، كأن كلا منهن تستند على الاخرى فى حزنها ·· وتخشى أن تبتعد عنهــا حتى لا تقع من الحزن ··

وكانت الساعة الرابعة مساء عندما انتفضت ليلى واقفة بين اختيها وأمها ، وقالت وهى تزفر كلماتها كأنهــا تتخلص من بخار ثقيل يملأ صدرها : أنا نازلة البلد ··

والتفتت اليها فيفى ونبيلة ، كأنهما يهنئانها على جرأتها ·· كأنها عبرت عن حاجة فى نفس كل منهما ·· ورفعت الأم رأسهــا ونظرت الى ابنتها فى عتاب ، ثم عادت وخفضت رأسها ، دون أن تتكلم ··

وقالت فيفى فى ضعف كأنها تخاف أن تقف فى وجه أختها :

– مش تستنى لبكره ، وتبقى تنزلى الصبح ··

وقالت ليلى فى حدة : لا ·· أنا نازلة دلوقت ! ·

ودخلت غرفتها فى خطوات عصبية ، ووجهها صاخب ، كأنها تتحدى نفسها ·· ووقفت أمام المرآة ترتدى ثوبها الأسود الوحيد

الذى أعدته للخروج ·· ولم تلمح انعكاس لون ثوبها الأسود على بشرتها البيضاء ، فتزداد بياضا ·· ونورا ·· ولم تلمح وجهها وقد خلا من المساحيق ، كأنها خرجت به لتوها من الحمام ·· نضرا ·· فى نضرته حزن عميق ·· كزهرة برية وجدت نفسها وحيدة فى الصحراء ·· لقد زادها الحزن واللون الأسود جمالا ·· وتفتحا ·· كأنها كبرت عاما أو عامين ·· ونضجت ··

ومدت أصابعها تجمع أشعة الشمس المنسكبة فى ضفائرها فوق رأسها ·· وهى لا ترى أيضا صورتها فى مرآتها ·· انها لا ترى ما هو أمامها ، انها لا ترى الا داخل نفسها ·· ترى بحرا من الدموع تريد أن تفر منه ·· وترى قضبانا من الحزن تريد أن تحطمها ·· انها لم تعد تحتمل مزيدا من الدموع والحزن ·· لم تعد تحتمل ·· لقد مرت بها ساعات تمنت فيها أن تموت لتلحق بممدوح ·· كأن هذا هو طريق الخلاص الوحيد ·· أن تموت وتلحق به ·· ولكنها لم تمت ، ولم تلحق به ·· انها لا تزال على قيد الحياة ·· وليس ذنبها أنها لا تزال على قيد الحياة ·· والحياة لا يمكن أن تطاق اذا ما أصبحت كلها دموعا وحزنا ·· لا يمكن ·· هذا اقوى مما يحتمله البشر ··

وخطفت حقيبة يدها ، وفتحتها لتطمئن الى أن فيها كيس نقودها الصغير ·· ثم خرجت الى الصالة ، وقالت دون أن تلتفت الى أحد : أنا نازلة بقى ··

وقالت نبيلة : ابقى فوتى اشترى لى جوز شراب فيميه ··

وقالت ليلى : حاضر ··

وقالت فيفى كأن أختها قد شجعتها : وخدى فكره عن الجزم ·· عايزه جزمه سوده بكعب أمريكانى ··

وقالت ليلى : حاضر ··

وقالت الأم تنظر الى ابنتها فى ارتباك ، كان على لسانها كلاما

تخجل من أن تقوله ، ثم نكست عينيها ، وقالت فى صوت خفيض مسكين كأنها تستأذن ابنها ممدوح أن يسمح لها بأن ترتد الى الحياة لحظات : وفوتى بالمرة على الخياطة ·· شوفى عملت ايه فى الفساتين ·· وقولى لها تبقى تيجى تعمل لى البروفة هنا ··

وقالت ليلى : حاضر ··

واستطردت الأم : معاكى فلوس ؟ ··

وقالت ليلى وهى تتجه الى الباب : أيوه ·· معايا ··

وقالت الأم فى توسل أقرب الى الاستجداء : ماتتأخريش ياليلى·

وقالت ليلى وهى تخرج : حاضر ··

ونزلت السلم ، وقد ضاع من رأسها كل ما طلبته منها أختاها وأمها ·· انها تعلم الى أين هى ذاهبة ·· انها ذاهبة الى الشقة ·

وهى ذاهبة الى هناك لتعزف حزنها على البيانو ·· انها لا تستطيع أن تعزف على البيانو فى بيتها ·· انهم يمنعونها ·· أهلها ·· والجيران ·· والناس ·· والتقاليد ·· كل هؤلاء يمنعونها كأنهم قد حكموا عليها بأن تحزن كما يريدون لها الحزن ·· أن ترتدى السواد ، وتمسح الأصباغ عن وجهها ·· ولا تعزف البيانو ·· ولكنها ستحزن كما تريد هى ·· وحزنها هو الذى يدفعها الى البيانو ·· !

ورغم ذلك فهى تحس كأنها ترتكب جريمة بذهابها الى الشقة ·

انها تريد أن تذهب الى هناك ، دون أن تتعمد ·· تريد أن تجد نفسها هناك دون أن تتحمل الاحساس بتعمد الذهاب ··

ولذلك لم تفتح كيس نقودها الصغير ، لتطمئن الى أن مفتاح الشقة فيه ·· كأن ممدوح يراقبها ·· يطل عليها من السماء ، ليعد عليها حركاتها ··

ولم تتصل بفتحى لتطلب منه أن يقابلها هناك ·· كأنها لا تريد لقاءه ·· كأن كل ما تريده من هناك هو أن تعزف على البيانو ··

وكانت تعلم أنها تخدع نفسها ‥ انها تريد أكثر من العزف على البيانو ‥ انها تريد فتحى ‥ ان فتحى هو النغمة التى تعزفهـا كلما جلست الى البيانو ‥ فتحى هو وحده الذى يستطيع أن يردها الى عالم الأحياء ‥ هو وحده الذى يستطيع أن يقنعها بأن الحياة لا تزال تسير ، وأنها لا تزال حية ‥ ولكنها تخجل من رغبتها هذه ‥ كأنها ستغضب ممدوح ‥ كأنها ستقلقه فى قبره ٠

ونزلت من السيارة الأجرة فى ميدان سليمان باشا ‥ وسارت فى اتجاه شارع شامبليون ، وهى تحاول أن تقنع نفسها بأن هناك قوة أكبر منها تدفعها رغم ارادتها ، الى الشقة ‥

وتشاغلت فى طريقها بالنظر الى نوافذ الحوانيت ‥ وأخذت تتباطأ فى خطواتها ، كأنها تمعن فى اقناع نفسها أنها ليست ذاهبة الى الشقة ‥ ولا تتعمد الذهاب الى الشقة ‥

ووجدت نفسها أمام باب العمارة ‥

ولم يعد أمامها مجال لتستمر فى خداع نفسها ‥

دخلت ‥ ونظرت الى البواب ، نظرة غريبة ، كأنه أول رجل تلتقى به فى عالم الأحياء ‥ ودخلت المصعد ‥ وضغطت على الزر الخاص بالدور السادس ، وهى ساهمة ‥ انها تشعر الآن شعورا كاملا بما تفعله ‥ انها تهرب ‥ تهرب من ممدوح ، وتهرب من الحزن ، وتهرب من الدموع ‥ انها تحاول أن تنفض عن صدرها هذا الحمل الثقيل ‥ تريد أن تنطلق ‥ أن تضحك ‥ نعم ‥ تريد أن تضحك ‥ ضحكا عاليا فيه كل ضجة الحياة ‥ فيه أبواق السيارات ، وأزيز الترام ، وصخب الزحام ، وهمس الحب ، ودوشة الاذاعة ‥ ورغم ذلك فلا شىء فيها يتجمع للضحك ‥ كأنها لن تستطيع أن تضحك أبدا ‥ كل شىء فيها راكد ، متهاو ‥ كأنها تحمل فى داخلها أطلال الحياة ‥

ووقفت أمام باب الشقة ‥ وفتحت حقيبتها ‥ والتقطت كيس

نقودها دون أن تنظر اليه ·· وأخرجت منه المفتاح دون أن تنظر اليه أيضا ·· خجلت من النظر الى المفتاح ، كأنه مفتاح يخرجها من ثوبها الأسود ·· من بيت الحداد الذى تعيش فيه مع ممدوح ·· ودخلت الشقة ··

ووقفت مستندة بظهرها الى الباب الذى دخلت منه ·· وطافت بعينيها حولها ·· لا ··

لا شىء يضحك حولها ·· ليست هنا حياة ·· كأن الموت يتعقبها فى كل مكان ·· موت ممدوح ·· والموت هنا ريحه أثقل ·· انها تحس بوحدتها مع الموت ·· تخاف وحدتها ·· تريد أن تعود الى أختها وأمها ، لتستند اليهن فى حزنها ··

وسارت تزحف بخطواتها ·· والجدران صامتة ·· والمقعد الوحيد صامت ·· ومنفضة السجائر مملوءة بأعقاب كأنها جثث صغيرة ميتة ·· والبيانو لونه أسود ··

وفتحت باب الغرفة الوحيدة ·· وأطلت فيها ، ورأت قميص نومها ، والروب دى شامبر ، ملقيين فوق المقعد ·· كأنهما فارغان من الحياة ، القميص والروب اللذان لم تلبسهما أبدا فى هذه الشقة ·

وسحبت نفسها من الغرفة ·· واستدارت ·· فاصطدمت عيناها بالبيانو ·· ان البيانو لونه أسود ··

ودخلت الى المطبخ والحمام ·· والسكون يشتد من حولها ·· والهواء يزداد ثقلا ·· وهى تدب الارض بقدميها ، كأنها تحاول أن تنشر ضجيج الحياة حولها ··

وعادت الى الصالة ·· واصطدمت عيناها بالبيانو ·· ان البيانو لونه أسود ··

لماذا يصبغون البيانو باللون الأسود ·· لون الحداد ·· لون الموت ·· لماذا لا يصبغونه بلون الموسيقى ·· لون المرح ·· لون

الحياة ·· اللون الأبيض ·· الأحمر ·· الأخضر ··

وألقت نفسها على المقعد الوحيد ، وأسندت رأسها فوق كفها ·

انها تريد أن تبكى ·· لا ·· لن تبكى ··

لقد جاءت الى هنا لتعزف حزنها على البيانو ·· لتبكى أنغاما ·

ولكنها لا تستطيع أن تقوم الى البيانو ··

وهى تحس أن أصابعها قد انفصلت عنها ·· كأنها تعيش فى عالم وأصابعها فى عالم آخر ·· تعيش فى عالم جاف ليس فيه موسيقى ، وأصابعها تعيش فى عالم له صوت ·· عالم الموسيقى ·

وهى تريد أن تبكى ·· لا ·· لن تبكى ··

ونزعت نفسها من فوق المقعد كأنها تتحدى دموعها ·· واقتربت من البيانو ·· ونظرت اليه نظرات تائهة ، وهى تحاول أن تستجمع شجاعتها وارادتها ·· ثم أخذت تضغط أصابعها بعضها ببعض ، كأنها تحاول أن تلصقها بيديها ·· ثم جلست على مقعد البيانو وهى تتنهد تنهيدة كبيرة ·· لو لم يكن البيانو لونه أسود ، لكان أسهل عليها أن تعزف عليه ·· ولكن لونه أسود ·· كالتابوت ·· كالحزن ·· كالموت ·· انه يجر الدموع من عينيها ··

ولكنها لن تبكى ··

وفتحت غطاء البيانو مرة واحدة ·· ونقرت على مفتاح من مفاتيح النغم بأصبع واحدة ، دون أن تنظر اليه ··

وصدر صوت ، كأنه أنة يتيم ·· تملأ الشقة كلها ··

ولم تسمع الصوت ·· تعمدت ألا تسمعه ·· ووضعت أصابعها العشر فوق مفاتيح البيانو ، وبدأت تعزف ·· لحنا بطيئا حزينا لمندلسون ، لم تتعمد اختياره ، ولكنه صدر من قلبها ·· وأحست وهى تعزف أنها تتحدث مع ممدوح ·· وتتحدث مع نفسها ·· وتتحدث مع الله ·· وتتحدث مع الحياة ·· انها تتحدث ·· وتشكو ·· وتروى حكاية ·· وأصابعها تقفز كالعصافير البيضاء ··

والدبلة الذهبية تلمع فى اصبع يدها اليمنى ·· الدبلة التى تحمل اسم فتحى ·· ان فتحى معها ·· انها ليست وحيدة ·· ان الحياة لا تزال مستمرة ··

ووجدت نفسها تعزف لحنا أسرع ·· لحنا صاخبا ·· كأنه الثورة ·· انها ثائرة على كل شىء ·· ثائرة على حزنها ·· وعلى دموعها ·· وعلى نفسها ·· وعلى القدر ·· بل ثائرة على سمدوح لأنه مات وترك وراءه كل هذا العذاب ·· ثائرة ·· وهى تملأ الدنيا بثورتها ·· والأنغام تملأ الشقة ضجة ، وحياة ، ونبضا ··

وهى تريد أن تستمر فى العزف ·· لن تتوقف أبدا عن العزف·

تحس أنها لو توقفت عن العزف ، فستتوقف الحياة كلها ··

وقطرات من العرق تنبثق فوق جبينها ·· وعيناها الملونتان تبرقان ·· وحاجباها معقدان فوق عينيها ·· وهى تعزف ·· وتعزف ·· كأنها تجرى ·· وانفاسها تلهث ·· وخصلات من شعرها قد سقطت ··

انها لم تعد تستطيع أن تتوقف عن العزف ، حتى لو أرادت ان أصابعها مندفعة من تلقاء نفسها لم تعد تحس بها

وفتح الباب ·· ودخل فتحى ··

ووقف خلفها صامتا ينظر اليها بعينين خافقتين ··

وهى لا تزال مستمرة فى العزف ··

انها تشعر أن شيئا قد حدث ·· قطعة من عقلها تحدثها أن انسانا قد دخل ·· وأن هذا الانسان قد يكون فتحى ·· ولكنها لا تزال مستمرة فى العزف ··

ثم ·· ثم أدارت رأسها ·· ورأته

ومرة واحدة كفت أصابعها عن العزف ·· ووضعت ذراعيها فوق مفاتيح الأنغام وألقت رأسها فوقهما ··

وصدرت عن البيانو آهة ضخمة ، كأن البشر كلهم يتأوهون

وبكت ليلى .. دموعها أغزر مما كانت فى أى يوم ..

وانحنى فتحى بجانبها .. ركع على الأرض فوق احدى ركبتيه وأخذ يمسح بكفه على رأسها وظهرها .. وهو يكاديبكى معها ..

وأخذ يردد فى صوت محشرج :

– ليلى .. ليلى .. كفاية .. كفاية .. بصى لى يا ليلى ..

وهى لا تزال تبكى

ثم رفعت رأسها ، ومالت اليه ، ودفنت وجهها فى صدره دون أن تنظـر اليـه .. وعادت تبكى وهو لا يزال يربت على رأسها وظهرها .. وشفتاه تهمان بتقبيلها .. ولكنه يحجم .. كأن بين يديه شيئا مقدسا لا يستطيع أن يمسه بشفتيه ..

ولكن شفتيه تقتربان ثم تستقران فوق رأسهـا .. ثم يزحف بهما ليصل الى وجهها .. ويبحث عن دموعها ليلتقطها بشفتيه .. حبات ساخنة من الدمع .. ورفع وجهها اليه ليتمكن من التقاط مزيد من الحبات الساخنة .. وهى مغمضة العينين .. وهو قبلها فى كل مكان يستطيع أن يصل اليه .. كأنه يبخل على دموعها من أن تسقط على الأرض .. فيشربها .. ويشرب مزيدا منها .. ولا يدرى كيف يواسى حبيبته ؟ .. ماذا يقول ؟ .. ان قلبـه ينفطـر لحزنها .. ينشق .. ولكنه لا يستطيع الا أن يشرب دموعها .. وهى مستسلمة ..

تعطيه مزيدا من الدموع ليشربها

ولمسات شفتيه فوق وجهها كأنها لمسات الحياة ..

واقتربت شفتاه من شفتيها .. وترددت الشـفاه برهة .. ثم التقت .. قبلة هادئة .. ولكن الهدوء لا يلبث أن يكون ضجيجا وأعصابها مرهفة .. ضعيفة .. انها فى قمة الاحساس .. قمة الاحساس بالحزن .. والاحساس بالنشوة .. انهـا دائمـا فى القمة .. والفتاة الحزينة هى أضعف الفتيات ..

والضعف يسرى فى كل بدنها ·· ضعف لذيذ ·· كالنشوة انها لم تحس بقبلته أبدا كما تحس بها اليوم ·· تريد أن تنام العمر كله بين شفتيه ·· وأن تترك احساسها ينطلق الى قمة أخرى ·

ولكن يجب أن تقاوم ·· ليس هذا وقته ··

واستجمعت كل ارادتها ، وأبعدت شفتيها عن شفتيه ، وقالت فى توسل وهى تخفى عينيها عنه :

ـ لا يا فتحى ·· لا ·· بلاش ·· سيبنى اعمل معروف ·

ونظر اليها صامتا ، وشفتاه تنظران الى شفتيها ··

ولم تستطع أن تقاوم سوى برهة ··

عادت وألقت شفتيها فوق شفتيه ··

وسقطا على الأرض ·· وثوب حزنها منتشر حولها كأنه ليل يلفهما ··

واستبدت بها القبلات ·· قبلة واحدة حوت كل القبلات

وهدأ كل شىء ·· هدأت أعصابها ··

وهدأ حزنها ·· وهدأت الحياة ··

وقال ورأسها يتوسد ذراعه ، ووجهه يطل فوق وجهها ، وبين شفتيه ابتسامة صغيرة : أقدر أطلب منك حاجة ؟ ··

قالت فى استرخاء : ايه ؟ ··

قال : ابتسمى ··

وقفزت ابتسامة صغيرة فوق شفتيها رغم ارادتها وأدارت رأسها وخبأت وجهها فى طيات ذراعه ، كأنها خجلت من ابتسامتها ·

قال وابتسامته تتسع : مرسى ··

قالت ووجهها لا يزال مختبئا فى ذراعه ، وكلماتها مسترخية لا تكاد تصل الى شفتيها حتى تنام فوقهما :

ـ أنا نسيت ازاى ابتسم وازاى أضحك ·· متهيأ لى انى

عمرى ما ضحكت ولا ابتسمت ·· متهيأ لى انى من يوم ما اتولدت وأنا لابسه فستان اسود ··

واكفهر وجهها كأنما مرت عليه سحابة مثقلة بالدموع ·· ومد يده يساوى بها خصلات شعرها المهوش فوق رأسها ·· وقال وهو يحاول أن يخفف عنها : بسيطة ·· حابتدى اعلمك الضحك من جديد ·· شوفى يا ستى ·· افتحى شفايفك فتحة طولها ثلاثة سنتى ·· وقولى : ها ·· ها ·· ها

ولم تضحك ·· رفعت رأسها وقالت فى صوت مخنوق وطبقة من الدموع فى عينيها : انت ما تعرفش أنا حالتى كانت ازاى ·· كنت حاسة انى أنا اللى مت ·· حسيت انى رحت فى دنيا تانية ·· وانى لوحدى خالص ·· ماكنتش حاسه بحد من اللى حوالى ·· لا بامى ولا باخواتى ولا بالناس الكتير اللى مالبين البيت ·· وكنت بافكر فيك ·· فكرت فيك من ساعة ما شفت ممدوح والناس شايلينه ·· كنت محتاجة لك ·· عمرى ما كنت محتاجة لك أد الايام دى ·· حسيت ان مابقاش حد فاضل لى الا انت ·· وكنت حاسة انك بعيد عنى ·· بعيد قوى ·· كنت حاسه انى مش حاقدر اوصل لك أبدا ·

وضاعت ابتسامته من فوق شفتيه ، وأدار عنها عينيه ، وقال فى صوت متهدج :

ـ أنا عمرى ماكنت بعيد عنك يا ليلى ·· كل ساعة وكل دقيقة كنت جنبك ·· كنت بافكر فيكى ·· كنت دايما أسأل نفسى . يا ترى عاملة فى نفسها ايه ·· يا ترى لسه تعيط والا بطلت عياط ·· يا ترى عارفه تنام والا مابتنمش ·· ويوم الجنازة كان متهيأ لى اسأل أخوكى أحمد علشان يطمنى عليكى ·· ورجعت البيت ولقيت مراتى رجعت من المعزى ، قعدت اسألها ميت سؤال ، يمكن تجيب سيرتك وتطمنى ·· لكن ماجابتش سيرتك ، زى ماتكون كانت

قاصدة تعذبنى ·· وبقيت بعد كده زى المجنون ·· عارف انك محتاجة لى ، وعارف انى لازم أكون جنبك ·· انما مش قادر أوصل لك ·· مش قادر حتى اكلمك فى التليفون ، علشان أقولك انى مش حبيبك بس أنا أخوكى وأبوكى ·· أنا كل الناس ·· وما دام أنا جنبك يبقى كل الناس عايشين ··

وألقت رأسها على صدره ، وضغطت عليه بوجهها ·· وسادت بينهما فترة صمت عميق ·· كأن كلا منهما يرتاح بين ذراعى الآخر ، بعد عناء طويل ··

ثم قالت كأنها تتنهد :

ـ تعرف أنا كنت بافكر فى ايه ؟

قال وذراعه لا تزال تضغطها الى صدره : فى ايه ؟ ·

قالت فى حماس وهى تبتسم كأنها تعرض أجمل أفكارها :

ـ فكرت اننا نتجوز ··

وارتفعت ذراعه التى تضمها اليه ، وارتعشت رموشه فوق عينيه ·· وحاول أن يتكلم ·· ولكن ليلى استطردت قائلة وهى لا تزال فى حماسها :

ـ علشان ماتسبنيش وحدى تانى ·· علشان ما نبعدش عن بعض ·· ما حدش عارف الدنيا حايحصل فيها ايه يا فتحى ·· اللى حصل لممدوح خلانى عايشة خايفة ·· مش عارفة ايه اللى يمكن يحصل بكره ·· ايه اللى ممكن يحصل بعد ساعة ·· بعد دقيقة ، ومش ممكن بعد كده أقدر أعيش خايفة وانت بعيد عنى ··

قال وصوته يتعثر فى حلقه :

ـ اللى أوعدك بيه انى حافضل طول عمرى جنبك ··

قالت كأنها لم تسمعه :

ـ والغريبة انى كنت كل ما أفكر فى ممدوح ، افكر انى اتجوزك كل ما اعيط وأبقى مش قادرة أحوش نفسى من العياط ، كل

ما اصمم اننا نتجوز ·· ماكنتش لاقية حاجة تعوضنى عن ممدوح
الا جوازنا ·· وبقيت مكسوفة من نفسى · مكسوفة من انى أفكر فى
الجواز وأخويا ميت ·· انما كنت معذورة ·· كان غصب عنى ··
وكنت مستغربة من نفسى ··

وزم شفتيه ، وتنهد فى ضيق وسكت ··

وعادت تقول : أنا فكرت فى كل حاجة ·· مش عايزاك تسيب
مراتك ·· تفضل معاها ·· ونتجوز برضه ··

وارتخت ذراعه التى يضمها بها ·· وسكت ··

واستطردت كأنها تحادث نفسها :

ـ أنا مش حاقدر أتجوز عصام ·· مش ممكن ·· فوق طاقتى
·· انت ما تعرفش حالتى بتبقى ازاى لما يلمسنى ·· جسمى كله
بيقشعر ·· ثم مين عارف يمكن أموت بكره ، زى ما مات ممدوح
·· أقابل ربنا ازاى ·· أقول له ايه ·· مش ممكن أفضل خايفة من
الدنيا ، وخايفة من الآخرة ··

وسحب ذراعه من تحت رأسها ، وقام واقفا ، وقد غرق وجهه
فى سحابة داكنة · ·وقامت وراءه ووقفت بجانبه ، ومست كتفه
بأناملها ، وقالت فى توسل :

ـ أنا عارفة انك مش موافق على الكلام اللى باقوله ·· انما
كل اللى أنا عايزاه انك تفكر فيه ··

وهز كتفيه وقال فى أسى : انتى عبيطة ··

قالت فى دهشة دون أن تغضب : عبيطة ليه ··

قال وقد بدأ صوته يحتد ، وقلبه ينتفض :

ـ عبيطة علشان مش عارفة انى بافكر فى الكلام اللى بتقوليه
من قبل ما تقوليه ·· بافكر فيــه من يوم ماحبيتك ·· بافكر انى
أتجوزك ، واخدك واهرب بيكى فى بلد تانيــة ·· وما فيش حاجة
مجننــانى ومعــذبانى الا انى مش قادر اتجوزك ·· ومش ممكن

اتجوزك ٠٠ وقلت لك ميت مرة انى خايف من اليوم اللى ضرورى حاتسيبينى فيه ٠٠ اليوم اللى حاتتجوزى فيه واحد تانى ٠٠ انتى بتقولى ان جسمك بيقشعر لما عصام بيلمسك ، ومابتفكريش أ بيحصل لى ايه لما باتصوره وهو بيلمسك ٠٠ باتخنق ٠٠ سكاكـ بتقطع فى جسمى ٠٠ واقعد مستنى اليوم اللى جسمك مش حايقشعر فيه لما جوزك يلمسك ٠٠ اليوم اللى حاتحبيه فيه وتسيبينى ، تستغنى عنى ، ترمينى زى فردة الشراب القديمة ٠٠

وقالت وفى عينيها جزع : أنا عمرى ما حاسيبك وانت عارف ٠

قال وهو يضرب بقبضته فوق حافة البيانو : أنا مش عارف حاجة ٠٠

ثم التفت اليها واستطرد قائلا وهو أشد احتدادا :

ــ دى أول مرة تطلبى منى الجواز ٠٠ عارفه ليه ٠٠ لأنك حاسة انك حاتسيبينى ٠٠ الأول ماكنتيش بتجيبى سيرة الجواز لأنك كنت متأكدة اننا مش حانسيب بعض ٠٠ سواء اتجوزنا والا ماتجوزناش ٠٠ انما انتى اتغيرت ٠٠ واللى غيرك مش انك خايفة من ربنا ٠٠ اللى غيرك انك حاسة انك ماتقدريش تستحملى حبك أكتر من كده ٠٠ ماتقدريش تعيشى عيشتنا المهزوزة ٠٠ كان زمان حبك أقوى من عذابك ٠٠ دلوقت عذابك أقوى من حبك ٠٠ وعايزه تتخلصى من العذاب ٠٠ وأنا العذاب ٠٠

قالت وقد اغرورقت عيناها بالدموع : وانت الحب ٠٠

قال وهو يدير رأسه عنها : الحب مابقاش كفاية ٠٠ لازم جواز ٠

قالت ودموعها تسيل فوق وجنتيها :

ــ ماتقولش كده يا فتحى ٠٠ انت عارف انى ماقدرش أستغنى عنك ٠٠ عارف انى باحبك ٠٠ واذا كنت فكرت فى الجواز ، فده من ضيقتى ٠٠ انت كمان بتقول انك بتفكر فى الجواز ٠٠ احنا

الاتنين بنفكر فى أمل ·· يمكن الأمـل ده مايتحققش · انمـا حانفضل طول عمرنا نفكر فيه ·· وعايشين فيه ··

وسكتت برهة ، ثم قالت ، وهى تدعى المرح كأنها تحاول أن تخفف عنه :

ـ على كل حال أنا متجوزاك ·· تحب تشوف دبلتى !

ولم يرد ·· ظل مديرا ظهره لها ··

وعادت تلمس كتفه بأناملها ، وقالت فى توسل : فتحى

والتفت اليها ، وحاجباه معقدان ، وعيناه معكرتان كبحيرتين سوداوين ألقى فى كل منهما حجر ··

واستطردت وهى تغتصب من تحت دموعها ابتسامة صغيرة :

ـ أقدر اطلب منك حاجة ؟ ··

قال وشفتاه مزمومتان كأنه يقطع بهما أنفاسه : ايه ؟

قالت : ابتسم ··

وابتسم ·· انفرجت أسارير وجهه ، كأنه لا يستطيع أن يرد لها طلبا ·· وألقت نفسها فوق صدره ، وقالت وهى تلف ذراعيها حول عنقه :

ـ أنا طهقت من العياط والتبويز ·· مش عايزة أشوفك مبوز أبدا ·· وماتخلنيش أبوز أبدا ·· على الأقل لمدة شهر ··

قال وهو يضمها اليه : خليها سنة !

وأسند خده على خدها ·· واستطرد وهو يتنهد

ـ أنا مش عايز أفكر ·· ومش عايزك تفكرى ·· سيبى الأيام تفكر لنا ·· الظروف هى اللى حاتودينا وتجيبنا ·· ومش ممكن حانكون أقوى من الظروف ··

قالت وهى تبعد رأسها عنه ، وبين شفتيها ابتسامة كبيرة

ـ تعرف أنا بافكر فى ايه دلوقت ·· بافكر انى أنزل قبل المحلات ما تقفل ، أحسن ماما واخواتى كل واحدة مكلفانى بحاجة ·

ونظرت الى ساعتها الصغيرة المعلقة فى يدها ، وقالت :

ـ ياه ·· الساعة ستة ونص ·· مش حالحق ، زمان الدكاكين قفلت ·· باى باى بأه ·· بكره حاشوفك عشرة ونص ·· الصبح ·

وأخذت تساوى خصلات شعرها ، ثم شبت على أطراف أصابعها ، وقبلته قبلة سريعة فوق فمه ·· واستدارت بسرعة كأنها تخشى ان تباطأت أن تعود الى مناقشته ·· وما كادت تصل الى الباب ، حتى صاح وراءها :

ـ استنى ·· استنى ·· فستانك كله تراب ··

ولحق بها ، وانحنى ينفض عن ثوبها الأسود بقعا رمادية علقت بها عندما كانت راقدة على الأرض كأنه ينفض الأتربة عن حزنها ··

وانحنت تنفض معه الثوب ·· ثم اعتدلا ·· وعاد يقبلها · وقال : بكره عشرة ونص ·· حاسمعك لحن جديد لسه ما حدش سمعه ·· وخرجت ··

وسارت فى الطريق وهى تحس أنها عادت الى الحياة ·· لم تكن سعيدة ، ولكنها عادت الى الحياة ·· عادت الى مشكلتها ·· كأن الحياة ليست سوى مشكلة ··

وجالت جولة صغيرة حول الحوانيت ، ووجدت أن معظمها قد أقفل ·· ثم سارت فى خطوات سريعة الى أن وصلت الى محل الخياطة فى عمارة وهبه بشارع قصر النيل ·· وصعدت اليها · وأبلغتها رسالة أمها ، وهى واقفة على الباب ، ثم نزلت بسرعة وركبت سيارة أجرة ، الى البيت ··

ودخلت الى أختيها فى غرفتهما ··

وصاحت نبيلة وكأنها نسيت حزنها عندما رأت أختها :

ـ جيبتى لى الشراب ؟

وردت ليلى :

ـ ماجبتش حاجة ·· فضلت قاعدة عند الخياطة لغاية الدكاكين ما قفلت ·· ولوت نبيلة شفتيها ، وقالت فيفى : شاطرة ··

وجاءت الأم من غرفتها وطرحتها السوداء تلف عنقها ، وقالت لليلى : مدام مارى قالت لك ايه ·· ؟

قالت ليلى وهى تمد أصابعها لتفك ضفيرتها :

ـ بتقول انها حاتضرب تليفون ، أول البروفة ماتجهز ··

وسمعن جرس الباب يدق ·· جاء محمد السفرجى يقول لهن

ـ الأستاذ أمين عبد السيد ··

وقالت الأم بسرعة : خليه يتفضل فى الصالون ·

ثم التفتت الى فيفى قائلة : قومى يا فيفى اقعدى معاه لغاية ما اخوكى يلبس ··

وانفجرت فيفى قائلة وفمها ملىء بالسخط :

ـ جاى ليه ده ·· عايز ايه ·· مش كفاية اللى حصل لنا من وشه ·· ماكفاهش ممدوح ·· جاى ياخد مين النهارده ·· وش الموت ده ··

وقالت الأم فى جزع : ماتقوليش كده يا فيفى ·· مايصحش

وقالت نبيلة : حرام عليكى يا فيفى ·· ايه الكلام ده ·· ؟

وقالت فيفى : مش عايزه أشوفه ·· مش عايزه أشوف خلقته أبدا ··

وقالت الأم : عيب يا بنتى ·· ده جاى يؤدى الواجب ··

وقالت فيفى صارخة : ورحمة ممدوح مانا قايمه من حتتى ولا حاشوفه ··

وبهتن ·· وأطلت من عينى الأم نظرة كأنها نظرة رعب ·· وارتعشت رموش ليلى ·· ووقفت نبيلة وقد وضعت يدها على فمها كأنها تكتم صرخة ··

وأخذت كل منهن تردد تحت لسانها ·· ورحمة ممدوح ·
ورحمة ممدوح ·· ورحمة ممدوح ·· والكلمة تملأ رؤوسهن كأنها الصدى الرهيب ·· انه قسم جديد ، لم تردده احداهن من قبل ، ولم يخطر على بال احداهن ·· انه شيء جديد فى حياتهن ·· كلمة جديدة على أطراف ألسنتهن ·· وكل منهن ترددها فى سرها ، كأنها تجربة · ·كأنه ثوب جديد تقيسه ، نفس الاحساس عندما وقفت كل منهن أمام المرآة لأول مرة تقيس ثوبها الأسود ·· ثوب الحداد ·· احساس تختلط فيه الحياة بالموت ·· الاقبال على الحياة ، والأسى أمام الموت ·· لقد أحست كل منهن أنها تتميز عن بقية البنات بثوبها الأسود والآن تحس كل منهن بأنها تتميز عن بقية البنات بأنها تستطيع أن تقسم برحمة ممدوح ·· ورحمة أخوها ·

وطفرت الدموع من عينى الأم وقالت فى لوعة :

ــ بلاش يا بنتى ·· خليكى ··

وقالت نبيلة : أنا حاقابله ··

وقالت ليلى : أنا ما اقدرش أقابله ·· أنا خلاص قلعت ، وفكيت شعرى ·· وانسحبت الأم من أمام بناتها فى صمت ··

ووقفت نبيلة تساوى شعرها أمام المرآة ، وقالت لفيفى ووجهها يحمل الأسى :

ــ أحب أقول لك انك ظالمة أمين ·· ده راجل كويس ·· ووقف معانا زى ما يكون واحد من العيلة ··

وقالت فيفى : ده نحس ·· شؤم ·· أنا دايما بختى كده ··

وخرجت نبيلة من الغرفة ··

وجلست ليلى فوق سريرها صامتة ، ساهمة ، تنظر الى الدبلة الذهبية فى أصبعها ، كأنها تخاطبها ··

وتجمعت فيفى فى ركن من فراشها وقلبها يخفق ، ونظراتها مضطربة ·· انها تعلم أنها كانت قاسية فى حكمها على أمين ، تعلم

أن ليس له ذنب فى موت ممدوح ·· ورغم ذلك فحزنها على أخيها يدفعها الى أن تعاند نفسها ·· والعناد يدفعهـا الى تحميل أمين مسئولية موت أخيها ·· كأنها يجب أن تبحث عن شخص مسئول عن موته ، ولم تجد أمامها الا أمين ·· ربما لأنه أقرب الناس اليها ·· ربما لأنه كان الشخص الذى يستحوذ على كل تفكيرها عندما وقعت الحادثة ·· ولكنها تظلمه ·· وستستمر فى ظلمه ·· ربما لأن الظلم هو المتنفس الوحيد لكل همومها ··!

★ ★ ★

ووقف أحمد يرتدى ثيابه استعدادا لموعده مع جرمين ·· وكان قد قرر بينـه وبين نفسـه أن يرتدى بدلة كاملة ، فهو خارج فى المساء ، ولا يليق به أن يخرج بالقميص والبنطلون ·· وقد يضطر الى الذهاب مع جرمين الى أحد المحال العـامة التى تشترط على روادها البدلة الكاملة ··

وارتدى أحمد القميص والبنطلون ·· ثم وقف أمام المرآة يلف الكرافتة حول عنقه ·· الكرافتة السـوداء ·· وفجأة توقفت يده وأحس بالضيق ·· واختفت ابتسامته المستهترة التى يعلقها فوق شفتيه ·· ان هذه الكرافتة لا تذكره بممدوح ·· ولكنها تبعده عنه ·· انها تذكره بنفسـه ·· تذكره بأن أخاه قد مات وأنه يجب أن يحزن عليه ·· ان النـاس يرتدون السواد لا ليذكروا الموتى بل ليذكروا أنفسهم ·· حتى لا ينسوا ··

وجذب الكرافتة من حول عنقه بعنف ·· وألقى بها فى الدولاب ·· وبدأ يشمر أكمام قميصه ·· سيخرج بالقميص والبنطلون ·· فى المساء أيضا ··

وفتح الباب وأطلت الأم برأسها الحزين ، وقالت فى صـوت ضعيف : الأستاذ أمين عبد السيد جه ·· مش تقعد معاه شويه ·

وارتسم الضيق على وجه أحمد ، وقال :

ـ مش فيفى قاعدة معاه ؟
قالت الأم : لا ·· تعبانة ·
وابتسم أحمد ، وقال مبتسما وهو يشد بنطلونه الى أسفل خاصرته : حاضر ·· حاروح أقعد معاه ··
وانسحبت الأم صامتة ··
وخرج أحمد ، وذهب الى غرفة البنــات ، وقال لفيفى وبين شفتيه ابتسامة كبيرة :
ـ أنا بدى أفهم هو الأستاذ ده جاى يخطبنى والا جاى يخطبك انتى ·· ماتقومى تقعدى معاه ··
قالت وهى تتراجع فى ركن فراشها : تعبانة يا آبيه ! ··
وقال فى حنان : طيب ·· بس دى آخر مرة ·· من هنا ورايح كل واحدة تشيل هم خطيبها ·
ثم التفت الى ليلى قائلا :
ـ وست الحسن حاتنام من دلوقت ، والا ايه ·· ؟
قالت ليلى وهى تبتسم له : لا ·· لسه بدرى ··
وانسحب أحمد ، وسار بخطوات بطيئة واسعة ، ودخل الى الصالون وصافح أمين وابتسامته الكبيرة بين شفتيه قائلا : أهلا وسهلا ·
وقام أمين يصافحه والدهشة تطل من عينيه الجاحظتين خلف زجاج نظارته السميكة ·· كأنه يستنكر أن يرى أحمد يبتسم كل هذه الابتسامة ··
وقال أمين بعد فترة ، وقد اكتسى وجهه بطابع الحداد والحزن الشديد : ازى فيفى ·· نبيلة بتقول انها عيانة ··
وقال أحمد بانطلاق : أبدا ·· بس بتدلع شوية ··
وسكت أمين كأنه يستنكر مرة ثانية انطلاق أحمد ·· وقامت نبيلة وخرجت ، كأنها استغاثت بأخيها لينقذها ·· وقال أمين بعد

فترة : أنا طلعت القرافة يوم الجمعة اللى فاتت ·· انما مالقيتش حد ·· وقال أحمد ببساطة : احنا بنطلع يوم الخميس ·

وقال أمين ورأسه منكس كأنه يهم بالبكاء مرة ثانية على ممدوح : ماكنتش أعرف للأسف ·· أصل العوايد بتختلف ، احنا فى بلدنا بنطلع يوم الجمعة ··

وقال أحمد بسرعة : قول لى يا أستاذ أمين ·· هو اللى يتخرج من قسم الحشرات فى كلية العلوم ، ممكن يشتغل ايه ، غير انه يتوظف فى الجامعة والا فى وزارة الزراعة ·· ؟

واشتدت الدهشة فى عينى أمين ، ونظر الى أحمد كأنه يتهمه بالجنون ·· ثم قال وهو يتنهد كأنه لا يستطيع الا أن يساير أحمد فى جنونه : والله احنا التخصص بتاعنا مالوش مجال كبير ··

وقال أحمد : يعنى مالوش مجال حر ··

وقال أمين : يقدر الواحد يشتغل فى شركة من شركات مقاومة الآفات الزراعية ·· مثلا ··

وقال أحمد : مافكرتش يوم انك تعمل شركة لانتاج الأدوية الخاصة بمقاومة الحشرات ·· زى التوكسافين ·· والا الفليت ؟

قال أمين وهو يلوى شفتيه امتعاضا :

ـ أنا شخصيا يشرفنى أن أكون معيد فى الجامعة ·· وأملى انى أفضل فى الجامعة على طول ··

وقال أحمد وقد اشتد حماسه :

ـ وماله ما انت تفضل فى الجامعة برضه ·· وتعمل شركة لانتاج المبيدات ·· ده حتى الشركة دى تقدر تعمل معامل بحث يشتغل فيها خريجو القسم ، يمكن يقدروا يخترعوا حاجة جديدة ·

وسرحت عينا أحمد برهة كأنه يهنىء نفسه على منطقه ··

وقال أمين فى فتور وزهق : ده مشروع عايز رأس مال كبير ··

وقال أحمد مستطردا فى حماسته :

ـ تدور على رأس المال ·· المهم انك تعمل حاجة غير انك تبقى موظف فى الجامعة ·· ده انت تقدر تكسب ملايين ··

وقال أمين وقد اشتد ضيقه : أنا مش موظف ، أنا معيد وبكره حابقى أستاذ ·· ومش مهم انى اكسب ملايين ·· مش بس الملايين هى كل حاجة ·· فيه كمان العلم ··

وقال أحمد وهو لا يلاحظ زهق أمين :

ـ ما هو العلم مالوش لازمه الا علشان يعمل الملايين ··

وقال أمين وقد بدأ يفقد سيطرته على أعصابه :

ـ العلم بيعمل أكثر من الفلوس ·· بيعمل السعادة ·· الأمان ·· اللى اكتشف ميكروب السل ماكانش مليونير ·· واللى فكر فى عمل طيارة مات وهو فقير ··

وقال أحمد : ماهو ·· و ··

وقاطعه أمين ، وهو يقوم واقفا قائلا : دى مناقشة طويلة ·· عايزة لها قعدة لوحدها ·· آسف أصل عندى ميعاد ·· !

ونظر اليه أحمد ساخرا ، كأنه يسخر من علمه ·· وقال أمين وهو يصافحه :

ـ أرجوك تبلغ تحياتى للست الوالدة ·· والشقيقات وأرجو أن فيفى صحتها تتحسن ·· هيه مش حاتيجى الجامعة ده الامتحان قرب ··

وقال أحمد وهو يصحب الضيف حتى الباب ، ويسير بجانبه فى خطوات مرحة كأنه معتز بشبابه ، وحماسه ، وأفكاره المنطلقة

ـ بكره حاتشوفها فى الجامعة باذن الله ··

ولم يكادا يصلان الى الباب حتى التقيا بعزت « بيه » راجع داخلا ·· وسقطت الابتسامة من فوق شفتى احمد عندما اصطدمت عيناه بوجه خاله ·· وتكاسلت خطواته المرحة ··

ونظر اليه فى كراهية وحقد ، كأنه ينظر الى قاتل أخيه ··

وقال الخال : مالسه بدرى يا أستاذ أمين ··
وقال أمين وهو ينحنى انحناءة كبيرة مصافحا الخال :
ـ أنا هنا من الصبح ·· فرصة تانية باذن الله ··
وخرج أمين ··
وجلس الخال على مقعد عريض فى البهو ، ومد ساقيه ووضع فوقهما كرشه ·· وجاءت الأم تحيى أخاها ··
وجلس أحمد فى مواجهة خاله كأنه يتحداه ··
وقال الخال : ده كان عبد السلام جاى معايا ·· ومش عارف ايه اللى عطله ·· وأرخت الأم عينيها فى صمت ··
وبعد أن اطمأن الخال على صحة أفراد العائلة واحدا واحدا قال : أنا النهارده اتصلت بالشيخ الشعشاعى علشان أحجزه لليلة الأربعين ·· وأظن بلاش نعمل صيوان ·· كفاية نستقبل الناس فى البيت ··
وقالت الام فى استسلام : زى ماتشوف يا اخويا ··
وقال أحمد فى هدوء وهو ينظر بين يديه : مافيش لازمة ··
ونظر اليه الخال فى دهشة ، وقال كأنه يخاطب طفلا صغيرا :
ـ مافيش لازمه لايه يا أحمد ··
وقال أحمـــد : مافيش لازمة للاربعين ·· دى تقاليد مالهاش منطق ·· ثم ايه لازمة اننا نتعب الناس ونجيبهم يعزونا مرة تانية ·· كفاية انهم جم فى الجنازة ··
وقال الخال وهو يبتسم للطفل : دى حاجات أقدر أقدرها أنا ·
وقال أحمد وهو لا يزال محتفظا بهدوئه :
ـ وأنا كمان أقدر أقدرها ··
وقال الخال وهو يغتصب ابتسامة : ماتنساش ان لى أصدقاء يحبوا يعملوا الواجب ·· ولازم نديهم الفرصة دى ··
ورفع أحمد عينين ملؤهما التحدى وقال :

ـ يبقوا يعزوا سعادتك فى بيتك ..
والتفت الخال الى الأم فى ذهول ، ثم عاد ينظر الى أحمد وقال فى عتاب : وده مش بيتى يا أحمد ؟ !
وقال أحمد : المسألة مش مسألة بيت مين .. المسألة مسألة اقتناع .. وأنا مش مقتنع باننا نعمل أربعين ولا خمسين ..
وعاد الخال يلتفت الى الأم وقال فى صوت مبحوح :
ـ ماله أحمد .. جرى له ايه ؟ ونكست الأم عينيها ، ولم ترد .
واستطرد الخال يقول لأحمد كأنه يتعمد أن يكون دبلوماسيا :
ـ على كل حال نخلى الموضوع ده لبعدين ..
وانتفض أحمد واقفا كأنه شعر أن خاله يعامله كطفل ، وقال فى صوت محتد : مافيش بعدين وأحب أقول لسعادتك انك لو عملت اعلان فى الصحف عن الأربعين ، حاعمل أنا اعلان أقول مافيش أربعين ..!!
وسكت الخال وقد اشتد به الذهول .
والتفت أحمد الى أمه ، وقال : تسمحى كلمة يا ماما ..
وسبق أمه الى داخل البيت ، وقال لها عندما لحقت به وقد عاد يعلق ابتسامته المستهترة فوق شفتيه :
ـ ممكن تدينى عشرة جنيه .. اصلى مفلس ..
وقالت الأم بسرعة : حاضر يا حبيبى .. حاضر ..
وأسرعت الخطى نحو غرفتها ، كأنها تخشى ان تباطأت أن يموت أحمد كما مات ممدوح ..
وسار وراءها أحمد .. وفتحت دولابها بسرعة ، وأخرجت منه حقيبتها ، والتقطت منها ورقتين ، من فئة العشرة جنيهات .. وأعطتهم لأحمد ، وهى تبتسم له ، كأنها تتوسل اليه ألا يقتل نفسه ، قائلة : خد .. خللى دول معاك .. ولما يخلصوا ، قول لى ..
ووضع أحمد النقود فى جيب بنطلونه ، ثم انحنى وقبل أمه

فوق خدها ، وقال : أنا نازل باه ··

وقالت الأم فى لوعة : خد بالك من نفسك يا أحمد ··

وسار أحمد فى خطواته الواسعة البطيئة ، ومر بخاله ، ورفع يده يحييه فى اهمال دون أن ينظر اليه : السلام عليكم ··

وصاح وراءه خاله : أحمد ··

والتفت اليه أحمد نصف التفاتة ، وقال وهو يهم بالخروج :

ـ آسف يا خالى ·· مستعجل ·· عندى ميعاد ··

وخرج ··

٣

قامت فيفى ونبيلة فى الصباح الباكر ، وقد قررتا أن تذهبا الى الجامعة لأول مرة بعد وفاة ممدوح ·· وانتظرت احداهما الأخرى لتخرج معها ·· دون أن تتعجل احداهما الأخرى ، ودون أن تعلنها أنها فى انتظارها ·· كان فى صدر كل منهما رهبة من مواجهة الطلبة ، وكل منهما تأبى أن تعلن أختها بهذه الرهبة ·· كأنها تخجل منها ·· فانتظرتها لتستند اليها وتتعزى بها وهى تواجه الطلبة ··

وتلكأتا كثيرا قبل أن تخرجا ·· ثم خرجتا وكل منهما مرتدية الثوب الأسود ·· ثوب الحداد ·· وكل منهما تضع على وجهها قناعا حزينا ، كأن الثوب الأسود وحده لا يكفى ·· وتزم شفتيها كأنها تخشى أن تنطلق من بينهما ابتسامة رغما عنها ·· وترخى عينيها كأنها تخشى ان نظرت حولها أن تشغلها ضجة الحياة عن ذكر الموت ··

وســارتا صامتتين ·· والرهبــة فى صدريهما ·· واجتازتا كوبرى عباس ·· ووصلتا الى ميــدان الجيزة ·· وانحرفتا فى شارع المدارس المؤدى الى الجامعة ·· وأفواج الطلبة تملأ الطريق ·· والضجة تملأ أذنيهما ·· ان الطلبــة يضحكون ·· ويتجادلون ·· ويصرخون ·· ويأكلون سندويتشات الفول ·· كأن شيئا لم يتغير ·· كأن ممــدوح لم يمت ·· كأنه لا يزال بينهم ·· يضحك معهم ، ويجادل ، ويصرخ ·· كأنه لا ينقصهم ·· لا ينقصهم ممدوح ·· لا ينقصهم شىء أبدا ··

وامتلأ وجه فيفى بالسخط ·· وأدارت عينيها فى وجوه الطلبة كأنها تبحث بينهم عن وجه حزين ·· وجه لا يزال يذكر ممدوح ·· ولكنهم كلهم يضحكون ·· ويضجون ·· وسقطت عيناها على وجه فهمى ، أحد أصــدقاء ممــدوح ·· انه الآخر يضحك ، ويجادل أصدقاءه ، ويحرك سلسلة المفاتيح فوق اصبعه ·· وامتلأ صــدر فيفى بالثورة ·· والحقد ·· الحقد على كل هؤلاء الطلبة ·· على كل الأحياء ·· على الحياة نفسها ·· لماذا لم يمت واحد من هؤلاء الطلبة بدلا من ممدوح ·· لماذا لم يمت عشرة منهم ·· عشرون ألف ·· ويعيش ممدوح ··

وسارت فى الطريق ، وشفتاها مكورتان كأنها تهم بأن تبصق بهما على الأرض ·· على الحياة ··

ونبيلة ترفع عينيها وتنظر حولها من خلال رموش مرتعشة ، كأن أشعة الشمس فاجأتها ، وزغللت عينيها ·· ان الحياة لا تزال تســير ·· ولا تزال مليئــة بالضحكات ، والمرح ، والشباب · ولا ذكر فيها للموت ·· كأن الموت لا علاقة له بالحيــاة ·· كأن الحياة جسد كبير لا يكاد يخدشه الموت ، حتى تتجمع خلاياه لتسد مكان الخدش ·· ويلتئم الجرح ، بسرعة ، فى خطفــة عين ·· وأحست نبيلة بالحياة تسرى فى أعصابها ·· أحست كأن الجرح

الذى تركته وفاة ممدوح فى قلبها ·· يندمل رويدا ·· رويدا ·· وتلفتت حولها ، ورأت فى وجوه الطلبة وجه ممدوح ·· كلهم ممدوح ·· وأحست أنها تريد أن تنطلق اليهم ·· الى دنياهم ·· الى الضحك والمرح والشباب ·· الى الدنيا التى يعيش فيها كل ممدوح ·· ولكنها تقاوم ·· تقاوم الحياة ·· وتقاوم الانطلاق ·· وتقاوم ابتسامة صغيرة تكاد تفر من خلف شفتيها ·· وتقاوم التئام جرح قلبها ·· كأنها تريد أن تحتفظ بهذا الجرح ·· كأن هناك قوى خفية تدفعها لأن تحتفظ بقلبها جريحا ملتاعا ··

وسارت بجانب أختها وهى تبذل مجهودا كبيرا لتحتفظ بطابع الحزن على وجهها ·· تبذل مجهودا كبيرا حتى لا تريح عضلات وجهها ·· وتسترخى ·· وتهدأ ··

واقترب منهما طالبان يركبان دراجة ، أحدهما خلف الآخر ·· وقال أحدهما من خلال ابتسامة واسعة ، ونظرة مليئة بالشقاوة تطل من عينيه : ماتزعلوش ·· البقية فى حياتكم ·· انشالله أنا ··

وقالت فيفى بسرعة : انشالله عشرة زيك ··

وقال الراكب الآخر : ده أصل الموضة السنة دى ·· الاسود ·

ووقفت فيفى وقالت بحدة :

ـ انتو هاتبعدوا والا أخلى وقعتكم سوده ··

وقال راكب الدراجة وهو يبتعد ويطلق ضحكة كبيرة :

ـ الحق علينا ·· احنا كنا بنعزى ! ··

وانطلقت ابتسامة صغيرة من شفتى نبيلة ، رغما عنها ·· ان الحياة لا يستطيع أن يغيرها شىء ·· حتى الثوب الأسود لا يستطيع أن يغيرها ·· ان الحياة تسخر من الموت ، وتضحك منه !! ووصلنا الى الجامعة ··

وتقدم أحد أصدقاء ممدوح يصافحهما ويقول فى لهجة جادة ووجهه حزين : البقية فى حياتكم ·· والبركة فيكم ·

وقالت فيفى ، وهى تتخذ وقفه معينة كأن الستار قد رفعت عن المسرح : حياتك الباقية ..

وقالت نبيلة فى صوت خفيض : مرسى ..

وظل وجه الصديق يكسوه الحزن ، وقال فى أدب : عن اذنكم .

ثم أبتعد بضع خطوات .. وهو لا يزال حزينا ، ونبيلة تتبعه بعينيها ، حتى انضم الى شلة من أصدقائه ، وتنهد ، ثم أراح عضلات وجهه من تعبير الحزن ، وانفرجت أساريره ، وسمعته نبيلة وهو يقول لأصدقائه :

ـ سمعتم آخر نكتة و ..

ولم تسمع نبيلة النكتة ، جذبت أختها وسارت نحو الكلية .. واحساسها بالحياة يزداد .. انها هنا تحس أنها تبتعد عن ممدوح ميتا ، وتقترب منه حيا .. كل شىء ينسيها موت ممدوح ، ويذكرها بحياة ممدوح ..

وسارت الأختان تتلقيان التعازى من زملائهما وزميلاتهما ، وفيفى تحس احساسا خفيا بأهميتها .. ان أهل الميت لهم نفس الأهمية التى لأهل العروس فى يوم الفرح .. أهمية تميزهم عن باقى الناس .. وتجعلهم يستعلون على الناس .. وفيفى تحس بالاستعلاء على باقى زميلاتها وزملائها .. الاستعلاء عليهم بحزنها وثوبها الأسود .. والتفتت الى أختها قائلة : أنا حاسيبك بأه ..

ثم سارت فى خطى قوية نحو مبنى كلية العلوم ، وفى كل خطوة تضيف خطا جديدا على تعابير الحزن المرتسمة على وجهها وفى كل خطوة يزداد احساسها بأهميتها ، ويزداد شعورها بأن الطلبة كلهم ينظرون اليها ويتبعونها بعيونهم ..

ودخلت الى مبنى الكلية ، وهى لا تتعمد أن تنظر حولها ، كان حزنها يشغلها عن الحياة .. وتنتظر أن يتقدم لها زملاؤها وزميلاتها ليعزوها .. وقد تقدم لها البعض ، ولكنهم ليسوا كثيرين

.. وأحسـت فيفى أنهم ليسـوا كثيرين .. لم يتجمع الطلبـة والطالبات كلهم حولهـا ، كما كانت تنتظـر .. وبدأ احساسهـا بأهميتها يخفت .. وبدأت تحس بنوع من الانهيار ، يصحبه ثورة وغيظ .. غيظ من هؤلاء الطلبة الأنذال الذين لم يكلفوا أنفسـهم مشقة تعزيتها ..

ثم بدأت بعد ذلك تستعد للموقف الأهم ، عندما تلتقى بالأستاذ أمين عبد السيد .. ربما كان أمين هو الوحيد الذى يستطيع أن يشعرها بأهميتها ، ويعيد اليها الاحساس بالاستعلاء ..

وحاولت أن تخفى عن نفسهـا ترقبها لمقابلة أمين ، وأخذت تتشاغل بالالتفات الى الأستاذ المحاضر ، والتنقل بين قاعات الكلية ومعاملها .. الى أن التقت به ..

التقت به فى فناء الكلية .. وحول عنقه كرافت أسود ..

واقترب منها وعلى وجهه فرحة لم يستطع أن يكبتها أو يخفيها. ومد لها يده مصافحا ، وقرب وجهه من وجهها حتى شمت أنفاسه ، وقال وهو لا يزال محتفظـا بيدها فى يده ، وعينـاه الجاحظتان تكادان تشقان زجاج نظارته ليقبلا عينيها :

ـ ازيك النهاردة ؟

وقالت فى برود وهى تشيح بوجهها عنه وتجذب يدها من يده :

ـ كويسه ..

قال وهو يبحث بعينيه فى وجهها :

ـ امبارح قالوا لى انك كنت تعبانة شوية ..

قالت : فعلا ..

قال كأنه يلح عليها أن تتكلم :

ـ الحقيقة أنا اتهيأ لى انك مش عايزه تشوفينى ..

قالت وبرودها يشـتد : لا .. أبدا .. بس أرجوك يا أستاذ أمين انك تنسى كل حاجة كانت بيننا ..

وبهت أمين وارتفع حاجباه فوق زجاج نظارته ، وقال :
ـ أنسى ٠٠ أنسى ايه ؟ !
قالت : كل حاجة ٠٠
قال والدهشة تقطر من لسانه : يعنى ايه ؟!
قالت كأنها تتدلل عليه ، ببرودها ٠٠ كأنها تتمتع بالقسوة عليه : انت فاهم ٠٠ يعنى مابقاش فيه بينا حاجه ٠٠
قال : ليه ٠٠ ؟!
قالت : كده ٠٠
قال وقد بدأ يتمالك نفسه من دهشته : لازم اعرف ٠٠
قالت : ما اقدرش أقول لك اكتر من كده ٠٠ عن اذنك !
وأمسك بيدها بسرعة حتى لا تفر من أمامه ، وقال فى لهجة تفيض بالحنان : أنا فاهم حالتك كويس يا فيفى ٠٠ عارف انتى حاسه بايه ، وبتفكرى فى ايه ؟ ٠٠ انما أؤكد لك انك محتاجة لى دلوقت أكتر من الأول ٠٠ اللى حصل كان حكم ربنا ٠٠ كان قدر ٠٠ مالناش ذنب فيه ٠٠
قالت فى حدة : من فضلك سيب ايدى ٠٠ ماتفضحنيش أمام الطلبة ٠٠
قال فى هدوء وهو يترك يدها : الطلبة عارفين اننا مخطوبين
قالت : بكره حايعرفوا اننا مش مخطوبين ٠٠ !
قال فى حدة كأنه يصرخ فى وجهها :
ـ فيفى ٠٠ انتى مش صغيرة ٠٠ الكلام اللى بتقوليه ده كلام بنات صغيرين ٠٠ وأنا مش لعبة فى ايدك تلعبى بيها ، وتكسريها وقت ما تحبى ٠٠
ونظرت اليه فى تعجب ، كأنها لا تصدق أنه يستطيع أن يخاطبها بهذه الحدة ٠٠
واستطرد قائلا وقد هدأ صوته :

ـ أرجوكى ماتتخذيش قرار فى الموضوع ده دلوقت ·· انتى حزينة ، والصدمة مأثرة عليكى ·· مش ممكن تقدرى تفكرى وانتى فى الحالة دى ··

قالت فى عناد كأنها تتحداه :

ـ طيب من فضلك ماتكلمنيش لغاية ما حالتى تتغير ··

وتركته وابتعدت ·· وهو واقف ينظر اليها ، وقد احتقن وجهه ، وامتلأت عيناه بالسخط ، كأنه يفكر فى أن يجرى وراءها ويصفعها ألف صفعة ·· يضربها الى أن يلين رأسها الناشف ··

وسارت نبيلة داخل كلية الآداب ، وكل عينيها متجهتان الى البحث عن محمود ·· والطلبة والطالبات يتجمعون حولها ويعزونها ، وهى ترد عليهم بكلمات مقتضبة وابتسامة حزينة بين شفتيها ·· ولم يكن يهمها أن يعزيها أحد ·· كان كل ما يهمها أن تجد محمود ·· لتجد لديه كل ما تحتاج اليه من عزاء لتطفىء شوقها اليه ·· لتضع قلبها بجانب قلبه ·· وحزنها بجانب حزنه ·· وتقول له كلاما لا تقوله لأحد غيره ·· وتسمع منه كلاما لا تسمعه من أحد غيره ·· كلام كثير ·· كلام لا ينتهى ·· كلام فيه العزاء ·· وغبه الحياة ·· وفيه الحب ··

وسارت تطوف بين الأروقة وقاعات الدراسة ، ونزلت الى البوفيه ·· ولكنها لا ترى محمود ·· وبدأت تلتاع ·· وبدأت تتذكر ممدوح ·· وكأنها ان لم تجد محمود فليس أمامها الا ممدوح ·· وأحست كأنها تهم بالبكاء ··

واقتربت من زميل لها وقالت فى تردد وحياء :

ـ ما شفتش ممدوح يا محسن ؟ ··

ونظر اليها محسن فى دهشة ·· ونظر الى ثوبها الأسود ·· ثم قال كأنه يخاطب مريضة : البقية فى حياتك ··

وتنبهت الى خطئها ، وارتجف قلبها ، وعادت تقول :

ـ آسفة ·· كان بدى أسألك ، ما شفتش محمود ؟ ··

وقال محسن وهو يبتسم ابتسامة صغيرة كأنه يحمد الله على شفائها : كان واقف فى الجنينة من شوية ··

وخرجت الى الحديقة التى تقع خلف الكلية ، وأدارت عينيها ورأته ·· واقفا بجانب الشجرة التى تعودا أن يجتمعا تحت ظلها ·· وخفق قلبها ·· كأن الحياة قد سكبت فيه مرة واحدة وخطت نحوه خطوات مرتعشة كأن خفقات قلبها قد مست ركبتيها وما كادت تخطو نحوه ، حتى لمحها ·· وانطلقت منه صرخة عالية : نبيلة !·

وجرى نحوها ·· ووجهه كله يضحك ·· عيناه تضحكان ·· ووجنتاه تضحكان ·· وشعرات رأسه تطير فى الهواء كأن كل شعرة تزغرد ·· وبين شفتيه ابتسامة واسعة تصل بين أذنيه ··

ووقفت مكانها وهى لا تستطيع أن تقاوم فرحتها ··

واقترب منها وأمسك بكلتا يديها يضغط عليهما بيديه ··

ووجهه **يضحك** ·· ووجهها يضحك ··

وقال وهو يلهث من الفرحة : نبيلة ·· وحشتينى ··

وارتعشت وجنتاها كأن كل وجنة تحاول أن تقفز من مكانها لتضع نفسها بين شفتيه ·· ولم تتكلم ··

وتنبه ·· ربما ذكره ثوبها الأسود ·· فاختفت الضحكة من فوق وجهه ·· واختفت ضحكتها ·· ونظر كلاهما الى الأرض ·· وقال وهو يفلت يديها من بين يديه ، كأنه أحس أن ليس من حقه أن يلمس الحزن : أنا مشيت فى الجنازة ·· و ··

ورفعت نبيلة رأسها ، ونظرت اليه ، وفى عينيها لمعة فرحة كأنها وجدت شيئا كان ينقصها ·· لقد قضت أياما عديدة ، وهى تسائل نفسها هل سار محمود فى الجنازة ؟ ·· ان خطيب ليلى كان فى الجنازة ·· وخطيب فيفى كان فى الجنازة ·· لكن محمود ·· حبيبها ·· هل سار فى الجنازة ؟ ·· وهل من حقه أن يشترك فيها

رغم أنه ليس خطيبها ؟ .. كان اشتراكه فى الجنازة شيئا كبيرا بالنسبة لها .. انه رجلها الذى يمثلها فى مصائبها وأفراحها .. فان لم يكن هنـاك ـ ان لم يسر فى الجنازة ـ فمعنى ذلك أن ليس لها رجل يقف بجانبها .. معنى ذلك أنه بعيد عنها .. بعيد ..

وقد طمأنها محمود .. لقد سار فى الجنازة .. وربما لم يكن محمود يدرى أنه يطمئنها الى شىء كبير فى حياتها .. ولكنه طمأنها .. واستطرد محمود قائلا : وبعت تلغراف ..

قالت وهى تبتسم : ما شفتوش ..

قال : ازاى ده .. يمكن خبوه عنك ..

قالت وهى تكاد تضحك : مش مهم ، ما دام بعته ، خلاص

قال وهو يهم بأن يتجه نحو الشجرة ليقفا فى ظلها :

ـ أنا ماكنتش عارف أعمل ايه ؟ .. كان نفسى أشوفك وأكون جنبـك .. وحاولت أضرب لك تليفون ماقدرتش .. اتهيأ لى انه ما يصحش .. بقيت آجى الكلية كل يوم وافضـل مستنيكى من الصبح لغاية المغرب .. وأقول لنفسى يمكن تيجى تدور على ..

قالت وهى تقف قبل أن يصلا الى الشجرة :

ـ انت عندك محاضرات مهمة النهاردة ؟ ..

قال : أيوه .. ليه ؟ ..

قالت : أصـلى مش عايزه أقعد فى الكليـة .. عايزه نروح نتفسح فى أى حتة .. زهقانة .. متهيأ لى انى نسيت الدنيا ..

وفكر قليلا ، ثم قال : طب ياللا بينا ..

وسار بجانبها ، وخرجا من الكلية ، وسارا حتى محطة الترام هو يتعمد أن يحدثها عن أنبـاء الكلية وأنباء فرقة التمثيل حتى شغلها عن أحزانها .. وعندما اقتربا من سور حديقة الحيوان لت وابتسامتها الحزينة بين شفتيها : مش حاتشترى لب ابيض ؟ ابتسـم محمود ابتسـامة كبيرة ، كأن نبيلة تشـاركه فى أعز

هواياته ، وكأنها أطلقت سراحه من قيود الحزن التى تلفها ، وقال فى حماس : قوى ٠٠

ثم اتجه الى بائع اللب الذى يقف أمام فرن صغير متنقل ٠٠ وعاد يحمل فى يده قرطاسين من اللب الأبيض ، وقال ضاحكا وهو يناولها قرطاسا :

ـ الجمعة اللى فاتت عملنا فى البيت بليلة قمـــح ٠٠ كان جه لعبد المقصود شوية قمح من البلد ٠٠ قولنا نعمل بليلة ، ونعــزم عليها أصحابنا ٠٠ وصممت على انى أحط على البليلة لب أبيض ، قعدت أقزقز فى اللب واطلعه من القشر ييجى ســاعة ٠٠ وحطيته على البليلة ٠٠ وكانت مدهشة ٠٠ انما ماحدش رضى ياكل منهـا كلتها لوحدى ٠٠

وضحكت نبيلة ، وقالت : تلاقيك عاملها مخصوص ٠٠ ؟

قال فى لهجة جادة : أبدا ٠٠ هم اللى مابيفهموش ٠٠ فى ذمتك اللب مش ألذ من الفستق ؟ ٠٠ ووضعت حبة لب بين شفتيها وقالت :

ـ فعلا ٠٠

وسارا حتى الشارع المحاذى للنيل ، وقال محمود وهو يطلق قشر اللب من بين شفتيه : وابتديتى تذاكرى والا لسه ؟

قالت وهى تتنهد : لسه ٠٠

قال فى جزع : ده الامتحان فاضل عليه شهر ٠٠

قالت فى يأس : مش قادره اذاكر ٠٠ حاولت كتير ٠٠ مش قادره ٠٠ كل ما افتح كتاب ، أعيط ٠٠

قال وهو يبتسم كأنه يواسيها :

ـ مش معقول يا نبيلة ٠٠ أنا عارف ان المصيبة كبيرة ، انما كلنا لها ٠٠ ولازم تستحملى وتقاومى ٠٠ ممدوح ما يهموش لنك تعيطى عليه ، انما يهمه انك تنجحى ٠٠

قالت : مش ممدوح ٠٠ انما البيت كله اتغير ٠٠ أخويا أحمد

اتغير ·· وماما اتغيرت ·· واخواتى ·· وحتى خالى ما بقاش زى الأول ·· بقينا عايشين مع بعض زى الأغراب ·· مش عارفين نكلم بعض ازاى ؟ ·· كل واحد خايف على التانى وخايف منه ·· عارف لما واحد ينضرب بوكس جامد قوى ، ويفضل دايخ بعده ·· اهو احنا كلنا دايخين ·· ومش ممكن أقدر أذاكر وأنا دايخة ·· أنا مش دايخة وبس ، انما حاسة كمان ان مابقاش لى حد فى البيت ·· كان ممدوح لوحده هوه اللى عايش معايا ·· عايش معايا فى الجامعة ·· وعايش مع أفكارى ·· وعايش مع حبى ·· كان عارف انى باحبك ·· وكان ساكت ·· وكان متهيأ لى انه بيحبك لأنى باحبك ·· كان الوحيد اللى أقدر أكلمه من غير ما خبى عليه حاجة ·· وكنت حاسة ان أفكارى مش أفكارى لوحدى ، انما أفكاره هوه كمان ·· كان مونسنى ·· وكان مشجعنى ·· وكان مطمنى ·· لولاه كنت افتكرت ان حبى لك غلط ·· ودلوقت راح ممدوح ·· مابقاش لى حد فى البيت يفهمنى ·· ولا يعيش معايا فى الدنيا اللى أنا عايشة فيها ·· كلهم عايشين فى دنيا تانية ··

وقال محمود فى لهجة حزينة وقد كف عن قزقزة اللب :

ــ ممدوح مارحش ·· ممدوح كان فكرة ، وكان جيل ·· والفكرة عايشة ، والجيل عايش ·· عايشين فى بيوت كتير ·· وفى شبان كتير ·· وانتى مش لوحدك ·· عمرك ماحتكونى لوحدك ·· اللى بنعمله ما بيعملوش آباءنا ولا أمهاتنا ، لكن بيعمله مليون واحد زينا ·· ميت مليون واحد وواحده ··

قالت وهى تخرج من حقيبتها منديلها الصغير لتجفف دمعة طفرت من عينيها : أنا خايفة ·· أنا عمرى ماكنت باخاف ·· انما من يوم ما مات ممدوح وأنا خايفة ·· وكل يوم باخاف اكتر ·· ومنتظرة اليوم اللى مش حا اشوفك فيه انت كمان ، زى ما جه اليوم اللى راح فيه ممدوح ··

قال وهو يحاول أن يبتسم

ـ اطمئنى ·· أنا قررت انى مامتش علشان خاطرك ··

قالت : أنا مابتكلمش عن الموت ·· انما ايه الفرق بين الموت ، وبين انك تنجح فى الامتحان وتسيب الكلية ، وتتعين فى بلد بعيد ، وتبعد عنى ·· !؟

قال وهو لا يزال يحاول أن يخفف عنها :

ـ خلاص ، حا اسقط ·· مش حا انجح ، ما تزعليش ··

ولم ترد ·· جففت دمعة أخرى ··

ومسح الابتسامة من فوق شفتيه ، واستطرد قائلا فى لهجة جادة : نبيلة ·· أنا تعبت لما قعدت تلات أسابيع وانتى بعيدة عنى ·· تعبت كتير ·· بصيت لقيت الدنيا من غيرك فاضية ·· مافيهاش حد ·· مافيهاش أمل ·· وعرفت انى ما اقدرش أستغنى عنك ·· عرفت انى ماكنتش باجى الكلية الا علشان أشوفك ·· ومن غيرك يبقى بلاش كلية ·· وعرفت انى مابذاكرش الا لأنى حاصبح تانى يوم أشوفك ·· وعرفت انى ماباضحكش الا لأنى باحبك ·· وعرفت اننا لازم نتجوز ··

ورفعت اليه عينيها كأنها فوجئت ··

واستطرد قائلا : فكرت كتير فى الجواز ·· عمرى ما فكرت فيه اد اليومين دول ·· وكان احساسى بأنى وقفت بعيد عنك يوم ما مات أخوكى ، يخلينى أفكر فى الجواز أكتر ·· احنا ضرورى نتجوز ·· بس ازاى ؟ ·· ونعيش ازاى ؟ ··

وانكمش إهتمام نبيلة ، وقالت فى يأس :

ـ طبعا إنت فقير ، وأنا غنية ·· يبقى مش ممكن نتجوز ؟

قال : لأ ·· ممكن ·· لو قدرت اكسب أربعين جنيه فى الشهر ·· ابعت عشرة جنيه لامى وأبويا ، ونعيش بتلاتين ·· ناخد شقة

بخمسة جنيه ، وناكل ونشرب ونلبس ونقزقز لب ابيض بخمسة وعشرين ‥ وابتسم لها كأنه طمأنها ‥

وقالت بلا ابتسام ·

ـ اعمل معروف يا محمود ‥ بلاش الموضوع ده ‥ انت مش فاهمنى ، وعمرك ماحاتفهمنى ‥ أنا لما بافكر فيك ما بفكرش حانعيش ازاى ؟ ‥ بافكر اننا نكون مع بعض وبس ‥ اربعين خمسين ، عشرة ، مايهمش ‥ المهم اننا مع بعض ‥ ناكل دقه ناكل عيش حاف ‥ مش مهم ‥

قال : انت بتحبينى بقلبك ‥ وأنا باحبك بقلبى وعقلى ‥

قالت وهى تقذف بقرطاس اللب الى الأرض :

ـ انت مابتحبنيش خالص ‥ لا بقلبك ولا بعقلك ‥ انت بتحب نفسك ‥ المهم عندك انك تعيش كويس ‥ مش انك تعيش معايا ·

وسكت ‥ كأن أنفاسه قد سكتت معه ‥ وتقلص وجهه كأنه يحس بألم فى معدته ، ثم قال بعد فترة فى صوت خفيض كأنه يحادث به نفسه : لو كنت باحب نفسى كنت اتجوزتك ، وعشت عندكم فى بيتكم ‥ ماكانش همنى انى فقير ، ولا انك غنية ‥

قالت وهى تسد أذنيها بكفيها كأنها تحمى رأسها من الجنون :

ـ خلاص يا محمود ‥ خلاص ‥ مش عايزة أسمع حاجة ‥ أنا تعبانة ‥ تعبانة ‥

وانحرفت من جانبه ، وجلست على سور الكورنيش المحاذى للنيل ‥ وبكت ‥ وجلس بجانبها صامتا ‥ وتركها تبكى ‥

ثم قام وانحنى على الأرض والتقط قرطاس اللب الذى ألقت به الى الأرض ، واحتفظ به فى يده ، وعاد يجلس بجانبها ‥

وهدأ بكاء نبيلة ‥ والتفت اليها ، قال وهو يبتسم :

ـ تيجى ناخد مركب ؟ ‥

قالت وهى تجفف بقية دموعها ، وابتسامة ضعيفة تتسلل من بين شفتيها : طيب ··

وقاما ونزلا الى ضفة النيل . واستأجرا مركبا صغيرا ·· وعاونها بيده لتصعد اليها ·· وجلست فى المقدمة ، ووقف هو فى وسط المركب ، وخلع سترته المكرمشة ، وأزاح رباط عنقه الملتوى كفتلة الدوبارة ، وشمر أكمام قميصه المقلم بخطوط عريضة ·· ثم حرك ساقيه فى قاع المركب فأخذت تتأرجح تأرجحا عنيفا ·· وصرخت نبيلة : محمود ·· يا مجنون ··

وقال وهو يضحك : علشان تحرمى تعيطى ··

ثم جلس الى المجدافين ، ومد ساقيه أمامه ، وحذاؤه الأصفر الفاقع أمام عينيها ·· وقال وهو يضع المجدافين فى الماء

ـ خدى بالك ·· أول ما نوصل اسكندرية قولى ··

ثم صرخ فى لهجة تمثيلية : الى الأمام ·· أيها المغامرون ··

وضحكت نبيلة ·· والهواء يطير شعرها ··

★ ★ ★

فى هذا الصباح استيقظ أحمد متأخرا ، على غير عادته ·· ورأسه مثقل ، وجفناه ساقطان فوق عينيه ، وشفتاه جافتان كقطعتين من خشب ·· وجلس فى فراشه يستعرض ما حدث له خلال الليل ·· وابتسم ابتسامة فيها كثير من الدهشة والعجب كأنه لا يصدق نفسه ·· لا يصدق أنه كان يستطيع أن ينال كل هذا بهذه البساطة وهذه السهولة ·· أن يدخل دنيا زاخرة بالمتعة واللذة لمجرد أنه وجد فى نفسه الشجاعة ليتقدم الى فتاة ويحدد معها موعدا ·· صحيح أنها فتاة من نوع معين ، ولكن حتى هذا النوع من الفتيات كان يحرمه على نفسه ·· لم يتقدم اليه ، ولم يذق له طعما ·· وكان يعتقد أن التعرف بهذا النوع من الفتيات يحتاج الى مواهب خاصة ، والى ذكاء خاص ، والى أخلاق خاصة

.. وكان يعتقد أنه لا يملك هذه المواهب ولا هذا النشاط ، ولا هذه الأخلاق .. فعاش حياته كلها لا يقرب أى فتاة أو امرأة .. وصل الى الخامسة والعشرين من عمره وهو لا يقرب فتاة أو امرأة .. كانت كل النساء خيالات تطوف برأسه أحيانا ، ويتسللن الى جسده عن طريق أوهامه .. لم يكن له أبدا امرأة من لحم ودم .. كلهن خيال وأوهام وأمانى .. الى أن أحب شهيرة .. وكان يتمناها .. يتمنى أن يقبلها ، وأن يأخذها بين ذراعيه ، وأن يتحسسها فى يديه .. ولكن حبه اختلط بضعفه وتردده وضياع شخصيته فلم يستطع أن يصل اليها لا عن طريق الزواج ولا عن طريق غير الزواج .. فاكتفى بحبه كعاطفة تملأ قلبه ، وتسرى أحيانا فى جسده .. وتعذبه .. تعذب قلبه وجسده ..

ثم كانت جرمين ..

واتسعت ابتسامة الدهشة والعجب بين شفتى أحمد وهو جالس فى فراشه يذكر حوادث الليل ..

لقد ذهب الى لقائها فى محل لاباس ، وهو لا يدرى ماذا سيصنع بها .. لم تكن فى رأسه خطة ولا حتى أمل .. كان منساقا اليها كأنه يسير نحو عالم جديد يريد أن يكتشفه ، تدفعه اليه شخصيته الجديدة التى يصمم عليها .. شخصية الفتى المنطلق ، المرح ، الجرىء .. شخصية ممدوح ، كما يتصور ممدوح .. وقد تذكر شهيرة وهو فى الطريق الى جرمين ، وأحس بشىء فى صدره يتململ .. أحس كأنه سيعود الى شخصيته القديمة المنطوية الجادة الوقورة .. الشخصية التى أحب بها شهيرة والتى أحبته بها شهيرة .. وهو لا يريد أن يعود الى هذه الشخصية .. لا يريد .. فقاوم احساسه بشهيرة وقاوم الشىء الذى يتململ فى صدره .. وأسرع الخطى نحو محل لاباس .. وطاف بعينيه فوق الموائد فلم يجد جرمين .. ودخل الى « البار » فلم يجد جرمين أيضا ..

وجلس على مقعد مرتفع من مقاعد « البار » وطلب كأسا من الويسكى ٠٠ أخذ يشربه فى رفق ، كأنه يخاف الكأس ٠٠ ويتعمد ألا ينظر حوله حتى اذا أتت جرمين لا يبدو مهتما بقدومها ٠٠

وجاء عمرو ـ أحد أصدقاء النادى ـ وجلس بجانبه ودعاه الى كأس ٠٠ وشرب معه كأسا أخرى ٠٠

وسرت الخمر فى عروقه وانتشى بها ٠٠ وازداد جرأة ٠٠ ولم يعد يخاف الكأس ، ولا يترفق بها ٠٠ ولم يعد يطيق الانتظار ، فأخذ يتلفت ناحية الباب باحثا عن جرمين ٠٠ ويتكلم كثيرا ٠٠ ثم يعود يتلفت ناحية الباب باحثا عن جرمين ٠٠

ورآها ٠٠

داخلة من الباب تسير كعارضة أزياء ، كل قطعة منها تهتز بحساب ٠٠ كل شىء فيها متناسق جميل ، مثير ٠٠ حجمها الصغير ، وصدرها الناهد ، وشفتاها اللذيذتان ، وابتسامتها التى تملأ وجهها ٠٠ وداهمه الاحساس بأنه يريد أن يأكلها ٠٠ وفتح فمه كأنه يهم فعلا بأن يأكلها ٠٠

ووقفت أمامه دون أن تمد اليه يدها ، وعيناها تصافحان كل قطعة من وجهه ٠٠ وقالت من خلال ابتسامتها الكبيرة : هاللو ٠

ثم قدمته الى شابين من أنصاف الأجانب ، جاءا معها ، ولم يهتم بسماع اسميهما ٠٠ وبدأوا يشربون ، ويتحدثون ويضحكون ٠٠ وهو يتكلم كثيرا ٠٠ لا يهمه أن يسمعه أحد ٠٠ انه يجد لذة فى أن يتكلم لا فى أن يستمع اليه أحد ٠٠

وجاء ثلاثة شبان آخرون من أصدقاء جرمين ، قدمتهم اليه ، ودعاهم الى كؤوس الويسكى دون أن يهتم بسماع أسمائهم ٠٠ ولكنه وجم قليلا وجرمين تقدمهم اليه ٠٠ ان كل الناس يفرضون عليه أصدقاءهم ٠٠ شهيرة فرضت عليه أصدقاءها ٠٠ ومدحت خيرى فرض عليه أصدقاءه ٠٠ والآن تفرض عليه جرمين أصدقاءها

.. لماذا لا يفرض هو أصدقاءه على الناس ؟ .. ربما لأنه ليس له أصدقاء ؟ .. يجب أن يكون له أصدقاء يختارهم بنفسه .. أن تكون له شلة تصحبه ويصحبها ، ويفرضها على كل من يتعرف عليه ، وعلى كل فتاة تخرج معه ..

ولم يستقر هذا الخاطر فى رأسه سوى برهة ، ثم عاد الى كأسه .. شرب كثيرا ، والجميع يشربون معه كثيرا ، ويحيطون به كأنه عريس الليلة .. وهو ينظر الى جرمين بين كل لفتة وأخرى ، ويفتح فاه كأنه يهم بأن يأكلها ..

واقترحت جرمين أن يذهبوا جميعا الى سطح سميراميس ليرقصوا .. ولكن سميراميس يشترط على المترددين عليه أن يكونوا فى ثيابهم الكاملة ، وأحمد لا يرتدى سوى القميص والبنطلون ، وصمم على ألا يعود الى بيته ليأتي بالجاكتة والكرافت ، فعادت جرمين تقترح أن يذهبوا الى ملهى « الكوفنت جاردن » فى شارع الهرم .. ووافق الجميع ..

ودفع أحمد الحساب .. لم يسمع كم طلب منه خادم البار ولكنه ألقى اليه بورقة من ذات العشرة جنيهات ، وأخذ منه باقى النقود دون أن يعدها ، ووضعها فى جيبه دون أن ينظر فيها ..

وخرج وجرمين بجانبه ، وحوله ستة من الأصدقاء ، لا يعرف من بينهم الا اسم عمرو ..

وتفرقوا فى سيارتين .. سيارة عمرو ، وسيارة واحد من أنصاف الأجانب أصدقاء جرمين ..

والتصقت به جرمين وهما داخل السيارة ..

وبدأت النار تسرى فى بدنه .. وتشتد النار حتى تتبخر الخمر من رأسه على صهدها .. وهو يحس بكل قطعة منه تندفع الى جرمين .. يده تريد أن تنطلق لتتحسس نهديها .. وشفتاه تكادان تقفزان من وجهه الى شفتيها .. وساقه تنجذب الى ساقها .. وهو

يقاوم ·· وهى تتعمـد أن تثيره ·· تطلق عليـه ابتسامتها لتبتلع وجهه كله ·· وتترك نهدها يرتكز على ذراعه ·· وساقها تلتصق بساقه ·· وهو يقاوم ·· ويقاوم ·· وبخرت المقاومة ما بقى فى رأسه من خمر ·· انه يريد أن يشرب ·· مزيدا من الخمر ··

وفى الكوفنت جاردن التف الجميـع حـول مائدة كبيرة وطلب أحمد كؤوسا من الويسكى ، وقالت جرمين فى بساطة :

ـ هات قزازة ··

وجاءت زجاجة الويسـكى ·· وزجاجة أخرى ·· وبدأ أحمد ينتشى من جـديد ·· ويتكلم كثيرا ·· وينظـر الى جرمين وهى ترقص ·· انها لا تكف عن الرقص ·· ترقص مع كل واحد ·· وهو ينظر اليها كأنه يعد أطرافها حتى لا يسرق أحد من الراقصين قطعة منها ·· انه يحس أنه يمـلك جرمين ·· ولكنه لا يدرى بأى حق يملكها ؟ ·· ولا يدرى ما معنى أن يملكها ··

وجاءت جرمين وجذبته من يده ، وهى تصيح :

ـ قوم ارقص بلاش كسل ·· الرقصة دى على أدك ··

كانت موسيقى التانجو ·· هادئة ، حالمة ·· والأنوار مطفأة ·· لم تبق الا أشعة خافتة تنطلق من عيون الزبائن ··

وأخذها بين ذراعيـه ·· وسـار بها فى خطـوات بطيئة ·· وصدرها ملتصق بصدره ·· وهو يحس بجسدها ·· كل جسدها ·· وبدأت النار تشتعل من جديد ·· وانطفأ وهج الخمر فى رأسه سوى نور أحمر مثير ·· ولم يعد يتكلم ·· انه لا يستطيع الا أن يحس ·· وازدادت خطواته بطئا ·· وذراعه تتجرأ فى ضمها اليه ·· وكفه تتحرك فوق ظهرها ·· وهى تترنم بالأغنية التى تعزفها الموسيقى كأنها قطـة تموء فى صدره ·· مستسلمة ·· مغمضـة العينين ·· والنار وصلت الى قلبه ، فاشتدت خفقـاته ·· خفقات سريعة عنيفة كأنهـا خبطات الزنوج فوق الطبول الكبيرة ·· ولم

يعد يدرى ماذا يصنع ؟ ·· انه لم يعد يستطيع أن يقاوم ·· انه يريد أن يفعل أى شىء ·· ليزيح النار عن جسده ·· يقبلها ·· يضربها ·· يأكلها ؟ ··

وفجأة ··

عزفت الموسيقى لحنا صاخبا ·· سوينج ·· وابتعدت عنه جرمين مرة واحدة كأنها تلقت أمرا من السماء ·· وقذفت بفردتى حذائها من قدميها فى الهواء ، وأخذت ترقص بعنف وجنون كأن الشيطان يقرصها فى كل قطعة من جسدها ··

وهو واقف وسط حلبة الرقص ذاهلا مرتبكا ·· يحاول أن يكتفى بالوقوف فيحس بالخجل ·· والراقصون قد كونوا حلقة تحيط بهما وبدأوا يصفقون لجرمين ، صفقات على نغم الموسيقى ويصرخون ، كأنهم يدفعونها الى مزيد من الجنون ··

والعرق يتصبب من جبين أحمد ·· ووجهه يزدرد ·· وأنفاسه تضيق ·· انه يحس بأنه أهين ·· يحس بأن الناس يضحكون عليه ·· يحس أن رقصات جرمين قهقهات تجرح كرامته ··

وفجأة هجم عليها ، وقبض على رسغها بعنف ، وعيناه غاضبتان ، محتدتان ، كأنه على وشك أن يقتلها ··

وتأوهت جرمين قائلة : آى ··

ثم رفعت اليه عينيها كأنها لا تصددق ·· لا تصدق أنه بهذه القوة ·· أو هذا العنف ·· وقفزت الى شفتيها ابتسامة كأنها وجدت فيه شيئا جديدا ·· شيئا تبحث عنه ·· وتحتاج اليه ··

وقال فى صوت صاخب : كفاية ·· ياللا ··

وشدها وراءه كأنه انسان العصر الحجرى ، وقالت وهى تكاد تنكفىء على وجهها : استنى لما أجيب جزمتى ··

ولم ينتظر ·· ظل يشدها وراءه ·· وناولها أحد الراقصين حذاءها فأمسكت به فى يدها وهى مندفعة وراء أحمد والزبائن

يصيحون وراءهما فى استنكار : يى ·· يى ·· يى ·· يى ··

ويحتجون على الرجل الذى حرمهم من متعة مشاهدة الشيطان وهو يقرص كل قطعة من جسد جرمين ··

وخرجا من حلقة الرقص ·· وقالت جرمين فى صوت خافت كالفحيح ، وهى لا تزال تنظر اليه بابتسامتها ، وتضع حذاءها فى قدميها : تيجى نزوغ ؟ ··

وقال أحمد وصدره لا يزال يتهدج من الغضب : أحسن ··

ثم نادى الجرسون ودفع له حسابه دون أن يحاسبه ، وخرج مع جرمين دون أن يمرا على مائدتهما مستأذنا أصدقاءهما ··

وقال أحمد وقد ركب هو وجرمين فى سيارة أجرة : على فين ؟

قالت وهى تلقى بنفسها فوق صدره : على البيت ؟ ··

قال : فين ؟ ··

قالت ورأسها لا يزال فوق صدره : مش عارف بيتك فين ؟

قال فى دهشة : بيتى ·· ما نقدرش نروح بيتى ! ··

قالت بلهجتها العربية المكسرة ، وهى تمسح رأسها فى صدره كأنها تبحث فيه عن مكان مريح تتوسده :

– انت لا عندك بيت ·· ولا عربية ·· امال عندك ايه ؟ ··

قال وهو يحيطها بذراعه وقد سكن غضبه : عندى جرمين ··

قالت وهى مغمضة العينين : وحا تعمل ايه بيها ؟ ··

قال : حا احبها طول عمرى ··

قالت : طيب قول للسواق يطلع على شارع سليمان باشا ··

وأخذته الى هناك ·· الى بيت احدى صديقاتها ·· ودخل وصدره يخفق بالرهبة ·· أنه يعلم ما هو مقدم عليه ·· ولكنه لا يدرى كيف يتصرف ، ولا يدرى كيف يقدم ، والرهبة تشتد به ·

وجلس بجانبها على الأريكة العريضة ·· وهو يبتسم فى بلاهة ·· ولا يجد كلاما يقوله ·· أحس أن شخصيته المترددة الضائعة قد

عادت اليه · ·وبدأ يقاوم هذه الشخصية ·· انه لا يستطيع الآن أن يتراجع · ·لو تراجع لعاش طول حياته انسانا فاشلا ·· ، يحاول أن يتكلم ·· كلاما سخيفا ·· ويحاول أن يأتى بحركة · حركة أشد سخفا ··

وقالت جرمين وهى تنظر اليه بعينين نهمتين كأنها تختبر قواه .

ـ اتعلمت البوس والا لسه ؟ ··

قال فى ارتباك يحاول أن يخفيه تحت ابتسامته : جربى ··

واقتربت الشفاه ·· وانطلق ··

انطلق كل شبابه المحروم الذى اختزنه طوال خمسة وعشرين عاما ·· وجرمين لا تصدق ·· لا تصدق أنه لا يزال على ظهر الأرض شاب بكر وهو فى الخامسة والعشرين من عمره ·· ولا تصدق أن الشاب البكر يمكن أن يكون بهذا الجنون ، وهذا العنف ، وهذا الجزع ·· انه لا يريد أن يكف عنها ·· انه لا يشبع ·· وهى قد أعطته ·· انها منهكة ·· تحس كأنها ممزقة ·· لقد أخذت وأعطت فى ليلة واحدة قدر ما أخذته وأعطته طول عمرها ·· وهو لا يريد أن يشبع ··

وكانت الساعة الثالثة صباحا عندما دفعت به دفعا خارج البيت ·· وهى تهمس كأنها تطمئنه : حا اضرب لك تليفون ··

ووقف فى الشارع ينظر الى العمارة ، كأنه يتأكد من عنوان الجنة ··· ثم عاد الى بيته يضرب بقدميه فى الظلام ، ملتفا بنشوته ·· ونام ·· وبين شفتيه ابتسامة ·· وفى رأسه طنين خافت ·· وقام فى الصباح ، وهو يحس بأنه انسان جديد ، أكثر مما يحس برأسه المثقل ، وشفتيه الجافتين ··

يحس بأنه كبر ·· بأنه بطل ·· بأنه انتصر ··

انتصر على الحرمان ·· انتصر على نفسه ··

وذهب الى الحمام واغتسل ، وهو يخطو خطوات يدق بها

الأرض كأنه يتباهى بانتصاره ·· ودخل الى أمه وانحنى يقبل يدها ·· وقالت له فى صوت حزين :

ـ انت اتأخرت قوى يا أحمد امبارح ·· شغلتنى عليك ··

قالتها فى تردد كأنها تخشى أن تغضبه ··

وقال وهو لا ينظر اليها : كنت ···

ثم توقف برهة ، لقد كاد يقول انه كان مدعوا فى حفلة ، أو فى عرس أحد أصدقائه ، ثم تذكر أنه لا يستطيع أن يلبى دعوة الى حفلة أو دعوة الى عرس ، وهو لا يزال فى أيام الحداد على أخيه ·

وأتم كلامه قائلا : كنت سهران مع واحد صاحبى ، والكلام أخدنا ··

وقالت الأم :

ـ طيب يا أحمد ·· بس لما تبقى ناوى تتأخر ·· ابقى اضرب تليفون ، علشان ما ننشغلش عليك ·· انت عارف حالتى ·· من يوم حادثة ممدوح ، وأنا مش مطمنه على حد منكم أبدا ··

وقال أحمد وهو صادق فى أساه : حاضر يا ماما ·· أنا آسف·

وذهب الى غرفته ، وارتدى القميص والبنطلون ، ووضع يده فى جيبه وأخرج ما بقى معه من نقود وعدها ·· لم يبق معه الا جنيهان وخمسة وعشرون قرشا ·· ولقد خرج من البيت أمس ومعه خمسة وعشرون جنيها ·· لقد أنفق فى ليلة واحدة أكثر من عشرين جنيها ·· أكثر من مرتبه فى شهر ··

وأطلق من شفتيه صفيرا خافتا ، كأنه يتعجب من نفسه ··

ثم ابتسم ·· انها ليلة تستحق أكثر من عشرين جنيها ··

وخرج من البيت والساعة الثانية عشرة ظهرا ، ولم يذهب الى الوزارة ·· اتجه مباشرة الى النادى ·· وهو لا يزال يسير كالديك النافش ·· متباهيا بنفسه ·· متباهيا بانتصاره ·· وينظر حوله مبتسما فى استعلاء ·· ويحس احساسا جديدا بالثقة ·· والقوة

.. وكل شىء يراه يبتسم له .. كل شىء جميل ، يستحق الابتسام .. وهو يفكر فى جرمين .. يفكر فيها بلا ارتبـاك .. انه يعرف الآن ماذا يريد منها ، ويعرف كيف يأخذه .. وينحرف ذهنه الى شهيرة .. فيبتسم كأنه يبتسم لصـورته وهو طفـل كأنه يبتسم لذكريات الطفولة ، لقد كبر الآن على شهيرة ..

ودخل النادى ..

ولمح شهيرة جالسة وحدها على مائدة بجوار حوض السباحة ، وحاول أن يبتسم نفس الابتسامة .. ولكن ابتسامته ارتبكت .. ان شهيرة ليست مجرد ذكرى طفولة .. انهـا لا تزال تعيش فى صدره .. انها تكبر معه كلما كبر ..

وتقدم اليها ، وقال منخلال ابتسامته المرتبكة: : ازيك ..

ورفعت اليـه عينين مهمومتين ، وقالت فى صـوت خافت

ــ بونجور ..

ثم أدارت رأسها عنه كأنها لا تطيق أن ترى وجهه ..

وقال وهو يحاول أن يكون رقيقا : أقدر أقعد ؟ ..

قالت وهى لا تزال مشيحة بوجهها عنه : اتفضـل ، الكرسى فاضى .

قال : انتى زعلانة ؟ .. فيه حاجة مضايقاكى ؟ ..

قالت : لا .. أبدا ..

ثم التفتت اليه مرة واحدة كأنها ضاقت بكتمانها ، وسألته فى حدة : انت كنت سهران مع جرمين امبارح ؟ ..

وارتفع حاجباه دهشة ، وتلجلج لسانه .. واستطردت شهيرة كأنها تقطع عليه الطريق : ماتكدبش .. عمرو كان سهران معاكم امبارح ، وقال لى على كل حاجة .. وقال لى انك خرجت معـاها لوحدكم آخر الليل .. ؟ !

قال فى استسلام : أيوه .. كنت سهران مع جرمين ! ..

قالت : وجاى تقعد معايا ليه ؟ ··
قال : أنا مش فاهم انتى زعلانة ليه ؟ ··
قالت : علشان اللى يمشى مع جرمين ، ما يصحش يعرفنى ولا تكون بينى وبينه حاجة ··
قال : بس انتى حاجة تانية غير جرمين ··
قالت : طبعا أنا حاجة تانية ··
قال واحساس خبيث بالمباهاة يراوده ، كأنه يحاول أن يحكى لشهيرة على كل ما حدث أمس :
ـ ما تنسيش يا شهيرة انى شاب ·· وفى حياة كل شاب واحده زى جرمين ·· مالهاش أثر فى حياته ، إنما محتاج لها ··
ونظرت اليه شهيرة فى دهشة كأنها ترى أمامها انسانا لا تعرفه ، وقالت وهى مبهوتة : انت اتغيرت يا أحمد ·· انت اتغيرت خالص !
وقال بلا مبالاة : مهما اتغيرت ·· فأنا شاب ·· واللى آخده من جرمين ما اقدرش آخده منك ··
قالت وشفتاها ممتعضتان ، كأنها تتقزز منه :
ـ عايز تاخد منى ايه يا أحمد ؟ ··
قال : اللى عايزه من جرمين ·· مش عايزه منك ! ··
قالت محتدة وقد بدأ صدرها يتهدج ، ووجهها يحتقن :
ـ ايه هوه اللى انت عايزه ·· ؟ اتكلم ! ؟ ··
قال فى برود : انت فاهمة ··
وانتفضت واقفة ، وقالت فى ثورة وهى تحاول أن تسيطر على صوتها حتى لا يعلو ، فيأتى صوتا مبحوحا ذبيحا :
ـ اسمع يا أحمد ، أنا حبيتك لأنك مش زى بقية الشبان · وكنت أنت أول واحد أحبه ·· حبيتك لأنى كنت فاكراك انسان نظيف تقدر تحترمنى وتصون كرامتى ··· ماكنتش فاكره ان حاييجى يوم تبقى زى الباقيين ·· والكلام اللى بتقوله ده أنا أعتبره

إهانة لكرامتى ، وعدم احترام لى ٠٠ مافيش حاجة اسمها شاب محتاج لواحدة زى جرمين ٠٠ الشاب لازم يصون نفسه زى البنت ما بتصون نفسها ٠٠ وكنت فاكرة انك تقدر تصون نفسك ٠٠ كنت فاكرة انك انسان محترم يقدر يحترمنى ويحترم شعورى ٠٠ انما ٠٠

وسكتت قليلا ٠٠ وابتلعت ريقها ، كأنها تحاول أن تطفىء به ثورتها ، وأحمد جالس فى مكانه مبهوتا ، وعلى شفتيه ابتسامة غبية ، كأنه لا يفهم ما تقوله ٠٠ كأنه لا يفهم سر ثورتها ، مع أنه يحاول أن يقنعها أنه شاب كبقية الشبان ٠٠

واستطردت شهيرة قائلة :

ـ أرجوك ٠٠ بعد النهاردة مش عايزاك تكلمنى ، ولا عايزة أشوفك ! ٠٠ أنا قرفانة منك ! ٠٠ قرفانة ٠٠ !

ثم سارت فى خطوات عصبية سريعة وهى تتأرجح فى مشيتها كأنها لا تستطيع أن تحتمل ثقل الدموع فى عينيها ٠٠

وأحمد جالس مكانه لا يتحرك ٠٠

ثم هز كتفيه بلا مبالاة ٠٠ وهو يقول لنفسه : انها لا تزال طفلة ، لا يهم ، انه يستطيع أن يسترضيها غدا أو بعد غد ٠٠

٤

عاد أحمد الى البيت وهو لا يزال منتشيا برجولته الجديدة يسير كالديك المنفوش ، وابتسامته مدلاة على جانب من شفتيه ٠٠ ولم يكن قد التقى بجرمين فى النادى ، ولكنه كان واثقا من أنها ستتصل به فى التليفون ٠٠ ولم تكن ثورة شهيرة عليه قد تركت فى نفسه أثرا ٠٠ انه واثق من انه يستطيع ان يستعيدها عندما يريد ٠٠ ان ثقته بنفسه ، وبشبابه ، وبقدرته على النساء ـ هذه الثقة

التى اكتسبها من ليلة قضاها مع جرمين ـ أصبحت تسع كل نساء الأرض ·· كل النساء بين يديه وتحت أمره ··

ووجد أحمد العائلة كلها ملتفة فى البهو الخارجى فى انتظاره لتتناول طعام الغداء ، وبينهم عصام خطيب ليلى ··

وتقدم يسير فى خطواته المتكاسلة ، وصافح عصام بحرارة وتعلقت عيناه برهة برباط العنق الأسود الذى يضعه عصام ، واهتزت رموشه كأنه يطرد بها شبحا انتصب أمام عينيه ، ثم جلس بجانبه وقال وهو يبدو مرحا : ازى حال المصنع ؟ ··

وقال عصام وهو يمسح بيده على شعره اللامع ، كأنه يخشى عندما يتكلم أن تسقط منه شعرة بتأثير اهتزازات صوته :

ـ عال ·· ابتدينا نبنى عنبر جديد ··

وقال أحمد : أنا عايز أعرف ازاى أسستم المصنع ده ؟ ·· وايه اللى خلا والدك يفكر انه يشتغل فى النسيج ؟ ··

وقال عصام : دى حكاية طويلة ·· و ··

وقاطعته الأم وقالت وهى تنظر الى ابنها كأنها حائرة فيه :

ـ مش نقوم نتغدى ، وتبقوا تكملوا كلام واحنا بناكل ؟ ··

وقال أحمد دون أن ينظر الى أمه : معقول ··

وقام أفراد العائلة ·· وتقدمت الأم وبناتها الى حجرة الطعام وأحمد وعصام يسيران خلفهن ، ولا يزالان يتحدثان عن المصنع ··

وجلست الأم على رأس المائدة ·· وعلى يمينها مقعد ممدوح الخالى ·· كأنه قبر أقيم فى البيت ·· ثم مقعد تجلس عليه فيفى ·· وعلى يسار الأم جلست نبيلة ، ثم عصام ، ثم ليلى ·· وجلس أحمد فى المقعد المواجه لأمه ·· مقعد رب العائلة ·· ولكنه ما كاد يجلس عليه ، حتى قفز مرة واحدة ، كأنه قرر فجأة أن يهجم على غريمه وهو يحاول أن يبتسم : ترتيب القعاد ده مش عاجبنى ··

ثم ترك مقعده ، ولف حول المائدة ، ووجهه محتقن ، وجلس فى مقعد ممدوح ·· بجانب أمه ··

واتجهت أنظار أمه وأخواته اليه ، وفى عيونهن جزع وخوف ·· كأن أحدا يحاول أن ينبش قبر ممدوح ·· يحاول أن يقلقه فى نومه ·· ثم نظرت كل منهن الى الأخرى ، كأنها تستغيث بها ·· ثم شعرن كأنهن أضعف من أن يبدين رأيا ·· أضعف من الكلام ·· فسكتن سكوتا حزينـا ضعيفا ·· وعصـام يطوف بعينين غبيتين فوق وجوههن كأنه لا يفهم شيئا ·· ثم يستقر بعينيـه فوق وجه أحمد كأنه يسأله : ماذا حدث ؟ ··

وازداد احتقان وجه أحمـد ·· وارتبك ·· أحس كأن المقعد الذى جلس عليه واسع عميق ، وكأنه يغوص فيـه ·· ثم انتابه احساس بأنه يجلس فوق ساقى ممدوح ·· وهم أن يقفز من فوق المقعد ويعود الى مقعده ·· ولكنه تمالك نفسه ·· بذل مجهـودا عنيفا ليتمالك نفسه ·· استعان بكل ارادته ، وكل عنـاده ، وكل العقد التى تدفعه الى تكوين شخصيته الجديدة ·· وأمسك بالملعقة وهم أن يغترف من طبق الشـوربة الموضـوع أمامه ، ولكن يده ارتعشت ، وسقطت الملعقة فوق الطبق ·· وصدر لسقوطها صوت حاد ·· كأنه صرخة انسان ·· وقفزت رؤوس الأم وبناتهـا وفى عيونهن نظرات جزعة ، كأنهن سمعن الصرخة ·· صرخة الانسان ·· صرخة ممدوح ·· ثم خفضن رؤوسهن فى يأس وحزن ··

ومرت فترة صمت ··

ثم التفت الى أمه ، وقال وبين شفتيه نصف ابتسـامة ، كأنه يحاول أن يخفف عنها :

– ده أنا أتارينى كنت بعيد عنـك قوى يا ماما ·· الواحد لما بيقعد جنبك بتتفتح نفسه ··

وابتسمت له الأم ابتسامة حزينة ، وقالت :

ـ انت عمرك ما كنت بعيد عنى يا أحمد ! ..

ثم أحنت رأسها ، وعادت تشرب من طبق الشوربة ، كأنها تشرب لوعتها .. ثم لم تلبث أن فرت دمعة من عينيها .. ورفعت فوطة المائدة ومسحتها بها ، وهى تزيد رأسها انحناء حتى لا يرى أحد دمعتها .. ولكن أحمد رآها .. ووضع الملعقة من يده فى حرص ، حتى لا تسقط مرة ثانية ، ولا تصدر عنها صرخة .. ثم مد يده ووضعها فوق يد أمه ، وقال فى حنان ، كأنه يقنعها بنظريته فى الجلوس على مقعد ممدوح :

ـ كده أحسن يا ماما .. صدقينى .. كده أحسن ..

وقالت الأم وهى تغتصب ابتسامة :

ـ طيب يا حبيبى .. برضه كده أحسن ..

ورفع أحمد رأسه وطاف على وجوه أخواته كأنه يسأل كلا منهن : هل لديها اعتراض ؟ .. هل تريد أن تناقشه ؟ ..

ولم تعترض واحدة من البنات .. ونظرت ليلى الى خطيبها عصام كأنما تطلب منه أن يتكلم وينقذ الموقف .. ولم يتكلم عصام والتفت أحمد الى نبيلة قائلا وهو يحاول أن يبدد الجو الثقيل الذى يحيط بهم : رحتى الكلية النهاردة يا نبيلة ؟ ..

وقالت نبيلة فى اقتضاب : أيوه ..

وعاد أحمد يقول : والامتحان امتى ؟ ..

وقالت نبيلة فى اقتضاب أيضا : فاضل شهر ..

والتفت أحمد الى فيفى وقال وهو يبتسم : وانتى يا فيفى ؟

وقالت فيفى والسخط فى عينيها وبين شفتيها : رحت ..

وقال وهو يمنحها ابتسامة أكبر :

ـ وما عزمتيش الأستاذ أمين على الغدا ليه ؟ ..

قالت كأنها تشتمه : مش حا اعزمه ..

وقال أحمد من خلال ابتسامته : أحسن .. خليه هو يعزمك .

وضحك ضحكة صغيرة ··

وقالت فيفى فى حدة : من فضلك ·· ده مش موضوع هزار وكمان مش وقت هزار ··

وقال أحمد وهو لا يزال مستمرا فى ضحكته الصغيرة الخافتة :

ــ هو الهزار يبقى الساعة كام ؟ ··

واحتقن وجه فيفى ، وتجمعت أعصابها للثورة ·· وأدار أحمد وجهه عنها كأنه يهرب من ثورتها ، ونظر الى ليلى ·· وقبل أن يتكلم ، قالت ليلى بسرعة كأنها تساهم هى الأخرى فى تجنب ثورة فيفى : أنا النهاردة نزلت البلد ·· الدكاكين كلها فاضية ·· كل ما اسأل عن حاجة مالقيهاش ··

وقال عصام كأنه يجاملها بالرد عليها :

ــ أصل ما فيش حاجة بتيجى من بره دلوقت ··

ولم يرد أحد ··

سادت فترة صمت ، ووجه فيفى لا يزال محتقنا ·· والأم قد نكست رأسها فوق طبقها ·· ونبيلة شاردة ، تنقل عينيها بلا هدف ·· وأحمد لا يطيق الصمت ·· ان احساسه بالمقعد الجالس عليه ، ينشط كلما كف عن الكلام ·· وهو يريد أن يهرب من هذا الاحساس ·· يريد أن يتكلم ··

وقال فجأة كأنه يهرب فعلا :

ــ ما قلتليش يا عصام ·· أسستم المصنع ازاى ؟ ··

وقال عصام وهو يشد من صدره نفسا عميقا كأنه مضطر أن يشترك فى حديث يضايقه :

ــ والدى أسسه من خمسة وتلاتين سنة ·· كان مصنع صغير ·· وكانت الأنوال كلها باليد ·· وشوية شوية ·· كبر المصنع ·· وابتدينا نشترى أنوال ميكانيكية من ألمانيا ··

وسكت عصام كأنه روى القصة كلها ··

ولكن أحمد لم يسكت ، ظل يلاحقه بالأسئلة ، وهو يرد عليه بأجوبة قصيرة مقتضبة .. والأم وبناتها ساكتات ، حتى انتهوا من تناول الغداء ..

وكان أحمد أول من ترك مقعـــده .. وقام واقفا وهو يقـــول لعصام : عن اذنك يا عصام .. أنا حا ادخل أستريح شوية ، أصلى ما نمتش امبارح كويس .. وإنت مش غريب ..

ثم خرج الى البهو ، وحمل آلة التليفون ، وجر السلك الطويل وراءه ، ودخل بها الى غرفته والبنات يتبعنه بعيونهن ..

وجلس عصام بجانب ليلى فى البهو الخارجى ، والأم رفيقى ونبيلة يحطن بهما . ورشف من فنجال القهوة الذى حمله اليه محمد السفرجى ، ثم مال الى ليلى وقال هامسا :

ـ ايه رأيك لو خرجنا الليلة نتفسح شوية ؟ ..

والتفتت اليه ليلى كأنها بوغتت ، وقالت بسرعة وحدة

ـ لا .. نتفسح ازاى ؟ .. انت عايز الناس يقولوا ايه ؟! ..

وقال عصام : ما احنا مش حانروح حتة زحمة .. نقعد فى حتة فاضية والا نتمشى شوية بالعربية ..

وقالت ليلى وهى لا تزال محتدة : لا ..

وكانت مخلصة فى رأيها .. كانت تؤمن فعـــلا بأن ليس من حقها أن تخرج مع خطيبهـــا ، وهى لا تزال فى أيام الحداد على أخيها .. وتنبهت الى اخلاصها .. وتعجبت .. لماذا تشعر الآن بكل هذا الاخلاص لمظاهر الحزن على ممـــدوح .. ولم تشـــعر به عندما ذهبت الى لقاء فتحى .. وعندما عزفت على البيانو .. ربما لأنها تحب فتحى ، وتحب البيانو .. ولا تحب خطيبها .. ربما لأن كل مظاهر الحزن هذه لا تعبر عن اخلاص لذكرى ميت . ان الناس تمارس هذه المظاهر خوفا من بعضهم البعض ، تماما كما يســـير قائد السيارة على اليمين لا لأنه مقتنع بالســـير على اليمين ولكن

خوفا من رجل البوليس ، وخوفا من بقية سائقى السيارات ·· انه اندفاع اجتماعى لا أكثر ولا أقل ·· اندفاع القطيع فى الطريق المرسوم له ·· وهى تتمسك بهذه المظاهر الآن أكثر من أى وقت آخر ، لأنها وجدت فيها حجة ترفض بها الخروج مع عصام ··

ولكن لماذا لا تخرج مع عصام !

هذا أرحم من أن تجلس فى البيت ·· وحيدة ، زهقانة ، محرومة من العزف على البيانو ·· وأختاها تستذكران دروسيهما وأمها صامتة فى غرفتها ·· وعصام لن يستطيع أن يضايقها ·· لن يحاول أن يقبلها أو يمد يده اليها ·· انها تستطيع أن تحتج دائما بحزنها ··

وعاد عصام يقول وفى عنييه توسل :

ـ ما هو لازم تسلى نفسك شوية ·· حرام عليكى اللى انتى عاملاه فى نفسك ده ·· فيها ايه لما تشمى شوية هوا ؟

وقالت ليلى وقد خفت حدتها ، وأفاقت من نوبة الاخلاص الكاذب لحزنها : لا ·· ثم ان ما فيش حد من اخواتى حيرضى يخرج معانا ··

قال كأن بابا من أبواب الأمل قد فتح أمامه : نخرج لوحدنا

قالت فى صوت خافت : تفتكر ماما حاترضى ؟ ! ··

قال فى حماس وهو لا يزال يهمس : انا حا اقنعها ··

وكانت الأم وبنتاها منشغلات عن همس عصام وليلى

والتفت عصام الى الأم وقال وبين شفتيه ابتسامة مهذبة .

ـ تسمحى يا عنايات هانم انى آخد ليلى نشم هوا فى العربية وطبعا تيجى معانا فيفى ونبيلة ؟ ··

وترددت الأم ·· لم تعرف بماذا تجيب ؟ ·· انها لم تعد تعرف ماذا تقبل وماذا ترفض ؟ ·· ان كل مقاييسها قد اختلت ·· وحزمها الذى اشتهر عنها قد تخلى عنها ·· لم تعد تستطيع أن تحزم رأيا ·

وقالت نبيلة : أنا حا اقعد أذاكر ..

وقالت فيفي : ده مش وقت شم هوا ! ؟ ..

وقال عصام وهو لا يزال يوجه حديثه الى الأم :

ـ أصل ليلى باين عليها تعبانة .. ومافيهاش حاجة انها تتفسح شوية فى العربية .. تخفف عن نفسها شوية ..

وقالت ليلى فى تمنع غير صادق : بلاش يا عصام .. بلاش أحسن .

وقالت الأم : زى ما تشوف يا عصام .. بس ما تتأخروش ..

واتسعت ابتسامة عصام رغما عنه ، وقال لليلى وهو يقوم واقفا : حا افوت عليكى الساعة ستة ..

ثم تقدم يقبل يد الأم .. وصافح الشقيقات .. وخرج ..

وارتفع رنين جرس التليفون من غرفة أحمد والتفتت رؤوس البنات ، كأن أملا قد شد كلا منهن ، ثم نكسن الرؤوس ، كأنهن يدارين آمالهن ..

وكانت الساعة الخامسة عندما خرج أحمد من حجرته يرتدى القميص والبنطلون ويحمل فى يده « بلوفر » من الصوف .. وتوجه الى غرفة أمه ، وجلس بجانبها وعلى شفتيه ابتسامة كبيرة وفى عينيه نظرات متوددة لا تخلو من خبث ساذج كمن يريد شيئا ولا يدرى كيف يصل اليه .. وقال وهو يضع فى صوته رنة حنان مفتعل : انتى مش عاجباني اليومين دول يا ماما .. لازم تبقى أقوى من كده .. نفسى أشوفك بتروحى وتيجى وتشخطى فينا زى زمان .. ده أنا بقى لى ييجى شهر ماسمعتكيش بتشخطى فى حد .. ولا حتى فى محمد السفرجى !؟..

وقالت الأم وهى تتنهد : خلاص يا أحمد .. ما بقتش قادره .. هوه اللى حصل كان شوية ؟ ! ..

قال وهو يحتضن يدها فى يده :

– اللى حصل حصل ·· واحنا محتاجين لك دلوقت أكتر من الأول ··

قالت وهي تتنهد أيضا : يعنى عايزنى أعمل ايه ؟ ·

قال فى حماس : اخرجى ·· اتفسحى ·· ارجعى للدنيا

قالت كأنها تلومه : أخرج أروح فين ؟ ·· ما خلاص ·· لا أنا قادرة أخرج ، ولا أقعد ··

قال وهو يقبلها فوق وجنتها قبلة سريعة :

– ما تقوليش كده يا ماما ·· أنا بكره حا أخدك أخرجك ·· نروح ناخد الشاى فى جنينة الحيوانات ·· فى ذمتك بقى لك أد ايه ما رحتيش جنينة الحيوانات ؟ ·· مش أقل من عشر سنين ··

قالت وهى تبتسم ابتسامة حزينة ، وتحنى رأسها كأنها خجلة من تدليله لها : يمكن أكتر ··

ثم التفتت اليه وقالت ، وهى تمسح وجهه بعينيها الحنونتين :

– اخرج انت يا حبيبى ·· المهم انى أشوفك دايما كويس ·· أنا خلاص ما بقاش لى الا انت ·· انت كل أملى ·· وعلشانك انت أنا عايشة لحد دلوقت ··

وأحس أحمد بشىء يتقلص فى صدره ·· أحس كأن يد أمه قد امتدت اليه وهزته بعنف كأنها توقظه ·· أحس أنه أضعف من أن يكون أملا لأمه ·· كأنه يخون هذا الأمل ·· كأنه يخون أمه ·· وأحس بشخصيته القديمة تهم أن تعاوده ·· الشخصية الضائعة التائهة ··

وقفز واقفا مرة واحدة ، وقال وهو يبذل مجهودا ليحتفظ بابتسامته ويحتفظ بعينيه ثابتتين على وجه أمه :

– أنا حا أقوم اخرج ·· بس على شرط ·· توعدينى انك تخرجى معايا بكره ··

وقالت الأم وهى تتطلع اليه ·· الى أملها : باذن الله يا حبيبى

ثم جذبته اليها وقبلته فوق وجنتيه ··

وسار حتى باب الغرفة ·· ثم توقف برهة ·· واستدار يواجه أمه ·· وقال وهو لا ينظر اليهـا : أنا حا أقول لك حاجة تزعلك يا ماما ··

قالت وقد اضطربت النظرات فى عينيها : خير ··

قال وهو ينظر الى الأرض : أنا عايز فلوس ··

وأطلت نظرات جزعة من عينى الأم ·· كأنها فوجئت ·· كأنها لم تكن تتوقع أن يصل أحمد الى هذا الحد ··

واستطرد أحمد قائلا : أصلى امبارح اضطريت أسلف واحد صاحبى العشرين جنيه اللى أخدتهم منك ·· كان عليه حجز ·· وكانوا حايبيعوا عفش بيته ··

وظلت النظرات الجزعة منطلقة من عينى الأم ·· انها لا تصدقه نعم ، لا تصدقه ·· ورأت أمامها فجأة ممدوح ، وهو واقف أمامها مرتديا القميص والبنطلون ، ويبتسم ابتسامته المستهترة وخصلات شعره الفاتح طائرة فوق رأسه ، ويطالبها بنقود ·· انها لم تكن تصدق ممدوح أيضا ·· لم تكن تصـدق الحجج التى يأتى بهـا مطالبا بنقود ·· فماذا حدث عندما لم تصدقه ·· مات ·· قتلته لأنها لم تعطه النقود التى طلبها ··

واشتدت النظرات الجزعة فى عينيها ··

ثم أرخت عينيها فى صمت ·· وقامت تجر ساقيها ، وفتحت دولابها ، وقالت وهى تتنهد دون أن تلتفت الى ابنها :

ـ عايز كام يا أحمد ؟ ··

قال وكأنه يعانى أزمة ضمير : انتى زعلتى منى يا ماما ؟ ··

قالت ووجهها مختبىء فى الدولاب :

ـ لا ·· أبدا ·· عايز كام يا حبيبى ·· خمسة جنيه يكفوك ··

قال وهو يبتلع ريقه : ده كتير ·· اتنين جنيه كفاية ··

ولم يكن صادقا ·· وأحست أنه ليس صادقا ·

وخرجت من بين ضـلفتى الدولاب ، وأعطتـه ورقة من ذات الخمسة جنيهات ، وهى تبتسم ابتسامة مسكينة يائسة ··

وقال أحمد وهو يأخذ الجنيهات الخمسة بيد مترددة

ـ مش زعلانة منى ؟ ··

قالت : ازعل منك ازاى يا أحمد ؟ ! ·· دى فلوسك ·· تعمل بيها اللى انت عايزه ·· !

وقال أحمد بسرعة : مرسى يا ماما ·· ربنا يخليكى لى ··

وأمسك يدها ، وانحنى يقبلها بسرعة ويرفعها الى جبينه ، ثم خرج من الغرفة دون أن يحتمل أن ينظر الى أمه مرة ثانية ·· وأمه تصيح وراءه : حا تتأخر يا أحمد ··

وقال وهو خارج الغرفة : لا ··

وسار فى خطى سريعة ·· وكلما هم ضميره أن يتحرك ، تذكر جرمين ··

وساد البيت صمت ثقيل ··

والظلام يزحف ·· والأضواء الكهربائية تبدو كأنها تعبة من مقاومة الظلام ·· وفيفى ونبيلة ، انتقلتا الى غرفة المكتب ، وبدأتا فى استذكار دروسهما ·· وليلى فى غرفتها ترتدى ثوبها الأسود أمام مرآتها ، استعدادا للخروج مع عصام والأم فى غرفتها وحيدة ، تائهة فى حزنها ··

وارتفع صوت نداء سيارة أمام البيت ·· وأسرعت ليلى بتكملة زينتها ·· ولفت « ايشارب » أسود فوق رأسها ·· وصـعد عم عبد الله البواب ، يعلن أن عصام فى سيارته ينتظر ليلى ··

وتباطأت ليلى ، كأنها تذكرت أن عصـام يجب أن ينتظرها ، وأن يطول انتظـاره ·· وقالت للبواب : قول لعصـام بيه ·· أنا نازلة ··

ثم فكت الايشارب من على رأسها ، وأعادت لفه من جديد وفكرت أن تمر بقلم الكحل حول عينيها ·· ولكنها عدلت ·· لا تدرى لماذا ؟ ·· ان الكحل أسود فى لون الحداد ، فلماذا لا تكتحل به ·· ولكنها عدلت ·· وتباطأت اكثر أمام مرآتها ، ثم خرجت الى غرفة أمها ·· وقالت فى اهمال : أنا نازلة يا ماما ··

ورفعت الأم رأسها الثقيل ، وقالت فى ضعف :

ـ طيب يا حبيبتى ·· ما تتأخريش ··

وانسحبت من أمام أمها ، وتوجهت الى غرفة المكتب ، وقالت لأختيها : أنا نازلة ··

وقالت نبيلة : مع السلامة ··

وقالت فيفى : فى ذمتى انتى تستاهلى قطع رقبتك ··

وقالت ليلى كأنها تكيد أختها : لما ارجع ابقى اقطعيها ·· وخرجت ··

وعاد البيت يسوده الصمت الثقيل ·· والأضواء الكهربائية تبدو باهتة كأنها تعبة من مقاومة الظلام ··

وارتفع رنين جرس الباب ·· وفتح محمد السفرجى ··

ثم هرول الى غرفة المكتب ، وقال للأختين : عبد السلام بيه ·

وتبادلت فيفى ونبيلة النظرات ، وانقلبت شفاههما فى امتعاض، وقالت نبيلة : روح قول للست الكبيرة ··

ثم التفتت الى فيفى قائلة : جاى يعمل ايه ده ؟!:··

وقالت فيفى فى سخط : ما هو فاضى ·· ما يجيش ليه ؟ ··

وهرول محمد السفرجى الى غرفة الأم ، واطل برأسه من الباب وقال : عبد السلام بيه ·· يا ست هانم ··

ورفعت الأم عينيها فى دهشة كأنها فوجئت بهذه الزيارة وقالت متسائلة : مش معاه أخويا عزت بيه ؟ ··

وقال محمد السفرجى كأنه يشاركها دهشتها : لا ·· لوحده

واشتدت الدهشة فى عينى الأم .. وترددت قليلا .. ثم قالت كأنها لا تجد شيئا آخر تقوله : خليه يتفضل فى الصالون . واعمل قهوة ..

وانتابتها حيرة ، وارتباك .. كأنها فتاة صغيرة فوجئت بدخول رجل عليها .. وقامت وهى تحس بدمائها تتدفق فى عروقها .. بسرعة .. وحرارة .. وهمت أن تخرج من الغرفة .. ثم عادت ووقفت أمام المرآة .. وبدأت تساوى خصلات شعرها بيديها .. ثم أمسكت بالمشط وقررت أن تغير ثوبها .. وفتحت الدولاب لتخرج ثوبا آخر .. ثم .. ثم تذكرت أنها حزينة .. وأحست كأنها خجلت من نفسها لهذا الاندفاع الذى انقادت له .. وعدلت عن تغيير ثوبها ..وأخرجت من الدولاب طرحتها السوداء الكبيرة .. ووقفت أمام المرآة تلفها حول رأسها وعنقها ، وتسدلها فوق صدرها .. ثم همت بالخروج .. ولكنها تذكرت أنها تركت الدولاب مفتوحا فعادت اليه وأغلقته بالمفتاح .. واحتفظت بالمفتاح فى يدها . وعادت تهم بالخروج من غرفتها .. ولكنها تذكرت أنها لا تلبس جوربها ، وأن فى قدميها شبشبا .. فعادت تفتح الدولاب وأخرجت منه جوربا حريريا أسود .. وجلست تضعه فى قدميها .. ثم تضع قدميها فى حذاء .. ثم فجأة انتابتها نوبة من الغضب .. لماذا جاء عبد السلام ؟ .. وكيف تجرأ على أن يحضر وحده دون شقيقها عزت ؟ .. ولماذا تقابله ؟ .. انها لن تقابله .. ستعطيه درسا حتى لا يتجرأ عليها وعلى بيتها مرة ثانية .. ان المفروض ألا تقابله الا فى حضور أخيها .. هو بالذات .. حبها القديم .. الذكرى الوحيدة لأيام صباها وشبابها .. الأمل الذى فقدته يوما ، وعاشت بعده جافة ، تشق الحياة كسكين محراث تجره يد القدر ..

ولكن .. قد يكون وراءه شىء هام جاء من أجله .. ثم .. ثم هذه الانفعالات التى اعترتها منذ جاء .. انها فى حاجة اليها

وكذبت نفسها ·· انها فقط ستراه لعله جاء فى أمر هام ، لا لأنها فى حاجة الى هذه الانفعالات ··

وأتمت وضع قدميها فى حذائها ·· ثم قامت وأغلقت الدولاب واحتفظت بمفتاحه فى يدها ، وخرجت ·· واتجهت الى ابنتيها فى غرفة المكتب ، وقالت فى صوت هامس ، كأنها تخشى أن يسمعها عبد السلام فى الحجرة المجاورة : عبد السلام بيه هنا ··

وقالت نبيلة فى اهمال : عارفين ··

وعادت الأم تقول : قومى يا فيفى قابليه معايا ··

وقالت فيفى فى حدة وسخط : أنا باذاكر يا ماما ·· يعنى أسقط علشان خاطر سى عبد السلام ·· !

وقالت الأم : يا بنتى دى كلها ربع ساعة والا عشر دقائق ··

وقالت فيفى فى عناد : ما اقدرش يا ماما ·· ما اقدرش ·· اعملى معروف ، أنا مش ناقصة ··

والتفتت الام الى نبيلة قائلة : طيب قومى انتى يا نبيلة ··

وقالت نبيلة كأنها تتحفز للثورة :

ـ يعنى أنا اللى بالعب ·· ما أنا باذاكر انا كمان ··

وقالت الأم فى تمرد يائس : يعنى عايزينى أقابله لوحدى ·· !

وقالت نبيلة : وفيها ايه يا ماما ·· يعنى هوه غريب ؟ ! ··

وسكتت الأم برهة ·· ان بنتيها تتخليان عنها ·· وأحمد تخلى عنها ·· وليلى تخلت عنها ·· الدنيا كلها تخلت عنها ·· والدنيا كلها تدفعها دفعا لمواجهة عبد السلام وحدها ·· ولكن كيف تقابله وحدها ·· كيف تجلس فى غرفة مع حبها الوحيد وحدها ·· دون أن يكون معها رقيب ·· انها منذ عرفت عبد السلام وأحبته وهى فى السادسة عشرة من عمرها ، لم تختل به أبدا وحدها ·· كانت تراه فى شبابها من بعيد ·· دائما من بعيد ·· ثم لما تزوجت لم تعد تراه ·· انما تسمع عنه ·· ثم بعد أن مات زوجها ، اصبحت تراه

بصحبة أخيها ٠٠ دائما بصحبة أخيها ٠٠

والآن ٠٠ بعد طول هذا العمر ٠٠ وطول هذه المقاومة ٠٠ هل تستطيع أن تجلس معه فى غرفة ٠٠ وحدهما ٠٠

وسمعت ضربات قلبها ٠٠

وثار مع ضربات قلبها نوع من العناد ٠٠ كأنها تتحدى الدنيا التى تتخلى عنها لعبد السلام ٠٠ ورفعت رأسها وقالت لبنتيها :

ـ طيب ٠٠ خليكو ٠٠ ذاكروا ٠٠

ثم خرجت من الغرفة ، واتجهت الى غرفة الصالون ، وهى تدق الأرض بقدميها كأنها تحاول أن تحطم ضعفها ٠٠ ودخلت ٠

وقام عبد السلام ٠٠ وفرد قامته الرفيعة التى لم تستطع خمسة وخمسون عاما أن تحنيها ٠٠ ومد يده والتقط يدها ، ثم رفعها الى شفتيه المليئتين ، وأحنى رأسه الأشيب الصغير ، وقبلها ٠٠

وقالت وهى تشد يدها من تحت شفتيه

ـ ازيك يا عبد السلام بيه ٠٠ اتفضل ٠٠

وظل واقفا فى انتظار أن تجلس قبله ٠٠ وكان قد اختار جلسته في طرف الأريكة ، فلم تحاول أن تجلس فى طرفها الآخر ، بل اختارت لنفسها مقعداً ذا مسندين ، بجانب الأريكة كأنها حتمى فيه ٠٠

وجلس عبد السلام فى مكانه الذى قام منه ، وقال وابتسامة صغيرة تطل من بين شفتيه المليئتين :

ـ ازيك دلوقت يا عنايات ٠٠

وأحست بدمائها تسرع فى عروقها ٠٠ ان دماءها تسرع دائما فى عروقها كلما سمعت اسمها بين شفتيه ٠٠ وهو يناديها بعنايات ٠٠ عنايات ٠٠ لا عنايات هانم ٠٠

وقالت وهى تقاوم ضعفها ، فتنظر فى يديها ، وتزم شفتيها لتبدو كأنها امرأة حازمة : الحمد لله ٠٠ أحسن ٠٠

قال وهو ينظر اليها بعينين متنهدتين :

ـ أنا آسف اللى اتجرأت وجيت أزورك لوحدى ·· انما كان لازم آجى ، لوحدى ·· امبارح اتفقت مع أخوكى عزت انى آجى معاه ·· لكن اعتذرت فى آخر لحظة ·· لأنى كنت مصمم انى آجى لوحدى ·· وعارف انه يمكن تزعلى ·· انما مقدرتش انى أستنى أكتر من كده ··

وقالت وقد بدأ الضعف يسرى فى أعصابها :

ـ برضه ما كانش يصح يا عبد السلام بيه ··

ونطقت كلمة « بيه » كأنها كانت تد ـ ب الاستغناء عنها ··

واستطرد عبد السلام كأنه لم يسمعها :

ـ أنا جيت لأنى حاسس بكل حاجة انتى حاسة بيها ·· حسيت بالعذاب اللى اتعذبتيه ·· حسيت بالحزن ·· حسيت بالكارثة ·· كنتى انتي بتتعذبى هنا وأنا باتعذب فى بيتى ·· كنتى بتعيطى هنا ·· وأنا باعيط هناك ·· وبعد كده ما قدرتش أستحمل أكتر من كده ·· كان لازم أهرب ·· أهرب من العذاب ومن الحزن ·· انما ما كنتش أقدر أهرب لوحدى ·· كان لازم تهربى معايا ·· ماكنتش أقدر أخرج أتفسح وانتى قاعدة هنا بتعيطى وحابسة نفسك ·· ماكانش ممكن انسى ·· وانتى فاكره ··

وقالت عنايات وهى أشد ضعفا : مافيش لازمة للكلام ده دلوقت ··

وعاد عبد السلام يقول وكأنه لم يسمعها أيضا :

ـ عنايات ·· كفاية ·· كفاية حزن وهم ومصايب ·· احنا ضيعنا عمرنا كله حاسين ببعض ، وبعيد عن بعض ·· انتى اتعذبتى من يوم ما اتجوزتى ·· وأنا كمان ·· انتى كنتى بتتعذبى بجوزك ·· وأنا كنت با تعذب بوحدتي كفاية ·· كفاية ·· لازم نشوف لنا حل ·· ؟

وأحست عنايات بعبير من العطف والحنان يحيط بها ·· عطف وحنان لا تجده من أحد ·· لا تجده من أولادها ، فأولادها لا يحسون بها الا كأم ·· لا يحسون بها كامرأة ضعيفة فى حاجة الى العطف والحنان ·· انهم فى عالم آخر ·· عالم لا تستطيع أن تدخله كامرأة فى حاجة الى من يواسى ضعفها ·· لا تستطيع أن تدخله الا كأم حازمة قوية ·· وهى الآن ليست قوية ولا حازمة ·· انها ضعيفة ·· وهى فى حاجة الى العطف والحنان ·· وهى لا تجد العطف والحنان الا عند عبد السلام ·· الرجل الذى يحس بها كامرأة ·· الرجل الذى يعيش معها فى عالم واحد ·· واحساس واحد ··

وأحست بمزيد من الضعف يسرى فى أعصابها ·· كأن عبير العطف والحنان الذى يحيط بها يخدرها ·· وتمنت لو ألقت نفسها على صدره وبكت ·· بكت بكاء كثيرا ·· ثم هدأت ·· انها هكذا تنسى لوعتها ·· تنسى شقاء عمرها كله ··

ولكنها قاومت بكل مبادئها التى رسخت فى أعماقها ·· بكل تحفظها واتزانها ·· وقالت وكلماتها تقع من بين شفتيها :

ـ ما خلاص يا عبد السلام ، احنا كبرنا بقى ، مافيش لزوم للكلام ده ·· !

وقال عبد السلام كأنه يدافع عن عمره :

ـ احنا ما كبرناش ·· انتى لسه شابة ·· وأنا لسه راجل ·· لسه قدامنا سنين طويلة ·· وحرام اننا نضيعها فى عذاب ·· اذا كنا اتعذبنا فى الأول ، مش ضرورى نتعذب فى الآخر كمان ·· تصورى لو كان البيت ده بيتنا دلوقت ·· كانت بقت حياتنا شكلها ايه ؟ ·· كنا بقينا سعداء أد ايه ؟ ·· أنا حاسس ان البيت ده بيتى ·· طول عمرى حاسس انه بيتى ·· وأكتر من كده ·· أنا حاسس ان أولادك أولادى ·· ولولا حظنا كان زمانهم فعلا بقوا

ولادى ·· ويوم ممدوح ما مات حسيت ان ابنى مات ·· وماقدرتش استحمل موته لوحدى ، كان لازم تكونى جنبى ·· وأنا عارف انك انت كمان مش حا تقـدرى تستحملى موته لوحدك ·· لازم أكون جنبك ·· و ··

وقاطعته كأنها تتوسل اليه أن يرحمها من هذا الكلام :

ـ عبد السلام ·· !؟

واستطرد يقاطعها بدوره : عنايات ·· احنا لازم نتجوز ·· وشهقت ··

وعاد يقول بسرعة ، وهو ينزاح حتى يصبح جالسا على حافة الأريكة ، ووجهه قريب من وجهها :

ـ أنا عارف انك حاتقولى ان ده مش وقتــه علشان نتكلم فى الجواز ·· بالعكس ·· ده وقته ·· لأننا محتاجين دلوقت للجواز أكتر من أى يوم تانى ·· احنا نقدر نعيش بعيد عن بعض فى الأيام العادية ، انما [illegible] تدرش نعيش بعيد عن بعض فى الأيام الوحشة ، الأيام ا[illegible]بنة

وتراجعت عناي[illegible] [illegible]ى مقعدها ، وشهقتها لا تزال فوق شفتيها ·

وقال عبد السلام كأن أحدا لن يستطيع أن يوقفه عن الكلام :

ـ أنا مابقولش اننا نتجوز دلوقت ·· انما نتفق ·· يبقى عندنا أمل نعيش فيه ، ونعيش له ·· طاوعينى يا عنايات ·· كفاية عناد ·· انتى عاندت طول عمــرك ·· كفاية بقى ·· وافقى ·· قولى آه ·· انتى محتاجة لى ·· وأنا محتاج لك ··

وبذلت عنايات مجهودا عنيفا ، وقامت واقفة فى وسط الحجرة، وقالت وطبقة من الدموع تكسو عينيها ·· دموع لها طعم آخر ·· طعم الحزن مخلوطا بالحب ·· اللوعة مخلوطة بالأمل ·

وقالت وهى تحاول أن تتمالك نفسها :

ـ انت اتجننت يا عبد الســلام ، بدل ما تعزينى ، تقــول لى نتجوز ؟ ··

وقال وهو لا يزال جالسا ، وعنقه ممتد اليها ، كأنه يبتهل
ــ ما فيش تعزية لك ولى ، الا اننا نتجوز ..
قالت كأنها تصرخ :
ــ لا .. لا .. مش ممكن أسمع الكلام اللى بتقوله .. مش ممكن حتى أفكر فيه ..
وقال فى توسل وهو يقوم ويقف أمامها : عنايات ..
وقالت وهى تهم بالبكاء :
ــ ارحمنى يا عبد السلام .. ارحمنى .. انت عارف انى مش فى حالتى الطبيعية .. عارف انى ضعيفة ومش مستحملة ..
قال وهو يحاول أن يمسك بيدها :
ــ عنايات .. ما تبقيش عنيدة .. كفاية عند .. انتى بتعاندى نفسك ، مش بتعاندى حد ..
قالت وهى تبعد يدها عن يده ، وتكاد تترنح :
ــ سيبنى يا عبد السلام .. سيبنى اعمل معروف ..
قال وهو يقترب منها : وافقى .. وافقى على اننا نتجوز
قالت وهى ترفع منديلها الصغير المطرز بالسواد ، الى عينيها
ــ ما اقدرش .. مش قادره أفكر .. سيبنى يا عبد السلام
قال : انتى فكرتى كتير .. انتى بقى لك تلاتين سنة وانتى موافقة على اننا نتجوز .. المسألة ما بقتش عايزة تفكير .. عايزة جرأة ..
قالت فى يأس ، ومنديلها المطرز بالسواد فوق عينيها
ــ ما عنديش الجرأة دى ..
وأحنى عبد السلام رأسه ..
ومرت فترة صمت .. يبدده ضجيج عاطفتهما ..
وقال عبد السلام أخيرا فى صوت خفيض يائس

ـ أنا لو خرجت من هنا من غير ما توافقى ، مش حا ارجع البيت ده تانى ، مش حاشوفك تانى ، مش حا اقعد فى مصر كلها ٠٠

ورفعت رأسها اليه فى حركة عنيفة ، وفى عينيها نظرات مذعورة ، كأنها تكاد تصرخ ، لا ٠٠ لا ٠٠ انها لا تريد أن تفقده ٠٠ انه كل ما بقى لها من عالمها ٠٠ انه الشىء الوحيد الذى تملكه فى حياتها ٠٠ لقد كانت ملكا لزوجها ٠٠ وهى الآن ملك لأولادها ٠٠ ولكن عبد السلام شىء آخر ٠٠ انها تحبه ٠٠ انه شىء لها انه الحب الذى تملكه ٠٠

وقالت فى توسل لم يسمعه منها من قبل :

ـ أهون عليك يا عبد السلام ، تسيبنى لوحدى فى الوقت ده

قال وهو لا ينظر اليها : انت اللى بتطردينى ٠٠

قالت وهى تقترب منه :

ـ كلمنى فى التليفون بكره ٠٠ أنا مش قادره أفكر دلوقت انت فاجئتنى ٠٠ علشان خاطرى ٠٠

وقال عبد السلام وهو لا يزال يائسا :

ـ حاضر ٠٠ حاكلمك فى التليفون بكره ٠٠ تصبحى على خير

وأدار لها ظهره ، دون أن ينظر فى عينيها ، كأنه كان يخشى لو نظر فيهما أن ينهار ٠٠

وخرج ٠٠

وأسرعت فى خطوات مهرولة الى غرفتها ٠٠ وألقت نفسها فوق فراشها وبكت ٠٠ كأنها لا تزال فى شبابها ٠٠ ان عبد السلام يعيد اليها دائما كل شبابها ٠٠ ولكنها لم تكن تعرف أنها عندما فقدت ابنها ممدوح ، فقدت القوة التى كانت تقاوم بها شبابها ٠٠ القوة التى كانت تقاوم بها حبا ، عاش فى صدرها ثلا*

٥

ومضى شهران ··

وخرج أحمد من البيت فى الساعة العاشرة صباحا متجها الى مكتبه فى ادارة المعاشات ·· وهو لم يعد يخرج من بيته قبل العاشرة صباحا ·· ان خرج ··

وكان مرتديا القميص والبنطلون ·· وقد شمر أكمامه ·· وترك صدره مفتوحا ·· وكوم خصلات شعره فوق مقدمة رأسه ·· والجو حار ثقيل ·· وهو يسير متكاسلا ، يصفر بشفتيه أحيانا ·· وليس فى يديه شىء ·· لا جريدة ، ولا كتاب ·· انه لم يعد يطيق قراءة الجرائد ولا الكتب ·· وليس فى تفكيره شىء سوى حيالات من لياليه مع جرمين ·· الليالى التى ينطلق فيها الحيوان من صدره ·· ان جرمين تثير فيه الحيوان ·· كل ما فى الحيوان من عنف ، وغيرة ، وتملك وشراسة ·· انها لا تجعله يهدأ أبدا ·· ولقد اكتشف أن الحيوان يعيش أكثر من الانسان ·· يملك من الحياة وانفعالاتها أكثر مما يملك الانسان ·· ورغم ذلك فالجانب الانسانى منه لا يكف عن التململ ·· انه يشده نحو شهيرة ·· وشهيرة غاضبة منه ·· انها لا تحادثه ·· ولم تعد تتردد على النادى كثيرا ·· وفى المرات القليلة التى رآها فى النادى حاول أن يجلس معها وسط شلتها ، فتركت الشلة كلها من أجله ، وخرجت ·· كأنها تختنق بالجو الذى تلوثه أنفاسه ·· وهو لا يستطيع أن يفهمها ·· ماذا يغضبها منه الى هذا الحد ؟ ·· صحيح أنه محتفظ بعلاقته مع جرمين ·· ولكنه لا يعطى جرمين الا انفعالات الحيوان ··

انفعالات لا يستطيع أن يطلقها على شهيرة فلمـاذا لا تكتفى منـه بانفعالات الانسان ؟ ·· ان البنات دائمـا طماعات ·· انهن يردن الرجل انســانا ، ويرفضنه حيــوانا ·· فاذا أخذت امرأة أخرى الحيوان وتركت لهن الانسان ، غضبن ·· عجيبة ·· ! ان البنات ألغاز ··

ولكنهـا ليست شـهيرة وحدها التى تثير منـه الجانب الانسانى ·· انها عائلته كلها ·· لقد كان يحس يوما أن أفراد عائلته هم مجموعة من البالونات تتجمع خيوطها فى يده ·· صحيح أنها بالونات منفصلة بعضها عن بعض ، وكل منها لها لون من ألوان الحياة ·· أمه لون ، وفيفى لون ، ونبيلة لون ، وليـلى لون وممدوح كان لونا ·· ولكن رغم اختـلاف الألوان ، ورغم تباعد البالونات بعضها عن بعض ، فقد كان يمسك بالخيوط كلها فى يده ·· وقد كان يحس بعجزه عن الامساك بها ·· كانت يده ضعيفة وأصابعه مرتعشة ، ولكنه كان يقاوم ضعفه ليظل ممسكا بها ··

والآن ·· لقد انطلقت كل البالونات من يده ·· طارت ·· لم يعد ممسكا بها ·· لم تعد هناك خيوط تجمع كيان العائلة ·· وهو لا يحاول أن يعود ويمسك بها ·· كل ما يحاوله هو أن يرفع رأسه أحيانا وينظر الى البالونات وهى طائرة فى الهواء ·· ويبتسم فى بلاهة ·· كأنه طفل ·· كأنه ليس مسـئولا عن هـذه البالونات الطائرة ··

وسار فى طريقه ·· الى أن وصل الى محل فول وفلافل قريبا من ميدان سليمان باشا ، ووقف على بابه يأكل ساندويتش فول وينظر الى البنات اللاتى يخطرن فى الشـارع ، ويقارن كلا منهن بجرمين أو بشهيرة ··

ثم عاد يسير نحو مبنى وزارة المالية ··

ودخل على زملائه ، وحياهم فى اهمال ، وجلس الى مكتبه ،

وهو يزفر فى ملل ، كأنه اكتشف خطأه لأنه جاء الى هنا ..

ونظر اليه زملاؤه فى تطلع غريب .. كأنهم رأوا فيه شيئا لم يتعودوا أن يروه .. وظلوا متطلعين اليه بعد أن جلس على مكتبه كأنهم ينتظرون منه حديثا طويلا ، أو خبرا مثيرا ..

ولكن أحمد لم يتكلم .. فتح درج مكتبه وأخرج قلم رصاص وورقة وأخذ يخطط على الورق خطوطا لا معنى لها .. وهو لايزال يزفر فى ملل ..

ونظر الزملاء بعضهم الى بعض ، وبين شفتى كل منهم ابتسامة خبيثة .. ثم قال الأستاذ فرحات عبد الله عبد الخالق ، وهو يحاول أن يخفى حقده تحت لهجة حزينة كأنه يعزى أحمد :

ـ قريت الجرنال النهاردة يا أستاذ أحمد ؟ ..

وقال أحمد : لا .. فيه ايه جديد ؟ ..

وقال الأستاذ فرحات عبد الله ، وهو يتمادى فى افتعال لهجة العزاء : فيه خبر عجيب .. بيقولوا ان عزت بيه حايسيب الوزارة.

وقفز رأس أحمد فوق كتفيه ، وقال وقد بوغت : ايه ! ؟

وعاد فرحات يقول :

ـ خد اقرا بنفسك .. الحقيقة ده خبر عجيب ، كلنا استعجبنا له ..

ثم قام من وراء مكتبه وهو يحمل الجريدة فى يده ، وتقدم نحو أحمد ، ووضعها أمامه وهو يشير بأصبعه الى الخبر المنشور ثم استدار عائدا الى مكتبه وهو يتلفت الى زملائه ، والابتسامة الخبيثة الشامتة بين شفتيه ..

ولم يكن فرحات فى حاجة الى أن يشير بأصبعه الى الخبر المنشور ، فهو قد سبق أن رسم حوله خطا عريضا بالحبر : « حركة تنقلات فى وزارة المالية » .. ثم .. « تقرر أن يحال السيد عزت راجى وكيل وزارة المالية الى المعاش و .. » ولم يتم أحمد قراءة

الخبر ·· رفع رأسه وقد ارتفع حاجباه ، واتسعت عيناه ، وبين شفتيه ابتسامة نصفها دهشة ونصفها شماتة ·· شماتة فى خاله ·· هل يمكن أن يحدث هذا ؟ ·· هل يمكن أن ينهار الجبل ؟ ·· خاله بهيبته ، ووقاره ، وسطوته ، وكرشه الضخم ·· هل يمكن أن ترفعه يد من فوق مقعده العريض وتلقى به فى الشارع ؟ ·· أن يحال على المعاش وهو لا يزال فى السادسة والخمسين ، من عمره ·· يا ريت ··

وتنبه أحمد من دهشته على صوت فريد أفندى ابراهيم ، وهو يقول له :

ـ انت ما كنتش سمعت بالخبر يا أحمد بيه ؟ ··

وقال أحمد فى بساطة :

ـ أبدا ·· ما سمعتش بيه الا دلوقت ··

وقال الأستاذ بسيونى عبد الفتاح :

ـ والله خسارة ·· ده راجل خدم الحكومة باخلاص أكتر من تلاتين سنة ··

وقال الأستاذ عبد العظيم فهمى :

ـ انما تفتكر الخبر صحيح ؟ ··

وقال أحمد بحماس :

ـ لازم يكون صحيح ·· ما هو مش معقول أن تقوم ثورة فى البلد ، وينشال الملك ، ويخرج الانجليز ، وكل حاجة تتغير ، ويفضل خالى زى ما هو ، وكيل وزارة المالية ·· ده كان لازم ينحال على المعاش من زمان ·· من يوم ما قامت الثورة ·· الحكومة لازم تديرها عقليات جديدة ·· دم جديد ·· عقليات ثورة ·· ودم ثورة ··

وتلفت الزملاء بعضهم الى بعض فى عجب ·· ثم انحسر عجبهم

عن ابتسامات ذات معنى ·· والتفتوا الى أحمد وفى عيونهم نظرات ساخرة ، كأنهم يتهمونه بالنفاق ··

وقال فريد أفندى ابراهيم وصوته يخرج من طرف أنفه :

ـ ما يصحش تقول كده يا أحمد بيه ·· ده برضه يبقى خالك ··

وقال أحمد بسرعة :

ـ وما له ·· أنا ما يهمنيش اذا كان خالى ، والا مش خالى ··

وقال الأستاذ فرحات والشماتة تنطلق من عينيه :

ـ ده بيقولوا انهم بيحققوا معاه ··

وقال أحمد :

ـ والله اذا كان برىء ، مش حيجرى له حاجة ، واذا كان مش برىء يبقى يستاهل اللى يجرى له ··

وعاد الزملاء يتلفتون أحدهم الى الآخر ·· وعيونهم لا تخلو من الشماتة ··

ومرت فترة صمت ··

ثم فجأة قال الأستاذ فرحات ، وهو يمد يده بأحد الدوسيهات الى أحمد :

ـ وحياتك يا أحمد بيه تاخد تخلص الدوسيه ده ·· احسن قدامى شغل كتير ··

وأدار الزملاء رؤوسهم ناحية أحمد ··

وعرف أحمد أن زميله يحاول اذلاله ·· كأنه لم يعد يخافه ، ولم يعد يحسب حسابه بعد أن فقد سنده فى الوزارة ·· بعد أن فقد خاله ·· وشعر بأنه يهم أن ينقض على زميله ويضربه ·· ويخنقه ولكنه تمالك أعصابه ، وقال فى هدوء مفتعل :

ـ آسف ·· اديه لحد تانى ··

وأدار الزملاء رؤوسهم ناحية فرحات ··

واحتقن وجه الأستاذ فرحات ، وقال فى حدة :

ـ هوه انت مش زينا يا أخى ‥ والا يعنى ناس يشتغلوا ، وناس ياخدوا فلوس ويحطوا رجل على رجل ‥ ! ؟

وأدار الزملاء رؤوسهم ناحية أحمد ‥

وارتفعت الدماء الى وجه أحمد ، ووضع عينيه فى عينى زميله فرحات ‥ كأنهما اثنان من الديوك على وشك أن يدخلا حلبة المصارعة ‥ ولكنه عاد يبذل جهدا كبيرا ليسيطر على أعصابه ، وقال وصوته يرتعش :

ـ أنا كنت زيكم امبارح ‥ ورغم كده ما حاولتش تخلينى أشتغل ‥ لو كنت اديتنى الدوسيه ده امبارح كنت اشتغلت فيه ‥ انما النهاردة ‥ لأ ‥ !

وأدار الزملاء رؤوسهم ناحية فرحلت ‥

وقال فرحات وهو أشد احتدادا :

ـ ليه بقى يا سيدى ؟ ‥

وأدار الزملاء رؤوسهم ناحية أحمد ‥

وقال أحمد وهو لا يزال يسيطر على أعصابه :

ـ علشان حضرتك فاكر ان ما دام خالى اتحال على المعاش ‥ تقوم تقدر تشغلنى ‥ تسمح تقول لى ما حاولتش تشغلنى ليه قبل ما خالى ينحال على المعاش ؟ !

وأدار الزملاء رؤوسهم ناحية فرحات ‥

وصرخ فرحات :

ـ عجيبة ‥ يا أخى احنا كلنا هنا علشان نشتغل ‥ ايه اللى خالى خالى ‥ أنا مالى ومال خالك ‥

وأدار الزملاء رؤوسهم ناحية أحمد ‥

وقال أحمد وقد برقت عيناه وازداد احتقان وجهه :

ـ طيب وطى صوتك ‥ بلاش قلة أدب ‥ أحسن أقوم أعلمك الأدب ‥

وأحس الزملاء بأن الموقف وصل الى حافة الخطـر ·· وقال الأستاذ عبد العظيم ، وهو جالس الى مكتبه :

ـ ما فيش لازمة للكلام ده يا أحمد بيه ·· خلاص بقى يا فرحات ··

وقال فريد أفندى وهو يمد يده الى فرحات :

ـ هات يا سيدى الدوسيه لما اشتغل فيه ··

وقال فرحات صارخا :

ـ واشمعنى احنا نشتغل ، وهو ما يشتغلش ·· خلاص من هنا ورايح ما فيش خيار ولا فاقوس ··

وقال أحمد متهكما :

ـ الخيار حا يفضل خيار حتى لو اتحال خالى على المعاش ··

وقال الأستاذ عبد العظيم :

ـ يا جماعة بلاش الكلام ده ·· ايه اللى فتح السيرة دى دلوقت؟

وهم الأستاذ فرحات أن يتكلم ·· ولكنه التقى بعينى أحمـد تنظران اليه فى غضب وتحد وتحفز ، كأنه مصمم على أن يضربه فعاد وأغلق فمه ، وانكمش فى مقعده وقد خاف قوة أحمد ·· خاف قوامه الطويل ، وصدره العريض ·· وتمتم بشفتيه قائلا فى صوت خفيض وهو يحنى رأسه فوق أوراقه :

ـ أما نشوف آخرتها ايه ··

وارتفعت نظرات الخيبة فى عيون الزملاء ، كأنهم حرموا من مشاهدة رواية مسلية ·· وظل أحمد مركزا عينيه على وجه فرحات برهة ، ثم فكر أن يقوم وينصرف ·· أن يخرج من الوزارة كعادته كل يوم ·· ولكنه تردد ·· وأحس بتردده يشتد ·· أحس انه لم يعد من حقه أن يغادر الوزارة قبل موعد انصراف الموظفين ·· انه لم يعد ابن أخت وكيل الوزارة ·· أحس أنه هو الآخر احيل على المعاش ·· لم يعد نفس الشخص الذى كان يجلس على هذا المكتب

أمس ٠ ٠انه شخص آخر ٠٠ موظف عادى ك الموظفين ، ليس له امتيازات ، ولا يخافه أحد ٠٠

وانكمش فى مقعده ٠٠ وأدار عينيه بين زملائه ، وأحس لأول مرة أنه واحد منهم ٠٠ مثلهم ٠٠ انه لا يزيد عن هـــذه الأشكال المعفرة التى تحيط به ٠٠ والتى توقع على ساعة الوزارة ٠٠ ورغم ذلك فاحســـاسه بالشـــماتة فى خاله لا يزال يراوده ٠٠ وهـــو مستمتع بهذا الاحساس ٠٠ متمسك به حتى لو اضطر أن يوقع على ساعة الوزارة ، ويصبح مجرد موظف عادى فى ادارة المعاشات ٠

وظل جالسا الى مكتبه يرسم بالقلم الرصاص ٠٠ ثم اكتشف أنه يرسم وجه انسان ٠٠ انه يرســـم وجه خاله ٠٠ وشطب على الوجه الذى رسمه ٠٠ بحدة ، وبخطوط سوداء كثيفة ، كأنه قرر أن يمحو خاله من حياته ٠٠

وفجأة دخل الساعى يستدعيه الى مقابلة رئيس القلم ٠٠

ونظر الزملاء بعضهم الى بعض وتغامزوا ٠٠

ولم يتعجب أحمد ، فقد كان ينتظر هـــذا الاستدعاء اليوم أو غدا ٠٠ ونظر الى الساعى ٠٠ انه لا ينحنى بين يديه كالعادة ٠ وابتسامته أضيق من العادة ٠٠ لا يهم ٠٠ ربما كان واهما ٠٠ وهز كتفيه ٠ ٠وسار فى خطواته المتكاسلة متجها الى غرفة رئيس القلم ، وقد قرر بينه وبين نفسه أن يتحداه ٠٠ وشد نفسا عميقا من صدره كأنه يعبىء نفســـه بذخيرة من التحدى ٠٠ ونقر على الباب نقرة خفيفة ، ثم فتحه قبل أن يسمع ردا من الداخل وتقدم وهو يتعمد أن يبدو أقل أدبا من عادته ٠٠

ولم يقم رئيس القلم لاستقباله مباشرة ، ظل جالسا برهة ينظر الى قميص أحمـــد وبنطلونه فى امتعـــاض وتقزز ٠٠ ثم قام فى تكاسل ، ولم يخرج من وراء مكتبه كعادته ، بل اكتفى بأن مد يده الى أحمد والمكتب بينهما ٠٠ وصافحه أحمد فى فتور ، وابتسامة ساخرة مدلاة على جانب من شفتيه ٠٠

وقال رئيس القلم وهو يجلس فى مقعده ، ويشــير الى مقعد خيزران أمام مكتبه ·· ليس المقعد الجلدى الكبير الذى تعود أن يدعو أحمد للجلوس عليه ·· وقال والامتعاض والتقزز لا يزالان بين شفتيه : اتفضل يا أستاذ أحمد ··

وجلس أحمد صامتا ··

وتنحنح رئيس القلم ، وقال : طبعا بلغتك الأخبار ؟ ··

وقال أحمد متجاهلا وابتسامته لا تزال مدلاة على جانب من شفتيه : أخبار ايه ؟ ··

ونظر اليه رئيسه كأنه يتهمه بالوقاحة ، وقال :

ـ الأخبار الخاصة بعزت بيه وكيل الوزارة ··

وقال أحمد فى استهتار : وصلتنى ··

ونظر اليه رئيسه بدهشة ، وقال :

ـ الواقع أنه خبر مؤسف ·· ويظهر أن عزت بيه فى موقف حرج ·· أصدقائى بلغونى أن موقفــه فى التحقيق مش سليم ·· على كل حال مالناش دعوة ·· وأنا ياما اعترضت على تصرفات كتير ·· انما ماحدش كان بيسمع كلام الموظفين الصغيرين أمثالنا ماتفكترش انى كبير لأنى فى الدرجة الثالثة ··

واتسعت ابتسامة أحمد ·· ولم يرد ·· وضع مرفقه على حافة مكتب رئيسه وظل ناظرا اليه كأنه يطالبه بأن يدخل فى الموضوع ·

ونظر اليه رئيسه وقد ازدادت الدهشــة فى عينيه ، ثم ابتلع دهشته ، وقال وقد قرر أن يكون أكثر ملاينة :

ـ المهم دلوقت انت يا أستاذ أحمد ··

وقال أحمد :

ـ حا اتحال على المعاش انا كمان ؟ ·· والا حا يحققوا معايا ؟

وقال الرئيس كأنه يطمئنه :

ـ لا ·· ولا تحقيق ولا حاجة ·· ثم انك لسه ما لكش معاش

فى الحكومة .. انما أنت عارف ان الظروف اتغيرت .. ودلوقت بيعملوا تحقيق فى كل حتة .. فى كل ادارة .. وأنا كنت معتمد على عزت بيه فى انه يلفت نظرك .. انما دلوقت أنا مضطر الى انى ألفت نظرك بنفسى ..

وقال أحمد وهو يضم قبضته كأنه يضم بينها أعصابه حتى لا تفلت منه : تلفت نظرى لايه ؟ ..

وقال رئيس القلم وهو يعدل وضع نظارته الذهبية فوق عينيه :

ـ انت عارف يا أستاذ أحمد ..

وقال أحمد بسرعة : مش عارف ..

ونظر اليه الرئيس نظرة كراهية ، ثم قال كأنه يستعين بالله على الصبر :

ـ أنت عارف ان تصرفاتك مش زى تصرفات بقية الموظفين .. يعنى لا بتمضى على الساعة .. ولا بتدخل وتخرج فى مواعيد .. ولا بتقوم بعمل منظم .. نهايته .. المهم اننا نبتدى من دلوقت صفحة جديدة .. وتأكد يا أستاذ أحمد ان كتير من زملائك كانوا بيقدموا ضدك تقارير ، وأنا كنت باحفظها .. معتمد على ان عزت بيه ضرورى حا يلفت نظرك .. انما دلوقت الوضع اتغير ..

وسكت أحمد فترة طويلة .. ثم قال دون أن يهتز :

ـ مش تفتكر تبقى بايخة ؟ ..

ورفع رئيس القلم حاجبيه فوق حافة نظارته الذهبية ، وقال فى دهشة : ايه هيه اللى بايخة ؟ ..

وقال أحمد فى بساطة :

ـ انى أفضل الشهور دى كلها ما امضيش على الساعة .. ومرة واحدة أبتدى أمضى عليها بمجرد ما خالى يخرج من الوزارة دى تبقى مكشوفة قوى .. وتلفت النظر .. ودى برضه حاجة تمس سيادتك ..

وانتفض رئيس القلم فوق مقعده وقال وقد بدأ صوته يرتعش :

ـ تمسنى ‥ تمسنى ليه ؟ ‥ تمسنى علشـان ايه ؟ ‥ أنا ما أصدرتش أمر باعفائك من التوقيع على الساعة ‥

وقال أحمد فى هدوء وخبث :

ـ ما هو علشان كده ‥ اللى حا يحقـق فى الموضوع مش حا يحقق معايا أنا لوحدى ‥ انما حا يبتدى التحقيق من عنـد سيادتك ‥ حا يسألوك سكت ليه عليه طول المدة دى ؟ ‥ حاتقول لهم ايه ؟ ‥

وانكمش الرئيس فى مقعده كأن حجمه قد صغر ‥ وقال وقد ازداد ارتعاش صوته :

ـ أنا مالى ‥ أنا ماليش دعوة ‥ انت تبقى ابن أخت وكيل الوزارة ‥ السابق ‥ وكنت بتعمل اللى يعجبك ‥

وقال أحمد وقد أحس بأنه سيطر على الموقف :

ـ دى مش حجة ‥ انت برضه المسـئول ‥ وبتوع الثورة ما بيرحموش ‥ مش حا يقتنعوا بالكلام ده ‥ كان لازم تخلينى أمضى على الساعة حتى لو كان خالى جمال عبد الناصر ‥ !

وسكت الرئيس ‥ وخلجات وجهه ترتعش ‥ ونظارته سقطت فوق أرنبة أنفه ‥ والعرق يتصبب من جبينه ‥ ثم قال لاهثا كأنه يتوسل :

ـ وتفتكر نعمل ايه ؟ ‥ دول بيحققوا فى كل حتة ‥

وقال أحمد :

ـ أفتكر ان أحسن ان سيادتك تقول ان فيه أمر باعفائى من التوقيع على الساعة ‥ ده لو حد سألك ‥ انما ما أظنش ان حد حا يسألك ‥ وأنا من نفسى حاستنى جمعـة والا جمعتين ، لغاية ما المسألة تهدا ، وبعدين ابتدى أمضى على الساعة ‥ علشـان ما حدش ياخد باله ‥

وعاد رئيس القلم يسكت ، كأنه يفكر بكل عقله وكل ذكائه ثم قال فى تخاذل : أفتكر كده أحسن ٠٠

وقام أحمد واقفا وقال : أستأذن أنا بقى ٠٠ عن اذن سيادتك٠

وقام رئيس القلم واقفا ، وخرج من وراء مكتبه ، ومد يده يصافح أحمد وهو يكاد ينحنى أمامه ٠٠ وقال وهو لا يزال ممسكا بيده : أقدر أرجوك فى حاجة تانية يا أحمد بيه ؟ ٠٠

وقال أحمد فى تعال وثقة : اتفضل ٠٠

قال رئيس القلم كأنه يتوسل :

ـ بلاش تيجى اليومين دول بالقميص والبنطلون ٠٠ احنا مش عارفين الجماعة دول عايزين ايه ؟ ٠

وقال أحمد :

ـ ما هى دى زى دى ٠٠ ما هو لو جيت لابس بدله ، برضه حا الفت النظر ٠٠ انما أعد سيادتك انى حا احاول ٠٠

وقال رئيس القلم وهو يهز يد أحمد :

ـ أنا معتمد عليك يا أحمد بيه ٠٠ انت شاب ذكى ، وتعرف تتصرف ٠٠ وازى عزت بيه ؟ ٠٠ على الله يكون مش متضايق ؟ ٠٠

وقال أحمد كاذبا وهو يتعمد أن يتلاعب بأعصاب رئيسه :

ـ كان عندنا فى البيت امبارح ٠٠ وكان مبسوط قوى ٠٠ يظهر حايتعين فى المجلس الاقتصادى الأعلى ٠٠

وشهق رئيس القلم ٠٠

واكتفى أحمد بهذه الشهقة ، وقال وهو يشد يده من يد رئيسه :

ـ عن اذن سيادتك ٠٠

وخرج ٠٠ ورئيسه يهرول وراءه ليودعه حتى الباب ٠٠

ولم يعد أحمد الى مكتبه ٠٠ اتجه الى خارج الوزارة ، كأنه يتحدى الموظفين كلهم ، ويتحدى الحكومة كلها ٠٠ كأنه يحاول أن

يقنع نفسه بأن خروجه فى غير موعد خروج الموظفين ، هو حق له ·· حق اغتصبه لنفسه وبجرأته ، لا اعتمادا على خاله وكيل الوزارة ··

والتقى به ساعى الوزارة عند الباب ، وقال له فى فتور

ـ أجيبلك تاكسى يا أحمد بيه ؟ ··

وقال أحمد وهو لا يزال محتفظا بابتسامته الساخرة :

ـ لا ·· خد ··

ثم وضع يده فى جيبه ، وأعطى الساعى ورقة من ذات العشرة قروش ·· وانحنى الساعى انحناءة كبيرة ، وأخذ العشرة قروش وهو يكاد يقبل اليد التى تمتد له بالعطاء ، وقال فى حماس :

ـ ربنا يخليك يا أحمد بيه ·· عشت لنا يا أحمد بيه ! ··

وابتسم أحمد ابتسامة استعلاء ·· ان عشرة قروش تساوى عند الساعى كل نفوذ خاله عندما كان وكيلا للوزارة ·· بل تساوى نفوذ الوزير ··

وسار أحمد على قدميه ، وابتسامته تنكمش فوق شفتيه شيئا فشيئا ، حتى اختفت ·· انه يفكر فى مصيره بعد أن خرج خاله من الوزارة ·· انه يعلم أن رئيسه لن يسكت عليه ·· سيظل يضطهده ويطارده ، حتى يطرده من الوظيفة ·· تخلصا من عاره ·· وكل عاره أنه ابن أخت وكيل الوزارة السابق ·· واذا لم يتمكن رئيسه من طرده ، فلن يكتفى بأقل من اذلاله ·· لن يكتفى بمساواته ببقية الموظفين ، بل سيعمل على أن يضعه فى مستوى أقل منهم ، حتى يقنع رؤساءه الجدد بأنه لا يجامل ابن أخت وكيل الوزارة السابق ·· وكذلك زملاؤه الموظفون لن يسكتوا عنه ·· سينفثون فى وجهه كل حقدهم الذى كتموه فى صدورهم طول المدة التى كان فيها ابن أخت وكيل الوزارة ·· لن يستطيع أن يحفظ مكانته بينهم ··

ا.. يستقيل ؟ ··

ولكنه لو استقال الآن ، فكأن لا شخصية له الا بجانب خاله ·· كأنه اعترف للناس ، واعترف للحكومة بأنه لا يساوى شيئا ، ولم يكن يساوى شيئا ، الا أنه ابن أخت وكيل الوزارة ··

لماذا لا يبقى فى وظيفته ، ويحاول أن يثبت أنه يستطيع أن يقف على قدميه وحده ·· يستطيع أن يكون موظفا ناجحا حتى لو لم يكن خاله وكيلا للوزارة ··

ولكن ، ما هو النجاح بالنسبة لموظف فى ادارة المعاشات ؟ ··

لا شىء ·· مهما نجح ، فلن يستطيع أن يكون أكثر من موظف فى ادارة المعاشات ··

ثم ، لو استقال ·· ماذا يصنع بنفسه ؟ ·· هل يبقى عاطلا ؟·

انه الآن عاطل فعلا ·· ولكن وظيفته تخفى تعطله ·· انه يستطيع أن يقول دائما أنه موظف فى وزارة المالية ·· وهو فى حاجة دائما الى هذا العنوان ، الى قناع يخفى تحته تعطله وفراغه·

هل يستقيل ويفتح ورشة ، كما كان يحاول ممدوح ؟ ··

وضاق صدره عندما تذكر أخاه ممدوح ·· ان ممدوح لم يكن عاطلا ·· كان يملأ حياته بأفكاره ومشاريعه ·· لقد كان ممدوح شخصية ضخمة عاملة ، أكبر من أن يعيش فيها ·· أكبر من أن يقلدها ·· أكبر من أن يملأ مكانها ··

وأسرع فى خطاه كأنه يهرب من شخصية ممدوح ·· ويهرب أيضا من شخصيته القديمة التى بدأت تعاوده ·· شخصية الفتى المتردد المنطوى التائه ·· انه يريد أن يعيش بلا شخصية ·· بلا مسئولية ·· بلا عقل ·· يريد أن يكون حيوانا ·· مجرد حيوان ·· وليس بين الناس من يقبله كحيوان الا جرمين ··

ووصل الى شارع سليمان باشا ·· ودخل الى محل لاباس ·· واتجه مباشرة الى مكان البار حيث تعود أن يلتقى بجرمين وأصدقائها ، انصاف الأجانب ··

ولم يجد الا واحدا من أصدقاء جرمين ·· جلس بجانبه وطلب قدحا من البيرة ·· قوام ·· بسرعة ·· الحقنى ·· وأسرع اليه الجرسون بقدح البيرة فشربه دفعة واحدة ، كأنه يطفىء به نارا شبت فجأة فى صدره ·· وطلب قدحا آخر ·· وجاء بقية أصدقاء جرمين ·· أنصاف الأجانب ·· ودار حديث تافه صاخب مليىء بالضحكات الفارغة ·· وأحمد لا يكف عن شرب أقداح البيرة ·· ثم جاءت جرمين ·· تسير وكل قطعة من جسدها تهتز بحساب ، وابتسامتها الحلوة تملأ وجهها ·· ورفع اليها أحمد عينين مبهورتين ·· ورآها عارية ·· انه يراها دائما عارية ·· ان ثوبها لم يعد يستطيع أن يخفى عنه جسدها المرتسم فى خياله ·· وجلست بجانبه ، وتسللت رائحتها الى أنفه ·· رائحة الجسد ·· رائحة الخطيئة ·· رائحة الشواء الذى يثير شهيته ·· ونشط الحديث ·· ونشطت الضحكات ·· انها تستطيع دائما أن تتكلم وأن تجعل كل من حولها يتكلمون ·· كأنهم حيوانات يجترون الكلام ·· ان الحديث عندها فن ·· صناعة ·· موهبة تتاجر بها .

وأحمد لا يكف عن شرب البيرة ·· وشفتاه تتخدران ، ولسانه يثقل ، ونظراته تترنح ··

وقالت جرمين :

ـ نقوم نتغدى ·· ونروح سينما من تلاتة لستة ؟ ··

وقال أحمد ولسانه يقع من بين شفتيه : لا ·· أنا عايز أنام !

وقالت جرمين : أصلك لسه بيبى ··

وقال أحمد ورأسه لا يستطيع أن يرتكز فوق عنقه :

ـ حاشوفك بالليل ·· وحاتعرفى انى راجل ! ··

ودفع حساب الجميع ·· وقام يترنح ، ووضع نفسه فى سيارة أجرة ·· وقال للسائق فى صوت كرغوة البيرة : الروضة يا أسطى .

وانكمش فى ركن السيارة ·· وهو يحاول جهده أن يبقى عينيه مفتوحتين ··

ونزل من السيارة أمام البيت وهو يستند على حافة بابها حتى يحفظ توازنه ، ودفع أجر السائق ورأسه ملقى فوق صدره ··

ونظر اليه عم عبد الله البواب ، نظرة فيها كثير من الرثاء ، وكثير من الاشمئزاز ، ثم تقدم منه وناوله خطابا ، وقال وهو يضغط على كلماته كأنه يحاول أن ينبه أحمد الى شىء يهمه

ـ ده جواب لست نبيلة ·· ست نبيلة بيجيها جوابات كتير اليومين دول ··

وأخذ أحمد الخطاب ، وقلبه بين يديه ثم ضحك ضحكة فارغة مترنحة ، وقال : والله بقيت بواب الغرام يا عم عبد الله ··

وتقلص وجه عم عبد الله كأنه على وشك البكاء ، ونظر الى أحمد كأنه يرثيه ·· وسكت ·

وهم أحمد أن يفتح الخطاب ، وهو يترنح فى وقفته ·· ولكنه عدل ·· واحتفظ بالخطاب فى يده ·· وصعد الدرج وهو يستند بيده على حاجزه ·· ثم دخل الى البيت وصاح وهو فى البهو الخارجى : نبيلة ·· نبيلة ·· نا ·· ·ي·· لاه ··

وظل يصيح حتى خرجت اليه ـ مذعورة ، قائلة :

ـ ايه يا آبيه ·· فيه ايه ·· حصل ايه ؟ ··

واقتربت منه ، فهبت على وجهها رائحة أنفاسه المخمورة المشبعة برائحة البيرة ·· فعادت تتراجع ·· ومد اليها أحمد يده بالخطاب وقال وبين شفتيه ابتسامة سكرانة :

ـ انتى حاتفضلى طول عمرك ذوقك وحش كده ·· هوه فيه بنت يجيلها جواب بالخط الوحش ده ، لا ·· أنا فاتحه ··

وارتعشت رموش نبيلة ، وهى تنظر الى الخطاب فى يد أحمد وبين شفتيها ابتسامة بلهاء ·· ثم مدت يدها بسرعة تحاول أن

تخطف الخطاب ·· ولكن أحمد تراجع بيده ·· وعاد يقول :

ـ قولى لى انك مش حا تقبلى تانى جوابات بالخط ده ·

وقالت نبيلة وقلبها يضرب بشدة :

ـ حاضر ·· حاضر يا آبيه ·· دى آخر مرة ··

ومد لها يده بالخطاب ·· وخطفته فى لهفة ··

وجرت الى غرفتها ، وأحمد ينظر وراءها نظرات مترنحة ويهز كتفيه كأنه يسخر منها ومن نفسه ··

ودخلت نبيلة غرفتها وهمت أن تفتح الخطاب ·· فقالت لها ليلى وهى جالسة فوق فراشها تضفر شعرها :

ـ ماله آبيه أحمد ؟ ·· بيزعق ليه ؟ ··

وقالت نبيلة : ولا حاجة ·· كان بيدينى جواب ··

وقالت ليلى فى خبث : جواب من مين ؟ ··

وقالت نبيلة فى زهق : أنا عارفة ·· شفتينى فتحته !؟··

وقالت فيفى وهى جالسة على حافة الفراش الآخر تقرأ فى كتاب :

ـ لازم من سى زفت بتاعك ··

ونظرت نبيلة الى أختيها ·· ثم خرجت فجأة من الغرفة ، وجرت نحو الحمام ، ودخلت وأغلقت الباب وراءها ، وأحكمت اغلاقه عليها بالترباس الصغير ، ثم جلست على حافة البانيو ·· وبدأت تفض الخطاب بأصابع مرتعشة ملهوفة ، وبين شفتيها ابتسامة صغيرة ·· وقلبها يخفق ·· كأنها على وشك اللقاء بمحمود ··

وقرأت ··

« نبيلة ··

« كان مفروضا أن أعود الى مصر ·· اليك ·· يوم الاثنين

« ولكنى لن أستطيع ·· لقد سقطت أمى مريضة ·· ويبدو أن

« مرضها خطير ·· وقد انقضت خمسة أيام وأنا أحاول أن أقنعها
« باستدعاء طبيب ·· ولكنها ترفض ·· انها لا تؤمن بأنها فى
« حاجة الى طبيب ، بل لا تؤمن بأنها مريضة ·· وهى تبذل مجهودا
« كبيرا لتقنعنا ، أنا وأبى ، بأنها ليست مريضة ·· وأن كل ما فيها
« لفحة هواء تداويها ببذر الكتان المغلى ·· وقد حاولت فى الأيام
« الأولى أن تقوم من فراشها وأن تملأ البيت ، كعادتها ·· ولكنها
« الآن لا تستطيع أن تتحرك ·· ورغم ذلك فهى لا تزال تنفى بشدة
« أنها مريضة ، وترفض استدعاء الطبيب ·· هل تدرين أن هذه
« هى أول مرة أرى فيها أمى مريضة ·· لقد كنت أنتظر المرض لكل
« شىء فى بلدتنا الا أمى ·· الجاموسة تمرض ، وأعواد القطن
« تمرض ، والبرسيم يمرض ·· وأهل البلد كلهم يمرضون ··
« حتى أبى مرض مرة أو مرتين ·· ما عدا أمى ·· انها لم تمرض
« أبدا ·· ولم أكن أصدق أنها تستطيع أن تمرض ·· انها الحياة
« ·· والحياة لا تمرض ·· انها الحنان ، والحنان لا يمرض ·· انها
« الهتى ، والالهة لا تمرض ·· ولكنها مرضت ·· لا تستطيع أن
« تتحرك من فراشها ·· انها ليست جالسة أمام الفرن ·· وليست
« فى فنـاء الدار تلقى الحب للفراخ ·· وليست تحت أقدام
« الجاموسة تحلبها ·· وليست أمام الموقد تعد لأبى ولى الطعام ··
« وليست بجانبى تستمع الى أحلامى ، وتخجل كالبنت العذراء
« عندما أدللها ·· ان الحياة كلها توقفت ·· انى أحس بريح
« الموت ·· والموت لا يزحف على أمى ، ولكنه يزحف على أنا ··

« انى لا أستطيع أن أحتمل مجرد تصور أن أمى تموت ··
« لا يمكن ·· ان حياتى التى كنت أعتقد أنها بدأت بعد أن تخرجت
« من الجامعة ونلت الليسانس ، لا يمكن أن تبدأ بموت أمى ··
« مستحيل ·· ان موت أمى معناه موتى ·· معناه الفشل ··
« فشلى ·· فلم أكن أريد أن أنجح الا لترانى أمى ناجحا ·· ولم

« أكن أحلم بالعمل ، الا لأعود اليها بثمن شقائها فى تربيتى ٠٠

« وقد ذهبت ليلة أمس الى طبيب المستشفى التى تبعـد عن
« قريتنا بحوالى ثلاثة كيلومترات ٠٠ وطلبت منـه أن يأتى معى
« ليعالج أمى ٠٠ أتدرين ماذا كان جواب رسول الانسانية ، وملاك
« الرحمة ، وحافظ سر الله ٠٠ انه رفض أن يأتى معى الا اذا دفعت
« له جنيهين مقدما ٠٠ ولم يكن معى جنيهان ٠٠ وعبثا حاولت أن
« أقنعه ٠٠ ثم هممت أن أضربه ٠٠ ولكني كنت محتاجا اليه ٠٠
« محتاجا اليه ليعيد الى حياتى ٠٠ حيـاة أمى ٠٠ فتوسلت ٠٠
« بكيت ٠٠ تصورى محمود يبكى ٠٠ انك لم ترينى أبدا أبكى ٠٠
« وربما لم يرنى أحد أبكى ٠٠ ولكن الطبيب الشهم رآنى أبكى ٠٠
« ورغم ذلك لم يرحمنى ، ولا رحم أمى ، فاضطررت أن أعود الى
« البيت ، والتمرجى يصيح ورائى : ابقى هات ركوبة معـاك ،
« أحسن العربية بتاعة الدكتور نزلت مصر ٠٠

« عدت الى البيت وطلبت من أبى الاتنين جنيه ٠٠ وتململ أبى ،
« لا عن شح ، ولكن لأنه لم يكن مقتنعا بالدكتور ٠٠ يا بنى دى لمسة
« الدكتـور بتـودى القـبر ٠٠ ولكنى أصررت ٠٠ وأعطانى أبى
« النقود ، وركبت الحمـارة ، وسحبت ورائى حمـارة أخرى ،
« وذهبت الى الطبيب الشهم ٠٠ وخلال الطريق أحسست بأنى بدأت
« أفقد ايمانى بالعلم والطب ٠٠ بدأت أميل الى تصديق رأى أبى
« ٠٠ ان لمسة الطبيب نهايتهـا القـبر ٠٠ اذا كان الطبيب ليس
« انسانا ، فكيف يعالج انسانا ؟ ٠٠ اذا لم تكن فى قلبـه رحمة
« فكيف تصل رحمة السماء على يديه ؟ ٠٠ ورغم ذلك فانى أريد
« انقاذ أمى ٠٠ انقاذها بكل وسيلة ٠٠ بكل ما أومن به وما لا أومن
« به ٠٠ سـواء أنقـذها الطبيب أو الدجال أو الصحة أو بركات
« الشيخ العتريس ٠٠

« وعاد الطبيب معى ، وهو يتـأفف ويسخط ، ويكاد يتمنى

« الموت لى ولأمى ·· لولا الاتنين جنيه ··

« ومضت أكثر من ساعة وأنا أحاول أن أقنع أمى بأن تسمح
« للطبيب بأن يكشف عليها ·· وهى ترفض ·· ولم يكن رفضها
« مجرد حياء ، بل كان فيه أيضا خوف ·· وأبى واقف عند الباب
« منكس الرأس ·· كأنه استسلم للفضيحة ··

« وأخيرا ·· وتحت الحاحى ·· كشف الطبيب على أمى ··
« واتضح أنها مصابة بذبحة صدرية خطيرة ·· أو هذا ما قاله
« الطبيب ··

« وأنا لا أغادر الآن البيت ·· ولا حجرة أمى ·· ولا أفكر فى
« شىء الا حياة أمى ·· حتى أنت يا أعز الناس ، كنت بعيدة عنى
« عندما أحسست أنى على وشك أن أفقد أمى ··

« شكرا ·· فانى أحس بالراحة بعد أن كتبت اليك ·· ادعى
« لأمى ·· (المخلص : محمود)

وارتفعت طرقات عنيفة على باب الحمام ·· وصوت فيفى يصيح : نبيلة ·· نبيلة ·· ياللا الغدا ، انتى بتعملى ايه ؟ ··

وقالت نبيلة : آدينى جاية ··

ولم تتحرك من مكانها ·· ظلت جالسة على حافة البانيو ·· ساهمة ··

ولم يكن هذا هو أول خطاب تتلقاه من محمود ·· لقد سافر الى بلدته بعد أن انتهى من تأدية امتحانه ·· ظل أسبوعا فى القاهرة ، ثم سافر ·· وأحست يومها أنه سافر ولن يعود ·· انه سافر من حياتها ·· ولكنه كان يكتب لها ·· كل يوم تقريبا ·· وكانت تتلقى خطاباته كأنها تبحث فيها عن مستقبلها ·· عن مصيرها ·· مصير حبهما ·· ولكنه لم يكن يحدثها أبدا عن مصيرهما ·· كان يحدثها عن كل شىء الا عن مصيرهما ، وكانت ترد عليه ·· وتثور كرامتها وهى تكتب ·· فتحدثه عن كل شىء

الا عن المصير .. وقد نجحت فى الامتحان .. ونجح محمود .. ولم يكن لنجاحها ، ولا لنجاحه فرجة فى قلبها .. أحست أن نجاحه خطوة أخرى تبعده عنها ..

ومنذ سافر وهى تحاول أن تبحث عن حل ..

تحاول أن تقنع نفسها بالتخلى عن حبها ، فلا تستطيع ..

وتحاول أن تجد وسيلة لتربط مصيرها بمصيره ، فلا تستطيع.

ولكن هذا الخطاب الأخير .. الذى يبلغها فيه مرض أمه .. قد يكون فيه الحل .. انها آسفة على مرض أمه .. ولكنها آسفة على حالها أكثر .. وهى تتمنى لأمه الشفاء .. ولكنها تتمنى أكثر أن تجد مصيرها ..

ونفذت الفكرة الى رأسها .. وبرقت عيناها ..

وهزت رأسها كأنها تقول لنفسها : ولم لا ؟ ..

وعاد الطرق العنيف على باب الحمام ، وعادت فيفى تصرخ .

– تكونيش موتى .. فاكرانا خدامينك علشان نفضل مستنيينك لغاية ما تقرى الجواب .. !

وفتحت نبيلة الباب .. واتجهت الى غرفة الطعام ساهمة ..

وجلست فى مقعدها وهى لا تزال ساهمة .. وأحمد جالس فى مقعد ممدوح .. والأم قد انتصب عودها فى جلستها ، وسرت حمرة خفيفة فى وجنتيها كأنها عادت الى الحياة .. وليلى تبدو دائما فى حالة لا مبالاة ، وتقبل على طعامها كأنها قررت أن تتمتع بكل ما فى الدنيا .. وألا تحرم نفسها شيئا .. أن تضربها صرمة .. ! وفيفى قد اشتد السخط فى عينيها وفوق لسانها ، وقد جف عودها .. كأن شيئا يأكل منها .. واكلح لونها ، فبدت كأن سمرتها قد دكنت ..

ونظر أحمد الى نبيلة وهى ساهمة وقال ولسانه السكران يتأرجح بين شفتيه : نبيلة .. انتى يا ست .. احنا هنا ..

واهتزت رموش نبيلة فوق عينيها كأنها أفاقت من حلم ، وقالت:
ـ ايه يا آبيه ·· انت مالك ومالى النهارده ؟ ··
وقال ضاحكا : ماليش ·· بس شايفك سرحانة أكتر من اللازم !
قالت : أبدا ··
قال : الجواب يظهر كان حامى قوى ؟ ··
قالت : ده جواب من خديجة ·· حامتها عيانة ··
وقال أحمد وهو لا يزال يضحك : بعد الشر عليها ··
ونظرت فيفى الى نبيلة كأنها تتهمها بالبجاحة والوقاحة
ونظرت اليها ليلى وهى تبتسم كأنها تهنئها على حبها ·
والتفت أحمد الى أمه وقال : تعرفى احنا ناقصنا ايه يا ماما ·
وقالت الأم فى هدوء ، وهى تنظر الى ابنها كأنها تشفق عليه :
ـ ناقصنا ايه يا أحمد ؟ ··
وقال أحمد فى جرأة :
ـ ناقصنا عربية ·· ما هو مش معقول اننا نبقى عيلة كبيرة كده وما عندناش عربية ·· ده احنا لو حسبنا الفلوس اللى بنصرفها على التاكسيات فى سـنة ، نجيب بيها عربيتين ·· واحدة منهم كاديلاك ··
وقالت فيفى : ما احنا طول عمرنا عايشين من غير عربية ·· ايه اللى فكرك بالعربيات دلوقت ؟ ··
وقال أحمد : طول عمرنا كنا عايشين غلط ··
وقاطعته فيفى : انت اللى اتغيرت يا آبيه ! ··
وألقى أحمد الشوكة من يده فجأة ، وخبط بقبضته على المائدة ، والتفت الى فيفى بعينين غاضبتين ينطلق منهما كل ما اختزنه جوفه من خمر ، وصرخ :
ـ أنا ما اتغيرتش ·· وما تطوليش لسانك ·· أحسـن ،

أوريكى شغلك ·· اذا كان حد اتغير فهو حضرتك ·· اتغيرتى قوى ·· بقيتى قليلة الأدب ! ··

ووجم أفراد العائلة ··

وتراجعت فيفى فى مقعدها ، خائفة ··

وانطلقت نظرات مذعورة من عينى الأم ، ثم قالت فى جزع :

ـ خلاص يا أحمد ·· ماتزعليش يا حبيبتى ·· انتى اللى غلطانة يا فيفى ولازم تعتذرى لاخوكى ··

وسكتت فيفى ··

وعادت الأم تقول لها وهى تضغط بأسنانها على شفتها لتشير اليها بأن أخاها ليس فى حالة عادية : باقول لك اعتذرى ··

وقالت فيفى بصوت خفيض : آسفة ··

ومرت فترة صمت ··

وعاد أحمد يمسك بالشوكة ويقبل على طعامه ، ثم قال وهو لا ينظر الى أمه :

ـ أنا نص فلوسى رايحة على التاكسيات ·· والعربية تعتبر وفر ·· العربيات أصبحت ضروريات ، مش كماليات ·· ثم انا بقى عندى شغل كتير ·· ومحتاج لعربية ··

وسكت الجميع ··

وعاد أحمد يقول بعد فترة :

ـ أنا شفت عربية صغيرة ·· فيات ·· تمنها تسعميت جنيه وبالتقسيط ··

وقلب الأم لا يخفق كأنها مقبلة على مصيبة جديدة ·· وتخفى خفقاته تحت ابتسامة تطل بها على وجه أحمد ·· ابتسامة لا معنى لها ·· وقالت وفى صوتها رعشة خفيفة :

ـ طيب يا حبيبى ·· نبقى نتكلم فى الموضوع ده بعد الغدا ··

★ ★ ★

وانتهت العائلة من تناول الغداء ·· وهم أفرادها بالقيام ··
والتفت أحمد الى أمه وقد قام من مقعده ، وقال بلا اهتمام :
ـ انتى عارفة ان خالى اتحال على المعاش ؟ ··
واتسعت عينا الأم ، ووضعت يدها على صدرها ، وقالت فى ذعر : بتقول ايه ؟ ··
قال فى برود :
ـ خالى اتحال على المعاش ·· مكتوب فى الجرنال النهاردة وسمعت الخبر فى الوزارة ··
وقالت الأم كأنها تندب : مش ممكن ·· مستحيل ·· ده لسة صغير ·· ده ما كملش خمسة وخمسين سنة ·· ! ؟
وقال أحمد وهو يضحك :
ـ فاروق كان عنـــده تلاتة وتلاتين سنة يوم ما اتحال على المعاش ·· !
ثم أدار ظهره لأمه ، وسار فى خطواته المترنحة ، واتجه الى غرفته وضحكته لا تزال بين شفتيه ··
وقامت الأم منتفضة من على مقعدها ، وقالت :
ـ أنا حا اقوم أروح بيت خالكم ·· نروح كلنا ··
وقالت نبيلة بسرعة :
ـ أنا عندى ميعاد مع صاحبتى ·· مستنيانى فى الشارع ··
وقالت ليلى : وأنا عصام حايفوت علىّ علشان نروح السينما ·
ونقلت الأم عينين يائستين حزينتين بين بناتها ·· فقالت فيفى :
ـ أنا آجى معاكى يا ماما ··
وانفضت العائلة من حول مائدة الطعام ··
وتسللت نبيلة ، وبحثت عن دفتر التليفون وأخذت تقلب فى أوراقه ، حتى عثرت على رقم تليفون « استعلامات السكة الحديد »

.. ثم أمسكت التليفون وابتعدت به فى الممر الذى يفصل بين الحجرات ، وأدارت الرقم ، وسألت :

– من فضلك القطارات اللى بتروح طنطا الصبح ، بتقوم الساعة كام ؟ ..

وتلقت الرد ..

★ ★ ★

ودخلت الى غرفتها ترتدى ثوب الخروج .. وانتظرت الى أن خرجت أمها وأختها فيفى لزيارة خالها ، ثم خرجت ، وصاحت وراءها ليلى : فى ذمتك رايحة فين ؟ ..

وقالت نبيلة وهى تسرع فى خطواتها : بعدين أقول لك .. وخرجت ..

وسارت كأنها تجرى نحو ميدان الجيزة ، ودخلت مكتب التلغراف ، وأمسكت القلم وكتبت على الورقة المخصصة للبرقيات :

« الأستاذ محمود عبد الفتاح حسنين .. كفر ممونة .. شبرا اليمن .. مركز زفتى » ..

ثم كتبت نص البرقية :

« أصل غدا صباحا للاطمئنان على صحة الوالدة .. انتظرنى على محطة طنطا فى القطار الذى يصل الساعة العاشرة » ..

« نبيلة .. »

ومدت يدا مرتعشة تحمل البرقية الى الموظف الجالس خلف القضبان .. ودفعت له النقود .. وظلت واقفة أمامه تنظر اليه ، كأنها قررت أن تنتظر حتى تطمئن الى وصول البرقية الى محمود .

٦

عادت نبيلة الى البيت قبل أن تعود أمها وأختها فيفى من زيارة خالها ·· عادت ساهمة ، واجفة ، ممصوصة الوجه ، ممتقعة اللون ·· تحاول أن تجمع أفكارها المشتتة وتحصرها ، لتراجعها ، وتعرف ما هى مقدمة عليه ·· ولكنها لا تستطيع ·· كلما قفزت الى ذهنها فكرة ، زاحمتها عشرات الأفكار الأخرى ، وكلما التقطت بخيالها صورة طغت عليها عشرات الصور ·· كأنها تحاول أن تلقى بنفسها فى البحر لتتعلم السباحة ·· اذا خافت الغـرق رأت الماء هادئا مستسلما كأنه يناديها ويبتسم لها ، واذا اطمأنت الى الماء رأته عميقا باردا يخفى تحته شبح الموت ·· انها لا تستطيع أن تستقر على رأى ·· لم تعد تستطيع أن تفكر وربما لم تكن فى حاجة الآن الى التفكير ·· لقد فات وقت التفكير ·· وكل ما تحتاج اليه الآن هو شجاعتها ··

ودخلت غرفتها ، وأختها ليلى واقفة أمام المرآة تتزين استعدادا للذهاب مع خطيبها عصام الى السينما ··

ورأت ليلى وجه أختهـا نبيلة فى المرآة ·· رأته ممصـوصا ممتقعا ·· فالتفتت اليها بسرعة وقالت وهى تنظر اليها بكل عينيها :

ـ مالك ؟ ··

وقالت نبيلة وهى تهرب بعينيها من عينى أختها : ماليش ··

وقالت ليلى وهى لا تزال تتبعها بعينيها : انتى كنتى فين ؟

وقالت نبيلة وهى تلقى حقيبتها فوق الفراش :

ـ كنت عند صاحبتى ! ··

وظلت ليلى تنظر اليها برهة ، ثم ابتسمت ابتسامة خفيفة ، واستدارت لتطل فى مرآتها وتكمل زينتها ··

وانفضت فترة صمت بين الأختين ··

ثم فجأة رفعت نبيلة رأسها وقالت : ليلى ·· أنا حاروح لمحمود ·· !

والتفتت اليها ليلى وفى عينيها دهشة أقرب الى الفرحة ، وقالت : حا تهربى معاه ؟! ··

وقالت نبيلة : لا ·· حاروح أزوره فى البلد ··

وقالت ليلى وهى تقترب من أختها : تزوريه ازاى ؟ هو عزمك ؟

وقالت نبيلة وقد عادت تنكس رأسها :

ـ لا ·· ماعزمنيش ·· انما أمه عيانة قوى ·· وحاروح أطل عليها ··

وعادت ليلى تقول : انتى تعرفى أمه ؟ ··

وقالت نبيلة كأنها تهم بالبكاء من شدة حيرتها : لا ··

وجلست ليلى بجانب أختها على حافة السرير ، وأصبع « الروج » الذى كانت تصبغ به شفتيها لا يزال فى يدها ، وصمتت برهة تفكر ، ثم قالت وقد ارتفع صوتها قليلا :

ـ بس حاتروحى تزوريه ازاى من غير ما حد يعزمك ؟ ومن غير ما تعرفى حد من عيلته ؟ ··

وقالت نبيلة كأنها تدافع عن رأى لا تؤمن به ·· تدافع عن جنونها ·· عن حيرتها :

ـ ما اعرفش ·· آهو حاروح أزوره والسلام ·· أنا خلاص ما بقتش طايقة ·· ما اقدرش أقعد كده من غير ما اعرف مصيرى ايه ؟ ·· من غير ما اعرف آخرتى ايه ؟ ·· مالقتش طريقة الا انى أتجنن وأروح له لغاية عنده ·· وبعد كده يا نتفق ، يا أسيبه ·· وأخلص ·· ومهما حصل بعد كده أهون من اللى أنا فيه ··

وسكتت برهة ..
وسكتت ليلى ..
ثم استطردت نبيلة قائلة فى صوت خفيض كأنها تهمس لنفسها :
ـ هوه كان دايما يقول لى : أنا نفسى تيجى بلدنا علشان تشوفينا عايشين ازاى ؟ .. أدينى حاروح وأشوف ..
وقالت ليلى :
ـ أنا مش موافقة .. دول ناس فلاحين ، ومش متعودين يشوفوا بنت تيجى تزورهم من غير عزومة .. يمكن يطردوكى .. والا يستقبلوكى وحش .. يمكن محمود نفسه يتضايق ..
وقالت نبيلة :
ـ أنا متضايقة أكتر منه ، ده مخلى حياتى كلها حيرة وعذاب .
ثم التفتت الى أختها ، واستطردت فى حدة :
ـ انتى عارفة هوه مش عايز يتجوزنى ليه ؟ .. علشان فقير .. وعلشان فاكر انى غنية .. فاكر انى ما اقدرش أعيش زى عيشته وعيشة أهله .. وأنا حاروح هناك علشان أثبت له انى أقدر أعيش أى عيشة .. أثبت له انى مش بنت ذوات زى ما هو فاكر ..
وقالت ليلى فى جزع :
ـ انتى حا تروحى تقعدى هناك .. يعنى حا تباتى ؟ ..
وقالت نبيلة فى صوت خفيض : لسه مش عارفة .. !
وصمتت ليلى برهة وقد اكتسى وجهها بالوجوم ، ثم نفضت وجومها ، وقالت :
ـ أنا مش موافقاكى .. ده انا يا مجنونة ، ما اقدرش أعمل العملة دى .. بلاش يا بلبل .. بلاش .. ما تروحيش .. علشان خاطرى .. طاوعينى .. بعدين حا ترجعى تندمى ..

وقالت نبيلة وهى تبتسم ابتسامة ســـاخرة ، تسخر بهـا من نفسها :

ـ مش انتى بس اللى مجنـونة ·· يظهـر ان كل بنت بتحب بتتجنن ··

وسكتت ليلى ·· سكتت طويلا ·· وقامت من جانب أختها ، وعادت تقف أمام مرآتها لتكمل صبغ شفتيها ·· ووجدت نفسهـا تفكر فى فتحى ·· لقد هربت اليه مرة ، كما تحاول أختها الآن أن تهرب الى محمود ·· بل انها كانت أجرأ من أختها ·· لقد هربت الى فتحى فى شقته الخاصة ، لتعيش معه وحدها ·· ولكن أختها تهرب الى محمود وسط عائلته ·· ولتعيش بين أهله ·· ورغم ذلك فهى لا تستطيع أن توافق أختها على ما تفعله ·· تحس كأنها تغار عليها ·· كأنها تعرض كرامتها وكرامة العائلة كلها للمهانة ·· وتحس بكراهية شديدة لمحمود ، ولكل أهل محمود ·· هذا الفلاح الجربوع الذى لا يستحق ظفـرا من أصـابع قدم نبيلة ·· كيف يضطرها أن تمرمط نفسها الى هذا الحد ؟ ·· أن تجرى وراءه ·· وأن تلقى نفسها عليه ·· ولكن ·· انهـا هى أيضـا جرت وراء فتحى ، وألقت نفسها عليه ·· انه الحب ·· والمحبـون يعـذرون أنفســهم ، ولكنهم لا يعــذرون غـيرهم ·· ان عواطفهم تبرر كل جنونهم ، وتعجز عن أن تبرر جنون الآخرين ··

والتفتت الى أختها ، وقالت وهى تشبك عقدا من اللؤلؤ الأبيض حول عنقها : وحا تقولى لماما ايه ؟ ··

وقالت نبيلة بلا اهتمام :

ـ حا أقول لها انى معزومة فى عزبة صاحبتى خديجة ·· واتفقت مع خديجة خلاص ··

وعادت ليلى الى الصمت ، كأنها كانت تعرف أن لا أمـل فى محاولة اقناع أختها بالعدول عما انتوته ·· ثم فجاة تركت مرآتها،

وخرجت من الغـرفة ، واتجهت الى التليفون وحملتـه الى البهو الخارجى ، واتصلت بفتحى فى نادى الموسيقى ·· كأنها كانت فى حاجة الى سماع صوته ، لتستعين به على تبرير تصرفات أختها ·· وقالت عندما سمعت صوته : أخبارك ايه ؟ ··

قال فى عجل :

ـ أبدا ·· باشتغل ·· باحفظ الموسيقيين اللحن الجديد ·

قالت وهى تحاول أن تبتسم : يظهر انى مش وحشاك ؟ ! ·

قال وعجلته لا تستطيع أن تخفى حبه :

ـ وحشانى ، طول عمرك وحشانى ، بس أنا دلوقت مشغول ·

قالت : طب اسمع ·· أنا بكرة يمكن أقدر أنزل الساعة سابعة بالليل ·· وأقدر أتأخر معاك للساعة عشرة ·· ابقى خليك جنب التليفون لغاية ما اضرب لك ··

وقال بسرعة :

ـ لا ·· لا ·· بلاش بكره ·· أصلى واعدت مراتى انى آخدها السينما ··

قا[illegible] غيظ مكتوم : اعتذر لها ··

[illegible] فى توسل :

ـ ما اقدرش ·· ما اقدرش يا ليلى ·· دى حالتهـا اليومين دول بقت صعب قوى ·· اتغيرت خالص ·· ما بتبطلش خنـاق معايا ·· زى ما يكون متهيأ لها انى اتجوزتك ·· ولما باخرج من البيت بتفضل ورايا بالتليفون فى كل حتة لغاية ما ارجع تانى ·· أنا ماباحبش أقول لك على الحاجات دى ، انما لازم تقدرى ··

وقالت وقد انطلق غيظها المكتوم :

ـ وانت لازم تقدر ·· على الأقل مراتك بتشوفك كل يوم ·· وآكل شارب نايم معاها ·· كفاية عليها كده ··

وقال فتحى وهو ما زال يتوسل :

ـ ما احنا كنا مع بعض امبارح ٠٠ !

قالت فى حدة : انما أنا عايزة أشوفك بكرة ٠٠

قال فى استسلام : خليها بكره الصبح ٠٠

قالت : لا ٠٠ بكره بالليل ٠٠ أنا بقى لى جمعة وأنا بافكر ازاى أخرج معاك بالليل ٠٠ وبعدين حضرتك تيجى تقول لى مراتى ٠٠ وأنا ؟ ٠٠ اشمعنى بتعمل حسابها ، وما تعملش حسابى ؟ ! ٠٠

قال فى زهق : ليلى ٠٠ ما تبقيش قاسية ٠٠ قدرى ٠٠ أنا عمرى ما طلبت منك انك تسيبى خطيبك لما تكونى خارجة معاه ، وأقول لك تعالى قابلينى ٠٠

قالت وقد ارتفع صوتها

ـ لو طلبت منى مش حا اقول لك لا ٠٠ انما ما بتطلبش منى عشان مش عايز تحمل مسئوليتى ٠

وقال وهو يزفر أنفاسه :

ـ حا نرجع للمسئولية ٠٠ يا ستى لازم تعرفى ان مراتى لما بتتخانق ، بتتخانق معايا أنا ٠٠ مش معاكى انتى ٠٠ يعنى أنا اللى باتشتم ، وأنا اللى باطهق من عيشتى ، وأنا اللى باتعذب ٠٠ يعنى عايزانى أتشتم ٠٠ عايزانى أطهق ٠٠ عايزانى أتعذب ؟ !

وقالت وهى ترد حدته بأعنف منها :

ـ وأنا يعنى اللى شايفنى سعيدة قوى ٠٠ و ٠٠

وقال يقاطعها :

ـ انتى ظروفك أحسن منى ٠٠ على الأقل انتى خطيبك مش عارف انك بتحبينى ٠٠ ما حدش بيحاسبك ٠٠ انما أنا مراتى عارفة ٠٠ ومش ساكتة ٠٠ اعقلى يا ليلى ٠٠ اكبرى ٠٠ ما تبقيش زى البنات الصغيرين ٠٠ خلاص ٠٠ حاشوفك بكره الصبح ٠٠ علشان خاطرى ٠٠

وقالت : لا ٠٠ مش عايزة ٠٠ أنا ما اخدش فضلة مراتك ٠٠

خليك لها .. اتهنى بيها .. أوريفوار ..

وصاح فى التليفون ، كأنه يخشى أن تتركه : ليلى ..

وقالت فى حدة : أوريفوار ..

وظلت محتفظة بسماعة التليفون فوق أذنها ، وعاد فتحى يصرخ : ليلى ..

وقالت وهى أقل حدة كأنها لا تستطيع أن تفر من قدرها من حبها : حا كلمك بعيدن .. أوريفوار ..

وألقت سماعة التليفون ..

وظلت واقفة ساهمة ، وعلى وجهها سحابة حمراء من الغيظ والاحتداد ، كأنها أهينت فى كرامتها ، وكأنها اضعف من أن تثور للكرامة المهانة ..

وخرج اليها أخوها أحمد مرتديا القميص والبنطلون ، ووقف أمامها ينظر فى عينها وقال ويداه فى خاصرته ، وابتسامته مدلاة على جانب من شفتيه : كنتى بتكلمى مين ؟ ..

وقالت فى سرعة وهى تحاول أن تسترد رباطة جأشها :

ـ كنت باكلم عصام .. أصله اتأخر ..

وقال أحمد وهو يحاول أن يكسو صوته بطبقة من الحنان :

ـ انتم رايحين فين الليلة ؟ ..

قالت : رايحين سينما مترو ..

قال وهو يضمها بابتسامته :

ـ بس ما تتأخروش .. بعد السينما على طول ترجعى ..

قالت فى استخفاف : حاضر ..

وعاد احمد يقول : ماما لسه ما رجعتش ؟ ..

قالت : لا .. لسه ..

قال : طيب ، أنا نازل ..

ومد أصبعه ، وطوح ضفيرتها المدلاة فوق ظهرها ، فى الهواء

ثم أعطاها ظهره ، وخرج .. وعادت ليلى الى غرفتهـا ، وهى تشعر بالضيق .. الضيق من أخيها أحمـد ، ومن فتحى ، ومن نبيلة ، ومن نفسها .. وقالت لأختها التى لا تزال جالسة ساهمة فوق السرير وقد أسندت ذقنها فوق يدها :

– آبيه أحمد مش عايزنى أتأخر .. بعد السينما على طول لازم أرجع .. وحضرته ما بيرجعش كل ليلة قبل أربعة الصبح .

ولم ترد نبيلة ..

والتفتت ليلى الى المرآة تساوى ضفيرتها .. وارتفع صوت بوق سيارة فى الطريق ، وقالت ليلى وهى تضحك فى وجه نبيلة :

– أهو عصام جه .. عمره ما يتأخر .. زى الساعة .. نفسى يتأخر نوبة .. ولو علشان أجرب لما يتأخر يبقى شكلى ايه .. !

ولم تضحك نبيلة ..

والتقطت ليلى حقيبتها ، وألقت نظـرة أخيرة على المرآة ، وهمت أن تخرج من الغرفة ، ولكنهـا عادت ، وأقبلت على أختهـا وانحنت تقبلها فوق وجنتيهـا فى حنان ، وقالت وهى تحاول أن تبدو مرحة : ولا يهمك .. اعمـلى اللى انتى عايزاه .. واوعى تنامى قبل ما ارجع .. علشان نقعد نتكلم للصبح ..

وارتفعت ابتسامة حزينة فوق شفتى نبيلة ..

وخرجت ليلى

ونبيلة وحيدة فى البيت .. وأطياف خيالها تحيط بها .. انها تستطيع أن ترى بخيالها صـورة القرية كلها .. وصـورة بيت محمود .. وصورة ضريح « ست ممونة » التى سـميت القرية باسمها .. وتستطيع أن ترى الفرن داخل القاعة .. والفراخ ، والاوز ، والبط تملأ فناء الدار .. و .. و .. ان محمود حدثها عن كل ذلك ، وصف لها قريته وبيته قطعة قطعة .. وعاشت فى الصور التى وصفها لها عامين .. اكثر من عامين .. ولكن هل

وصلته برقيتها ·· وأطلت فى الساعة الصغيرة المعلقة فى يدها ·· لقد مضى وقت كاف ، ولا بد أن البرقية وصلت ·· ولا بد أنه قرأها ·· ولا بد أن الدهشة قد استبدت به ·· وابتسمت نبيلة وهى تتصور وجه محمود وقد علته الدهشة ·· ولكن ، هل فرح لخبر مقدمها ·· انه يستطيع أن يحادثها فى التليفون اذا رأى أن حضورها يسبب له احراجا ·· ولكن ·· ماذا يقول أبوه عندما يعرف انها قادمة ·· انها تخاف أباه ·· ان له فى مخيلتها صورة مهيبة ، يبلغ من مهابتها أن تثير الخوف ·· ان محمود يهابه ، ويخافه ، ويحبه ·· انها أيضا تهابه وتخافه ، ولكنها لا تستطيع أن تحبه ·· ربما لأنها لا تستطيع أن تتخيل كيف تعامله ، وكيف يعاملها ·· ربما لأنه ليس لها أب يعودها على معاملات الآباء وعقلياتهم ·· هل سيطردها أبوه ·· هل سيحتم عليها أن تبقى داخل البيت ، كما كان يفعل مع ابنته ·· يا ريت ·· و ·· وربما أصر الأب على أن يزوجها لابنه ، عندما يراها ·· من يدرى ؟ ··

وتتابعت الصور والخيالات فى رأسها ·· وهى حائرة بينها ·· تبتسم حينا ·· وتخاف حينا ·· وتهم بالبكاء حينا ·· وتصمم حينا ·· وتتردد حينا ··

وأفاقت على صوت الباب الخارجى يفتح ·· وصوت أمها وأختها فيفى عائدتين ·· وقفزت من فوق السرير ·· وحاولت أن ترسم على وجهها تعابير المرح ·· ثم أطلت فى المرآة ورأت وجهها ممتقعا ، فقرصت وجنتها عدة قرصات لتعيد اليهما الدماء ، وعلقت على شفتيها ابتسامة كبيرة ، وخرجت لاستقبال أمها وأختها ·· وقالت بمجرد أن رأتهما : ازى خالى يا ماما ؟ ··

وقالت الأم وهى تتجه نحو غرفتها :

ـ والله تعبان يا بنتى ·· دى عملة يعملوها فيه ·· !

وقالت نبيلة وهى تلحق بأمها : يعنى صحيح اتحال على المعاش ؟

وقالت الأم وهى تفك الطرحة السـوداء من فوق رأسها ومن حول عنقها : صحيح ·· بعد تلاتين سنة ، يقولوا له اتفضل ·· من غير ، مرسى ··!

وقالت نبيلة وهى توسع من ابتسامتها :

ـ على كل حال أحسـن ·· يعنى هوه كان واخد ايه من الحكومة ·· بكره يشتغل فى شركة ، ويبقى أحسن ميت مرة ··

وقالت الأم :

ـ ياما اتعرض عليه شركات وكان بيرفض ·· وآدى آخرة الرفض ·· آدى آخرة اللى يخدم الحكومة ·· ! ؟

وقالت فيفى بسخط :

ـ وهم المسئولين دلوقت بيشغلوا حد من اللى بيتحالوا على المعاش · ·ده خالى بيقول ان ما فيش حاجة صعبانة عليه ، الا ان كل أصحابه اتخلوا عنه ·· حتى الناس اللى خدمهم وعملهم بنى آدمين ، مافيش واحد هوب ناحيته ، ولا سأله ايه الحكاية ؟

وقالت الأم بسرعة : الا عبد السلام بيه ·· ده ماسـابوش ، من ساعة ما سمع بالخبر ··

وقالت نبيلة ، تنافق أمها :

ـ عبد السلام بيه ده حاجة تانية ·· بيحب خالى قوى ! ··

وابتسمت الأم كأنهـا أفلحت فى اجتذاب احدى بناتهـا الى صفها ، وبدأت تخلع ثيابها ·· وخرجت فيفى الى غرفتها ·· وظلت نبيلة واقفة تتظاهر بمساعدة أمها على خلع ثيابها ، ثم قالت فى تودد :

ـ ماما ·· خديجة عازمانى أسافر معاها العزبة بكرة ··

ورفعت الأم رأسها ، ونظرت الى ابنتها كأنها اكتشـفت سر توددها لها ، وسر أعجابها المفاجىء بعبد السلام ، وقالت :

ـ تسافرى لوحدك ·· وده معقول ! ··

وقلت نبيلة وهى لا تزال تبتسم :
ـ وأنا حاسافر لوحدى ·· ده أنا حاسافر معاهم فى العربية ·· أبوها وأمها واخواتها ·· كلهم ··
وقالت الأم :
ـ بس لازم تاخدى معاكى حد من اخواتك ·· ما يصحش تسافرى لوحدك ! ··
ـ بس خديجة ما تعرفش حد من اخواتى ·· وفيها ايه يا ماما لما أسافر لوحدى ·· مش كفاية ما سافرناش اسكندرية السنة دى ولا باخرج ولا بادخل ·· أروح أشم هوا على الأقل ··
وقالت الأم الطيبة : وعزبتهم تبقى فين ؟ ··
وقالت نبيلة بسرعة كأنها تنتظر هذا السؤال :
ـ قريبة · جنب القناطر الخيرية ··
وقالت الأم : وفيها تليفون ؟ ··
وارتبكت نبيلة قليلا ، ثم قالت :
ـ لازم يكون فيها تليفون ·· بس ما اعرفش نمرته ·· أول ما حا اوصل حا اتصل بيكم من هناك ··
وسكتت الأم ··
وعادت نبيلة تقول : أقدر أسافر يا ماما ·· والنبى توافقى
وقالت الأم وهى تنهد :
ـ طيب يا بلبل ·· بس حا تقعدى هناك أد ايه ؟ ··
وقالت نبيلة فى فرح :
ـ يومين ما فيش غيرهم ·· حتى يمكن نرجع بالليل ··
وعادت الأم تقول كأن قلبها لا يستطيع أن يطمئن :
ـ وحايفوتوا عليكى الساعة كام ؟ ··
وقالت نبيلة بسرعة :
ـ مش حايفوتوا على ·· أنا اللى حا أفوت عليهم ·· أصلهم

ساكنين فى مصر الجديدة وحايطلعوا من هناك على القناطر ·· وانكسفت أقول لهم يفوتوا على ··

وسكتت الأم ، وقلبها يرفض أن يطمئن ··

واستطردت نبيلة :

ـ مرسى يا ماما ·· أما اروح احضر شنطتى ·· !

وخرجت من الغرفة ··

وما كادت تخرج حتى شعرت بقلبها يغوص فى صدرها ·· أحست بأنها أصبحت واقفة على حافة الهاوية ·· وعاودها ترددها ·· وتمنت لو أن والدتها رفضت أن تسمح لها بالسفر ، فربما حمتها بذلك من مجازفة لا تعرف ما وراءها ·· ولكن أمها سمحت ·· تخلت عنها ·· وأختها ليلى لا تستطيع أن تمنعها من السفر ·· تخلت عنها أيضا ·· وفيفى لا يمكن أن تفهمها ·· ان فيفى أيضا تخلت عنها ·· وأخوها أصبح يعيش فى عالم آخر ، لم يعد يهتم بما يجرى لها ·· لم يعد يحاسبها كما حاسبها مرة عندما رآها تسير مع محمود ·· تخلى عنها هو الآخر ·· ومحمود حبيبها لا يريد أن يطمئنها على مصيرها ·· تخلى عنها ·· كل الدنيا تخلت عنها ·· انها وحيدة ·· وهى وحدها تحمل مسئولية نفسها ·· مسئولية تصرفاتها ·· وأحست بزوبعة من العناد والتحدى تنطلق فى صدرها ·· ستعاند كل هؤلاء وتتحداهم ·· ستصنع ما تريد ، وتصل بنفسها الى ما تريد ··

ودخلت الى غرفتها ، وأختها فيفى جالسة فوق سريرها مستندة بظهرها الى الحائط تقرأ فى كتاب ··

ولم تلتفت نبيلة الى أختها ·· جاءت بمقعد ووضعته أمام الدولاب ، واعتلته ، وشبت على أطراف أصابعها ، وجذبت من فوق ظهر الدولاب حقيبة جلدية صغيرة ·· ثم نزلت من فوق المقعد ، وفتحت دولابها فى عصبية ·· وأخرجت قميصا حريريا من قمصان

النوم ·· وفردته أمام عينيها ·· انه قميص مفتوح الصدر بلا أكمام ·· وطوته وهمت أن تضعه فى الحقيبة ·· ولكنهـا عدلت فجأة وأعادت القميص داخل الدولاب ، وأخرجت قميصا آخر من «الفيللا» مقفول الصدر ، له أكمام طويلة ··

ورفعت فيفى رأسها عن الكتاب وصاحت فى أختها :

ـ بتعملى ايه ؟ ··

وقالت نبيلة فى عصبية :

ـ باحضر شنطتى ·· مسافرة بكرة ·· معزومة عند صاحبتى خديجة فى العزبة ·· والعزبة جنب القناطر ·· وحا اقعد يومين ، وخلاص ··

وقالت فيفى بدهشة : وزعلانة ليه ؟ ··

وقالت نبيلة في لهجة ساخرة مرة ، وهى مستمرة فى تحضير حقيبتها :

ـ مش زعلانة ·· بس متضايقة ·· أصلكم حاتوحشونى ··

وقالت فيفى وهى تنظر الى أختها كأنها تحاول أن تصل بعينيها الى قلبها :

ـ ايه رأيك لو جيت معاكى ؟ ما انت نوبة عرفتينى بخديجة ··

وقالت نبيلة صارخة :

ـ تيجى معايا ازاى ؟ ·· انتى حد عزمك ؟ ·· حانروح نلقح جتتنا على الناس ·· مش ناقص الا اننا نروح كلنـا ·· ماما ، وآبيه ، وليلى ·· وناخد معانا كمان خالى ، وعصام ··

وقالت فيفى وهى لا تزال تنظر الى أختها كأنها تريد ان تصل بعينيها الى قلبها :

ـ طيب اسكتى ·· بلاش ·· الحق على !

وعادت تنظر الى كتابها ·· ولكنها لم تكن تقـرأ ·· كانت سارحة بعينيها فى دنيا الملل والفراغ التى تعيشها ·· دنيا ليس

فيها شيء ‥ لا يهتم بها أحد ، ولا تهتم بأحد ‥ وحيدة ، جافة ، لا تستطيع أن تنظر حولها ، ولا تستطيع أن تنظر فى قلبها ‥ لا تستطيع أن تنظر الا الى لا شيء ‥ الى الفراغ ‥ وأطلت عليها من بين صفحات الكتاب صورة الأستاذ أمين عبد السيد ‥ وابتسمت ابتسامة حزينة ‥ لعله تركها هو الآخر الى الفراغ ‥ لقد حاول أن يتصل بها مرة ثانية بعد أن نجحت فى الامتحان ‥ هنأها ، وسألها أن يزورها فى بيتها ‥ ولكنها رفضت ‥ قابلته بنفس الحدة والسخط اللذين تقابله بهما ‥ لماذا ؟ لأنها تعتقد أنه شؤم ‥ تعتقد أن وجهه جلب الموت على أخيها ممدوح ‥ لا ‥ ربما لم يكن هذا الاعتقاد صحيحا ‥ انها لا تستطيع أن تصدق اعتقادها بأن أمين شؤم ‥ ربما كان هناك سبب آخر لهذه التصرفات التى تقابل بها أمين ‥ ربما كان هناك شيء فى تكوينها النفسى يحتاج الى اصلاح ‥ الى قطعة غيار ‥ حتى تصبح عواطفها وتصرفاتها كعواطف وتصرفاتبقية البنات ‥

والتفتت الى نبيلة وهى منهمكة فى اعداد حقيبتها ‥ وعادت تحادث نفسها : ربما لم تكن نبيلة ذاهبة الى عزبة صديقتها ، ربما كانت ذاهبة الى حبيبها محمود ‥ يا بختها ‥ انها هى أيضا تريد أن تذهب الى حبيبها ‥ أى حبيب يبدد من حولها هذا الفراغ ‥ أمين أو غير أمين ‥ رجل تحبه ، ويشغل قلبها ، وحياتها ، ويخفف عن عقلها هذا الخزين من العلوم والكتب التى تقرؤها ‥ وقد حاولت أكثر من مرة أن تتصل بأمين ، وتستدعيه الى بيتها ليخطبها من جديد ‥ ولكنها لم تستطع ‥ لم تجرؤ ‥ كانت تريد ، ولكنها لم تجرؤ ‥ هذا الشيء الذى يحتاج الى اصلاح ، كان يعجزها عن أن تقدم ‥ كالسيارة التى لا ينقصها شيء الا ميكانيكى ماهر يستطيع أن يكشف عيبها ، ويأتى لها بقطعة الغيار ٠

وانتهت نبيلة من اعداد حقيبتها ‥ واطمأنت الى ما معها من

نقود ٠٠ معها سبعة جنيهات ٠٠ كفاية ٠٠ لن تطلب من أمها نقودا٠
ثم انقضت الساعات وهى ساهمة ٠٠

وعادت ليلى ٠٠ وصاحت كأنها تتعمد أن تبدد الوجوم الذى يسود البيت : الفيلم كان بايخ ٠٠ وعصام كان أبوخ ! ٠٠

وحاولت أن تخلق حديثا تشترك فيه مع أختيها ٠٠ ولكن الحديث كان يتمزق بينهن ٠٠ كل منهن تحس بأن هناك شيئا جديدا يخفينه ولا يستطعن أن يبحن به ٠٠ وفيفى وليلى تنظران بين الحين والحين الى نبيلة ، كأنهما يبحثان فيها عن هذا الشىء ٠

ونامت ليلى مع نبيلة فى فراشها ٠٠ واحتضنتها الى صدرها كأنها تحميها من نفسها ٠٠ ونبيلة تنكمش فى صدر أختها ، كأنها تستجير بها ٠٠

وهمست نبيلة والأنوار مطفأة :

ـ ابقى خدى بالك من ماما ٠٠ اذا حاولت أن تتصل بخديجة فى التليفون ، والا تسأل عن نمرة العزبة ٠٠ ابقى اسألى انتى ، وقولى لها ان ما عندهمش تليفون ٠٠

وقالت ليلى فى حزن : حاضر ٠٠ ما تحمليش هم ٠٠

★ ★ ★

وفى الساعة السابعة صباحا استدعى عم عبد الله البواب سيارة أجرة وقفت أمام الباب فى انتظار نبيلة ٠٠

ووقفت نبيلة ، تقبل أمها ، وأختها فيفى ٠٠ واحتضنتها ليلى الى صدرها بشدة ، وفرت الدموع من عينيها ، كأنها تودعها الى ميدان القتال ٠٠

وقالت نبيلة :

ـ ابقوا سلموا لى على آبيه أحمد لما يصحى من النوم ٠٠

ونزلت السلم ٠٠

ومحمد السفرجى ينزل وراءها حاملا حقيبتها ٠٠

وأمها وأختاها ·· يودعانها بعيون تطل منها اللوعة ·· وجرت ليلى الى الشباك لتتزود بنظرة أخرى الى أختها عندما تصل الى الشارع ··

ووقفت نبيلة برهة قبل أن تركب السيارة ·· ورفعت رأسها الى البيت ·· ونظرت اليه كأنها لن تعود اليه ·· ولمحت ليلى فى الشباك ، فلوحت لها بيدها ، وهى تبتسم ابتسامة حزينة ··

وركبت السيارة ·· وقالت للسائق : محطة مصر يا أسطى ··

وانكمشت فى ركن السيارة وهى لا تستطيع أن تتحرك ·· لا تستطيع حتى أن تدير رأسها وتطل من النافذة ·· كأنها تخشى أن تحركت أن ترى فى الشارع شيئا يفزعها ·· تخشى أن تخاف نفسها ، وتعود الى بيتها لتحتمى خلف جدرانه ··

وفاجأتها الضجة التى تملأ المحطة ··

خيل اليها كأن الحرب قد أعلنت ·· كأن كل هؤلاء الناس متجهون الى المعركة ·· الى القتال ·· وهى أيضا ذاهبة الى المعركة لتقاتل ··

وتقدم شيال يحمل لها الحقيبة ، وهو يقول :

ـ اسكندرية يا هانم ؟ ·

وقالت : لا ·· طنطا !

ورفع الشيال حاجبيه فى دهشة ، كأنه لم يتعود أن يرى فتاة جميلة تسافر وحدها فى الصيف الى طنطا ·· كلهن يسافرن الى الاسكندرية ·· وسار نحو شباك التذاكر ، وسارت خلفه وركبتاها ترتعشان كأنها تخوض فى بحر لا تعرف قراره ·· تخوض فى عالم مجهول ·· وفتحت حقيبتها بيد مرتعشة ، وناولت عامل التذاكر النقود ، وأخذت منه التذكرة ·· وعادت تسير خلف الشيال ، وهى تحاول أن توقف الرعشة التى تهز قلبها ، وركبتيها ·· تحاول أن تشد ظهرها ، وتسير فى خطوات قوية ·· انها ، بنت كبيرة ، تحمل

مسئولية تصرفاتها .. ويجب أن تكون قوية .. وألا تخاف ..

وصعدت فى أول عربة صادفتها من عربات الدرجة الأولى .. وسارت فى طرقاتها تبحث عن مكان لها .. والرجال الجالسون ينظرون اليها ، ثم يديرون عيونهم قبل أن تلتقى بعينيهـا ، حتى لا يحرج أحد منهم فيترك لها محله .. والشـيال يحمل حقيبتهـا ويسير على الرصيف ، وتلتفت اليه بين كل خطـوة وأخرى حتى لا يتوه عنها ..

وانتقلت الى العـربة الثانيـة .. مزدحمة .. والثالثه .. مزدحمة أيضا .. ودق جرس المحطة ، وانطلقت صفارة القطار .. وألقى لها الشيال بحقيبتها من خارج النـافذة .. وجرى بجانب القطار وهو يمد يده ليتناول أجره .. وناولته أجره .. وساعدها شاب فى وضع حقيبتها على أرض القطار ..

وظلت واقفة تلهث دون أن ترى شيئا مما حولها .. كأنها هى التى تجرى وليس القطار .. ثم فاجأها الضـوء بعـد أن خرج القطار من المحطة ، فتنبهت .. وارتعشت رموشهـا فوق عينيها كأنها تمسح بهما غمامة كانت تحجب عنها الرؤية .. وانحنت تعدل وضع حقيبتها بجانب قدميها .. ولم تحاول أن تبحث لها عن مقعد .. المقاعد كلها مزدحمة ، والممر مزدحم .. وظلت واقفـة .. وعادت تحس بكل شىء يجرى .. أعمدة التليفـون المشرعة على جانب شريط القطـار .. تجرى وهى ثابتة .. قلبهـا يجرى .. دماؤها تجرى .. وصور كثيرة تجرى فى خيالها وتختلط بعضها ببعض .. صورة القرية تختلط بصورة القاهرة .. وصورة بيت محمود تختلط بصورة بيتها .. وصورة محمود نفسـه ، تختلط بصورة أمها وأخيها وأختيها ..

وحاولت أن توقف هذا الجريان .. حاولت أن تتلهى بالنظر الى الحقول ، وتحاول أن تعرف أنواع الزراعات .. هذا قطن ..

وهذا برسيم ·· لا ، حلبة ·· وهذه ذرة ·· وهذا قمح ·· و ··
ولكن لا أمل ·· ان كل ما فيها لا يزال يجرى ·· وتمنت لو أنها اشترت بعض الصحف والمجلات لتتشاغل بقراءتها عن نفسها ·· ثم تمنت لو أن أحدا من الشبان الواقفين حولها تقدم ليحادثها ، ربما وجدت فى حديثه ما يشغلها ·· واقترب منها الشاب الذى يقف بجانبها وقال وعلى شفتيه ابتسامة لزجة :

ـ الآنسة رايحة اسكندرية ؟ ··

ورغما عنها ارتفعت فى عينيها نظرات حادة ، وقالت فى حدة كأنها تتأهب للدفاع عن نفسها : لا ··

ثم ابتعدت عنه خطوة ، وأشاحت بوجهها ، وأخذت تنظر الى الحقول ·· ثم ما لبثت أن تعجبت من نفسها ·· لماذا لا تحادث هذا الشاب ؟ ·· انه لن يأكلها ·· ولن يسرق منها قطعة ·· ولكنها ظلت مشيحة بوجهها عنه ··

وقال الشاب مرة ثانية :

ـ التراب مضايقك ؟ ·· تحبى أقفل الشباك ؟ ··

واذا بالنظرات الجادة ، ترتفع مرة ثانية الى عينيها ، وتتخذ موقف الدفاع عن نفسها ، وقالت فى حدة : لا ··

وبدا على الشاب أنه يئس منها ، فأدار ظهره لها ··

وظلت واقفة وكل شىء فيها يجرى ·· وأحست بكتفها يحتك بكتف الرجل الذى يقف بجانبها من الناحية الأخرى ·· فابتعدت عنه قليلا ·· ثم بدأت تشعر بالملل ·· والسأم ·· بدأت تحس كأن القطار يبطىء ·· كأن طنطا أبعد مما كانت تنتظر ·· وبدأت تشم رائحة التراب ·· وتحس به يعلق بوجهها ·· وتعبت ·· تعبت من وقفتها ·· ومن حيرتها ·· ومن القطار ·· ومن الدنيا كلها ·· وانهارت قسمات وجهها ··

ثم ·· ثم لمحت طنطا من بعيد ··

ومرة واحدة استردت كل نشاطها ، وكل حماسها ، وأخذت عيناها تسبقان القطار ، كأنها تستطيع أن ترى محمود ، على هذا البعد ..

ودخل القطار محطة طنطا ..

وأدارت عينين ملهوفتين فى وجوه الناس الواقفين على الرصيف انها ترى وجوها ، ولكنها لا ترى تفاصيل هذه الوجوه .. ولا ترى محمود .. ونظرت من النافذة الأخرى .. ثم عادت تنظر من نافذتها .. ثم نظرت الى اليسار ، وعادت تنظر الى اليمين .. انها لا ترى محمود .. وقلبها يهمس .. محمود .. محمود ..

ووقف القطار ..

وظلت واقفة مكانها ، لا تتحرك .. تتلفت بعينين جزعتين تبحث عن محمود وصرخ فى وجهها شيال :

ـ شيال ..

وتنبهت .. ثم انحنت تحمل حقيبتها .. وتركها الشاب الواقف بجانبها تحملها وحدها .. وناولتها للشيال من خلال النافذة .. ثم سارت بخطى مسرعة ، ونزلت من القطار .. ربما كان محمود يبحث عنها هو الآخر .. ربما جاء متأخرا وهو الآن يجرى فى آخر الرصيف مقبلا اليها .. وأطلقت عينيها الى آخر الرصيف ، فلم تر محمود ..

وتقدمها الشيال ، وسارت وراءه بضع خطوات ، ثم صاحت فيه : استنى ..

والتفت اليها دهشا ، وعادت تقول وقد خفت صوتها :

ـ استنى شوية .. أصلى بادور على ناس ..

ووضع الشيال حقيبتها على أرض الرصيف بجانب قدميها ثم جرى يبحث عن زبون آخر ..

وظلت واقفة فى مكانها تتلفت حولها كالبلهاء ..

وتحرك القطار الذى جاءت فيه ، وغادر المحطة ·· وخف الزحام حولها ·· وشعرت بخوف أكبر عندما خف الزحام حولها وهدوء مريب يزحف حولها ·· ورائحة غريبة تملأ أنفها ·· رائحة طنطا ·· وبائع الحلاوة يمر أمامها ، ويصيح وحاجباه يرقصان : حلاوة السيد ·· يا حلاوة ! ··

وشاب يلصق شعره فوق رأسه بالبريانتين ، يتسكع أمامها ·· ووجوه غريبة ، وأزياء غريبة تنطلق أمام عينيها ·· كأنها وجوه من قارة أخرى ·· من كوكب آخر ·· ومحمود لم يأت ·· لعل برقيتها لم تصله ؟ ·· أو وصلته متأخرة ·· وهى خائفة ·· خائفة جدا ·· لماذا لا تعود الى القاهرة ؟ ·· الى بيتها ·· الى أهلها ·· الى الأمان ·· وفجأة اجتاحت صدرها موجة من العناد والاصرار ·· أحست كأنها تدافع عن كرامتها ·· عن جرأتها ·· ونادت الشيال الواقف قريبا منها وقالت له وهى تخطو أمامه :

ــ أنا عايزة أروح زفتى ! ··

وقال الشيال كأنه أحد خبراء السكة الحديد :

ــ زفتى ·· قدامك لسه نص ساعة ! ··

قالت : معلهش ·· استنى ·· هوه القطر حاييجى فين ؟ ··

وقادها الشيال الى رصيف القطار الذى يصل الى زفتى ·· واشترت التذكرة ·· وسارت على الرصيف وهى تتعمد ألا تتلفت حولها ، وأمنية خفية تبرق فى أعماق صدرها ·· أمنية أن يفاجئها محمود ويبدو أمامها ·· ودخلت غرفة الاستراحة ·· للسيدات فقط ·· وجلست وموجة العناد لا تزال تملأ صدرها ·· تحس انها ألقت نفسها فى الموج ، وهى تخبط بساعديها وقدميها لتتعلم السباحة ·· لتصل الى الشاطىء ··

وبين الحين والحين ، تقوم وتخرج من الاستراحة وتطلق عينيها فى أنحاء المحطة ·· وهى تنكر على نفسها أنها تبحث عن محمود

.. انه لن يأتى .. انها تعلم أنه لن يأتى .. انها فقط تريد أن تريح نفسها من جلستها ، وتتسلى بمشاهدة الناس .. ورغم ذلك ، فهى لا تطلق نظراتها الا بحثا عن محمود ..

وجاء القطار المتجهُ الى زفتى ..

وجلست فى أحد صالونات الدرجة الأولى ، ووضع الشيال حقيبتها فى المكان المخصص قريبا من سقف القطار .. وأمامها رجل سمين .. سمين جدا .. يرتدى الملابس البلدية ، وعمامة فوق رأسه .. ويشبك يديه فوق كرشه .. ورأسه مدلى فوق صدره .. وجفناه مدليان فوق عينيه الجاحظتين .. نائم ..

ورفع الرجل عينيه ، ونظر اليها ، وابتسم ابتسامة صغيرة ثم عاد وأغفى ..

وتحرك القطار ..

وبدأت تحس أن عنادها يتخلى عنها .. تحس بالملل والتعب .. وركزت عينيها فوق الرجل النائم الجالس أمامها .. أخذت تنظر الى كل قطعة منه كأنها تدرس تضاريس الكرة الأرضية .. ان التجاعيد فوق جبهته ترسم خمسة خطوط .. وكل عين من عينيه فى حجم فنجان القهوة .. وأنفه مفرطح تستطيع أن تفصل منه خمسة أنوف .. واللغد الذى يتدلى تحت ذقنه يزن ثلاثة أرطال على الأقل .. انه ليس لغدا واحدا .. ثلاثة .. كل لغد فوق الآخر .. و ..

وكأن نظراتها لسعت وجه الرجل ، ففتح عينيه ، ونظر اليها ، وابتسم ابتسامة صغيرة ، وقال مباشرة ، كأنه لم يكن نائما :

ـ وانتى رايحة فين بقى يا ست يا صغيرة ؟ .. ميت غمر ؟ ..

قالت وهى تبتسم : لا .. رايحة زفتى ..

وقال وهو يقاوم حتى لا تسقط رأسه فوق صدره :

ـ ما شاء الله .. ما شاء الله .. بنت مين بقى فى زفتى ؟ ..

قالت وهى لا تزال تبتسم : رايحة أزور جماعة قرايبى ..

وعاد يقول وصوته كالشخير :

ـ ما شاء الله .. ما شاء الله .. وقرايبك فى زفتى يبقوا مين ؟

وقالت : يبقوا .. و ..

ولم تتم .. فقد سقطت رأس الرجل فوق صدره ، وعاد واغفى ..

وابتسمت ..

وظلت ابتسامتها معلقة فوق شفتيها دون أن تحس بهـا .. وعادت تطل من النافذة على المزروعات وتحاول أن تعرف كل نوع منها .. هذا قطن .. وهذا قمح .. وهذه ذرة .. و .. وتنبهت الى أن ابتسامتها لا تزال معلقة فوق شفتيها .. فسحبتها .. وارتفع على وجهها تعبير الزهق والضيق ..

ووصل القطار الى زفتى ..

وتنبهت فجأة الى وصوله .. فلم تكن تعرف المحطة ، الا بعد أن قرأت اسمها .. والرجل الجالس أمامها لا يزال نائما ..

وشبت على قدميها وجذبت حقيبتها .. وناولتها للشيال من النافذة .. ونزلت من القطار وهى تتلفت حولها تبحث عن محمود .. وأطلت فى وجوه الناس .. انها وجوه غير التى رأتهـا فى طنطا .. شكل آخر .. وأحست كأن كل من تراه لا بد أن يكون من عائلة محمود .. عمه ، أو ابن عمه ، أو خاله ، أو ابن خاله .. حتى الشيال فيه ريح من ريح محمود .. لا بد أنهم كلهم يعرفون محمود ..

وقالت للشيال وهى تسير بجانبه ، والعيون كلهـا تنصب عليها :

ـ تعرف الأستاذ محمود ؟ ..

وقال الشيال : محمود مين .. الأستاذ محمود المحامى ؟ ..

وسكتت برهة كأنها دهشت لأن فى زفتى محمود آخر غير محمودها ، وقالت : لا ٠٠ محمود عبد الفتاح حسنين ؟ ٠٠

واقترب رجل يرتدى الثياب البلدية ، وقد رفع شاربه لى أعلا ، وأمال طربوشه الى جانب ، وقال للشيال :

ـ هيه الست بتسأل عن مين ؟ ٠٠

وقال الشيال : عن الأستاذ محمود ٠٠

وتقدم منها الرجل ، وقال وهو يتظرف :

ـ محمود مين ؟ ٠٠ ما هو أصل عندنا فى بلدنا محمودات كتير٠

وقالت نبيلة فى حزم : أنا عايزة أروح كفر ممونة ٠٠

وقال الرجل : وماله ٠٠ أوصلك لغاية هناك ٠٠

وقالت نبيلة : لا ٠٠ متشكرة ٠٠

ثم التفتت الى الشيال قائلة : شوف لى تاكسى ٠٠

وقال الشيال وهو ينظر الى الرجل فى امتعاض :

ـ خللى عنك يا سى السيد ٠٠ اتفضلى يا ست ! ٠٠

وقادها الى موقف السيارات الأجرة ، خارج فناء المحطة ٠٠

ووضع حقيبتها فى سيارة قديمة وهو يقول للسائق :

ـ كفر ممونة يا أسطى ٠٠

وانبهر السائق وهو ينظر الى نبيلة ، ونزل من على مقعدد وفتح لها الباب ، ثم التفت الى الشيال وقال فى همس :

ـ دى مين دى يا واد ؟ ٠٠

وقال الشيال :

ـ علمى علمك ٠٠ أصل ست ممونة ست مبروكة ٠٠ الناس بتيجى لها من آخر الدنيا ٠٠

وضحك ضحكة مكتومة ٠٠

والتفت السائق الى نبيلة وقد جلست فوق المقعد الجلدى المعفر ، وقال لها :

ـ المشوار خمسين قرش يا ست ، أصل الكفر بعيد عن هنا ··
وقالت نبيلة وهى تجمع كل حزمها وشجاعتها :
ـ طيب ·· بس اطلع قوام ·· أنا مستعجلة ··

٧

وأخذت السيارة العتيقة تشق الطريق الزراعى ، ونبيلة جالسة فى ركن منها ترتفع وتنخفض ، وتهتز اهتزازات عنيفة وتضطر أن تتشبث بحافة السيارة ، حتى لا تقع على أرضها أو تصطدم رأسها بسقفها ·· ورغم ذلك فهى مشغولة عن كل هـذه الاهتزازات ·· تنظـر حولها الى الحقـول ، والى الفـلاحين والفلاحات ، والى الجاموس والبقر والحمير ، والسـاقية ، والشادوف والطنبور ، ورائحة الزرع مختلطة برائحة التراب ، وروث البهائم ·· رائحة الريف ·· تهب على وجهها وتملأ أنفها ·· وشعرها يتطاير فوق رأسها ·· وثوبها الأسود الحزين يتلقى الأتربة ، كأنه يمتصها ، ويتغير لونه الى لون رمادى باهت ، كأنه يستقبل الفجر ·· وخيالها ينطلق ·· خيال رقيق يزدحم بأحلامها أنها تتصور نفسها كأنهـا أصبحت قطعة فى لوحة معلقة على حائط غرفة الصالون فى بيتهم أو فى بيت خالها ·· لوحة لم يعد ينقصها الا رسـم محمود ·· وتتصور نفسها واقفـة مع محمود داخل اطار اللوحة الجميلة ، بجانب هذه الساقية المهجورة ·· أو على حافة هذه القناة الصغيرة ·· أو يسيران سويا بين صفوف أشجار القطن ·· أو داخل هـذه الحديقة ·· أو ··

وأفاقت من خيالها برهة ·· وعادت تتساءل :

كيف يستقبلها محمود ؟ ..

وأم محمود .. وأبو محمود .. وقرية محمود ؟ ..

وأحست بالخوف .. أحست كأنها على وشك أن تقتحم وكرا للعمالقة .. والعمالقة لا يرحبون بها ، انما ينظرون اليها من عل .. من فوق رأسها .. نظرات صامتة صارمة .. لا تستطيع أن تفسرها .. ولا تستطيع أن تفهمها .. انها لا تعرف لغتهم .. لغة العمالقة .. وهم لا يفهمونها أيضا . انهم لا يتكلمون لغتها .. واشتد الخوف بها .. وتمنت مرة أخرى أن تعود ، ولكنها تستسلم لاندفاعها .. والسيارة تشق الطريق .. وهى تقترب .. وهى تعلم أنها تقترب .. ورغم ذلك فكلما اقتربت أحست أنها تبتعد .. تبتعد عن محمود .. انه لم يكن أبدا بعيدا عنها كما هو الآن ..

ولم تعد تنظر الى الحقول ، أحنت رأسها وأخذت تنظر الى يديها ، وقلبها ينتفض فى صدرها كالعصفور المذعور .. ثم رفعت رأسها على صوت السائق يسألها :

ـ حضرتك رايحة السراية ؟ ..

وقالت كأنها لا تفهم : سراية ايه ؟ ..

قال كأنه يلومها على جهلها :

ـ سراية الباشا .. هو فيه فى كفر ممونة الا سراية واحدة !

وقالت فى اقتضاب :

ـ لأ .. مش رايحة سرايات ! ..

وأدار السائق رأسه اليها ورفع يده يزيح اللبدة الى مؤخر جبهته ، ونظر اليها متعجبا ، كأنه لا يستطيع أن يتصور أن مثل هذه الفتاة يمكن أن تذهب الى أى مكان الا الى سراية الباشا .. ثم عدل رأسه وقال بلهجته الريفية كأنه يطلعها على معلوماته وصلاته القوية بالباشا :

ـ ده حتى الباشا مش هنا .. ولا حد من الستات .. كلهم

نزلوا مصر الجمعه اللى فاتت ·· أنا بنفسى مركبهم القطر ·· ماهو حاكم أنا من زمان مع الباشا ··

ولم ترد نبيلة ··

وبدا على السائق أنه تضايق لأنها لم ترد عليه ، ولأنها لاتحس بأهميته ، وعاد يدير اليها رأسه وقال :

ـ أمال حضرتك رايحة حدا مين فى الكفر ؟ ··

وقالت : رايحة عند الأستاذ محمود ··

وارتفع صوت السائق كأنه يحتج ، وقال :

ـ الأستاذ محمود مين ؟ ··

قالت : محمود عبد الفتاح حسنين ·· تعرفه ؟

وارتفعت علامات الحيرة على وجه السائق ، ثم انقلبت حيرته الى ضيق تقلص له وجهه ، كأنه يصعب عليه ألا يعرف محمود الذى تأتى لزيارته مثل هذه الفتاة ، وقال وتردده يفضح كذبه

ـ أمال ·· حد مايعرفش سى محمود حسنين عبد الفتاح ·

وقالت نبيلة : محمود عبد الفتاح حسنين ··

وقال السائق وقد ازداد حرجه : برضه كده ·· لك حق ·· وحضرتك بقى تبقى قريبة سى محمود ··

وقالت نبيلة اختصارا للحديث : أيوه ··

قال وهو يبتسم كأنه مضطر أن يحقق معها :

ـ أصل ولا مؤاخذة ·· ما شفتش حضرتك فى الناحية دى قبل كده ·· ما هو أصلى أنا باشتغل سواق بقالى خمستاشر سنة ·· قولى أكتر ·· مافيش حد حط رجله فى كل المركز الا وشفته بعينيه دول ··

وسكتت نبيلة ·· وسكت السائق مرغما ، وقد علت وجهه خطوط من الضيق والسخط ··

وعادت نبيلة تنظر الى الحقول ·· وسرب من البنات الفلاحات

بعضهن فى ثياب سوداء وبعضهن فى ثياب ملونة ، وعلى رأس كل منهن طرحة سوداء ‥ انحنين فوق أشجار القطــن يجمعن لطع الدود بأيد سريعة ماهرة ، كأن كلا منهن ترعى طفلها ‥ وكلهن يشتركن فى أغنية ‥ وأصغت نبيلة بأذنيها لتلتقط بعض كلمات الأغنية ، فلم تستطع ‥ وأحست برغبة شديدة فى أن تسمع كلمات هذه الأغنية ‥ كأنها لا تستطيع أن تستقبل محمود الا وهى تغنى له أغنية بلده ‥

ووقفت السيارة ، وصرخ السائق :

ـ يا واد فز قوم شد الجاموسة دى ‥

ونظرت نبيلة الى الجاموسة التى تقف هادئة فى وسط الطريق الزراعى ‥ وابتسمت ‥ وفلاح صغير يخرج من الحقل ، ويجرى نحوها ، ثم يدفعها بكلتا يديه ، وهو يصيح بصوت رفيع :

ـ عا ‥ عا ‥ عا الناحية دى ‥

والسائق يطلق بوق السيارة ، ويصرخ :

ـ يا واد شدها الناحية دى ‥ انتم فاكرينها سكة أبوكم ‥ جاتكم البلا ، فلاحين صحيح !

وأزاح الفلاح الصغير الجاموسة من طريق السيارة ، ووقف يبتسم لنبيلة ابتسامة كبيرة حلوة ‥ وابتسمت له نبيلة ‥ كأنها تتمنى أن تقبله ‥

وعادت الســيارة تشق الطــريق ‥ ونبيلة ترتفع وتنخفض، وتهتز اهتزازات عنيفة ‥ وهى صامتة ‥ تنظر حينا الى الحقول ، وتنظر حينا فى داخل نفسها ‥

ووقفت السيارة مرة ثانية ، وأشار السائق الى بضعة بيوت من الطين ، تقع على الناحيــة الأخرى من الطــريق الزراعى ، ويصلها به طريق ضيق يشق الحقــول ، وقال دون أن يتحرك من مقعده :

ـ أهو كفر ممونة ··
وارتجف قلب نبيلة ··
ونظرت الى بيوت الطين ، كأنهـا تنظر الى قلعـة محصـنة تستطيع أن تقتحمها ·· وأحست أنها لا تستطيع أن تتحرك من مكانها ·· وقالت في ألفاظ متعثرة مرتعشة : هو ده ؟ ··
وقال السائق ، وهو يخرج علبة صفيح من جيب جلبابه ويبدأ فى لف سيجارة : هو حضرتك ماجتيش هنا قبل كده ؟ ··
قالت كأنها تهمس : لأ ··
ثم استجمعت شجاعتها ، وفتحت حقيبة يدها ، وناولت السائق أجره ، ثم فتحت باب السيارة ، ونزلت ·· وما كادت تنزل حتى ألقى السائق السيجارة داخل العلبة ، قبل أن يتم لفها ، ونزل من السيارة ، كأنما عاودته شهامته فجأة ··
وخرج فلاح صغير حافى القدمين من الحقـل ، ووقف يتفرج على السيارة ومن فيها ، وبين شفتيه ابتسامة لا معنى لها ··
وأنزل السائق حقيبة نبيلة من السيارة ، ووقف يتلفت حوله·
وانضم الى الفلاح الصغير ، صبى آخر ··
ونادى السائق أحدهما : خد يا واد ··
والتفت الصـبى الى الآخر ، وظل فى مكانه ·· فصرخ فيـه السائق : يا واد خد ·· ده ماله لكم كده ! ··
واقترب منه الصبى ، ونبيلة تنظر اليه فى اكبار كأنه يحمل مفتاح السر المغلق ·· مفتاح القلعة التى تهم باقتحامها ··
وقال السائق للصبى :
ـ تعرف بيت سيدك محمود حسنين عبد الفتاح ·
وقالت نبيلة فى هدوء : محمود عبد الفتاح حسنين ··
وقال الصبى فى فرحة :
ـ بيت عم عبد الفتاح ·· ده ساكن فى الدوار الكبير ··

وخرج صبى ثالث ووقف بجانب السيارة ..

وقال السائق للصبى الذى يحادثه :

- طيب شيل الشنطة دى وخليك مع الست لغاية ما توصلها للدوار الكبير .. شيل يا واد .. جتك الهم ! ..

ورفع السائق الحقيبة الصغيرة ، ووضعها فوق كتف الصبى .. وتلقاها الصبى فرحا ، وهو ينظر الى زميليه الصغيرين كأنه يتباهى عليهم ..

وسار يتقدم نبيلة نحو الطريق الضيق الذى يؤدى الى بيوت الكفر .. وسار خلف نبيلة الصبيان الآخران .. ووقف السائق مستندا الى جدار سيارته ، ينظر الى الموكب الصغير فى تعجب ، ثم وضع يده فى عب جلبابه ، وأخرج العلبة الصفيح وبدأ يلف سيجارته من جديد ..

وانضم طفل رابع الى الموكب .. وكلهم يسيرون حول نبيلة صامتين .. ثم رفع الصبى الذى يحمل الحقيبة رأسه اليها ، وقال كأنه استجمع كل شجاعته : انتى جاية من مصر ؟ .

وقالت نبيلة وهى تبتسم : أيوه ..

وتلفت الصبى الى زملائه كأنه يتباهى امامهم بجرأته ..

وبعد برهة ، رفع صبى آخر رأسه اليها وسألها :

- انتى جاية من مصر ؟ .

وعادت نبيلة تقول : ايوه ..

واقترب منها الصبى الثالث ، وقال : انتى جاية من مصر

وقالت وابتسامتها لا تزال بين شفتيها : أيوه ..

وانضم صبى آخر الى الموكب .. ثم آخر .. وتضخم الموكب .. وخيل لنبيلة أنه أصبح يحيط بها آلاف الصبية .. لم تعد تستطيع أن تنظر الى وجوههم .. انهم أكبر عددا من أن تسعهم عيناها ..

ووقفت امرأة فى ثوبها الفلاحى ، على جانب الطريق ، وقالت وهى ترفع طرف طرحتها وتغطى نصف وجهها :

ـ مين دى يا واد يا سلامة ؟ ٠٠

وأجاب سلامة وهو يسير بين الموكب : دى جاية من مصر ! ٠٠

وعادت المرأة تقول : ورايحة فين يا واد ٠٠ رايحة حدا مين ؟

وأجاب سلامة : رايحة الدوار الكبير ٠٠ عند سى محمود ٠٠

وخطت المرأة نحو نبيلة ووقفت تنظر فى وجهها ، وسألتها :

ـ انتى منين يا عروسة ؟ ٠٠

وقالت نبيلة كأنها تتنهد : من مصر ٠

وعادت المرأة تسألها وهى تنظر فى وجهها بعينين ثابتتين :

ـ ورايحة فين يا اختى ؟ ٠٠

وقالت نبيلة كأنها تردد كلاما كالببغاء : رايحة عند سى محمود٠

وسار الموكب ٠٠ وانضمت اليه المرأة ٠٠ ووقفت شابتان متفتحتان على جانب الطريق ، وقالت احداهن ، وهى تخفى نصف وجهها بطرحتها : دى مين يا ام سلامة ؟ ٠

وأجابت أم سلامة :

ـ دي جاية من مصر ٠٠ وآل يا اختى رايحة تزور سى محمود !

وضحكت الشابتان ، وتهامستا ، ثم انضمتا الى الموكب ٠٠ والموكب يتضخم ٠٠ أصبح مظاهرة ٠٠ صبيان ، وبنات ، ونساء ٠٠ والصبى الذى يسير بجانب نبيلة حاملا حقيبتها ، يبتسم فى تباه كأنه يعتز بحمله الثمين ٠٠ ونبيلة متعبة ، والتراب الذى يثور من تحت الأقدام ، يهب على وجهها ٠٠ انها تشم التراب ، وتذوق التراب ، وتتنفس التراب ٠٠ وشمس الصيف الحامية تسقط على رأسها كأسياخ النار ٠٠ ولحمها يذوب حتى تحس به يلتصق بثوبها ٠٠ وهى تريد أن تستريح ٠٠ تريد أن تهرب من التراب ٠٠

تريد أن تخلع حذاءها ذا الكعب العالى ·· وأن ترش على وجهها حفنة من الماء ··

واقترب من الموكب شاب يرتدى جلبابا بلديا ، وفى يده خيزرانة صغيرة ·· وأشار الى أحد الأولاد وسأله

ـ دى مين دى يا واد ؟

وأجاب الصبى :

ـ دى جاية من مصر ·· ورايحة دوار عم عبد الفتاح ··

ورفع الشاب عصاه ، وهزها فى وجوه الصبية والبنات وهو يصيح فيهم : جرى ايه يا واد انت وهو ·· هى فرجة ·· ياللا يا بت انتى وهى ·· جرى ايه يا ام سلامة ·· !

وابتعد الزحام قليلا عن نبيلة واقترب منها الشاب قائلا :

ـ حضرتك جاية من مصر ؟ ·

وقالت نبيلة فى استسلام : أيوه ··

وقال الشاب وهو يتحذلق : أهلا وسهلا ·· نورت بلدنا ·· وجاية لمين ؟ ·

قالت كأنها أسطوانة مشروخة تردد لفظا واحدا : لسى محمود ·

وانطبق الزحام مرة ثانية حول نبيلة ··

ومد الشاب يده وحاول أن يخطف الحقيبة من الصبى الذى يحملها قائلا : هات الشنطة دى يا واد يا ابراهيم ··

وتراجع ابراهيم كأنه يحمى كنزا هبط عليه من السماء :

ـ ما انا شايلها من الصبح يا محروس ·· هو ايه ده !

وصرخ فيه محروس : يا واد هات بلاش كتر كلام ··

ثم خطف الحقيبة من بين يدى الصبى الصغير ، وحملها فى يده ، وسار بجانب نبيلة يتخايل كأنه الطاووس ··

ونبيلة صامتة ·· متعبة ·· تشم التراب ، وتذوق التراب وتتنفس التراب ··

ودخل الموكب الى القرية ·· وحاولت نبيلة أن تتلفت حولهـا لتتعرف على المعـالم التى كان يصفها لها محمـود والمنطبعة فى خيالها ·· ولكن عينيها كانتا تصطدمان بعيون الناس ، فتنكسهما وتنظر الى الأرض ·· الى التراب ··

وبرزت عنق الحاج متولى صاحب الدكان الوحيد فى الكفر من وراء باب دكانه ، وصاح :

ـ ايه الحكاية يا محروس ·· ؟

وقال محروس وهو مستمر فى طريقه بجانب نبيلة :

ـ دى ضيفة جاية من مصر تزور عم عبد الفتاح ··

والتفت الحاج متولى الى ثلاثة من الرجال ملتفين حول دكانه وينظرون بعيون دهشة وأفواه فاغرة ، الى نبيلة ، وقال :

ـ والله عال يا رجالة ·· يظهر ان دى الشـهادة اللى أخدها سى محمود ··

وضحك الحاج متولى بقهقهة كبيرة ·· وضحك الرجال الثلاثة كأنهم صدى ضحكته ··

وسار الموكب فى أزقة القرية ·· ومر على بركة من الماء الآسن الراكد تتوسط البيوت ·· ثم بدأ يسير محاذيا لسـور كبير من الطين ، وأحست نبيلة أنها تسير بجانب سور بيت محمود ·· فهكذا وصفه لها ·· وستدخل الآن من الباب ·· وتجد على يمينها حديقة صغيرة تزدحم فيها بعض أشجار الجوافة ، والطماطم ، والبامية ·· و ·· وعلى يسارها ستجد البيت الذى وصفه لها محمود ·· بيت قديم ·· كان بيت جده ·· مبنى من الطوب الأحمر الذى اكلح لونه ·· وسقفه من حطب القطن المجدول ·· و ·· و ··

ووجدت نفسها تدخل من الباب المرتسم فى خيالها ، والزحام الكبير يدخل وراءها ··

والتفتت الى اليمين لترى نفس الحديقة التى وصفها لها محمود

·· وأشجار الجوافة ·· أربع أشجار فقط ··

والتفتت الى يسارها .

ولمعت عيناها ··

انه محمود ··

واقف أمام البيت مرتديا جلبابا بلديا أبيض ، يبرز من تحته صديرى مخطط ذو أزرار من الصدف وفى قدميه « بلغة » صفراء .

وخيل اليها أنها تراه كما لم تره من قبل ··

وارتعشت رموشها كأنها تمسح بها عينيها ، حتى تتأكد من أن الواقف أمامها هو محمود ··

انه أكبر ·· وأقوى ·· وأشد رجولة ، مما عرفته ·· وهو ينظر اليها ووجهه كله غارق فى دهشة كبيرة ·· وفى دهشته شىء كأنه العتاب ·· كأنه اللوم ·· كأنه ليس سعيدا بلقائها ·· !

وبذلت مجهودا عنيفا لتظل محتفظة بابتسامتها ·· وهى تعبة ·· تعبة جدا ·· والتراب فى أنفها ، وبين شفتيها ، وفى صدرها ·· وهى تريد أن ترتمى على صدره وتستريح ·· وتنام ·· انها لن تحتمل لومه وعتابه الآن ·· بل لن تحتمل حتى دهشته ·· انها تريد أن تستريح ··

والزحام لا يزال وراءها ··

ومحمود واقف ينظر اليها فى دهشة ·· ثم نفض دهشته وتقدم منها يصافحها ، ويقول وصوته القوى يتحشرج فى زوره :

ـ الحمد لله على السلامة ··

ورؤوس الناس المتزاحمين تطل عليهما ، وتنحشر بينهما ·· تلتفت مرة الى نبيلة ، ومرة الى محمود ·· والعيون كلها متطلعة كأنها تبحث عن السر الكبير .

وصاح محروس وهو يهز عصاه فى الهواء :

ـ جرى ايه يا جماعة ·· ده حتى ما يصحش. كده ·· كل واحد يروح على شغله ··

واندفع من داخل البيت فلاح فحل ، أخذ يدفع الأولاد والبنات والنساء بكلتا يديه ، وهو يصرخ :

ـ ايه البجاحة دى ·· يا للا منك له ، جاتكم البلا ·· ياللا يا واد ·· يا بت اتحركى ··

ثم رفع كفه الغليظة ، وصفع أحد الأولاد صفعة قوية ، فجرى الأولاد والبنات والنساء كلهم ، خارجين من حديقة الدار ··

وعاد الرجل ووقف أمام محمود وقال : فيه حاجة تانية يا سى محمود ؟ ·

وقال محمود يقدمه الى نبيلة :

ـ ده عوض ·· اللى حكيت لك عنه ·· اتربينا ســوا ، بس طلع عاقل واشتغل فى الأرض ·· وسابنى أنا اتعلم ··

ومدت نبيلة يدها الى عوض ، وقالت وهى تبتسم :

ـ ازيك يا عوض ··

ونظر عوض الى يد نبيلة ، ثم مسح يده فى جلبابه ، وأمسك بيدها ، وهزها بقوة ، قائلاً : لازم انتى تبقى ست نبيلة ، ما هو سى محمود بيحكيلى على كل حاجة ··

وأحست نبيلة بيدها تتوه فى يد عوض الكبيرة الخشنة ··

وتنبه محمود الى أن محروس لا يزال واقفا حاملا الحقيبة وكل أذنيه متجهتان الى الحديث الدائر ·· فاقترب منه ، وقال :

ـ متشكرين يا محروس ·· تعبناك !

وقال محروس : وده تعب ده ·· دى نعمة ··

ولم يرد محمود عليه ، ظل واقفا قبالته ، وهو ينظر فى عينيه ·· وهز محروس كتفيه وأطلق عينيه الى نبيلة ، ثم استدار وهو قول :

ـ خليتكم بعافية ••

وخرج ••

وعاد محمود الى نبيلة وهو يحمل حقيبتها ، وقال وهو يشير الى داخل الدار : اتفضلى ••

وقالت نبيلة كأنها تعتذر : انت ما وصلكش التلغراف ؟ •

قال : لا •• انتى بعتيه امتى ؟ •

قالت : امبارح الساعة أربعة ••

قال : يبقى حايوصل بكره •• ما احنا هنا فى مجاهل افريقيا •

وضحك ضحكة خفيفة ، يحاول أن يدارى بها ما يحس به من حرج •• ثم التفت الى عوض قائلا :

ـ روح افتح المندره يا عوض !

وقالت نبيلة وهى تجتاز الباب الكبير :

ـ أصل اتخضيت لما كتبت لى فى الجواب ان والدتك عيانة قوى •• قلت آجى أزورها ، بنفسى •• وأطمن عليها وعليك •• جوابك خوفنى عليك يا محمود ••

وقال محمود كأنه يرفض اعتذارها •

ـ متشكر ••

ووجدت نبيلة نفسها فى فناء واسع يتوسط أربع غرف •• أو أربع منادر •• مبنية من الطوب الأحمر القديم ، وسقفها مغطى بأعواد الحطب ، والطين المعجون بالتبن •• غرفتان على اليمين ، وغرفتان على اليسار ••

وقادها محمود الى الغرفة التى على اليمين •• واستقبلها ضوء خافت ، وهواء رطب ، وأحست توا بأسياخ النار التى كانت تسقط فوق رأسها تكف عنها •• ورائحة التراب تختفى •• والزحام يبتعد وهدوء ناعم يزحف على أعصابها •• وتلفتت حولها •• ليس فى الغرفة سوى « دكة » خشبية عريضة ، مفروش عليها « حمل »

أشبه بسجادة من الصوف الخشن ، وعلى جوانبها وضعت بضعة وسائد جافة ..

وأسرعت وجلست على الدكة ، ومدت يدها تخلع حذاءها .. وقالت وهى تتنهد فى راحة : ده أنا هلكت ! ..

ورفعت رأسها الى محمود ، ورأت وجهه واجما مرتبكا ، وبين شفتيه ابتسامة مترددة يحاول أن يخدعها بها عن ارتباكه ..

واستطردت قائلة وهى تنظر اليه فى جزع :

ـ انت زعلت يا محمود علشان جيت ؟ .

وقال فى ارتباك ، وقد وضحت لهجته الريفية فى صوته ، أكثر مما كانت واضحة وهو فى القاهرة :

ـ أبدا .. بس كانت مفاجأة .. كان حقك قولتيلى قبل ماتيجى .. على الأقل أستناكى على المحطة وأحضر الركايب وماكنتيش تعبتى التعب ده كله .. وكمان علشان البيت يستعد .. ما هو مش كل يوم بيجيلنا ناس من مصر ..

وقالت نبيلة كأنها تعتذر ، وقد بدأت الدماء تتسلل الى وجنتيها لتفضح احساسها بأنها أقحمت نفسها على محمود :

ـ ما أنا بعت تلغراف يا محمود ..

وقال محمود وكأنه نسى آداب الضيافة :

ـ مش كفاية ، كان لازم تستنى لما أرد عليكى ..

وقامت واقفة ، وقدماها بلا حذاء ، فبدت قصيرة .. قصيرة جدا بالنسبة لمحمود .. وقالت فى حدة :

ـ أنا آسفة ، على كل حال أنا راجعة النهاردة ، الحق على أنا ..

ولانت الخطوط على وجه محمود ، واتسعت ابتسامته قليلا وقال وهو يحاول أن يسترضيها :

ـ مش قصدى يا نبيلة .. أصلك مش عارفة البلد حصل فيها

ايه دلوقت ·· زمان كل بيت بيحكى حكاية ·· زمان الخبر وصل لآخر غيط فى زمام بلدنا ·· زمانه وصل لمركز السنطة ·· و ·· توقف محمود كأنه اكتشف فجأة أن هذا الحديث قد يجرح به نبيلة مرة أخرى ·· وظل ساكتا برهة ، ثم استطرد وهو يبتسم ابتسامة أكبر :

ــ نورت بلدنا يا نبيلة ·· نورت دارنا وغيطنا والمديرية كلها ·

وظلت نبيلة ساكتة تنظر فى وجهه كأنها تبحث فيه عن شىء ·· عن حبها ··

ولانت قسمات وجه محمود أكثر ·· وهدأت النظرات فى عينيه ·· وبدا كأنه يتنهد ·· وصدره يرتفع وينخفض من تحت الصديرى المخطط ذى الأزرار الصدف ·· وابتسامته استراحت فوق شفتيه كأنه يقبلها بها من بعيد ··

ورأت نبيلة حبه ··

انه لا يزال يحبها ··

ولكنه لا يزال واقفا بعيدا عنها ·· لماذا لا يقترب ·· لماذا لا يمسك بيديها ويضمها الى صدره ؟ ·· ويقبلها ·· ويريح رأسها على كتفه ·· لو أنه قبلها لعوضها عن كل تعبها ·· لاستراحت من حيرتها وترددها ، ومن أسياخ النار التى لفحت رأسها ، والتراب الذى يملأ صدرها

ولكنه لا يقترب ··

وقال محمود وهو ينظر اليها كأنه يقبلها بعينيه :

ــ وحشتينى يا نبيلة ··

وقالت وهى تثبت قدميها فى الأرض حتى لا تنحدف نحوه :

ــ وانت كمان ··

قال وهو يبتسم : عن اذنك ·· أما أروح أدى خبر لأمى · دى حاتفرح قوى ··

واستدار وخرج ..

وعادت نبيلة تجلس على الدكة الخشـبية ، وتمنت أن ترفع ساقيها وتفردهما فوق الدكة .. لتستريح .. لتنام .. ولكنها ظلت جالسة ، تكاد لا تتحرك ، تنظر الى الباب وهى تنتظر فى كل لحظة أن يدخل منه أحد .. محمود .. أو أبو محمود .. أو عوض .. أو .. أو ..

ومضت مدة طويلة ولم يدخل أحد ..

وبدأت تسـمع ضجة منبعثة من الفنـاء الداخلى للدار .. وأصوات الفراخ والبط كأنها الصراخ .. كأنها تستغيث قبل الذبح .. وأصغت بكل أذنيها الى هذه الضجة لعلها تستطيع أن تميز من بينها صوت محمود ..

ومضت مدة أطول ..

أكثر من نصف ساعة ، وهى وحيدة صـامتة فى هذه الغرفة الرطبة الخافتة الضـوء .. جامدة فى جلستها .. لا تستطيع ان تتحرك .. وبدأ احساسها بالتعب يعاودها .. وبدأت تحس بطبقة التراب التى تغطى وجههـا وثوبها .. بدأت تشم التراب وتذوق التراب .. وهمت أن تفتح النافذة الوحيدة فى المندرة لعل رائحة التراب تتسلل منها .. ولكنها خشيت ألا يكون هذا من حقها .. وخيل اليها أنها لو فتحتها فستجد خلفها آلاف العيون تنظر اليها وتسألها : « انتى جاية من مصر ؟ » .. وازداد احساسها بالتعب والارهاق .. ولم تعد تتمنى شيئا الا أن تخلع ثوبها .. وتغسل وجهها .. وآه لو استطاعت أن تستحم بالدش .. وخيل اليها ان الوقوف تحت الدش فى هذه اللحظة ، نعمة لا توجد الا فى الجنة .

واغمضت عينيها ، لتستريح ..

وفتحتهما بعد لحظة لتجد محمود واقفـا أمامهـا ، بجلبابه البلدى الأبيض ، والصديرى المخطط ذى الأزرار الصدف .. وخيل

اليها أنها تراه لأول مرة هكذا ·· وابتسمت ابتسامة مرهقة ··
وقال محمود وهو يبادلها ابتسامتها :
ـ أنا آسف أصل الدوار كله قايم على رجل علشان خاطرك ·
وقالت نبيلة فى توسل ضعيف :
ـ أنا مش عايزاك تعاملنى على انى غريبة ·· أنا جيت لأنى كنت حاسة انى مش غريبة عنك ·· جيت علشان أعيش زى ما انت عايش ··
وقال محمود :
ـ لو كان على ·· كنت بنيت لك سرايا زى سراية الباشا ··
ثم استطرد قائلا :
ـ تعالى شوفى أمى ·· دى فرحت قوى لما سمعت انك جيتى ·
قالت نبيلة فى فرحة : هيه عارفانى ·· كلمتها عني ؟ !
قال فى بساطة :
ـ قلت لها انك زميلتى فى الجامعة ··
وانكمشت أسارير نبيلة ، كأنها صدمت بخيبة الأمل ، واستطرد محمود قائلا وهو يشير لها الى الباب :
ـ اتفضلى ··
ووضعت نبيلة حذاءها فى قدميهـا ، وسـارت بجانبـه ·· واجتازا فناء الدار الى المندرة القبلية ·· ودخلت نبيلة واجفة ، مرتبكة ·· والضوء خافت ، والهواء رطب مكتوم ·· ورائحة بخور زاعقة تهب عليها ·· والأم راقدة على سرير من دكتين متقابلتين ، فرشت فوقهما مرتبة من القطن ووسائد غليظة تحيط بسور الدكتين· وتقدمت فى خطوات مرتبكة ··
وأطلت بعينيها على وجه الأم ·· وجه ضعيف أنهكه المرض ، ولكن المرض لم يستطع أن يتغلب على الطيبة والبساطة والاستسلام الذى يشع منه ··

وقال محمود بمجرد أن دخل :
- نبيلة يا امه ٠٠ جاية من مصر مخصوص علشان تطل عليكى وتتمنى لك الشفا ٠٠

وحاولت الأم أن ترفع رأسها من فوق الوسادة ، فأسرعت اليها نبيلة قائلة خليكى مستريحة ٠٠

ثم مدت لها يدها تصافحها : قائلة : ازيك دلوقت يا طنط ؟ ٠

ووقفت كلمة « طنط » بين شفتيها ٠٠ وحاولت أن تختار كلمة أخرى ٠٠ يا عمتى ، يا ستى ، يا أم محمود ، يا هانم ، و ٠٠ و ٠٠ ولكنها لم تستطع أن تقول الا يا « طنط » ٠٠

وقالت أم محمود فى صوت ضعيف : تعبتى نفسك يا بنتى ٠٠ ما أنا كويسة والحمد لله ٠٠

وقالت نبيلة وهى تبتسم لها : محمود قال لى ان الدكتور طمنه٠
وقالت الأم :
- الشفا بيد الله يا بنتى ٠٠ وببركة ست ممونة ! ٠
ثم ابتسمت لنبيلة ابتسامة كبيرة وقالت فى بساطة :
- ده انتى حلوة قوى يا ست نبيلة ٠٠ لو كنتى من بلدنا كنت جوزتك لمحمود ابني ٠٠
وقال محمود ضاحكا : وما اتجوزش من مصر ليه يا امه ٠٠ ؟
وقالت الأم كأنها تلقى كلامها الى نبيلة :
- وهم بنات مصر يرضوا بينا يا ابنى ٠٠ ! ؟
وتضرج وجه نبيلة ٠٠ وسكتت ٠٠
وصاح محمود وهو يطل من الباب :
- ناعسة ٠٠ يا ناعسة ٠٠ هاتى الكرسى القش اللى فى المندرة البحرية ٠٠

وجاءت ناعسة تحمل المقعد بين يديها ٠٠ والتقت عيناها بعينى نبيلة ٠٠ ورأت نبيلة فى عينى ناعسة شيئا كالغيظ ٠٠ كالتحدى

ثم أدارت عينيها في وجهها ·· وجه جميل ممتلىء ·· سمرته مشوبة بلون الصحة والعافية ·· والعينان واسعتان مشروطتان ، بياضهما ناصع ، وسوادهما داكن ·· والأنف أفطس قليلا ·· والشفاه مكتنزة ·· والقوام مفرود ملفوف ·· يختفى تحت ثوب ملون ·· لونه أصفر زاه ، تنتشر فيه ورود خضراء ··

وقال محمود يقدمها اليها : ناعسة بنت عمى ··

ثم التفت الى ناعسة قائلا ، وهو يأخذ المقعد من بين يديها

ـ دى نبيلة ·· زميلتى فى الجامعة ·· يعنى بكره تاخذ شهادة وتبقى زيى تمام ! ··

وقالت ناعسة وهى تضحك :

ـ وحا تعمل ايه بالشهادة بقى ؟ ·· مش برضه اللى واخدين شهادات بيتجوزوا ؟ ··

ومدت لها نبيلة يدها تصافحها ، وهى تقول :

ـ الشهادة ما لهاش دعوة بالجواز ··

وقالت ناعسة وهى تصافحها :

ـ وحضرتك حاتشتغلى بقى بعد ما تاخدى الشهادة ؟

وضحكت نبيلة ··

وقال محمود : يابت بلاش هبل ·· با اقول لك حا تبقى زيى · شايفانى أنفع مولد ! ؟ ··

وقالت ناعسة : يوه بقى يا محمود ·· ما هو أنا ما اعرفش ·· اما أروح أشوف الأكل ··

ثم التفتت الى نبيلة قبل أن تخرج قائلة :

ـ أصلى واخده شهادة فى الطبيخ والخبيز ·· واسألى حتى عمتى ·· مش كده يا عمتى ؟ ··

وقالت الأم وهى تبتسم : ده ما فيش حد فى البلد كلها زى ناعسة ·· وجدعان المديرية كلها بيجروا وراها ··

وقال محمود ضاحكا : أصل ما فيش فى المديرية جدعان ··
وخرجت ناعسة ··

وشعرت نبيلة بشىء كالغيرة يزحف على صدرها ·· أحست كأن ناعسة أقرب الى محمود منها ·· وكأن محمود يعطيها من طبيعته وبساطته أكثر مما يعطيها ·· شعرت كأن محمود وهو بجانب ناعسة ، فى بلده ، وعندما يكون بجانبها ، فهو غريب ··

وقال محمود وهو يضع المقعد بجانب الدكة التى ترقد عليها أمه : اقعدى يا نبيلة ·· الغدا حيتأخر شوية ·· أصل أمى صممت انهم يدبحولك جوز فراخ ودكر بط ··

وقالت نبيلة وابتسامتها تعبة فوق شفتيها
ــ بس لازم ارجع النهاردة مصر ··

وقال محمود : ماهو مش حترجعى قبل ما تتغدى ··

وقالت الأم : ليه يا بنتى ترجعى ·· مش تخليكى معانا يومين دى بلدنا حلوة ··

وقال محمود : أنا حاسيبكم دلوقت ·· حاروح أدور على أبويا فى الغيط علشان أقول له ، قبل ما يسمع الخبر من برة ··

وتقلص وجه نبيلة . شعرت كأن محمود يعنى أنه يحاول أن يحمى نفسه من فضيحة قبل أن يصل خبرها الى أبيه ··

ولكنها سكتت ··

وخرج محمود ··

وبقيت نبيلة جالسة بجانب الأم المريضة ، يتبادلان كلمات متناثرة ممزقة لا هدف لها ·· وتغفو الأم قليلا ، ثم تفتح عينيها وتنظر الى نبيلة كأنها تنظر الى شىء عجيب . لم تتعود النظر اليه ·· ثم يعودان الى تبادل الكلمات القليلة الممزقة ·· والدقائق تمر بطيئة ثقيلة واحساس نبيلة بالتعب يزداد ·· ورائحة البخور الزاعقة التى تملأ الغرفة تكاد تخنقها ·· وثوبها يضيق عليها حتى

يكاد يحطم ضلوعها ٠٠ ومدت احدى قدميهـا وخلعت بهـا فردة الحذاء من قدمها الأخرى ، ثم خلعت فردة الحذاء الثانية ، ولكنها لا تزال تعبة ٠٠ وبدأ تعبها يثير أعصابها ٠٠ بدأت تشعر برغبة جامحة فى أن تصرخ ٠٠ لماذا تركها محمود مع أمه ؟ ٠٠ لماذا يبقون النافذة مغلقة رغم أن المريضة فى حاجة الى الهواء ؟ ٠٠ لماذا لم يفكر أحد فى أن يدعوها لغسل وجهها وتغيير ثوبها ؟ ٠٠ لماذا ٠٠ لماذا ؟ ! ٠٠

وبدأت الصورة الجميلة التى رسمتها فى خيالها لقرية محمود تنهار ٠٠ انها تكره القرية ، وتكره الفلاحين ٠٠ لن تستطيع أن تعيش هنا ٠٠ تريد أن تعود الى مصر ٠٠ الى بيتها ٠٠ الى أمها ٠٠ اخوتها ٠٠ سريرها ٠٠ وهى تريد أن تصرخ ٠٠ أن تبكى ٠٠ أن تنام ٠

وأفاقت من زحام أفكارها ، على صوت الأم المريضة ، تقول فى حنان : زمانك تعبانة يا بنتى ٠٠ ما تيجى تتمـددى جنبى هنا لغاية الغدا ما يجهز ٠٠

وقالت نبيلة وهى تبتسم ابتسامة مفتعلة :

ـ أبدا ٠٠ مش تعبانة يا عمتى ٠٠

وضغطت نبيلة على أسنانها ، وظلت جالسة فى مكانها ٠٠

قد جمدها التعب ، كأنها أصبحت قطعة من الحجر ٠٠

وفى الساعة الرابعة سمعت صوت محمـود فى فنـاء الدار مختلطا بأصوات أخرى ٠٠ ثم دخل الغرفة فلاح عجوز عملاق يرتدى جلبابا أسود واسعا ، ويعلق فى ذراعه عصـا قديمة كالحة ٠٠ وفوق شفتيه شارب أبيض مشعث ٠٠ وعلى رأسـه لبدة سمراء يلف حولها شالا أبيض ٠٠ ووجهه مغضن جاف كالأرض المشققة . وعيناه لامعتان تتدفق منهما نظراته كأنها ماء غزير يتدفق من عيون الساقية ٠٠

ودخل معه محمود ··

وإنتفضت نبيلة واقفة ، تنظر الى الشيخ المهيب ، كأنها ترى فى شقوق وجهه سنوات عمر محمود ··

وقال محمود : نبيلة يابا ··

وانحنى الرجل المهيب وهو يصافحها قائلا :

— نورت دارنا يا ست نبيلة هانم ·· وشرفت بلدنا ·· دى خطوة عزيزة ··

وتعجبت نبيلة وهى ترى الرجل ينحنى أمامها ويخاطبها بهذا التملق ، وتذكرت توا قصة صاحب العزبة الذى كان أبو محمود ينحنى أمامه ويقبل يده ·· والذى كان محمود فى صباه يحب ابنته ·· وأحست أن أبا محمود يعاملها كأنها ابنة صاحب العزبة وأحست بحرج كبير ·· حرج مخلوط بالشفقة ·· والتفتت الى محمود فاذا على وجهه علامات السخط كأنه يلوم أباه على هذا التذلل الذى يبديه أمام نبيلة ··

والتفت عم عبد الفتاح الى ابنه قائلا :

— روح يا محمود شوف ناعسة حضرت الغدا والا لسه ؟ ·· خليها تعمل همة ··

ثم عاد يلتفت الى نبيلة قائلا :

— كان بودنا ندبح خروف ·· انما أصل الحقيقة اتفاجئنا بالزيارة الكريمة ·· أهلا وسهلا ، خطوة عزيزة ، نورت بلدنا ··

ثم التفت الى الأم المريضة وقال :

— ازيك النهاردة يا أم محمود ؟ ·· شد حيلك أمال ·· ست نبيلة جت ، ومعاها الشفا ··

ثم عاد يلتفت الى نبيلة مستطردا :

— أهلا وسهلا ·· خطوة عزيزة ·· نورت بلدنا ·· ماتأخذيناش

احنا ناس على قدنا ·· مش عارفين نكرمك ازاى ؟ ·· دى خطوة عزيزة ·· اتفضلى ·· والله لتتفضلى ··

وأشار لها الى المقعد الذى كانت تجلس عليه ، وقالت نبيلة فى صوت مرتعش : اتفضل انت يا عمى ··

وبرقت عينا الرجل وهو يسمعها تناديه بيا « عمى » ، وقال :

ـ لا والله ·· اقعدى يا ست نبيلة ·· دا انت نورتينا ··

وعاد محمود ليعلن أن الغدا قد أعد ··

وأصر عم عبد الفتاح على أن تتقدمه نبيلة فى الخروج من الغرفة لتتوجه الى المندرة الأخرى حيث أعد الغداء ·· وخرج وراءها ·· وخرج وراءهما محمود ·· ونبيلة يزداد حرجها ازاء المعاملة التى يعاملها بها عم عبد الفتاح ، والتى تزيد احساسها بأنها لا تنتمى الى هذه الدار ، ولا الى هؤلاء القوم ، ولا الى محمود ··

ولمحت ناعسة تمر فى فناء الدار حاملة أوانى الطعام ·· وعاودها احساسها بأن ناعسة أقرب منها الى محمود ·· ان ناعسة تنتمى الى هنا ·· أما هى فلا ·· انها تنتمى الى هناك ··

ودخلت نبيلة الى المندرة الأخرى ·· وقد فرشت أرضها بالحصير ، وتوسطتها طبلية وضعت عليها صينية نحاسية كبيرة صفت حول طرفها أطباق الطعام ·· وصاح عم عبد الفتاح :

ـ اتفضلى هنا يا ست هانم ··

وهمت نبيلة أن تجلس على الأرض ، فاذا بعم عبد الفتاح يصيح مرة ثانية : لا والله ·· ودى تيجى ··

ثم صرخ ينادى احدى الفلاحات :

ـ يا بت يا فتحية ، هاتى مخدتين من فوق الدكة اللى فى المندرة ·

والتفتت نبيلة الى محمود ·· انه صامت ·· ينظر الى أبيه

فى غضب مكبوت ..

ودخلت فتحية تحمل وسادتين كبيرتين ، أخذهما منها عم عبد الفتاح ووضعهما على الأرض وأشار الى نبيلة لتجلس فوقهما

وقالت نبيلة فى ضعف ، كأنها تتوسل اليه :

ـ ما أنا حا أقعد زيكم يا عمى ..

وقال عم عبد الفتاح :

ـ انتى مش واخده على الأرض يا ست نبيلة .. احنا فلاحين نزرع الأرض ، ونأكل على الأرض ، وننام على الأرض .. انما انتى حاجة تانية .. انتى شرفتينا وشرفتى أرضنا ..

واضطرت نبيلة أن تجلس على الوسادتين .. وجلس على الأرض محمود وأبو محمود فبدت بينهما كأنها جالسة على عرشها كأنها ملكتهما .. ومحمود ساخط لا ينظر الى نبيلة ولا الى أبيه .

وجاءت ناعسة تحمل آخر أوانى الطعام ، وقال لها عم عبد الفتاح وهو يبدو مرحا : عرفتى تطبخى النهاردة يا ناعسة ؟ .. اوعى تكسفينا قدام ست نبيلة .. !!

وقالت ناعسة وهى تجلس على الأرض ، وترمق نبيلة بنظرة فيها تحد :

ـ والله ما فى بر مصر كله واحدة تطبخ زيى .. دوق وحاسب على صوابعك .. ده أنا حتى خبزت رغيفين دلوقت علشان ست نبيلة تدوق خبيزى ..

وبدأوا يأكلون .. وعم عبد الفتاح يصر على أن يبحث فى الدار عن ملعقة قديمة يضعها أمام نبيلة .. ويصر على أن يأتى بمنشفة وجه « بشكير » ليضعه فوق ركبتيها . ثم يمزق بيديه قطع الفراخ ودكر البط ، ويضعها أمام نبيلة .. وهى تحاول أن تقنعه بأنها لا تستطيع أن تأكل كل هذا .. ولكنه يصر .. حتى أصبح ما أمامها من قطع الفراخ والبط ، أكثر مما بقى للجميع ..

ومحمود صامت ، رأسه ساقط فوق صـدره ، كأنه خجل من أبيه ·· ونبيلة تمد أطراف أصابعها وتلتقط قطعا صغيرة من اللحم·

وناعسة تنظر الى نبيلة فى تحد ·· وتحاول فى كلمات متباعدة أن تظهر تفوقها على بنات مصر ·· .

ومعدتها مقبوضة ، لا تستطيع أن تقبل من أصابعها شيئا ·

وعم عبد الفتاح لا يكف عن الترحيب بنبيلة ، وعلى دعوتها الى المزيد من الطعام ·· .

وقالت نبيلة ، وهى تحس بالفشل ·· فشل خيالها ، وفشل ذكائها ، وفشل كل مشروعاتها : أنا خايفة أتأخر والقطر يفوتنى ·

وصاح عم عبد الفتاح :

ـ لا والله ·· لازم تقعدى معانا يومين ، ما تجيش انك تسافرى لوحدك بالليل ·· ده حتى ما يصحش ·· وكمان تشوفى بلدنا ·· وناعسة تلم بنات الكفر الليلة ، ويقعدوا يغنوا لك ، ويسلوكى ·· ده احنا بلدنا حلوة قوى ·· و ··

وفجأة ألقى محمود الطعام من يده وصاح فى أبيـه يقاطعه وكأنه يعلن الثورة عليه :

ـ جرى ايه يابا ·· هيه نبيلة جاية تتفرج علينا والا ايه ؟ ·· دى جاية تزور والدتى ، وتطمن عليها ··

وسكت عم عبد الفتاح ·· كأنه أحس بخطأ لا يدريه ·· ونقل عينيه اللامعتين بين نبيلة ومحمود ·· كأنه يسألهما عن خطئه ·· ثم نكس رأسه ·· كأنه اكتفى بأنه يتهم نفسـه بالجهل أمام ابنـه المتعلم ، ونبيلة القادمة من مصر ··

ورجف قلب نبيلة ··

ونظرت ناعسة الى محمود فى اعجاب ··

ووجه محمود لا يزال يرتعش بثورته ··

وقال عم عبد الفتاح فى صوت خافت مسكين :

ـ وماله يا ابنى ·· برضه اكرام الضيف واجب ··

٨

كانت القرية تطن كخلية النحل منذ وصلت اليها نبيلة ٠٠ كل فرد فيها يحكى حكاية يؤلفها بخياله الساذج ٠٠ والحكايات تنتقل من بيت الى بيت ، ومن حقل الى حقل ، وتئز بين أعواد الذرة ، وشجيرات القطن ٠٠ وصبية القرية تجمعوا أمام باب دار عم عبد الفتاح ينظرون بعيون متطلعة متلهفة كأنهم فى انتظار موكب العروس ٠٠ وتسللت بضع فتيات الى حديقة الدار وكل منهن تحمل فوق رأسها اناء ، وهى تدعى أنها دخلت لتملأ اناءها من الطلمبة التى تقع تحت أشجار الجوافة ، والتففن حول الطلمبة وهن يبحثن بعيونهن داخل الدار لعلهن يتزودن بنظرة من نبيلة ٠٠

وقالت بهانة وهى تحرك ذراع الطلمبة :

– زى ما قلت لكم ، ده متجوزها ، واحلف على كده ميت يمين

وقالت فتنة : وهوه لو ماكانش متجوزها كانت استجرت تدخل بلدنا ، والا تحط رجلها فيها ٠٠

وقالت شكرية : أتارى سى محمود قعد السنة كلها ، مايهوبش ناحية بلدنا ٠٠ ولا يسأل عن أمه ولا عن أبوه ٠٠

وقالت بدرية : وايه عرفكم ؟ ٠٠ كنتم حضرتم دخلته ٠٠ ما يمكن صاحبته ٠٠ ما هو بنات مصر كده ، تحط ايدها فى دراع الجدع من دول وتقول له اسمك ايه ؟ ٠٠ وتروح تزوره فى بيته وتقعد مع أمه ، من غير جواز ولا حاجة ٠٠ مش زينا فلاحين ٠

وقالت بهانة : اسكتى انتى يا بدرية ٠٠ والنبى انتى عبيطة ٠

وقالت شكرية :

ـ يا وكستك يا ناعسة ·· يا ترى عاملة ايه دلوقت ؟ ··

وقالت فتنة : البنية فضلت تتعزز على العرسان علشان خاطر سى محمود ·· واهو رجع لها سى محمود متجوز جاهز ·· يا ريته ما كان راح المنهوبة اللى اسمها مصر ، ولا رجع منها ··

ومالت شكرية على فتنة ، وتهامستا وفى عيونهما بزيق خبيث سانج ·· ثم تركت كل منهما آنيتها على الأرض ، وسارتا متجهتين الى فناء البيت الخلفى حيث تقع قاعة الفرن ، ورأتا ناعسة جالسة أمام الموقد تطهو الطعام ، فوقفتا بعيدا عنها مترددتين . ثم اقتربت شكرية منها فى خطوات بطيئة كأنها تقترب من النـــار ·· وقالت وهى تحاول أن تخفى خبثها :

ـ العواف يا ناعسة ··

ورفعت ناعسة وجهها المنصهر بحرارة الموقـد ، وقالت وهى تلوى شفتيها : الله يعافيكى ··

وقالت شكرية : تحبى أساعدك ·· أصلى ســمعت ان جالكم ضـــيوف من مصر ·· قلت آجى يمكن أقدر أســاعدك ·· وانتى يا اختى لواحدك ·· وأم محمود عيانة ··

وقالت ناعسة وهى تدير عنها رأسها :

ـ فيكى الخير يا شكرية ·· ما نستغناش ··

وقالت شكرية : أروح أخبز لك رغيفين ؟ ··

وقالت ناعسة : لا ·· أم السعد قدام الفرن ··

ولم تيأس شكرية ·· جلست مقرفصة بجانب ناعسة . وقالت :

ـ ويبقوا مين دول بقى يا ناعسة ، الست اللى جت من مصر دى ؟ ··

وقالت ناعسة وهى تحاول أن تبدو هادئة :

ـ دى تلميذة مع محمود فى الجامعة ·· جاية تطل على عمتى .

وقالت شكرية وهى تمصمص بشفتيها

– عجايب ‥ انما والنبى دى وحشة ومعصعصة ‥ ما هو بنات مصر مافيهمش الا منظر ‥

وقالت ناعسة بحدة :

– جرى ايه يا بت يا شكرية ‥ ايه الكلام الملولو ده ؟ ‥ قومى فزى على داركم ‥ ما أنا عارفاكى ‥ وعارفة لسانك ‥

وقامت شكرية وهى تقول :

– الحق على أنا ‥ والنبى اذا كان محمود اتجوزها يبقى له حق ‥

وهرولت خارجة من الفناء ‥ وفتنة تجرى وراءها ‥ ومدت ناعسة عودا من الحطب داخل الاناء والتقطت دجاجة من الماء الذى يغلى ‥ وجست لحم الدجاجة بأصابعها ، ثم عادت وألقت بها فى الماء ، وهى تهمس لنفسها : بالسم ‥ و ‥

وعم متولى صاحب الدكان الوحيد فى القرية ، جالس أمام دكانه وحوله بضعة رجال يتلقفون كلماته كأنها حكم مرسلة ‥

وقال عم متولى :

– أنا شفت الخلقة دى السنة اللى فاتت لما نزلت مصر أزور الحسين ‥ دى بنت ناس أكابر ‥ أنا عارفها ‥ وأبوها عنده خمسين فدان فى المنوفية ‥

وقال عم فرغل :

– ما هو الواد محمود ده ما يضربش الا فى العالى ‥ فاكر لما عشق بنت البيه صاحب العزبة الشرقية ، وأبوها رنه علقة وكان حا يطرد عم عبد الفتاح من الأرض ‥

وقال فتوح : يكونش متجوزها يا رجالة ‥ ؟ !

ومر محروس من أمام الجماعة ، فصاح به عم متولى :

– ايه يا محروس ‥ تعال احكى لنا عرفت ايه وشفت ايه ؟

وقال محروس والحقد بين شفتيه :

ـ لا عرفت ، ولا شفت ، إنما ده حال مايل ٠٠ ده مايخلصش حد يا رجالة هوه اكمن سى محمود اتعلم فى مصر وأخد الشهادة ، يقوم يجيب لنـــا واحــدة من مصر ٠٠ لا احنا عارفين اذا كان متجوزها ، والا مرافقها ٠٠ أنا دمى مش مستحمل يا جدعان ٠٠ وما يصحش الحاجات دى تحصل قدامنا كده ٠٠ احنا بنخاف على بناتنا ٠٠ ده زمان بلاد الناحية كلها بتضحك على كفرنا ٠٠ وبكره يعايرونا ويقولوا ٠٠ والا ايه يا رجالة ٠٠ ما تشوفوا لكم فتوى ٠٠؟

وقال فتوح : لك حق يا واد يا محروس ٠٠ ده لو كان ابنى عمل العملة دى ، كنت دبحته دبح ٠٠

وقال فرغل : أيوه كان يحترم شيبة أبوه ٠٠ الراجل ماكانش بياكل علشان يبعت له الفلوس على مصر ، وآخرتها يجيب له بنت تقعد فى البيت ٠٠ ؟

وقال عم متولى : صبركم يا رجالة ٠٠ النبى أوصاكم بالصبر ، واحنا لسه مش عارفين حاجة ٠٠ زمان الواد عوض جاى ، وهوه اللى يقدر يقـول لنـا على السر كله ٠٠ ما هو حاكم سى محمـود ما يخبيش عنه حاجة أبدا ٠٠

وقال محروس كأنه يدعو الى الثورة :

ـ وعوض حايقول ايه يعنى ؟ ٠٠ المسألة مش عايزة قوالة يا رجالة ٠٠ ما هى قدامنا أهه ٠٠

وقال عم متولى : جرى ايه يا محروس ٠٠ ان بعض الظن اثم ٠٠ مش يمكن متجوزها ٠٠ ؟ !

وقال فرغل :

ـ ويسيب بنت عمه ٠٠ والله ضفر ناعسة ببنات مصر كلهم ٠٠

وقال عم متولى : صبركم بس ٠٠ زمان عوض جاى ٠٠

وقال محروس : وإذا ما جاش عوض ٠٠ نفضل قاعدين كده ، والمسخرة دايرة فى بيت الراجل الطيب عم عبد الفتاح ٠٠ ؟ !

وقال متولى : انسد يا واد يا محروس ·· ما تشغللهاش أمال ·
ثم ابتسم عم متولى ، واستطرد قائلا :
ـ ما هو عوض لازم ييجى علشان ياخد رأس سكر ، ينقعوها للست اللى من مصر ·· والا يعملوا لها ليموناده ·· ما هو محمود بقى فرنجة خالص ··

ولم يكد عم متولى ينتهى من كلامه ، حتى ظهر عوض ، يهرول نحوهم ، ووجهه متهلل بفرحة ساذجة ·· واستقبلته الجماعة بعيون صامتة ، ظلوا يتبعونه بها ، حتى وصل اليهم ، وما كاد يقف أمام الدكان ، وقبل أن يتكلم ، حتى قام عم متولى ، ومد يده وجذب قمعا من السكر ملفوفا فى ورقة زرقاء ، وناوله لعوض قائلا : ايه الأخبار يا عوض ؟ ··

ولم يدهش عوض عندما رأى عم متولى يناوله قمع السكر قبل أن يطلبه منه ، وكأنه تعود من عم متولى أن يعرف مطالب زبائنه قبل أن يعلنوها له ، وقال وفرحته لا تزال تغطى وجهه :
ـ الأخبار زين يا عم متولى ··
وقال عم متولى وهو يبتسم لعوض كأنه يرشوه بابتسامته :
ـ ومين بقى الست دى ·· الست اللى جت من مصر ؟ ··
وقال عوض فى براءة :

ـ دى تبقى زميلة سى محمود فى الجامعة ·· واخده شهادة زيه تمام ·· وجاية تطل على أم محمود بعد ما سمعت انها عيانة ·· ده كان كل بتوع الجامعة جايين لولا ان سى محمود ما حبش انهم يكلفوا خاطرهم ، ويتعبوا نفسهم ·· ما هى أصل مصر كلها تحب سى محمود ·· كل اللى هناك يعرفوه زى ما يكونوا عايشين معانا فى الكفر ·· !

وتحولت العيون عن عوض ، وأخذ الرجال ينظرون بعضهم الى بعض ، وعلى شفاههم ابتسامات ساخرة ، ثم التفتوا الى عم

متولى ، وظلوا متطلعين اليه كأنهم ينتظرون حكمه ، وانطلق من بينهم صوت محروس يقول : غريبة !!

وقال عم متولى فى هدوء : غريبة والله يا عوض ٠٠ وهم بنات مصر بييجوا للرجالة كده لوحدهم ؟٠٠

وقال عوض :

ـ با اقول لك دى تلميذة فى الجامعة ٠٠ يعنى زى الراجل تمام٠

وقال محروس فى حدة : ما هو ده كلام ما يدخلش المخ ٠٠ واحنا كمان ما نقدرش نسكت على كده ٠٠ دى مش بلد محمود لوحده ٠٠

والتفت اليه عوض فى حدة وقال :

ـ ومالك محموق قوى كده يا محروس ٠٠ ؟ ما انت كنت شايل لها الشنطة وماشى جنبها زى حمار السباخ ٠٠

وقال محروس وقد بدأ وجهه يزدرد :

ـ أنا كنت عايز أعرف ميتها ٠٠ وأشوف حكايتها ايه ؟ ٠٠ لقيت الحكاية مهببة ٠٠

وقال عوض وهو يلتفت اليه بكل جسده :

ـ لم لسانك يا محروس ٠٠ والا ومقام ست ممونة ، ما تنام الليلة الا فى تربتك ٠٠

وخطا عم متولى ووقف بين محروس وعوض ، وقال :

ـ بس يا وله انت وهوه ٠٠ الحكاية ما تستهلش ده كله ٠٠

وقال محروس :

ـ ما تستهلش ازاى ٠٠ هوه احنا مش رجالة والا ايه ؟ ٠٠ مالناش حرمة والا ايه ؟ ٠٠ مالناش بنات والا ايه ؟ ٠٠ مالناش شرف والا ايه ؟ ٠٠

وقال عوض :

ـ اذا كان على الرجالة ، ما تحسبش نفسك فيهم ٠٠

وقال فتوح :
ـ احنا اللى عايزين نعرفه ٠ ٠هوه متجوزها والا لأ ؟ ٠٠
وقال فرغل :
ـ مضبوط كده ٠٠ هوه متجوزها والا لأ ٠٠ ؟
وقال عوض :
ـ ايه اللى جاب سيرة الجواز دلوقت ؟ ٠٠ با اقول لكم انها زميلته وجاية تطل على أمه ، فيها ايه دى ؟ ٠٠ أما فلاحين صحيح ٠
وقال عم متولى : وحا تقعد حداكم كتير ؟ ٠٠
وقال عوض :
ـ كتير والا قليل ٠٠ ما تفهمونا ايه الحكاية ٠٠ قصدكم ايه ؟
وقال محروس : مش قلت لكم ٠٠
ثم التفت الى عوض قائلا :
ـ مش فاهم الحكاية يا عوض ٠٠ الحكاية اننا ما نقدرش على المسخرة دى ٠٠ اذا كان سى محمود عايز يمسخر ٠٠ يروح يمسخر فى مصر ٠٠ انما بلدنا مش وش حاجات زى دى ٠٠

وقفز عوض فى الهواء وألقى بنفسه على محروس ، وهو يصرخ :
ـ والله لاشرب من دمك ، يا عرة البلد ، يا صايع ، يا ابن فطومة ! ٠٠

ونشط الرجال كلهم فى التفريق بينهما ٠٠ وعندما أبعدوا أحدهما عن الآخر ٠٠ كان جلباب عوض قد تمزق ، والدم يسيل على وجه محروس ٠٠

وحمل عوض قمع السكر ، وقال وهو يبتعد :
ـ والله لأوريك ٠٠ والله لافرج عليك المديرية كلها ٠٠

★ ★ ★

وانتهى عم عبد الفتاح من تناول الغداء ، ونظر الى نبيلة وهى

جالسة فوق الوسادتين مرتفعة عن الأرض كأنهـا ملكة العائلة وقال : يعنى ما كلتيش حاجة يا ست نبيلة ٠٠ ! ؟

وقالت نبيلة فى صوت خافت : أكلت يا عمى ٠٠ الحمد لله ٠٠

وقالت ناعسة فى تهكم خفى :

ـ يمكن طبيخى مش عاجبها ٠٠ ما هو طبيخ فلاحى ما يعجبش بنات مصر ٠٠

وتهلل وجه ناعسة ، كأنها نسيت غيرتها لبرهة ٠٠

وهم عم عبد الفتاح أن يتكلم ٠٠ ولكنه عدل كأنه خاف أن يغضب ابنه محمود مرة ثانية ٠٠ وأحنى رأسه وسكت ٠٠

ومحمود لا يزال معقد الوجه ، كأنه يعانى ألما فى معدته ٠٠

ونبيلة أحنت رأسها ، تنظر الى الطعام المكوم فى طبقها ، كأنها تبحث فيه عن طريق تهرب منه ٠٠

وناعسة تنقل عينيها بين محمود ونبيلة ، ثم تتنهد ، وتمد أصابعها وتلتقط قطعة أخرى من لحم الدجاج ٠٠

وقال عم عبد الفتاح وهو يهم بالقيام :

ـ أما أقوم أقعد مع أم محمود ، أسليها شـوية ٠٠ عن اذنك يا ست نبيلة ٠٠

وقالت نبيلة وهى ترفع رأسها وتتسلق بعينيها قامته الطويلة كأنها تتوسل اليه ألا يناديها بيا « ست نبيلة » :

ـ اتفضل يا عمى ٠٠

وابتسم عم عبد الفتاح وهو يسمعها تنـاديه بيا « عمى » ، ثم خرج ٠

والتفت اليها محمود قائلا ، ووجهه لا يزال متجهما

ـ تحبى تشربى شاى ٠٠ ؟

وقالت نبيلة فى ضعف وتوسل : أنا عايزة اغسل وشى

ورفع محمود اليها عينيه ، كأنه اكتشف أنه أخطأ لأنه لم يدعها

الى غسل وجهها بمجرد وصولها ، ثم التفت الى ناعسة قائلا :

ـ هاتى الطشت والابريق علشان نبيلة تغسل وشها ٠٠

وقالت ناعسة :

ـ حاضر ٠٠ بس أما انادى أم السعد تشيل معايا الصينية ٠٠

ثم قامت وخرجت ٠٠ بعد أن أطلقت نظرة أخيرة على نبيلة ٠٠

ومرت فترة صمت بين نبيلة ومحمود ٠٠ كلاهما منكس الرأس وكلاهما متجهم الوجه ٠٠ ثم قالت نبيلة كأنها تتنهد :

ـ أنا غلطانة ٠٠

وقال محمود وهو لا ينظر اليها متجاهلا ما تعنيه :

ـ غلطانة ليه ؟ ٠٠

قالت وهى تبتسم فى مرارة كأنها تسخر من نفسها :

ـ غلطانة اللى جيت ٠٠ كان متهيأ لى انك حا تفرح ، وان مامتك حا تفرح ٠٠ كل الاولاد دلوقت بيعرفوا البنات بأمهاتهم ٠٠ صاحبتى خديجة خدها عزيز وعرفها بأمه ، ويوم ما عيت بقت تروح تقعد جنبها وتديها الدوا ٠٠ قعدت أقول لنفسى اشمعنى انت ما تعرفنيش بمامتك ؟ ويوم ما تعيا ليه ما اروحش أقعد جنبها ٠٠ واتهيأ لى انك مكسوف انك تعرفنى بيها لأنها ٠٠ لأنها يعنى ٠٠ يعنى ست قاعدة فى الفلاحين ٠٠ وقررت انى آجى علشان اثبت لك انه ما يهمنيش اذا كانت والدتك فلاحة والا مش فلاحة ٠٠ انما يظهر انى غلطت ٠ !؟

ورفع محمود رأسه اليها ، وقال وصوته جاف كأنه يلقى عليها درسا :

ـ أنا ما كنتش مكسوف انى أعرفك بأمى ٠٠ انما عوايدنا هنا تختلف عن مصر ٠٠ ما اقدرش أعزم واحدة فى بلدنا الا اذا كانت قريبتى ٠٠ واذا عزمتها لازم اعزمها هى وأبوها وأخوها ٠٠ حد من رجالتها ٠٠ لو كنت ابن صاحب العزبة اللى جنبنا كنت عزمتك فى السرايا ، وما كانش حد اتكلم ٠٠ لأن الفلاحين بيعتبروا صاحب

العزبة وأولاده صنف تانى ·· عالم تانى ·· انما أنا منهم ·· فلاح زيهم ·· ولازم أعيش زيهم ·· ومش ممكن يسمحوا لى باكتر من اللى بيسمحوا بيه لنفسهم ·· و ··

ودخلت ناعسة تحمل الطشت وخلفها أم السعد تحمل الابريق ·· وسكت محمود عن كلامه وعاد ينكس رأسه ··

ووضعت ناعسة الطشت على الأرض ، وأخذت الابريق من بد أم السعد ووضعته فوقه ·· ثم تقدمت الاثنتان لتحملا صينية الطعام ·· فقام محمود واقفا وقال :

ـ أما اسيبك لغاية ما تغسلى وشك وتستريحى شوية ··

وقالت نبيلة وهى تقوم واقفة ، وسحابة من الضيق تطوف حول وجهها : أنا لازم أرجع مصر دلوقت ··

وقال محمود وهو واقف عند الباب :

ـ ما تقدريش ·· الساعة دلوقت خامسة ونص ، على بال ما ابعت حد المركز يجيب تاكسى ، وترجعى فيه يكون آخر قطر قام ·

وقالت ناعسة وهى تساعد أم السعد على حمل الصينية على رأسها : ما دى انت قاعدة يومين معانا يا ست نبيلة ! ·· انت لحقتى تستريحى ؟ ! ··

وقالت نبيلة : أنا لازم أرجع مصر ··

وقال محمود دهشا :

ـ هم مش عارفين عندكم فى البيت ، انك مسافرة ؟ ··

قالت : عارفين ·· بس لازم ارجع ··

وقال محمود وهو يبتسم لها كأنه يرجوها ألا تعاند :

ـ بكره الصبح تاخدى أول قطر ··

وقالت ناعسة فى خبث :

ـ مالكيش حق يا ست نبيلة ·· احنا لحقنا نتهنى بيكى ·· ده

احنا لسه حتى ما اتكلمناش كلمتين ·· والا يمكن دارنا ما عجبتكيش؟ ما احنا فلاحين .··

وقالت نبيلة فى امتعاض كأنها كرهت كل الفلاحين :

ــ لا ·· أبدا ·· بس ··

وقال محمود :

ــ علشان خاطر ناعسة بقى يا نبيلة ·· وعلشان خاطرى ··

وتنهدت نبيلة ، وسكتت ··

وخرج محمود من الغرفة ··

وحملت أم السعد صينية الطعام ، وسبقتها ناعسة وفتحت لها ضلفة الباب الثانية ·· وخرجت أم السعد ··

وعادت ناعسة ، وجلست مقرفصــة على الأرض أمام الطشت والابريق ، وقالت : تيجى تغسلى وشك يا ست نبيلة ؟ ··

وتقدمت نبيلة ، وحاولت أن تجلس مقرفصة كناعسة ، ولكنها لم تستطع ·· لضيق ثوبها ·· وكادت تفقــد توازنها ·· وتقع ·· ففضلت أن تجلس على ركبتيها ·· وبدأت ناعسة تصب لها الماء فى كفيها ، وترشه نبيلة على وجهها ··

وقالت ناعسة وهى مستمرة فى صب الماء :

ــ ده انتى شرفتينا يا ست نبيلة ·· ده أنا من زمان وأنا نفسى أشوف واحدة من بتوع الجامعة ، ده أتارى بتوع الجامعة حلوين قوى ··

ولم ترد نبيلة ·· تشاغلت بغسل وجهها ··

وعادت ناعسة تقول :

ــ وباين ان محمود ابن عمى بيعزك قوى ·· ده بوده يجيب كل اللى فى البلد ، ويحطه قدامك ··

وقالت نبيلة وهى تجفف وجهها بالمنشفة :

ــ وباين عليه بيعزك انتى كمان ·· !

وقالت ناعسة بخبث ساذج ، ورموشها ترتعش فوق وجنتيها :

ـ ما هو ما خبيش عليكى ·· احنا مخطوبين لبعض ··

وأبعدت نبيلة المنشفة عن وجهها ، ونظرت الى ناعسة فى فزع ، وقالت كأنها تلهث :

ـ مخطوبين ! ؟ مخطوبين ازاى ·· محمود ما قاليش حاجة !

وقالت ناعسة كأنهــا أحست بالخنجر الذى أطلقتــه على قلب نبيلة :

ـ ويعنى كان قال لى حاجة عنك ·· ما هو محمود صعب قوى ·· ما يتكلمش كلمتــين على بعض الا بالتيــلة ·· والأكادة كل ما اسأله اذا كان يعرف حد من بنات مصر ·· يقول لى : أبدا ··

ولم تسمع نبيلة كلام ناعسة ، وقالت وهى ساهمة :

ـ مخطوبين من امتى ؟ ··

وقالت ناعسة بسرعة :

ـ من يوم ما اتولدت وأنا مكتوبة له ·· ويوم ما مات أبويا جيت أعيش فى دوار عمى ، لغاية ما محمود ياخد الشهادة ونتجوز ·

وقالت نبيلة فى حدة : آهو خد الشهادة ما اتجوزتوش ليه ؟

وقالت ناعسة كأنها تكيدها :

ـ لسه الوظيفة ·· ومش خايفة من حاجة الا انه يتوظف فى مصر ·· أصــلى لو جيتى للحق أنا ما احبش مصر ·· ويوم ما رحتها وأنا صغيرة ، تهت عند ضريح السيدة ·· وفضلت نهار بطوله تايهــة لغــاية أبويا ما لقانى ·· ومن يومها وأنا أخاف أنزل مصر أحسن أتوه فيها ··

وضبطت نبيلة أعصابها ، وقالت فى صوت خافت كأنها تبكى :

ـ مبروك ··

وقالت ناعسة وهى تنظر اليها فى شماتة :

ـ عايزة حاجة كمان يا ست نبيلة ؟ ··

وقالت نبيلة فى فتور :

ـ اعملى معروف هاتى لى الشنطة بتاعتى ، علشان أغير فستانى ·

وقالت ناعسة ، ابتسامة كبيرة بين شفتيها ، ابتسامة النصر

ـ حاضر ·· وخرجت ··

واستدارت نبيلة ، وزحفت بقدميها ، حتى جلست على الأريكة « الاستامبولى » الموضوعة فى صدر المندرة تحت النافذة الكبيرة . وفى رأسها دوار ·· وفى قلبها دوار ·· كل ما فيها يدور ·· وشىء كالكابوس يضغط على صدرها ·· هل حقيقة ما سمعته ؟ ·· هل محمود خاطب ؟ ·· هل كان يخدعها ·· كل هذه السنين وهو يخدعها ؟ ·· كل هذا الحب كان حبا كاذبا ؟ ·· مستحيل ·· ربما كانت ناعسة تكذب عليها ·· ربما كانت تحب محمود ودفعها حبها وغيرتها الى الكذب ؟ ·· ولكن محمود قال لها يوما انه يتمنى أن يتزوج فلاحة من بلده تنظر اليه كأنه أغنى وأقوى رجل فى العالم · هل كان يقصد ناعسة ؟ ·· المهم ·· يجب ألا تبكى ·· يجب أن تقاوم دموعها حتى لا تنهمر ·· ان وجهها قد استراح من التراب والتعب بعد أن غسلته ورطبته بالماء ·· ويجب أن تبدو قوية ، منطلقة ·· ولكنها تريد أن تبكى ·· وهى تحن الى أختها ليلى لتبكى فى أحضانها ·· والى فيفى ، وأمها لتحتمى بهما ·· والى سريرها لتبكى عليه ·· انها تتمنى أن يأتى أخوها أحمد ويصفعها ويعيدها الى البيت ·· وهى تحس أنها بعيدة ·· بعيدة جدا ·· بعيدة عن أهلها وبعيدة عن بيتها ·· وبعيدة أيضا عن محمود ·· لم تكن بعيدة عنه ابدا كما هى عنه الآن ·· لقد كانت أقرب اليه وهى فى مصر ، منها وهى فى قريته ··

ودخلت ناعسة تحمل حقيبتها ·· وأخذتها منها نبيلة ، ووضعتها فوق الأريكة ، ثم قالت فى لهجة آمرة ·· لهجة استعادت

فيها كل احســاسها بمدنيتها ، وبارتفاعها عن هؤلاء القوم ·· عن الفلاحين :

ـ من فضلك اقفلى الباب ··

ولبت ناعسة الأمر فورا ، كأنها أحست فجأة بمكانتها من نبيلة من السيدة ! ··

وفتحت نبيلة الحقيبة ، وأطلت فيها ناعســة بعينين مبهورتين متطلعتين ، كأنها تتأهب للنظر الى كنوز سليمان ··

وأخرجت نبيلة ثوبا آخر ·· أسود أيضا ·· وقالت ناعسة وهى لا تزال تنظر داخل الحقيبة : انتى بتلبسى اسود على مين ؟ ··

وقالت نبيلة فى تعال : على أخويا ··

ثم بدأت تفك أزرار ثوبها ··

ومدت ناعسة أصابعها داخل الحقيبة وأخرجت « ايشارب » لونه أخضر ، وقالت فى فرحة كأنها طفلة :

ـ الله ·· المنديل ده حلو قوى ! ··

وقالت نبيلة : اتفضلى ·· خديه ! ··

وقالت ناعسة : تسلمى يا ست نبيلة ·· أنا بس باشــوفه ·· باتفرج على الحاجات بتاعة مصر ··

وهمت نبيلة أن تخلع ثوبهــا ، ولكنهــا توقفت ·· احست أن ناعسة غريبة عنها ، وأنها لا تســتطيع أن تخلع ثوبها امامها ·· ليست غريبة عنها فحسب ·· بل أقل من مستواها ، وكأنهــا تضن عليها بأن تتعرى امامها ··

واقتربت نبيلة من ناعسة ، ووضعت « الايشارب » فى يدها ، وهى تقول : خديه ·· هدية منى بمناسبة خطوبتك ! ··

وحاولت ناعسة أن ترفض ، ولكن نبيلة الحت عليها ، ثم قالت لها فى لهجتها الآمرة :

ـ لو سمحتى ·· تسيبينى شوية ، لغاية ما اغير فستانى ؟ !

ونظرت اليها ناعسة بدهشة ٠٠ ثم خرجت ٠٠ وعلى وجهها تعبير أبله ، كأنها تفهم سر نبيلة ٠٠

وغيرت نبيلة ثوبها ٠٠ ارتدت ثوبا « بليسيه » أوسع فى أطرافه من الثوب الذى كانت ترتديه ٠٠ والغروب بدأ يزحف على القرية ٠٠ والضوء يخفت ٠٠ والهواء يرق ٠٠ وأصوات غناء الفلاحات العائدات من الحقل يأتى اليها من بعيد ٠٠ وأحست نبيلة بالرهبة ٠٠ كأن القرية كلها بدأت تتحرك فى موكب حزين ٠٠ الضـوء حزين ٠٠ والنسيم فى رقته ، حزين ٠٠ والغناء الذى يأتى مّن بعيد حزين ٠٠ والحزن يزحف على صدر نبيلة ٠٠ وأحست بدموعها تهم أن تنبثق من عينيها ، وكأنها لن تستطيع أن تقاومها ٠٠ فقـامت واقفة من جلستها على الأريكة ٠٠ وفتحت باب المنـدرة ، ووقفت تطل على فناء الدار ٠٠ ومر من أمامها عوض ، ونظر اليها وابتسم ابتسامة بلهاء ، ثم أسرع الخطى واختفى ٠٠ ومرت ناعسة وأم السعد وكل منهما تحمـل فانوسا ، ودخلتا فى احدى المنادر ٠٠ ومر صـبى صغير ، يجرى ٠٠ وفلاحة تحمل على رأسها وعاء ماء ٠٠ والهواء يعزف على أغصـان الشجر ٠٠ وصرير الصراصير يحكى حكاية لا تنتهى ، ونقيق الضفادع كصوت قطرات كبيرة من الدموع تسقط فى بئر عميق ٠٠

وحاولت أن تبتسم لتقنع نفسها بأنها فرحة بالريف ٠٠ وجاءت ابتسامتها حزينة ، كالغروب ٠٠ كالنسيم المتهـافت ٠٠ كالضوء الخافت ٠٠ كالجلاليب الزرقاء فوق أجساد الفلاحين ٠٠ كالطرح السوداء فوق رؤوس الفلاحات ٠٠ كثوبها ٠٠

وخرج محمود من المندرة المقابلة ، وتقدم نحوها ٠٠ يخب فى جلبابه الواسع ، والصديرى المخطط ذى الأزرار الصـدف ، يلمع فوق صدره ٠٠ وخيل اليها أنها لا تعرفه ٠٠ انه شخص آخر غير الطـالب الذى كان يرتدى البدلة المكرمشة ، ورباط العنق الملتوى

كفتلة الدوبارة ، والحذاء الأصفر اللامع ..

وقال محمود ، وهو يبتسم :

ـ تيجى تمسى على أمى قبل ما تنام ؟ .. أصلها بتنام بدرى .

وهزت نبيلة رأسها موافقة دون أن تتكلم ..

ودخلت الى حجرة أمه .. المقعد الموضوع بجانب الدكة التى ترقد عليها .. وعم عبد الفتاح جالس على حصيرة مفروشة على الأرض ، مفرود فوقها لحاف ..

وقام عم عبد الفتاح واقفا لدخولها ، وكرر كلمات الترحيب بها .. ولم تتضايق هذه المرة ، وهى تسمعه ، ولم تفرح .. اعتقدت أنه يؤدى واجبا نحوها يجب أن يؤديه .. وجلست على المقعد .. انها تعرف الآن مكانها .. وتبادلت مع الأم المريضة بضع كلمات ممزقة .. واحساسها بأنها غريبة يزداد .. انها غريبة .. أكثر من غريبة .. انها يتيمة .. واكتشفت أنها يتيمة فعلا .. وأن أباها قد مات .. وأحست بحزن كالألم ، لأن أباها مات . كأنها لم تكتشف موته الا اليوم .. وكأنها لم توفه حقه من البكاء .

ومحمود واقف مستندا على الجدار ، يحاول أن يرفه عنها ، وأن يحدثها حديثا خفيفا ، ويفتعل المداعبات مع أمه ، وأبيه .. ولكن حديثه يزيد احساسها بالغربة .. ويزيد احساسها بأنها أثقلت على هؤلاء الناس ، وكلفتهم ما لا يطيقون .. انها لا تستطيع أن تحس بمحمود وهو بين أهله ، كما كانت تحس به فى القاهرة وهو وحده ..

وقال عم عبد الفتاح ضاحكا ، وهو يتباهى بمعرفته بطبائع أهل مصر :

ـ ما تقوم يا محمود تاخد ست نبيلة وتفرجها على دارنا .. والا تتمشوا شوية فى الغيط .. والا تحبى تركبى حمار يا ست نبيلة ؟ ما هو بنات مصر لما بييجوا بلادنا يحبوا يركبوا الحمير ..

ولم يعترض محمود ·· لم يغضب من أبيه هذه المرة وهو يراه يعامل نبيلة كأنها من جنس آخر أرقى من جنسهم ·· ربما لأنه أحس بأن نبيلة محتاجة فعلا الى ما يرفه عنها ·· وقال وهو يبتسم :

ـ تعالى يا نبيلة ·· زمان أم السعد بتحلب الجاموسة ·· أما أشوف حا تعرفى تحلبى والا لأ ؟ ··

وقامت معه نبيلة ·· وخرجا الى فناء الدار ·· ثم اجتازا بابا دخلا منه الى فناء آخر ·· الفناء الداخلى ورأت نبيلة قطيعا من الدجاج والأوز والبط ، يمرح فى اطمئنان وقد بدأ يلتف بعضه على بعض استعدادا لمواجهة الليل ·· وأم السعد فى ركن من الفناء جالسة مقرفصة بين أقدام جاموسة تحلبها ·· ووقفت تتفرج عليها ، وهى تتصور نفسها مكانها ·· لا ·· انها لا تستطيع ·

وقال محمود ضاحكا :

ـ قومى يا أم السعد ·· خلى ست نبيلة تحلب بدالك ··

ونظرت أم السعد اليه والى نبيلة ، ومطت شفتيها كأنها لاترضى بالاعتداء على عملها ، أو اعتباره موضع فكاهة ·· وابتسمت نبيلة ابتسامة ضعيفة ، وقالت : بلاش يا محمود ··

وقال محمود وهو لا يزال يضحك :

ـ لا والله ·· لازم نشوف كلية الآداب تحلب والا لأ ؟ ··

واتسعت ابتسامة نبيلة قليلا ·· ثم أقدمت كأنها تحاول أن ترفه عن نفسها ·· وجلست مقرفصة على الأرض ، بين أقدام الجاموسة ·· وخافت ·· خافت أن ترفسها الجاموسة بأقدامها ··

ومدت يدا مترددة ، وما كادت تقترب بها من ثدى الجاموسة ، حتى جفلت « الجاموسة » ورفست برجلها الخلفية رفسة عنيفة ·· وقفزت نبيلة الى الوراء ، والخوف فى عينيها وانفاسها مبهورة ··

وضحك محمود ضحكة كبيرة ··

وابتسمت أم السعد ابتسامة ساخرة ·· ثم قالت تخاطب

الجاموسة وهى تنظر اليها نظرة حنان كأنها تشكرها لأنها ترفض أن تمتد الى ثديها يد غريبة :

ـ ماتخافيش يا حلوة ، دى ضيفة من مصر عايزة تهزر معاكى شوية !!

ونظرت نبيلة الى محمود ، ثم الى أم السعد ، فى تحد ·· ثم نظرت الى الجاموسة فى تحد أيضا ·· وعادت تجلس مقرفصة ، ومدت يدا مترددة وأمسكت بثدى الجاموسة ، فسرت قشعريرة فى بدنها كله ·· احست أنها أمسكت بقطعة من اللحم الحى ·· قطعة لزجة مقززة ·· وجذبت يدها بسرعة ·· ثم ضغطت على أعصابها، ومدت يدها مرة ثانية وأمسكت بثدى الجاموسة ، وضغطت عليه ·· فلم ينطلق منه اللبن كما كان ينطلق من بين يدى أم السعد ·· وحركت الجاموسة رأسها ناحية نبيلة وقد أحست بيد غريبة تلمس ثديها ·· ثم أشاحت عنها كأنها تحتقرها ·

وقالت أم السعد فرحة : مش كده يا ستى ·· ده حليب ده !·

ثم جلست بجانب نبيلة ومدت يدها وسحبتها فوق الثدى العامر فانطلق منه اللبن ··

وقامت نبيلة واقفة ، وقالت :

ـ ده ولا عميد كلية الآداب نفسه يعرف يحلب جاموسة ·

وضحك محمود ··

وضحكت نبيلة دون أن تحس بضحكتها فى قلبها ··

ودخلت مع محمود الى قاعة الفرن ·· ورأت امرأة جالسة تقطع اقراص العجين ، وناعسة جالسة امام فوهة الفرن ، تلقى فيها بقطع العجين ، وقد انعكست النار على وجهها فبدا منصهرا ، لامعا ، جميلا ، رائعا ·· واحست نبيلة بالغيرة ·· احست كأنها تشاهد فيلما تحسد بطلته ولا تستطيع ان تكون مكانها ·

والتفتت اليها ناعسة ، وقالت ضاحكة ، وظل النـار ينعكس فوق أسنانها البيض :

ـ أهلا وسهلا ·· شرفت القاعة ·· ما تيجى ترمى لك رغيفين فى الفرن ؟ ··

وقالت نبيلة فى برود : لا ·· متشكرة ·

وحاول محمود أن يلح عليها ، ولكنها رفضت ·· خشيت أن تبدو خيبتها أمام ناعسة ·· وخرجت مع محمود من « القاعة » ·

وقال محمود : تعالى بقى لما أوريكى الحتة اللى باقابلك نيها كل ما توحشينى ·· ثم جذبها من يدها ، الى سلم خشبى مستند على الجدار ·· وأشار عليها أن تصعد ··

وترددت نبيلة ، وحثها محمود قائلا : اطلعى بس ··

وصعدت السلم الخشبى ، ومحمود يصعد وراءها ·· وأصبحا فوق سطح الدار ·· وطافت نبيلة بعينيها فوق الحقـول المنبسطة أمامها ·· ونقيق الضفادع كأنها أصوات قطرات كبيرة من الدموع تسقط فى بئر عميقة ·· والنسيم يداعب شعرها ، ويرطب وجهها ·· وأحست باستسلام لذيذ ·· استسلام للحزن ··

وأشار محمود الى غرفة صغيرة مبنيـة فوق سـطح الدار بالطين المخلوط بالقش ، وقال :

ـ دى عندنا بيسموها المقعد ·· وكل ما بتوحشينى باطلع هنا واقعد فى المقعـد أفكر فيكى ·· أفكر فى أيامنـا الحلوة ·· أيام الكلية ·· وأيام ما كنا بنتمشى على الكورنيش ونقزقز اللب الأبيض وافضل قاعد للصبح ··

وقالت نبيلة فى تهكم : وناعسة بتسيبك تفكر فى ؟

وقال محمود دهشا : ناعسة !! مالها ناعسة ! ؟

وقالت نبيلة وهى تحاول أن تبدو كأنها لا تبالى

ـ انتم مش مخطوبين ؟ ··

وسكت محمود برهة ، ثم قال فى صوت خفيض وهو ينظر الى الأرض : لأ ·· مش مخطوبين ··

وقالت نبيلة فى حدة كأنها تتهمه بالكذب والخداع :

ـ هيه بتقول انكم مخطوبين ··

وعاد محمود يسكت ·· ثم انحنى والتقط عودا من حطب القطن ، وأخذ يكسره قطعا صغيرا بين يديه ، ثم قال :

ـ كان أبويا اتفق مع أبوها إننا نتجوز ·· الكلام ده لما كنا صغيرين ، انما دلوقت ما اقدرش اتجوزها ، اللى حايتجوزها محروس ··

وقالت نبيلة وهى تنظر اليه نظرات مليئة بالشك :

ـ وانت ما تتجوزهاش ليه ؟ ·· دى بتحبك ! ··

قال كأنه يدافع عن نفسه فى قضية تشغل باله :

ـ عارف انها بتحبنى ·· انما ما اقدرش اتجوزها ·· أنا بعدت عنها قوى من يوم ما اتعلمت ·· عقلى بعد عن عقلها ·· وقلبى بعد عن قلبها ·· مافيش حاجة بقت تجمعنا الا انها بنت عمى ·· ما اقدرش اتفاهم معاها ·· ما اقدرش أعيش معاها ·· مش ممكن ·· مستحيل ·· دى ما تعرفش تقرا ولا تكتب ·· ! ؟

وقالت نبيلة ونظرات الشك لا تزال فى عينيها :

ـ وما قلتش لها كده ليه ؟ ··

قال : مش حا أقول لها ·· حاستنى لما أمى تخف ·· وانزل مصر ، وابعت من هناك جواب ، أقول لهم فيه يجوزوها محروس ·

وسكت برهة ··

وسكتت معه نبيلة ··

ثم استطرد قائلا ، وهو يتنهد :

ـ أنا من يوم ما دخلت الجامعة وأنا حاسس انى بقيت غريب عن بلدنا ·· مش قادر أعيش مع أهلى ·· مش قادر أفهمهم ، ولا

هم قادرين يفهمونى ‥ ومش غريب فى بلدنا ويس ‥ لكن غريب فى مصر برضه ‥ فى مصر باحس انى فلاح ‥ وفى بلدنا باحس انى من مصر ‥ كل الفلاحين اللى بيتعلموا زيى كده ‥ يمكن ينجحوا ، ويبقوا دكاترة ، والا مهندسين ، والا وزرا ‥ ويمكن يسافروا أوربا ‥ انما يفضلوا طول عمرهم حاسين بالغربة ‥ مطرح ما يروحوا يحسوا بالغربة ‥ فى مصر ، وفى بلدهم ‥ لو اتجوزوا من مصر يتعبوا فى عيشتهم ، ولو اتجوزوا من الفلاحين يتعبوا ‥ عارفة صنف الناس اللى بيسموهم مولدين ‥ اللى يبقى أبوه هندى ، وأمه انجليزية ، ويطلع هوه لا هندى ، ولا انجليزى ‥ أهو الفلاح لما بيتعلم يبقى كده ، لا هو من أهل الريف ، ولا هو من أهل المدينة ‥

وقالت نبيلة وريح من الحنان بدأ يمس قلبها :

ــ مش معقول ‥

قال بسرعة : ده اللى انا حاسس بيه ‥ الفلاح علشان يغير تقاليده ، ويغير عقليته ، مش كفاية عليه انه يتعلم وياخد الليسانس ‥ بعد ما يتعلم يمر فى مرحلة القلق النفسى ‥ القلق فى تقاليده وفى تصرفاته ‥ وبعد كده لازم يمر عليه جيل والا جيلين علشان يستقر . يعنى أولاد الفلاح المتعلم هم اللى يبقوا مستقرين ‥ مستقرين فى تقاليد المدينة ‥ وأبوه مستقر فى تقاليد الريف ‥ انما هوه لا يقدر يستقر هنا ولا هنا ‥ يفضل طول عمره حيران .

قالت وكأنها عادت وتذكرت : وذنب ناعسة ايه ؟ ‥

قال : لا ذنبها ولا ذنبى ‥ لو اتجوزتها حا اتعسها واتعس عيشتها ‥ وتفضل طول عمرها تعيسة ‥ انما لو اتجوزت محروس ، يمكن تتعب الأول شوية لغاية ما تنسانى ، وبعدين تعيش سعيدة ‥

واقترب منها ، وامسك بيدها ، وقال فى حنان :

ـ تعرفى بيقولوا ايه علينا فى البلد ؟ ··
قالت وهى تترك له يدها كأنها تعطيه فرصة ليستردها
ـ بيقولوا ايه ؟ ··
قال مبتسما :
ـ بيقولوا اننا متجوزين ·· أصلهم مش مصدقين انك تقدرى تيجى تزورينى وتدخلى بيتنا ، الا اذا كنتى مراتى ··
ومدت نبيلة أظافرها وهرشت ساقها مكان لسعات الناموس ، ثم رفعت رأسها وقالت مبتسمة : وقلت لهم ايه ؟ ··
قال : قلت لهم : لا ·· مش متجوزين ·· انما لو قعدت فى البلد كام يوم يبقى لازم نتجوز ·· والا يطلعوا علينا ، ويضربونا ·· دول ضربوا عوض النهاردة و ··
وفجأة شدت يدها من يده ، وقالت صارخة :
ـ حضرتك فاكر انى أرضى اتجوزك علشان خاطر سمعتك وسمعة عيلتك فى البلد ·· أتجوزك علشان خاطر شوية فلاحين خايف ليضربوك ·· انت جبان ·· أنا كنت مغشوشة فيك ·· واذا كنت فكرت قبل كده انى أتجوزك فلأنى ما كنتش عارفاك كويس ·· اوعى تفتكر انى أرضى اتجوزك ·· انت غايته تتجوز ناعسة ··
ثم جرت ناحية السلم ··
وصرخ وراءها : نبيلة ·· نبيلة ··
ولم تلتفت اليه ·· وبدأت تنزل السلم فى مشقة ·· فاستطرد
ـ حاسبى وانتى نازلة ··
ونزلت ·· ونزل وراءها ·· وجرت فى الفناء ·· وهو وراءها ·· ورفعت أم السعد رأسها من بين أقدام الجاموسة ، ونظرت اليهما فى دهشة ·· وأطلت ناعسة من باب قاعة الفرن ، وأخذت تتبعهما ووجهها غارق فى سحابة صفراء من الغيرة ··
وتنبه محمود الى انه أصبح فى وسط أهله ، فاعتدل فى خطاه ،

وحاول أن يبدو طبيعيا ونبيلة لا تزال تجرى ·· اجتازت الفناء الداخلى ، ثم الفناء الخارجى ·· ثم دخلت الى المندرة التى تركت فيها حقيبتها ، وأغلقت وراءها الباب ·· وجلست على الأريكة ·· وصدرها يتهدج كالمنفاخ ·· وأنفاسها تئز كأنها أنفاس النار ·· وهى توشك أن تبكى ·· انها تعلم أنها ستبكى ·· لا ·· لا يجب أن تبكى ·· يجب أن تقاوم دموعها ·· ولكنها لم تستطع ·· وانهمرت الدموع ··

ولم تبك طويلا ·· استجمعت كل ارادتها وأوقفت دموعها ·· ثم قامت وفتحت حقيبتها وأخرجت مرآتها الصغيرة ، وأخذت تمسح آثار الدموع ·· وساوت شعرها ·· ثم عادت تجلس على الأريكة ·· صامتة ·· واجمة ·· وعقلها يدور ·· وقلبها يدور ·

وسمعت نقرا على الباب ، وأجابت فى صوت خفيض : اتفضل·

ودخلت ناعسة وقالت وعلى شفتيها ابتسامة مترددة :

– مش نجيب العشا يا ست نبيلة ··

قالت نبيلة فى فتور : أنا مش عايزة أتعشى ·· مش متعودة أتعشى ··

وقالت ناعسة : وده اسمه كلام يا ست نبيلة ·· ده انا عاملة لك صينية رقاق باللبن ، ومحمرة فرختين ··

وقالت نبيلة فى اصرار :

– متشكرة ·· بس ما اقدرش اتعشى ··

وحاولت ناعسة أن تلح عليها ·· ثم انسحبت من أمامها ، وما كادت تنسحب ، حتى جاء عم عبد الفتاح صائحا :

– ايه الكلام ده يا ست نبيلة ·· حد ينام من غير عشا ·· ودى تيجى برضه ، تبقى فى دارنا ولا تتعشيش ··

ولم يفلح كل اصرار نبيلة فى اقناع عم عبد الفتاح ، والتفت الى ناعسة قائلا : هاتى صينية العشا هنا يا ناعسة ··

ثم التفت الى نبيلة واستطرد

ـ دى لو كانت أم محمود فى صحتها ، كانت فضلت تزغط فيكى من الصبح للمسا ٠٠ أصل طبيخها صنف تانى ٠٠ دى المديرية كلها كانت بتتكلم عن فطير أم محمود المشلتت ٠٠ والبيه صاحب العزبة لغاية دلوقت مايكلش الفطيرة الا من ايدها ٠٠

ووضعت صينية العشاء ٠٠

ووضعوا لنبيلة وسادتين فوق الأرض لتجلس عليهما ٠٠ ومن حولها يجلس عم عبد الفتاح ، ومحمود ، وناعسة ٠٠ والجميع تعلو وجوههم محنة الفشل ٠٠ فشل نبيلة فى خيالها ٠٠ وفشل محمود فى مواجهة نبيلة ٠٠ وفشل عم عبد الفتاح فى فهم سر زيارة نبيلة ، وفشله فى اكرامها وارضائها ، وفشل ناعسة وهى تنقل عينيها بين نبيلة ومحمود ٠٠ فتحس بالفشل ٠٠

وانتهى العشاء الحزين ٠٠

وعاد الأب الى زوجته ٠٠ وقامت ناعسة لتحمل صينية العشاء الى الخارج ٠٠ وحاول محمود أن يدعو نبيلة الى الخروج الى حديقة الدار ٠٠ ولكنها رفضت ٠٠ وحاول أن يجلس معها ليبادلها الحديث ٠٠ فتأبت ٠٠ وكلها تحفز لكى تنطلق فى وجهه اذا حاول أن يتودد اليها ٠٠ وهى تعبة ٠٠ مضناة ٠٠ ذبيحة الخيال ٠٠ تريد أن تنام ٠٠ لن ينقذها الا النوم ٠٠

وأعدوا لها فراشا فى المندرة البحرية ٠٠ دكتين ملتصقتين فوقهما مرتبة ٠٠ لعلهم اقترضوها من عروس جديدة فى القرية ٠٠ ووضعوا فوق المرتبة ملاءة من الدمور ٠٠ ولحافا تفوح منه رائحة نوم جيل كامل من الفلاحين المنهكين ٠٠

ونامت معها ناعسة فى نفس الغرفة ، على حشية ملقاة فوق الحصير الذى يفرش أرض المندرة ٠٠

وتعمدت ناعسة أن تخرج من المندرة الى أن ترتدى نبيلة قميص

النوم ·· القميص الصوف المقفول الصدر ، الطويل الأكمام ··
ولم تعد ناعسة الا بعد أن رقدت نبيلة فى فراشها وهمت أن تغمض عينيها لتدعو النوم اليها ·· وقالت فى صوت خافت : تحبى اطفى الفانوس يا ست نبيلة ، والا أوطيه ··

وقالت نبيلة دون أن تنظر اليها : وطيه

ورقدت ناعسة على الأرض ·· وسكون ثقيل يشمل المندرة ·· وخيالات يعكسها الفانوس الخافت فوق الجدران الكالحة ، كأنها آهات حزينة ·· والناموس يلسع نبيلة فى كل قطعة من جسدها ·· والقميص الصوف يلهب بدنها ويذيبه فى بحر من العرق ··

وارتفع صوت ناعسة خافتا : ست نبيلة ·· ست نبيـــلة ·· انتى نمتى ! ··

وقالت نبيلة فى جفاف ، وهى تلاحق لسعات الناموس بأظافرها :

ـ لأ ··

وعادت ناعسة تقول كأنها تنزع كلماتها من لحم قلبها :

ـ انتى كلمتى محمود عنى !

وسكتت نبيلة برهة ثم قالت : لا ··

وقالت ناعسة كأنها تتوسل اليها ·· كأنها تتسول الأمل :

ـ وهو ما قالش حاجة عنى ؟

وقالت نبيلة كأنها ترحمها : لا

وتنهدت ناعسة ، كأنها تقذف قلبها بأنفاسها ·· وأحست نبيلة انها تريد أن تتنهد معها ·· تريد أن تنزل اليهـا وترقد بجانبها ، وتضمها الى صدرها وتبكى معها ·· لا ·· لا يجب أن تبكى ·· لا يجب أن تعرى قلبها أمام ناعســة ·· والفانوس الخافت يطلق خيالاته الحزينة فوق الجدران ·· والقميص الصوف يستنزف عرقها ويكوى بدنها ·· والناموس ·· يا رب ، لماذا خلقت الناموس ·· والنوم يتدلل عليها ·· لا يكاد يمس جفونها حتى يبتعد على اجنحة

الناموس ٠٠ والتعب يمزق أعصابها ٠٠ انها تحس بكل عصب من أعصابها يتلوى ، ويتمدد ، ويسيح ٠٠ وذكريات سوداء ٠٠ لأول مرة ترى حياتها وليس فيها الا سواد ٠٠ حتى أيام حبها مع محمود، أصبحت سوداء ٠٠ كأنها احترقت وأصبحت قطعا من الفحم ٠٠ ورنت فى أذنيها كلماته الأخيرة ٠٠ لو بقيت فى القرية بضعة أيام ، فسيضطر أن يتزوجها ، خوفا من الفلاحين ٠٠ وأحست بكرامتها تنزف ٠٠ انه لن يتزوجها الا ارضاء لأهله ، وانقاذا لسمعته ٠٠ لم تكن تعتقد أنه جبان الى هذا الحد ٠٠ ولكن لماذا لا تبقى وتتزوجه ما دامت هذه هى الوسيلة الوحيدة للزواج ٠٠ لا ٠٠ ألف مرة ، لا ٠٠ انها لم تفكر أبدا فى زواج هذا الانسان ٠٠ لقد كانت تتمنى زواج انسان آخر ٠٠ طالب فقير فى كلية الآداب ملىء بالحياة وبالأمل وبالكفاح ٠٠ و ٠٠ والناموس ٠٠ انها تستطيع أن تحتمل كل شىء الا هذا الناموس ٠٠ انه لا يمتص دمها ٠٠ بل يمتص أعصابها ٠ انها ستجن ٠٠ تريد أن تصرخ ٠٠ أن تخلع قميصها الصوف ، وتجرى فى العراء ٠٠

وتريد أن تنام ٠٠

ولم تنم ٠٠

وقامت فى الصباح الباكر تعبة ، منهكة ، يائسة ٠٠ وأخذت تنظر الى الحياة داخل الدار ، كأنها تقرأ الفصول الأخيرة فى قصة حزينة انهكتها قراءتها ٠٠

وحاول محمود أن يؤجل سفرها ٠٠ ولكنها أصرت ٠٠ انها لن تنتظر حتى الى أن يأتوا لها بالسيارة التى ستحملها الى المركز ٠٠ ستذهب الى هناك راكبة حمارا ٠٠

وصافحت أم محمود وهى لا تستطيع أن تنظر فى عينيها وقالت الأم الطيبة :

– والنبى يا ست نبيلة ده قدومك كان فيه الشفا ٠٠ كان بودى أكون بصحتى علشان أقوم بالواجب ٠٠

وانحنى أمامها عم عبد الفتاح وهو يصافحها قائلا :

ـ بأه ده اسمه كلام يا ست نبيلة ·· مش كنتى تقعدى معانا يومين ·· ده احنا مالحقناش نكرمك ونفرح بيكى ··

ونظرت اليها ناعسة نظرة صامتة ·· تتوسل اليها بعينيها أن تترك لها محمود ·· وتتسول منها الأمل ··

وركبت حمارا ·· وركب محمود حمارا ثانيا ·· وعوض يركب حمار السباخ ويحمل أمامه حقيبة نبيلة ·· وخرج الموكب يسير فى أزقة القرية ·· والصبية يحيطون به ·· والنساء يدارين وجوههن بأطراف الطرح السوداء ، ويبحلقن فى تطلع ·· وعوض يصيح فى الصبية :

ـ ما تروح لحالك يا واد انت وهوه ·· هى فرجة ! ·

ومحروس واقف ينظر الى الموكب فى غيظ وكمد ·· ومد عم متولى عنقه من داخل دكانه وهمس لمن حوله :

ـ يعنى الحكاية ماعمرتش دى فيها سر يا رجالة ··

ونبيلة لا تنظر حولها ·· عيناها مركزتان على لا شىء ·· على الفراغ ·· ومحمود منكس الرأس كأنه خجل أمام أهله ·· ثم خرج الموكب الى الحقول ·· وبدأ هواء الصباح يرطب وجهها ويرخى أعصابها ·· ولكنها لا تزال تنظر الى لا شىء ·· الى الفراغ ··

وقال محمود : أنا حاكون فى مصر بعد يومين ··

ولم ترد عليه ··

وعندما ركبت القطار ، ظل محمود واقفا على الرصيف ينظر اليها فى صمت ·· ثم همس :

ـ أنا آسف ! ··

وانطلق القطار ··

وانطلقت دموعها ··

دموع الفشل ··

٩

كانت الساعة قد قاربت الثانية عشرة عندما وصلت نبيلة الى بيت العائلة فى شارع الاخشـيد ٠٠ ونزلت من السـيارة الأجرة وعيناها قد دبلتهما الدموع ٠٠ وقام عم عبد الله البواب يستقبلها فى تكاسل وفتور ٠٠ انه لم يعد يهتم كثيرا بمن يدخل ومن يخرج من أفراد العائلة ، ولا بمن يسافر ومن يعود ٠٠ وبصمات اليأس تملأ عينيـه ٠٠ اليـأس من أن يفهم ماذا جرى للعائلة حتى تغير حالها ، واليأس من أن ينصلح يوما هذا الحال ٠٠ حتى انه لم يعد يغلق الباب الخارجى بالمفتاح كعادته كل مساء ٠٠ أصبح يتركه مفتوحا بعد أن تعب من انتظار أحمد حتى يعود فى آخر الليل أو فى أول الصباح ٠ سكران مترنحا ٠٠ وتعب من صراخه اذا تأخر لحظات فى فتح الباب ٠٠

وحمل عم عبد الله حقيبة نبيلة ، وهو يتمتم بصـوت خفيض ليس فيه فرحة ، ولا عتاب :

ــ الحمد لله على السلامة يا ست نبيلة ٠٠

ثم صعد السلم وراءها ٠٠

ودخلت نبيلة ٠٠ والبيت هادىء ، غارق فى ضـوء خافت والشبابيك كلها مغلقة لتصد حرارة الصيف ٠٠ وسارت فى خطى بطيئة ليس فيها لهفة على لقاء أحد ، ورأسها منكس فوق صدرها ، تعبة ٠٠ تريد أن تنـام ٠٠ وفتحت غرفتهـا ــ غرفة البنـات ــ فاستقبلتها صرخة أختها ليلى : نبيلة ٠٠ الحمد لله على السلامة ٠٠

ثم قفزت ليلى من فوق الفراش ، وألقت نفسهـا فوق أختهـا

واحتضنتها ، وأخذت تقبلهـا ، وتدور بها ·· وقالت فيفى وهى تنظـر الى أختهـا : يعنى ما تأخرتيش ·· ده أنا كنت فاكراكى حاتقعدى جمعة ! ··

وقالت نبيلة وهى تتخلص من بين ذراعى ليلى ، وابتسـامة فاترة بين شفتيها : كفاية كده ·· أصلى خفت لاوحشكم ! ··

وقالت فيفى : ولا وحشتينا ولا حاجة ·· مالحقتيش توحشينا·

وقالت ليـلى : وحشتينى موت يا بلبـل ·· ده أنا امبـارح ما عرفتش أنام ·· طول الليل بافكر فيكى ! ··

ثم خفضت صوتها ، واستطردت : الأخبار ايه ·· حصل ايه·

ونظرت نبيلة الى فيفى · كأنها تنبه ليـلى الى وجودها ، ثم قالت متجاهلة سؤال أختها : ماما فى أودتها ؟ ·

وقبل أن يجيبهـا أحد ، هلت الأم من البـاب وعلى شـفتيها ابتسامة كبيرة تفيض بحنانها ولهفتها ، وقالت وهى تضم نبيلة الى صدرها وتقبلها : الحمد لله على السلامة يا بلبل ·· وحشتينى ·· على الله تكونى انبسطتى ··

وقالت نبيلة وهى تقبل امها وتضـمها كأنها تحتمى بهـا ·· كأنها تلجأ اليها لتستريح :

ـ الحمد لله يا ماما ·· بس الناموس هلكنى ··

وقالت الأم : وازى صاحبتك خديجة ·· ومامتها ·· هم اللى وصلوكى لغاية هنا ؟

وتلعثمت نبيلة وهى تقول : لا ·· جينا من العزبة فى العربية ، ووصلونى لغاية بيتهم فى مصر الجديدة ، ومارضتش انهم يوصلونى لغاية هنا ·· جيت فى تاكسى ··

وقالت الأم : طيب تعالى بأه احكيلى ··

وسارت الأم نحو حجرتها ويدها فى يد نبيلة ، وخلفهما تسير ليلى وهى تقفز فى خطواتها ، كأنها لا تطيـق أن تسـتقر الى ان

تسمع أخبار أختها ، وفيفى تسير معها صامتة ، تنظر الى نبيلة بعينين ملؤهما الشك ..

وقالت الأم وهى تجلس على مقعدها بجوار النافذة

ــ وعزبتهم حلوة ؟ .

وقالت نبيلة وقد نشط ذكاؤها حتى لا تخطىء فى كذبتها

ــ حلوة قوى .. وعندهم فيللا جنان .. فيها كل حاجة حتى المية السخنة والباردة .. انما مليانة ناموس .. ماعرفتش أنام من الناموس ..

وتوالت أسئلة الأم وفيفى على نبيلة .. وليلى واقفة لا تستقر تريد أن تنفرد بأختها حتى تسمع أخبار رحلتها .. الأخبار الصحيحة .. أخبار بلا كذب .. وانطلقت قائلة كأنها لم تعد تطيق : مش تقومى يا بلبل تغسلى وشك .. وتستريحى شوية قبل الغدا .. ده انتى باين عليكى تعبانة قوى ..

وقالت نبيلة وهى تبتسم لأمها : أصل ماما كانت وحشانى قوى ! ..

وقامت نبيلة .. وخرجت من الغرفة ، وخرجت وراءها ليلى وفيفى .. والتفتت ليلى الى فيفى ونظرت اليها شذرا ، كأنها تقول لها : ما تسيبينا لوحدنا يا باردة ! ..

وبدأت نبيلة تخلع ثيابها ، ثم خرجت ودخلت الحمام ، ودخلت معها ليلى ، وأغلقت الباب وراءهما ، وقالت واللهفة تملأ عينيها

ــ حصل ايه .. قوليلى ..

وقالت نبيلة وهى تفتح حنفية الماء ، كأنها تتدلل على أختها

ــ استنى بس لما اغسل وشى ..

وقالت ليلى : شفتيه ؟

وقالت نبيلة وهى تمسك بالصابونة بين يديها : أيوه ..

وقالت ليلى بصوت مبهور : وشفتى أبوه ومامته ؟ .

قالت نبيلة : أيوه ··
وقالت ليلى وهى تتعجل أختها :
ـ وحصل ايه ·· احكيلى يا بلبل ·· ماتجننيش ··
وقالت بلبل وهى تقذف وجهها بالماء : ماحصلش حاجة خلاص مش حاشوف خلقته ، أنا كنت غلطانة ··
وقالت ليلى فى جزع : ليه ·· زعلتى منه ليه ·· عمل حاجة ؟
قالت : لأ ·· ما عملش ·
وعادت ليلى تقول ، ولهفتها لا تزال فى قمتها : مش حاتتجوزوا ·
وقالت نبيلة وهى تجفف وجهها ، وسحابة من الأسى تمر على وجهها : مش ممكن أتجوزه ·· أنا رحت معاه لقيته انسان تانى ·· انسان غير اللى كنت باحبه ·· انسان ماحدش يقبل يتجوزه الا واحدة زى ناعسة ··
وقالت ليلى فى صوت مبهور :
ـ ناعسة !! ناعسة مين ؟ ·
وقالت نبيلة بلا مبالاة : بنت عمه ··
وقالت ليلى كأنها فوجئت بمصيبة : هو حايتجوز بنت عمه ؟
قالت نبيلة : لا ·· انما هى بتحبه وعايزة تتجوزه ··
وقالت ليلى وقد هدأت المفاجأة فى صدرها : وهو ذنبه ايه ·· ايه يزعلك اذا كان فيه واحدة عايزة تتجوزه ، وهو مش عايز ·
وقالت نبيلة فى عصبية : ما اعرفش ·· ما اعرفش يا ليلى ·· أنا خلاص زهقت ·· لا أنا فاهمة ، ولا أنا عايزة أفهم ··
ثم خرجت من الحمام ، وليلى تلاحقها ، وتهمس وراءها بأسئلتها ·· ثم دخلت غرفتها واستلقت على سريرها ، وتنهدت بارتياح ، وقالت :
ـ الله ·· سريرى كان واحشنى ·· كان واحشنى موت ··
ثم سرحت بعينيها فى الفراغ ، كأنها تذكرت السرير الذى نامت

عليه فى القرية .. الدكتان الخشب ، واللحاف الذى تفـوح منه رائحة جيل كامل من الفلاحين المنهكين ..

وقالت ليلى وهى تجلس بجانبها فوق الفراش :

ـ مش عايزة تسمعى أخبارى ؟

وابتسمت نبيلة ابتسامة ضعيفة تنضح بالتعب ، وقالت :

ـ حصل ايه ؟ ..

واكفهر وجه ليلى ، ومطت شـفتيها الصـغيرتين المليئتين ، وقالت كأنها تهم بالبكاء : تصورى ان عصـام عايزنا نتجوز . نتجوز الجمعة الجاية ونسافر أوربا .. !

وقالت نبيلة فى هدوء : وماله ..

ونظرت ليلى الى أختها كأنها تلومها وقالت فى حدة : اخص عليكى يا بلبل .. عايزانى اتجوز ، وممدوح لسه ما فتش عليـه ست أشهر ..

وقالت نبيلة : هو انتى حاتعملى فرح .. حتى الفلوس اللى كنتى حاتصرفيها على الفرح ، اشترى بيها حاجة تنفعك ..

وقالت ليلى والضيق يملأ وجهها : أنا مابافكرش فى الفرح . انسا ما أقدرش أتجوز دلوقت .. مش ممكن .. مش معقول . ده حتى حرام ..

وفيفى جالسة فوق فراشها ، تقرأ كتابا ، وأذناها صـاغيتان الى حديث أختها وانطلقت فجأة قائلة : الكلام ده من امتى ؟

وقالت ليلى : ايه هو اللى من امتى ؟

وعادت فيفى تقول والسخط يملأ شفتيها :

ـ من امتى عصام طلب انكم تتجوزوا ؟

وقالت ليلى فى أسى : امبارح ، واحنا خارجين من السينما . !

وقالت فيفى صارخة :

ـ وما قلتيش ليه .. اشمعنى بتقولى لنبيلة على كل حاجة ..

هو أنا مش اختك ·· هو أنا مش اختكم ·· كل حاجة تخبوها عنى ·· وطول عمركم تتوشوشوا مع بعض ·· انتم فاكرنى حمارة فاكرنى مابفهمش ·· فاكرنى عدوتكم ··

وقالت ليلى وقد فوجئت بثورة أختها : أبدا والله يا فيفى · أصلى رجعت امبارح تعبانة ·· ما كنتش قادرة اتكلم ··

ورفعت نبيلة رأسها المتعب من فوق الوسادة · وقالت فى صوت ضعيف : ماتزعقيش والنبى يا فيفى ·· أنا تعبانة ·· عايزة أنام ··

ثم التفتت الى ليلى واستطردت : خلى الموضوع ده لغاية ما اصحى من النوم ، أحسن أنا ما فياش دماغ ·· حاموت من التعب ··

وقالت فيفى فى تهكم : يا ترى دى كانت فسحة ايه اللى تتعب بالشكل ده ؟ ·

وقالت ليلى : مش تستنى لما تتغدى وبعدين تنامى ·

وقالت نبيلة فى ضعف : لا ·· مش قادرة ·· حا آكل بعد ما أقوم من النوم ·· ماتصحنيش على الغدا ··

واغمضت عينيها ··

ولكنها سمعت صوت أقدام فى الممر الذى يفصل بين الحجرات فعادت وفتحت عينيها ، لتلتقى بوجه اخيها أحمد ·· وجه يكسوه الملل والضيق ·· كأن فى حياته شيئا يقرفه ويقززه ·

وقال أحمد وهو لا يستطيع أن يبتسم :

ــ انتى جيتى ·· الحمد لله على السلامة ··

ورفعت رأسها ، وقالت وفرحة حقيقية تطوف بوجهها :

ــ الله يسلمك يا آبيه ·· وحشتنى · واعتدلت جالسة ، تنتظر من اخيها أن يتقدم اليها ليقبلها ·· ليصافحها ·· ليقول لها كلمتين ·· ولكنه اكتفى بأن أطل عليها بعينيه الملولتين ·· ثم طاف بهما

على وجهى فيفى وليلى ·· ثم انسحب الى غرفته صامتا ··

وقذفت نبيلة رأسها فوق الوسادة ، ومرارة الخيبة فى شفتيها وأغمضت عينيها لتنام ·· وأشباح مفزعة تزحف عليها ، وهى تضغط على جفنيها بكل أعصابها ، كأنها تحاول أن تصد هذه الأشباح قبل أن تتسلل الى رأسها من تحت جفنيها ··

وقامت فيفى وليلى لتتركا أختهما لتنام ··

ذهبت فيفى لتجلس مع أمها فى حجرتها ··

وخرجت ليلى الى البهو الخارجى ·· وأخذت تروح وتجىء كأنها فى انتظار شىء ·· فى انتظار فكرة تخطر على رأسها ·· ومدت يديها تعدل آنية الزهر الموضوعة فوق المائدة الصغيرة ثم ساوت المفرش الصغير الذى يزين حافة المقعد ·· وتذكرت أن هذا المفرش طرزته أمها فى العام الماضى ·· ثم اتجهت الى التليفون ، ولكنها عدلت قبل أن تصل اليه ·· ودخلت غرفة الصالون ، وأخذت تتسكع بخطواتها ، ثم اقتربت من البيانو ، وفتحت غطاءه بيد مترددة مرتبكة ، وضغطت بأصبعها على أحد مفاتيح النغم ·· ضغطة خفيفة سريعة ·· وصدر صوت كأنه أنة محروم طال حرمانه ·· وعادت وأغلقت الغطاء بسرعة ·· انها لا تستطيع أن تعزف على البيانو بعد ·· لقد حرر أفراد العائلة أنفسهم من كل مظاهر الحزن على ممدوح ·· ولم يبق الا العزف على البيانو ، وفتح الراديو ، وارتداء الثياب الملونة ·· لو كانت تستطيع العزف على البيانو الآن ·· فربما هدأت ·· ربما استقرت على رأى ·· ان العزف يعينها على التفكير ·· ينشط ذكاءها ·· ولكن ·· ممنوع ·· ممنوع العزف على البيانو ·· وهى تتخبط فى حيرتها ·· هل تقبل أن تزف الى عصام فى الأسبوع القادم ·· انها حتى الآن لا تستطيع أن تصور نفسها زوجة له ·· انه بالنسبة لها مجرد انسان يحررها من رقابة أهلها عليها ، ويطمئنهم على مستقبلها ··

انه مجرد كذبة كبيرة دائمة تغنيها عن الكذب كل يوم على أهلها كلما أرادت أن تخرج للقاء حبيبها فتحى ·· ثم انها لا تطيق أن تتصور نفسها ليلة زفافها ·· هى وهو فوق فراش واحد ·· جسدها بجانب جسده ، وأنفاسه تصطدم بأنفاسها ·· انها بالكاد تطيق احتمال قبلاته ·· تحتملها كأنها تؤدى واجبا ·· كأنها تشرب شربة زيت خروع ·· فكيف تستطيع أن تحتمل ليلة زفافها ·

ولكن ··

لماذا لا تزف اليه وتنتهى ·· لو كان عندها أدنى أمل فى أن تتزوج فتحى ، لكان هناك مجال للتردد ·· ولكنها لن تتزوج فتحى ولا أمل لها في زواجه ·· فلماذا لا تزف الى عصام ·· وتنتهى ·· كأنها تخلع ضرسها ·· ان خلع الضرس يؤلم ويحتاج الى شجاعة. ولكنه أرحم من موالاة علاجه ·· وبعدها ستصبح انسانة أخرى ·· ستصبح ·· امرأة ·· كزوجة فتحى ، وتستطيع أن تمنح فتحى ما تمنحه له زوجته ·· أكثر ·· و ··

وانقبض قلبها عندما وصلت الى هذا الحد من تفكيرها ·· شعرت بالخجل من نفسها ·· الخجل الذى يبلغ حد التقزز ·· كيف تتجرأ على هذا التفكير ·· كيف تفكر فى ليلة زفافها الى رجل وهى تفكر فى أن تمنح نفسها لرجل آخر · انها احتملت أن تخون عصام وهو خطيبها ·· ولكنها تحس أنها لا تستطيع أن تخونه وهو زوجها ·· واجتاحت قلبها موجة من الخوف ·· الخوف من عصام ·· كأنها خافت أن يقرأ أفكارها ·· انها المرة الأولى التى تحس بالخوف منه بينها وبين نفسها ·· وخيل اليها أنه ليس بسيطا رقيقا ناعما كما يبدو ·· خيل اليها أنها لم تعرفه تماما خلال الشهور الطويلة التى مرت منذ خطبتها ·· كأن له شخصية أخرى يخفيها تحت بساطته ورقته ونعومته ·· شخصية مخيفة ، لم تواجهها بعد ، ولكنها تحس بأنها ستواجهها بعد الزواج ·· بعد أن يكتب المأذون

الكتاب ·· كأن هذا الكتاب الذى يكتبه الشيخ المعمم يجعل من الخطيب الرقيق عملاقا مخيفا ، يسمى زوجا ··

والحيرة تستبد بها ·· وقد وعدت عصام أن تبلغه رأيها عندما تلتقى به هذا المساء ·· ماذا تفعل ·· ؟ ماذا أفعل يا ربى ·· ؟ !

وأمسكت بضفيرتها ·· شعاع الشمس الذى ينسدل على ظهرها ·· وأخذت تشد فيها بعصبية كأنها تشد فى حبل جرس فى السماء ·· تدعو به الله ، ليأتى لنجدتها ··

وأفاقت من وساوسها ، على صوت أمها يناديها :

ـ ليلى ·· ياللا ندا يا حبيبتى ··

★ ★ ★

وكانت الساعة الثامنة مساء عندما جاء الخال ومعه عبدالسلام لزيارة العائلة واستقبلتهما الأم ووجهها يسبح فوق ابتسامتها ، ويلمع وسط طرحتها السوداء كأنه يبدد من حولها سحب حزنها ·· انها دائما أكثر جمالا ، وأكثر أناقة كلما جاء عبد السلام لزيارتها ·

وانحنى عبد السلام يقبل يديها ·· ونظر اليها كأنه يقبل وجهها ·

وجلس الخال وهو يبتسم ابتسامة عصبية ، كأنه يدارى بها المصيبة التى حلت به ·· مصيبة احالته الى المعاش ·· وقال فى صوت صاخب :

ـ ازيك يا عنايات يا اختى ·· أمال فين البنات ··

وجلست عنايات جلسة رشيقة ، وظهرها مشدود ، واحدى قدميها قد التفت حول الأخرى فى أناقة كحمامتين تتعانقان ، وقالت وهى تنظر الى عبد السلام من تحت أهدابها :

ـ زمانهم جايين ··

ودخلت فيفى ونبيلة ·· وشد الخال كلا منهما اليه وقبلها وهو جالس ، وقام عبد السلام يصافحهما ، كل منهما تمد له يدها وهى

لا تنظر اليه كأنهما يبخلان عليه بالنظر ..

وقال الخال : أمال فين ليلى ؟ ..

وقالت الأم : خرجت مع عصام ..

وقال الخال وهو يضحك ضحكة ساخرة ، يسخر بها من نفسه .

ـ والله عصام طلع ابن أصل .. فات على النهاردة الصبح .. مع انى كنت فاكر انه حايفسخ خطبته بعد ما اتحلت على المعاش ؟ .

وقالت فيفى بسرعة : هوه كان خطبها علشـــان حضرتك فى الوزارة ؟ .

وقال الخال فى أسى :

ـ انتى ما تعرفيش الناس .. ده أنا شــفت اليومين دول من أخلاق الناس اللى عمرى ما كنت أشوفه ؟ .. تصورى يا عنايات يا اختى ان الصعلوك محمد ادريس ، اللى فضلت أرقى فيه لما جبته مدير عام .. واللى كان يسافر بنفسه لغاية قليوب علشان يشترى لنا خروف العيد .. وينزل سوق الخضار علشـــان ينقى لنا قفص المنجة .. واللى كان حا يموت علشان يجوز ابنــه لبنتى زوزو .. تصورى الصعلوك ده ما يفوتش على علشـــان يقـول لى : ازيك ، وعامل ايه ؟ . واضرب له تليفون علشان أوصـيه على السكرتير بتاعى ، يقوم ما يردش على ، وسكرتيره يقول لى : ان سيادته عنـد الوزير .. بقى دى أخلاق ؟ بقى دى ناس ؟ ..

وقال عبد السلام وهو يبتسم له كأنه يرفه عنه :

ـ انت عايز تقيس أخلاق الناس كلها ، بأخلاق شوية الموظفين اللى عندك ؟ ! .. الموظفين طول عمرهم كده ، وحايفضلوا كده .. انما الناس الكويسين كتير ..

وقالت عنايات :

ـ احمد ربنا يا عزت ان لك واحد صاحبك زى عبد السلام بيه ..

طول عمره يحبك ويقف جنبك ، من غير ما يكون له مصـلحة ، ولا عايز منك حاجة ··

وقال عزت وهو يقهقه كأنه يطلق نكتة :

ـ لا ·· عايز حاجة ·· وله مصلحة ·· بعدين أقول لك ·

وتضرج وجه الأم بحمرة الخجل ·· ونظرت الى قدميها الملتفتين احداهما على الأخرى ، كحمامتين متعانقتين ··

وفيفى ونبيلة تديران رأسيهما بين الخال ، والأم ، وعبد السلام ·· ويسمعان كلامهم ولا يعلقان ··

ودخل أحمـد مرتديا القميص والبنطلون ·· والملل لا يزال فى عينيه ، وابتسامة ساخرة تتدلى على جانب من شفتيه ·· وصافحه الخال وهو جالس ·· وقام عبد السـلام واقفا ليصافحه وازدادت ابتسامة أحمد الساخرة اتساعا ، كأنه يحتقر عبد السلام ·

وقال الخال وهو يريح كرشه فوق ساقيه :

ـ هيه ·· عامل ايه يا أحمد فى الوزارة ؟ ·· لازم مضطهدينك ·

وقال أحمد وهو يجلس فى مقعده :

ـ فعلا ·· ابتدوا يعاملونى زى بقية الموظفين ··

واحمر وجه الخال حنقا ، وقال فى غضب ، وكرشه ينتفض فوق ساقيه :

ـ قصدك ايه ؟ ·· أنا كنت معتبرك زى بقية الموظفين ·· كنت معتبرك أقل من بقية الموظفين ·· ويوم ما حبيت أعينك مارضيتش انى أعينك فى مكتبى ، ولا فى الادارة العامة ·· عينتـك فى ادارة المعاشات زى واحد ماعندوش واسـطة ·· علشان خاطر ماحدش يتكلم ·· والا يقول انى با احابى ابن أختى ··

ونظر أحمد الى خاله فى شماتة ·· وأحس ساعتها بايمان شديد بالثورة التى أحالت هذا الرجل الى المعاش وطردته من وظيفته ·· لقد كانت الثورة على حق ·· فهو يعرف خاله ·· يعرف عقليتـه

الجامدة ٠٠ يعرف رجعيته ٠٠ يعرف انه هو السبب فى قتل ممدوح ٠٠ وأحس أنه فى حاجة الى أن يقترب من هذه الثورة التى انتقمت لممدوح ٠٠ فى حاجة الى أن يفهمها ٠

وقال وهو ينظر الى خاله بعينين ثابتتين كأنه مندوب الثـورة يواجه أحد الخونة :

– يعنى يا خالى ظلمتنى علشان تشتهر بالعدل ؟ ٠٠

وقال الخال وهو يدير عينيه عنه : فعلا ظلمتك ٠٠

وقال أحمد وابتسامته الساخرة تتخلل كلماته :

– يمكن علشان كده ٠٠

واشتد احتقان وجه الخال ، ونظر الى أحمد ، وقال فى حدة :

– علشان كده ايه ؟ ٠٠

وقال أحمد من خلال ضحكة خافتة :

– يمكن علشان ظلمتنى أحالوك على المعاش ٠٠

وقال الخال :

– انت بتتكلم كده ليه يا ولد ! ٠٠ انت قليل الأدب ٠٠ قليـل التربية ٠٠ انت علشان خرجت من الوزارة تقدر تكلمنى بالشكل ده ؟٠ لازم تعرف انى خالك ٠٠ وأنا اللى مربيك ٠٠

وظل أحمد ساكتا ، ونظرته ثابتة ، كأنه يتلذذ بصراخ خاله ٠٠

وقال عبد السلام : ده أحمد بيتريق يا عزت ٠٠ انت فهمت غلط٠

وقالت الأم :

– ما تزعلش نفسك يا عزت ٠٠ أحمد مش قصده حاجة ٠٠

ثم التفتت الى أحمد وقالت : ما يصحش تكلم خالك بالشكل ده ٠

وقامت فيفى ونبيلة وخرجتا من الغرفة ، صامتتين ٠٠

وعاد الخال يقول :

– على كل حال أنا ضميرى مستـريح ٠٠ وحايفضلوا يدوروا ورايا سنة مش حايلاقوا غلطة واحدة ٠٠ ده بلغنى انهم بيراجعوا

جميع الدوسهيات ·· فاكرين انهم يقـدروا يثبتوا على حاجة ·· ياخى ده بعدهم ·· وبكره حايندموا ·· بكرة مش حايلاقوا واحد زيى ·· جايبين شـوية عيال يمسكوا مالية البلد ·· أما نشـوف حايعملوا ايه من غيرى ؟ ·· والله يا عبد السلام يا اخويا دا أنا كنت أقعد فى مكتبى للساعة عشرة بالليل ، وأروح البيت والساعى شايل لى شنطة مليانة دوسيهات ، أفضل أمقق فيها عينية لغاية الصبح ··

وقال عبد السلام وهو يتنهد كأنه مل هذا الحديث :

ـ مصادق ·· ما أنا عارف ·· !

وأحمد لا يزال ينظر الى خاله بعينين ثابتتين ··

والخال يحاول أن يهرب من هاتين العينين ·· وهو يحس أن أحمد يتحداه ، ويحس أنه أضعف من أن يقابل تحديه ·· يخشى أن يفقد احترامه أمامه ·· ويخشى أن يتهور أحمد فيقول كلاما يجرحه ·· فأخذ يوجه الحديث حينا الى أخته ، وحينا الى عبد السلام ·· ثم التفت فجأة الى أحمد كأنه ضاق بتردده ، وقال له :

ـ وانت ناوى تعمل ايه يا أحمد ؟ ·· حاتفضل فى الوزارة ؟

وقال أحمد فى برود : تفتكر أعمل ايه يا خالى ؟ ··

وقال الخال :

ـ أحسن لك تستقيل ، قبل ما يرفدوك علشان خاطرى ··

وقال أحمد وهو لا يهتز : أستقيل وأعمل ايه ؟ ··

وقال الخال كأنه يتودد اليه :

ـ أنا أدور لك على أى شغلة ، ماتخافش أنا لسة لى نفوذ كبير ·

وهب أحمد واقفا وقال فى تحد :

ـ أنا اللى حاقرر امتى أستقيل ·· ويوم ما احب اشتغل ، أنا اللى حادور لنفسى على شغلة ·· عن اذنكم ·· عندى ميعاد ·

وخرج فى خطوات سريعة دون أن يحيى أحدا ··

وساد الغرفة وجوم بعد خروجه ، ثم قال الخال :

ـ آدى آخرة تربيتى فى الولد ده ·· ! ؟ ·

وقالت الأم وفى عينيها أسى : الحقيقـة أحمد اتغـير من يوم حادثة أخوه ·· ده ما كانش كده أبدا ·· !

وقال الخال :

ـ مش بس هوه اللى اتغـير ، كل الشبان اليومين دول فيهم وقاحة وقلة أدب ·· وياريتهم فالحين ·· فين أيامنا لما كان الواحد فينا ما يقدرش يرفع عنيه فى أبوه ·· ولا ينطق قدامه ··

وقال عبد السلام ضاحكا ليبدد الجو الثقيل الذى يحيط بهم :

ـ انما كنا بنعمل اللى عايزينه يا عزت ·· مش فاكر الكيت كات وصولت ·· ومدام مارى ؟ ··

وقال الخال :

ـ انما برضه على أيامنا كان فيه أخلاق ·· وكان فيه علم ··

وتنقل الحديث ·· وبدأ الخال يتحدث مرة ثانية عن أمجاده فى وزارة المالية ·· وعنايات وعبد السلام يتبادلان حديثـا آخر بعيونهما ·· حديثا تنقله نظرات سريعة فيها أمل طال كبتـه ·· حديث أم حرمت حبها من أجل أولادها ·· وحديث رجل حرم شبابه من أجل حبه ·· ثم كأن الحديث انتهى بين عبد السـلام والأم ، فقام ولقفا ، وقال : أسيبك بقى يا عزت ··

وقال عزت فى لهفة :. رايح فين ؟ ··

وقال عبد السلام :

ـ حا روح سميراميس ، آخد لى كاس قبل ما أنام ··

وقال عزت وهو ينظر الى صديقه فى توسل :

ـ يا ريتنى أقدر آجى معاك ·· انما لو رحت حايقولوا انى اتحلت على المعاش لانى سكرى وبتاع بارات ·· ما تخليك قاعد معانا ، ونبعت نجيب الكاس هنا ؟ ··

وقالت الأم وهى ترفع عينيها الى عبد السلام كأنها تستحلفه

بحبه : خليك قاعد معانا يا عبد السلام ·· دى الساعة لسة تسعة ·شوية ·· !

وتردد عبد السلام قليلا ، ثم قال :

ـ خلاص ·· ما دام عنايات هانم أمرت ··

وقال عزت فرحا : أنا حابعت السواق يشترى قزازة ويسكى ·· ده أنا بقى لى كتير ما شربتش ·· ثم التفت الى أخته قائلا : عندك صودا يا عنايات ؟ ··

واهتزت رموش الأم فوق عينيها كأنها حائرة ، وقالت فى صوت متردد : لا ··

وحمل عزت كرشه وقام قائلا : طيب أما أقوم أنده للسواق بتاعى ، وابعته يشترى كل حاجة ··

وخرج ·· والأم ساهمة ·· انها المرة الأولى التى يدخل فيها الويسكى بيتها منذ توفى زوجها ·· وحتى فى أيام زوجها لم تكن تجلس معه وهو يشرب الخمر مع أصدقائه ·· ولكن أخاها وصديقه يريدان أن يشربا الويسكى فى بيتها ·· وهى تجلس معهما ·· وقفزت الى خيالها صور بناتها ·· هل يصح أن تعقد مجلس شراب وبناتها فى الغرفة المجاورة ؟ ·· ولكنه أخوها ·· وهو يعانى من حالته النفسية ·· وفى حاجة الى ما يرفه عنه ·· وهى مسئولة عنه وعن حالته النفسية ، ولعل الويسكى ينسيه متاعبه ويعينه على حاله ·· انها لن تكون مخطئة اذا سمحت بدخول الويسكى الى بيتها ·· انه من أجل أخيها ··

وهى تحاول أن تقنع نفسها بهذا المنطق ·· فتبدو أكثر وجوما ·· وعبد السلام ينظر اليها، ويطل فى عينيها كأنه يحاول أن يقرأ أفكارها ، ثم قال وهو يلفها بابتسامة كبيرة :

ـ سرحانة فى ايه ؟ ··

قالت وهى تنظر اليه كأنها تستغيث به :

ـ أصل عمر الويسكى ما دخل بيتى من يوم ما جوزى مات ٠٠
قال ضاحكا :

ـ بس كده ؟ ٠٠ ده أنا افتكرت حاجة كبيرة ٠٠ افتكرت ...حاتة فى مثلا ٠٠ على كل حال البيوت كلها بقت مليانة ويسكى دلوقت ٠٠ قزازة الويسكى بقت زى قزازة المورد بتاعة زمان ٠٠ وكل بيت بقى فيه بار ٠٠ وبكره بنتك لما تتجوز حا تعمل فى جهازها بار ٠٠ أما انتى مستشيخة ٠٠ وحا تفضلى مستشيخة لغاية ما تضيعى عمرك وعمرى ٠٠

وقالت فى دلال رصين :

ـ والنبى تسكت يا عبد السلام ٠٠ أنا خايفة فعلا ٠٠ دلوقت فيفى تقول ايه ؟ ٠٠ والا نبيلة ؟ ٠٠ والا أحمد ؟ ٠٠

قال فى بساطة : ولا حاجة ٠٠ ولا حايهمهم ٠٠

وسكتت الأم برهة ، ثم قالت :

ـ بس ما تخليش أخويا عزت يشرب كتير ٠٠ ده زمان واحنا صغيرين لما كان يرجع شارب ما كانش بطل زعيق ٠٠

وقال عبد السلام مبتسما :

ـ أنا اللى خايف منه انى أنا اللى أسكر ، وما اقدرش أمسك نفسى وأقول له على كل حاجة ٠٠ أقول له انى عايز اتجوزك ٠٠

وابتسمت عنايات ابتسامة صغيرة ٠٠ وقالت :

ـ يا خبر ! ٠٠ اوعى يا عبد السلام ٠٠

ودخل الخال قائلا لعبد السلام :

ـ انت بتشرب ديورس ، والا جون هيج ؟ ٠٠

وقال عبد السلام : زى بعضه ٠٠ الموجود ٠٠

وجلس الثلاثة فى انتظار زجاجة الويسكى ٠٠ وبدأ حديثهم يسوده المرح ٠٠ حديث أغلبه عن ذكريات الصبا ٠٠ تتخلله ضحكات ٠٠ عزت يضحك ٠٠ وعبد السلام يضحك ٠٠ وعنايات

تضحك ·· كأن مجرد انتظارهم للخمر قد أسكرهم ·· والضحكات تقفز فوق وجنتى عنايات كأوراق الورد ، فتبدو جميلة ·· لم تكن أبدا جميلة الى هذا الحد منذ زمان طويل ··

وعاد السائق بزجاجة الويسكى ··

وقامت عنايات لتشرف على اعداد قطع الثلج ، وأطباق المشهيات ··

وعادت ·· والكأس فى يد أخيها ·· وكأس أخرى فى يد عبد السلام ·· ولم تشرب هى ·· ولم يدعها أخوها الى الشراب ·· ولا عبد السلام ·· ولكنها تضحك معهما ·· وقد ابتعد عنها ترددها ·· وابتعدت صور أولادها ·· انها لم تضحك أبدا كما تضحك الآن ·· كم سنة مضت منذ ضحكت آخر مرة ؟ ·· لا تدرى ·· ربما منذ سافر عبد السلام قبل أن يخطبها منذ ثلاثين عاما ··

وفجأة ··

رفعت الأم رأسها ورأت أمامها نبيلة ، واقفة عند الباب ، فسكتت ضحكتها مرة واحدة ، ونظرت الى ابنتها كأنها تنفى عن نفسها تهمة ·· ولمح الخال نبيلة ، فناداها قائلا :

— تعالى اقعدى يا بلبل ··

وقالت نبيلة ، وفى عينيها دهشة ، وبين شفتيها شىء كالاشمئزاز :

— مرسى يا خالى ·· بس كنت عايزة ماما فى كلمة ··

وقامت اليها الام ، وهى تسير فى خطوات مرتبكة ، واقتربت منها ، وهمست نبيلة فى أذنها :

— ماشفتيش « الايشارب » الاحمر بتاعى ؟ أصلى مش لاقياه·

وقالت الأم فى صوت مسكين ، وهى تعلم أن ابنتها ليست صادقة فى البحث عن « الايشارب » الاحمر ·· تعلم أنها جاءت لتكتشف سر الضحكات الكثيرة التى لم تسمعها من قبل :

ـ لا ٠٠ ما شفتوش ٠٠ انتى اتعشيتى انتى وفيفى ؟ ٠٠

وقالت نبيلة وهى تنظر الى أمها كأنها توجه اليها اتهاما :

ـ لا ٠٠ مش حانتعشى ٠٠ مالناش نفس ٠٠ !

وانسحبت نبيلة من أمام أمها ، وجرت الى غرفتها ، كأنها تهرب منها ٠٠

وعادت الأم الى جلستها واجمة ٠٠

ونظر اليها عبد السلام ولاحظ وجومها ، فقال :

ـ فين ابتسامة شفايفك ؟

وابتسمت ابتسامة مسكينة ، كأنها تمهد بها لبكاء ٠٠

وقال عزت وكرشه ينتفض بالضحك :

ـ اوعى تبوزى يا عنايات ٠٠ من هنا ورايح ما فيش تبويز أبدا ٠

ثم التفت الى عبد السلام وقال والخمر تلوى لسانه :

ـ يظهر انى حا ابقى سكرى زيك ؟ ٠٠ ماخلاص بقيت فاضى ، والفاضى يشرب ويسكى ٠٠ !

وعاد يلتفت الى أخته قائلا :

ـ أنا عايز أشرب كأس من ايدك ٠٠ ايدك انتى يا ست الستات تعالى اعملى لى كأس علشان خاطرى ٠٠ من ايدك الطاهرة ٠٠

وظلت عنايات جالسة مكانها ، وبين شفتيها ابتسامتها المسكينة، وقال عزت فى توسل سكران : علشان خاطرى ؟ ٠٠

وقالت عنايات : يا سلام يا عزت ٠٠ بلاش دلع ٠٠

وقال : طيب علشان خاطر عبد السلام ٠٠ !

ومد عبد السلام يده ورفع زجاجة الويسكى ، وأخذ يصب كأسا لعزت وهو يقول :

ـ قبل ما حد يكسف خاطرى ، أنا حا اعمل لك الكأس ٠٠

وقال عزت والكلام ينزلق فوق شفتيه :

ـ انت مش كنت عايز تتجوز عنايات زمان ؟ .

وقال عبد السلام فى ثبات ، وهو ينظر الى عزت بكل عينيه

ـ ولسه عايز أتجوزها ..

وضحك عزت ضحكة كبيرة ، وقال : ياخى ده بعدك ..

وقامت عنايات منتفضة كأن النار اندلعت فى أطراف ثوبها ، وقالت لأخيها فى حدة :

ـ أنا حادخل أنام .. وحاقول للسفرجى يستنى لغاية ما تخلصوا .. تصبحوا على خير ..

وخرجت .. ورأسها يسبقها كأنها تكاد تنكفىء على وجهها

ونظر الخال وراءها فى بلاهة وهو لا يفهم سر غضبها

وعينا عبد السلام مليئتان باليأس ..

١٠

جلست ليلى وخطيبها عصام فى حديقة مينا هاوس ، والليل يحوطهما ، والنسيم يهمس حولهما .. وهما متباعدان .. كل منهما يجلس الى طرف من المائدة .. كأنهما زوجان مر على زواجهما عشرة أعوام شبعا خلالها من بعضهما ، ولم يبق بينهما الا الملل ..

وليلى لا تزال تفكر .. ولا تزال حائرة .. هل تقبل أن يعقد قرانها على عصام فى الأسبوع القادم ثم تسافر معه الى أوربا ..

وعصام يتحدث اليها ، وصوته يصل اليها كأنه يأتى من بعيد ، وهو يطرق فى حديثه موضوعات كثيرة ، ولكنها تعلم أنه سينتهى حتما الى موضوع الزواج .. وهى فى انتظار سؤاله ..

لماذا لا يسألها وينتهى ؟ ·· لماذا كل هذا النفاق ، وكل هذا الضجيج الذى يملأ به رأسها ؟ ·· ثم فجأة لم تعد تطيق الانتظار ، وانفجرت قائلة : اسمع يا عصام ·· احنا مش ممكن نكتب الكتاب الجمعة الجاية ! ··

قال وقد اكتسى وجهه اللامع بملامح الجد كأنه مقبل على عقد صفقة : ليه ؟ ··

قالت فى حدة : ما اقدرش ·· ما اقدرش البس فى فرحى فستان أسود ·· ده حتى يبقى شؤم ! ··

قال : ومين قال انك حاتلبسى فستان أسود ·· تقدرى تلبسى فى أوربا فستان ملون ·· ونعمل فرح هناك ··

قالت وهى لا تزال محتدة : أنا مش لابسة أسود علشان الناس ، أنا لابسة أسود علشان نفسى ·· علشان ممدوح ··

وسكتت كأنها تتعجب من حماسها الذى يبدو صادقا ··

وقال عصام :

ــ ما أنا حزين زيك يا ليلى ·· أنا ما قلتش اننا خلاص نسينا المرحوم ·· انما حرام نفضل كده على طول ·· ده بنت مهران باشا عبد الكريم اتجوزت بعد ما توفت أختها بتلات اشهر عملوا كتب كتاب صغير ، ولبست فستان دانتيل رمادى ·· وسافرت هيه وجوزها الى أوربا ··

وقالت ليلى : أنا ماليش دعوة بحد ·· أنا لازم ألبس فى فرحى فستان أبيض ·· فستان عروسة ·· أنا طول عمرى وأنا عايشة بافكر فى فستان فرحى ، أنا مش حا اتجوز كل يوم يا عصام ·· وأنا مش أقل من بقية البنات ··

وقال عصام فى هدوء وهو يزفر أنفاسه :

ــ وامتى حا تقدرى تلبسى فستان عروسة ؟ ··

وقالت ليلى : بعد ما تفوت السنة ··

وقال عصام : يعنى بعد سنة حا تنسى المرحوم ؟ .. ده كلام مش معقول يا ليلى .. وبعد سنة برضه حاتلاقى نفسك مش قادرة تعملى فرح ولا تلبسى فستان عروسة ..

واغرورقت عينا ليلى بالدموع ، وقالت : ما اعرفش .. ! أهو بعد ما تفوت السنة يحلها ربنا ..

وقال عصام وهو يبتسم : انتى عنيدة يا ليلى ..

وقالت ليلى ، وهى تدير عنه وجهها :

ـ أنا مش عنيدة .. انما مش عايزة أتجوز دلوقت ..

قال عصام : تبقى ما بتحبنيش ؟ ..

والتفتت اليه لفتة حادة كأنها تهم بأن تعلن له أنها فعلا لا تحبه، ثم قالت والكلام يرتطم بشفتيها :

ـ إنت اللى مش مقدر ظروفى .. مش قادر تحس باللى أنا حاسة بيه .. انت أنانى .. !

قال كأنه يتوسل :

ـ أنا حاسس باللى انتى حاسة بيه .. وعلشان كده عايز آخدك ونسافر أوربا ، لأنك هناك حا تبعدى عن الجو اللى انتى عايشة فيه .. حا تشوفى دنيا تانية تنشغلى بيها .. و ..

وقاطعته قائلة : يعنى تفتكر انى حا ابقى حزينة فى مصر وسعيدة فى سويسرا ؟ .. مش ممكن ..

وعاد عصام يحاول أن يقنعها .. يحدثها عن جمال أوربا .. عن البلاد التى سيزورانها .. ويشرح لها تفاصيل الخطة التى وضعها .. سيستأجران شقة .. ويتركانها لبنترمولى ليؤثثها .. ويسافران .. ثم يعودان بعد شهرين ليجدا الشقة جاهزة لاستقبالهما .

وليلى تستمع له ، وعقلها سارح فى فتحى .. هل تستطيع أن تبتعد عنه ؟ .. وهل تستطيع أن تحتمل عصام ، وهى وحدها معه

فى أوربا ؟ ·· وأحست أنها تكره عصام ·· تكرهه جدا كأنه يريد أن يحرمها من سعادتها ·· يريد أن يخنق حبها ·· انه عدوها ·· وشىء يتلوى فى صدرها ·· ويدق على رأسها ·· ورغم ذلك فهى لا تستطيع الفرار ·· لن تستطيع أن تفر من عصام ·· انه صاحب حق عليها ·· انه سيدها ·· ما دامت لا تزال مخطوبة له ·· وما دامت لا تريد أن تفسخ خطبتها له ·· هل هى حقا لا تريد أن تفسخ خطبتها ؟ ·· انها لا تدرى ·· عين فى النـار ، وعين فى الجنة ، ولا تستطيع أن تجمع الجنة والنار فى قرار واحد تتخذه ·

وقاما من جلستهما فى الساعة التاسعة ·· وركبت بجانبه فى السيارة صامتة ·· تدعى التعب ·· وتدعى أن فى رأسها صداعا ولم تكن تعبة ، ولا فى رأسها صداع ·· بالعكس ·· انها نشطة ، كل أعصابها متيقظة ·· ورأسها نشط مزدحم بخواطرها ·· وهى تحس بأنها فى حاجة الى فتحى ·· فى حاجة اليـه ليعينهـا فى حيرتها ، أو على الأقل ليمنحها لحظات تستريح فيها من هذه الحيرة ·· لماذا لا تبحث عنـه الآن وتذهب الى لقائه ·· ولكن عقلهـا لا يطاوعها ·· يا بنت اعقلى ·· اننا فى الليـل ·· وهى مغامرة عنيفة أن تذهب الآن الى لقائه ·· ولكنها فى حاجة الى هذه المغامرة ·· وفى حاجة الى لقائه ·· ولكن لا ·· ما يصحش ··

وقال عصام وهو يقود السيارة : تحبى نروح نتعشى فى حتة ؟

وقالت وهى تضغط بأصابعها على جبينها :

ـ لا ·· مش قادرة يا عصام ·· انا تعبانة ·· عايزة أنام ··

ووصلا الى البيت ··

وأوقف عصام السيارة ·· ومالت بخدها ناحية عصام وهى لا تنظر اليه ، وقالت : تصبح على خير ··

وقبلها عصام فوق خدها وهو ينظر فى وجهها كأنه يبحث عن

الطريق الى قلبها ، وقال : بونسوار ..

ونزلت من السيارة ، وظل عصام واقفا بالسيارة ريثما يطمئن الى دخولها البيت .. كما تقضى أصول اللياقة .. وعم عبد الله ترك الباب مفتوحا ، ونام داخل الحجرة الخشبية الخاصة به ..

ودخلت ليلى .. ولم تصعد السلم انما اختبأت وراء سور البيت المغطى بالزرع .. وبدأ قلبها يدق بشدة .. دقات أنستها حيرتها ، ونقلتها الى احساس عنيف بالمغامرة .. احساس يختلط فيه الخوف والتحفز والتردد .. ونظرت من خلال أوراق الزرع الى سيارة عصام الواقفة أمام الباب .. ثم رفعت رأسها الى البيت ، ورأت حجرة الصالون مضاءة وصوت ضحكات خالها وصديقه عبد السلام تنبعث منها .. وتعجبت ، فلم يكن من عادة خالها ولا صديقه أن يضحكا كل هذا الضحك .. والتفتت الى النافذة الأخرى للبيت .. ان حجرة البنات مضاءة .. لا بد أن فيفى ونبيلة مستلقيتان فوق فراشيهما وكل منهما تقرأ فى كتاب .. وحجرة أخيها أحمد مطفأة .. وعادت تدير رأسها الى حجرة عم عبد الله .. يا رب لا توقظه .. ثم سمعت صوت سيارة عصام تتحرك .. وظلت تستمع الى صوتها وقلبها واجف حتى ابتعدت وغاب عنها الصوت .. ثم عادت تنظر الى حجرة عم عبد الله .. يا رب لا توقظه .. ثم زحفت بخطواتها ، وهى تسير على بوز حذائها .. واقتربت من الباب .. ودقات قلبها تشتد .. تكاد من عنفها تحطم القلب .. ووصلت الى باب الحديقة .. ورفعت رأسها فجأة الى البيت ، كأنها خافت أن يكون هناك من يطل عليها ويراها .. ثم التفتت مرة أخرى الى حجرة عم عبد الله .. يا رب لاتوقظه. وبسرعة ...

انفلتت من الباب .. خرجت الى الشارع ..

واستراح قلبها برهة .. ولكنها لا تزال تسير على بوز حذائها

.. وتسير ملتصقة بسور البيت ، حتى لا يراها أحد اذا أطل من احدى النوافذ ..

ثم تنبهت الى أنه لم يعد هناك داع لكى تسير على بوز حذائها، فاعتدلت فى مشيتها .. واجتازت فى سيرها سور البيت .. ولكن قلبها عاد يخفق .. ماذا لو رآها أحد من الجيران العائدين الى بيوتهم ؟ .. ماذا لو فوجئت بأخيها أحمد عائدا ؟ .. ولم تعد تفكر فى فتحى ولا فى عصام ، لم تعد تفكر الا فى المغامرة نفسها .. واحساس المغامرة يملأ صدرها .. الخوف ، والتحفز ، والتردد ورموشها ترتعش فوق عينيها ، وشفتاها ترتعشان ، وركبتاها ترتعشان ..

وخرجت من شارع الاخشيد .. أصبحت فى الميدان الواقع أمام كوبرى عباس .. وأسرعت الخطى نحو موقف سيارات الأجرة، ووضعت نفسها فى احداها كأنها تختبىء فيها ، وقالت للسائق ، بصوت محشرج ، وهى تبتلع ريقها :

ــ ميدان سليمان باشا يا أسطى ..

وانطلقت بها السيارة .. وهى لا تزال تتعمد الاختباء فيها .. وتنظر أحيانا من خلال النافذة ، كأنها تخشى أن يكون عصام يتبعها بسيارته .. ثم شيئا فشيئا .. هدأ قلبها .. وارتفعت ابتسامة بين شفتيها ، كأنها تهنىء بها نفسها .. ثم اتسعت ابتسامتها ، كأنها ترى صورة المغامرة على وجه فتحى عندما يفاجأ بها أمامه .

ونزلت من السيارة فى شارع الأنتكخانة ، ثم دخلت محل بقال هناك ، واندفعت نحو التليفون ، وطلبت نمرة معهد الموسيقى الشرقى ..

ــ أقدر أكلم الأستاذ فتحى من فضلك ؟ ..

وانتظرت طويلا ، ثم سمعت صوت فتحى ، فقالت هامسة

ــ فتحى ، لازم أشوفك حالا ، أنا جنب الشقة ، تعال قوام

وقال فتحى فى لهفة : حصل ايه يا ليلى ؟ ايه اللى حصل ؟

قالت وهى لا تزال تهمس : لما تيجى حا تعرف ! ··

وأعادت السماعة الى مكانها ·· وسارت فى خطى مسرعة ·· واجتازت الشارع ، وهى تتعمد ألا تتلفت حولها ·· كأنهـا تخشى ان تلفتت أن ترى أحدا ·· عصام أو أخاها ·· كانت فى خوفهـا وحرصها كأنها نعامة تدفن رأسها فى الرمال حتى لا ترى عدوها ·· وانفلتت بخفة وسرعة الى داخل العمارة ، حتى ان البواب الجالس أمام الباب لم يرها ·· وصعدت الى الدور السادس ·· وأخرجت المفتاح من حقيبتها وفتحت الباب ودخلت ·· وأسندت ظهرها الى الحائط ، وتنهدت ·· كأنها وصلت الى شاطىء الأمان ·

وطافت بعينيها فى أنحاء الشقة ، كأنها تقبل كل قطعة منها ·· البيانو ، والمقعد الوحيد ، وأريكة عريضة اشتراها فتحى أخيرا ·

وألقت نفسـها على الأريكة ·· وارتاحت ·· هدأت رعشـة رموشها ، ورعشة شفتيها ، ورعشة ركبتيها ·· وهدأ ضجيج قلبها ورأسها ··

وبدأت تفكر من جديد فى اصرار عصـام على أن يتزوجهـا الأسبوع القادم ··

وسرح خيالها ·· ومدت أصابعها دون أن تشـعر ·· وبدأت تعبث بالدبلة الذهبية ·· ثم نزعتها من أصـبعها ·· واطلت تقرأ الاسم المكتوب فى داخلها ··

فتحى ···

ان فتحى هو زوجها ··

الزوج الذى اختاره القلب ، والقدر ··

ترى لو أن فتحى هو الذى كان يطلب أن يزف اليها فى الأسبوع القادم ، بل الليلة ، هل كانت تتردد ؟ ·· هل كانت تحتار ؟ ··

وقامت من فوق الأريكة ·· وجلست أمام البيـانو ، وأخذت

تعزف لحنا لمندلسون ٠٠ لحنا هادئا كالحلم ٠٠ كالليل ٠٠ ليلة الزفاف ٠٠

ثم ابتسمت بينها وبين نفسها ٠٠

ومدت يديها الى مؤخرة رأسها ، وبدأت تحل ضفيرتها ٠٠ وانساب الذهب فوق كتفيها ٠٠ ان فتحى يحبها دائما هكذا ٠٠ ثم ٠٠ ثم برقت عيناها كأنما راودها خاطر جديد ٠٠ خاطر جرىء ٠٠ لماذا لا تكون هذه الليلة ليلة زفافها ؟ ٠٠

ليلة زفافها الى الزوج الذى اختاره القلب والقدر ٠٠

وتلفتت حولها ٠٠ كأنها تخشى أن يكون أحد معها سمع هذا الخاطر وهو يدور فى رأسها ٠٠

ثم قامت تسير على أطراف أصابعها ٠٠ دون أن يكون هناك داع ٠٠ وفتحت باب الغرفة الأخرى ٠٠ والقت عينيها فوق قميص نومها والروب دى شامبر الموضوعين على المقعد ٠٠ القميص الذى جاءت به يوم قررت أن تهرب من بيتها ٠٠ ولم ترتديه أبدا ٠٠

وتعلقت عيناها طويلا بقميص النوم ٠٠

ثم زمت شفتيها كأنها اتخذت قرارا ٠٠ ودخلت الغرفة ، وأغلقت الباب وراءها ٠٠ ثم بدأت تخلع ثيابها ٠٠ قطعة قطعة ٠٠ وكل قطعة تثير مزيدا من التردد ، ومزيدا من العناد والتصميم والاندفاع نحو المغامرة الجديدة ٠٠

وارتدت قميص النوم ٠٠

وصدرها مكشوف ٠٠ وذراعاها مكشوفتان ٠٠

وبشرتها البيضاء تلمع فى الضوء الخافت كصفحة من النور وابتسمت ٠٠

ثم خرجت من الغرفة وذهبت الى المرآة المعلقة فوق الحوض ووقفت تساوى شعرها ٠٠ ثم خرجت والتقطت حقيبتها ، واخرجت منها زجاجة عطر صغيرة ، سكبت منها قطرات فوق اصبعها ، ثم

مرت به خلف أذنيها ، وحول عنقها ، وفى أعلا ذراعيها ٠٠

ثم تنبهت الى أن حذاءها لا يزال فى قدميها ٠٠ فخلعته وحملته الى الغرفة الأخرى التى تركت فيها بقية ثيابها ، ثم خرجت منها وأغلقت بابها ٠٠ وعادت تتسكع حافية القدمين ، بجانب البيانو ٠٠ وقد بدت بدون حذائها قصيرة ٠٠ كالتحفة الغالية ٠٠ وابتسمت بينها وبين نفسها ، وهى تتصور الدهشة التى ستراها على وجه فتحى ٠٠ ثم ٠٠ ثم فجأة داهمها شعور بالخوف ٠٠ لا ٠٠ ليس خوفا ٠٠ انه حياء يبلغ حد الخوف ٠٠ ماذا صنعت بنفسها ؟ ومن تعاند ؟ ما هـذا الجنون ؟ ٠٠ والحيـاء الذى يبلغ حد الخوف ، يشتد ٠٠ ووجنتاها تحتقنان ، وشفتاها تجفان ٠٠ كأنهـا واقفـة عارية فى وسط الشارع ٠٠ لا ٠٠ انها مجنونة قطعا ٠٠ وجنونها يصور لها انها تنتقم ٠٠ تنتقم ممن ؟ ٠٠ من عصام ٠٠ من أهلها الذين يزوجونها رغما عنها ٠٠ من نفسها ؟ ! انه ليس الحب الذى دفعها الى ارتداء قميص النوم ٠٠ شىء آخر غير الحب ٠٠ لعلـه الانتقام ٠٠ ولعله محاولة الهرب من حيرتها ٠٠ ولعله اليأس من أن تستقر فى حياتها ٠٠ مهما كان الدافع أو السـبب ، فيجب أن تعود كما كانت ٠٠ أن ترتدى ثيابها ، وتقلع عن هذا الجنون ٠٠

وعلت وجههـا سحابة من حزن مسكين ٠٠ ومدت أصـبعها وضغطت على أحد مفاتيح البيانو فصدر نغم حزين ضائع ، و ٠٠ و ٠٠ وفتح الباب ٠٠

ووقف فتحى ينظر اليها وعيناه متسعتان ، وهمس فى صوت مبهور : ليلى ٠٠

وأرخت عينيها ٠٠ وارتخى ذراعاها بجانبها ، كأنها استسلمت لم يعد هناك ما تستطيعه الا أن تستسلم ٠٠

واقترب منها خطوة ، وهمس وهو يبتلع ريقه :

ـ ايه اللى حصل ؟ ٠٠ وصمتت ٠٠

وصمتها يشده اليها خطوة .. وخطوة أخرى .. وهو ينظر اليها بكل عينيه . وفى عينيه بريق حائر .. ينطلق ثم يخفت .. كأنه فى اندفاعه اليها ، يخاف عليها .. كأنه فى معركة بين الشعر المنثور فوق الكتفين العاريتين ، وبين عقله الذى يريد أن يصونها ثم ...

ثم أخذها بين ذراعيه ، ودفن وجهه فى شعرها ، وهو يهمس

– يا حبيبتى ..

وجسدها كله بين كتفيه .. وبحث عن شفتيها ..

وضاع كل ما فيها بين شفتيه .. ضاعت حيرتها .. وضاع خوفها .. وضاع حياؤها .. ضاعت كل مشاكلها ..

والنار تشب تحت قدميهما .. وترتفع لتذيب جسديهما ..

وهى هائمة وسط النار .. نسيت الجنة ..

كل ما تريده مزيد من النار .. وشفتاها لا تفترقان عن شفتيه. والأريكة بجانبهما ..

ولكن .. لا تزال هناك بقية من العقل فى رأسيهما .. بقية تحميها من أن تستسلم كل الاستسلام ، وتحميه من أن يندفع كل الاندفاع .. بقية تقاوم .. تقاومها وتقاومه ..

وعندما افترقت الشفاه .. كانت لا تزال مغمضة العينين .. فى راحة .. وابتسامة هائمة ترف حول شفتيها .. ووجنتاها مصهورتان .. ثم شعرت فجأة بنوبة من الحياء ، فرفعت يدها وضمت أطراف قميصها فوق صدرها ، ثم بحثت عن مكان تختبىء فيه .. تختبىء منه .. فاختبأت فى صدره .. وابتسامتها لا تزال ترف حول شفتيها ..

وقال وقد هدأت أنفاسه ، وشعرها المنسدل لا يزال فوق كتفه

– ايه اللى حصل ؟ .. ازاى قدرت تخرجى دلوقت ؟ ..

وفتحت عينيها وقالت وهى تبتسم فى ضعف :

ـ المفروض انى دلوقت مع عصام ‥ خليته وصلنى لغاية البيت ، ورحت جاية ، قبل ما حد يشوفنى ‥

وابتسم ابتسامة كبيرة لا تخلو من غرور كأنه فرح بكل هذا الذى تقدمه له ، ثم قال :

ـ ده انتى بقيتى مجنونة خالص ‥ وما حدش مجنون أكتر منك الا أنا ! ‥

وجلست معتدلة بجانبه فوق الأريكة ، وقالت فى لهجة جادة ، كأنها أفاقت لتواجه الحياة :

ـ انت عارف ان عصام عايزنا نتجوز الجمعة الجاية ‥

ومد يده الى علبة سجائره ، وأشعل سيجارة ، ونفث دخانها فى الهواء ، ثم كور شفتيه يحاول أن يبدو تعسا ، وسكت كأن تعاسته أكبر من أن يعبر عنها بالكلام ‥ ولكنها لمحت ابتسامة يخبئها خلف شفتيه ‥ وقالت وهى تهز كتفيها بلا مبالاة :

ـ طبعا انت ما يهمكش ‥

قال وهو راقد على ظهره ينظر الى سقف الغرفة

ـ يهمني ‥ يهمنى ‥ يهمنى انك تتجوزى ‥

قالت كأنها دهشة من وقاحته :

ـ طبعا أحسن لك انى اتجوز ‥ ما دام حا افضل معاك ‥ مش كده ؟ ‥

قال فى هدوء ، ونشوة الغرور تملأ صدره ‥ الغرور بما منحته له :

ـ احنا عايشين كل يوم مستنيين اليوم اللى حا تتجوزى فيه وخايفين من اليوم ده ‥ تعبنا من الانتظار ‥ تعبنا من الخوف يبقى أحسن تتجوزى ونخلص ‥

قالت فى حدة :

ـ بس أحب أقول لك ، انى لو اتجوزت مش حا اعرفك ‥

والتفت اليها وفى عينيه بريق عينيه كأنه تذكر شيئا وقال :

ـ لو كنتى بتحبينى حاتعرفينى ·· ولو كنتى ما بتحبنيش مش حاتعرفينى ··

وقامت من جانبه وبدأت تضفر شعرها بأصابع عصبية ، وقالت :

ـ حتى لو كنت باحبك ·· مش حا اعرفك ·· واللى بيخليك تقول كده انك عارف انى باحبك ·· انما تأكد انى يوم ما اتجوز مش ممكن حا اعرفك ·· حتى لو مت ·· !

وسكت برهة ، وقال فى صوت مهتز كأنه لا يؤمن بما يقول

ـ لك حق ·· ده اللى لازم تعمليه ·· اتجوزى ·· وموتى ·· وأنا أموت ·· وتنحل المشكلة ··

قالت كأنها تسخر منه : انت مش حاتموت ··

قال : ولا انتى ··

ونظرت اليه كأنها تريد أن تقتله ، ثم أدارت له ظهرها ، ودخلت الغرفة الاخرى واغلقت عليها الباب وغابت عنه ريثما ارتدت ثيابها ·· ارتدتها فى عصبية كأنها تحاول أن تمزقها قبل أن تضعها على جسدها ·· ثم خرجت اليه ، ووقفت أمامه تنظر فى عينيه ، وقالت : يعنى انت موافق انى اتجوز الجمعة الجاية ··

قال وهو يهرب من عينيها : انتى عارفة ··

قالت فى حدة : عارفة ايه ؟ ··

قال : عارفة انى ما اقدرش أوافق لانى باحبك ·· وعارفة انى ما اقدرش ما وافقكيش لأنك لازم تتجوزى ، ولانى ما اقدرش اتجوزك بدل عصام ··

وظلت تنظر اليه برهة ثم قالت كأنها تسخر منه :

ـ حاضر ·· حا اتجوز الجمعة الجاية ·· علشان يعجبك ·· علشان تستريح ··

واندفعت نحو الباب تريد الخروج ..
وصاح وراءها : استني لما أنزل معاكي أوصلك ..
قالت : لا .. حا انزل لوحدى ..
قال : مش ممكن .. الساعة اتناشر .. ده احنا فى نص الليل
وارتدى سترته بسرعة ، ولحق بها ..

ووقفا فى المصعد صامتين .. لا ينظر أحدهما الى الآخر .. وصدرها يتهدج من الغيظ والكمد والثورة .. الثورة على نفسها .. الثورة على حبها .. لماذا تحب هذا الرجل ؟ .. لماذا لا تستجمع ارادتها وتكرهه ؟ .. وتهرب منه ومن الحب .. ولكنها تعلم فى قرارة نفسها ، أنها أضعف من أن يكون لها ارادة .. أضعف من حبها .. أضعف من أن تكرهه ..

وهو واقف بجانبها وقد زايلته نوبة الغرور .. وبدأ صدره يمتلىء باللوعة والخوف .. الخوف من أن تكون صادقة فى وعدها ، وتتركه يوم تتزوج .. وهو يتمنى أن يطلب منها ألا تتزوج .. منذ عرفها وهو لا يريدها أن تتزوج أبدا .. يريد أن تكون له وحده .. أن تعيش له .. دون أن يتزوجها .. فقط تعيش له .. تترك خطيبها وأهلها ، وتسكن فى الشقة ، لتنتظره كلما فرغ من زوجته ، وفرغ من عمله .. انها أنانية منه .. ولكن هذا هو كل ما يستطيع أن يقدمه لها .. انه لا يستطيع أن يطلق زوجته ليتزوجها ، ولا يستطيع أن يتزوجها فوق زوجته .. كل ما يستطيعه هو أن يحبها .. وأن يستوحى منها فنه .. أن يصنع أنغاما من نور عينيها ، ومن شعرها المنسدل فوق كتفيها ، ومن قبلاتها ، ومن حبها ، ومن اندفاعها وطيشها .. انها الفن .. والفنان لا يتزوج فنه ، ولكنه يعيش فيه .. ورغم ذلك فهو لا يستطيع أن يحرضها على أن تكون له بلا زواج .. ان معنى ذلك أن يحرمها من المجتمع .. أن يقتلعها من الأرض التى نبتت فيها ليزرعها فى اناء صغير

ضيق لا تمتد فيه جذور ، ولا تنبثق فيه فروع ·· وهى مسئولية ·· مسئولية كبيرة يخافها ·· يخافها ·· ولا يستطيع أن يحتملها وحده ··

وخرجا من العمارة ، والتفتت اليه والغيظ يطل من عينيها ، وقالت : تسمح تسيبنى أروح لوحدى ··

قال وهو يشير الى احدى سيارات الأجرة :

ـ لا ·· مش ممكن تركبى تاكسى لوحدك فى نص الليل ··

ودفعها فى رفق الى داخل السيارة ، ودخل وراءها ، دون أن تبدى مقاومة ، ربما لأنها تريده معها ·· رغم كل شىء فهى تريده معها ··

وبقيا صامتين ·· كل منهما يطل من نافذة السيارة ·· ومصابيح النور تهرب كلما اقتربا منها ··

والتفت اليها بلا مقدمات ، وقال :

ـ يعنى كنتى تفضلى انى أقول لك ما تتجوزيش ؟ ··

قالت : أيوه ·· أنا باكرهك لما بتقول لى اتجوزى ·· باحس انك عايز تخلص منى ··

قال : أنا مش عايزك تتجوزى ·· انما ما اقدرش أقول لك ما تتجوزيش ··

قالت فى حدة :

ـ طبعا ·· لأنك مش عايز تتحمل مسئوليتى ··

قال فى أسى :

ـ علشان حاتكرهينى لو ما اتجوزتيش ·· وحا تكرهينى لو اتجوزتك ·· يبقى ما فيش الا انك تتجوزى عصام ··

قالت وهى تنظر اليه كأنها تنشب عينيها فى عنقه

ـ قصدك ايه ؟ ·· قول لى بصراحة ؟ ·· عايزنى أتجوز ليه ؟ · علشان أبقى زيك ؟ ·· مش كده ! ؟ ··

قال : لأن الناس عايزاكى تتجوزى ·· المجتمع ·· أهلك التقاليد ··

قالت : أنا ما يهمنيش الناس

قال : يهموكى ·· ولو حرمتك من الناس حا تكرهينى

وانبثقت الدموع من عينيها ، وصرخت ، وصراخها همس محشرج :

ـ أنا باكرهك ·· باكرهك ·· مش عايزة أشوف خلقتك خلاص ·· حرمت ·· حرمت ·· حرمت أحبك ··

ووقفت السيارة أمام بيتها ··

ونزلت والدموع فوق خديها ··

ودخلت الى البيت ·· وسارت الى غرفتها ·· وأختها فيفى قد نامت ·· ونبيلة جالسة تقرأ على ضوء مصباح صغير بجانب فراشها ، ورفعت رأسها من فوق الكتاب ، وقالت وهى تنظر فى وجه أختها : اتأخرتى كده ليه ؟ ··

وقالت ليلى وهى لا تنظر اليها : اتعشينا بره ··

وقالت نبيلة فى دهشة : انتى بتعيطى ؟ ··

وقالت ليلى وهى تجفف دموعها :

ـ أيوه ·· اصل عصام مصمم اننا نتجوز الجمعة الجاية ··

١١

فى صباح اليوم التالى بدأ عصام يلح على أفراد العائلة لتحديد موعد عقد القران ··

ذهب الى خال ليلى ، ونال موافقته على أن يعقد القران ، فى الأسبوع التالى ·· وقال الخال وهو يملأ فمه برنة الوقار :

ـ على كل حال ، ده من حقك يا ابنى ‥ وأنا مش شـايف داعى للتأجيل أكتر من كده ‥

ثم اتجه عصام الى بيت العائلة ، وعلى وجهه امارات الجد والتصميم ، كأنه مرشح فى انتخابات نيابية يطوف بدائرته ليجمع أصوات الناخبين ‥ واستقبلته الأم ، وفيفى ، ونبيلة ، بينما تلكأت ليلى فى غرفتها ‥ وقد شعرت أن مجيئه لزيارتهن فى الصـباح لا بد له سبب خاص

وتلقى عصام نظرات التساؤل من عيـونهن ، وقال للأم وهو يتعمد أن يتكلم فى صوت جاد حازم كأنه لا يريد أن يترك لهن حق معارضته :

ـ أنا جيت النهاردة يا طنط علشان نحدد ميعاد كتب الكتاب ‥ أنا لازم أسافر بعد عشرة أيام ‥ ومش معقول انى أسافر لوحدى وأسيب ليلى ‥ ثم أنا مش شايف أى داعى للتأجيل أكتر من كده .

وظلت الأم صامتة برهة ، وهى تنظر فى عينيـه كأنها تقيس مدى تصميمه ‥ ثم تلفتت الى ابنتيها كأنها تسألهما رأيهما ‥ ثم قالت وهى تتنهد : مش برضه أحسن تستنوا شوية يا عصام ؟

وقال عصام فى اصرار :

ـ نستنى ليه يا طنط ؟ ‥ ايه اللى حا نستناه ! ؟

وعادت الأم تتنهد ‥ ومرت بوجهها سحابة حزينة كأنها لم تكن تتوقع أن تواجه فراق ابنتها هكذا سريعا ، وقالت فى ضعف :

ـ بس ده لسه ما فاتش شهرين على المرحوم ‥ وكان نفسى يوم ما تتجوز ليلى انى افرح بيها ، دى أول بنت من بناتى تتجوز ‥ و ‥

وقالت نبيلة كأنها تعلن رأيها :

ـ حد يعمل فرح اليومين دول يا ماما ؟ ‥

وقالت فيفى :

ـ حتى لو اتجوزوا بعد سنة ٠٠ ما حدش فينا حا يقبل يعمل فرح ٠٠ مش ممكن يتعمل فرح ما يحضروش ممدوح ٠٠

وألقت الأم رأسها على صدرها ، كأنها تهم بالبكاء على ممدوح ثم رفعت رأسها وقالت لعصام : وليلى رأيها ايه ؟ ٠٠

وقال عصام : ليلى بتعارض ٠٠ انما لو وافقتم انتم ، ضرورى حا توافق ٠٠ هيه مش قادرة تتصور انهـا تتجوز قبل ما تفوت السنة ٠٠ محتاجة لتشجيع ٠٠ تشجيعكم ٠٠

وقالت الأم : بس عشرة أيام شوية قوى يا عصام بيه ٠

وأحست وهى تنطق بلفظ « بيه » أنها تساوم تاجرا ، تبيع له ابنتها ٠٠

وقال عصام وهو يبتسـم : أبدا ٠٠ احنـا نكتب الكتاب يوم السبت الجاى ٠٠ ونسافر يوم الاتنين ٠٠

وقالت الأم كأنها تصرخ : مش ممكن ٠٠ مش ممكن ٠٠

وأطلت ليلى من الباب ووجهها معقد ، وصدرها يتهدج ٠٠

وقالت الأم كأنها تتوسل الى عصام دون أن تلتفت الى ليلى

ـ ده بدرى قوى علشان ليلى تعمل فسـاتينها اللى حاتسافر بيهـا ٠٠

وقال عصام : ما احنا حانشترى كل حاجة من بره ٠٠ نشترى الفساتين من باريس ٠٠ و ٠٠

وقالت ليلى تقاطعه :

ـ مش مسألة فساتين ٠٠ أنا ما اقدرش اتجوز دلوقت ٠٠

وسكت عصام برهة ، ثم قال فى صـوت خفيض ، وهو يرفع حاجبيه الى ليلى ، كأنه يهددها :

ـ أنا لازم أسافر بعد عشرة أيام ٠٠ عندى شغل فى ألمانيا ٠٠ ومش معقول انى أسافر لوحدى ٠٠ مش معقول ٠٠

وقالت نبيلة وهى تبتسم الى أختهـا ، كأنها تحاول أن تخفف

من وقع اللهجة التهديدية التى تكلم بها عصام

ـ انتى بتدلعى يا ليلى ·· حد يقدر يجهز من باريس ، زيسذنى لما يجهز من مصر ؟ ··

وقالت الأم كأنها تتراجع :

ـ صحيح يا ليلى ·· عصام عنده حق ·· بس المهم اننا نشوف حا نعمل ايه ·· برضه لازم نفكر ·· حا تقعدوا ازاى ؟ ··

وقال عصام فى غرور :

ـ أنا عملت حساب كل حاجة ·· شفت تلات شقق فى الزمالك ·· نقدر نقوم دلوقت أنا وليلى علشان نتفرج عليهم ، والشقة اللى تعجبها نأجرها حالا ، ونسيبها لبنترمولى يفرشها على بال ما نرجع·

ونظرت ليلى اليه فى غيظ ، كأنها تتهمه بأنه كان يخدعها ··

وقالت من خلال غيظها : يعنى حضرتك كنت بتدور على شقق من ورايا ؟ ·· مش كده !! ··

وقال عصام : أبدا ·· ده السكرتير بتاع بابا هوه اللى دور عليهم ·· ثم ابتلع ريقه ، واستطرد قائلا وقد خفت لهجته :

ـ أنا حاسس اننا بنبعد عن بعض يا ليلى ·· وكل ما نأجل جوازنا أكتر ، بنبعد عن بعض أكتر ، أنا متأكد انك مش حاتندمى·

وقالت فيفى وهى تنظر الى ليلى فى سخط :

ـ انتى بتدللى على ايه ؟ ·· ما انتم بتخرجوا مع بعض كل يوم ·· بتروحوا سينما مع بعض ، وبترقصوا مع بعض ، يبقى ما تتجوزوش ليه ؟ ··

وقالت ليلى فى حدة : أنا ما رقصتش مع حد ··

وقالت فيفى : ابقى ارقصى ··

وقالت الأم : اسكتى انتى يا فيفى ·· ثم التفتت الى عصام قائلة كأنها تبحث عن حجة جديدة :

ـ على كل حال يا عصام ·· لازم آخد رأى أخويا ··

وقال عصام بسرعة :

– عزت بيه موافق .. أنا لسه جاى من عنده دلوقت .. !

واشتد الغيظ فى عينى ليلى ..

وابتسمت الأم ابتسامة ضعيفة ، وقالت :

– خلاص .. ما دام أخويا موافق ، أنا موافقة ..

ثم التفتت الى ليلى قائلة :

– بس لازم تحضرى حاجتك من دلوقت .. تبتدى تشترى من النهاردة ..

وسكتت ليلى فترة ثم قالت كأنها أعلنت الثورة :

– حاضر .. حا اتجوز .. حا اقف فى يوم فرحى بفستان أسود .

وقال عصام فى براءة : ما اتفقنا انك حاتلبسى فستان رمادى .

وقالت الأم فى حزم ، كأنها اتخذت قرارا خطيرا بعد أن غالبت عواطفها : لا .. حا تلبسى فستان أبيض .. فستان عروسة ..

وسكت الجميع ، كأنهم فوجئوا بهذا القرار .. ثم قالت ليلى

– ازاى بقى يا ماما ؟ ..

وقالت الأم وهى لا تزال منتشية بحزمها ، ولا تزال تقاوم عواطفها : كده .. ما فيش عروسة تتجوز بفستان رمادى .. حا تلبسى فستان وطرحة زى كل العرايس ..

ثم قامت الأم بسرعة ، وخرجت من الغرفة فى خطوات سريعة كأنها تجرى لتبحث عن دموعها ..

ومرت لحظة صمت ، ثم قالت نبيلة وهى تبتسم كأنها تحاول أن تمسح الصمت :

– وحاتسافروا على باريس على طول يا عصام ؟ ..

وقال عصام وهو يبادلها الابتسام :

ــ لا ·· حانطلع على برلين الأول ، ومن هناك على باريس ·· و ··

وفجأة قامت ليلى من مكانها منتفضة ، وخطت نحو البيانو ، وفتحته بسرعة ، وجلست أمامه وأخذت تعزف لحنا عنيفا صاخبا ·

وساد وجوم ، مزقته فيفى صارخة : ليلى ··

وتوقفت ليلى عن العزف واستدارت الى أختها والثورة تلمع فى عينيها ، وقالت فى حدة :

ــ ايه ·· مش خلاص بقيت عروسة ·· عايزانى أبقى عروسة ولا اضربش بيانو ·· ؟ اشمعنى البيانو اللى انتم متشطرين عليه · من هنا ورايح حا اضرب بيانو ·· وحا افتح الراديو ·· وحارقص ·· وحا البس ملون ·· ما حدش شريكى ··

ثم استدارت الى البيانو وعادت تعزف عليه ·· وصرخت فيفى : انتى اتجننتى ؟ ·· أكيد اتجننتى ·· ! ؟

ثم قامت وخرجت من الغرفة ، وهى تضرب الأرض بقدميها ·

وبقيت نبيلة وعصام صامتين ·· وليلى مستمرة فى العزف على البيانو ··

وقام عصام فى هدوء ، ووقف وراء ليلى ، ووضع كفيه فوق كتفيها ·· ثم انحنى وقبلها فوق رأسها ، وقال :

ــ أنا حا افوت عليكى الساعة خمسة ·· علشان نروح نتفرج على الشقق ! ·· ولم ترد عليه ليلى ·· استمرت تعزف فى عنف ، بكل أعصابها ·· بكل حدتها ·· بكل غيظها ··

وخرج عصام ، بعد أن حيا نبيلة بابتسامة صامتة ··

وظلت نبيلة ترقب أختها وهى تعزف على البيانو ·· كأنها تحاول أن تصل بعينيها الى قلبها ·· ثم قالت كأن شيئا لم يحدث ·

ــ أما أنا شفت حتة فستان عروسة فى مجلة ، انما جنان ·· أما أقوم أوريه لك ··

ثم قامت وخرجت من الغرفة ، وسارت الى غرفتها ، وضجيج البيانو يملأ البيت من حولها ، كأنه هزات عنيفة تحاول أن تهدمه على من فيه ..

ودخلت غرفتها ، واستقبلتها فيفى قائلة .

– قولى لليلى اذا ما كانتش حا تبطل بيانو .. أنا حا اعرف ازاى أبطلها .. حا جى أقطع اديها دول .. دى زمان ماما نلوشت نازلة عياط فى أودتها ..

وقالت نبيلة : طيب اسكتى ، اعملى معروف

ثم التقطت مجلة فرنسية من مجلات الأزياء ، وعادت الى أختها ليلى فى حجرة الصالون .. واللحن الصاخب يملأ البيت ..

واقتربت منها ، وفتحت المجلة أمامها ، وقالت وهى تبتسم :

– شوفى الفستان ده حلو ازاى ، أنا تعجبنى دايما الطرحة القصيرة ..

ونظرت ليلى الى الثوب المرسوم فى المجلة .. ثوب العرس .. ثم كفت فجأة عن العزف ، وأمسكت المجلة بكلتا يديها ، وظلت تنظر فيها برهة .. ثم ألقتها من يديها ، وألقت رأسها على صدر أختها المنتصب أمامها ..

وقالت والدموع تنهمر من عينيها :

– مش عايزة أتجوز يا بلبل .. مش عايزة ..

واحتضنت نبيلة أختها ، وضمتها الى صدرها ، وقالت وهى ترسم ابتسامة كبيرة على شفتيها :

– طيب ما تعيطيش .. اتجوز أنا بدالك ..

وثوب الزفاف المرسوم فى المجلة ، ملقى على الأرض تحت أقدامهما ..

وعاد أحمد الى البيت ، وهو بالقميص والبنطلون ، يسير فى خطوات بطيئة كأنه بطل فيلم من أفلام رعاة البقر . وابتسامته

الساخرة تطل على جانب من شفتيه ، ونظرة ملولة كسولة تطل من عينيه ··

وأطل على أخواته البنات دون أن يلحظ شيئا من القرار الذى اتخذ فى هذا الصباح ، ثم دخل غرفة أمه ، فاستقبلته بابتسامة ضعيفة باهتة ، وانحنى يقبل يدها ويرفعها الى جبينه فى حركة روتينية ، يؤديها بحكم العادة ، أكثر مما يؤديها باحساسه ··

وقالت له أمه : اقعد يا أحمد ·· أنا عايزاك ··

وجلس على الشيزلونج المواجه لمقعدها ، وهو يقول : خير

قالت وهى تحاول أن تحتفظ بابتسامتها :

ـ عصام عايز يكتب الكتاب ، يوم السبت ·· ويسافر هو وليلى على طول ··

وارتفعت تعابير الاهتمام على وجه أحمد برهة ، وبدا كأنه يهم أن يفكر ·· ثم كأنه تذكر أنه قرر بينه وبين نفسه ألا يفكر ·· وأن يتخذ قراراته بلا تفكير ·· وقال :

ـ وما له ·· زمان ليلى فرحانة اللى حاتسافر أوربا ·· حقى أنا كمان أتجوز وأسافر ··

وقالت الأم دون أن تأبه بتعليقه : يعنى موافق ؟ ··

قال أحمد فى بساطة : طبعا ·· ما أوافقش ليه ؟ ··

وسكتت الأم وعلى وجهها سحابة من اليأس ، كأن أملها قد خاب فى ابنها ·· كأنها كانت تنتظر منه أن يعارض ، وأن يصر على تأجيل زفاف أخته ·· ثم عادت تقول وهى تتنهد ، كأنها تحاول أن تذكر أحمد بشىء غاب عن باله :

ـ طبعا مش حا نعمل فرح ولا حاجة ؟ ··

وقال أحمد فى برود : أحسن ·· ما فيش لازمة ··

وقالت الأم وقد اشتد يأسها :

ـ طيب يا حبيبتى ·· أنا بس كنت عايزة آخد رأيك ! ··

وسكت أحمد قليلا ، ثم قال وهو يرخى عينيه عن أمه ، وينظر بين يديه : بس فيه حاجة ..

وقالت الأم كأن أملها بدأ يعاودها : ايه ؟ ..

قال : جواز ليلى ما يمنعش انى أشترى العربية .. أنا خلاص اتفقت عليها .. عربية تاونس صغيرة .. ثمنها تسعمية جنيه .

وعادت الخيبة تكسو وجه الأم ، وقالت :

ــ بس مش لما نخلص من حاجات ليلى .. دى لازم تفصل فساتين .. وتشترى لينو .. وانت واخواتك لازم كل واحد فيكم يشترى لها هدية .. يعنى قدامنا مصاريف كتير يا أحمد ..

وقال أحمد بلا حماس :

ــ ما هو اللى حا نصرفه فى شهرين ، نصرفه فى جمعة .. وأنا ما اتفقتش على العربية الا بعد ما سألتك .. ده أنا حتى ابتديت أتعلم السواقة ..

وقالت الأم فى توسل :

ــ يعنى ما تقدرش تأجلها لغاية ليلى ما تسافر ؟ ..

وقال أحمد كأنه زهق من طول المناقشة :

ــ ونأجلها ليه يا ماما ؟ .. اذا كنا حانشتريها بعد شهر .. ما نشتريهاش دلوقت ليه ؟ .. وعلشان كمان ليلى تفرح بيها معانا قبل ما تسافر ..

وصمتت الأم وهى تضغط احدى شفتيها على الأخرى ، كأنها تقاوم زوبعة فى صدرها تخاف ان أطلقتها أن تقتل بها أحمد ، كما قتلت ممدوح .. ثم قالت فى هدوء مفتعل :

ــ طيب يا حبيبى .. زى ما انت عايز .. بكره أنزل أجيب لك الفلوس من البنك .. ياللا الغدا ..

ثم أطل فى غرفة البنات ، وقال لليلى : مبروك يا عروسة .. ولم ترد عليه ليلى .. ولا نبيلة .. ولا فيفى ..



واندفعت ليـلى فى أيام مزدحمة ·· مزدحمة بالطواف على المحال التجارية ، وعلى صانعات الثياب ، وتجار الأثاث ·· و ·· و ·· وهى تحاول دائما أن تزيد من زحام أيامها ·· لا تريد أن تهدأ ، لا تريد أن تخلو بنفسها دقيقة واحدة لتفكر فى حالها ·· انها تقوم من سريرها فى الساعة الثامنة صباحا وتخرج لتشترى ·· وتظل تشترى حتى الساعة السادسة مساء ·· تشترى بجنون ·· دون أن تدقق فى اختيارها ·· فقط تشترى ·· كأنها تنتقم ·· كأنها تؤدب أهلها ، وتؤدب عصام ·· وأختاها وأمها معهمـا ، يحاولن أن يوقفن اندفاعها ·· ولكنهـا تصمم ، وتضرب الأرض بقدمها ·· ما حدش شريكى ·· أنا عايزة كده ·· أنا مش حا اتجوز كل يوم ·· وتشترى ·· وتعود آخر النهـار الى بيتهـا لتستقبل صانعات الثياب ، وتدعو صديقاتها ليشاهدن ما اشترته ·· وتضحك كأنها تصرخ ·· وتبتسم كأنها تتألم ·· وتتكلم كأنها تتشاجر ·· وتمشى كأنها تضرب الدنيا بالشلوت ··

انها تهرب ··

تهرب من مستقبلها مع عصام ··

وتهرب من ماضيها مع فتحى ··

ولا تطيق يومها ··

وهى تحسب أيامها يوما بيوم ·· يوم لا تحادث فيه فتحى ، ويوم يقربها من عصام ·· وأحيانا تحاول أن توقف سير هـذه الأيام ·· تخطر على بالها أفكار مجنونة ·· لماذا لا تهرب من كل ذلك ؟ ·· من البيت ·· ومن الزواج ·· ومن المستقبل ·· لماذا لا تنتحر ؟ ·· تقتل نفسها ·· ولكنها لم تعد تستطيع أن تهرب ولا أن تقتل نفسها ·· وهى مندفعة مع أيامها ·· تشترى ·· وتشترى ·· لعل زحام الشراء يلهيها عن نفسها ·· وتمر بها لحظات سريعة تحس بنفسها ملهوفة على فتحى ·· انها تتلهف عليه كلما أعجبتها

قطعة قماش ٠٠ وكلما وقفت بقميص النوم تقيس ثوبا جديدا ٠٠ وكلما وجدت نفسها وحدها ٠٠ وتكاد تهم بأن تحادثه فى التليفون ٠٠ ولكن لا ٠٠ يجب أن تقاوم ٠٠ مهما تعذبت ستقاوم ٠٠ ستبنى لنفسها حياة جديدة ٠٠ بيتا جديدا ٠٠ ورجلا جديدا ٠٠ وكل ما ينقصها وتقاوم فى انتظاره قلب جديد ٠٠

وجاء يوم السبت ٠٠ يوم عقد القران ٠٠

وتوافد أفراد العائلتين على البيت ٠٠ وعصام يرتدى بدلة « سموكنج » صيفى ٠٠ الجاكتة بيضاء ٠٠ وقد ازداد لمعان كل شىء فيه ٠٠ ازداد لمعان شعره ٠٠ ولمعان وجنتيه ٠٠ ولمعان شفتيه ٠٠ ولمعان حذائه ٠ ٠وأهله معه فى ثياب ملونة ٠٠ وأحمد يستقبلهم وقد اضطر أن يرتدى بدلته كاملة ، وعلى صدره رباط عنق أسود ، يحاول أن يتجاهله ٠٠ والخال جالس منتفخ الأوداج ، وكرشه فوق ساقيه ، يحاول أن يبدو بكامل هيبته ، كأنه يقنع الجميع بأنه لا يزال وكيل الوزارة ٠٠ وبجانبه صديقه عبد السلام ٠٠ يحس أن ليس له مكان فى الحفل ٠٠ ليست له صفة ٠٠ وينظر الى عنايات نظرات مختلسة كأنه يذكرها بما ضاع منهما ٠٠ وعنايات فى ثوبها الأسود ٠٠ وقد رفعت عن رأسها الطرحة السوداء ، وتركت شعرها الأصفر مكشوفا ليخفف من سواد الثوب ٠٠ صامتة ٠٠ تبتسم ابتسامة ضعيفة تكاد تموت على شفتيها ٠٠ حائرة ، لا تدرى هل تفرح ، أم تزداد حزنا ٠٠

وليلى فى حجرتها ترتدى ثوب العرس ٠٠ ثوبا أبيض ٠٠ صدره من « الدانتيل جيبير » وأكمامه طويلة تنزل حتى تغطى أعلى كتفيها ٠٠ والنصف الأسفل من الثوب ، من الأورجانزا ٠٠ بليسيه ٠٠ انتثرت عليه ورود بيضاء صغيرة من « الجيبير » ٠٠ وتحته جيبون من التل ٠٠ وتحته جيبون آخر من التفتاه ٠٠ وفوق رأسها وردتان كبيرتان من « الجيبير » تتدلى منهما طرحة من التل ٠٠

قصيرة ·· ثلاثة أدوار ·· كأنها تؤكد طهر العروس ثلاث مرات ·· وشعرها الأصفر يلمع من خلال طرحتها كأنه يفضح سرها ·· كأنه الذهب يطل من خزانة الطهر ·· وفى جيدها « بلاكا » من الماس ·· وفى أصبعها خاتم كبير من الماس أيضا ·· وفى أذنها حلق طويل من الماس ·· ودبلة خطوبتها ·· تحمل اسم فتحى ·· اسم حبها ·· لا اسم زوجها ··

وبجانبها فيفى ونبيلة فى ثياب سوداء ·· ثياب الحداد ·· وظل الثوب الأسود ينعكس على الثوب الأبيض ··

وبجانبها أيضا ·· مرفت ابنة خالها ، وأختا عصام ·· وكلهن يتحدثن ·· وكلهن يقترحن ·· وليلى لا تسمع لهن حديثا ولا اقتراحا ·· ان كل ما تسمعه هو صدى جمالها فى المرآة ··

انها جميلة ··

انها أجمل مما كانت تعتقد ··

وأحست بنشوة وهى تنظر الى نفسها فى ثوب العرس ·· أحبت نفسها ·· وأحبت الثوب ·· وداخلها احساس عجيب بالقوة ·· انها قوية ·· قوية ·· قوية بجمالها ·· انها أقوى من عصام ·· انه لا يستحق كل هذا الجمال ·· ليس فى الدنيا رجل يستحق كل هذا الجمال ·· انما هى تعطيه تفضلا ·· تتفضل به على من تريد ·· وخيال فتحى ينطلق فى خيالها ·· انها أقوى أيضا من فتحى ·· انها تستطيع أن تفعل به ما تريد ·· وهى تريده أن يراها وهى بهذه القوة ·· وهى بهذا الجمال ··

واشتدت نشوتها ، حتى أصبحت نوعا من الغرور ·· انها تنظر الى البنات اللاتى اجتمعن حولها كأنهن أصغر منها ·· حتى أختاها فيفى ، ونبيلة ، أصغر منها ·· وهى أقوى منهن ·· وأجمل ·· وأكثر خبرة بالحياة ·· انها تخطو سريعا لتخرج من عالم البنات ·· انها ترتدى ثوب الخروج ·· الخروج الى العالم الجديد

·· عالم لا تستطيع أن تدخله بنت الا اذا ارتدت هذا الثوب ··
وهى تحادثهن كأنهن بنات صغار ·· وتبتسم لهن كأنها تشفق
عليهن ·· وتتدلل عليهن كأنها سيدتهن ·· والبنات ينظرن اليها
وقد اختلط الحسد والأمل فى عيونهن ·· واختلط النفاق والصدق
فوق ألسنتهن ·· وفيفى تنظر اليها وفى عينيها شهقة ، كأنها تنظر
الى أسطورة ·· الى شيء لا يمكن أن يكون واقعيا ·· لأنه لا يمكن
أن يكون واقعها ·· ونبيلة تحيط أختها بالحنان والفرحة ·· وفى
فرحتها سحابة من الحزن ·· كأنها لا تكاد تفرح لأختها ، حتى
تحزن على نفسها ··

وأتمت زينتها ··

وخرجت من غرفتها ، تتقدم ، وبريق الماس يزفها ، وطرحتها البيضاء ترف حول وجهها ، وتتأرجح خلف رأسها كأنها جناح ملاك ·· وخطواتها ثابتة ·· ليس فيها خجل ، ولا ارتباك ·· ولكن فيها احساس بالقوة ، وبالثقة ، وبالاستهتار ··

وهى تنظر فى كل خطوة الى ثوبها ، تمد يدها وتفرد ذيله فوق الجيبون ·· وترفع يدها وتثبت « البلانكا » الماس فوق صدرها ·· وتمد أصابعها وتطمئن على موضع خصلات شعرها ·· وأختها نبيلة تجرى وراءها ·· تفرد ذيل الثوب حينا ·· وتساوى كتفيه حينا ·· و ·· استنى شوية يا ليلى ، أما اعدل لك الفستان ·· حاسبى الحلق معووج ··

ودخلت الى الجمع الذى ينتظرها ·

ووقفوا لها ، وعيونهم مبهورة ·

يا رب ·· كل هذا الجمال ··

حتى أمها وقفت لها ·· وقفت للجمال ··

وساد الصمت الا من تمتمات التهنئة وهى تصافحهن واحدا واحدا ، ثم اقترب منها عصام وقبلها فوق وجنتيها ·· فارتفعت

ضحكات فارغة ٠٠ وتعليقات مفتعلة ٠٠ كأن كل واحد يدارى ما فى صدره تحت ضحكته ٠٠

وجلست ليلى بجانب عصام

وأمها مطأطئة الرأس لا تريد أن تنظر اليها ، كأنها لن تستطيع أن تحبس دموعها اذا نظرت اليها ٠

وأم عصام تحدق فيها ٠٠ وعلى شفتيها ضحكة لا تنعكس فى عينيها ٠٠ كأنها مغتاظة لأنها لا تجد فيها عيبا ٠٠

وفيفى تنظر اليهـا ، والضعف يكسو وجههـا ٠٠ انها تحس بضعفهـا الآن أكثر مما أحسـست به فى أى وقت آخـر ٠٠ تحس بعقدتها ٠٠ انها ليست جميلة كأختهـا ٠٠ ولذلك فأختهـا تتزوج قبلها ٠٠ وسرح خيالها الى الأستاذ أمين عبد السيد ٠٠ ترى هل لا يزال يريدها حتى الآن ؟ ٠٠ ترى هل يقبل أن يعود اليها ؟ ٠٠ لماذا لم تتزوجه وتنته ، قبل أن تعرض نفسها لهـذا الموقف ؟ ٠٠ لماذا ؟ ٠٠ لماذا ؟ ٠٠ والحيرة تستبد بها ٠٠ كأن الحيرة تعصرها ، ثم يلوح لها من خلال حيرتها شعاع من التصميم ٠٠ نعم ستتزوج أمين عبد السيد ٠٠ وستلبس الثوب الذى ترتديه أختها ٠٠ وتسافر لتقضى هى الأخرى شهر العسل ٠٠ لماذا تحرم نفسها من العسل ؟ ٠ لماذا ؟ ٠٠ لماذا ؟ ٠٠

ونبيلة تنظر الى أختها ، وتتصور نفسها فى ثوبها ، وبجانبها محمود ٠٠ ولكنها غاضبة من محمود ٠٠ انها لن تتزوجه حتى لو سجد تحت قدميها ٠٠ انه فلاح ، وقد عرفت حياة الفـلاحين ٠٠ حياته فى قريته ٠٠ وهى لن تستطيع أن تعيش هذه الحياة ٠٠ لقد كان محمود على حق عندما حذرها من خيالها ٠٠ ولكن هل تستطيع أن تستغنى عن محمود ؟ ٠٠ هل كرهته فعلا ؟ ٠٠ لا ٠٠ انه فى قلبها ٠٠ انها تحبه ٠٠ والمعركة ليست معركة حب ولكنها معركة بين القرية والمدينة ٠٠ المدينة تريد أن تشد القرية اليها ٠٠ والقرية

تحاول أن تشد المدينة ·· ومحمود حائر بينهما ·· انه حائر ·· مسكين ·· ويجب أن تساعده ·· أن تشده اليها ·· الى المدينة ··

وأحمد ينظر الى أخته فى اعجاب ·· لم يكن قد لاحظ من قبل أنها بكل هذا الجمال ·· انها أجمل من كل بنات النادى ·· أجمل من شهيرة ·· ومن جرمين ·· لماذا لا يجد فتاة لنفسه جميلة كأخته ؟ والتفت الى عصام وأحس أنه يكرهه ·· نعم ، يكرهه ·· انه لا يستحق ليلى ·· انه يسلب من البيت أجمل ما فيه ·· يسلب شقيقته ·· بأى حق ؟ ·· ولماذا يجب أن تتزوج ليلى ؟ ·· ولماذا تتزوج هذا الانسان بالذات ؟ ·· وبدأ يحس بالملل من كل هذا الذى يجرى حوله ·· الملل من أحاسيسه الشاذة التى لا يستطيع أن يواجهها ، ولا أن يعترف بها ·· انه يريد أن يخرج من هنا ، ويذهب الى بار ·· ويسكر ·· لماذا يسكر ؟ ·· لينسى ·· ينسى ماذا ·· لا يدرى ·· لا يدرى ·· فقط يريد أن يسكر ·· يريد أن يشرب كثيرا من الخمر ··

والخال يوزع أهميته على كل الحاضرين ، ويصر على أن يبدو كرب العائلة ·· لا عائلته وحدها ·· بل العائلتين ·· ثم قال وهو يقهقه ·· ما تخلوا الأستاذ يتفضل بقى ·· احنا مستنيين ايه ؟ ··

ودخل الأستاذ الذى كان منتظرا فى الصالة الخارجية ·· المأذون وتحت ابطه أوراق فى دوسيه أسود ··

واقشعرت ليلى ·· لماذا يبدو هذا الرجل بكل هذه القتمة ؟ · كيف يستطيع هذا القاتم الحزين أن يعقد فرحة اثنين ؟ ·· أن يفتح بابا للسعادة ، لماذا لا يضحك ؟ لماذا لا يغنى ؟ لماذا لا يرقص ؟ ··

وصاح الرجل فى صوت غليظ : السلام عليكم ··

ورد تحيته الرجال وحدهم ، كأنه لا يستحق تحية امرأة ··

وجلس ·· وجىء له بمائدة صغيرة ، وضعوها أمامه ، ونثر فوقها أوراقه وهو يقول فى صوته الغليظ : توكلنا على الله ··

وبدأت كتابة العقد ..

وانتقل عصام وجلس بجانب الخال ـ وكيل العروس ـ وانتبهت أمنا ليلى الى ما يلقنه لهما المأذون من كلام ، كأنها تخشى أن يتفقا على شيء لا تدريه ..

رمرت بها القشعريرة مرة أخرى ، وهى تسمع خالها يسنحها لعصام ..

واهتزت طرحتها البيضاء خلف رأسها كأنها تحاول أن تفر .. وشعرت بثوبها الأبيض كأنه بيت من الثلج ..

وتمت صيغة العقد ..

ومرت لحظة وجوم ورهبة ..

ثم ارتفعت الصيحات .. مبروك .. عقبال البكارى .. عقبال عندك يا حبيبتى .. عقبال مرفت وسعاد .. و .. وليلى لا تحس بفرحة .. تحس فقط أن كل هذا من أجلها .. وأنهـا جميلة .. وأنها تستطيع أن تفعل كل شيء .. أن تتحدى .. و .. وتحس أنها تحب فتحى .. ان فتحى كان معها منذ دخل المأذون كأنها كانت تستدعى حبيبها لينقذها ..

وانهالت عليها القبلات .. قبلات لا تحس بها .. ثم تذكرت فجأة أمها .. فقامت اليها ، وانحنت عليها تقبلها .. وضمتها الأم الى صدرها .. وعيناها غارقتان فى غلالة من الدموع ..

ثم جاء اليها عصام .. وقبلها .. وانطلقت قبلته فى أعصابها كصاروخ من الريح البارد ..

وصاحت أم عصام :

ـ حقك يا ليلى تضربى لنا شوية بيانو ..

وتحركت قدم ليلى كأنها تهم أن تتجه فعلا الى البيانو .. ثم توقفت .. ونظرت الى حماتها شذرا .. بأى حق تطلب منها أن تعزف على البيانو ؟ .. هل نسيت ؟ .. أم تتناسى ؟ .. أم تعتقد

اِن زواجها بابنها يستطيع أن يعوضها عن أخيها ؟ ·· عن ممدوح ·· وأحست ليلى بالثورة تجتاحها ·· وتريد أن تطلق ثورتها فى وجه حماتها ·· ولم تكن ثورة مختلطة باحساسها بممدوح ·· بل كانت ثورتها مختلطة باعتزازها بعائلتها ·· ان عائلتها وحدها هى التى من حقها أن تملى تقاليدها ·· لو أن أمها أو أختها هى التى طلبت منها أن تعزف على البيانو ، لعزفت ·· ولما تذكرت ساعتها ممدوح ·· ولكن حماتها هى التى تطلب منها ·· العائلة الأخرى ·

وتشبثت بكرامتها العائلية ، ونظرت الى حماتها نظرة استنكار ولم ترد عليها ·· عادت وجلست مكانها ··

وساد الصمت فترة ··

كان الجميع قد أحسوا بثورة ليلى ، وأيدوها فى ثورتها ··

وأحنت عنايات هانم رأسها ، كأنها أهينت ، وتحاول أن تبتلع اهانتها ··

واتجهت نظرات نبيلة وفيفى الى حماة أختهم ·· نظرات كلها لوم ، وعتاب ، وسخط ، وتحد ··

وفجأة فردت الحماة كفها على أعلا شفتيها ، وأطلقت زغرودة ·· زغرودة حادة ، ترددت وسط الصمت كصراخ امرأة تولول ··

ثم قالت بعد أن انتهت زغرودتها ، وهى تنظر فى وجوه من حولها فى تحد :

– يا ختى ولو زغرودة واحدة علشان خاطر عصام ··

وظلت عنايات هانم منكسة الرأس ··

وارتفعت ابتسامات باردة فوق بعض الشفاه ·· نفاقا للحماة ·

وعادت الحماة تقول : اسمعى يا ليلى ·· اتشطرى بقى وهاتى لنا ولد ·· بس يكون زى عصام ··

ولم ترد ليلى ··

وقال عصام كأنه يخفف من سماجة أمه :

ـ أنا عايز بنت وتكون شبه أمها ..
وعادت الحماة تقول فى اصرار :
ـ الولد الأول باذن الله .. وبعدين البنت ..
وترددت بعض ضحكات خافتة تحيى الحماة ..
وليلى ساكتة .. تكتم غيظها خلف ابتسامة باردة ..
وقال الخال كأنه يحاول أن يبدد هذا الجو الثقيل الذى أثارته الحماة : انتوا حا تعملوا ايه بقى يا عصام ؟ ..
وقال عصام وهو يبالغ فى اظهار أدبه :
ـ حانروح مينا هاوس دلوقت .. نقعد فيها الليلة ، والليلة الجاية .. ونسافر يوم الاتنين باذن الله على برلين ..
وقال الخال وهو يطلق قهقهة عالية :
ـ ده شهر عسل عالى .. بس اعملوا حسابكم .. الغدا بكره عندى .. سامعة يا ليلى ..
وقالت ليلى وهى تبتسم لخالها فى ثقة كأنها سيدة الموقف
ـ باذن الله يا خالى ..
وانشغل المدعوون بالحديث ..
ومد عصام يده والتقط يد ليـلى ، وأمسك بالدبلة الذهبية وقال وابتسامته تسيح فوق شفتيه اللامعتين :
ـ مش تنقلى الدبلة بقى .. ؟ هاتى أنقلها لك ..
وارتجفت يد ليلى فى يده .. وارتعشت رموشها فوق عينيها .
انها ليست دبلته ..
انها دبلة فتحى ..

١٢

وثنت ليلى أصبعها ثنية خفيفة ، حتى لا يستطيع عصام أن يشد الدبلة منه ·· وقالت ووجهها يمتقع ورموشها ترتعش :

ـ استنى يا عصام ·· الخاتم ضيق على صباعى ! ·

ثم شدت يدها من يده ، وبللت أصبعها بشفتيها ·· ثم خلعت الخاتم الماسى الذى كانت تضعه فى أصبعها فوق الدبلة الذهبية ·· خلعته وهى تفتعل العنف كأن الخاتم يضيق على أصبعها فعلا ·· ثم بسرعة خلعت دبلتها من أصبعها ، ووضعتها على طرف الآخر ·· أصبع اليد اليسرى ·· ومدت يدها الى عصـــام ، وهى تبتسم له ابتسامة حاولت أن تضع فيها كل جمالها وكل اغرائها ·· وقلبهــا يرتجف ·· ينتفض من الرعب ··

وفى بساطة دفع عصام الدبلة الى نهاية أصبعها ·· ثم رفع يدها الى شفتيه وقبلها ·· ولم تتقزز ليلى من قبلته ·· بالعكس ·· أحست أنه يستحقها ·· يستحق أكثر منها ··

ومد عصام وجهه اليها ، وقبلهــا قبلة أخرى فوق خدها ·· وأسلمت له خدها ، فى راحة ·· واسترد وجهها لونه ·· ونهدة عميقة تملأ قلبهــا ·· نهدة الارتيـــاح ·· الســلامة ·· وأعقب احساسها بالراحة ، ابتسامة خبيثة حاولت أن تخفيها قبل أن ترتفع الى شفتيها ·· ما أطيبه من زوج ·· انه لن يفكر أبدا فى أن ينظر الى الاطار الداخلى لدبلتها ·· دبلة الزواج ·· ليقرأ الاسم ·· ربما لم يخطر على بال أى زوج من الأزواج أن يقرأ الاسم المكتوب على دبلة الزواج التى فى أصبع زوجته ·· ربمــا كان أعز مكان

تستطيع الزوجة أن تخفى فيه سرها ، هو دبلة زواجها ··
واجتاح ليلى احساس جارف بالثقة فى نفسها ·· انها قوية ·· انها ذكية ·· انها تستطيع أن تفعل ما تريد ·· وتلفتت حولها توزع ابتسامتها على كل الحاضرين ، وتستمع الى ضحكاتهم التى ارتفعت عندما قبلها عصام ·· وشدت ظهرها فى جلستها ، ومدت يدها تلمس طرحة الزفاف التى ترف حول وجهها كجناح ملاك ، كأنها تريد أن تطمئن الى أنها لا زالت عروسة ·· وانحنت عليها نبيلة قائلة : مش تقومى بقى علشان تروحوا مينا هاوس ؟ ·· الساعة بقت تسعة ؟ ··

وقالت ليلى فى برود : لسه بدرى ··

وقام عبد السلام واقفا ، وتقدم الى ليلى والتقط يدها ورفعها الى شفتيه قائلا : مبروك يا عروسة ·· عقبال البكارى ··

وابتسمت له ليلى ·· أول مرة تبتسم له من قلبها ، وقالت :

ـ انت نازل يا عمى ؟ ! ··

ـ كان لازم كلنا ننزل من زمان ، ونسيبك لعريسك ··

وصاح الخال : رايح فين يا عبد السلام ·· ما تقعد يا أخى ·

وقال عبد السلام ضاحكا : كفاية كده ·· أنا من رأيى كلنا ننزل ونسيب العروسة للعريس ··

ونظر اليه الخال كأنه يحسده على حريته ، ثم تلفت حواليه كأنه يسأل بقية المدعوين رأيهم ·· ولكنه عاد يقول وهو يضحك ضحكة مفتعلة : خلينا قاعدين ·· العروسة والعريس قدامهم ايام كتير ·· بكره يزهقوا من بعض ··

والتفت الى زوجته واستطرد قائلا : زى احنا ما زهقنا ··

وأطلق قهقهة عالية ، اهتز لها كرشه ··

وأحنت زوجته رأسها ، ثم التفتت الى جارتها تحدثها كأنها لم

تسمع ما قاله زوجها ‥ وردت عليه أم عصام كأنها تدافع عن كل الزوجات :

ــ ما لكش حق يا عزت بيه ‥ دى أنجى هانم عمرْ ما حد يزهق منها أبدا ‥ انما الرجالة كلهم كده ‥

ومد عصام يده ووضعها فوق يد ليلى ، وقال فى صوت خفيض كأنه يتنهد :

ــ أنا عمرى ما حازهق من عروستى ‥ ولا بعد مليون سنة ٠

وابتسمت له ليلى ابتسامة صامتة ‥

وظل عبد السلام واقفا برهة يتلفت حواليه ‥ ثم أخذ يصافح الحاضرين واحدا واحدا ‥ ثم خرج وعزت يصيح وراءه :

ــ استنانى فى سميراميس ‥ حاحصلك ! ‥

وقام والد عصام ، وقال وهو يلتفت الى زوجته :

ــ ياللا بينا احنا كمان ‥

وقالت زوجته كأنها ذعرت :

ــ احنا مش حانوصل عصام وعروسته لغاية مينا هاوس ؟ !٠

وقال الأب وهو يلوى شفتيه سخطا :

ــ يا شيخة ‥ سيبيهم يتهنوا ببعض ‥

وقالت الحماة وهى تبتسم ابتسامة صفراء :

ــ ما هو ما يصحش ننزل قبل ما أشوف العروسة وهى نازلة ‥ اقعد بس شوية ‥

وقالت عنايات هانم فى ضعف : ما ادحنا قاعدين يا جماعة ٠

وقالت الحماة كأنها لم تسمعها :

ــ اعمل حسابك يا عصام ‥ بكره الصبح حا نيجى كلنا نفطر معاكم فى مينا هاوس ‥

وهمست نبيلة فى أذن ليلى : قومى بقى يا ليلى ‥ انتم اتأخرتم قوى ‥

وقامت ليلى ·· وثوب العرس مفرود على قوامها ·· وطرحتها البيضاء تزغرد خلف رأسها ·· وبريق الماس يحيط بوجهها ·· وسارت فى ثقة ، وهى تنحنى فى كل خطوة لتساوى ثوبها فوق الجيبونات التى تختفى تحته ·· ودخلت فى الممر الذى يفصل بين الحجرات ، ونبيلة تسير خلفها ، فرحة بها ·· تتباهى بها ··

ووقفت ليلى فجأة أمام التليفون الموضوع فى الممر ، ورفعت السماعة بلا تردد ، وقالت وهى تدير الرقم :

ـ أما أكلم عيشة ·· أصلى باتفاءل بيها ·· الحقيقة كان لازم نعزمها ··

وأدارت رقم معهد الموسيقى الشرقى ··

ثم التفتت الى أختها ورنات جرس التليفون تتوالى فى أذنها وقالت : وحياتك يا بلبل ، تطلعى علبة البيجو من الدولاب ·· أحسن أنسى آخدها معايا ··

ونظرت اليها نبيلة نظرات تنضح بالشك ، ثم سبقتها الى غرفة أمها ··

وهمست ليلى فى سماعة التليفون ، وضجيج المدعوين يأتى من البهو ليغطى همساتها : الأستاذ فتحى من فضلك ··

وغاب المتحدث ·· ووقفت تنظر الى ثوبها ·· ثوب العرس ·· وتلمس طرحة زفافها ·· ومرت بها أخت عصام ، فابتسمت لها ابتسامة باردة ·· ثم سمعت صوت فتحى ، وقالت بسرعة دون أن تنتبه الى شهقته : روح اسهر الليلة فى مينا هاوس ··

وقال فتحى فى صوت مبهور : ليلى ·· انتى ··

وقاطعته قائلة فى همس :

ـ اسمع ·· وبكره الصبح خليك جنب التليفون ·· يمكن أقدر أكلمك ··

وعادت أخت عصام تمر بها وتنظر اليها ·· فرفعت ليلى صوتها

قائلة : باى باى بقى يا عيشة ٠٠ أصلى رايحة مينا هاوس دلوقت عقبال عندك ٠٠

ثم وضعت سماعة التليفون بسرعة ٠٠ كأنها تقذف بها فى وجه أخت عصام ٠٠

ووقفت برهة ٠٠

أحست كأن شيئا ثقيلا قد سقط على كتفيها ٠٠ أحست كأنها اندفعت أكثر من اللازم وراء غرورها وثقتها بنفسها ٠٠ لماذا حادثت فتحى ؟ ٠٠ وفى ليلة زفافها ؟ ٠٠ ما هذا الجنون ٠٠ لماذا لم تقاوم كما وعدت نفسها ؟ ٠٠ لماذا تربط مستقبلها بماضيها منذ اللحظة الأولى ؟ ٠٠ لماذا ؟ ٠٠ لماذا ؟ ٠٠ وبحثت فى نفسها عن شىء تبرر به اندفاعها ٠٠ ولم تجد الا أن تسخط على زواجها ٠٠ وعلى قدرها ٠٠ وزالت فرحتها بنفسها ٠٠ ونسيت ثوبها وطرحتها ٠٠ وهزت كتفيها كأنها تتحدى ٠٠ كأنها لا يهمها شىء ٠٠ لا يهمها أن يكون ثوبها جميلا ، ولا يهمها أن تكون طرحتها فوق رأسها ٠٠ وسارت تدق الأرض بقدميها كأنها تهدم شيئا جميلا خطر لها ٠٠ ودخلت غرفة أمها ٠٠ ووقفت أمام المرآة دون أن تلتفت الى أختها ٠٠ ونظرت الى نفسها طويلا ٠٠ وخيل اليها أنها فعلا ليست أنيقة ٠٠ فالخصر كان يجب أن يضيق أكثر ٠٠ و ٠٠ ومدت يدها الى طرحتها ، فصرخت فيها أختها :

ــ اوعى تشيلى الطرحة ٠٠ خليكى بيها لغاية ما تروحى اللوكاندة ، وتبقى تشيليها هناك ٠٠

وقالت ليلى فى زهق : متهيأ لى انها مش مظبوطة على راسى

وقالت نبيلة : لا ٠٠ مظبوطة ٠٠ خليها زى ما هى ٠٠

واقتربت منها أختها وأخذت تساوى لها ثوبها ، وتفرد أجنحة طرحتها خلف راسها ٠٠ وليلى تنظر الى المرآة بعينين ساهمتين ٠٠ وخيل اليها أن فتحى يطل عليها من المرآة ٠ ٠وابتسمت ابتساما

ضعيفة ·· وشدت ظهرها واعتدلت فى وقفتها ، كأنها تعرض كل قطعة منها على فتحى ·· ترى ماذا سيكون شعور فتحى عندما يراها فى ثوب عرسها ؟ ·· سيتألم ·· ربما ندم لأنه لم يحاول أن يتزوجها ؟ ·· ربما بكى من الغيظ ؟ ·· ربما جن وهجم عليها وخطفها من عريسها ·· وهى تريده أن يغتاظ ، وأن يتألم ، وأن يندم ، وأن يجن ·· تريد أن تبهره ·· وأقبلت من جديد تبرز جمالها وشدت كتفى الثوب لتكشف عن مساحة أكبر من صدرها ·· وأعادت صبغ شفتيها بالأحمر ·· ومرت بقلم الكحل حول عينيها ·

انها جميلة مرة أخرى ·· أجمل مما كانت ··

جميلة لفتحى ··

وهمت أن تخرج من الغرفة ، وصاحت وراءها نبيلة :

ـ استنى ·· خدى حطى كمان شوية بارفان ··

وسكبت قطرتين من عطر « أربيج » فوق أصبعها ، ومرت به خلف أذنيها ·· ونظرت اليها نبيلة كأنها تبحث عن شىء فى وجهه ·· ثم قالت لها فى صوت ثابت : ليلى ·· خليكى عاقلة ··

وابتسمت ليلى بلا مبالاة وقالت : أنا طول عمرى عاقلة ··

وامتلأت عينا نبيلة بالحنان ، واقتربت من أختها ، واحتضنتها فى رفق حتى لا تفسد ثوبها ، ثم قبلتها فوق خدها قبلة ناعمة وقالت وهى تبتسم :

ـ أنا عارفة انك طول عمرك عاقلة ·· بس عايزاكى تكونى أعقل كمان وكمان ··

وابتسمت ليلى ابتسامة خافتة وقالت : ماتخافيش

ثم اندفعت خارج الغرفة كأنها لم تعد تستطيع أن تواجه أختها أكثر من ذلك ·· ونبيلة وراءها تحمل لها علبة كبيرة من القطيفة الحمراء ·· علبة المجوهرات ··

ودخلت الى الجميع ·· وتطلعوا اليها فى شهقة ··

ولم تلتفت الى عصام ·· اتجهت مباشرة الى أمها ·· وانحنت عليها تقبلها ، تلصق خدها بخدها ، كأنها لا تريد أن تفترق عنها ·

وصاحت الحماة : انتم نازلين بقى ؟ ··

وقال عصام : أيوه يا ماما ··

وهمست الأم فى صوت تخنقه الدموع :

ـ مبروك يا حبيبتى ·· خدى بالك من نفسك ··

وطافت ليلى بالمدعوين تصافحهم ، وتمنحهم خدها ليقبلوها · وقبلتها حماتها قبلة صارخة ذات صوت عال ·· كأنها طرقعة مسدس صغير ·· والكل وقوف ·· والبنات قد قطعن أوراق الورد، وأخذن ينثرنها فوق العريس والعروس المتجهين الى الباب ·· وعلى وجه عصام تعبير أبله ، وابتسامة لزجة ·· وأحمد واقف فى ركن بعيد ينظر كأنه لا يستطيع أن يحدد موقفه ولا أن يحدد عواطفه ·· انه حائر لا يدرى هل يستسلم للفرح أم يستسلم لغيظه من عصام وكراهيته له ؟ ·· ثم خطا خطوة تلقائية نحو أخته وأمسك بها من كتفيها ، وضمها الى صدره فى عنف ، دون أن يراعى عدم افساد ثوبها ، وقال فى صوت حزين :

ـ مبروك يا ليلى ·· ألف مبروك ·· حاتوحشينى ··

ثم التفت الى عصام وقال فى حدة : خد بالك منها ··

ثم صافحه ، وتعمد أن يضغط على يده فى حرراة ، كأنه يدارى عنه غيظه منه ··

وفيفى تسير بجانب أختها صامتة ··

ونبيلة تنظر فى لهفة ، كأنها تخاف شيئا ··

وأوراق الورد تتناثر فوق العروسين ··

وبين شفتى ليلى ابتسامة واقفة ، كأنها جزء من زينتها ··

وصرخت الحماة والعروسان عند الباب :

ـ عصام ·· تعال أبوسك كمان يا حبيبى ··

وتعلقت فى عنقه ، وانهالت عليه تقبيلا ·· كأنها لاحظت أن أحدا لم يقبله ، فأرادت أن تعوضه بقبلاتها ·· وعصام يحاول أن يتخلص من ذراعيها الملتفتين حول عنقه ، وهو يبتسم ابتسامة مخنوقة ··

وخطا العروسان خارج الباب ··

وأوراق الورد تتناثر فوقهما ··

وصرخت نبيلة وراءهما :

ـ عصام ·· عصام ·· خد علبة البيجو ·· كنت حاتنساها ·

وأخذ عصام منها العلبة الحمراء ··

واختفى العروسان ··

وسقطت عنايات هانم فوق مقعد ووضعت رأسها بين يديها وأجهشت بالبكاء ··

ورأت فيفى أمها تبكى ، فجلست بجانبها وقالت فى صوت متقطع : جرى ايه يا ماما ·· وده وقت عياط ·· و ··

ولم تتمالك نفسها فبكت هى الأخرى ··

ووقفت نبيلة ترقب أمها وأختها تبكيان ·· فانزلقت دموعها ·· بكت أيضا ··

ونظرت الحماة الى الأم فى غيظ مستور ، ثم اقتربت منها ، وأخذت تربت على ظهرها قائلة : ايه يا عنايات هانم ؟ حد يعمل كده ! ··

وقالت عنايات وهى ترفع رأسها وتبتسم من خلال دموعها :

ـ بنتى ·· يا زينب هانم ·· حاتوحشنى ·· دى عمرها ما غابت عنى ليلة ·· !

وقالت زينب هانم : يعنى أنا عصام اللى مش حا يوحشنى ·· انت اللى بتغيظى من الفرحة ·· !

وتلفت أحمد حواليه ·· انه لا يزال حائرا مع نفسه ومع

عواطفه ·· وهو يحس بفوضى كبيرة حوله ، وفوضى كبيرة داخل نفسه ·· كأن عمودا من أعمدة البيت قد انهار ، وعمودا آخر انهار فى نفسه ·· وهو تعب ·· تعب من نفسه ·· وتعب من كل ما حوله ·· وفجأة ، ودون أن يلتفت الى أحد ، أو يصافح أحدا ·· اندفع خارج البيت ·· كأنه يهرب ··

والأم تبكى ··

وفيفى ونبيلة تبكيان ··

وقاد عصام سيارته فى طريق الهرم وبجانبه ليلى ·· فى ثوب عرسها وطرحتها فوق رأسها ·· جالسة فى نهاية المقعد ملتصقة بنافذة السيارة ·· تنظر أمامها ·· وتلتفت جينا الى الطريق فتصطدم بعيون تنظر اليها فى بهرة ·· وتعود تنظر الى الأمام ·· وعقلها سارح فى فتحى ·· هل هو الآن فى مينا هاوس جالس فى انتظارها ؟ ·· انتظارها هى وعريسها ؟ ! ··

وعصام يتحدث كثيرا ·· يعيد رواية ما حدث فى الحفل ·· ويضحك على النكت الساذجة التى ترددت خلاله ·· ثم يتحدث عن رحلتهما فى أوربا ، وعن الأماكن التى سيزورانها ·· ثم مد يده ، والتقط يد ليلى ، وضغط عليها ، وقال وهو ينظر اليها :

ـ أنا الليلة أسعد انسان فى العالم ··

وقالت ليلى وهى تبتسم له ابتسامة مرسومة :

ـ طيب بص قدامك ··

وتركت له يدها يضغط عليها ، ويقود السيارة بيده الأخرى ·· ثم قال وهو يحاول أن يشدها اليه : تعالى جنبى يا ليلى ··

وقالت دون أن تتحرك من مكانها :

ـ الفستان يا عصام ·· أحسن يتكسر ·· واحنا لسه خانسهر ·

وابتسم عصام ابتسامة واثقة ، كأن كل ما يحتاج اليه ، هو الصبر ·· وعاد يتحدث ·· يتحدث كثيرا ·· وليلى سارحة بخيالها

وراء فتحى ·· هل هو الآن فى انتظـارها ؟ ·· انتظـارها هى وعريسها ؟ ! ··

ووصلا الى مينا هاوس

وانحنى الخدم وموظفو الفندق أمام روعة الجمال ·· وجلال العروس ·· وسارت ليلى بجانب عصام فى خطوات ثابتة ، كالملكة وياورها بجانبها ·· وثوب العرس فى بياض الطهر ·· وطرحتها تزغرد فوق رأسها ··

وصعدا الى الجناح الذى أعد لهما ··

غرفتان : غرفة للنوم ، بها سريران ، وحمام ، وغرفة للصالون ·· وكانت حقائبهما قد وصلت منذ الصباح ، وكانت فيفى ، وأم عصام قد جاءتا ـ فى الصباح ـ ونظمتا للعروسين عش الزفاف ··

ودخلت ليلى بخطوات ثابتة ··

كأن ليس هناك شىء تخافه أو ترهبه ··

وسقطت عيناها على السرير ·· وقد ألقى فوقه قميص نومها قميص من الساتان الأبيض كشعاع من النور ·· وبجانبه بيجامة عصام ·· حمراء فى لون الدم ، طرزت بخيوط أغمق حمرة ·· وفوجئت ··

كأنها لم تحس بليلة زفافها الا الآن ··

وسرت رعدة خفيفة فى قلبها ، قاومتها بابتسامة لا معنى لها ·

ووضع عصام علبة المجوهرات من يده ، ثم اقترب منها ·· ووقف قبالتها ينظر اليها بعينين ظمآنتين كأنه يشرب من جمالها ·· ثم مد ذراعيه ·· وأحاطها بهما ، وضمها اليه ·· وصاحت ليلى وهى تدفعه عنها فى رفق :

ـ عصام ·· شعرى ·· اوعى تلخبط شعرى ··

ولم يتراجع عصام ، ضمهـا اليه اكثر وطاف بشـفتيه حول جهها ·· يقبلها ·· ويقبلها ·· وهى تحاول أن تدفعه ·· وأن

تهرب من شفتيه · ولكن شفتيه لحقتا بشفتيها ، وأطبق عليهما ·· واستسلمت برهة ·· أسلمته شفتيه باردتين ، هربت منهما الحياة ·· ثم أحست بأنفاسها تضيق ·· ورائحة أنفاسه غريبة ·· غريبة ·· كرائحة الزحام فى الأوتوبيس ·· انها تكاد تختنق ·· ودفعته عنها ، فى قليل من العنف ·· وقالت وهى تهرب من بين ذراعيه وتبتسم ابتسامة سخيفة :

ـ كويس كده ·· آدى انت لخبطت لى الروج ؟ ··

وقال عصام وأنفاسه مبهورة : ما تيجى نسهر هنا ؟ ··

قالت وهى تبتعد عنه وتلجأ الى المرآة المثبتة فى الدولاب :

ـ خليك عاقل ··

وقال عصام فى حماس :

ـ صحيح جد ·· نبعت نجيب الشمبانيا والعشا هنا فى الأودة ·· مش أحسن والنبى ؟ ··

قالت : اخص عليك يا عصام ·· يعنى مش كفاية ما تعمليش فرح ·· كمان مش عايزنى أسمع شوية مزيكة ، وأحس بالنــاس حوالى ؟ ! ··

وسكت عصام ، ونظر اليها وفى عينيه حب لا يطيق الانتظار ·· ثم اقترب منها ، ووقف خلف ظهرها وهى تنظر فى المرآة ، وقال :

ـ أنا كان نفسى أعمل لك فرح ما حدش شاف زيه ·· أنا فرحتى بيكى مايكفهاش لا أم كلثوم ، ولا عبــد الوهاب ، ولا كل الأفراح اللى فى الدنيا ··

وسكتت ، وظلت تنظر الى وجهها فى المرآة ··

ومد يديه الى أعلا رأسها ، وقال : تحبى أشيل لك الطرحة ؟

وابتعدت عن يديه بسرعة ، وقالت :

ـ لا ·· كفاية اللى عملته فى شعرى لغاية دلوقت ··

ثم أشارت الى الباب ، وقالت وهى تبتسم ابتسامة كبيرة ، كأنها تدلله :

ـ حضرتك تخرج من هنا دلوقت وتقفـــل البــاب وراك وتستنى فى الصالون لغاية ما اخلص تواليت ··

ووقف عصام مترددا وهو فرح بابتسامتها ·· وعادت تقول

ـ علشان خاطرى يا عصام ·· أصلك طول ما انت واقف جنبى مش حا اعرف اعمل حاجة ! ؟ ··

وقال عصام وهو يتجه الى الباب :

ـ دقيقتين بس ·· مش حا اقدر أستنى أكتر من دقيقتين ··

وقالت وهى تدفعه نحو الباب : لا ·· دقيقة ونص ··

وخرج من الغرفة ··

وأغلقت ليلى الباب وراءه بالمفتاح ·· ثم همت أن تتجه ثانية الى المرآة ·· ولكنها أحست كأنها تعبة ·· كأنها على وشـــك أن يغمى عليها ·· وألقت نفسها على مقعد موضوع بجانب السرير ·· وغاضت ابتسامتها ·· وتكسرت نظراتها ·· ثم أســـندت ظهرها الى مسند المقعد ، ومدت ساقيها أمامها ، كأنها تبحث عن الراحة ·· وطرحتها لا تزال فوق رأسها ··

ولم تلبث قليلا حتى قامت ·· واتجهت الى المرآة ·· ومدت يديها خلف رأسها ، ونزعت طرحتها ·· أحست كأنها نزعت قناعا كانت تضعه على وجهها ، وألقت بالطرحة على المقعد ·· وبدأت تمشط شعرها ، وتساوى خصلاته ·· وتعيد صـــبغ شـــفتيها ·· وفردت ثوبها ·· ونظرت الى نفسها فى المرآة ·· وابتسمت ·· ابتسامة مسكينة ·· كأنها تشفق على نفسها ··

وألقت نظرة أخيرة على طرحتها الملقاة على المقعـــد ، كزهرة بيضاء ذابلة ، ثم فتحت باب الغرفة ، وخرجت الى عصام ، وهى تقول كأنها تقطع عليه أى محاولة : ننزل بقى ؟ ! ··

ونظر اليها عصام نظرة اختلطت فيها الرغبة المتعجلة بالحب

بالصبر ، ببهرة الجمال ، وبالاستسلام ، وقال : زى ما يعجبك ٠

وابتسم ابتسامة كبيرة ، ووضع ذراعه فى ذراعها ، وخرجا من الغرفة ، وهو يبدو كالديك المنفوش المتعاجب بنفسه ، المتعاجب بالتحفة الغالية التى يعلقها فى ذراعه ٠٠

ودخلا الى الملهى الليلى بالفندق ٠٠ وتطلعت العيون اليهما ٠٠ انها عروسة حتى لو لم تكن الطرحة فوق رأسها ٠٠ وسارت تشق زحام العيون دون أن تتلفت حولها ٠٠ وجلست الى مائدة أعدت لهما فى ركن منزو ٠٠ وجلس عصام بجانبها ٠٠ قريبا جدا منها ٠٠ كتفه ملتصق بكتفها ٠٠

وابتسمت لعصام ابتسامة كبيرة ، وبدأت تتحدث اليه ٠٠ حديثا سخيفا ٠٠ هى نفسها تشعر أنه حديث سخيف ٠٠ ولكنها تحاول أن ترضيه ٠٠ تحاول أن تقنعه بأنها مهتمة به ٠٠ بينما خيالها كله يبحث عن فتحى ٠٠

وفتح الجرسون زجاجة شمبانيا ٠٠ وسكب الذهب المذاب فى كاسيهما ورفع عصام كاسه ، وهو يقول : فى صحتنا ٠٠

وقالت ليلى وهى تضحك : فى صحة ماما الأول ٠٠

وارتفعت ابتسامة باردة على شفتى عصام ، وقال :

ـ فى صحة ماما ٠٠ وفى صحتنا ٠٠ وفى صحة كل الناس ٠٠

وقربت شفتيها من الكاس بلا تردد ٠٠ لم تكن قد ذاقت الشمبانيا من قبل ، ولكنها كانت تسمع عنها كشىء موجود ٠٠ شىء عادى ٠٠ شىء من مستلزمات الحفلات وليالى الزفاف ٠٠ كثوب العرس ، وكالبودرة والأحمر ، وكالموسيقى ٠٠ كانت تسمع عنها الى حد أنها لا تعتبرها شيئا غريبا عليها ٠٠ فقربت شفتيها من الكاس فى ثقة ٠٠ وقبل أن تذوقها ، رفعت عينيها ونظرت حولها . نظرات مسروقة ، تبحث عن فتحى ٠٠ ولم تره فى اللفتة الأولى ٠٠ وأدارت عينيها مرة ثانية ٠٠ ورأته ٠٠ انه جالس على مائدة قريبة

منها ·· ينظر اليها بعينين واسعتين يشع منهما بريق شاذ ·· بريق القلق ·· الحيرة ·· العذاب ·· وأرخت عينيها عنه بسرعة ·· ورشفت كأسها كأنها تحاول أن تخفى فيه وجهها ·· وسرت الشمبانيا على لسانها ·· ان طعمها مر ، لاذع ، فوار ·· وأبعدت الكأس عن شفتيها ·· وانتابتها نوبة خفيفة من السعال ·· وضحك عصام ·· ولم ترد ضحكته ·· كتمت سعالها بسرعة ، ونظرت اليه فى عتاب كأنها تلومه لأنه يحاول أن يعتبرها فتاة صغيرة لا تحتمل الشمبانيا · ·وعادت تنظر الى فتحى ·· انها تستطيع أن تراه دون أن تدير رأسها ·· انه أمامها ·· خلف ظهر عصام ·· وهو لا يزال ينظر اليها وشعاع القلق المنطلق من عينيه يشق صدرها ·· وخيل اليها أنه يبتسم لها ·· ابتسامة صغيرة ·· ولم ترد ابتسامته ·· رفعت كأسها وشربت ·· ومالت على عصام تحادثه ، وهو يصب لها كأسها الثانى ·· وتعمدت أن تبقى فترة طويلة لا تنظر الى فتحى ، حتى لا تثير انتباه عصام ·· ثم نظرت اليه ·· انه يشرب كأسا من الويسكى ·· وبجانبه صديقه حنفى عازف الكمان ·· وأرخت عينيها ، وأدارت وجهها الى عصام ·· لو كانت جالسة الآن مع فتحى وصديقه لكانت تتحدث الآن عن الموسيقى ·· عن الفن ·· عن دنيا مليئة بالحياة ·· دنيا مثيرة لا تهدأ ، تنبض بكل عواطف الانسان ·· ولكنها جالسة مع عصام لا تجد شيئا تقوله ·· ولا تجد شيئا تسمعه الا كلاما سخيفا معادا ·· انها جالسة فى دنيا ميتة تنتصب فيها تقاليد ونظم ، وأرقام كأنها شواهد القبور ·· كل شيء هنا مرسوم ·· حتى كؤوس الشمبانيا لا معنى لها الا أنها شيء مرسوم فى لوحة تمثل ليلة الزفاف ··

ورفعت كأسها الثالثة ·· انها لا تشعر بشيء الا أن معدتها بدأت تزدحم بالغاز الفوار وتؤلمها ·· انها لا تحس أنها تسكر أو تنتشى ·· وعصام ينظر اليها كأنه يرجوها أن تسكر وأن تنتشى ··

ولكنها لا تستطيع ٠٠ ان رأسها لا يتأثر ٠٠ وحانت منها التفاتة الى مائدة فتحى ، ورأت الجرسون يضع أمامه زجاجة كاملة من الويسكى ٠٠ انه يشرب كثيرا ٠٠ يا ليته يسكر حتى يستريح من العذاب الذى يعانيه ٠٠ ولكنه يشرب كثيرا ٠٠ انه يضحك بصوت عال ٠٠ ضحكات تخترق أذنيها كأنها صوت طلقات الرصاص ٠٠ ضحكات تقتلها ٠٠ وهو يميل على صديقه ويحادثه طويلا ٠٠ ترى عم يحادثه ؟ ٠٠ هل يحادثه عنها ؟ ٠٠ هل يروى له قصتهما ؟ ٠٠

ولاحظ عصام أن ليلى تنظر فى اتجاه معين ، فالتفت خلفه ٠٠ ورأى فتحى ٠٠ واصطدمت عيونهما ٠٠ وأرخى فتحى عينيه بسرعة ٠٠ وأدار عصام رأسه الى ليلى بنفس السرعة ٠٠ وقال لها وهو يبتسم ابتسامة مرة : انتى تعرفى فتحى ؟ ٠٠

قالت وهى تحاول أن تبدو كأنها لا تبالى :

ـ أعرف مراته ٠٠ أصلهم ساكنين معانا فى نفس الشارع ٠٠ ومراته بتزورنا كتير ٠٠ وكان زمان وأنا صغيرة بيديني دروس فى البيانو ٠٠

قالت ليلى كل ذلك بسرعة ، كأنها تريد أن تقطع عليه أى سؤال آخر ، وتريد فى الوقت نفسه أن تهدىء من شكوكه ٠٠

وقال عصام ووجهه يتقلص بالحقد ، وابتسامة مائعة تتدلى من شفتيه :

ـ تعرفى انه ملحن كويس ٠٠ بس حرامى ٠٠ اللحن اللى اسمه « بيتى » ده مسروق بالحرف من أوبرا لاترفيتا ٠٠

وقالت ليلى فى اهمال : صحيح ؟ ! ٠٠

وقال عصام كأنه يطلعها على معلوماته فى الموسيقى :

ـ أنا مستعد أسمعك اللحنين ٠٠

وسكتت ليلى ، وتلهت برفع كأسها الى شفتيها ٠٠ وعاد عصام يقول : انما باين عليه مغرور قوى ٠٠ !

قالت وهى تتنهد : فعلا ٠٠

قال : انتى عارفة ان سنه أكتر من أربعين سنة ٠٠ ؟ !

قالت ليلى وهى تضغط على أعصابها حتى لا تنفجر :

ـ انما مراته طيبة خالص ٠٠ دى ماما بتحبها قوى ٠٠

وسكت عصام كأنه اكتشف أنه يتكلم كلاما سخيفا ، وجرع من كأسه ، ثم مال على ليلى وهو يبتسم فى رقة ، وقال كأنه يعتذر عن حديثه : تحبى ترقصى ؟ ٠٠

وقامت ليلى واقفة دون أن تجيبه كأنها تساعده على أن يغير موضوع الحديث ٠٠ وعندما وقفت أحست بثقل فى معدتها ٠٠ ثقل غاز الشمبانيا ٠٠ وأحست بجسمها كله ثقيلا ٠٠ ولكن رأسها لم يتأثر ٠٠ انها لم تسكر ٠٠ ولم تنتش ٠٠ وحاولت ألا تنظر الى فتحى وهى متجهة الى حلبة الرقص ٠٠ ولكنها نظرت اليه ٠٠ ومدت له شفتيها المليئتين ، كأنها تقبله ٠٠ أو كأنها تنهاه عن أن يفرط فى الشراب ٠٠ لم يفهم فتحى ماذا تعنى بشفتيها اللتين مدتهما له ٠٠ وظل يتبعها بعينيه الواسعتين القلقتين ٠٠ ثم أدار رأسه الى صديقه ، وقال وهو يرفع كأسه :

ـ اشرب ٠٠ اشرب كمان ٠٠ احنا الليلة بنحتفل بواحد مقتول ٠

وقال صديقه ولسانه يترنح : مين ده ؟ ٠٠

وقال فتحى وهو يبتسم ابتسامة مترنحة :

ـ أنا ٠٠ أنا دلوقت باتقتل ٠٠ لو ماكنتش حضرتك سكران كنت شفت السكينة اللى بتحز فى رقبتى ٠٠ كنت شفت الرصاصة اللى انغرزت فى قلبى ٠٠ انما انت سكران ٠٠ مش شايف ٠٠ وأنا باتقتل ٠٠ ولازم أسكر علشان ما احسش انى باتقتل ٠٠

ومد حنفى يده الى عنق فتحى ، وهو يقول :

ـ ورينى كده يا اخويا ٠٠ آه ٠٠ ده صحيح ٠٠ ده انت مقتول صحيح ٠٠ حاسب الدم يقع على هدومك ٠٠ !

وعاد فتحى يسكب الويسكى فى جوفه ، وينظـــر الى حلقة الرقص باحثا عن ليلى ·· وسقطت عيناه على عصام ·· غريبة ·· انه لا يغار منه ·· انه لا يستطيع أن يغار منه ·· ليس من حقه أن يغار منــه ·· لو استطاع أن يغــار منه فربمــا نفس عن عذابه واستراح ·· ربما صرخ ، أو ذهب اليه وضربه واسترد منه ليلى ·· ولكنه لا يستطيع أن يغار ·· ان فى صدره احساسا آخر غير الغيرة ·· احســاسا يكاد يخنقــه ·· انه يحس كأن ليلى تذبح أمامه ، ورغم ذلك فلا يستطيع أن ينقذها ·· بل لا يستطيع أن يلوم القاتل ·· الناس والمجتمع وسخف الحياة ، كل ذلك يمنعه من أن ينقذ حبيبته أو يلوم قاتلها ·· انهم يربطون ذراعيه خلف ظهره ، ويمســكون به حتى لا ينطلق لانقاذ حبيبتــه التى تذبح أمامه ·· يا رب ·· كل هذا العذاب ·· لماذا يحتمل ؟ ·· لماذا لا يفر من أمام الجريمة ؟ ·· لماذا لا ينصرف من هنا ؟ ·· ولكنه لا يستطيع ·· انه مربوط الى مقعده لا يســتطيع أن يتحرك ·· والجريمة ترتكب أمامه ·· ولكن لماذا استدعته ليلى ليشهد مذبحها ؟ ·· لماذا ؟ ·· انها قاسية ·· انها أنانية ·· انها تريد أن تعذبه ·· تريد أن تقتله معها ·· ولكن لا ·· وابتسم فتحى ابتسامة ضعيفة ·· ان ليلى معذورة ·· انها تريده أن يكون بجانبها وجريمة القدر تنفذ فيها ·· لعله يخفف عنها العذاب ·· انهــا كالمحكوم عليه بالاعدام الذى يتمنى آخر أمنية له ·· لقد سألها القدر قبل أن يذبحها : نفسك فى ايه ؟ ·· فقالت : نفسى أشوف حبيبى ! ··

وهدأ فتحى عندما مر به هــذا الخاطر ·· أحس كأنه واقف بجانب حبيبته فى محنتها ·· ولكزه صديقه بكوعه ، وقال ولسانه يتلوى : اشرب ·· تعيش وتاخد غيرها ·· ولا يهمــك ·· بكره تحب من جديد ··

ورفع فتحى كأسه وشرب ·· يا رب ·· لقد شرب كثيرا ·· ان

رأسه يدور .. انه يحس كأن ملايين من النمل تسير على كل مكان من جسده .. وعذابه يتجسم أمامه .. ولكن لماذا يتعذب ؟ .. لماذا لا يثير فى نفسه الاحساس بالغرور .. ان العروس تحبه ، وهى لا تستطيع أن تستغنى عنه حتى فى ليلة زفافها .. وهذا الزوج المغفل لا يساوى شيئا .. انه ستار يخفى حبهما عن الناس ..

وحاول فعلا أن يحس بالغرور وضحك ضحكة عالية مفتعلة .. وألقى لصديقة بنكتة .. وتمادى أكثر من ذلك .. تصور ليلى وقد أصبحت امرأة .. أصبحت كلها له .. سيستكمل متعته بها .. وستأتى اليه دائمـا .. ليأخذ ما يريد .. و .. ولكن لا .. انه يتعذب .. انه لا يستطيع أن يحس بالغرور .. ان عذابه أقوى من كل احساس آخر يحاول أن يضع نفسه فيه .. انه يحبها .. يحبها كما هى .. يحبها فتاة .. ويحب حيرتهما .. ويحب حرمانهما .. ويحب .. عذابهما ..

وليلى ترقص .. وعصام يحاول أن يضمها أكثر الى صدره .. ويزحف بكفه على ظهرها العارى .. وهى تحس برعدة تسرى فى جسدها .. رعدة تقشعر لها .. ويده الملتصقة بظهرها كأنها مبللة بالماء البارد .. كأنها شىء لزج يسيل على لحمها .. وهى تتعمد أن ترفع رأسها وتساوى خصلات شعرها أثنـاء الرقص كحجة لتبعد خدها عن خده .. وتبعد وجهها عن أنفاسه .. أنفاسه الغريبة .. أنفاس لها رائحة الزحام فى الأتوبيس .. وأعصابها تنتفض .. وصدرها يضيق .. وهو ينظر اليها فى شبق .. وهى تعرف معنى نظراته مهما حاول أن يهذبها .. وتزداد رعدتها .. يا رب .. ما كل هذا العذاب ؟ .. ما كل هذا السخف ؟ .. وما جدوى كل هذه المقدمات لجريمة على وشك أن ترتكب ؟ .. لمـاذا لا يرسلونها الى طبيب ، ليخدرها ، ثم يصنعون بها ما يريدون ؟ .. ما دام من حقهم ما يصنعون ؟ ! ..

وقال عصام وهو يحاول أن يضمها أكثر
ـ اوعى تكونى سكرتى من الشمبانيا ؟ .
قالت وهى تبعد وجهها عنه : أبدا .. بس تعبانة شوية ..
ومد عصام شفتيه يحاول ان يقبلها وهو يخطو بها ، فأبعدت راسها عنه فى حركة عنيفة ، ثم ابتسمت له بسرعة ، وقالت :
ـ عصام .. ما تبقاش مجنون .. الناس حوالينا ..
ثم توقفت عن الرقص .. وجذبته من يده ، وقالت :
ـ تعال نقعد .. أنا تعبت ..
وعادا الى مائدتهما ..
وعصام ينظر اليها كأنه حائر من أين يأكلها .. كأنه ينتقى لنفسه قطعة من جسدها يبدأ بها .. هل يبدأ بشفتيها المليئتين ؟أم يبدأ بجيدها المشرع ؟ .. أم بكتفها الأملس .. و .. وهى تهرب من عينيه فى كأسها .. ثم تلتفت الى فتحى لفتات سريعة كأنها تستغيث به ، فلا تجد الا شعاع القلق ينطلق من عينيه ، ويشق صدرها ..
وعصام يشرب كأسا أخرى .. ويأكل عودا من الكرفس .. ثم قطعة من الخبز عليها قطعة من البطارخ الروسى .. وهى تنظر اليه وتحسب حركاته .. كأنها تنظر الى جزارها وهو يعد سكينه .. انه يعمل كل حركة بحساب .. وبدقة .. كأنه ينفذ تعاليم مرسومة .. كأنه يقوم بعملية حسابية .. وهو يقترب من النتيجة .. انها تحس أنه يقترب .. ولكن لماذا تنفر نفسها من عصام ؟ .. لماذا لا تقنع نفسها به ؟ .. انه شاب .. وهو وسيم .. وهو مثقف .. وهو غنى .. وهو مهذب .. انها لا تستطيع .. رغم كل هذا لا تستطيع أن تقنع نفسها به ..
وقال عصام وهو يلقى آخر قطرة من كأسه فى شفتيه :
ـ مش نقوم نطلع أودتنا بقى ؟ ..

ولم نستطع أن ترفض ·· ليس من حقها أن ترفض ·· ولكن ليس الآن ·· ليس الآن ··

وقالت له وهى تبتسم كأنها ترجوه

ـ استنى لما أسمع مقطوعة « انت وحدك » ·· دى أحسن جتة باحبها ··

وتململ عصـــام ثم نادى الجرسون ، وطلب منــه أن يرجو الأوركسترا عزف مقطوعة « انت وحدك » ··

وارتفع اللحن ··

لحن هادىء حزين ·· وخفتت الأضواء ·· وبدأ صوت مغنى الفــرقة يرتفع ·· صــوت مليىء ، حنون ، فيه حشرجة ·· كأنه صوت ضحية تقدم نفسها قربانا للناس ··

انت وحدك ··

تستطيع أن تأخذ ·· قلبى ··

وأحست ليلى بالدموع تتجمع فى عينيها ·· انها ستبكى ·· لا ·· لا يجب أن تبكى ·· وقامت واقفة قبــل أن تتم الأغنية وقالت دون أن تلتفت الى عصام : نقوم بقى يا عصام ··

وابتسم عصام ابتسامة كبيرة ، وقام واقفا بسرعة ··

وحاولت أن تلتفت الى فتحى ·· ولكنها لم تستطع ·· لم تقو على أن تلتفت اليه ·· كانت فى لحظــة يأس ·· ولن يجديها أن تلتفت اليه ··

وسارت وعصام خلفهــا ·· وهى لا تشعر بجمالهــا ·· ولا بثوبها ·· ولا بالناس الذين يتطلعون اليها ·· انها بائســة ·· مهمومة ·· كل ما تفكر فيه هو اللحظــة المقدمة عليهــا ·· كيف تتصرف ؟ ·· كيف تعامل هذا الزوج ؟ ·· كيف تهرب ؟ ··

ورأسها منكس الى الأرض ، تنظر الى قدميهــا ·· وعصــام يسير بجانبها ، وذراعه ملفوفة حول خصرها ··

ووجدت نفسها فى حجرة النوم ··

وأقبل عصام يضمها ·· ومد شفتيه ـ بلا مقدمات ـ وقبلها فوق وجنتها ·· ثم التقط شفتيها ·· فجأة ·· وفى ظمأ ··

واستسلمت برهة ·· باردة ·· جامدة ·· عقلها يفكر · كيف تدفعه عنها ؟ ··

وقالت وهى تتملص منه فى رفق :

ـ أنا تعبانة يا عصام ·· الشمبانيا تعبتنى قوى ··

وقال وهو يطوف بكفه على كتفيها ، وعيناه الظامئتان لا تكفان عنها : دلوقت تستريحى ··

ثم مد أصابعه وحاول أن يشد السوستة المعلقة فى ظهر ثوبها ، وقال : تحبى تقلعى ؟ ··

قالت وهى تبتعد عنه : أنا حا أقلع لوحدى ··

قال وهو يلحقها : طيب أشد لك السوستة ··

ونظرت اليه كأنها تختبر مدى تصميمه ، ثم أدارت له ظهرها صامتة ، فشد سوستة الثوب ، ثم حاول أن يزيح الثوب عن كتفيها ، ولكنها استدارت له بسرعة ، وهى تضم ثوبها بكفيها حتى لا ينزلق ، وقالت : لا ·· استنى ··

ثم خطفت قميص نومها من فوق السرير ، وخطفت معه الروب دى شامبر ، ودلفت بسرعة الى الحمام ، وأغلقت الباب عليها ·· وعصام يبتسم ابتسامة كبيرة ·· ابتسامة ثقة ··

ووقفت فى الحمام تلتقط أنفاسها ·· انها تهم بالبكاء ··

لا ·· لا يجب أن تبكى ·· البكاء لن ينفعها ··

وهى خائفة ··

لا ·· لا يجب أن تخاف ·· ان الخوف أيضا لن ينفعها ··

يا رب ·· لماذا لم تكن تبكى أو تخاف وهى مع فتحى ؟ ·· لقد كان يستطيع أن يفعل بها ما يريد دون أن تبكى أو تخاف ؟ ··

لماذا لا تغمض عينيها ، وتتصور أنه فتحى ؟ ·· وتنتهى ··
لا ·· لا تستطيع ··
طعم شفتيه ·· ورائحة أنفاسه ·· ولمسات يديه ·· ليس هناك رجل يستطيع أن يحل محل الآخر ، حتى فى الخيال ··
وبدأت أعصابها تتقلص ··
كل شىء فيها ينتفض وينقبض ··
وخلعت ثوبها ، وارتدت قميص النوم والروب دى شامبر ، وضمت أطراف الروب جيدا حول جسدها كأنها تحميه ·· كأنها تضن به على الرجل الذى تزوجته ·· وأزالت الأصباغ من على وجهها ·· وبدا لونها باهتا ·· أقرب الى اللون الأصفر ··
ومعدتها تؤلمها ·· وهى تريد أن تؤلمها معدتها أكثر ·· تريد أن تمرض ·· أن تموت ··
وغابت طويلا فى الحمام ··
ودق عصام الباب مرة ومرتين وهى لا ترد عليه ··
ثم خرجت اليه ··
ووقفت أمامه صامتة كالشهيدة ·· باهتة اللون ·· ضعيفة ··
وهو واقف قبالتها وقد ارتدى البيجاما الحمراء ·· كأنه الاعدام ·· ثم أقبل عليها فى خطى بطيئة ·· وهو يبتسم ابتسامة يحاول أن تكون هادئة ·· وأخذها بين ذراعيه ·· وقالت وهى تتملص منه : أنا تعبانة يا عصام ·· وحياتك تعبانة ·· سيبنى الليلة أنام ··
ولكنه لم يطلقها من بين ذراعيه ·· وسحبها معه الى السرير ·
وعادت تقول : تعبانة يا عصام ·· تع ····
وأطبق على شفتيها ·· ورائحة زحام الأتوبيس تخنقها ··
وكل شىء يتقلص فيها ·· معدتها ·· قلبها ·· كل أعصابها ··
وشدت شفتيها من شفتيه ، وابتسامة مسكينة كأنها دمعة كبيرة

فوق شفتيها ، وقالت كأنها تحاول أن تتذكره :

ـ اخص عليك يا عصام ·· اللى يشوفك بتعمل كده ، يفتكر انك حا تسيبنى بكره وتسافر لوحدك ·· لو كنت بتحبنى ·· خلينى أنام ··

وابتعد عصام عنها ، وقال وهو يحاول أن يسيطر على أعصابه:

ـ طيب نامى يا حبيبتى ··

وانحنى فوقها بهدوء كأنه يقبلها قبلة ما قبل النوم ·· قبلة هادئة فوق جبينها ·· ولكن قبلته ما لبثت أن ضجت من جديد وانزلقت الي شفتيها ·· وعاد يريدها بعنف ·· يا رب ·· اننا لن ننتهى الليلة ·· وكل ما فيها يتقلص ·· ويبرد ·· ويتخشب · انه لن يأخذ أبدا ما يريد ·· انه لا يستطيع ·· وهى لا تستطيع أن تعطيه ··

وهى قرفانة ·· قرفانة ·· معدتها تنقلب ··

تغمض عينيها حتى لا تراه ·· وتكتم أنفاسها حتى لا تشم أنفاسه ·· وتصلب أعصابها حتى لا تحس بلمساته ··

وهو لن يأخذ ما يريد ·· انه لا يستطيع ··

وهى قرفانة ··

★ ★ ★

وهدأ عصام ·· وهو يخور كالثور ·· وأشارت له بأصبعها ، وقالت كأنها غاضبة منه :

تسمح بقى تسيبنى ·· وتروح تنام على السرير الثانى ؟ ··

وقال وفى عينيه نظرات متردد ، كأنه يعتذر لها ، ويعدها بألا يعود الى العنف مرة ثانية : حاضر ·· تحبى اطفى النور ؟ ··

قالت وهى تدير ظهرها وتشد ملاءة السرير فوق وجهها :

ـ أيوه ··

وأغمضت عينيها ·· وامتلأ خيالها فجأة بصـورة فتحى ·· وجرت دموع صامتة فوق خديها ··

وتحت نافذة العروسين ··

فى الصحراء التى تقع خلف الفندق ··

شبح تائه ، يرفع رأسه الى النوافذ ، ويغـوص بقدميـه فى الرمال ··

ويتنهد ·· !

١٣

كان فتحى قد ظـل يتتبع ليلى وعريسها وهما منصرفان الى غرفتهما ، بعينين مجنونتين ·· وفجأة أحس أن ليلى قد ضاعت منه ·· ابتعدت ·· ابتعدت كثيرا ·· لم يعد يستطيع أن يصـل اليها ·· وأحس بقلبه ينشق ·· سكين انغرز فيه ·· ولم يعد الرجل الذى أخذها هو زوجها ·· انه مجرد رجل آخر ·· رجل أخذ منه حبيبته ·· وأحس أنه يريد أن يصرخ ·· أن يحطم ·· أن يقتل ·· يقتل أى انسان ··

ورفع كأسه كأنه يحاول أن يطفىء بها النار المندلعة فى صدره ، ولكنه ما لبث أن أزاح الكأس عن شفتيه ، وألقى بها على الأرض ·· بعنف ·· حطمها ·· والتفتت العيون اليه ·· ومال عليه صديقه السكران ، وقال :

ـ اعقل أمال يا أبو الأفتاح ·· حرام ترمى النعمة على الارض·

ولكن فتحى لم يسمعه ·· قام من على مقعده ، وسار خارجا فى خطى سريعة عصبية كأنه فى طريقه الى جريمة قتل ·· كأنه يريد أن يلحق بليلى قبل أن يذبحها عريسها ·· والعيون تتبعه فى

تطلع واستفسار .. ولحق - صديقه السكران ، وأمسك بذراعه وهو يهتف به : على فين يا فتحى ؟ .. و ..

وضرب فتحى الذراع التى تمسك به فى قوة ، والتفت الى صديقه صارخا ، والعينان المجنونتان تصرخان :

- سيبنى .. خليك هنا .. ما تجيش معايا .

ووقف الصديق مكانه ، وترك فتحى يشق طريقه بخطاه السريعة الواسعة .. وهز كتفيه فى استسلام ، كأنه يعلم أنه مجنون .

وخرج فتحى من الملهى الليلى .. وظل يطوف فى حديقة الفندق .. وهواء الليل يضرب وجهه كأن يد الله تحاول أن تفيقه من جنونه .. وأحس أن جنونه يهدأ فعلا .. ويحل محله نوع من الألم .. ألم شديد .. ألم فى صدره .. وألم فى معدته .. وعقله منمل ، ملىء بدبيب النمل .. وشفتاه منملتان متدليتان .. وأبخرة الخمر تتصاعد أمام عينيه ، ويرى الدنيا من خلالها تهتز .. والألم يشتد .. انه يريد أن يبكى .. لقد ضاعت منه ليلى .. وهو يريد أن يراها .. لو رآها لبكى واستراح .. نظرة أخرى يتزود بها منها قبل أن تذبح ..

وثقلت خطواته .. انه يجر قدميه جرا .. وسار فى طريقه يصعد منحدر الهرم الى الصحراء الواقعة خلف الفندق .. ورفع رأسه الى نوافذ الفندق ولا يدرى لماذا اعتقد أن غرفة العروسين تقع فى هذه الناحية من الفندق .. وظل رافعا عينيه الى النوافذ ربما أطلت عليه ليلى من احداها .. أية نافذة هى نافذة غرفة ليلى .. وخيل اليه أن ليلى تقف خلف كل نافذة مضاءة .. وخلف كل نافذة مطفأة .. تقف هى وعريسها .. وعريسها يأخذها بين ذراعيه .. ويقبلها .. ويخلع عنها الثوب .. ويتحسس جسدها بيديه .. وبدأ يرى بعين خياله المخمور حبيبته عارية فى أحضان

عريسها ·· فى أحضان رجل آخر ·· والسكين تذبح فى قلبه ·· سكين الغيرة ·· ومرت به لحظات خيل اليه فيها أنه سيسمع ليلى تصرخ ·· تصرخ مستنجدة به ·· تصرخ تناديه لينقذها من الذبح ·· وأرهف أذنيه فعلا ·· ولكنه لم يسمع صراخا ·· لا بد أنها راضية ·· مستسلمة ·· هذه الخائنة ·· وهو يتعذب ·· أنفاسه تضيق ·· والخمر تقلب معدته ·· ويريد أن يبكى ·· وسقط على ركبتيه فوق الرمال ، ورفع رأسه الى السماء ·· يا رب ·· دعنى أبكي ·· ولكن الله يضن عليه بالدموع ·· ان عذابه لا يريد أن يسيل ، انه متجمع كقطع الجليد فى صدره ، وفى رأسه ، وفى أعصابه ·· وتلفت حوله كأن حوله أشباحا تطعنه بأسياخ من نار ·· وأحس بكراهية عميقة للدنيا كلها ·· ورفع رأسه الى نوافذ الفندق ·· انه يكرهها هى الأخرى ·· يكره ليلى ، وقفز واقفا وأخذ يجرى فى طريقه الى المنحدر ، وقدماه تغوصان فى الرمال · وترتبك خطواته ويكاد يقع على وجهه ·· ثم يعود يجرى كأنه يهرب ·· من الدنيا ·· يهرب من الكراهية ·· يهرب من الحب ·· يهرب من الغيرة ·· يهرب من نفسه ··

وعاد الى الشارع ووضع نفسه فى سيارة أجرة ، وصرخ فى السائق : اطلع قوام يا اسطى ··

وتحركت به السيارة ·· وصفير حاد يملأ أذنيه ·· صفير كأزيز العاصفة ·· كفحيح النار ·· وهو يصرخ فى السائق :

ـ قوام يا اسطى ·· سوق بسرعة من فضلك ··

والسيارة تجرى ··

وهو لا يدرى سر عجلته ؟ ·· لا يدرى لماذا يصرخ فى السائق أن يسرع ؟ ·· ربما لأنه فقط يريد أن يتحرك بسرعة ؟ ·· يريد أن يحس باحساس الهارب ·· ولم يذهب الى بيته ··

ذهب الى الشقة ، التى عاش فيها حبه ··

كم الساعة ؟ ·· لعلها الثانية صباحا ·· الثالثة ·· لا يدرى ؟

ونزل من السيارة بسرعة ، ونقد السائق أجره بسرعة ، ودخل العمارة بخطوات سريعة ·· ووقف فى المصعد وهو يدق الأرض بقدمه دقات سريعة ·· سرعة لا هدف لها الا السرعة ·· والصفير الحاد يملأ أذنيه ·· كأزيز النار ·· كفحيح العاصفة ··

وفتح باب الشقة بيد ترتعش من الانفعال ·· ودخلها مندفعا كالزوبعة ·· وخبط الباب وراءه فانغلق فى صوت يدوى كالصاعقة ·· وانحدف ناحية البيانو ·· وعيناه مجنونتان ·· وأبخرة الخمر تملأ رأسه ويرى من خلالها أطيافا مهزوزة ·· والصفير الحاد يملأ أذنيه ··

ووضع أصابعه على البيانو ·· وعزف ··

أنغاما صارخة مجنونة كالصفير الذى يملأ أذنيه ·· كأنه يسكب هذا الصفير أنغاما ·· كأنه يحطم العذاب المتجمد فى صدره وفى رأسه ·· كأنه يترجم كراهيته وحقده وغيرته ·· انه يكره ·· وهو يحقد ·· وهو يغار ··

وهو يعزف ·· واستمر يعزف ··

ثم بدأ النغم يرق ·· كأنه أفرغ كل ما فيه من كراهية وحقد وغيرة ·· وانحسرت عواطفه عن حبه ·· عن ذكرياته ·· عن ابتسامة ليلى ·· ونظراتها الساذجة ·· وشعرها الأصفر ·· وحبها المغلوب ·· وعذابها ·· وعذابه ··

وهو يعزف ·· واستمر يعزف ··

وصخب اللحن مرة ثانية كأنه تذكر ·· كأنه رأى الرجل الذى يذبح حبيبته ·· رأى الدم ·· واصطبغ اللحن بلون الدم ·· بلون الصراخ ·· بلون الجريمة ·· بلون الجسد الباهت الممزق ··

وهو يعزف ·· واستمر يعزف ··

وهو لا يدرى ·· انه لا يعى ما يعزفه ·· ولكنه يسكبه من

نفسه ٠٠ أصابعه تقفز كالعصافير السمراء ، وهو ينظر اليهـا كأنها ليست أصابعه ٠٠ كأنها شيء منفصل عنـه ، يتحرك بقـوة لا يستطيع أن يسيطر عليها ٠٠

كم السَاعة ؟ ! ٠٠

لعلها السادسة صباحا ٠٠ لعلها السابعة ٠٠ لعلها أكثر ٠٠ وهو تعب ٠٠ أصابعه تتثاقل فوق البيانو ٠٠ والأنغام تخرج من تحتها ضعيفة هزيلة كالأنفاس المريضة ٠٠ وجفـونه تثقـل فوق عينيه ٠٠ ورأسه يتوه كأنه وقع تحت تأثير مخدر ٠٠

ونامت أصابعه فوق البيانو ٠٠

وشد نفسه من على مقعده ، وقام ووقع فوق الأريكة ، نام ٠٠ دون أن يحس أنه ينام ٠٠ كأنه سقط مغشيا عليه ٠٠ ثم ٠٠

★ ★ ★

ثم فتح عينيه كأن يدا مست جفونه ٠٠

ورآها أمامه ٠٠ ليلى ٠٠

فى ثوب رمادى كلون الفضة ٠٠ لا بد أنه يحلم ٠٠

وعاد وأسقط جفنيه فوق عينيه ٠٠ ولكنـه يسمع صوتها ٠٠ انها تناديه برفق : فتحى ٠٠ فتحى ٠٠ فتحى ٠٠ ويد رقيقة تهزه ٠٠ ورفع يده وهو لا يزال مغمض العينين ، وتحسس اليد التى تهزه ٠٠ يريد أن يتأكد أنه لا يحلم ٠٠

وعثر على يدها ٠٠ أحس بها فى يده ٠٠

انه لا يحلم ٠٠

وفتح عينيه ، وصرخ : ليلى ٠٠

ثم قفز واقفا واحتضنها الى صدره ٠٠ بقوة ٠٠ بقسوة ٠٠ بكل ما عاناه من عذاب ٠٠ وخوف ٠٠ وكراهية ٠٠ وحقد ٠٠ انها فى أحضانه ٠٠ شكرا ٠٠ شكرا يا رب ٠٠

ثم تذكر ٠٠ تذكر أنها تزوجت ٠٠

رأبعدها عن صدره ، وأخذ ينظر اليها كأنه ينتظـر أن يرى فيها شيئا جديدا ··

لا ·· ليس فيهـا شيء جديد ·· عيناها ·· وشـفتاها ·· وشعرها ·· وجيدها ·· ورغم ذلك فهو يحس أن فيها شيئا تغير ·· كأنها كبرت ·· كأنها جاءت اليه من عالم آخر غير العالم الذى تعودت أن تجىء اليه منه ··

والزوجات لهن ريح آخر ·· لهن معنى آخر ·· معنى يطوف حولهن ويرتسم على وجوههن ·· وقد أصبح لليلى معنى آخر ·· انه لا يزال يحبها ·· ولكن يحس أن حبه بدأ ينتقل الى عالم جديد ·· الى معنى جديد ·· الى أحاسيس جديدة ··

وقال وشفتاه جافتان من تأثير الخمر الذى شربه فى ليلته ·· وشعره المنحسر عن مقدمة رأسه مهوش ·· وعيناه مكدودتان ·· وذقنه خشنة : قدرتى تيجى ازاى ؟ ··

قالت ووجهها ممتقع ، وبين شفتيها ابتسامة مسكينة :

ـ سيبتهم كلهم فى مينا هاوس ونزلت أنا ونبيلة علشان آخد بقية الفساتين بتاعتى من عند الخياطة ·· وفضـلت أتحايل على نبيلة لغاية ما سابتنى لوحدى ·· وقعدت أدور عليك فى كل حتـة ما لقتكش ·· وجيت هنا وأنا فاكرة انى مش حالاقيك ··

قال كأنه تنبه الى أنه لم يعد الى بيته :

ـ هيه الساعة كام ؟ ··

قالت : الساعة اتناشر ··

وسكت ·· وشردت عيناه ··

وقالت ليلى فى يأس وهى تجلس على الأريكة :

ـ الطيارة حاتقوم الليلة ·· الساعة حداشر ··

وجلس بجانبها وهو ينظر اليهـا بعينين منزعجتين ·· انهـا ستسافر ·· ستتركه وتذهب الى أوربا مع رجل آخر ·· ان هـذا

هو آخر لقاء بينهما ·· بعده غياب طويل ·· ومن يدرى لعله وداع ·· ويجب أن يتزود منها فى لحظة الوداع بكل ما يستطيع أن يأخذه ·· يجب أن يأخذ حقه كاملا ·· قبل أن يحرمه منه الرجل الآخر ·· وتغيرت النظرات فى عينيه ·· نظرات مترددة ، خائفة ·· فيها أمل وفيها يأس ·· فيها شيء يريده ، وشيء يريد أن يهرب منه ··

وقالت ليلى كأنها تهم بالبكاء :

ـ أنا مش عارفة أعمل ايه يا فتحى ؟ ·· أنا مش طايقاه ·· ما بستحملش يحط ايده عليه ·· لما بيقرب لى باحس انى باتخنق ؟ ·· ده عذاب ·· ده موت ··

قال وهو يلف ذراعه حولها ويسند رأسها على كتفه ، ويعبث بأصابعه فى شعرها :

ـ انتى ما تعرفيش حصل لى ايه امبارح ؟ ·· كنت حا اتجنن · كان متهيأ لى أهجم عليكى وأشدك من ايدك ، وأهرب بيكى ·· بقيت مش مصدق انك بقيتى لراجل تانى ·· فضلت أشرب ·· واشرب ·· وقمت لفيت حوالين اللوكاندة ·· كان متهيأ لى ان حاجة حا تحصل ، وابص ألاقيكى قدامى ·· وبعدين لقيت نفسى هنا ، وقعدت أضرب بيانو ، ما حستش أنا كنت باضرب ايه ·· لغاية ما فتحت عنيه ولقيتك قدامى ··

ورفعت اليه عينيها ··

انها أيضا تريده ·· تريد أن تعطيه كل ما تبخل به على الرجل الآخر ·· تريده أن يكون أول رجل لجسدها ، كما كان أول رجل لقلبها ·· تريد أن تعطيه هذا الشيء الذى أقنعوها بأنه أعز ما تملك ·· هو وحده الذى يستطيع أن يأخذه ، دون أن تحس بأنها تعطى شيئا كبيرا ·· دون أن تخاف ·· ودون أن تتقزز ·· ودون أن تندم ··

ورغم ذلك فكلاهما يحس أن ارادته ليست خالصة ··

يحس أن ارادته مفتعلة ••
فى هذه اللحظة بالذات •• ارادتهما مفتعلة ••
انها ليست ارادة طبيعيـة جاءت نتيجة لانطلاق روحيهمـا ، ولكنها ارادة تحفزها الرغبة فى الانتقام •• ويحفزها طمـع كل منهما فى أن يتزود من الآخر بكل ما يستطيعه قبل أن يفترقا •• كالرجل الذى يتعمد الأكل الكثير خوفا من الجوع •• كالرجل الذى يشرب أكثر ممـا يطيق قبـل أن يخطـو فى رحلة طويلة داخـل الصحراء ••

ارادة مفتعلة ••

لا تنطلق من روحيهما ••

بل تنطلق من رأسيهما •• كأنها خطة يتعمدان تنفيذها ••

وأقبل عليها يقبلها •• يقبلهـا فى عنف مصطنع كأنه يتعمـد اثارة جسده بسرعة قبل أن يحين موعد سفرها •• وأسـلمت له شفتيها كأنها تساعده على أن يثير نفسه ••

وقبلتهما ليس لها الطعـم الذى تعوداه •• قبـلة تقف فوق شفتيهمـا •• ورغم كل ما يبذلانه من عنف لا تريد أن تنزلق الى روحيهما ••

ومد كفه وحل شـعرها •• وانســاب الذهب فوق كتفيها •• وأخذ يجمعه فى يديه •• ويشده فى قسوة •• فى قسوة أكثر •• وهى مستسلمة تتأوه بين شفتيه •• كن قاسيا •• لعلك تثيرنى •• وتثير نفسك •• وترك شعرها ، وفك أزرار ثوبها •• وكفه تطوف فوق جسدها •• خشنة •• مرتعشة •• قاسية •• مزيدا من القسوة •• لعلنا نصل سويا ••
ولكن ••

ان عقليهما لا يزالان واعيين •• كل ما يفعـلانه ينطـلق من العقل •• لا من القلب ، ولا من الروح •• كأنهما ينفذان خطة اتفقا

عليها ·· ليصلا الى هدف اصطنعاه فى هذه اللحظة بالذات ··

لا ·· لا ·· ان الجسد ليس مجرد أداة نستطيع أن نطلقها عندما نريد ·· انه شيء أكبر من هذا ·· انه صدى لانفعال الروح ·· صدى للعاطفة ·· والعاطفة فى هذه اللحظة بالذات لا تستطيع أن تطلق الجسد فى هذا الاتجاه العنيف ·· انها عاطفة تعانى وحشة الوداع ·· فيها ألم الفراق ·· كل ما تستطيع أن تطلقه هو الدموع ··

واكتشفا هذه الحقيقة ··

اكتشفا أنهما فى هذه اللحظة بالذات ، لا يستطيعان ··

لا يستطيعان أن ينفذا خطة منطلقة من عقليهما المريضين ·· وابتعدت عنه ··

ووجهها محتقن بحمرة اليأس والخجل ، وعيناه منكستان ، لا ينظر اليها ··

كان كلا منهما يعتذر للآخر ، عما راوده ·· عما حاوله ·· عما أراده فى هذه اللحظة بالذات ·· اللحظة السريعة اللاهثة الضيقة ، التى لا تترك مجالا هادئا لانطلاق الروح ··

وأخذت تجمع شعرها فوق رأسها ·· وتضم ثوبها ·· وقالت فى صوت مرتعش :

ـ أنا لازم أنزل دلوقت يا فتحى ، نبيلة مستنيانى ··

ولم يرد عليها ··

ظل واقفا ينظر اليها نظرات خجلة ، حتى انتهت من ضم ثوبها وعقص شعرها ·· ثم اقترب منها ·· وضمها الى صدره ·· فى رفق ، وحنان ، وتنهدت فوق صدره ·· وانطلق الحب هادئا باكيا فى أعصابهما ··

ورفعت اليه عينين مغرورقتين بالدموع وارتعشت شفتاها كأنها تهم بالكلام ··

ولكنها لم تتكلم ..

ولم يتكلم ..

وأدارت له ظهرها .. وسارت نحو الباب .. وفتحته .. والتفتت اليه مرة أخيرة .. وشفتاها ترتعشان كأنها تهم بالكلام .

ولم تتكلم ..

ولم يتكلم ..

خرجت .. وذهبت ..

وظل فتحى مشدوها ، عيناه متسعتان كأنه لا يصدق أنها ذهبت .. ثم هز كتفيه كأنه لا يبالى ، وأشعل سيجارة تسلل دخانها مرا بين شفتيه الجافتين .. انها ذهبت فعلا .. وهو سيتعذب .. وهو يعلم بالضبط مدى ما سيتعرض له من العذاب .. وسيحتمل .. سيشرب الكأس كلها .. شهرآ .. شهرين .. ثلاثة .. ثم سيتحرر من الحب والعذاب .. ويعود طليقا يلعب بعاطفته كما يلعب الأولاد الصغار بالدمى .. سيعود الى عشرات البنات .. يفتعل مع كل واحدة قصة يكتبها فى لحن ..

هل يستطيع ؟ ! .. بهذه السهولة ؟ ! ..

وخرج من الشقة دون أن ينظر الى وجهه فى المرآة .. عيناه مكدودتان يتخلل بياضهما خطوط دقيقة حمراء .. وشعره مهوش فوق مؤخرة رأسه .. ووجهه مغضن كأنه كبر عشرة أعوام .. وبدلته مكرمشة .. وركب سيارة أجرة وأمر السائق أن يحمله الى بيته .. وهو لا يزال شاردا فى لحظة الوداع .. وقبل أن يصل الى البيت أفاق ..

تذكر زوجته ..

وثار فجأة .. انها ستحاسبه .. ستسأله أين كان ؟ .. أين قضى ليلته ؟ .. وستصرخ فى وجهه .. وتبكى .. وهو لن يحتمل .. انه لن يستطيع أن يحتملها فى هذا اليوم .. انها هى سر كل

عذابه ٠٠ من أجلها ضحى بحبه ٠٠ وضحى بسعادته ٠٠ وضحى بانطلاق روحه ٠٠ ويجب أن تحمد الله ٠٠ يجب أن تعلم أنها تزوجت رجلا قلقا ٠٠ لا يستطيع أن يقدم لها أكثر من هـذا النصيب ٠٠ حتى لو حاول ، لن يستطيع ٠٠

ودخل بيته وهو متحفز لملاقاة زوجته ٠٠ عيناه قد اشتد فيهما الجنون ٠٠ انه مستعد أن يفعل كل شيء ٠٠ أن يرتكب جريمة ٠٠

واستقبلته زوجته صارخة ، والجزع يملأ عينيها :

ـ كنت فين يا فتحي ؟ ٠٠ جننتنى ٠٠ من الصبح وأنا باسأل عليك فى كل حتة ؟ ! ٠٠

وقال في برود يخفي تحته تحفزه : كنت باشتغل ٠٠

والتقت عينا الزوجة بوجهـه المكدود ٠٠ وعينيـه المشرطتين بالخطوط الحمراء ٠٠ وشعره المشعث ٠٠ وذقنه الخشنة ٠٠ ولانت نظراتها ٠٠ وابتلع حنانها ثورتها ٠٠ وقالت وابتسـامة مرتعشة تطل من بين شفتيها العريضتين :

ـ حد يعمل فى نفسه كده ؟ ! ٠٠

وأطلت من عينيه نظرة دهشة ٠٠ انها لن تثور عليه ٠٠ انه يعرفها ٠٠ انها لا تثور أبدا فى الأوقات التى تعلم أنه لا يحتمل فيها ثورتها ٠٠ ومرت به لحظة تمنى فيها أن تثور ٠٠ أن تصرخ فى وجهه ٠٠ حتى يرد صراخها ٠٠ حتى يفرج عن عذابه برد ثورتها ٠

ولكنها تبتسم ٠٠ وتنظر اليه كأنها تعلم كل ما فى صدره ٠٠ كأنها تعيش فى داخله ٠٠ انها تعـلم أن ليلى قد تزوجت بالأمس وتعلم أنه يتعذب لزواج ليلى ٠٠ ولكنها مطمئنة ٠٠ مطمئنة الى أنه عاد اليها ٠٠ والى أن قصة ليلى معه قد انتهت ٠٠ ربما استمر عذابه بعض الوقت ، ولكن القصة انتهت ٠٠ وقد عاد اليهـا ٠٠ وهذا يكفيها ٠٠ هذا يرضيها ٠٠

وشدته من يده ، وهى تقول :

ـ تسمح تروح تغسل وشك ٠٠ علشان تعرف تنام ٠٠

وأسلم نفسه لها ٠٠ وقادته الى غرفة النوم ، وهى تقول كأنها تحادث طفلها :

ـ طبعا لسه ما فطرتش ٠٠ مش كده ؟ ٠٠ قاعد تشرب سجاير من غير ما تاكل حاجة ! ؟ ٠٠

قال وقد هدأ تحفزه :

ـ أصلى كنت مش دارى ٠٠ قعدت ألحن لغاية دلوقت ٠٠ لحن جديد ٠٠

وفكت أزرار سترته ، خلعتها عنه ٠٠ وجلس على الأريكة ، وأحس بالراحة تتسلل اليه ٠٠ أعصابه ترتاح ٠٠ وعقله يرتاح ٠٠ وقلبه يرتاح ٠٠ وعذابه يرتاح ٠٠ عجيبة ٠٠ انه لا يرتاح الا هنا ٠٠ فى بيته ٠٠ كأن روحه القلقة لا تجد مكانها الا هنا ٠٠ كأن فى داخله وحشا لا يستأنس الا بين يدى زوجته ! ؟ ٠٠

وجلست عواطف بجانبه ومدت يديها تزيح رباط عنقه ٠٠ وألقى رأسه على صدرها فجأة ، وأغمض عينيه ، وقال كأنه يتنفس :

ـ أنا تعبان ٠٠ تعبان قوى ٠٠

ومسحت عواطف على شعره المهوش بيدها ، ضمت رأسه الى صدرها ، وقالت فى حنوتها الحنون :

ـ انت ما بترحمش نفسك يا فتحى ٠٠ نفسى آخدك ونروح رأس البر نقعد يومين من غير شغل ٠٠ من غير شغل خالص ٠٠

وقال فى تعب :

ـ بكره ٠٠ بكره نسافر رأس البر ٠٠ بكره الصبح بدرى ٠٠

وعلت شفتى عواطف ابتسامة كبيرة ٠٠ كأنها وجدت زوجها أخيرا ٠٠ وانحنت وقبلته قبلة هادئة صافية فوق جبينه ٠٠ وظلت محتفظة برأسه فوق صدرها ، كأنها تطرد عذابه بدقات قلبها ٠٠ كأنها تستأنس الفنان القلق الراقد فى أعماقه ٠٠ ولكنه فجأة أزاح

رأسه عن صدرها وصاح كأنه يصرخ :

ــ اللحن •• اللحن •• أنا ماكتبتش اللحن •• باين انى نسيته•

وقام يجرى الى البيانو •• وجلس اليه ، وقد عقد ما بين حاجبيه يحاول أن يذكر اللحن الذى وضعه ليلة أمس وهو سكران •• ان اللحن يطن فى أذنيه •• كصدى بعيد •• ولكنه يستطيع أن يذكره •• نعم يستطيع •• وجرت أصابعه على البيانو تحاول أن تشد من ذاكرته خيوط اللحن ••

وابتسمت عواطف وهى تسمع صوت البيانو يملأ بيتها •• كأنه صوت الحياة ••

وتركته ••

وعادت اليه بعد قليل وفى يدها فنجال شاى •• ووقفت بجانبه تستمع اليه ، ثم قالت وهى تمد له يدها بفنجال الشاى :

ــ هايل •• يجنن •• ده لحن جديد خالص •• حا تسميه ايه ؟

وقال وهو يتناول منها الفنجال ، وحاجباه لا يزالان معقدين :

ــ مش عارف لسه •• يمكن أسميه •• وداع ••

قالت وهى تبتسم : لا •• سميه •• عودة ••

وابتسم •• ورشف رشفة كبيرة من فنجال الشاى الساخن ••

١٤

ذهبت ليلى الى لقاء أختها نبيلة التى كانت تنتظرها فى محل شالون •• وقد ازداد اصفرار وجهها •• كأنها تركت حياتها مع فتحى قبل أن تتركه •• والنظرات فى عينيها مضطربة حزينة يائسة•

واطلت نبيلة فى وجهها وقالت كأنها تلومها : كنتى فين ؟ ••

وقالت ليلى وابتسامة حزينة تشق وجهها الأصفر :

– كنت باودع ..
وقالت نبيلة فى حدة :
– احنا مش اتفقنا انك حا تكونى عاقلة ..
وقالت ليلى فى صوت يائس :
– ما تخافيش .. ما هو مش فاضل لى بعد كده الا العقل ..
وشردت عيناها كأنها تلقي نظرة أخيرة على ماضيها .. على أجمل سنوات عمرها .. وسارت بجانب أختها .. نبيلة ترتدى ثوبا أسود .. وليلى ترتدى الثوب الرمادى كأنها ظل للحداد .. ظل للموت ..

وذهبا الى منزل خالهما حيث كان عصام وأفراد العائلتين قد اجتمعا لتناول الغداء تكريما للعروسين ..

ونظرت الأم بلهفة الى وجه ابنتها المصوص ، ثم سكتت .. كأنها خشيت أن تسألها فتسمع نفس قصتها .. قصة ليلة زفافها يوم تزوجت هى الأخرى رجلا لا تحبه .. ! ؟
وصاحت أم عصام :
– اهلا بعروسة ابنى .. ده أتارى الجواز بيحلى قوى ..
ثم نظرت الى ليلى نظرة ثاقبة ، كأنها اكتشفت فى اصفرار لونها عيبا فيها لم تكن تعرفه .. كأنها غشت فى صفقة تجارية دفعت فيها ثمنا كبيرا ..

وصافح أحمد ليلى فى صمت ، وظل ينظر اليها ..

وارتفع الحديث بين الجميع .. وارتفعت الضحكات .. وأحمد لا يزال ينظر الى اخته .. انه يحس أنها ليست سعيدة .. اكثر من ذلك .. انها بائسة .. انها معذبة ..

وقاموا الى مائدة الغداء .. واحمد لا يزال ينظر الى اخته .. لماذا تزوجت ؟ .. لماذا تزوجت هذا الشخص بالذات ؟ .. انه يعلم لماذا تزوجت ؟ .. لقد كان شريكا في الموافقة على زواجها .. وقد

زوجوها لأنها كانت تحب انسانا آخر ·· زوجوها عقابا لها ·· حكموا عليها بالعذاب المؤبد ··

وحول أحمد نظره عن أخته ·· وحاول ألا يناقش نفسه ·· لقد قرر منذ شهور طويلة ألا يناقش نفسه ·· انه الآن يعيش فى شخصية جديدة ·· شخصية تؤمن بالفعل لا بالمناقشة ·· وحاول أن يتمسك بهذه الشخصية ·· أن يبدو مرحا ، لاهيا ·· كممدوح ·

والتفت الى أخته فيفى قائلا : وانتى ناوية امتى ؟ ··

وقالت فيفى فى بساطة : ناوية ايه ؟ ··

قال : مش ناوية تسافرى انتى كمان ؟ ··

قالت : مش مسافرة ·· اتشطر انت وسافر !··

قال وهو يضحك ضحكة فارغة :

ـ ما هو ياتشوفى حد تسافرى معاه زى ليلى ·· يا تسافرى لوحدك ! ··

وقالت فيفى وهى تنظر اليه فى سخط :

ـ مرسيه ·· متشكرة ·· يعنى مش طايقنى ! ؟ ··

وسكت أحمد عن الضحك ·· أحس أن كلامه بايخ سخيف جارح ، وقال وهو يبتسم لفيفى ابتسامة صغيرة كأنه يعتذر لها :

ـ أنا آسف ·· مش قصدى ·· أقول لك ، تعالى احنا الاتنين نسافر مع بعض ··

ولم ترد عليه فيفى ··

وعاد ينظر الى ليلى صامتا ·· وضجيج الحديث يرتفع من حوله ·· وهو يحس أن ليلى تضيع منه وسط هذا الضجيج ·· هو الذى أضاعها ·· هو المسئول ··

لا ·· ليس مسئولا ·· كل البنات يتزوجن مثل هذه الزيجة فكيف يكون مسئولا وحده ؟ ·· وهو لا يريد أن يكون مسئولا ··

لقد قرر ألا يكون مسئولا عن شيء ·· لقد أعفى نفسه من المسئولية منذ زمان طويل ··

ولكنه ينظر الى ليلى ·· ويرى وجهها المتقع ·· وبصمات العذاب تحت عينيها ·· ونظراتها المسكينة ·· ورعشة شفتيها ·· كأنها شهيدة ·· كأنها ضحية ··

وانتهى الغداء ··

وقالت نبيلة لعصام : احنا نسيبكم ترجعوا مينا هاوس ·· ونبقى نجيلكم بالليل علشان نروح كلنا المطار ··

وصرخت ليلى كأنها تستغيث :

ـ لا ·· ماتسيبونيش ·· لازم تفضلوا لغاية ما أسافر ·· ما هو مش تسيبونى وأنا مسافرة ··

وقالت حماتها وهى تنظر اليها فى خبث :

ـ ما احنا حانسيبك لعريسك ··

وصرخت ليلى كأنها تتحدى :

ـ العريس يقدر يستنى ··

وطافت بعينيها بين أختيها وأمها ، كأنها تتوسل اليهن ألا يتركوها وحدها لعصام ·· ألا يعرضوها مرة أخرى للعذاب الذى عانته ليلة زفافها ·· أرجوكم ·· أعطونى مهلة أخرى ·· ان كل شيء سيحدث ·· ما يريده العريس سيأخذه ·· لمجرد أنه عريس ·· لمجرد انه زوج ·· لا لأنها تريد أن تعطيه ·· لو كان فتحى لتركتكم تذهبون وتدعونى له ·· ولكنه ليس فتحى ·· انه رجل غريب ·· انه زوجى ! ··

وأطال أحمد النظر فى وجه أخته ·· وأحس باستغاثتها ·· وقام فجأة من على مقعده وقال كأنه يصدر قرارا :

ـ أنا نازل بقى ·· وحابقى أجيلكم على المطار ··

ودون أن ينظر الى أحد ·· خرج ··

خرج يدق الأرض بقدميه كأنه يطأ شيئا فى نفسه ·· وركب سيارته الصغيرة التى اشترتها له أمه منذ يومين ·· وقادها وهو يحاول أن يشعر بفرحته بالسيارة ·· حاول أن يقودها بيد واحدة ويسند ذراعه الأخرى على بابها ، كما كان يتعمد أن يفعل ليبدو شابا مستهترا يستهين بقيادة السيارة ·· ولكنه لم يفرح ·· ولم ينطلق ·· ولم يندمج فى الشخصية التى يريدها لنفسه ·· انه يشعر بشعور جديد يزحف عليه ·· يشعر أنه سخيف ·· يشعر أنه ليس هو ·· ليس هو ولا أى انسان آخر ·· انه لا شىء ·· لا أحد ·· لا انسان ··

وقاد السيارة فى اتجاه نادى الجزيرة ·· وقادها داخل طرقات النادى ·· ولكنه لم يتوقف ·· ماذا يفعل فى نادى الجزيرة ؟ ·· انه ناد سخيف ·· وهو سخيف ·· والدنيا كلها سخيفة ·· وخرج بالسيارة من الباب الآخر للنادى ·· وأخذ يقودها فى شارع الجزيرة المطل على النيل ·· وحاول أن يصفر بشفتيه ليسترد مرحه ·· ولكن صفيره خرج ممزقا مشوها ، كأن أنفاسه تعجز عن الصفير ·· وحاول أن يغنى ·· ولكنه لم يجد فى رأسه كلام أغنية ·· ثم وجد مطلع أغنية « على قد الشوق اللى فى عيونى يا جميل سلم » ·· ولكن احساسه بسخفه ازداد ··

وقاد السيارة حتى وصل الى المعادى ·· ثم عاد الى القاهرة ·· واحساسه بسخفه لا ينتهى ·· فاذا ما حاول أن يشغل نفسه باحساس آخر ، أحس بمسئوليته عن التعاسة التى رآها فى عينى أخته ·· فهرب من هذا الاحساس الى الاحساس بالسخف ويعود يحاول أن يتذكر شيئا يشغله عن هذه الأحاسيس ·· لياليه مع جرمين ·· النكات التى سمعها من صديقه عمرو ·· شهيرة ·· انها لا تزال غاضبة منه ·· و··· ولكن كل هذه الخواطر تمر به مرورا سريعا ويعود يحس بسخفه ··

أين يذهب ؟ ..
سيعود الى البيت ..
سيقرأ ..
لقد مضى عليه عهد طويل لم يقرأ فيه شيئا .. أهمل كتبه .. وأهمل ثقافته .. ربما استطاعت القراءة أن تساعده على الهرب من ضيقه .. من احساسه بسخفه ..

ليس فى البيت أحد .. لا بد أنهم جميعا قد استجابوا لاستغاثة ليلى ، وظلوا بجانبها .. ليلى .. مسكينة ليلى .. انها تزوجت رجلا لا تحبه .. ولكن .. هذا نصيب كل البنات .. كل بنت تحب رجلا لا تتزوجه ، وتتزوج رجلا لا تحبه .
وهز كتفيه ليقنع نفسه أنه ليس مسئولا ..

وخلع ثيابه وارتدى البيجاما .. وأخذ يطل فى كتبه لينتقى منها واحدا .. وتردد طويلا فى انتقاء الكتاب .. كل كتاب يحس انه سخيف .. ثم اختار كتابا لمسرحيات أوسكار وايلد .. ان أوسكار وايلد كاتب ساخر .. يهزأ من الجميع .. ويستسخف الجميع .. ربما استطاع أن يهزأ معه من الجميع ..
ورقد على سريره وفتح الكتاب ..

ولكنه لا يستطيع أن يركز ذهنه فى السطور .. ان خواطره كلها منصرفة فى معركته مع نفسه .. المعركة التى يحاول أن يهرب منها .

وانقضت ساعة .. وربما اكثر .. وهو يحاول أن يقرأ .. ثم ترك الكتاب يقع من يده .. ورفع الوسادة التى ينام عليها ، ودفن رأسه تحتها ، وحاول أن يغمض عينيه وينام . ولكنه لا ينام ..

وقام فى السابعة مساء .. ودخل الحمام .. وخلع ثيابه ووقف تحت الدش .. وترك الماء البارد ينسكب فوقه وينزلق على جسده

دون أن يحس به ·· كخيوط المطر تنسكب فوق سقف من الصفيح ·
وهو لا يزال تائها فى خواطره ··
وحاول أن يواجه نفسه بصراحة ··
ان أخته تزوجت ، ولا تبدو سعيدة فى زواجها ·· وستسافر الى أوربا ·· وتبدو كأنها منساقة الى الذبح ··
وماله ···
ما هى مسئوليته ؟ ··
ان أخته نبيلة تحب هى الأخرى شخصا ، ولم يتزوجها ·
وأخته فيفى جاء أستاذها ليخطبها ثم اختفى ··
وأمه لا يدرى مدى اهتمامها بعبد السلام ، وممدوح مات قتل ··
وهو يحب شهيرة وقد خسر حبه ، ويقضى لياليه مع جرمين وهو سكران ··
هل هو مسئول عن كل ذلك ؟ ! ··
لماذا لا يكون القدر ··
الله ····
هل هو الله حتى يحمل هم كل المخلوقات ؟ ··
ولكن ليلى الرقيقة ·· الجميلة ·· كم تبدو بائسة ·· كم تبدو حزينة ·· انه لم يرها أبدا هكذا ··
وبدأ قلبه ينقبض ··
وبدأ عقله يدور بسرعة يبحث لنفسه عن مهرب من هذا الانقباض ·
وخرج من تحت الدش ·· وارتدى القميص والبنطلون بسرعة ·· ثم ركب سيارته وقادها بسرعة ·· سرعة مجنونة ·· وقفز الى خاطره ممدوح ·· ربما حدث له هو الآخر حادث تصادم يموت فيه كما مات ممدوح ·· ربما كان هذا هو المهرب الوحيد من ضيقه ··

ربما كانت الراحة هى الموت ·· وزاد من سرعة السـيارة وهو يسمع صياح الناس ولعناتهم فى الطريق ·· ويبتسم ·· ويزيد من سرعة السيارة أكثر ··

ثم أوقفها عند محل لاباس ··

ودخل وهو يحاول أن يقنع نفسه بأنه أمهر من يقود سيارة ·· يحاول أن يحس بالغرور ·· ولكنه في قرارة نفسه لا يزال يحس بالانقباض ·· والسخف ··

ووجد صديقه عمرو جالسا على البار ·· ان عمرو معه فى كل لياليه ·· انه أعز صديق ·· صحيح انه صديق مفلس ، وهو يدفع له ثمن كل لياليـه ·· ولكنه مخلص ·· مخلص له ·· ومخلص للكأس ··

وابتسم لعمرو ، أحس أنه وجد الواحد الذى يستريح اليه ·

وقال عمرو : ويسكى ؟ ··

وقال أحمد : لا ·· مش دلوقت ·· أصل ورايا مشـوار ·· حاخد قهوة ··

ولم يرفض أحمد الويسكى لأن وراءه مشوار ·· انه يحس بانقباض فى معدته ، كما يحس بانقباض فى صدره ·· كأنه خشى أن يرسل الى معدته كأسا فترد اليه ··

وبدأ عمـرو يتحدث عن جرمين ·· وعن الليلة ·· والليالى التى مضت ·· ويضحك معه ، ولكن ضحكاته تقع ميتة ، ليس فيها روح ·· وقال عمرو : مالك مبلم كده ليه ؟ ··

وقال أحمد كاذبا : أصلى لسه قايم من النوم ··

ثم قام من على مقعده ، واستطرد قائلا :

ـ اسمع ·· لما تيجى جرمين خدها وروحوا الكوفنت جاردن وخد معاك الشلة كلها ·· وأنا حاحصلكم على هناك ··

وقال عمرو ضاحكا : انت يظهر ناوى الليلة ··

وقال أحمد وهو يضحك ضحكة فارغة : للصبح ··

ثم ترك عمرو ، وقاد سيارته فى طريق المطار ·· واحساسه بالضياع يعاوده ·· وحاول أن يقود بسرعة ليتغلب على هذا الاحساس ·· ولكنه لم يستطع ·· غريبة ·· كأن موجة من التعقل تغلبه ··

ووصل الى المطار ··

العروسان والعائلتان كلهم هناك ·· وتعلقت عيناه بوجه ليلى ·· انها لا تزال حزينة بائسة ، والدموع فى عينيها ··

وبدأ احساسه بالمسئولية يعاوده ·· أشد وأعنف مما كان ··

وترددت نظرات حائرة فى عينيه ·· كأنه يبحث عن وسيلة ينقذها بها ··

وارتفع صوت فى ميكروفون المطار يدعو المسافرين ·· صوت عميق رهيب كأنه يأتى من خلال زويعة ·· كأنه يأتى عبر السماء ، كأنه صوت الله يدعو ليلى الى مصيرها المكتوب ··

وانهمرت الدموع ··

وطافت ليلى تمزج دموعها بدموع أمها ودموع أختيها ·· ثم جاءت اليه ·· الى أحمد ·· وألقت نفسها فوق صدره ·· واحتضنته ·· وأجهشت بالبكاء ··

وذهل أحمد ··

كأنه أحس أن أخته تستحلفه أن ينقذها ·· كأنها تذكره بأنه المسئول عنها ·· هو أخوها الكبير ·· رب العائلة ·· وبقيت على صدره أكثر مما بقيت على صدر أمها ·· تنشج بالبكاء ·· وأحمد حائر ·· تائه ·· لا يستطيع أن يتكلم ·· ولا يستطيع أن يبكى ·· لا يستطيع شيئا ·· ثم فجأة احتضنها بين ذراعيه ·· كأنه يحميها ·· كأنه يطمئنها الى أنه قوى ·· وأنه يستطيع أن ينقذها ·· وقبلها ·· قبلها كثيرا ·· وامتدت يد وجذبتها من بين ذراعيه ··

وسمع صوت عصام يقول : يا للا يا ليلى ·· الطيارة حا تقوم ·
وتركها ·· وهو شارد ·· ينظر حوله كأنه لا يرى شيئا ·· ثم احتدت نظرات عينيه وسلطها على عصـــام ·· انه يكرهه ·· يكرهه ··

وظل معلقا نظراته المحتـدة ·· حتى رأى أخته تصعد سـلم الطائرة ، وعصام يقبض يدها ·· كأنه يربطهـا اليه بـ « كلبش » ويسوقها الى السجن ·· والتفتت ليـلى قبل أن تدخل الطائرة ، وهزت يدها فى الهواء هزات ضعيفة ·· والدموع فى عينيها ·· وابتسامة ضعيفة فوق شفتيها ·· ثم وضعت منديلها الصغير فوق عينيها كأنها تحبس موجة من النشيج ·· واختفت داخل الطائرة ·

وأحس أحمد بالذنب ··

أحس بشعاع أسود من الأحاسيس التى أحس بهـا يوم رأى أمامه جثة أخيه ممدوح ملطخة بالدم ·

لقد قتل ليلى ·· كما قتل ممدوح ··

هو المسئول عن ليلى ·

كما كان مسئولا عن ممدوح ··

ولم يحتمل هذا الموقف ·· ولا هذا الاحسـاس ·· ودفع الناس من حوله وجرى خارجا من المطار ، وألقى نفسـه فى سـيارته ، واندفع بها كالمجنون ·· لماذا لا أموت كما مات ممدوح ؟ يا رب ·· الموت ·· حادثة ·· والسيارة تنطلق كأنها جنت وهو يقودها تلقائيا دون أن يفكر ·· يحرك عجلة القيادة ، كأن يدا أخرى تقبض عليها ·

ولم يمت ··

عاد الى محل لاباس ·· ودخل الى البار وصرخ : ويسكى ··

وشرب كأسا ·· وكأسا أخرى ·· والنظرات المحتـدة تنطلق من عينيه ·· وتلفت حوله كأنه يبحث عن شخص يقتله ·· وهو يحس أن الشخص الذى يريد أن يقتله فى داخل نفسه ··

وترك محل لاباس ·· وعاد الى سيارته ·· وقد بدأت أبخرة الخمر تملأ رأسه وخطواته تترنح ·· ونظراته تترنح ··

وقاد سيارته مرة أخرى الى طريق الهرم ·· وأخذ يتكلم طول الطريق كلاما لا يسمعه ولا يفهمه ·· لعله يغنى ·· لعله يشكو ·· لعله يلقى خطابا وطنيا ·· لا يدرى ·· كل ما يدريه أن لسانه يتحرك داخل فمه ··

ووصل الى ملهى الكوفننت جاردن

ودخل ·· وجسده الطويل يترنح ·· وصدره العريض قد انكشف عنه قميصه ، فبدا كأنه صدر ملاكم قوي ·· ورأى فى طريقه حجرا صغيرا شاطه بقدمه ·· ووقف يطل على الناس فى الملهى ، ويداه فى جيبى بنطلونه ، وابتسامة ساخرة سكرى تتدلى على جانب شفتيه ··

وركز عينيه المترنحتين على الناس الذين يرقصون فى الضوء الخافت ··

وفجأة اتسعت عيناه ·· وازدرد وجهه ·· وبرزت عروق عنقه·

ان جرمين تراقص عمرو ·· وهى تقبله ·· شفتاها بين شفتيه ··

المجرم ····

المجرمة ··

اندفع اليهما كالمجنون ··

وشق طريقه بين زحام الراقصين ، وهو لا يرى شيئا من خلال عينيه الثائرتين الا وجه جرمين وهى تقبل صديقه عمرو ·· ووصل اليهما ، وطبق بأصابعه المتشنجة على كتف جرمين العارى وشدها نحوه ، وصرخ فى وجهها : ايه اللى بتعمليه ده ؟ ··

ونظرت اليه نظرات تحد ودهشة ·· وأجابت فى حدة

ـ ايه ·· بارقص ·· يعنى ما ارقصش ؟ ! ··

وصرخ والثورة تشتد فى عينيه ، وأصابعه لا تزال قابضة فى قسوة على كتفها العارى : ده رقص ده ·· انتى كنتى بتبوسيه ·

وصرخت وهى تحاول أن تتملص من أصابعه :

ـ انت مالك ·· أيوه كنت بابوسه ·· انت مالك ومالى ؟ ·· انت اشتريتنى ؟ ·· انت متجوزنى ؟ ! ··

وصاح : أنا مالى يا مجرمة ؟ ! ··

ورفع كفه وهوى بها على صدغها ··

والتفت العيون حولهما ··

ووضعت جرمين يدها مكان الصفعة ·· ثم صرخت ·· وأخذت توالى الصراخ ·· صراخا حادا مسرسعا كأنه الصفير ·· ثم هجمت عليه ونشبت أظافرها الطويلة فى وجهه وأخذت تمزق فيه ·· وهى لا تزال تصرخ ·· وتصرخ ·· وهو لا يحس بأظافرها التى تمزق فى وجهه ·· ولكنه يحس بصراخها ·· انه يملأ أذنيه ·· انه يمزق رأسه ·· يجب أن تسكت عن هذا الصراخ ·· ورفع يده وصفعها مرة أخرى لعلها تسكت ·· ولكنها لا تزال تصرخ ·· وتصرخ ·· واقترب منه عمرو ·· وقال فى لهجة وقورة وهو يشده ناحيته كأنه قادر على اخماد هذا الضجيج :

ـ اعقل أمال يا أحمد ·· الحكاية ما تستاهلش ··

ونظر اليه أحمد فى غيظ ·· ثم كوم قبضته وقذف بها فى وجهه ·· لكمه ··

وفجأة تحول عمرو الى مجنون ·· الى موتور أفلت زمامه ·· أخذت ذراعاه وساقاه تتحرك بسرعة فى اتجاه أحمد ·· انه يصفعه ·· يلكمه ·· يرفسه ·· وأحمد يتلقى الصفعات واللكمات والرفسات ·· يدافع عن نفسه حينا ·· ويضرب حينا ·· وجرمين لا تزال تصرخ ·· والراقصون توقفوا عن الرقص ·· والموسيقى قد ازدادت عنفا وضجيجا كأنها تشترك فى المعركة ·· وتحاول أن

تنتصر عليها .. وأحمد لا يرى شيئا .. انه يضرب ويتلقى الضربات .. وضجيج عنيف يمزق رأسه .. وجرمين لا تزال تصرخ .. لو سكتت جرمين عن الصراخ لاستراح .. ولكنها لا تزال تصرخ .. وهو يحس بعشرات الأيدى تنهال عليه ، وعشرات الأقدام .. ورفع عينيه برهة .. انهليس عمرو وحده .. كل أفراد الشلة نزلوا الى حلبة الرقص .. كل أصدقاء جرمين .. أنصاف الخواجات .. وكلهم يضربونه .. كلهم عليه ، الأوغاد .. السفلة .. لقد كان ينفق عليهم نقوده كل مساء .. كان يعتبرهم أصدقاءه .. أى .. شيء ثقيل اصطدم بمعدته .. لا بد أنها لكمة قوية .. أى .. يخيل اليه أن أسنانه قد تحطمت .. يد صفعته فوق وجهه .. وهو لا يزال يضرب .. يحرك ذراعيه وقدميه فى الهواء بلا هدف .. وهو يحس بشيء ساخن يسيل فوق صدغه .. ان دمه يسيل .. لا يهم .. وهو لا يزال يضرب .. ولكنهم يتكاثرون .. وقميصه قد تمزق .. انه يعرف أن قميصه قد تمزق .. وهو لايزال يضرب .. ولكنهم يتكاثرون .. وهو يحس أنه لم يعد يستطيع أن يرى شيئا .. ان جفونه قد ثقلت حتى لم يعد يستطيع أن يرفعها .. وركبتاه تتخليان عنه .. ان الدنيا تدور به .. لم يعد يستطيع أن يقف على قدميه .. وجرمين لا تزال تصرخ .. عشرات البنات يصرخن .. لو سكت هذا الصراخ لاستراح .. وهو لا يزال يهز ذراعيه وساقيه فى الهواء .. بضعف .. واعياء .. لو جلس على الأرض لاستراح .. لماذا لا يترك نفسه يسقط على الأرض ؟ .. ربما تحمل اكثر هذه الضربات التى تنهال عليه .. لماذا لا يكفون عنه ؟ .. انه لا يكرههم .. لا يريد أن يتشاجر معهم .. لا شأن له بهم .. كل ما يريده أن يلقى على جرمين درسا .. لقد خانته مع أعز أصدقائه ..

واحساسه بالاعياء يزداد ..

لم يعد يحتمل ..

كفوا عنى ..

أرجوكم .. كفاية .. لم أعد أحتمل .. وسقط على الأرض ..

مغمض العينين ..

لا يستطيع أن يرى شيئا ..

والسائل الساخن اللزج يسيل على وجهه ..

وكفت الضربات عنه ..

وكل قطعة منه تؤلمه ..

ولم يشعر بشىء الا بذراعين قويتين ترفعانه من على الأرض وتسحبانه خارج الملهى .. ثم صوت يسأله :

ـ انت معاك عربية ؟ ..

وهز رأسه فى ايجاب ..

ثم استجمع كل قواه ليفتح عينيه ويبحث عن سيارته ..

ورآها حيث تركها ..

وسار مترنحا ، مستندا على كتفى اثنين لا يعرفهما .. لعلهما من الجرسونات .. لعلهما من الزبائن تطوعا لمساعدته .. وفجأة فتح عينيه المورمتين .. ورأى أمامه عمرو .. وكان عمرو يبتسم ويحاول أن يبدو شهما .. يحاول أن يظهر روحا رياضية .. وكان ما حدث لا يعدو أن يكون مباراة حبية فى الملاكمة ..

ووقف عمرو قبالته وابتسامته تملأ وجهه ، وقال :

ـ هات المفاتيح لما أسوق لك لغاية البيت ..

ولم يرد أحمد ، رفع ذراعيه من فوق كتفى الرجلين ، وبذل مجهودا عنيفا ليقف مشدود القامة .. مفتوح الصدر .. وعيناه مختبئتان خلف الورم الكبير الذى يحيط بهما ..

واستطرد عمرو قائلا وهو لا يزال يبتسم كأنه يعتذر :

ـ هات يا أحمد ·· انت مش حا تقدر تسوق وانت فى الحالة دى ··

ولم يرد أحمد ·· انه يحس بكل ما بقى منه يتجمع فى قبضته ·· انه يريد أن يضرب عمرو ·· يجب أن يضربه ·· هذا النذل ·· هذا الخائن · وفجأة انطلقت قبضته واستقرت على وجه عمرو ·· انطلقت بكل ما بقى منه من قوة ·· بكل ما يشعر به من غيظ ·· بكل ما يحس به من آلام ·· وكاد يقع وهو مندفع وراء قبضته ·

وصرخ عمرو وهو يتحسس اللكمة التى استقرت على وجهه :

ـ انت ما تستاهلش ·· انت ندل ·· انت عيل ·· فاكر نفسك راجل يا ابن الـ ····

وهجم على أحمد يريد أن يعاود ضربه ·· ولكن الرجلين أبعداه عنه بالقوة ·· وحملا أحمد حملا الى سيارته ·· وكلام كثير يقال ، يملأ أذنى أحمد ، ولا يستطيع أن يميز منه شيئا ··

وجلس فى سيارته أمام عجلة القيادة ··

وأحس بأسياخ من الألم تنطلق فى كل جسمه بمجرد أن جلس ·· ألم فى ساقيه ·· وألم فى ذراعيه ·· وألم فى صدره ·· وألم فى وجهه ·· وألم تحت عينيه ·· والسائل الساخن اللزج لا يزال يسيل ··

وسمع أحد الرجلين يقول له : حا تقدر تسوق ؟ ··

وهز رأسه وقال وشفتاه تنضحان بالألم : أيوه ·· حاقدر ··

وقاد سيارته فى بطء وهو لا يكاد يرى الطريق ·· وكدمات وجهه تتضخم حتى تكاد تبتلع عينيه ·· وأخرج منديله ووضعه على وجهه ، ونظر فيه ·· انه مليىء ببقع الدم ·· وهز كتفيه بلا مبالاة ·· وظل ممسكا بالمنديل فى يده يجفف به دمه السائل بين الحين والحين ·· وعقله شارد ·· ويعينه شروده على تجاهل آلام جسمه ·· وكان فى شروده يشعر بالغيظ ·· ولكنه لم يكن مغتاظا

من جرمين ، ولا من عمرو ، ولا من أحد من أنصاف الخواجات الذين انهالوا عليه ضربا ٠٠ كان مغتاظا من نفسه ٠٠ كيف عرض نفسه لهذه البهدلة ؟ ٠٠ أى شيطان دفعه الى هذه المهزلة ؟ ٠٠ انه يعرف جرمين ٠٠ يعرف أنها تعطى شفتيها لمن تشاء ٠٠ وفى خلال الأيام التى جمعتهما لم تحاول أبدا أن تقنعه بأنها مخلصة له ٠٠ لم تكن تعترف بشىء اسمه الاخلاص ٠٠ الاخلاص فى عرفها غباء ٠٠ والمرأة المخلصة هى التى لا تجد رجلا آخر ترتكب معه الخيانة ٠٠ كان يعرف عنها كل هذا ٠٠ وكانت تعطيه جسدها بسخاء ٠٠ مزاج ٠٠ ولكنها لم تشعره يوما أن اعطاءها جسدها يمكن أن يترتب عليه أى حق له ٠٠ لقد كان يغار أحيانا ٠٠ وكان يثور عليها أحيانا ٠٠ وكانت تطفىء غيرته بقبلة ٠٠ وتعوضه عن ثورته بليلة ٠٠ لا لأنها تؤمن بأن له حقا عليها ٠٠ ولكن لأن الغيرة تزيد من متعة لياليها ولأنه ينفق على الشلة كلها كل مساء ٠٠ هو الذى يدفع دائما الحساب ٠٠ بسخاء ٠٠ لقد أخذ من أمه خلال الأيام التى عرف فيها جرمين أكثر مما أخذ منها طول حياته ٠٠ ورغم ذلك ما هى جرمين بالنسبة له ؟ ٠٠ لا شىء ٠٠ انها المسمار الذى فجر كبت شبابه ٠٠ لقد كان يستطيع أن يفجر شبابه مع أى امرأة أخرى دون أن يختلف الوضع ٠٠ انهما معا ليسا أكثر من حيوان وحيوانة ٠٠ والرجل لا يحتاج الى امرأة بالذات لتجعل منه حيوانا ٠٠ أى امرأة تصلح ٠٠ فلماذا أثار هذه الضجة عندما رأى جرمين تقبل صديقه عمرو ؟ ٠٠ لأن عمرو خانه ٠٠ ان عمرو أيضا يعلم من هى جرمين ؟ ٠٠ وربما اعتبر نفسه أولى من غيره بفرصة تسنح لتقبيلها ٠٠ اذن ، لماذا ؟ ٠٠ لماذا ؟ ٠٠ ربما لأنه ساعتها كان يريد أن يثير خناقة مع أى مخلوق ؟ ٠٠ لو لم ير جرمين تقبل عمرو ، لبحث عن سبب آخر يثير به خناقة ٠٠ كان يريد أن يتشاجر مع نفسه ٠٠ نعم ٠٠ كان يريد أن يضرب نفسه ٠٠

وقفزت الى ذهنه صورة أخته ليلى وهى مسافرة مع عريسها والبؤس يملأ وجهها ·· انه مسئول عن زواج أخته ليلى ·· وهو مسئول عن بؤسها ·· وقد أراد أن يعاقب نفسه لتخليه عنها ·· لتفريطه فى سعادتها ··

وبدأ شعوره بالغيظ يعاوده ·· الغيظ من نفسه ··

وبدأت تصرفاته كلها تقفز الى مخيلته ·· حتى التصرفات الصغيرة ·· تصرفاته وهو جالس على البار ·· وتصرفاته وهو يسير بالقميص والبنطلون كأنه يمثل فى أحد أفلام رعاة البقر ·· وتصرفاته مع أمه ·· ومع اخوته ·· ومع شهيرة ·· ومع أصدقائه ·· ويغتاظ ·· ويشتد غيظه من نفسه ·· انه تافه ·· تافه ·· طفل كبير ·· انه يعيش بلا ارادة ·· بلا عقل ·· وهو مغتاظ من نفسه ·· وغيظه يطغى على آلام جسمه ·· ثم يشتد الغيظ حتى يصبح خجلا ·· انه خجل من نفسه ·· وضغط بأسنانه على شفتيه كأنه يشرب دماء خجله ··

وأوقف السيارة أمام البيت ··

وهم أن ينزل منها فتأوه ·· آى ·· ان عظامه تؤلمه ·· هؤلاء الأوغاد ، لقد حطموه ··

وتلفت حوله وهو يتحامل على نفسه ·· وأغلق باب السيارة فى هدوء ·· انه لا يريد أن يوقظ عم عبد الله البواب ، حتى لا يراه وهو ممزق القميص ، والكدمات على وجهه ·· حتى لا يراه وهو مبهدل ··

وتسلل الى داخل البيت وهو يستند الى الجدار بيده ··

وصاح عم عبد الله من داخل غرفته الخشبية : مين ؟ ··

وقال أحمد فى صوت ضعيف : أنا أحمد ··

وسكت عم عبد الله كأنه وجد أن القادم لا يستحق اهتمامه ··

ورفع أحمد رأسه الى البيت ، ووجد غرفة أمه مضاءة ··

وتوقف ·· انه يحتمل أى شىء الا أن يقابل أمه الآن ·· وفكر أن يعود ·· ولكنه لا يستطيع ·· انه متعب ·· أعجز من أن يذهب الى أى مكان ·· وخطا نحو البيت وهو يتحسس الظلام بخطاه ، وفى قلبه دعوة حارة ألا تتنبه أمه الى عودته ··

وصعد السلم على أطراف أصابعه ·· ودخل حجرته وهو لا يزال يسير على أطراف أصابعه ·· وأغلق الباب وراءه ·· وأضاء النور ·· ونظر الى وجهه فى المرآة ·· يا حفيظ ·· كل هذا حدث له ؟ ·· وجهه قد اختلطت فيه ألوان الأسود والأزرق والأحمر ·· وكدمات بشعة تحت عينيه ·· وجرح عميق يشق حاجبيه ·· وخده وارم ·· وخطوط من الدم كأسلاك النار تسرى فى عنقه وفوق صدره ·· خرابيش جرمين ·· انه بشع ·· لا يمكن أن يكون هو هذا الانسان ·· وأخذ يتفرج على نفسه فى المرآة ! كأنه يتفرج على انسان آخر ·· انسان لا يعرفه ·· أو هو انسان يعرفه ولكنه يتبرأ من معرفته ··

وأحس بباب غرفته يفتح ··

وأدار ظهره بسرعة حتى لا يرى القادم وجهه ··

وسمع صوت أمه يقول :

ـ انت جيت يا أحمد ؟ ·· أنا من ساعة ما سافرت أختك وأنا مش طايقة نفسى ·· مش عارفة أنام ولا أقعد ··

وقال وهو مدير ظهره لها ، ويحاول أن يضبط نبرات صوته :

ـ معلهش يا ماما ·· حاولى تنامى ··

ولم تخدع الأم فى صوته ، وقالت وقد نضح صوتها بالجزع

ـ انت مالك يا أحمد ؟ ··

وقال أحمد وظهره لها ، وقد بدأ يتعب من الوقوف على قدميه :

ـ ما ليش ··

وقالت الأم بصوت حازم : بص لى ··

وتنهد أحمد كأنه قرر ألا يقاوم ·· وأدار وجهه لها ·· وخبطت الأم على صدرها وصرخت :

ـ يا مصيبتى ·· ايه اللى عمل فيك كده ؟ ··

قال ورأسه منكس :

ـ جماعة أصحابى اتخانقوا ·· واضطريت أدخل فى الخناقة ·

وقالت الأم وهى لا تزال تصرخ : اوعى تكون اتصادمت بالعربية ؟ ··

وقال فى ضعف : لا ·· خناقة ··

ثم رفع اليها عينين متوسلتين كأنه يرجوها ألا تلومه ·· انه يلوم نفسه أكثر مما يمكن أن تلومه ·· انه مغتاظ من نفسه ·· قرفان من نفسه ·· زهقان من نفسه ··

ولم تلمه الأم ·· ابتلعت صارخها ·· والجزع يملأ وجهها ·· ثم التقطت يده فى يدها وقادته الى سريره ، وهى تقول :

ـ طيب استريح يا حبيبى ·· على بال ما أجيب حتة قطنة وشوية صبغة يود ··

وخرجت الأم ، وأيقظت نبيلة وفيفى ·· وشعر أحمد أنها أيقظتهما ·· وازداد خجله من نفسه ·· انه لا يريد أن ترى أختاه هذا الشخص الآخر ·· الشخص الذى اكتشفه أخيرا فى نفسه ·· الشخص الذى يكرهه ويقرف منه ··

وجاءت نبيلة ، وصرخت فى ارتياع وهى تطل فى وجهه :

ـ يا خبر يا آبيه ·· حد يعمل فى نفسه كده ! ··

وقالت فيفى وشفقتها تختلط بسخطها :

ـ انت لازم كنت سكران ! ؟ ··

ولم يرد عليهما ··

وجاءت الأم وابنتاها باناء ملىء بالماء الساخن ·· ولفافة من القطن ·· وزجاجات صبغة اليود ، والميكروكروم ، وعلبة المرهم

وكل ما وجدنه فى البيت مما اعتقدن أنه يصلح لعلاجه ·· وأخذن يضمدن جراحه ·· ويبدلن ثيابه ·· وهو ساكت ·· يكتم الألم بكل قواه ·· وتخرج من بين شفتيه آهة خافتة ، لا يلبث أن يقاومها ، ويعود ساكتا ·· تاركا نفسه لهن ·· لا ينظر اليهن ··

خجل من نفسه ··

ثم نام ··

كأنه لم يعد يطيق الحياة ··

وأدارت الأم رأسها عنه ، ورفعت ذراعها ، وجففت بكم ثوبها دمعة كبيرة انحدرت فوق خدها ··

وفيفى ونبيلة واقفتان تنظران الى أخيهما النائم ·· صامتتان ·

واستيقظ أحمد فى اليوم التالى متأخرا ·· ربما كانت الساعة الحادية عشرة ، أو الثانية عشرة ·· انه لا يدرى ·· ولكنه يحس بآلام تفرى عظامه ·· كل عظامه تؤلمه ·· ويحس بالكدمات فوق وجهه ثقيلة ·· كأنه يحمل وجها آخر فوق وجهه ·· وقام متثاقلا من فراشه ·· وأطل فى المرآة ·· ورأى وجهه مضمدا بقطع القطن والشاش وأشرطة المشمع ·· كأن نافذة تحطم زجاجها فسدت خروقها بورق الجرائد ··

وابتسم ·· ابتسم ابتسامة كبيرة ·· وحاول أن يضحك ، لولا أن أحس بألم عندما هم أن يفتح شفتيه ·· أحس كأنه ينظر فى المرآة الى وجه طفل شقى ، كل ما يستطيعه حياله هو أن يصفح عنه ·· لأنه طفل ·· غير مسئول ··

وعاد بسرعة الى فراشه ورقد فيه وهو يقول لنفسه

ـ نام أحسن ··

ولم يغمض عينيه ·· ظل ناظرا الى السقف ·· وابتسامته تتطور بين شفتيه ·· أصبحت ابتسامته ساخرة ·· يسخر بها من نفسه ·· ثم تطورت الى ابتسامة رثاء ·· يرثى بها نفسه ·· ثم

أصبحت ابتسامة مرة ساخطة كأنه يسخط على نفسه ·· وهو فى خلال ذلك يستطرد فى مناقشة نفسه ·· لقد مضى عليه وقت طويل لم يناقش فيه نفسه ·· كان يهرب من مواجهة نفسه ·· ولكنه الآن يحس بأنه قادر على مواجهة نفسه ·· ويحس كأنه يلتقى بانسان غاب عنه طويلا وأوحشه ·· انه يناقش نفســه بعقليته القديمة ، ويستخدم هوايته القديمة فى قراءة وجوه الناس ·· انه الآن يقرأ نفسه ·· يقرأ وجهه ··

وبدأ يسائل نفســه كيف عرف جرمين ؟ ·· وتوالت ذكرياته بسرعة ·· كيف سهر معها أول ليـلة ؟ ·· وكيف أخذته الى بيت صديقتها ·· ثم كيف تعود أن يلقاها كل ليـلة ؟ ·· وكيف أصبح سكيرا ؟ ·· يسكر كل ليلة ·· وكيف أهان شهيرة وأهملها وأهمل حبها ؟ ·· و ··

متى بدأ كل ذلك ؟ ··

وتردد فى أن يجيب على نفسه ··

كان من الصعب عليه أن يواجه الجواب ·· ان الجواب يحتاج الى كل شجاعته ، وكل قدرته النفسية على مواجهة نفسه ··

انه يعرف الجواب ·· ولكنه يهرب منه ··

منذ شهور وهو يهرب ··

ولكنه يجب أن يكون شجاعا ويواجه الحقيقة ··

وعقد ما بين حاجبيه ·· ثم أغمض عينيه ·· وترك الجواب على سؤاله يقفز الى عقله ··

لقد حدث كل هذا عقب موت ممدوح ·· ممدوح هو السبب ·· أخوه هو الذى فعل به كل هذا ··

ولاحت صورة ممدوح أمام عينيه ·· وتذكر آخر يوم جمعهما لقد كان ممدوح يريد نقودا ·· ألفى جنيه ·· وتشاجر مع أمه ··

وحاول أن يحطم الدولاب ·· فهجم عليه وصفعه ·· وخرج ممدوح ثائرا ·· وعاد ·· عاد جثة مضرجة بالدم ··

وفتح أحمد عينيه حتى لا يستطرد فى خواطره ·· حتى لا يرى فى خياله جثة ممدوح مضرجة بالدم ·· وتقلص وجهه حتى شعر بالجروح التى تملأ وجهه تتفتح من جديد ·· ولكنه كان يجب أن يستمر فى مواجهة نفسه ·· انه فى حاجة الى اكتشاف نفسه ، والا جن ·· والا انقاد الى هاوية أبعد من الهاوية التى سقط فيها·

ماذا حدث بعد أن مات ممدوح ؟ ··

لقد دهمه شعور بالذنب ·· خيل اليه أنه قتل أخاه ! ··

انه يذكر الأحاسيس التى عاش فيها أيامها ·· لقد كان يردد باستمرار أنه مسئول عن موت أخيه ··

لقد كان مختلفا معه فى الرأى ··

هذا صحيح ··

وكان رأيه خطأ ، ورأى ممدوح هو الصواب ··

هذا صحيح أيضا ··

ولكن الاختلاف فى الرأى لا يمكن أن يحمله مسئولية موت أخيه ·· انه نادم ·· نادم ·· ان الندم يمزق أعصابه ·· ولكن ما شعر به يومها لم يكن الندم ·· كان الاحساس بالجريمة ·· ودفعه هذا الاحساس الى أن فقد سيطرته على نفسه ·· أصبح انسانا آخر ·· انسانا لا يريد أن يكونه ·· لا يستطيع أن يكونه ·· أصبح مسخا يقلد ممدوح ·· نعم لقد كان يقلد ممدوح ··

وأسقط أحمد رأسه فوق صدره عندما وصل الى هذه المرحلة من تفكيره ··

وأحس كأنه يلوم ممدوح ··

أحس كأنه يكره ممدوح لأنه حاول أن يقلده ولم يستطع ··

ولكنه أبعد هذه الأحاسيس عن نفسه ·· انه لا يستطيع أن

يواجهها ·· لا يستطيع أن يعترف بها ··

وعاد يناقش نفسه : كيف يسيطر الانسان على نفسه ؟ ·· بالارادة ··

وكل ما حدث له بعد موت ممدوح أنه فقد ارادته ، وترك نفسه لعواطفه تدفعه رغما عنه ·· وكل ما يحتاج اليه الآن هو أن يستعيد ارادته ··

الارادة ·· الارادة ·· الارادة ·· وأخذ يردد بينه وبين نفسه كلمة : الارادة ·· ثم خاطب نفسه قائلا : « ولكن ·· لقد كانت لى ارادة قبل أن يموت ممدوح ، ورغم ذلك لم أفعل بها شيئا ·· لم أعرف طريقى ·· لا يهم ·· اذا لم تكن لى ارادة لأفعل ما أريد فعلى الأقل لتكن لى ارادة حتى لا أفعل ما لا أريد » ··

وبرقت عيناه كأنه رأى نور الشمس ·· واتسعت ابتسامته ·· سيكون له ارادة حتى لا يقابل جرمين ·· وحتى لا يسكر كل ليلة ·· وحتى لا يكون هذا الشخص الآخر الذى لا يريد أن يكونه ··

ودخلت اليه أمه وعلى شفتيها ابتسامة حزينة وقالت وهى تنظر فى وجهه لتطمئن الى جروحه :

ـ انت صحيت يا أحمد ، مش تقوم تلبس علشان تروح للدكتور ؟

وقال وهو يبتسم لها كأنه يعتذر عما حدث له : ما فيش لزوم·

وقالت الأم فى جزع :

ـ بس علشان يطمنا على عينك ·· يمكن يكون حصل فيها حاجة ·· علشان خاطرى يا أحمد ··

وقال أحمد وهو لا يزال يبتسم :

ـ عينى ما فيهاش حاجة يا ماما ، على كل حال نستنى لبكرة ·

ونظرت اليه الأم فى تردد ، ثم ابتلعت أنفاسها كأنها تذكرت أنها قررت ألا تناقش أحدا من أولادها ، وقالت :

ـ طيب يا حبيبى ·· أجيب لك تفطر ·· أنا قلت لهم يعملوا لك شوربة فراخ ··

وقال أحمد وهو يقوم من فراشه :

ـ أنا حا أقوم آكل فى أودة السفرة ··

وخرج أحمد ، وجلس الى المائدة يتناول افطاره ، ويتناول معه الألم الذى تسببه له جروحه كلما فتح فمه وأغلقه ·· ثم عاد الى غرفته يشرد مع خواطره حينا ·· ويتعب من خواطره فيفتح كتابا من كتبه التى أهملها طويلا ·· وكان يتعمد أن يختار كتابا سبق أن قرأه ، ويقلب صفحاته كأنه يستعيد أيامه الحلوة ·· كأنه يتذكر ثقافته ·· كأنه يعود الى نفسه ··

ونام فى فترة بعد الظهر ··

واستيقظ فى الساعة السابعة ، وسمع نبيلة تملأ البيت صياحا :

ـ ماما ، ماما ، تلغراف من ليلى ، تلغراف من ليلى ، وابتسم ·

وظل فى غرفته لا يخرج وراء البرقية التى جاءت من أخته ·· الى أن فتحت نبيلة عليه الباب ، واندفعت نحوه صائحة فى فرح

ـ ليلى بعتت تلغراف يا آبيه ··

وناولته البرقية ، وقرأها وهو يبتسم ابتسامة رجل كبير :

« وصلنا بالسلامة ، قبلاتنا للجميع ـ ليلى ، عصام » ··

وظل محتفظا بابتسامته ·· ورغم ذلك فقد شعر بشىء ينقبض فى صدره عندما قرأ اسم أخته ليلى بجانب اسم عصام ·· كأنه تذكر خطأ آخر من أخطائه ·· تذكر مسئوليته ··

وقرأ عنوان البرقية ·· انها معنونة باسمه ·· اسمه هو ·· أحمد زهدى ·· لا باسم أمه ولا باسم خاله ·· كأن أخته تذكره بمسئوليته ·· كأنه تذكره بأنه كبير العائلة ··

ترى هل هى سعيدة ؟ ··

واذا لم تكن سعيدة ، فلماذا لا تطلعه على عذابها ؟ ·· لماذا لا

تجلس اليه وتروى له القصة كلها ، حتى يستطيع بعد ذلك أن يحمل مسئوليتها ؟ .. ولكنه لم يعطها الفرصة لتروى له قصتها .. لقد ضربها يوم حاولت أن تهرب من البيت .. وربما ليس من عادة البنات أن يروين قصصهن لاخوتهن ، انما يجب على الأخ أن يعرف القصة دون أن تروى له .. انها دائما قصة واحدة .. قصة حب .. وكان كل ما يجب عليه أن يترك هذا الحب يتنفس .. يعيش .. أو يساعدها على قتله ..

والتفت الى نبيلة ، ونظر فى وجهها كأنه يبحث فى وجهها عن قصتها هى الأخرى ، وقال مبتسما :

ـ زمانهم دلوقت هايصين .. عقبالك ..

وقالت نبيلة فى فرح :

ـ أنا حا اقعد اكتب لها جواب دلوقت .. تحب تقول لها حاجة ؟

وقال : لا .. أنا كمان حا اكتب لها جواب ، بس مش دلوقت .

وخرجت نبيلة وهو يتبعها بعينيه .. ويحاول أن يستزيد من احساسه بمسئوليته عنها .. اذا كان قد أهمل فى مسئوليته تجاه ليلى .. فيجب أن يكون مسئولا عن سعادة نبيلة .. وفيفى .. وأمه .. و .. ولكن كيف ؟ ..

هذا ما لا يعرفه ، ولا يدريه .. ! ؟

وسمع صوت الباب الخارجى يفتح ، ثم دخلت فيفى تقول له :

ـ خالى جه ، وعايز يشوفك .. أخليه يتفضل هنا ؟ ..

وقال أحمد : أنا حا اخرج اقعد معاه ..

وارتدى الروب دى شامبر ، وخرج بوجهه المربط بالشاش والمشمع .. وصافح خاله فى هدوء ..

وقال خاله وهو يفتعل الحدة :

ـ ايه ده يا أحمد ؟ .. حد يعمل فى نفسه كده ! .. انت بقيت راجل يا أخى ؟ .. ولازم تحترم نفسك .. وتحترم عيلتك .. !

وقال أحمد فى هدوء : فعلا أنا غلطان يا خالى ٠٠ انما ظروف وباذن الله مش حا تتكرر ٠٠

واستمر خاله ينصحه حينا ، وينهره حينا ٠٠ وأحمد يستمع اليه فى هدوء بارد ٠٠ وخيل اليه أن خاله متضايق أكثر من اللازم ٠٠ ليس متضايقا لما جرى له ٠٠ بل لسبب آخر لا يدريه ٠٠ الى أن قال الخال :

ـ ده حتى عمك عبد السلام كان جاى الليلة ٠٠ وأنا اللى طلبت منه انه ما يجيش علشان ما يشوفش الفضايح اللى بتعملها ٠

وابتسم أحمد ٠٠ عرف السر ٠٠

ان كل ما يضايق خاله هو أنه حرم من ليلة يقضيها مع صديقه عبد السلام ٠٠ وقد تعود منذ مدة أن يقضى مع صديقه كل ليلة هنا ٠٠ فى هذا البيت ٠٠ ويشربان الويسكى ٠٠ وأمه تجلس معهما ٠٠ وأخواته البنات فى حجرتهن ٠٠ وكان أحمد يعلم ٠٠ ولكنه لم يكن يهتم ٠٠ كان كل ما يهمه أن يخرج من البيت ليشرب هو الآخر فى مكان آخر ٠٠ لماذا لم يكن يهتم ؟ ٠٠ كيف سكت على نزوة خاله ؟ ٠ لا يدرى ؟ ٠٠

وربما كان خاله معذورا ٠٠ انه يجتاز حالة نفسية عنيفة بعد أن أحيل الى المعاش ٠٠ وهو فى حاجة لأن يشرب الويسكى ٠٠ ولكن لماذا لا يشرب الويسكى فى بيته بدل أن يشربه فى بيت أخته ؟ هل يخاف على مظهر بيته أكثر مما يخاف على مظهر بيت أخته ٠٠ هل يخاف على بناته أكثر مما يخاف على بنات أخته ؟ ٠٠ أم ربما كان يدبر زواجا بين أخته وبين صديقه عبد السلام ؟ ٠٠

ان أحمد لا يدرى ٠٠

كل ما يدريه أن وجوده فى البيت هـذه الليـلة سيحرم خاله وصديقه من تناول الويسكى ٠٠

وهو سيبقى فى البيت كل ليلة ٠٠

ان مسئوليته في حماية مظهر العائلة لا تكلفه أكثر من البقاء في البيت ..

ما أبسطها من مسئولية .. !

ونظر الى خاله وهو يبتسم كأنه يتحداه .. يتحداه أن يشرب الويسكي وهو أمامه ..

وقضى أحمد أربعة أيام في البيت يضمد جراحه ، ثم قام مبكرا في صباح اليوم الخامس .. وارتدى ثيابه كاملة .. ووضع حول عنقه كرافت أسود .. انه لن يهرب من حداده على أخيه .. بالعكس .. ربما كان الكرافت الأسود يخفف من الشعور بالحزن .. كأن الانسان يجمع كل حزنه ويلفه في هذه القطعة السوداء من القماش ، ويريح نفسه .. وارتدى سترته .. وحمل كتابا في يده .. وألقى نظرة أخيرة على وجهه وقد ترك عليه ضمادا صغيرا فوق حاجبه ، وضمادا آخر فوق خده .. ثم خرج .. وسار في شارع عبد العزيز آل سعود المحاذي للنيل ، دون أن يحاول أن يبدو مستهترا .. سار في خطى متزنة جادة كما كانت عادته .. ووصل الى ميدان سليمان باشا واشترى جريدة الأهرام من بائع الصحف ، ثم دخل الى محل جروبي .. لا بحكم العادة ، ولكن بحكم ارادته .. انه يريد أن يعود الى جروبي ، ليعود الى مظاهر شخصيته القديمة ..

واستقبله الجرسون بابتسامة كبيرة ، فتحت قلب أحمد .. انه لا يزال يعيش في ذاكرة الناس الذين تركهم .. وطلب فنجان الشاي، وقطعة الكعك .. وأخذ يقرأ في الجريدة ..

ثم قام بعد فترة وسار على قدميه حتى وصل الى وزارة المالية في موعد دخول الموظفين ، ووقع بامضائه على الساعة .. وصعد السلم ، وهو يحس بأنه انسان مسئول متجه الى عمله ..

واستقبله زملاؤه كعادتهم متطلعين .. وراعهم أنه جاء اليهم هذا الصباح مرتديا بذلته الكاملة .. وقال الأستاذ عبد الله فرحات في شماتة :

ـ الحمد لله على السلامة يا أحمد بيه ٠٠ وحشتنا ٠٠

وقال الأستاذ عبد العظيم فهمى :

ـ كنت فين يا أستاذ أحمد ؟ خضيتنا عليك ٠٠ خير ان شاء الله٠

وقال أحمد وهو يجلس على مكتبه : أبدا ٠٠ حادثة بسيطة ٠٠

ومد يده الى كوم الدوسيهات الموضوع على مكتبه ٠٠ ان زملاءه منذ أحيل خاله على المعاش ، وهم يحيلون عليه كل الدوسيهات ٠٠ وجذب واحدا منها وفتحه أمامه ٠٠

وقال فريد أفندى ابراهيم :

ـ انما الأستاذ أحمد جاى النهاردة رسمى خالص ٠٠ كرافتة وجاكتة ٠٠ أمال فين الثورة اللى كنت عايز تعملها علشان كلنا نيجى بالقميص والبنطلون ؟ ! ٠٠

ورفع أحمد اليه رأسه وقال :

ـ الثورة لسه موجودة ٠٠ بس شد حيلك وانضم لها ٠٠

وعاد يقلب فى أوراق الدوسيه الذى أمامه ٠٠ وما لبث أن دخل اليه الساعي يستدعيه لمقابلة رئيس القسم ٠٠

وقام أحمد واقفا ٠٠ ونظر اليه زملاؤه ، ثم نظروا بعضهم الى بعض وبين شفاههم ابتسامات خبيثة ٠٠

ودخل أحمد الى رئيسه وهو يتعمد أن يبدو مهذبا ٠٠

ولم يقف الرئيس لاستقباله كعادته ، وقال وهو جالس :

ـ صباح الخير يا أستاذ أحمد ٠٠ حضرتك متغيب بقى لك أربعة أيام ٠٠ مش كده ؟ ٠٠

وقال أحمد فى أدب : والله كنت عيان شوية ٠٠

وقال الرئيس وصوته يحتد :

ـ لما تكون عيان يبقى لازم تبلغ الوزارة علشان تحيلك على القومسيون الطبى ٠٠ النظام كده ٠٠ الأصول كده ٠٠ والكل لازم يمشى على الأصول ٠٠ كل الموظفين سواسيه ٠٠ ما فيش خيار

وفاقوس ·· الدنيا اتغيرت يا أستاذ أحمد ·· ولازم تعرف انها اتغيرت ··!

ونظر اليه أحمد فى دهشة ، وقال وهو يحاول أن يبدو هادئا

ـ أنا الحقيقة ما كنتش أعرف الأصول دى ، انما ··

وخبط رئيس القلم على حافة مكتبه بقبضة يده وقال

ـ الجهل بالقانون لا يعتبر عذرا ·· وأنا مضطر أوقع عليك عقاب ·· حا اطلب خصم خمستاشر يوم من مرتبك ·· أنا مضطر أكون شديد معاك لغاية ما تاخد على النظام ··

وأخذ أحمد ينظر اليه فى دهشة ·· ثم انقلبت دهشته الى قرف ·· الى سخط ·· وأدار ظهره وهم بالخروج دون أن يتكلم وصاح فيه رئيسه قائلا : رايح على فين ؟ ··

والتفت اليه أحمد وقال فى حدة :

ـ انت مش بتقول حا تعاقبنى ·· اتفضل عاقبنى ··

وارتعشت رموش ريس القلم خلف زجاج نظارته ·· وتردد وهو يواجه أحمد ·· وربما خيل اليه ساعتها أن خال أحمد لا يزال له نفوذ فى الوزارة ، فعاد يقول :

ـ أيوه ·· بس أنا مش عاوزك تزعل ·· الحق حق ·· اتفضل نتفاهم ··

وقال أحمد وهو يخرج : لا ·· عن اذنك ··

★ ★ ★

وعاد الى مكتبه ووجهه مزدرد ، وهو يردد بينه وبين نفسه الارادة ·· الارادة ·· ثم جلس الى مكتبه ، وأخرج ورقة بيضاء وكتب :

السيد مدير ادارة المعاشات ··

« بعد التحية ·· أرجو قبول استقالتى ·· وتفضلوا بقبول فائق الاحترام » ·· ثم وقع بامضائه ·· وبحث عن ظرف وضع فيه

استقالته ·· وزملاؤه ينظرون اليه فى تطلع ودهشــة ·· ثم نادى الساعى ، وناوله الظرف قائلا :

ـ خد ·· ادى الجواب ده لســيادة الرئيس ·· وقول له انى حابعت له جواب كمان بالبريد المسجل ··

ثم قفز واقفا ·· وقال وهو ينظر فى وجوه زملائه ، ويرفع يده كأنه يصفعهم :

ـ السلام عليكم يا جماعة ·· نشوف وشكم بخير ! ؟ ··

ونزل السلم فى خطوات سريعة ، وطلب من الساعى أن يستدعى له سيارة أجرة ، ثم ناوله ورقة من ذات العشرة القروش وهو يقول : خد بالك من الوزارة يا عبده ·· أحسن أنا مش راجع تانى ·

وانحنى عبده يقبل اليد التى منحته القروش العشرة ··

ووضع أحمد نفسه داخل السيارة ، وصاح فى السائق :

ـ نادى الجزيرة يا أسطى ··

ـ ١ ـ

وجلس أحمد فى السيارة الأجرة وهى تتجه به الى نادى الجزيرة ، وعلى شفتيه ابتسامة كبيرة ·· انه سعيد ·· سعيد لأنه اكتشف أن له ارادة ·· ولأنه استعمل ارادته ·· واستقال من وظيفته ·· والذى دفعه الى الاستقالة ليس الاستهتار ، وليس تهديد رئيسه له بتوقيع عقاب عليه ·· ولكنه شعر وهو يكتب استقالته أنه يحقق حلما قديما له ·· حلما كان أعجز من أن يحققه لأنه كان ضــعيف الارادة ·· ولكنه الآن قوى الارادة ·· ويستطيع أن يحقق كل أحلامه ··

والسيارة تمرق به فى شوارع القاهرة ··

وفجأة قفز الى ذهنه سؤال :

ـ ماذا يفعل الآن بعد أن استقال ؟ ··

ومرت على وجهه سحابة من الحيرة ·· ولكن ابتسامته لا تزال بين شفتيه ·· وهز كتفيه بلا مبالاة ·· لا يهم ما يفعله بعد أن استقال ·· المهم أنه استقال ·· أزاح عن صدره عبئا كان يتعبه ·· انه يشعر بعد أن استقال أنه تحرر ·· تحرر من الذل ·· وتحرر من خاله ·· وتحرر من وضع فرضته عليه العقول القديمة ·· وهو فرح ·· يريد أن يشرك كل الناس فى فرحته ·· يريد أن يدخل الى النادى ويصيح : لقد استقلت ·· كأنه يعلن انتصاره ··

ومرت فى خياله وجوه الناس الذين سيستقبلون خبر استقالته ·· ثم توقف خياله على وجه شهيرة ·· انها هى التى يريدها أن تعلم ـ قبل كل الناس ـ أنه استقال ·· يريدها أن تعلم قبل أن تعلم أمه ·· وقبل أن تعلم أختاه نبيلة وفيفى ·· انه يريد أن يقدم لها شخصيته الجديدة ·· وأكثر من ذلك ·· انه يشعر بحاجته اليها فى هذا اليوم ·· كأنه يخاف أن يخوض الأيام المقبلة وحده ، ويريدها أن تخوضها معه ·· أن تشاركه فيها ·· أن تبحث معه عن علامات الطريق ··

ولكن ··

هل لا تزال شهيرة تهتم به ·· ؟

انها لم تحاول أن تتصل به فى التليفون منذ أن عرفت علاقته بجرمين ·· ولم تدعه الى حفلة من الحفلات التى أقامتها فى بيتها ولكنه كان يقابلها فى النادى ·· وكان يجلس أحيانا الى مائدة تضم كل أفراد الشلة ·· وكانت تتعمد ألا توجه اليه حديثا ·· كانت تتعمد ألا تضع عينيها فى عينيه ·· وقد حاول مرات أن يبادلها الحديث ·· كان يحاول أن يبدو أمامها مستهترا كباقى الشبان ، لا يعيبه أن يصاحب أكثر من فتاة ·· ولكنه فشل فى مبادلتها الحديث ·· وكانت تقوم وتترك المائدة اذا ألح فى محاولته

زمان ..

ربما كان هذا الاصرار على صده ، دليلا على الاهتمام بأمره .

واتسعت ابتسامته ، كأنه يطمئن نفسه .. ووقفت به السيارة أمام الباب الداخلى للنادى ، ونزل منها وكتابه تحت ابطه ، ووقف يدفع أجر السائق ، وهو يسائل نفسه فى تعجب : لماذا لم يستعمل سيارته الخاصة الجديدة ، هذا الصباح ؟ .. ربما لأنه أراد أن يذهب الى الوزارة بشخصيته القديمة ؟ .. ولكن ما دخل الشخصية فى أن تكون له سيارة خاصة ؟ .. آن الذين يركبون السيارات لهم مختلف الشخصيات .. بينهم شخصيات فاشلة ، وشخصيات ناجحة .. شخصيات حائرة ، وشخصيات مستقرة .. ان السيارة قد تؤثر على مظهر الشخصية ، ولكنها لا تؤثر على جوهرها ..

وانتهى من دفع أجر السائق ، وقد اتخذ بينه وبين نفسه قرارا بأن يعود الى استعمال سيارته الجديدة ..

وصعد الدرجات القليلة المؤدية الى الشرفة المطلة على حمام السباحة .. وهو يشعر باحساسه القديم .. انه ليس حائرا ولا منطويا كما كان يدخل النادى قبل وفاة ممدوح .. وليس مستهترا ولا وقحا كما كان يدخله بعد وفاة ممدوح .. ولكنه يشعر بأنه يمتلك هذا النادى لأنه عضو فيه .. يشعر بارادته .. ارادته فى أن يجىء الى النادى .. وارادته فى أن يحادث من يشاء من أعضائه ، أو لا يحادث من يشاء ..

ووقف ممدود القامة ، مفرود الصدر .. وضماد صغير من المشمع فوق حاجبيه ، وضماد صغير آخر فوق خده .. وأخذ يدير عينيه بين المنتشرين حول الموائد .. واهتزت نظرته قليلا عندما رأى جرمين جالسة مع عمرو حول مائدة .. ورآهما ينظران اليه .. ولم ير فى نظرتهما اليه غضبا أو تحفزا .. ان فى نظرتهما اليه نوعا من النفاق أقرب الى التوسل .. وفوق شفتى كل منهما ابتسامة

ضعيفة كأنهمـا يستجديانه أن يصفح عنهمـا ، وأنْ ينضم الى مائدتهما ··

انهما مستعدان للصفح ··

هكذا يبدو عليهما ··

وهو أيضا مستعد للصلح ·· انه ليس حاقدا عليهمـا ·· والمعركة التى دارت بسببهما ليس لها أثر فى صدره ·· ورغم ذلك فهو يشعر بالغيظ من جرمين ويشعر بالغيظ أكثر لأنه يراها جالسة مع عمرو ·· انه لا يحبها ·· لا ، ليس حبا ·· ولكنه يشعر كأنه فقد شيئا كان يملكه ·· انه الاحساس بالتملك الذى يضايقه ويثير غيظه ·· كأنه فقد حافظة نقوده ·· كأنه فقد قلمه الحبر ·· وكل ما يحتاج اليه الآن هو أن ينسى ما فقـده ·· أن يضحى بحافظـة نقوده ، وبقلمه الحبر ·· أن يقاوم غريزة التملك ··

وأدار عينيه عنهما دون أن يبتسم لها ·· ثم أخذ يبحث عن شهيرة ·· ولم يرها ·· فاجتاز الشرفة بخطوات واسـعة ، وهو يشعر بعيـون جرمين وعمرو تثقب ظهـره ·· وخرج الى ملاعب النادى ··ومد بصره يبحث عن شهيرة كأنه يحاول أن يبحث عنها خلف الأفق ·· وأخذ يمشى كأنه يجرى خلف عينيه ·· ورآها ·· انها هناك ·· فى ملعب الجولف ·· تسير وحيدة وبجانبها كلبها ·

وزم شفتيه فى اصرار وتقدم نحوها فى خطوات ثابتة ··

ورأته شهيرة مقبلا عليها ، واكفهر وجهها ، وتشاغلت عنه بأن انحنت تداعب كلبها ، كأنها تمنح أحمد فرصة ليحيد عن طريقـه مبتعدا عنها ·· ولكن أحمد لا يزال مقبلا عليهـا ·· وهو يقترب أكثر ·· وعلى وجهه كل علامات الاصرار ·· ولكنه يشعر كلمـا اقترب بأن خطواته ترتعش ·· وقلبه يرتجف ·· انه يكاد يفقد ثقته فى نفسه ·· يكاد يقرر أن يعـود ، حتى لا يعرض نفسـه لجرح كرامته اذا رفضت شهيرة أن تحادثه ··

ولكنه لا يزال يقترب منها ·
ووقف قبالتها ··

كل منهما ينظر الى الآخر فى تحد ·· والكلب الصغير يلف حولهما ، وينظر الى أحمد فى تساؤل وينبح نباحا خافتا رفيعا ··

ثم لانت نظرة أحمد قبل أن تلين نظرة شهيرة ·· وارتفعت الى شفتيه ابتسامة مترددة ، وقال وهو يبتلع ريقه :

ـ صباح الخير ! ··

وخطا بعيدا عنها ··

وقالت فى صوت جاف دون أن تبتسم : بونجور ··

قال وهو ينظر الى الأرض : أقدر أكلمك ؟ ··

قالت وهى تنظر فى وجهه ، وتركز عينيها فوق الضماد الصغير الذى يضمد حاجبيه : اتفضل ··

قال وهو يرفع عينيه اليها . وابتسامته بين شفتيه :

ـ أنا استقلت ··

وامتلأ وجه شهيرة بالدهشة ·· لقد كانت تنتظر أن يبدأ حديثه بأى شىء الا بهذا الخبر الذى يعلنه لها ·· وتغلبت دهشتها على حدتها ، فلانت نظراتها ، واستراح وجهها وارتفعت ابتسامة رشيقة فوق شفتيها ، وقالت فى صوت خافت كأنها تريد أن تطمئنه :

ـ استقلت من ايه ؟ ··

قال : استقلت من حاجات كتير ·· انما أهم حاجة . انى استقلت من وظيفتى النهاردة ·· من مدة نص ساعة بس ··

وشعرت شهيرة فجأة بأهميتها ·· شعرت بأنها مسئولة عنه · وقالت فى لهفة : ليه ؟ ··

قال : لأن طول عمرى عايز أستقيل منها ·· والنهاردة بس اللى قدرت أستقيل ·· !

قالت وهى تبتسم :

ـ ما دام كنت عايز تستقيل يبقى خلاص ٠٠ زعلان ليه ؟ ٠٠

قال : بالعكس ٠٠ أنا مش زعلان ، أنا فرحان ٠٠ كان متهيأ لى انى مش ممكن حا اقدر أستقيل ٠٠ ما كانش عندى الشجاعة ٠٠ كنت قاعد فى الوظيفة دى غصب عنى ٠٠ انما الحمد لله ٠٠ خلصنا ٠

وسكتت شهيرة وهى تنظر اليه فى حنان ، كأنها تنظر الى طفل صغير ٠٠

واستطرد أحمد قائلا :

ـ انتى أول واحدة تعرف الخبر ده ٠٠ لسه أمى ما تعرفش ، ولا اخواتى ٠٠

واتسعت ابتسامة شهيرة ، ثم عادت وابتلعت ابتسامتها بسرعة ، وقالت وهى تفتعل الحدة :

ـ اشمعنى أنا ٠٠ بتقول لى ليه ؟ ٠٠

قال وهو ينظر الى بوز حذائه :

ـ ما اعرفش ٠٠ اتهيأ لى انك لازم تكونى أول واحدة أقول لها الخبر ٠٠ أنا عايز أبدأ حياة جديدة يا شهيرة ٠٠ عايز أغير نفسى ٠٠ عايز ٠٠

وقاطعته شهيرة وهى تقاوم حنانها حتى لا يغلبها ، وقالت كأنها تبحث معه بقية الشروط :

ـ واستقلت من ايه كمان ؟ ٠٠ انت مش بتقول استقلت من حاجات كتير ٠٠

قال : استقلت من كل الحاجات اللى مضايقاكى ٠٠

قالت : زى ايه ؟ ٠٠

قال : انتى عارفة ٠٠

قالت كأنها مصممة على أن يعترف :

ـ أنا ما اعرفش ·· حا أعرف منين ؟ ··

قال في صوت خافت وهو يبتسم : استقلت من جرمين ··

قالت في حدة :

ـ جرمين ما كانتش مضايقاني ·· اذا كنت فاكر ان واحدة زيها تقدر تضايقني ، تبقى غلطان ·· انت اللي كنت مضايقني ·· انت اللي اتغيرت ·· تفكيرك ·· تصرفاتك ·· كلامك ·· كل حاجة فيك اتغيرت ··

قال في صوت خافت : انتي المسئولة ·

وصاحت وقد اشتدت حدتها :

ـ أنا ·· أنا اللي قلت لك اعمل في نفسك كده ؟ ! ··

ونبح الكلب الصغير ··

وقال أحمد وهو يواجهها بعينين مليئتين باللوم :

ـ انتي اللي سبتيني اعمل في نفسي كده ·· احنا كنا اتفقنا انك تساعديني على نفسي ·· ويوم ما احتجت لمساعدتك سيبتيني ·· فكرت في نفسك ، أكتر ما فكرت في ··

قالت وهي تنظر في وجهه بعينين حائرتين :

ـ يعني كنت عايزني أعمل ايه ؟ ·· اجرى وراك ، أدوس على كرامتي علشان خاطرك ·· ! ؟

قال في هدوء :

ـ أنتي كنتي عارفة اني اتغـــيرت ·· وكان لازم تدوري على الأسباب اللي خلتني أتغير ·· لو كنتي دورتي على الأسباب دي كنتي عذرتيني ·· وكنتي لحقتيني قبل ما ازودها ··

قالت : انت ما خلتنيش أعرف الأسباب ·· ما ادتنيش فرصة اني أساعدك ··

قال : غصب عني ·· ما كنتش عارف أيامها أنا باعمل ايه ؟ انما أنتي كنتي عارفة بتعملي ايه ·· الظـروف اللي مرت بي ما

مرتش بيكى ‥ وكان لازم تقفى جنبى وتنقذينى ‥
قالت كأنها تتعمد تعذيبه لتنتقم من الأيام التى عذبها فيها :
ــ أنا ما أقفش جنب واحد يدوس على كرامتى ‥ !
قال وهو يتنهد كأنه يستعين بالصبر :
ــ أنا أمى ما سبتنيش فى اليــومين دول ‥ ما طردتنيش من البيت ‥ ولا اخواتى سابونى ‥ مع ان أمى واخواتى لهم كرامة ‥ وانتى كنتى أمى واخواتى وحبيبتى ‥ كنتى كل النــاس ‥ وسبتينى ‥ !؟
قالت وهى تقاوم نفسها لتستمر فى تحديه :
ــ البنت اللى رحت تمشى معاها ، ما اخدتش حاجة من أمك ولا من اخواتك ‥ انما أخذت حاجة منى أنا ‥ أخذت مكانى ‥
قال وقد عاد يتنهد : عمرها ما أخذت مكانك ‥
ونظرت فى وجهه البرىء الحزين طويلا كأنها تريد أن تصدقه ، ثم تعلقت عيناها بالضمادة الصغيرة الملتصقة فوق حاجبيه ، وثار فى نفسها احساس خبيث بأن تستمر فى تعذيبه ، وقامت ساخرة وهى تشير الى الضمادة :
ــ دى الاستقالة بتاعتك ؟ ‥
ورفع اليها عينين ملؤهما اللوم ، ثم خفض عينيه ، وقال وهو يدير ظهره لها :
ــ أنا آسف ‥ يظهر انى كنت غلطان ‥ ما كنتش فاكر انك عنيدة للدرجة دى ·
وخطا بعيدا عنها ·
ولحق به الكلب الصغير وهو ينبح نباحا رفيعا ، ويقفــز بين قدميه ‥
ووقفت شهيرة تنظر اليه بعينين ملهوفتين ، كأنها تفقده مرة ثانية ‥ ثم صاحت وراءه : أحمد ‥
ووقف أحمد مكانه واستدار لها ، وهو ينظــر اليهــا بعينين

حزينتين ·· وتقدمت نحوه الى أن وقفت قبالته ، وقالت وهى منفعلة تحاول ن تكتم عواطفها : انت عايز منى ايه دلوقت ؟ ··

قال وهو يطل فى عينيها الغاضبتين :

ـ عايزك تنسى اللى فات ·· ونبتدى من جديد ·· و ··

وقاطعته قائلة وهى تلطم الأرض بقدمها :

ـ مش ممكن ·· بعد الخناقة اللى اتخانقتها ، والفضيحة اللى عملتها ·· مش ممكن ··

قال فى دهشة : انتى عرفتى بالخناقة ؟ ! ··

قالت : طبعا ·· كل النادى بيتكلم عنها من تلات أيام ·· ودلوقتى لو شافونى معاك حايقولوا انك ما رجعتش لى الا بعد جرمين ما خانتك مع عمرو ·· ومين عارف يمكن يفتكروا انك بتغيظ جرمين بى ·· وأنا ما اقدرش ·· كرامتى ما تستحملش ··

وصرخ أحمد كأنه لم يجد له مخرجا الا الصراخ :

ـ ايه اللى كرامتك ·· كرامتك ·· كل شوية تقوليلى كرامتى · انتى مش من كرامتك انك تبوسى راجل ، ورغم كده بتبوسى الراجل اللى بتحبيه ·· ومش من كرامتك انك تلبسى راجل الجاكتة ، ورغم كده بتلبسى الراجل اللى بتحبيه ·· ومش من كرامتك انك تنقذى راجل من واحدة تانية ضحكت عليه ·· انما لازم تنقذى الراجل اللى بتحبيه ·· الكرامة لها معنى تانى فى الحب ·· كل اللى يجرى لواحد فينا كأنه بيجرى للتانى ·· اذا سكرت كأنك انتى اللى سكرتى ·· اذا اتبهدلت كأنك انتى اللى اتبهدلتى ·· وعلشان تنقذى نفسك لازم تنقذينى ·· وأكتر من كده ·· الحب معركة ·· حرب ·· واللى بيحبوا لازم يدخلوا المعركة دى علشان يحتفظوا ببعض ·· كل واحد ينقذ التانى ·· مش ينقذه من الناس التانيين بس ، انما ينقذه من نفسه ··

وظلت تستمع اليه كأنها مقتنعة بكل كلمة يقولها ، ثم قالت فجأة كأنها تذكرت شيئا ·

ـ والناس .. اعمل ايه فى كلام الناس ؟ ...

والتقط يدها فى يده ، وقال وهو يضغط عليها بكل قوته

ـ أنا وانتى الناس كلها .. أنا وانتى الدنيا .. الحياة .. الناس ما تهمناش .. والناس حا يفضلوا يتكلموا سواء رجعنا لبعض والا ما رجعناش .. واحلف لك برحمة أخويا انى ما اتخانقتش علشان غيرتى على جرمين ... أبدا .. أنا كنت سكران .. وكنت تعيس .. كنت حاسس بحالى المشقلب .. وأختى يومها سافرت مع جوزها وأنا حاسس انها متجوزاه غصب عنها .. وانى أنا السبب فى جوازها .. فى تعاستها .. كنت بالوم نفسى ... كنت عايز أعمل أى حاجة .. كنت عايز حد يضربنى علشان أفوق من حالتى دى .. ولما شفت جرمين ضربتها ، وأنا نفسى انى حد يضربنى .. وانضربت والحمد لله .. انضربت لغاية ما فقت ...

وشهيرة تستمع اليه ورموشها ترتعش فوق عينيها ، وقد تركت يدها فى يده ..

واستطرد أحمد قائلا وقد رق صوته :

ـ أنا ما خنتكيش يا شهيرة .. ما فيش يوم فات ما كنتش باحبك فيه .. وأنا محتاج لك ... مش محتاج لك النهاردة بس ، انما حا افضل محتاج لك طول عمرى .. انتى الحاجة الوحيدة فى عمرى اللى أنا واثق منها .. واثق من رأيى فيها ومن عواطفى نحوها .. كل حاجة تانية مش واثق منها .. مش عارف رأيى فيها ..

وشدت شهيرة يدها من يده فى رفق ، ثم سارت فى خطى بطيئة ، وسحابة من الحيرة تطوف حول وجهها ..

وسار أحمد بجانبها صامتا ..

والكلب الصغير يقفز بين أقدامهما ..

ثم رفعت شهيرة رأسها وقالت :

ـ مش عارفة ٠٠ مش عارفة ٠٠ لازم تسيبنى أفكر ٠٠ أنا كنت حالفه انى ما اشوفكش تانى ٠٠ انت ضايقتنى كتير يا أحمد ٠٠ عذبتنى ٠٠

وقال أحمد فى صوت ينبض بالتوبة والندم : أنا آسف ٠٠

واستمرا فى سيرهما ، وأقدامهما تطأ الحشيش المزروع كأنها تطأ وسائد من الحرير ٠٠ وكل منهما يفكر ٠٠ يفكر بقلبه أكثر مما يفكر بعقله ٠٠ ورغم ذلك فكل منهما يحس بأنه فى حاجة أن يقطع مسافة طويلة فصلت بينهما ٠٠ ان بينهما حبا مجروحا ٠٠ وهما فى حاجة الى أن يضمدا جرحه حتى يعود كما كان حبا سـليما صافيا ٠٠

ووصلا الى الشجرة العجوز المنتصبة فى وسط أرض الجولف ، والتى اعتادا أن يجلسا فى ظلالها أيام لقائهما ٠٠ ونظر أحدهما الى الآخر ٠٠ وابتسمت عيونهما ابتسامة فيها فرحة وحياء ٠٠ ثم جلسا دون أن يتكلما ٠٠ جلسا كعادتهما ٠٠ هى فوق جذع الشجرة الناتىء فوق الأرض وهو فوق الحشيش مستندا بظهره الى جذع الشجرة ٠٠

وقفز الكلب الصغير ، ثم استقر فوق قدمى أحمد ٠٠ ونظرت شهيرة اليه وقالت مبتسمة : يظهر ان « لكى » بيحبك ٠٠

قال وهو يضحك : أصله مصدقنى ٠٠

قالت وهى تبادله ضحكته : أصله عبيط ٠٠

وقال أحمد وهو يمسح بيده فوق ظهر الكلب الصغير

ـ ما فيش حد عبيط فينا احنا التلاتة ٠٠ الا أنا ٠٠

وانطلقت نظرة حب من عينى شهيرة ، كأنها تدافع بحبها عنه ٠

وعاد أحمد يقول وهو يشرب بعينيه من عينيها :

ـ تعرفى انى مش عارف حاعمل ايه بعد ما استقلت من الحكومة ؟ ··

قالت شهيرة وهى تلتفت اليه بكل جسمها كأنها تقبل على تخطيط مستقبله : انت نفسك تعمل ايه ؟ ··

قال : مش عارف ·· مش عارف أنا عايز ايه بالضبط ··

قالت : ما تشتغل محامى ؟ ··

قال : ما انفعش ·· عمرى ما حبيت انى أكون محامى ·· يمكن أحب أكتب مذكرات فى القانون ، انما ما اقدرش أتصور نفسى فى محكمة ·· ولا أتصور نفسى وأنا باقاول صاحب قضية على الأتعاب ··

قالت : اشتغل فى شركة زى مدحت ·· ده مدحت بيكسب كويس قوى ··

ولوى أحمد شفتيه وهو يسمعها تتحدث عن مدحت ، كأنه يلومها لأنها تقارنه بانسان تعلم أنه يغار منه ·· ثم قال :

ـ اللى ينجح فيه مدحت ، مش ضرورى أنجح فيه أنا ·· أنا متهيأ لى انى أقدر أعمل حاجة تانية خالص ·· انما مش عارف هيه ايه ؟ ·· أو مش قادر أحددها بالضبط ·· ساعات يتهيأ لى انى أقعد أكتب قصة ·· وساعات يتهيأ لى انى أقدر أعمل حاجة كبيرة قوى ·· انما مش عارف ·· مش عارف ··

وقالت شهرية جادة وهى تنظر اليه بعينين ثابتتين :

ـ على كل حال جرب ·· جرب كل حاجة ·· ما تقعدش ساكت ·

ونظر اليها بعينين شاردتين ·· فعلا ·· انه يجب أن يجرب نفسه ·· ربما ما يعجز عقله عن اكتشافه ، يستطيع أن يكتشفه بالتجربة ·· المهم ألا يعيش عاطلا ··

ولكن ··

أى تجربة يبدأ بها ؟ ..

وقطعت عليهشهيرة شروده ، وقالت مبتسـمة : سرحت فى ايه ؟ .

قال : بادور على نفسى .. بادور على الحاجة اللى أقدر أعملها .

قالت ضاحكة وهى تقوم واقفة : طيب لما أسيبك تدور لوحدك .

قال فى لهفة وهو يقف بجانبها : حاشوفك النهاردة ؟ ..

وترددت قليلا .. واستطرد قبل أن تجيبه كأنه كان واثقا أنها لن ترفض لقاءه :

ـ بس مش هنا .. مش فى النادى

قالت فى دهشة : أمال فين ؟

قال : فى أى حتة ..

ثم استطرد قائلا : انتى عارفة انى اشتريت عربية ؟ ..

قالت مبتسمة : عارفة ..

قال وهو يتظاهر بالدهشة : عرفتى ازاى ؟ ..

قالت وهى تبتسم ابتسامة صغيرة :

ـ كل حاجة كنت بتعملها ، كنت باعرفها ..

قال : طيب نتقابل فى العربية .. علشان تعرفى انى أحسن واحد بيسوق ..

قالت فى حسرة وهى لا تنظر اليه :

ـ بس مش حاكون أول واحدة تركبها ..

قال : ما حدش ركبها وأنا فايق أبدا .. يمكن حد ركبها وأنا سكران .. انما أنا بطلت سكر من زمان ..

وابتسمت شهيرة ابتسامة مسكينة .. كأنها يئست من مقاومته .. من مقاومة حبها .. وعاد أحمد يقول وهو يمد يده ويمسك بيدها : حاشوفك ؟ ..

وقالت وهى تنظر اليه كأنها تختبره مرة ثانية : الساعة أربعة .

قال : فين ؟ ··
قالت : فوت على قدام البيت ··
وسحبت يدها من يده ، وهمت بالمسير ، وهم أن يسير معها ·
قالت : لا ·· أنا حا ارجع لوحدى ··
قال فى لوم : لسه مش عايزة الناس يشوفونا مع بعض ··
قالت وهى تبتسم : لما أقابلك حا اقول لك ··
ثم انحنت تشير الى كلبها ، وتصيح فى صوت رائق ضاحك :
ــ لكى ·· لكى · للا ·
ولف الكلب الصغير حول قدمى أحمد ، ثم تبع سيدته ··
وعاد أحمد الى البيت ·· فرحا ·· مستكملا كل شخصيته
واجتمعت العائلة حول مائدة الغداء ··
لقد نقص منها فرد آخر ··
أصبحوا أربعة فقط ··
اثنان قد ذهبا ··
ممدوح ·· وليلى ·
واحد مات ·· والأخرى تزوجت ··

وجلس أحمد على مقعده القديم ·· على رأس المائدة قبالة أمه ·· وفيفى على يمينه ·· ونبيلة على يساره ·· وصمت ثقيل يحيط بالعائلة ·· كل منهم يشعر بأنه نقص شيئا ··

ونظر أحمد الى أمه وقال كأنه يخفف من هذا الصمت · لا كأنه يبلغها خبرا خطيرا : أنا استقلت النهاردة يا ماما ··

ونظرت اليه الأم فى هلع وقالت :
ــ ليه ؟ ·· لازم ضايقوك ·· طبعا ·· ما دام خرجوا خالك ، ضلوا وراك لغاية ما خرجوك ··

وقال أحمد فى بساطة :
ــ أبدا ·· أنا اللى استقلت من نفسى ·· أتضايقت من الوظيفة

ما كانتش وظيفة تستاهل ان الواحد يقعد فيها ··

وقالت الأم : طيب مش كنت تاخد رأى خالك الأول ··

وقال أحمد : ما فيش لازمة ··

وقالت نبيلة فى اهتمام :

ـ وناوى تعمل ايه يا آبيه ·· حا تشتغل محامى ؟ ··

وقال أحمد : لسه مش عارف ··

وقالت فيفى : على كل حال خالى وعدك انه يعينك فى شركة ·

وقال أحمد : أنا حا ادور على شغلة ·· ما تخافوش ·· مش حاقعد فى البيت ·· !

وعاد الصمت يخيم فوق المائدة ··

وقال أحمد بعد فترة موجها كلامه الى فيفى :

ـ انتى ما خرجتيش النهاردة ؟ ··

وقالت فيفى فى فتور وهى تنظر فى طبقها :

ـ خرجت ·· رحت الجامعة علشـان أجيب بروجرام السنة الجاية ، وابتدى أذاكر من دلوقت ··

وابتسم أحمد ابتسامة صغيرة فيها خبث كبير ، وقال :

ـ وشفتى الأستاذ أمين عبد السيد ؟ ··

ورفعت اليه فيفى رأسها بغتة ، ثم عادت وخفضتها ، وقالت فى حزم ، كأنها تصد عنها زوبعة : لا ··

وقال أحمد : تعـرفى انه واحشنى ·· ده راجل كويس ·· عاجبنى قوى ··

ولم ترد فيفى ··

وعادت العائلة تأكل الصمت ··

ونظر اليها أحمد وابتسامته لا تزال بين شفتيه ··

وأحمد يدير عينيه بين أمه وأختيه بين الحين والحين ، كأنه يعدهن ويطمئن عليهن ، حتى لا ينقص من العائلة واحد آخر

ثم قال كأنه لا يطيق أن يحمل سعادته بشهيرة وحده :
ـ ايه رأيكم نسافر نقعد فى اسكندرية يومين ٠٠ نسافر بالعربية بتاعتى ؟ ٠٠
وقالت نبيلة فى فرحة : فكرة ٠٠
وقالت فيفى : أنا مش عايزة أسافر ٠٠ أنا حابتدي أذاكر ٠٠
وقامت الأم ودخلت غرفتها ٠٠ ودخلت فيفى الى حجرة المكتب ٠٠ ودخلت نبيلة الى حجرتها ٠٠
وجلس أحمد فى البهو الخارجى يقرأ فى الجريدة ٠٠
ودق جرس التليفون ٠٠
وقام أحمد ليرد عليــه ٠٠ وفى نفس الوقت ، خرجت نبيلة من حجرتها ٠٠ وفيفى من حجرة المكتب ٠٠ ولكن أحمد سبقهما ، ورفع سماعة التليفون ، وقال فى هدوء : آلو ٠٠
وألقيت السماعة الأخرى فى وجهه ، وصدر لها صوت ٠٠ تك ٠٠ مزق أذنه ٠٠ ! ؟
وابتسم ٠٠
واكتسى وجه فيفى ونبيــلة باليــأس ، ودخلت كل منهمــا الى الحجرة التى كانت فيها ٠٠
ولم تنقض دقائق حتى دق جرس التليفون مرة أخرى ، ورفع أحمد السماعة : آلو ٠٠ آلو ٠٠
وأجاب صوت رجل ٠٠ صوت متردد حائر :
ـ من فضلك اقدر اكلم نبيلة ؟ ٠٠
وقال أحمد فى صوت مهذب كأنه يستدرجه :
ـ نقول لها مين يا افندم ؟ ٠٠
وأجاب الصوت : محمود ٠٠
وابتسم أحمد ، وقال : دقيقة واحدة ٠٠
ورفع السماعة من على أذنه ، ووضع كفــه على فوهة السماعة

وظل فترة مترددا ، كأنه يعانى معركة داخل نفسه ·· ثم رفع رأسه وصاح : نبيلة ·· نبيلة ·· التليفون ··

وخرجت نبيلة اليه حافية القدمين ، واقتربت منه وهى تنظر اليه نظرات فيها تساؤل وفيها خوف ··

وناولها أحمد السماعة ، وهو يبتسم ابتسامة كبيرة ، كأنه يطمئنها ، وهمس قائلا : محمود ··

ثم تركها ودخل غرفته متعمدا ، كأنه يطلق لها حريتها ··

وبدأ يبدل ثيابه ، استعدادا لموعده مع شهيرة ··

١٦

أخذت نبيلة سماعة التليفون من يد أخيها أحمد ، ثم تبعته بعينين مترددتين حائرتين ، حتى دخل غرفته ، ثم وضعت سماعة التليفون على أذنها ، وهمست فى صوت خفيض محشرج : آلو ··

وسمعت صوت محمود ·· ولم تفرح بصوته ، ولكن ازداد ارتباكها ، كأن أخاها أحمد يستمع معها الى كل كلمة تقولها ويقولها محمود ·· وقالت فى صوتها الخفيض المحشرج :

– ازيك يا محمود ·· الحمد لله على السلامة ··

وتكلم محمود ·· انه يقول لها انه وصل من بلدته هذا الصباح وانه اتخذ قرارا هاما ، ويريد أن يقابلها ليبلغها قراره ·· ويلح فى أن يقابلها الآن ·· بعد ساعة ·· ونبيلة تستمع اليه ، وتفهم ما يقول ، ولكن كل عقلها وكل أحاسيسها متجهة الى أخيها أحمد ·· لماذا تركها تحادث محمود بهذه البساطة ؟ وما معنى هذه الابتسامة التى كانت مرتسمة على شفتيه ؟ وماذا تفعل بعد أن تنتهى من حديثها مع محمود ؟ هل تذهب الى أخيها ، وتروى له

قصة د بها ؟ القصة كلها ·· لقد قررت يوما أن تروى له قصتها ·· كان هذا منذ شهور طويلة ·· ولكنه رفض أن يستمع اليها ، وخاصمها ·· هل تحاول مرة أخرى ؟ انها لا تدرى ··

ومحمود لا يزال يلح عليها أن يقابلها ·· وهى لا تستطيع أن تتخذ قرارا ·· لا تستطيع حتى أن تناقشه ، انها مرتبكة ·· ملخومة ·· وقالت فى صوت خفيض :

ـ بكره أقابلك يا محمود ··

وقال محمود : لا ·· النهاردة ·· علشان خاطرى ·

وقالت :ما اقدرش ·· مش ممكن النهاردة ··

وقال محمود فى صوت حزين : انتى اتغيرتى يا نبيلة ··

قالت وهى تتعجل انهاء المحادثة :

ـ أنا ما اتغيرتش ·· انما ما اقدرش أقابلك النهاردة ·· فيه ظروف تمنعنى ·· انت عارف مين اللى رد عليك ؟ ··

وقال محمود فى يأس : مين ؟ ··

قالت : آبيه أحمد ·· ومش عارفه دلوقت أعمل ايه ؟ ··

وسكت محمود قليلا كأنه يلتقط أنفاسه ، ثم قال :

ـ قولى له على كل حاجة ·· وأنا كمان مستعد آجى أقول له على كل حاجة ··

وقالت كأنها تضايقت لأن محمود يهون عليها مشكلتها ، ويحلها بهذه البساطة :

ـ يا خبر ·· أصلك ما تعرفش أخويا أحمد ·· ده صعب قوى ، ده قعد مخاصمنى أكتر من ست أشهر يوم ما شافنى معاك ·

وسكت محمود كأنه يفكر ·· ثم قال في استسلام

ـ طيب حا شوفك امتى ؟ ··

قالت متعجلة لانهاء الحديث : بكره ·· الساعة ستة ··

قال : لا ·· بكره الصبح ··

قالت : طيب ·· بكره الصبح ·· الساعة عشرة ·· هناك ·· سعيدة بقى ··

وقال محمود فى انكسار ، كأنه خرج مهزوما : سعيدة ··

وأعادت نبيلة سماعة التليفون الى مكانها وهى تحرص على الا يصدر لها صوت ·· ثم سارت ووقفت مترددة أمام باب غرفة أخيها أحمد ·· هل تدخل وتروى له القصة ؟ قصتها مع محمود ·· ولكنها لا تستطيع أن تدخل ·· واندفعت الى غرفتها ، وأغلقت الباب وراءها ، وقذفت نفسها فوق سريرها كأنها تريد أن تقذف نفسها من الشباك ، لتتخلص من حرجها أمام أخيها ··

انها لن تقول له شيئا ··

أو على الأقل لن تقول له شيئا الا اذا سألها ··

ويجب أن تحصر تفكيرها الآن فى محمود ·· وأحست عندما بدأت تفكر فى محمود ، أنها ليست مرتبطة به أمام قلبها فحسب ولكنها مرتبطة به أيضا أمام أخيها ·· أخوها الذى يسكت على علاقتها به ·· وان هذا الرباط الجديد يلح عليها أن تفكر أكثر ·· وأن تتروى أكثر ·· حتى لا تفشل أمام أخيها ··

انها لا تزال تحب محمود ··

ولكن شيئا جديدا حدث بعد أن ذهبت اليه فى قريته ·· شيئا فى تفكيرها وفى الخطة التى وضعتها لمستقبلها ·· لقد عرفت بعد أن زارت القرية أنها لا تستطيع أن تعيش كما يعيش محمود الآن ·· لا تستطيع أن تنزل الى مستوى بيئته ·· واذا أرادت أن تتزوجه فيجب أن يرتفع الى بيئتها ·· أو على الأقل يلتقيا فى منتصف الطريق ·· أن تعيش معه فى حياة تستطيع أن تحتملها وتألفها ··

وبدأت تستعرض الأيام التى أمضتها فى القرية ·· وازدحم خيالها بصور عم عبد الفتاح والد محمود ·· وصورة أمه المريضة ، وناعسة ، ومحروس ، وعوض ، والمندرة ، والناموس ، و ·· و ··

وارتفعت ابتسامة ساخرة على شفتيها ، تسخر بها من نفسها ٠٠ لقد كانت تعتقد يومها أنها تستطيع أن تعيش هذه الحياة من أجل محمود ٠٠ كانت واهمة ٠٠ كانت منساقة الى خيال شاعر ٠٠ خيال ليس له حبال تصله بالأرض ٠٠ لقد كانت تنظر الى فروع الشجر ، والى الثمار ، ولكنها لم تنظر الى الأرض التى تنبت هذه الفروع وهذه الثمار ٠٠ الأرض المزدحمة بالناموس ٠٠ لقد كان محمود على حق عندما كان يحذرها من التمادى فى هذا الخيال ٠٠ وعندما صد الحاحها عليه بالزواج ٠٠ انها مقتنعة الآن برأيه ٠٠ انها قد تتزوجه ، ولكن ليس الآن ٠٠ ليس قبل أن يجد عملا يستطيع أن يوفر به حياة يلتقيان فيها ٠٠

وتعبت من كثرة ما استطردت فى تفكيرها ٠٠ فقامت من فراشها ، وخرجت من غرفتها ، وذهبت الى حيث تجلس أختها فيفى فى غرفة المكتب ، وقالت فى زهق :

ــ تيجى ناخد ماما ونروح سينما ؟ ٠٠

وقالت فيفى فى اختصار ، دون أن ترفع رأسها عن الكتاب الذى تقرأ فيه : لا ٠٠

وقالت نبيلة كأنها تتوسل اليها :

ــ طيب تيجى نروح نزور مرات خالى ؟ ٠٠

وقالت فيفى وهى تكور شفتيها ساخطة :

ــ لا ٠٠ مش عايزة أخرج خالص ٠٠

وقالت نبيلة : أصلى زهقانة يا فيفى ٠٠ عايزة أعمل أى حاجة ٠

ورفعت فيفى رأسها من فوق الكتاب ، وقالت .

ــ ما تروحى تزورى واحدة من صاحباتك ؟ ٠٠

وسكتت نبيلة ٠٠ وألقت نفسها فوق المقعد العريض الموضوع بجانب المكتب ، ورفعت ساقيها وألقتهما فوق مسند المقعد ٠٠ وأخذت تنظر الى فيفى كأنها تحاول أن تكشف سرها ٠٠ انها منذ

سافرت ليلى . وهى أكثر صمتا ونفورا ·· وهى تخرج كثيرا من البيت ·· تخرج كل صباح ·· وأحيانا تخرج بعد الظهر ·· وتعود دائما صامتة . لا تتكلم ·· ولا تروى لاختها شيئا ·· غاية ما تقوله انها كانت فى الكلية ·· أو كانت عند احدى صديقاتها ·· ترى هل أحبت فيفى ؟ هل وجدت الحب أخيرا ؟ وهل هو الأستاذ أمين عبد السيد ؟ أم رجل آخر ؟

وظلت نبيلة تنظر فى وجه أختها المتشاغلة عنها بالقراءة ·· ثم قالت محتاة : تعرفى أنا قررت ايه يا فيفى ؟ ··

ورفعت فيفى رأسها عن الكتاب ، وقالت بلا اهتمام : ايه ؟

قالت نبيلة وعيناها هائمتان كأنها تحادث نفسها :

ـ قررت انى ما اتجوزش الا بعد ما آخد الليسانس

واكفهر وجه فيفى برهة . ثم عادت وتمالكت نفسها . وقالت وهى تعود بعينيها الى كتابها : شاطرة ··

وقالت نبيلة بحماس . وهى تخفض ساقيها المرفوعتين فوق مسند المقعد :

ـ أصل خسارة ان الواحدة تضيع مستقبلها علشان خاطر تتجوز ·· ومش معقول انها تتجوز وتفضل تروح الكلية وتذاكر

ورفعت فيفى رأسها وقالت فى حدة كأنها تدافع عن نفسها :

ـ اللى عايزة تاخد الليسانس . تقدر تاخده سواء كانت بنت والا متجوزة ··

ونظرت نبيلة الى أختها فى دهشة ·· لقد تغيرت فيفى فعلا ·· انها المرة الأولى التى تسمع منها هذا الرأى ··

وقالت نبيلة كأنها تتعمد أن تثير أختها لعلها تكشف سرها :

ـ وافرضى انها خلفت واتلخمت فى العيال ، حا تعرف تذاكر والا تروح الكلية ازاى ؟ ·· ثم ان اللى بتروح الجامعة وهيه مخلفة يبقى منظرها تقيل قوى ··

وقالت فيفى وقد ازدادت حدتها :

ـ اسمعى . ما تضحكيش على نفسك .. لو كان سى محمود بتاعك مستعد يتجوزك كان زمانك اتجوزتيه من زمان .. لا كنت سألتى فى عيال ، ولا فى ليسانس ، ولا سألتى فى الدنيا كلها .. :

وخفت صوت نبيلة كأنها أحست أن أختها تعايرها . وقالت :

ـ حتى لو محمود طلب يتجوزنى دلوقت .. مش حا تجوزه .

ثم ابتسمت واستطردت : حا اقعد معاكى لغاية ما نتخرج سوا .

وقالت فيفى كأنها على وشك الصراخ :

ـ ما لكيش دعوة بى .. ما تتحججيش بى .. ثم من فضلك تسيبينى ، والا تقعدى ساكتة .. أنا عايزة أقرا ..

وسكتت نبيلة ، وهى تبتسم ابتسامة خبيثة .. ان أختها تخفى سرا .. سر حب .. والا لما ثارت كل هذه الثورة دفاعا عن زواج الطالبات .. ! ؟

وقامت وعادت الى غرفتها .. ومرت الدقائق .. وبدأ الملل والزهق يزحف على صدرها .. وأحست بالندم لانها أجلت مقابلتها لمحمود الى الغد .. لماذا لم تقابله اليوم ؟ .. لماذا عاندت دون أن يكون هناك داع للعناد .. ان ما ستقوله له غدا كانت تستطيع أن تقوله له اليوم .. ثم انها مشتاقة اليه فعلا .. مشتاقة الى عينيه .. والى ابتسامته .. والى حيرته .. والى المناقشات الطويلة التى لا تنتهى بينهما .. والى قبلاته .. انها تحس بشفتيها جافتين من طول ما حرمتهما القبلات ..

وعصف الشوق بها ..

وازداد احساسها بجفاف شفتيها ..

وفكرت أن تنطلق من البيت لتبحث عن محمود .. ربما وجدته فى الشقة التى كان يقيم فيها أيام الدراسة .. ربما وجدته عند أحد أصدقائه ، وهى تعرفهم جميعا ..

واستجمعت كل ارادتها حتى تبعد عن رأسها فكرة الخروج للبحث عن محمود ·· وبدأت تعانى احساسا عارما بالفراغ الذى يحيط بها ·· فراغ ممل سخيف ·· وهربت من الفراغ لتجلس مع أمها ، ولكن الفراغ يلاحقها ·· وهربت منه مرة ثانية لتقرأ فى كتاب ·· ولكن الفراغ يفح من بين صفحات الكتاب ·· والشوق يعصف بصدرها ·· وشفتاها جافتان ··

وعاد أخوها أحمد الى البيت فى الساعة الثامنة ، وأطل عليها بعينين متسائلتين ·· وهى تعرف السؤال الذى يطل من عينيه ·· ولكنها ترفض أن تجيبه ·· ان الفراغ الذى تحس به يجعلها فى حالة تحفز للثورة ·· انها ثائرة ·· ثائرة على نفسها ·· على الحياة ، على اضطرارها أن تقدم كشف حساب على عواطفها الى أخيها ··

★ ★ ★

وجلس أحمد فى البهو الخارجى يقرأ ·· رابضا فى مقعده كأنه كلب حراسة ، يحرس البيت ·· يحرس عائلته ·· يحرسها من خاله ومن صديقه عبد السلام ··

والبيت غارق فى الصمت ··

والدقائق تمر بطيئة مملة ··

وجاء الليل ·· والليل طويل ··

ونبيلة تتقلب فى فراشها مسهدة فى انتظار الصباح ·· وكل قطعة من قلبها ، ومن عقلها ، ومن جسدها ، تستعد للقاء محمود ، وتتململ فى انتظاره ··

وفيفى راقدة فى الفراش الآخر ·· عيناها مغمضتان ، وعقلها صاح ·· تجتر سرها فى صمت ··

والأم فى حجرتها تنام ، ثم تصحو فجأة ويدها على قلبها ·· كأن شيئا قد حدث ·· كأنها نسيت شيئا ·· كأن الدنيا قد مرت بها

دون أن تتنبه اليها أثناء نومها ·· ويمر بخاطرها أولادها كأنها تطمئن نفسها عليهم واحدا واحدا ·· ثم تقف طويلا وهى تتذكر ابنتها ليلى ·· ترى ، كيف حالها مع زوجها ؟ هل هى سعيدة ؟ وتتذكر أيامها الأولى مع زوجها منذ خمسة وعشرين عاما ·· انها لم تكن سعيدة فى هذه الأيام ·· كانت حولها كل أدوات السعادة ، ولم تكن سعيدة ! ·· وتترى الأيام مخيلتها ، وتتذكر عبد السلام ·· عندما كانت تحبه ، ثم عندما عاد ودخل حياتها من جديد ·· وتبتسم مشفقة على نفسها ·· وتنام من جديد ··

وأحمد فى فراشه ·· وقد رفع ظهره وأسنده على وسادتين ، ومصباح صغير مضاء بجانبه ·· يقرأ ، ويهرب خياله من بين السطور ، ويفكر فى حاله ·· انه سعيد ·· لقد حل كثيرا من مشاكله ·· لقد استقال من وظيفته التى كان يكرهها ·· وهجر جرمين التى كادت تفسد حياته وتدفعه فى طريق الانحلال ·· وعاد الى شهيرة التى يحبها ·· انه يحس منذ عاد اليها أنه عاد الى شاطىء الأمان ·· الى نعيم الهدوء ·· الى القلب الحانى ، والفكر المريح ·· لا ضجة ·· ولا عنف ·· ولا غيبوبة تغرقه فيها كؤوس الويسكى ·· انه سعيد ·· سعيد ·· وقد اطمأن على سعادته عندما قابل شهيرة فى العصر ·· لقد ركبت معه سيارته ، واتجها الى المعادى ، ثم عادا وصعدا بها فى طريق جبل المقطم ·· واحس لأول مرة أنه كان فعلا فى حاجة الى سيارة ، ولو ليقضى فيها هذه الساعات مع شهيرة ·· وصحيح أن شهيرة لا تزال متحفظة معه ·· ولا تزال تعامله فى حذر كأنه انسان جديد تعرفه لأول مرة ·· ولكنها تحبه ·· انه متأكد أنها تحبه ·· حديثها كله حب ·· وعيناها ملؤهما الحب ·· وهو يحس أنه يستطيع ان يستند عليها وهو يشق طريقه نحو المستقبل ·· الطريق الملبد بالغيوم ·· انه سعيد ·· سعيد ··

ولكن ..

انه يحس بمشكلة جديدة تزحف عليه مع الليل ..

مشكلة جسده .. ؟ !

ان جرمين عندما عرفته فجرت في جسده ينابيع كانت خامدة .. كان جسده أعمى الى أن التقى بجرمين ففتحت عينيه .. كان جسده جاهلا ، فألقت عليه جرمين الدرس الأول .. كان جسده خاملا ، فأيقظته جرمين ..

والآن .. لقد ترك جرمين ؟ ..

وجسده .. ماذا يصنع بجسده ؟ .. هذا الجسد المتفجر .. المتفتح .. اليقظان ؟ ..

وبدأ يحس بأعصابه مشدودة .. كأن كل قوى الانسانية تشدها في عنف .. في قسوة .. وهو يريد .. يريد جرمين .. أي امرأة تطفيء هذه النار ..

لماذا لا يذهب الآن الى جرمين ؟ ..

ماذا يضيره لو أخذ منها ليلة أخرى ؟ .. انها لن ترفض .. انه واثق أنها لن ترفض ..

وشهيرة ؟ ! .

ماذا يضير شهيرة ، لو تركته لفتاة أخرى ؟ .. تريحه من عبء شبابه ، ما دامت هي تأبى أن تحمل هذا العبء ؟ ..

وألقى الكتاب من يده ، وقفز من الفراش .. لا ..

لن يذهب الى جرمين ، ولا الى أية امرأة أخرى .. لقد عاهد نفسه أن تكون له ارادة .. وستكون له ارادة .. ارادة يحمي بها كرامته من أن يمزقها مع عصير جسده ، تحت قدمي أية امرأة .. أية فتاة ..

وأخذ يلف في حجرته .. ثم خرج من حجرته ، وأقنع نفسه أنه عطشان ، في حاجة الى كوب ماء .. ودخل المطبخ .. وفتح

الثلاجة الكهربائية والتقط منها زجاجة من الماء المثلج ، واحتفظ بها بين يديه فترة طويلة ، لعل برودتها تسرى فى جسده وتطفىء ناره .. وشرب ..

وعاد الى حجرته ، ورقد فى فراشه .. وأمسك كتابه من جديد .. ولكن .. ان جسده يشتعل من جديد .. وقوى الانسانية كلها تتجمع لتشد أعصابه .. فى قسوة .. فى عنف .. وألقى الكتاب من يده .. وأطفأ النور .. وجذب الوسـادة الصغيرة من تحت رأسه ، واحتضنها بين ذراعيه .. وأغمض عينيه .. واذا بصورة جرمين تملأ عينيه كما يملؤهما الظلام .. جسدها .. عارية .. وابتسامتها .. ان ابتسامتها ليست على شفتيها .. انها على كل قطعة من جسدها .. وتشنجت أصابعه فوق الوسادة .. ودفن وجهه فيها .. واستجمع ارادته .. مزيدا من الارادة .. وتعمد أن يحول خياله من جرمين الى شهيرة .. ان شهيرة تثير عاطفته لا جسده .. انها تثير أرقى ما فيه ، لا أعنف ما فيه .. ولكن .. ان صورة شهيرة تختلط فى مخيلته بصورة جرمين .. شفتا شهيرة مختلطتان بشفتى جرمين .. جسد شهيرة يختلط بجسد جرمين .. حبه لشهيرة يختلط بحاجته الى جرمين ..

وهو يتألم .. يتألم ..

الكبت .. الحرمان .. الينابيع المتفجرة ..

وتعب من عنف الألم .. ونام ..

★ ★ ★

واستيقظت العائلة فى الصباح الباكر ، وبصمات الأرق تحت عيني كل فرد من أفرادها ..

واستيقظ أحمد كأنه خرج منتصرا من معركة بينه وبين نفسه .. فى صدره نشوة الانتصـار .. انتصـار الارادة .. وعلى وجهه آثار المعركة ..

ودخل الحمام ·· ووقف طويلا تحت الدش ·· كأنه يغسل أعصابه من دخان الحريق ·· وخرج وقد استرد نشاطه ·· وارتدى القميص والبنطلون ·· وتناول افطاره ·· ثم فجأة وجد نفسه حائرا ·· أين يذهب ؟ ··

وأحس أنه فوجىء بهذا السؤال ·· بهذه المشكلة ·· انها مشكلة جديدة عليه ، فعندما كان موظفا فى الحكومة لم يكن يسأل نفسه هذا السؤال ·· كان احساسه بأن هناك مكانا يذهب اليه كل صباح ، يغنيه عن السؤال ·· يغنيه عن الحيرة ·· ولكنه اليوم ـ فى هذا الصباح ـ ليس له مكان يذهب اليه ! ··

أين يذهب ؟ ! ··

انه على موعد مع شهيرة فى الساعة الرابعة بعد الظهر ·· فماذا يفعل حتى يحين موعده مع شهيرة ؟ ·· هل يخرج ويتشرد فى الشوارع ، ويجلس فى المقهى ليقرأ وجوه الناس ؟ ·· لا ·· انه يريد أن يبدأ حياة جديدة ·· يريد أن يبحث لنفسه عن عمل ·· يبحث حوله ·· ويبحث داخل نفسه ·· وقد أوصته شهيرة أن يجرب ·· يجرب كل عمل ، الى أن يجد العمل الذى يستريح له ، ويتفق مع مواهبه ·· وهو مقتنع بمبدأ التجربة ·· ولكن من أين يبدأ تجاربه ؟ ·· كيف يستطيع أن يمسك بطرف الخيط الذى يصل به سلسلة التجارب ؟ ·· هل يبدأ بالذهاب الى خاله ، ويطلب منه أن يبحث له عن عمل فى احدى الشركات ؟ ·· لا ·· لقد عاهد نفسه ألا يعتمد على خاله ·· لقد خدعه خاله عندما عينه فى وظيفة بادارة المعاشات ، ومن المحتمل أن يخدعه مرة ثانية ، ويضيع عليه سنوات أخرى من عمره ··

واستبدت به الحيرة حتى أحس باليأس ·· وجلس فى غرفته زهقانا ، يحس أن صدره ممتلىء بأبخرة متزاحمة لا يستطيع أن ينفس عنها ·· وأمسك بالصحف والمجلات التى يأتى بها البائع الى

البيت كل صباح ·· وأخذ يقلب فيها بعينين ملولتين ، ثم توقفت عيناه على مقال منشور بعنوان : « ارادة الشعوب ، تحقق السلام » ·· وقرأ المقال ·· ما هذا الكلام الفارغ ؟ ·· ان ارادة الشعوب لا تكفى لتحقيق السلام ·· كل هذه المظاهرات ، والشعارات ، والكلمات الضخمة ، والمقالات الطنانة ، لا تكفى لتحقيق السلام ·· ان السلام مشكلة اقتصادية كبقية المشاكل ·· ولو استطاعت الدول الكبرى أن تتجنب الحد الأعلى للأزمة الاقتصادية ، لاستطاع العالم أن ينجو من الحروب الكبيرة ، ولو استطاعت الدول الصغرى أن ترفع من مستوى اقتصادياتها ومستوى شعوبها ، لاستطاعت أن تتخلص من الاستعمار ، واستطاع العالم أن يتخلص من الحروب الاستعمارية الصغيرة ···

انه متأكد من رأيه ·· انه رأى استخلصه من قراءاته الكثيرة فى السياسة والتاريخ ، ولديه أكثر من حجة يستطيع أن يدعم بها منطقه ·· لماذا لا يكتب رأيه ويرسل به الى هذه الجريدة لتنشره ؟· ليجرب ·· !

انها أول تجربة يستطيع أن يقدم عليها ·· لقد وجد طرف الخيط ··

وانتشى بفكرته ·· ونشطت أعصابه ·· وقام الى مكتبه الصغير ، وأخذ ينتقى الكتب التى سيستعين بها فى كتابة مقاله ·· كتب برتراند راسل ، وهارولد لاسكى ، وشينجلر ، وكارل ماركس ·· و ·· و ·· وأخذ يقلب فى كل كتاب ، ويراجع الملاحظات التى سبق أن كتبها على هوامشه ، ويعلم بالقلم على السطور التى تهمه ·· واستغرق فى عمله ·· نشطا ·· مندفعا ·

وفتحت أمه باب الغرفة ، وقالت له وابتسامتها تملأ وجهها :

ــ انت مش خارج يا أحمد ؟ ··

ورفع أحمد رأسه اليها وقال بسرعة وهو يبتسم ابتسامة

صغيرة ، كأنه لا يريد أن يزعجه أحد :

ـ لا ‥ حا اقعد أشتغل هنا ‥

ونظرت اليه أمه فى دهشة ، كأنها لا تصدق أن هناك عملا يمكن أن يؤديه رجل وهو جالس فى البيت ، وقالت :

ـ ما تيجى تروح معايا عند خالك ‥

وقال أحمد بسرعة : لا يا ماما ‥ مشغول ‥

وقالت الأم : قوم ‥ علشان توصلنى دعربيتك ‥

وقال أحمد : معلهش ‥ مشغول وحياتك يا ماما ‥

ودخلت نبيلة فى هذه اللحظة قائلة :

ـ أنا نازلة يا ماما ‥ رايحة عند صاحبتى ٠

ونظر أحمد فى عينى أخته ‥

انه يعرف الى أين هى ذاهبة ‥ ! ؟

انها ذاهبة للقاء محمود ‥ ! ؟

وأحس بشىء يتململ فى صدره ‥ أحس بالضيق ‥ أحس أن من حقه أن يمنعها من الخروج ‥ كيف يسمح لأخته بأن تخرج للقاء رجل ‥ بعلمه ‥ بموافقته ‥ ولكنه كتم ضيقه ‥ ربما كان هذا خيرا من أن تذهب للقاء رجل بغير علمه ‥ وربما لم يكن من حقه أصلا أن يمنعها من الخروج للقاء رجل ‥ وارتعشت عيناه ‥ وارتعشت عينا نبيلة ‥

ان كلا منهما يعلم ما يدور فى رأس الآخر ‥

وأرخى أحمد عينيه بسرعة ، وعاد بهما الى كتبه ‥

وقالت نبيلة فى صوت ضعيف : باى باى يا آبيه ‥

ولم يرد عليها ‥ لم يستطع ‥

وانسحبت نبيلة من الغرفة ، وانسحبت معها أمها ، وأغلقت الباب وراءها ، وصاحت وراء نبيلة :

ـ ما تتأخريش يا نبيلة ‥

وقالت نبيلة وهى فى طريقها : حاضر يا ماما ..

وخرجت الى الشارع وهى تفكر فى أخيها أحمد .. ترى ، ماذا يكون تصرفه حيالها ؟ .. ماذا يعد لها فى رأسه ؟ .. متى سيطلق عليها الزوبعة ؟ .. وهزت كتفيها بلا مبالاة .. ليفعل أخوها ما يريد .. انها لن تهتم به ..

وسارت فوق كوبرى عباس ، ونصف عقلها مع أخيها والنصف الآخر مع محمود ..

ولم تكن تفكر فيما يكون القرار الذى قال لها محمود انه اتخذه ؟ .. انما كانت تفكر فى حاجتها الى محمود .. انها فى حاجة اليه ليبدد هذا الفراغ الذى يحيط بها منذ بدأت الاجازة الدراسية .. فى حاجة اليه ليعيد النشاط الى قلبها وذهنها وأعصابها .. ليملأ دقائق عمرها .. فى حاجة الى أن تشعر بأن هناك شيئا يخصها وتهتم به وتلاحقه بقلبها وعقلها ..

وتعدت كوبرى عباس ، وسارت فى شارع النيل .. ورأته من بعيد واقفا على الشاطىء .. فى المكان القريب من الجامعة الذى تعودا أن يلتقيا فيه .. واقتربت منه أكثر .. وأحست أنه يبدو غريبا فى البدلة التى يرتديها .. انها لم تكن تلاحظ غرابة بدلته من قبل .. ربما لأنها لم تكن قد رأته فى الجلباب البلدى الذى يرتديه فى قريته .. انه يبدو فى الجلباب أكثر رجولة .. وأكثر وسامة .. يبدو طبيعيا كأنه فى مكانه .. مكانه الطبيعى من المجتمع .. والتقيا ..

واختفى أخوها من خواطرها .. أصبحت لمحمود بكل قلبها وعقلها ..

وأمسك بكلتا يديها ، وعيناه تقبلان كل مكان من وجهها .. وعيناها تطوفان بوجهه كأنها تخشى أن يكون قد فقد منه شيئا ، ثم تستقر عيناها فوق شفتيه ..

ولفتهما لحظة صمت ..

ثم قال وضربات قلبه تقطع صوته : وحشتينى ..

وسارا على الشاطىء .. ويدها فى يده .. وكلمات كثيرة متزاحمة فوق لسان كل منهما ولا يدرى بأية كلمة يبدأ ..

والتفت اليها وقال كأنه يفاجئها :

ـ خلاص .. انا قررت أقعد فى مصر على طول ..

قالت فرحة : لقيت شغل ؟ ..

قال مبتسما :

ـ لا .. امبارح بس رحت قدمت طلب فى الاذاعة علشان أشتغل مذيع .. إنما المهم انى حا اقعد فى مصر على طول .. أنا أخدت من أبويا عشرة جنيه ، حا افضل قاعد بيهم .. وحا اشتغل أى شغلة لغاية ما الاقى الشغلة اللى تعجبنى .. حتى لو اضطريت أشتغل شيال والا بياع لب أبيض ..

قالت وهى تضحك : بياع لب أحسن من شيال .. على الأقل اللى ما نقدرش نبيعه ، تقعد تقزقزه .. !

قال مبتسما :

ـ وتعرفى ايه كمان ؟ .. حا اسمع كلامك ، ومش حا اشتغل مدرس .. اننى كان لك حق .. حرام أضيع مستقبلى فى التدريس .. أنا ما انفعش مدرس .. وعمرى ما حبيت أبقى مدرس .. واذا كان على أبويا ، أهو يقدر يستحمل كمان سنة لغاية ما الاقى شغلة تعجبنى ..

وقالت نبيلة فى حماس :

ـ اسمع يا محمود .. ما تحاول تشتغل فى السينما لغاية ما يقبلوا طلبك فى الاذاعة ؟ .. انت غاوى تمثيل .. وبتمثل كويس .. على الأقل تقدر تكون أحسن من شكرى سرحان ..

قال وهو يتجاوب مع حماسها .

ـ حا اشتغل أى حاجة ·· اذاعة ، سينما ، مسرح ، ان شاالله اشتغل فى سيرك ·· المهم ·· تعرفى ايه القرار اللى اتخذته ؟

قالت وهى مبتسمة : ايه ؟ ··

ووقف ، وواجهها بعينيه ، وهو يضغط على يدها :

ـ قررت اننا نتجوز ··

وسكتت ·· وذابت ابتسامتها من فوق شفتيها ·· وغرق وجهها فى سحابة داكنة من الحيرة ·· ونظر اليها محمود دهشا ، كأنه لم يكن ينتظر أن تقابل قراره بهذا الصمت الحائر ·· ثم ضحك ضحكة صغيرة فارغة ، وقال كأنه يتعلق بالأمل :

ـ أنا باقول اننا نتجوز اليومين دول ، قبل العشرة جنيه ما يخلصوا ، وما نلاقيش حق المأذون ··

وابتسمت نبيلة ابتسامة مغتصبة ، وظلت صامتة ·· ثم سارت بضع خطوات ، وجلست على سور الكورنيش ، ورأسها منكس ، وأخذت تتشاغل برسم خطوط بأصبعها فوق أحجار السور ··

واربد وجه محمود ·· وانطفأت فرحته ·· انكمش حماسه ··!

وقال فى صوت مرتعش : ايه ؟ ·· مش موافقة ؟ ··

قالت وهى لا تنظر اليه ، كأنها تبحث عن حجة تصد بها قراره :

ـ وناعسة ·· حا تعمل فيها ايه ؟ ··

قال وهو لا يزال ينظر اليها بكل عينيه :

ـ ناعسة خلاص ·· حا تتجوز محروس ··

وقالت نبيلة : لكن دى ما بتحبوش ؟ ··

وقال محمود وهو يزفر كلامه :

ـ ما قلت لك انها أحسن تتجوز واحد ما بتحبوش ، من انها تتجوز واحد ما بيحبهاش ·· وسكتت نبيلة ··

ومحمود لا يزال ينظر اليها بكل عينيه ، ثم قال كأنه يتجمع للثورة : قولى انك غيرت رأيك ··

ونظرت اليه كأنها ترجوه ألا يظلمها ·· ألا يثور عليها ··
وقالت فى صوت ضعيف :

ـ أنا ما غيرتش رأيى ·· أنا لسه باحبك يا محمود ·· ولسه مصممة اننا نتجوز ·· لازم نتجوز ·· انما أنا فكرت كتير بعد ما رجعت من عندكم من البلد ·· فكرت فى الكلام اللى كنت بتقوله لى ·· وعرفت انك على حق ·· احنا ما نقدرش نتجوز دلوقت ·· لازم نستنى لغاية ما تلاقى شغل ، وأنا كمان ألاقى شغل ، ونقدر بعد كده نعمل بيت ، بيت صغير ، ونقدر نعيش ··

وجذب محمود نفسا عميقا من صـــدره ، ثم جلس بجانبهـ صامتا ، وانحنى على الأرض والتقط قطعة صـــغيرة من البوص أخذ ينبش بها الأرض ، كأنه يبحث فيها عن مستقبله ··

وقالت نبيلة فى حنان : انت زعلت يا محمود ؟ ··

وقال محمود : لا ما زعلتش انت معاكى حق ، أنا قررت اننا نتجوز وأنا مش مقتنع بالجواز ·· انما بعد ما سبتى البلد ، حسيت انك سبتينى أنا كمان ·· حسيت انك لما شفتى أبويا وأمى وأهلى غيرت رأيك فى ·· وحبك اتغـــير ·· حاولت كتير انى أســتسلم للواقع ·· انى أقنع نفسى بأن كل اللى بيننا انتهى ·· ما قدرتش ·· ما قدرتش اتصور حيـــاتى من غيرك ·· وقررت اني اتجوزك علشان ما تسيبينيش ··

وقالت نبيلة وهى تلتقط يده وتحتفظ بها بين يديها :

ـ أنا مش حاسيبك ، حتى لو اتجوزنا بعد عشر سنين ··

وظل محمود صامتا ··

واستطردت نبيلة قائلة ، كأنها توقظه من يأسه

ـ محمود ·· بص لى ··

ورفع رأسه ونظر اليها ·· وابتسم ·· وانسكبت ابتسامته فى ابتسامتها ··

وقال كأنه يدافع عن نفسه :

ـ على كل حال ، الحق عليكى .. انتى اللى دايمـــا تجيبى سيرة الجواز .. ،

قالت وهى لا تزال تحتفظ بابتسامتها كأنها تدلله بها :

ـ وحا افضل طول عمرى أجيب سيرة الجواز لغاية ما نتجوز.

وعاد الصمت يلفهما .. ويده لا تزال بين يديهـا .. ثم قاما وعادا يسيران على شاطىء النيل .. وقد غاصت ابتســامته .. وبدا مهموما .. انه يحس كأنه أهين .. كأن كرامته جرحت .. لقد كان يحتمل أن يرفض فكرة الزواج عندما كانت تعرضها عليه نبيلة قبل أن يتخرج .. ولكنه الآن لا يحتمل أن ترفض نبيلة الزواج .. أو تؤجله .. انها تهينه .. ورغم ذلك فهو لا يستطيع أن يثور .. لأنه مقتنع أنها على حق .. مقتنع بأنها تتكلم بنفس منطقه الذى كان يتكلم به ..

وقال كأنه ينفس عن ثورته : وعملتى ايه مع أخوكى ؟ ..

قالت بلا مبالاة : ولا حاجة .. ما جابليش سيرة ..

قال وصوته غاضب كأنه يتشاجر مع نفسه :

ـ أنا كل ما بفتكر أخوكى باحس انى ندل .. باحس كأنى حرامى وسرقت منه حاجة .. ويمكن كان أخوكى من الأســباب اللى خلتنى أقرر الجواز .. علشان أقنعه بأنى مش ندل .. بأن قصدى شريف ..

قالت كأنها تهون عليه :

ـ كل الاخوات كده .. ما فيش أخ الا وهوه بيشك فى أخته .

قال فى حدة : أيوه .. بس مش كل الشبان زيى ؟ ..

واكتفت بأن ابتسمت له ..

وسارا فى طريقهما .. يتحادثان حينــا ، ويسكتان حينا .. ويده تلتقى بيدها فترة ، وتفترق عنها فترة .. وهما يحسان كأن

شيئا بينهما ·· شيئا جديدا ·· انه لا يسـتطيع أن يتخلص من احساسه الذى ثار بعد أن رفضت فكرة الزواج العاجل منه وهى لا تستطيع أن تتخلص من احساسها بأنها رفضت حلما كانت تعيش فيه طول عمرها ·· لم ترفضه ولكنها أجلته ··

وقال وقد سارا طويلا : تيجى ناخد الترمواى ونطلع الهرم ؟ ·

ونظرت اليه كأنها تلومه ·· لماذا لم يقترح هذا الاقتراح منذ أن التقيا ؟ ·· انه على الأقل كان يستطيع هناك ـ فى الهرم ـ أن يقبلها ·· ثم نظرت فى ساعتها الصغيرة ، وقالت :

ـ ياه ·· الساعة بقت اتناشر ·· ما اقدرش يا محمود ·· أنا وعدت ماما انى أرجع بدرى ·· ولازم أروح دلوقت ·· نبقى نطلع الهرم بكره ·· أشوفك بكرة الصبح ··

وقال كأنه يتعمـد أن يملى ارادته عليهـا ليسـترد كرامتـه المجروحة ، ويسترد سلطانه عليها :

ـ لا بكره الصبح مشغول ، أشوفك بعد الضهر الساعة خمسة·

ونظرت اليه ، ولمحت فى عينيه التحدى ، فقالت فى استسلام :

ـ طيب ·· بس بكره لازم أشوفك بتضحك ·· وما تنسـاش تجيب معاك لب أبيض ! ··

وعادت فى الطريق الى بيتها ··

انها ليست سعيدة ·· ليست نشوانة ·· ان قلبها مثقل ·· انها تحس بأن مشكلتها قد تعقدت اكثر ·· وتحس بالجفاف ·· لقد كانت تنتظر من محمود أن يروى قلبها الظمآن الى الحب ·· ويروى شفتيها الجافتين ·· ولكنه فاجأها بمشكلتها ·· فاجأها بأن انتزعها من خيالها والقى بها على الأرض ·· ولكنه معذور ·· لقد كان يعتقد انه يفرحها بالقرار الذى اتخذه ·· لم يكن يدرى انها عدلت عن رايها ·· قررت تأجيل الزواج ··

وأحمد جالس الى مكتبه ··

لقد انتهى من اعداد النقاط التى سـيدور حولها المقال الذى يكتبه ·· ثم كتب سطرا واحدا ، وأعاد قراءته فلم يعجبه وشطبه ، ثم مزق الورقة ·· ووضع أمامه ورقة جديدة وبدأ يكتب ·· كتب عشرة سطور ، وهو يقف عند كل كلمة ، ويعيد قراءة كل سطر ·· ثم قرأ العشرة سطور كلها ، فلم تعجبه ، وشطبها ، ومزق الورقة ·· وبدأ يكتب من جديد ·· كتب صفحة كاملة ·· وكتب أيضـا نصف ورقة ·· ثم أعاد قراءة ما كتبه ·· لا ·· ان كلماته كقطع الدبش ·· وأسلوبه معقد مرتبك ·· لم يكن يعتقد أن مهمة الكتابة صعبة الى هذا الحد ·· ان المنطق السياسى واضح فى رأسه كل الوضوح ، ولكنه لا يستطيع أن يعبر عنه بقلمه بنفس الوضوح ·· ان عقله عقل انسان مثقف ، وأسلوبه أسلوب تلميذ فى المدرسـة الابتدائية ·· كان عليه أن ينتظر طويلا ، وأن يتدرب طويلا على الكتابة ، حتى يرتفع أسلوب قلمه الى مستوى ثقافته ··

وشطب ما كتبـه ·· ومزق الورق ·· وقام من على مكتبه ، وألقى بنفسه على فراشه ، وقد داخله احساس عميق باليأس ·· وانقلب احساسه باليـأس الى احسـاس بالتفاهة ·· كأنه يبحث لنفسه عن عذر ليأسـه ·· من هو حتى يتصدى لمناقشـة هـذه المواضـيع الخطيرة ·· انه مجرد واحد من آلاف الخريجين فى كلية الحقوق ·· وموظف صغير استقال من وظيفته وأصبح عاطلا ·· انه لا يستطيع أن يتعرض للكتابة وتوجيه الرأى العام ·· ان دوره لا يتعدى دور القارىء ، دور المتفرج على الأحداث الخطيرة·

واليوم حار ·· والهواء راكد ثقيل ··

والعرق يتفصد من جسده ·· كأنه يتفصد من روحه ··

ونظر فى الساعة ·· انها السـاعة الواحدة ·· ياه ·· لقد جلس على مكتبه يحاول الكتابة أكثر من أربع ساعات دون أن يشعر بمرور الوقت ·· ربما كان هذا دليلا على أنه يحب المحاولة ··

ربما كان هذا دافعا يدفعه الى المحاولة من جديد ..

وقام من فراشه ، كأنه يهرب من نفسه .. يهرب من اليأس والأمل اللذين يتجاذبانه ، وخرج من الغرفة يبحث عن أى شىء يفعله ، أو أى انسان يجلس اليه ويسرى عنه ..

وفتح باب غرفة أختيه .. وفيفى جالسة فوق السرير تقرأ .. ونبيلة عادت ، ووقفت أمام مرآتها تبدل ثيابها ، ونظر اليها مبتسما ، وقال

ـ انتى رجعتى ؟ .. طيب تعالى .. حصلينى فى أودة المكتب .. أنا عايزك ..

وسار فى خطى ثابتة نحو غرفة المكتب كأنه مقبل على تجربة وفى كل خطوة يستجمع ارادته حتى لا تفشل منه التجربة . لقد قرر بينه وبين نفسه أن يحمل مع نبيلة مشكلتها .. أن يساعدها عليها .. أن يسير بجانبها حتى يصل بها الى شاطىء الأمان .. حتى لا تتعرض للشقاء الذى تعرضت له أخته ليلى .. وأحس أنه محتاج ، كى تنجح هذه التجربة ، الى أن يتخلص من شخص آخر يعيش فى داخل نفسه .. شخص يغار غيرة غبية على أخواته البنات .. يغار الى حد أن يسمع أن أخته تحب شابا وتلقاه .. .. شخص لا يحتمل أن يسمع أن أخته تحب شابا وتلقاه .. شخص له عقلية أبيه وعقلية خاله .. عقلية حبيسة تقاليد فارغة .. وهو فى حاجة لأن يتخلص من هذا الشخص حتى يستطيع أن يعين أخته .. فى حاجة لأن يقتل هذه العقلية ..

ودخل غرفة المكتب ، وجلس فى نفس المقعد الذى تعود خاله أن يجلس فيه كلما أراد أن يحاسب فردا من أفراد العائلة ..

وجاءت وراءه نبيلة ..

وعلى وجهها نهدة كأنها تستعد لمعركة طويلة .. وفى عينيها نظرات ثابتة ، كأنها قررت أن تخوض المعركة حتى نهايتها ..

كأنها تتحداه ·· وقالت كأنها لا تخافه : نعم يا آبيه ؟ ··

ونظر اليها مبتسما كأنه يطمئنها ، وقال : اقعدى ··

وجلست وهى تنظر الى قدميها ··

واستطرد أحمد فى صـوت حنون ، وابتسـامته لا تزال بين شفتيه : قولى لى ·· عملتى ايه مع محمود ؟ ··

ورفعت اليه رأسها كأنها بوغتت لسؤاله الصريح ·· والتقت بابتسامته ووجهه الهادىء ·· فعادت ونكست رأسها ، وقالت وقد بدأت قطرات من دمها ترتفع الى وجهها :

ـ ولا حاجة ·· لسه ·· ما فيش حاجة ··

وقال أحمد فى هدوء :

ـ انتى مش قولتيلى من زمان انكم ناويين تتجوزوا ؟ ··

قالت فى حياء : أيوه ··

قال كأنه يستدرجها : وبعدين ·· حصل ايه ؟ ··

قالت دون أن تنظر اليه :

ـ مش قادرين نتجوز ·· لأنه لسه مش لاقى شغل ··

قال : هوه ما عندوش حاجة ؟ ··

قالت : لا ·· فقير ·· أبوه عنده خمس فدادين بس ··

ونظر أحمد اليها كأنه يشفق عليها ·· وقال :

ـ ومش ممكن تتخطبوا وبعدين تتجوزوا بعد ما يلاقى شغل ؟··

قالت : أنا كنت عايزة كده ·· انما غيرت رأيى ·· فضلت اننا نستنى لغاية ما يشتغل ، ونقدر نفتح بيت ··

ونظر احمد الى اخته باعجاب ·· واحس انها قريبة منه ·· أقرب مما كان يحس بها ·· بل احس ان محمود ايضا قريب منه ·· ان مشكلة محمود هى مشكلته ·· انه ايضا يريد أن يتزوج شهيرة ، ولكنه لا يجرؤ على أن يتزوجها قبل أن يجد عملا ·· صحيح أنه ليس فقيرا كمحمود ، ولكن المشكلة واحدة ·· ان البحث عن عمل

ليس متعلقا بالفقر والغنى ، ولكنه متعلق بكيان الانسان فى الحياة ·· بصورته فى المجتمع ·· وهو لا يستطيع أن يتزوج قبل أن تتحدد صورته ·· لا يستطيع أن يتزوج ، وصورته مهزوزة ·· وقال لأخته وهو يبتسم :

ـ لك حق ·· تعرفى انى واقع فى نفس المشكل ·· باحب واحدة ، وعايز أتجوزها ، انما مش قادر اتجوزها قبل ما ألاقى شغل ·· !؟

ورفعت اليه رأسها وعلى وجهها فرحة مختلطة بالدهشة ، وقالت : صحيح والنبى يا آبيه ؟ ··

قال ضاحكا :

ـ ومالك مندهشة كده ؟ ·· ما كنتيش منتظرة انى أحب ·· فاكرانى صغير على الحب ؟ ··

قالت : لا ·· كنت فاكراك كبير على الحب ·· تعرف يا آبيه انى كنت خايفة منك قوى ·· كنت فاكرة انك ندهت لى علشان تخانقنى ، والا تضربنى ؟ ! ··

قال مبتسما :

ـ أنا واثق فيكى يا نبيلة ·· واثق من تصرفاتك ·· واثق من انك بنت عندك كرامة ·· وتقدرى تحافظى على كرامتك وكرامتى ، انما يوم ما حا افقد ثقتى فيكى حاخانقك واضربك ··

قالت ضاحكة والسعادة تمرح على وجهها :

ـ ما تخافش ·· عمرك ما حاتفقد ثقتك فى ··

وقال وهو يتكلم كرجل مسئول :

ـ وانتى ناوية تعملى ايه دلوقت ؟ ·· حاتكملى دراستك ، والا حا تفضلى مستنية لغاية ما محمود يلاقى شغل وتتجوزوا ؟ ··

وأحس وهو ينطق اسم محمود ، أنه ينطق اسم واحد من أفراد العائلة ·· وقالت نبيلة :

ـ أنا حاتعلم تايبنج ، علشان أقدر اشتغل ، وأساعد محمود في مصاريف البيت ·· واذا خلصت الاجازة ، وما اتجوزناش ، حا ارجع الكلية ··

واتسعت نظرة الاعجاب فى عينى أحمد ، وقال :

ـ وناويه تبتدى تتعلمى تايبريتر من امتى ؟ ··

قالت : من الجمعة الجاية ··

قال : ليه ؟ ·· ما تنزلى بعد الغدا تقدمى فى المدرسة ·· وتبتدى تاخدى دروس من بكرة ··

وقالت نبيلة فى فرح كأنها تبنى مع أخيها قصر سعادتها :

ـ موافقة ·

قال أحمد : وبعد الغدا ننزل سوا ·· أوصلك لغاية المدرسة ··

ثم اقترب منها ، وهمس :

ـ أصل عندى ميعاد مع شهيرة ·· حابقى أعرفك بيها ·· حا تعجبك قوى ··

وقالت نبيلة وهى تقلده فى همسه :

ـ ومحمود كمان حا يعجبك ··

وقال أحمد :

ـ ما دام بتحبيه كل المدة الطويلة دى ، يبقى لازم حا يعجبنى ·· ابقى عرفينى بيه انتى كمان ··

وارتفع صوت الأم من البهو :

ـ ياللا يا احمد الغدا ·· ياللا يا نبيلة ··

وانحنت وقبلت أخاها فوق وجنته ، وهمست

ـ أنا باحبك قوى يا آبيه ··

وخرجت ·· والزغاريد تقفز فى عينيها وفوق وجنتيها ··

ولحق بها أحمد ، وهو يحس أنه تعرف على أخته ·· وجدها بعد أن كانت ضائعة منه ··

١٧

صعد عم عبد الله البواب السلم فى خطوات متعبة . وهو يقلب فى يده خطابا سلمه له ساعى البريد ·· وضغط على جرس الباب فخرج له محمد السفرجى ·· وقال عبد الله فى صوت كسول

ـ صباح الخير يا محمد ·· الست الكبيرة صحيت

وقال محمد السفرجى

ـ يسعد صباحك يا عم عبد الله ·· أيوه ·· صحيت ··

وقال عبد الله وهو يناوله الخطاب :

ـ اديها الجواب ده ·· دى حا تفرح بيه قوى ·· ! ؟

وأخذ محمد السفرجى الخطاب ونظر فيه ، ثم قال

ـ ده جواب لسى أحمد بيه ·· الاسم مكتوب بالعربى والعنوان بالأفرنجى ··

وقال عبد الله البواب

ـ ده أصله جواب من ست ليلى ·· اديه للست الكبيرة ·

وقال محمد وقد علت وجهه إبتسامة كبيرة . فرحا بخطاب ليلى : حاضر ··

واتجه محمد السفرجى الى داخل البيت . وصادفته نبيلة خارجة من الحمام ، وقالت له : مين يا محمد

وقال محمد وابتسامته لا تزال تملأ وجهه

ـ ده عم عبد الله ·· جايب الجواب ده ·· يظهر انه من ست ليلى ··

وخطفت نبيلة الخطاب من يده ، وفى لمحة واحدة تعرفت على خط أختها ليلى ، وصاحت بأعلا صوتها

ـ ماما ·· ماما ·· جواب من ليلى ··

واندفعت الى غرفة أمها ··

وسمعت أختها فيفى صيحتها ، فخرجت من غرفتها ، واندفعت وراءها ··

وشبت الأم بعنقها وهى جالسة فوق فراشهـا ، وتطلعت الى ابنتيها بعينين ملؤهما اللهفة ، ومدت يدا مرتعشة الى الخطاب ، وهى تهمس فى صوت تهزه الفرحة :

ـ صحيح والنبى يا نبيلة ·· ورينى كده ··

وأخذت الخطاب فى يدها ، ونظـرت فيه كأنها تنظر الى وجه ليلى ··

وأحمد فى غرفته ·· وقد سمع صـيحة نبيلة ·· وحاول أن يهدأ وأن ينتظر الى أن تدخل اليه احدى أختيه بالخطاب ··

ولكنه لم يستطع ·· وخرج من غرفته ، ودخل الى غرفة أمه ، وقال فى هدوء يخفى تحته لهفته :

ـ ليلى بعتت جواب ؟ ··

وقالت فيفى ووجهها يضحك : أيوه ··

وبدأت الأم تفض الخطاب ·· ويدها ترتعش ·· وقالت نبيلة :

ـ هاتى أفتحه أنا يا ماما ··

وناولتها الأم الخطاب فى استسـلام ، وكأنها تعترف بعجزها عن حمل لهفتها ··

وفتحت نبيـلة الخطاب ·· وفيفى تتعجلها ·· ووجنتـا الأم ترتعشان ، وطبقة لامعة من الدموع تكسو عينيها ·· وأحمد واقف يترقب كأنه يخشى أن يحمل الخطاب اليه أنباء مزعجة ··

وبدأت نبيلة تقرأ :

« حبيبتى ماما ·· أخى الحبيب ·· فيفى ·· بلبل ·· » ··
واستطردت تقرأ ، وفيفى تطل معها على السطور ··
ان ليلى تتحدث عن رحلتها ·· رحلتها فى الطائرة ·· وهبوطها فى روما ·· ثم سفرها الى جنيف ، ثم الى برلين ·· وتصف المناظر الطبيعية الجميلة ·· الجبال ·· والوديان ·· والغابات ·· ثم تتحدث عن المحال التجارية ·· والفساتين ·· والفراء ·· والبارفان ·· والناس الذين قابلتهم ·· والفنادق التى حلت فيها ·· و ··
ولا شيء عن عصام ·· زوجها ·· لا شيء عن فرحتها بعريسها !
واحمد يستمع باذنين متنبهتين ·· كل ما فيه مركز فى أذنيه ·· انه ينتظر كلمة يطمئن بها على سعادة أخته ·· ولكن أخته لا تتحدث عن نفسها ·· انها تهرب من نفسها الى ما يحيط بها انها تحدثهم عن الاطار الذى تعيش فيه ، ولكنها لا تحدثهم عن الصورة ·· صورتها مع عريسها ·· انها تخفى عنهم شيئا ·· ولا يمكن أن تخفى الا شقاءها وتعاستها ··
ونبيلة مستطردة فى قراءة الخطاب ·· ووصلت الى السطور الأخيرة ·· وقرأت :
« وحشتونى ·· وحشتونى موت ·· حاسة انى لوحدى ·· كل اللى باشوفه مالوش طعم من غيركم ·· وكل ما باشوف حاجة افتكركم ·· وأقول يا ريت كانت ماما واخواتى معايا ·· نفسى موت أبوس ماما ·· أقعد أبوس فيها جمعة بحالها ·· ونفسى موت اشوف تبويزة آبيه أحمد ·· ونفسى فى خناقة من فيفى ·· ومناقشة من النوع الحامى مع بلبل ·· ووحشنى عم عبد الله ·· ومحمد ·· واودتى ودولابى ·· عصام جنبى ·· وبيسلم عليكم كلكم ·· و ·· »
وكان هذا السطر الوحيد الذى ذكرت فيه زوجها عصام ··
وانتهت نبيلة من قراءة الخطاب ·· ونظر الجميع بعضهم الى

بعض ، وعلى شفتى كل منهم ابتسامة مهزوزة مائعة ‥ كل منهم يشعر بما يشعر به أحمد ‥ كل منهم أحس من الخطاب بأن ليلى ليست سعيدة ‥ وكل منهم يحاول أن يخفى شعوره عن الآخر ٠

وانزلقت دمعتـــان كبيرتان على وجنتى الأم ‥ وقالت نبيلة وهى تنظر الى أمها فى لوعة ، تحاول أن تخفيها بابتسامتها :

ـ لزوم العياط ايه بقى يا ماما ؟ ‥

وقالت الأم وهى تتنهد :

ـ أصل اختكم وحشتنى قوى ‥ متهيأ لى انى ما شفتهاش بقى لى سنة ‥ وما قالتش فى الجواب حا ترجع امتى ‥ ؟ !

وقالت فيفى :

ـ هم لحقوا سافروا ‥ دول لسه حايروحوا باريس ‥ ولسه حايقعدوا فى برلين خمستاشر يوم ‥

وانحنى أحمد والتقط الظرف الذى جاء فيه الخطاب ‥ ونظر الى ورقة البوستة ‥ ثم قرأ اسمه ‥ وأحس وهو يقرأه أن أخته تحمله المسئولية وحده ‥ مسئولية شقائها ‥ انها تشير اليـه باصبع الاتهام ‥

وألقى أحمد الظرف فوق السرير ‥

وقالت الأم :

ـ هاتى الجواب أقراه لوحدى يا نبيلة ‥ قالتها كأنها سترى بين السطور ، كلمات لم تقرأها نبيلة ‥

وخرج أحمد من الغرفة ، وهو ضيق الصـــدر ‥ وعاد الى غرفته ‥ والتقط فوطة الوجه ، ثم ذهب الى الحمـــام ‥ وخلع ثيابه ووقف تحت الدش ‥ وقف طويلا ‥ وكل افكاره مع أخته ليلى ٠

ولم يطفىء الدش افكاره ‥

وخرج من الحمـــام ، وذهب الى غرفتـــه وارتدى القميص

والبنطلون ·· ثم ذهب الى غرفة المائدة وجلس يتناول افطاره وحده ·· وهو لا يزال يفكر فى ليلى ·· لماذا يحمل كل هذا الهم ؟ لماذا يفترض أنها شقية تعسة ؟ ربما كان افتراضه خاطئا ·· حتى لو لم تكن تحب زوجها ·· ان الحب يمكن أن يتولد مع الأيام ·· ان العشرة بين الزوجين تنتهى الى الحب ·· حتى لو بدأت حياتهما بلا حب ·· ويكفى ضمانا لسعادة أخته أن زوجها يحبها ·· وسيعمل على اكتساب حبها ·· وربما أفلح ·· رغم ثقل دمه ··

وحاول أحمد أن يقنع نفسه بألا يخشى شيئا على سعادة أخته ·· ولكنه لم يفلح فى اقناع نفسه ·· فبدأ يحاول أن ينتزع نفسه من أفكاره ·· أن يتناسى أخته ليلى ·· ان تفكيره فيها لن يصل به الى شىء ·· وأجدى عليه أن يفكر فى مشكلته الرئيسية ·· مشكلة البحث عن عمل ··

ومنذ أيام طويلة وهو يبحث عن عمل ، دون أن يهتدى الى شىء ·· دون أن يهتدى الى الشىء الذى يريد أن يعمله · وقد اقترح عليه صديقه مدحت أن يعمل فى شركة تأمين ·· قال له ان صديقا له بدأ يعمل فى شركة تأمين منذ عام ، واستطاع أن يحصل على عمولة وصلت الى ستين جنيها فى الشهر ، ثم عينته الشركة أخيرا موظفا بها بمرتب أربعين جنيها فى الشهر ، بجانب العمولة ·· فأصبح الآن يتقاضى مائة جنيه فى الشهر ·· وصديقا آخر سار فى نفس الطريق وفى خلال ثلاثة أعوام استطاع أن يحصل على دخل شهرى لا يقل عن ثلاثمائة جنيه فى الشهر ··

ولم يقتنع أحمد بأن يكون مندوبا للتامين ·· ولكن مدحت ألح عليه ·· قال له انها مهمة سهلة ·· فهو يستطيع أن يقنع أقاربه ـ ومعظمهم أثرياء ـ بالتامين على حياتهم ·· ويستطيع أن يقنع أصدقاء العائلة ، وأصدقاء خاله ·· وكلهم سيستجيبون له مجاملة وتشجيعا له ··

وقرر أحمد أن يجرب ، رغم أنه غير مقتنع بالمحاولة ·· ربما كشفت التجربة عن مواهب فى نفسه لا يعلمها ·· مواهب مندوب التأمين ، وذهب فعلا وقابل مدير شركة التأمين الوطنية ، ورحب به مدير الشركة ··· وأحس أنه يرحب به لأن خاله كان وكيلا للوزارة ·· لأنه من عائلة كبيرة ·· ولأنه عضو فى نادى الجزيرة · ولا بد أن له أقارب وأصدقاء كثيرين يستطيعون دفع أقساط التأمين ·

واستمع أحمد الى شرح طويل فى أصول التأمين وفى أنواع التأمين ، وفى كيفية معاملة المؤمنين ·· شرحا فهمه ، ولكنه لم يستوعبه ·· لم يركز منه شيئا فى عقله ·· كانت المعانى لا تكاد تصل الى فهمه حتى تعود وتتبخر ··

وخرج من مكتب مدير الشركة ، وهو يحمل نماذج من بوالص التأمين ·· وما كاد يصل الى بيته حتى ألقى النماذج فى درج مكتبه كأنه يدفنها ·· وقرر ألا يقدم على التجربة ·· انها تجربة لا شك فاشلة بالنسبة له ·· انه لا يستطيع أن يكون وسيطا ·· لا يستطيع أن يكون سمسارا لشركة ·· لا يستطيع ولا يريد ·· ثم انه لا يؤمن أصلا بفلسفة التأمين ·· ان التأمين على حياة الناس وعلى معاشهم ، هو واجب الدولة ، وليس واجب الشركات ·· فاذا قامت به الشركات فهو نوع من الاستغلال ·· استغلال لاحساس الناس بالخوف من المستقبل ·· وهو لا يستطيع أن يقوم بعمل لا يؤمن به ·· لا يستطيع أن يشترك فى استغلال خوف الناس ··

وترك أحمد مائدة الافطار ، وقام الى البهو ، وجلس فى مقعد مريح يقرأ الجريدة ·· ثم ترك الجريدة ، وفتح الراديو ليسمع نشرة الأخبار ·· فانطلق منه صوت جمال عبد الناصر بالخطاب الذى ألقاه مساء أمس ··

وجلس يستمع الى جمال ·· انه يتحدث عن مبادىء الثورة ·· عن السلام ·· وعن الحياد ·· وعن التعايش السلمى ·· ولكن

في صوت جمال شيئا يثيره ·· انه يحس كأن هذا الصوت يستنهضه ·· يحثه على أن يعمل ·· على أن ينتج ·· على أن يكون شيئا ·· وأكثر من ذلك ·· انه يحس أن هذا الصوت يلومه ·· يعاتبه ·· لأنه يجلس بلا عمل ·· وأحس بالضيق ·· !

أحس أنه لا يستطيع أن يتحمل مزيدا من اللوم والعتاب ، والاستنهاض ··

ولكنه ظل يستمع ·· كأنه يعذب نفسه ، كأنه يستزيد من اللوم ·· وتاهت أفكاره بين كلمات جمال ··

ترى كيف استطاع جمال عبد الناصر أن يصل ؟ ··

لا بد أنه كان يعرف ما يريد ·· كان يريد أن يكون ضابطا ، ولذلك نجح كضابط ·· ورغم ذلك فهو لم يصبح ضابطا لمجرد أنه أراد ، فقد كان الطريق أمامه الى الكلية الحربية مسدودا ، حتى اضطر أن يلتحق بكلية الحقوق ·· ولكنه أصر ·· واستطاع أن يصر لأنه كان يعرف ما يريد ··

ثم أراد جمال أن تقوم ثورة ·· فعمل لتحقيق ارادته ·· وأصر ·· وسار في طريق شاق طويل ، وصبر سنوات طويلة ·· واستطاع أن يصر ويصبر لأنه كان يعرف ما يريد ··

ان الانسان يجب أن يحدد لنفسه محطات الوصول ، حتى يختار القطار الذى يركبه ··

وهو يعرف ذلك من زمن طويل ·· ولكن مصيبته أنه لا يعرف أين يريد أن يصل ·· لا يستطيع أن يحدد لنفسه المحطة التالية حتى يركب القطار اليها ·· وأطفأ الراديو ··

وقام منتفضا ، وخرج مندفعا من البيت ، دون أن يمر على أمه أو على أختيه ، وصوت جمال عبد الناصر لا يزال يرن في أذنيه ·· وقاد سيارته الصغيرة ، دون أن يحدد الى أين يتجه ··

هل يذهب الى النادى ؟ ·· هل يمر على مدحت في مكتبه ؟ ··

وسرح طويلا ، وهو يقود سيارته بعقل غير واع ·· ثم فجأة قفز الى رأسه خاطر ·· لماذا لا يذهب الى الأسطى عفيفى ؟ ·· ربما استطاع أن يحقق معه المشروع الذى كان يريد أن يحققه ممدوح ؟ ··

وقاد سيارته الى حى عابدين ·· وأخذ يقرأ أسماء الورش الصغيرة المقامة هناك ·· حتى قرأ اسم ورشة « عفيفى مصطفى »·

وأوقف سيارته ·· ونزل منها وهو يستجمع كل ذهنه ، كأنه مقبل على دراسة مشروع ضخم ·· مقبل على تجربة خطيرة ··

ونظر اليه الأسطى عفيفى ، كأنه يحاول أن يتذكره ·· وقال أحمد وهو يبتسم : مش فاكرنى يا أسطى ؟ ·· أنا أحمد ··

ولمعت عينا الأسطى عفيفى ، وقال :

ـ أحمد بيه أخو الله يرحمه سى ممدوح ؟ ··

وقال أحمد فى صوت حزين :

ـ أيوه ·· أصل العربية بتاعتى فيها خبطة فى الموتور مش عارف جاية منين ·· ؟ قلت آجى لك تكشف عليها ··

وقال الأسطى عفيفى فى حماس : من عينى يا أحمد بيه ··

وألقى أحمد نظرة الى داخل الورشة الصغيرة ·· الى الجدران الملطخة ببقع الزيت ·· والى الأدوات الكثيرة المتناثرة ·· والى قطع موتورات السيارات ·· وأحس أنه ينظر الى دنيا لم يرها من قبل ·· الدنيا التى أراد أن يعيش فيها ممدوح ، ولم يتركه يعيش فيها ·· وحاول أن يتصور نفسه فى داخل الورشة ·· ولكنه أحس أنه لو دخل فسيتوه فيها ·· لن يعرف طريقه بين قطع الحديد المتناثرة ··

وكشف الأسطى عفيفى غطاء السيارة ، وانحنى فوق الموتور وأحمد ينظر اليه ·· انه يستطيع أن يفهم الأسطى عفيفى نفسه ··

انه يجد متعة فى محاولة فهم عقليته ودراسة شخصيته ولكنه لا يستطيع أن يشاركه فى عمله ..

ورفع الأسطى عفيفى رأسه من فوق الموتور ، وقال :

ـ ولا حاجة يا أحمد بيه .. بس البيجوهات عايزه تنضيف .. مبروك على العربية ..

وقال أحمد : الله يبارك فيك ..

وقال عفيفى : على ايه تسيبها .. سيادتك تنتظر ربع ساعة ، وأنا أخلصها لك . دى شغلانة بسيطة ..

وبدأ الأسطى عفيفى يعمل فى موتور السيارة .. وأحمد واقف ينظر اليه ، ثم قال له فى تردد :

ـ واشتريت المخرطة والا لسه يا أسطى عفيفى ؟ ..

ونزع الأسطى عفيفى نفسه من داخل الموتور ، ونظر الى أحمد فى تأثر ، وقال فى صوت حزين :

ـ لا والله يا أحمد بيه .. من يوم الله يرحمه ممدوح وأنا ما بافكرش فى الموضوع ده .. يا سلام .. كان صحيح انسان .. جدع .. بالك يا أحمد بيه لو كان سى ممدوح عاش .. كان عمل العجب .. كان بقى ملك المصانع فى القطر كله .. يا سلام .. الله يرحمه ..

وتنهد أحمد ، وقال فى صوت خفيض : الله يرحمه ..

وقال الأسطى عفيفى :

ـ الا قول لى يا أحمد بيه .. ممكن يعنى وانت طالع القرافة تاخدنى معاك يوم .. أصلى الحقيقة نفسى أزوره ، واقرا له الفاتحة ..

وقال أحمد وعلى شفتيه ابتسامة حزينة :

ـ شوف امتى انت تكون فاضى ونطلع سوا ..

وقال الأسطى عفيفى :

ـ كلك انسانية يا أحمد بيه ·· آهو لو كنت طالع يوم الجمعة ، نطلع سوا ··

وقال أحمد : باذن الله ·· أفوت عليك هنا فى الورشة ، يوم الجمعة الساعة عشرة ··

وقال عفيفى : وجب ··

وعاد ينحنى فوق الموتور ·· وأحمد ينظر اليه حينا ، ثم ينظر الى داخل الورشة ، ثم يعود ينظر اليه ·· ثم قال :

ـ انما الحاجة اللى ترضى روح ممدوح بصحيح يا اسطى ·· انك تجيب المخرطة ·· ده كان متحمس للمشروع ده قوى ··

ورفع الأسطى عفيفى رأسه وقال : ربنا يقدرنا يا سى أحمد ··

وعاد يعمل فى الموتور ·· ثم قال كأنه انتهى من عمله :

ـ تسمح تدور الموتور يا أحمد بيه ··

وأدار أحمد الموتور ·· وتأكد الأسطى عفيفى من سلامته ··

وقال أحمد : عايز كام يا أسطى ؟ ··

وقال عفيفى : ودى تيجى يا سى أحمد ! ··

وقال أحمد : معلهش يا أسطى ·· علشان تريحنى ··

وقال عفيفى :

ـ خليها لحاجة كبيرة ·· ده أنا أخدمك بعنيه ·· انت ما تعرفش معزة سى ممدوح كانت أد ايه ؟ ··

وأصر الأسطى عفيفى على ألا يتناول أجرا ·· وتركه أحمد بعد أن تواعد معه على اللقاء يوم الجمعة ·· وقاد سيارته وهو يشعر بالأسى ·· كأن ممدوح مات بالأمس ·· ويشعر أنه لن يستطيع أبدا أن يشغل مكان مدوح ·· لا يستطيع أن يكون صاحب ورشة ·· ولا أن يهتم بالمساهمة فى ورشة ·· ولكنه أحب الأسطى عفيفى ·· شعر بطيبته وبساطته ·· شعر به قريبا منه كأنه قطعة من ممدوح ··

أين يذهب ؟ ..

وعاودته مشكلة الاحساس بالفراغ !

هل يذهب للقاء شهيرة ؟ ولكن شهيرة ليست فى القاهرة ، لقد ذهبت أمس الى العزبة مع والدها ، وستعود مساء اليوم .. وحتى لو كانت شهيرة فى القاهرة ، فهو لا يرضى لنفسه ألا يكون له عمل الا ملاحقة شهيرة .. ولا يرضى لها أن تكون مجرد أداة لتمضية أوقات الفراغ .. انه يريد عملا يشغله عن شهيرة ويربطه بها .. يريد أن يعمل .. يريد .. يريد .. وطغى عليه احساس بالتفاهة ، مصحوب باحساس بالغيظ .. انه مغتاظ .. مغتاظ من نفسه ، ومن الدنيا كلها .. انها دنيا ضيقة .. دنيا لا يرى منها الا بيته ونادى الجزيرة ، ونفسه .. ثم لا يرى أين يذهب كل هؤلاء الناس الذين يعملون .. كأنهم ينتقلون الى دنيا أخرى لا يعرف الطريق اليها ، ولا يعرف بابها ..

وأخذ يقود سيارته بلا هدف .. عاد الى بيته .. وجلس فى البهو ، والتقط مجلة فتح صفحاتها ، وأخذ ينظر فيها بعينين ملولتين .. وجاءت نبيلة وقالت وهى تجلس فى مقعد قبالته :

ـ ما عرفتش يا آبيه .. ماما حاتشترى لى تايبريتر علشان أتمرن عليها فى البيت ..

وأزاح أحمد المجلة من أمام وجهه ، وابتسم ابتسامة كبيرة يخفى بها همه عن أخته ، وقال :

ـ وعلشان كمان تبقى تكتبى لى المقالات بتاعتى ..

وقالت نبيلة فى دهشة : انت حا تكتب مقالات ؟

وقال مبتسما فى ثقة : ها حاول ..

قالت ضاحكة :

ـ على كل حال اطمن .. بعد أسبوعين حابقى أحسن واحدة تكتب على الماكنة فى مصر .. وبعدها حاشتغل سكرتيرة .. واذا

كنت عايزنى سكرتيرة لك ما عنديش مانع ٠٠ بس تدفع مقدم !!

وضحك أحمد وهو ينظـر من خلال ضحكته الى أختـه كأنه يحسدها ٠٠ انها تستطيع أن تكون سكرتيرة ٠٠ من السهل عليها أن تجد وظيفة سكرتيرة ٠٠ أن تجد عملا ٠٠ وهو أيضا لو أراد أن يكون سكرتيرا لاستطاع ٠٠ ولكنه لا يريد أن يكون سكرتيرا ٠٠ يريد أن يعمل عملا ينبع من نفسه ٠٠ عملا يفرض فيـه شخصيته ورأيه . عملا كبيرا ولكنه لا يدرى ما هو هذا العمل ٠٠ ؟ !

وقال وضحكته لا تزال بين شفتيه : وأخبار محمود ايه ؟

قالت ضاحكة :

ـ اسكت ٠٠ مش راح يشتغل فى السينما ٠٠ وبدل ما ياخد دور بطل ، أخد دور كومبارس ٠٠ جرســون فى قهوة بلدى ٠٠ واشتغل تلات ايام ، كسب فيهم تلاتة جنيه ٠٠

وارتفع حاجبا أحمد دهشة كأنه اكتشف عالما غريبا كان غائبا عنه ، وقال : وناوى يشتغل فى السينما على طول ؟

قالت : لأ ٠٠ لغاية ما يتعين فى الاذاعة ٠٠

وسكت أحمد ٠٠ ووجد نفسه يقاوم احساسا يجتاحه بالحذر من محمود ٠٠ ربما لم يكن حذرا ٠٠ ولكنه يغـار من محمــود ، ويحاول أن يقنع نفسه بأنه الحذر وليس الغيرة ٠٠ يغار منه على أخته ، ويحاول أن يقنع نفسه بأنه يخاف منه على أخته ٠٠ انه لم يكن صادقاً كل الصدق عندما شجع أخته على أن تروى له قصـة حبها ٠٠

ان الشخص الآخر ٠٠ الشخص الذى يحمـل عقلية أبيه ٠٠ لا يزال يعيش فى صـــدره ، ويحذره من الاندفاع وراء العقليـة الجديدة ٠٠ العقلية التى تعترف بالحب ٠٠ وهو لا يزال يقاوم هذا الشخص الآخر ٠٠

وقالت نبيلة تقطع سكوته : وحاتنشر مقالاتك فين يا آبيه ٠٠ ؟

قال باهمال : لسه ما قررتش ..

ثم استطرد كأنه يصد عن نفسه هذا الموضوع : هى فيفى مش هنا ؟ ..

قالت نبيلة : لأ .. خرجت ..

وقال أحمد : ما قالتش لك رايحة فين ؟ .

وقالت نبيلة مبتسمة : فيفى عمرها ما تقول رايحة فين ولا جاية منين .. انما تلاقيها راحت الجامعة ..

وقال أحمد :

ـ فيفى اليومين دول مش عاجبانى .. شايفها ساكتة وسرحانة ، زى ما تكون بتعمل حاجة من ورانا ..

وقالت نبيلة تطمئنه :

ـ ما تخافش على فيفى .. هى طول عمرها كده ..

وظل يتجاذب الحديث مع أخته .. يبدد به الفراغ الذى يشعر به .. ولكنه لم يحاول أن يتجه بالحديث ناحية محمود حتى يوفر على نفسه احدى معاركه النفسية ..

الى أن عادت فيفى ، ورفع أحمد عينيه اليها ، وقال مبتسما كأنه يستدرجها بابتسامته : كنتى فين ؟ ..

قالت فى حدة كأنها تتأهب لمعركة : كنت فى الجامعة ..

وقال أحمد وهو يضحك ضحكة صغيرة :

ـ هى الجامعة فاتحة دلوقت .. مش فيه أجازة .. والا ايه ؟

وقالت فيفى : أيوه فيه اجازة .. انما الأساتذة كلهم بيروحوا الكلية .. والمعامل مفتوحة ..

وقال أحمد وهو يهز كتفيه : طيب ..

وقالت فيفى : مش مصدقنى ..

وقال أحمد : يا ستى مصدق .. والا عايزة تتخانقى وبس .. يظهر انك انتى اللى مش مصدقة نفسك ..

وارتفع صوت فيفى

ـ قصدك ايه ·· ما تكلمنى بصراحة يا آبيه ··

وقال أحمد وهو يقوم من على مقعده : قصدى انى جعان وعايز آكل · شوفى يا نبيلة الأكل جهز والا لسة ··

ثم مال على أذن فيفى قائلا : ما تزعليش منى ·· ولا من نفسك ·· ثم تركها بسرعة قبل أن تجيبه واتجه الى مائدة الطعام ·

واجتمعت العائلة على الغداء ·· والأم ساهمة ·· تنظر الى فيفى بين حين وآخر ··

وفيفى لا ترفع عينيها عن طبقها ·· ونبيلة نشطة ووجهها مبتسم يضج بالسعادة ·· وأحمد فى حديث مع نفسه ·· وكلمات قليلة متبادلة ·· ·

وقام أحمد بعد أن انتهى من الطعام ، وصاحت أمه وراءه :

ـ خالك ضرب تليفون ، وبيقول لك استناه الليلة ·· حايفوت علينا ·· وعايز يكلمك ··

وقال أحمد : حاضر ··

ودخل غرفته ·· وجلس الى مكتبه ·· وأمسك بقلمه وحاول أن يكتب مقالا عن أهمية التخطيط ·· ولكنه لم يستمر فى محاولته ·· ألقى القلم فجأة ·· ثم خرج من البيت وركب سيارته ··

وقرر أن يذهب الى السينما ·· حفلة الساعة الثالثة ··

وجاء الخال فى الساعة الثامنة مساء ··

وحيا أفراد العائلة ، ثم اتجه الى غرفة المكتب وهو يقول :

ـ تعال يا أحمد نتكلم كلمتين ··

وتبعه أحمد صامتا ··

وجلس الخال على المقعد العريض ، وأراح كرشه فوق ساقيه ·· وجلس أحمد قبالته وهو ينظر فى وجهه كأنه يتعرف عليه ·· ان خاله لا يزال يحاول أن يحتفظ بأبهته ، وبمظهر نفوذه القديم ··

نفوذ وكيل الوزارة ٠٠ ولكن فى عينيه نظرات منكسرة ضـعيفة تفضحه ٠٠ وهو يغالى فى مظاهر أبهتـه كأنه يحاول أن يخدع الناس ٠٠ ولكنه كلما غالى فى هذه المظاهر ، أثار رثاء الناس ٠٠ وهو يعتنى بأناقته أكثر من الأول ٠٠ رباط عنقه ، وشعره اللامع ، والسلسلة الذهبية فوق كرشه ، والتدليك الذى يجريه كل يوم فى وجهه حتى يلمع ويصطبغ بلون الاحمرار ٠٠ ورغم ذلك فهو يبدو أكبر سنا منه منذ بضعة شهور ٠٠ الهالات السوداء تحت عينيه ٠٠ والوسكى الذى أدمنه منـذ أحيل الى المعـاش ، قد هـدل شفتيه وجفنيه ٠٠

وقال الخال وهو يشعل لنفسه سيجارة : هيه ٠٠ لقيت شغل ٠

وقال أحمد بفتور : لسه يا خالى ٠٠

وقال الخال مبتسما : أنا مش عايز أتدخل فى مستقبلك ٠٠ حاسيبك زى ما انت عايز ٠٠ انما يوم ما تحب أساعدك ، فى يوم واحد حا لاقيلك وظيفة ٠٠

وقال أحمد : متشكر يا خالى ٠٠ أنا عارف ٠٠

وسكت الخال فترة شد فيها نفسا من سيجارته ، ثم قال :

ـ النهاردة الأستاذ أمين عبد السيد فات على الصبح بدرى ٠٠ كنت لسه ما قمتش من السرير ، وطلب أن يعلن خطوبته على فيفى ٠

وابتسم أحمد ابتسـامة كبيرة ٠٠ لقـد اكتشف سر سرحان فيفى ، وخروجها من البيت ٠٠ لا بد أنها كانت تخرج للقاء الأستاذ أمين ٠٠ وهز رأسه كأنه يتعجب من تصرفات البنات وقال : بس أنا كنت فاهم ان فيفى مش عايزة تتم الخطوبة ٠٠

وضحك الخال ضحكة كبيرة ، وقال : يظهر انهم اتفقوا تانى ٠٠ ده اللى فهمته من الأستاذ أمين ٠٠ وبناء عليه ، حددت له يوم الخميس الجاى ، علشان يلبسوا الدبل ٠٠

وقال أحمد : والله اذا كانت فيفى موافقة ، أنا ما عنديش مانع ٠

وقال الخال كأنه يحاول اكتساب رضاء ابن أخته :

ـ ما أنا عارف انك كنت موافق من الأول ·· وده اللى شجعنى انى أحدد الميعاد قبل ما أكلمك ··

وسكت أحمد والابتسامة لا تزال بين شفتيه ··

وقال الخال بعد فترة طويلة تشاغل فيها بربط رباط حذائه :

ـ وفيه موضوع تانى ·· انت ايه رأيك فى عمك عبد السلام ؟

ونظر أحمد فى وجه خاله كأنه فوجىء بسؤال لا معنى له ، ولا يدرى هدفه ، وقال : من أى ناحية ؟ ··

وقال الخال دون أن ينظر اليه :

ـ رأيك فيه كانسان ·· انت عارف انه بيعزك قوى ، ودايما يسأل عنك انت واخواتك ·· وناوى يعمل شركة جديدة ، وكلمنى علشان تشتغل معاه فيها ··

وقال أحمد فى اهمال : والله عبد السلام بيه صاحب حضرتك ·· وتقدر تعرفه أكتر منى ··

وقال الخال بسرعة كأنه لا يريد أن يترك لنفسه فرصة للتردد :

ـ تعرف انه كان خاطب والدتك قبل المرحوم والدك ما يتجوزها؟

ورفع أحمد عينيه فى دهشة وقال : لا ·· ما اعرفش ·· !

وقال الخال : أمال ·· كان خاطبها ، وسافر ·· واعتقدنا انه مش راجع ·· وأتاريه بعت جواب من هناك ، بس ما وصلش فى ميعاده ·· ولما رجع لقى والدتك اتجوزت ، قعد من يومها من غير جواز ·· وكانت أرقى عيلة فى مصر تتمنى انه يتجوز منها ·· انما هو ما رضيش أبدا ··

وسكت أحمد ، والضيق يملأ وجهه ··

واستطرد الخال قائلا : ايه رأيك باه ··

وقال أحمد وقد اشتد ضيقه : رأيى فى ايه يا خالى ·· ؟

وقال الخال وهو يبالغ فى تردده :

– فى عبد السلام ·· أصل اللى حصل يا سيدى انه بقى له مدة بيطلب منى انه يتجوز والدتك ·· لسه من يومها ·· من خمسة وعشرين سنة وأكتر ·· وهو مصمم يتجوزها ··

وضحك الخال ضحكة مفتعلة ··

واحتقن وجه أحمد ·· أحس أنه أهـين ·· خاله يهينـه ·· وشىء يتمزق فى صدره ·· ورعشة تسرى فى أعصابه ·· ولكنه يتمالك نفسه ·· يبذل مجهودا كبيرا ليتمالك نفسه ·· يحاول أن يبدو هادئا ·· وصور كثيرة تمر فى مخيلته ·· صور والدته وهى تبدى اهتماما غير عادى كلما زارهم عبد السلام ·· اهتماما بتزيين البيت وتزيين نفسها ··

وسقطت ضحكة الخال من فوق شفتيه ، عندما لاحظ بعض ما يعانيه أحمد وقال فى هدوء وهو يحاول أن يصبغ كلامه بالمنطق :

– الحقيقة أنا كنت متردد أفاتحك فى الموضوع ده ·· أنا نفسى كنت متردد فى أنى أسمح لعبد السلام انه يفاتحنى فى الموضوع ، مع انى كنت عارف نيته ·· لكن لقيت ان أختـك ليلى اتجوزت وسابت البيت ·· وآدى فيفى حاتتخطب الجمعة الجاية ، وحاتسافر هى كمان ·· وبكره نبيلة تتجوز ·· وانت كبرت وما بقتش محتاج لوالدتك ·· كلكم حاتسيبوها لوحدها ·· من غير حد ·· من غير راجل ·· وانت عارف انها تعبت كتير علشانكم ·· ضحت بحياتها كلها علشان تربيكم ·· يبقى من حقها بعد كده تشوف نفسها ·· يبقى من حقها انها تتمتع بالدنيا ··

وأحمد جالس يستمع ورأسه ساقط على صدره ·· نظر الى الأرض ·· وقال الخال يحثه : ما تتكلم يا أحمد ·· !

ورفع أحمد رأسه ·· ووجهه لا يزال محتقنا ·· والرعشـة تسرى فى أعصابه ·· وقال ساخرا :

– بس مش تفتكر أن ماما كبرت على الجواز ؟

قالها كأنه يعاير خاله أيضا بكبر سنه وتصابيه ..
وانطلق الخال كأنه يدافع عن نفسه :
ـ كبرت ايه يا أخى .. ده ما كملتش خمسة وأربعين سنة يمكن تكون كبرت بالنسبة لى .. دى لسه عيلة .. أختى الصغيرة .. بينى وبينها اتناشر سنة .. وافرض انها كبيرة .. هم الشباب فاكرين ان الدنيا من حقهم لوحدهم .. الكبار كمان عايشين فى الدنيا يا أحمد .. ومن حقهم يتمتعوا بيها .. من حقهم يحبوا ويتجوزوا .. ويضحكوا .. انتم فاهمين الكبار دول ايه .. أموات .. ما بيحسوش ..
وقال أحمد محتدا كأنه يهم بالصراخ :
ـ والله أنا ما اقدرش أتصور والدتى بتتجوز ، وبييجى لها خطاب زى ليلى وفيفى ونبيلة .. ما أقدرش أتصورها متجوزة راجل غريب.. ما أقدرش .. ما أقدرش .. وما تسألنيش ما أقدرش ليه .. أهو ما اقدرش والسلام ..
وقال الخال وهو يضبط أعصابه بصعوبة :
ـ يا أحمد متبقاش أنانى .. انت كبرت دلوقت وتقدر تحكم عقلك .. ما تبقاش قاسى على والدتك .. كفاية اللى عملته علشانكم .. ومتنساش ان اللى حايتجوزها مش شاب صغير .. ده راجل محترم أكبر منها ..
وقام أحمد منتفضا ، وقال وهو يرتعش :
ـ أنا ما اقدرش أقول رأيى .. واذا كانت ماما عايزة تتجوز ، تتفضل تتجوز من غير ما تاخد رأيى .. خليها تاخد رأى اخواتى .. يمكن ما يكونوش أنانيين زيى ..
وهم أن يخرج من الغرفة ..
وصاح وراءه الخال : أحمد .. اوعى تجيب سيرة لاخواتك الا اذا وافقت انت الأول .. والاهم من كده ، اوعى تجيب سيرة

لوالدتك .. والدتك ما تعرفش انى كلمتك فى الموضـوع ده .. وما تعرفش ان عبد السلام طلب منى انه يتجوزها .. أنا حبيت قبل ما فاتحها فى الموضوع ، انى آخد رأيك .. وبصراحة كنت فاهم انك أعقل من كده ..

وظل أحمد ينظر الى خاله فى غباء برهة ، ثم تحرك لينصرف ، فصاح فيه خاله فى لهجة آمرة :

ـ اوعدنى انك مش حاتجيب سيرة لوالدتك ..

وقال وهو ينظر الى خاله فى سخط وكراهية : طيب .. أوعدك .

واندفع خارج الغرفة ..

واصطدم بوالدته وهو متجه الى غرفته ، فأشاح بوجهه عنها .. لا يريد أن تقع عيناه عليها ..

ولمست الأم كتفه ، وقالت فى ارتياع :

ـ مالك يا أحمد .. انت اتخانقت مع خالك ؟

وجذب ذراعه من يدها فى عنف وقال وهو لا ينظر اليها : لا .

ثم دخل غرفته ، وصفق الباب وراءه ..

وهرولت الأم الى أخيها ، وصاحت فيه وهى تنشب عينيها فى وجهه كأنها تتهمه بايذاء ولدها .. ولدها الوحيد :

ـ انت كلمت أحمد فى ايه ؟ .

ـ ولا حاجة .. كنت باقول له انه لازم يشتغل ..

وقالت الأم فى لهجة الاتهام : انت كنت بتخانقه ..

وقال الخال وهو ينظر اليها فى عتاب :

ـ أيوه .. أصله مش عايز يشتغل ..

وقالت الأم صائحة كأنها تهم بالبكاء :

ـ ما لكش دعوة بيـه .. يشـتغل وقت ما يحب .. والا ما يشتغلش خالص .. ما تتدخلش فى شئونه .. كفاية اللى عملناه فى ممدوح .. أنا مابقاش عندى الا هو .. الا أحمد ..

وسكت الخال برهة كأنه يتجنب الزوبعة ثم قال :

ـ حاضر ، أنا آسف يا عنايات يا أختى ، تصبحى على خير ٠

ولم يطق أحمد أن يبقى فى غرفته ٠٠ أبخرة كثيفة ساخنة ٠٠ تتصاعد من صدره وتملأ عينيه ٠٠ وتملأ أذنيه ٠٠ وتملأ رأسه ٠٠ فى عينيه غيوم ٠٠ فى أذنيه طنين ٠٠ فى رأسه نار تحرق عقله ٠٠ لم يعد فيه عقل ٠٠ انه لا يستطيع أن يفكر ٠٠ لا يستطيع أن يستعيد حديث خاله ومنطقه ٠٠ ليس فيه الا عاطفة مهتاجة صاخبة ٠٠ مدمرة ٠٠ يا رب ٠٠ انى لم أعد أستطيع ٠٠ لم أعد أستطيع ٠٠ حتى أمى ٠٠ ! حتى أمى ٠٠ !

وخرج من غرفته مندفعا كالصاروخ المشتعل ٠٠

انه لا يريد أن يبقى فى هذا البيت ٠٠

لا يريد أن يبقى حتى يرى كل ما حوله ينهار حتى أمه ٠٠ مثله الأعلى ٠٠ أرق وأسمى ما كان فى حياته ٠٠

يريد أن يهرب ٠٠ ! يريد أن ينسى ٠٠ ! يريد أن يسكر ٠٠ ! يشرب كثيرا من الخمر ٠٠ !

وخرج الى البهو ، وتعلقت به أمه وهى تنظر الى وجهه وفى عينيها صراخ ٠٠ انها ترى فى وجهه ، نفس ما رأته على وجه ممدوح يوم خرج ولم يعد ٠٠

وصرخت : رايح فين يا أحمد ٠٠

وأزاحها من طريقه فى قسوة ، فاصطدم ظهرها بالحائط ٠٠ وكتمت صرخة الألم وجرت خلفه وهى تولول : أحمد ٠٠ أحمد ٠٠

وخرجت لتلحق به على السلم وهى لا تزال تصيح : أحمد ٠٠ أحمد ٠٠ وصراخها لا يكاد يصل اليه من خلال الطنين الذى يملأ أذنيه ٠٠ ولا صوت بكائها ٠٠

١٨

وقاد أحمد سيارته ، والأبخرة الساخنة لا تزال تتصاعد من صدره وتملأ عينيه .. وتملأ أذنيه ·· وتملأ رأسه ·· انه لا يستطيع أن يفكر ·· كله احساس صاخب عنيف ·· احساس بالذل ·· بالمهانة ·· كأن كرامته تنزف من جرح فى قلبه ·· كأن يدا بشعة ملوثة امتدت لتسلبه كل حقوقه · لتسلبه ، حتى أمه · !

وأوقف السيارة أمام محل « لاباس » ونزل منها ، وخبط الباب وراءه كأنه يحاول أن يحطمه ·· ودخل فى خطوات سريعة كأنه يجرى ، ووجهه مكفهر معقد كأنه فى طريقه ليقتل أحدا ، أو ليقتل نفسه · واتجه مباشرة الى « البار » ·· وأجال عينيه الثائرتين حوله ·· ورأى صديقه عمرو جالسا على مقعد عال من مقاعد البار ·· وبجانبه جرمين ·· وبقية الشلة من أنصاف الخواجات ·· كلهم جالسون كما تعود أن يراهم ·· لم يتغير فيهم شىء ·· كأنه لم يغب عنهم سوى لحظات ·· كأن الأيام لا تمر بهم ·· كأن الدنيا تقف عندهم ، فلا تتغير ، ولا يتغيرون ·

ولمحه عمرو ، ولمح اكفهرار وجهه ·· فاتخذ موقف التحفز كأنه اعتقد أن أحمد قد جاء ليضربه ·· وارتفعت نظرات الذعر الى عينى جرمين ·· ونزل أنصاف الخواجات من فوق مقاعدهم العالية ، ووقفوا متجهين بوجوههم الى أحمد ·· وأيديهم فى خواصرهم ·· وفى عيونهم تأهب وتحد يشوبهما تردد وخوف ·

وأقبل أحمد عليهم بلا تردد ، وأفسح لنفسه مكانا بجانب عمرو ·· ونظر الى خادم البار ، وقال وهو يخبط بيده على اللوح

الخشبى الممتد أمامه :
ـ ويسكى يا جو .. قوام ! .
ثم التفت الى عمرو ، وابتسم له ابتسامة فارغه ، وقال :
ـ ازيك يا عمرو ..
ونظر فى وجه جرمين وابتسامته لا تزال معلقة بين شفتيه ولم يقل شيئا ..
واستراحت الشلة من حوله ، واطمأنت الى أنه لم يجىء قاصدا شرا .. وقال عمرو وهو يبتسم ابتسامة كبيرة يتودد بها اليه :
ـ مالك يا أحمد .. ايه اللى مزعلك ؟ !
وضحك أحمد ضحكة فارغة ، وقال وهو يدير وجهه عنه وينظر الى خادم البار :
ـ زعلان !! أبدا .. بس عطشان .. عطشان قوى ..
وخبط على اللوح الخشبى بيده ، واستطرد :
ـ الويسكى يا جو .. وهات ويسكى للشلة كلها ..
وجاء الويسكى ..
وشرب كأسه دفعة واحدة .. وأحس أنه سكب كوبا من البترول فوق النار المشتعلة فى صدره .. ان أعصابه تزداد اشتعالا .. وأحاسيسه تزداد اهتياجا ..
وكأس أخرى ..
وبقية أفراد الشلة بدأوا يلتفون حوله ، ويحاولون الترفيه عنه .. كأنهم جماعة من محترفى الترفيه .. نكاتهم محفوظة .. وضحكاتهم آلية .. وعيونهم ينابيع للنفاق والانتهازية .. انه لم يكن يراهم هكذا من قبل .. لم يكن يحس بكل هذا النفاق الذى يحيطونه به ..
وشرب من كأسه ..
وتركت جرمين مكانها بجانب عمرو ، وجاءت ووقفت بجانبه

وألصقت كتفها العارى بكتفه ·· ورفعت رأسها اليه وخصلة من شعرها مدلاة فوق جبينها ·· واختارت له أجمل ابتساماتها وقالت فى صوت محشرج مثير : هاللو ··

ونظر اليها ··واصطدم بعينيها الضاحكتين ·· ينبوعين من النفاق ·· عجيبة ·· انها ليست جميلة ، كما كان يراها ·· انه لا يشتهيها ·· لا يريد أن يأكلها ·· وهذه الليالى الطويلة التى قضاها وأعصابه مشدودة ، منذ تركها ·· ليالى الحرمان ·· ليس لها أثر الآن ·· أعصـابه لا تتحرك ·· وكتفها العارية ملتصـقة بكتفه ، وأنفاسها الساخنة تهب على وجهه ، ورائحتها ·· رائحة الليالى الحمر ·· تملأ أنفه ·· وأعصابه لا تتحرك ··

وقال فى برود : هاى ··

وازدادت التصاقا به ·· نهداها فوق ذراعه ·· وقالت وهى تتعمد أن يكون صوتها أكثر اثارة : انت لسه زعلان منى ؟ ··

وقال وهو يبتسم لها ابتسامة مفتعلة :

ـ أبدا ·· وأنا أقدر أزعل منك ··

قالت وشفتاها تقتربان من وجهه : أمال ما كنتش بتكلمنى فى النادى ليه ·· ولا بتضرب لى تليفون ·· ولا بتيجى هنا ··

قال وهو يبعد وجهه عن شفتيها ، وقد بدأ يحس بالضيق :

ـ كنت باتقل عليكى ··

ومد يده ورفع كأسه الى شفتيه ··

ورفعت ذراعها ووضعته فوق كتفيه ، وقالت هامسـة ، وهى تداعب بأصابعها خصلات شعره المدلاة فوق قفاه : وحشتك ؟ !

وازداد احساسه بالضيق ·· أحس كأن أصابعها التى تعبث فوق قفاه ، ذباب يريد أن يهشه ·· وظل صامتا ·· وعادت تقول :

ـ انت لسه تقلان ؟

قال : لا ·· خلاص بطلت تقل ! ··

ثم أحاط خصرها بذراعه ، وهو ينادى على الخادم :

ـ ويسكى يا جو ..

وجذبها اليه بقسوة .. يحاول أن يثير نفســه .. أن يحس بالاشتهاء .. لعل الاشتهاء ينســيه أحاسيسه ، ولكن لا .. انه لا يزال يحس بالذل والمهانة .. وصورة أمه وعبد السلام تتراءى أمام عينيه .. وصوت خاله يطن فى أذنيه ..

وحاول أن يضحك .. أن يهرج .. والشلة من حوله تحاول أن تجاريه ، وأن تعينه على الضحك والتهريج .. ولكن لا أمل .. ان نفسه تزداد قتــوما .. والأبخرة الساخنة التى تتصــاعد من صدره تزداد كثافة .. وتملأ عينيه ، وأذنيه ، وتحرق رأسه وهو يحس بما يفعله .. انه يحاول أن يهــوى من جديد .. يحاول أن يقتل نفسه .. سيشرب حتى يسكر .. ثم يذهب مع جرمين .. لا .. انه لا يطيق .. لا يطيق .. انه يتقزز من نفسه .. ويتقزز من كل ما حوله .. يا رب .. أين أستريح .. كيف أستريح ..؟

ورفع ذراعه بغتة من حول جرمين .. ومد يده فى جيبه وألقى لخادم البار ثلاثة جنيهات ، دون أن يحاسبه ، ثم قال دون أن ينظر الى أحد : عن اذنكم عندى ميعاد ..

واندفع خارج البار دون أن ينظر الى أحد .. أو ينتظر كلمة من أحد .. وطعم الويسكى فى لسانه .. مر .. وخطواته مترنحة .. انه سكران .. ولكنه ليس نشوان .. كأنه دائخ أثر حجر ثقيل وقع على رأسه .. والجميع ينظرون وراءه .. ثم يهزون أكتافهم بلا مبالاة ..

واتجه أحمد الى تليفون المحل ، ورفع السماعة ، وأدار الرقم بيد مرتعشة متعجلة ، كأنه يطلب لنفسه الاسعاف ..

وسمع صــوتا غليظا متثائبا يرد عليــه .. وقال فى صــوت ملهوف : من فضلك أقدر أكلم شهيرة ..

وقال الصوت فى دهشة : حضرتك مين ؟
وقال أحمد وهو لا يزال ملهوفا : أنا أحمد ·· قول لها أحمد
وقال الصوت كأنه يؤنبه : والله شهيرة دخلت أودتها ، وزمانها نامت ··

وصرخ أحمد : صحيها ·· صحيها اعمل معروف ·· دى مسألة مهمة قوى ·· قول لها أحمد ··
وسكت الصوت برهة ، كأنه يفكر ، ثم قال فى هدوء :
ـ دقيقة واحدة من فضلك ··

وظل أحمد ممسكا بسماعة التليفون ·· ووجهه محتقن ·· وجسده ينضح بعرق بارد ·· وأحاسيسه كلها متعلقة بخيط رفيع من الأمل ·· الأمل فى أن ترد عليه شهيرة ··
وسمع صوتها ··
صوت شهيرة ·· وصرخ فى سماعة التليفون :
ـ شهيرة ··

وقالت شهيرة فى لهفة : ايه يا أحمد ؟ حصل ايه ؟ خضتنى ·
وقال أحمد كأنه يهم بالبكاء :
ـ أنا لازم أشوفك دلوقت ·· دلوقت حالا ··
وشهقت شهيرة وقالت :
ـ يا خبر ·· دى الساعة حداشر وأكتر ··
وقال أحمد بسرعة :
ـ حتى لو كانت تلاتة الصبح ·· لازم أشوفك دلوقت ··
وقالت شهيرة : بس ايه اللى حصل يا أحمد ·· طمنى ! ··
قال فى اصرار : ما اقدرش أقول لك فى التليفون ·· لازم أشوفك ! ·

قالت : تشوفنى ازاى بس يا أحمد ·· وأنزل ازاى من البيت ·· أقول لهم ايه ؟ ! ··

قال : قولى لهم على كل حاجة ·· قولى لهم انى باحبك ، وانتى بتحبينى ·· وانك وعدتينى انك تساعدينى ·· تسـاعدينى على نفسى ··

وسكتت برهة ، ثم قالت : انت بتتكلم منين ؟ ··

قال بسرعة : من الشارع ··

قالت : طيب اسـمع ·· روح البيت دلوقت ·· واضرب لى تليفون من هناك ·· ونقعد نتكلم للصبح ··

قال كأنه يصرخ : ما اقدرش ·· أنا مش حارجع البيت ·· مش حارجع البيت أبدا ·· ومش حاضرب لك تليفون ·· لازم أشوفك ·· لازم أشوفك ··

ورق صوته كأن الدموع قد بللته ، واسـتطرد : شـهيرة ·· ما تسيبنيش دلوقت ·· أنا محتاج لك ·· انتى ما تعرفيش حالتى شكلها ايه ·· ولو ما شفتكيش دلوقت ، ما اعرفش حا اعمل فى نفسى ايه ·· اننى وعدتينى يا شهيرة وعدتينى ··

وعادت شهيرة تسكت برهة ، ثم قالت فى تردد كأنها تخاف أن تجرح احساسه : انت شارب ؟ ·

قال كأنه يعاتبها : أنا شارب ·· بس مش سكران ·· حاولت أسكر بدل ما أشـوفك ·· ما قدرتش ·· شهيرة ·· افرضى انى اتجننت ·· ما تسيبينيش فى جنانى ··

قالت فى تردد : بس يا أحمد أنزل ازاى من البيت دلوقت ··

قال : اتجننى علشان خاطرى ··

قالت : طيب ، قول لى ايه اللى حصل ، علشان اقدر أتجنن ·

وصرخ : اسمعى ·· أنا حاقفل السكة دلوقت ·· وأخد العربية واقف قدام بيتكم ·· حافضل واقف لغاية ما اشوفك ·· حتى لو شفتك بكره الصبح ·· والا بعد يومين ·· واذا ما اقدرتش أستنى

لغاية ما أشوفك ·· ابقى اعرفى انك سبتينى ·· انك ما بتحبنيش ·· ان ماليش حد فى الدنيا ··

وسمع صرختها : أحمد ·· و ··

وألقى بسماعة التليفون من يده ·· واندفع نحو سيارته ·· وقادها مغمض العقل مفتح العينين ·· يمر بالشوارع دون أن يراها ·· ويسمع أناسا يشتمونه ولا يراهم ·· ويتعدى اشارات المرور دون أن يتنبه اليها ·· ووصل الى الزمالك ·· وقاد سيارته تلقائيا دون أن يتعمد اختيار الشوارع ·· حتى وصل الى بيت شهيرة ·· الفيلا الكبيرة الفخمة ·· ووقف أمام الباب ·· وهو يلهث ·· كأنه جاء يجرى على قدميه ·· ووجهه ازداد احتقانا ، والعرق البارد ازداد تصببا من جسده ·· ثم أوقف موتور السيارة ·· وأحس بالهدوء ·· كأن الموتور الذى أوقفه كان فى داخل صدره ··

ولم يحاول أن يرفع رأسه الى البيت ··

أسند ذراعيه فوق عجلة القيادة ، وألقى برأسه فوقهما ، وأغمض عينيه ·· وأحس برغبة فى البكاء ·· لو استطاع أن يبكى لاستراح ، لانطلقت هذه الأبخرة الكثيفة التى تملأ صدره ·· وعصر عينيه فعلا ، لعله يبكى ·· ولكنه لا يستطيع ·· انه يعرف أنه لا يستطيع أن يبكى ··

وظل رأسه ملقى فوق عجلة القيادة ·· وهو لا يتعجل أن تأتى اليه شهيرة ·· بل لا يسأل نفسه متى تأتى ·· كأنه يكتفى أن يكون قريبا منها ، فيأمن على نفسه ··

ورفع رأسه على صوت صرير الباب الحديدى الكبير ، وهو يفتح ·· ورأى شهيرة قادمة ·· كان يبدو أنها ارتدت ثيابها على عجل ·· بلوزة وجيب ·· ووجهها خال من المساحيق ·· وشعرها مهوش فوق رأسها · ولكن أحمد لم يلحظ كل ذلك ·· أدار عينيه

عنها ·· ونظر أمامه ·· وفتحت شهيرة باب السيارة ، وجلست بجانبه ، تنظر اليه دون أن تتكلم ··

وقال وهو يمد يده الى مفتاح الموتور ولا يزال ينظر أمامه :

ـ تحبى نروح فين ؟ ·

قالت فى حزم : ولا حتة ·· أنا قلت لماما انى حانزل أكلمك خمس دقائق ·· قدام البيت ·· ورفع يده من فوق مفتاح الموتور ·· وظل ناظرا أمامه ، كأنه لا يجرؤ أن ينظر اليها ··

وقالت وهى تنظر اليه على ضوء فانوس الشارع ، كأنها تبحث فى وجهه عن سر ، وبين شفتيها ابتسامة حانية ·· ابتسامة أم :

ـ ما لك يا أحمد ؟

وشد من صدره نفسا عميقا ، ثم أدار وجهه لها فجأة ، وقال فى صوت مبحوح كأنه يجذبه من بين عواصف نفسه :

ـ شهيرة ·· احنا لازم نتجوز ·· بكره ·· بعده ·· لو كان بابا صاحى ، نطلع نقول له دلوقت ··

ولم يبد على شهيرة أثر لمفاجأة ·· ظلت تنظر اليه فى حنان ، وقالت وابتسامتها تكبر على شفتيها : ما تيجى ننتحر أحسن !

قال وهو يعاتبها : أنا باتكلم جد يا شهيرة ··

قالت : بتفكر فى الانتحار ·· وأنا ما أقدرش أتجوزك لأنك زعلان ، أو لأنك طهقان من عيشتك ·· انما حاتجوزك لأنك بتحبنى ·· وانت دلوقت ما بتحبنيش ، انت طهقان ··

قال وقد عاد ينظر أمامه :

ـ لو ما كنتش باحبك ما كنتش جيت لك وأنا طهقان ··

قالت : طيب قول لى ·· طهقان من ايه ·· حصل ايه ؟ ··

قال وهو لا ينظر اليها : ما اقدرش اقول لك ··

قالت وهى لا تزال تبتسم له كأنها تتحايل على طفل :

- مش معقول يا أحمد ·· تنزلنى من البيت فى نص الليـل وبعدين ما تقولليش حاجة ··

قال كأنه يحادث نفسه : أنا مش حارجع بيتنـا ·· حاروح أسكن لوحدى ·· والا أسافر وأسيب البلد كلها ··

قالت : ليه ؟ ··

قال : كده ·· خلاص ·· زهقت ·· لو قعدت فى البيت يوم واحد كمان حاتجنن ··

قالت : ايه بس اللى حصل يا أحمد ·· ؟

قال : حصل حاجات كتير ·· حاجات ماتتقالش ··

قالت وهى تمد يدها وتضعها على يده : ولا لى ؟ ! ··

والتفت اليها فى حدة وقال وعيناه تبرقان كأنه جن : ماما ·· تتصورى ان ماما عايزة تتجوز ·· ست كبيرة زى دى ·· وبعـد العمر ده كله ·· تفكر فى الجواز ··

وظلت شهيرة تنظر اليه برهـة ، كأنها فوجئت ، ثم تمـالكت أعصابها ، وقالت في هدوء : حاتتجوز مين ·· حد تعرفه ؟

قال وهو يخبط بيده على عجلة القيادة كأنه سيحطمها

- واحد اسمه عبد السلام ·· صاحب خالى ··

قالت شهيرة كأنها أعدت فى رأسها خطة لعلاجه : وبعدين

ونظر أحمد اليها فى دهشة وقال : وبعدين ايه ؟ ··

قالت: حصل ايه بعد كده ! ··

وقال أحمد محتدا : مش كفاية انها عايزة تتجوز ·· فيه أكتر من كده ايه ؟ ··

قالت كأنها تلومه : ما لكش حق يا أحمـد ·· كل الستـات بتتجوز ·· وستات أكبر من مامتك كمان ·· اشمعنى هى اللى مش عايزها تتجوز ··

قال وقد ارتفع صـوته : لو كانت مامتـك هى اللى بتتجوز ، ماكنتيش قلتى كده ••

قالت وابتسامتها هادئة بين شفتيها :

ـ لو كانت ماما هى اللى بتتجوز كنت انت أول واحد وافق على جوازها ••

وارتسمت المفاجأة فى عينى أحمد •• كأنهـا فاجأته بحقيقة غابت عنه •• انها على حق •• انه فعـلا لا يمانع فى أن تتزوج والدتها اذا كانت بلا زواج •• انه لا يشعر بأن زواج والدتها يمكن أن يكون جريمة •• ولا زواج أية امرأة أخرى كبيرة السن ولهـا أولاد •• ولكن أمه •• ان احساسه نحوها يختلف •• احسـاس مشبع بالأنانية •• أنانية الأبناء •• انه يفكر بأنانيته كما قال خاله •• ولكن هذه الأنانية أمر طبيعى •• غريزة فيه •• ولا حيلة له فيها ••

وقال كأنه يدافع عن أنانيته : انتى مش حاسة باللى أنا حاسس بيه •• لو كنتى حاسة كنتى عرفتى أنا حالتى ايه ••

قالت : أنا حاسة باللى حاسس بيه يا أحمد •• الفرق بينى وبينك انى بنت وانت راجل •• لو كان والدك هو اللى عايش وهو اللى بيتجوز ماكنتش اعترضت •• ما كانش بأه عيب •• اشمعنى الست يعنى •• ومامتك أحـق بالجواز من كل الستـات ومن كل البنات •• أحق بالجواز منى •• أنا أقـدر أستنى •• وأنا ما اتحرمتش قد ما هى اتحرمت •• وأنا متأكدة ان فيفى ونبيلة وليلى، حيوافقوا على جوازها ••

قال وقد بدأت أنانيته تضعف : ايه عرفك ؟ ••

قالت : انت سألتهم ؟ ••

قال : لا ••

قالت : اسألهم وانت تعرف ••

قال : ما اظنش يوافقوا ·· دى فيفى لوحدها مستعدة تعمل هليلة ·· يمكن تموت نفسها ··

قالت : ما تصدقش ·· يمكن يتضايقوا شوية ·· انما مش حا يعملوا اللى انت عامله ·· علشان انت راجل ·· والرجالة مش ممكن يفهموا الست ولا يرحموها ·· انما البنات بيفهموا أمهاتهم أكتر ، ويرحموهم اكتر ··

وسكت أحمد طويلا ·· وشهيرة تنظر اليه كأنها تضمد جراحه بعينيها ·· ثم قال كأنه يخاطب نفسه : يعنى انت كمان موافقة ؟

قالت فى صراحة وهى تضحك ضحكة صغيرة :

ـ أنا من مصلحتى ان حماتى تتجوز ، علشان ما تقعدش معايا·

ونظر اليها مبتسما كأنه فرح وهى تعتبر نفسها زوجة له وتعتبر أمه حماتها ، وقال : عرفتى انك انتى كمان أنانية ؟

قالت فى بساطة :

ـ كلنا أنانيين ·· ما فيش حد فى الدنيا مش أنانى ·· بس المهم ان أنانيتنا ما تحرمش حد من حقه ، ولا من سعادته ··

وسكت كالتلميذ الذى يتلقى درسا ·· وأحس بالأبخرة الساخنة تهدأ فى صدره وتبرد ، وأحس بعقله يشرق ·· ورغم ذلك فهو لا يزال يقاوم · ·يقاوم عقله ·· ويقاوم هدوء نفسه ·· ويحاول أن يتشبث بأنانيته ·· ويتشبث بأحاسيسه المهتاجة ·· وقال كأنه تعب من نفسه : مش عارف يا شهيرة ·· مش عارف أعمل ايه ؟ مش عارف حتى أحس بايه ؟ كل اللى حاسس بيه انى ضايع ·· تايه ·· حيران ·· ! ؟

قالت وهى ترفع يدها وتمسح على راسه كأنها تبارك له عقله :

ـ انت قلت لمامتك ايه ؟ ··

قال : ما قلتش لها حاجة ·· ما اتكلمتش فى الموضوع ··

وخالى بيقول انها حتى ما تعرفش ان اللى اسمه عبد السلام ده طلب يتجوزها ..

وابتسمت شهيرة فى وجهه كأنها تلومه ، وقالت :

ـ أمال زعلان ليه .. وعامل كل ده فى نفسك ؟ .. مش يمكن مامتك مش عايزة تتجوزه .. مش يمكن ترفضه .. دى تلاقيها رفضت قبله ناس كتير ! ..

ونظر اليها فى دهشة قائلا : فعلا ..

من أدراه أن أمه ترضى بأن تتزوج عبد السلام ؟ .. ربما رفضته وهو يعلم أنها رفضت قبله رجالا كثيرين ..

لماذا تعجل فى الحكم على أمه ؟ .. انه يعلم السبب .. انه يغار من عبد السلام .. منذ أن دخل بيتهم وهو يغار منه .. يغار منه لشدة اهتمام أمه بزيارته ، وكثرة حديثها عنه .. وقد فجر خاله خزان الغيرة فى صدره ، عندما استشاره فى زواج أمه ..

ولكن من أدراه .. ؟ !

ربما كانت أمه رغم اهتمامها بعبد السلام ترفض الزواج به من أجل أولادها .. بل ربما كان عبد السلام قد عرض عليها الزواج ، ورفضته فعلا ، فاضطر أن يلجأ الى خاله ليعينه فى اقناعها ..

وظل أحمد شاردا فى خواطره ..

وقالت شهيرة تتم حديثها : تعرف انا لو كنت منك .. كنت رحت اتحايلت على ماما علشان تتجوز ..

ورفع رأسه اليها وقال وابتسامة كبيرة تبدد سحب الحيرة من فوق وجهه :

ـ علشان حماتك ما تقعدش معاكى ..مش كده ؟ ! ..

قالت والدماء تتدافع فوق وجنتيها :

ـ لا .. علشان أصلى باحب حماتى .. وما اقدرش أبقى سعيدة لوحدى .. لازم هيه كمان تبقى سعيدة ..

وأطال النظر اليها ··

وجهها الهادىء ·· نفسها المستقرة ·· عيناها المليئتان بالحنان ، ابتسامتها الحلوة ·· وخيل اليه أن هالة من النور تحيط بوجهها ، نور الوضوح ·· والهدوء والسكينة ·· واقترب منها ليعيش فى النور ·· وأحاط كتفيها بذراعه ، وأراح وجهه على عنقها ، وهمس :

ـ أنا مش عارف أقدر أعيش ازاى من غيرك ؟ ··

وضمته اليها برفق ، وقالت وهى تمسح فوق شعره بيدها :

ـ ومن قال لك انك حا تعيش من غيرى ·· ؟ !

ورفع وجهه اليها ·· وشفتاه تنظران الى شفتيها فى توسل ·· وتقتربان منهما فى هدوء ·· وحذر ·· وأغمض عينيه ·· وأغمضت عينيها ·· والتقت الشفاه فى رفق وحنان ·· ورشف رحيق حبه ·· رشف طويلا كأنه يملأ فراغ نفسه بسر الحياة ·· ولا يرتوى ·· ولا يريد أن ينزع شفتيه من شفتيها ·· طفل يرضع من ثدى أمه ·· والنشوة تسرى فى أعصابه هادئة كقطرات الندى ··

وفتحت عينيها ·· وأخذت شفتيها من شفتيه ··

ولكنه لم يرتو ·· ليس بعد ··

وابتعدت الى آخر المقعد ·· وقالت وهى تضع يدها على أكرة باب السيارة : كفاية يا أحمد ·· زمان ماما انشغلت على ··

وفتحت الباب ، وهو ينظر اليها ·· بشفتيه ·· متوسلا ··

ونزلت من السيارة وهى تقول له :

ـ تانى مرة ما تبقاش تشرب ويسكى لوحدك ·· ؟ !

وابتسم ، ولم يجب ··

وقالت وهى تحيطه بابتسامتها : تصبح على خير ··

وهمس : تصبحى على خير ··

وأغلقت باب السيارة فى هدوء ·· وتبعها بعينيه حتى دخلت البيت ، وسمع صرير الباب الحديدى الكبير وهو يغلق وراءها ··

وتنهد ·· وابتسامة هادئة بين شفتيه ·· وصدره ملىء بالحب ، حب أنساه أمه وعائلته وكل مشاكله ·· وقاد سيارته فى بطء ، كأنه يخشى ان أسرع أن تهتز السيارة فيهتز معها ، وتهتز سعادته ·· وابتسامته لا تزال بين شفتيه ·· وهو يفكر فى زواجه من شهيرة ·· متى يتزوجها ؟ ·· وكيف ··

ووصل الى بيته ·· ورفع رأسه ، فرأى الأنوار مضاءة ·· انه يعرف السبب ·· ان أمه وأختيه ساهرات منشغلات عليه ، بعد أن ترك البيت غاضبا ··

وانكمشت ابتسامته فوق شفتيه ·· وانكمشت فرحته ·· وداهمه احساس بالذنب ، وتأنيب الضمير ·· كيف استسلم لثورته الى هذا الحد ، الى حد أن يسبب لأمه كل هذا الجزع ، كل هذا الألم ··

وأدخل السيارة فى الجاراج ·· واجتاز فناء البيت فى خطوات بطيئة كأنه يؤجل مواجهة أمه ·· وما كاد عم عبد الله البواب يلمحه ، حتى صاح : سى أحمد ! ؟ كنت فين يا أحمد بيه ؟ ·· دى الست الكبيرة بتسأل عليك من بدرى ، ومشغولة عليك قوى ·

ورد أحمد تمتمة غير مفهومة دون أن ينظر اليه ، وصعد السلم فى خطوات بطيئة أيضا ·· وقبل أن يصل الى الباب رفع رأسه ، ورضع على شفتيه ابتسامة ، وادعى المرح ··

ودخل ···

وأمه جالسة فى البهو الخارجى ، رأسها فوق يدها وخيط من الدموع الجافة معلق فوق خديها ، وحولها فيفى ونبيلة ·· صامتتين ·· غارقتين فى سحابة من الجزع ··

ورفعت الأم رأسها على صوت أقدام أحمد ، وصاحت : أحمد ·

ثم قفزت واقفة واندفعت اليه ، وأخذته بين ذراعيها ، وضمته الى صدرها ، وهى تتحسس ظهره بيديها كأنهـا تريد أن تتأكد أنه حقيقة ·· وأنها لا تحلم ·· وقالت :

ـ يا حبيبى ·· كده برضه يا أحمد ·· كده برضه ؟ ! ··

وقال أحمد وهو يحتضنها ، ولا يستطيع أن ينظر اليها :

ـ ايه بس اللى حصل يا ماما ؟ ··

قالت ودموعها تنزف من جديد :

ـ كل ده وما حصلش حاجة يا أحمد ؟ ده أنا كان متهيأ لى انى مش حا شوفك تانى أبدا ··

قال : خلاص بقى يا ماما ·· كفاية دموع ·· اضحكى لى ·· أنا آسف يا ماما ·· حقك على ·· أصلى كنت زعلت شـوية ·· ما كنتش حاسس أنا باعمل ايه ؟ ··

ثم وضع يده تحت ذقنها ورفع وجهها اليه ، وعاد يقول :

ـ خـلاص بقى يا ماما ·· كفـاية دموع ·· اضحكى لى ·· ابتسامة صغيرة ·· قد كده ··

وأشـار بعقلة أصبعه ليبين حجم الابتسامة التى يريدها ··

ورفعت الأم منديلها تجفف دمعها ، وأشرقت ابتسـامة صغيرة فوق شفتيها ··

وانحنى أحمد وقبل يدها ، وقال :

ـ سامحينى يا ماما ·· خلاص ·· دى آخر مرة ! ··

وقالت فيفى وهى تنظر الى أخيها فى سخط :

ـ ما حدش يعمل كده أبدا يا آبيه · كفاية اللى حصل لممدوح ··

وقال أحمد وهو يبتعد عن أمه مبتسما :

ـ معلهش يا فيفى ·· وعلى فكرة ·· مبروك !

ثم التفت الى أمه قائلا : خالى قال لك ان فيفى حا تتخطب يوم الخميس ! ··

وقالت الأم : أيوه ٠٠
وقال أحمد ضاحكا ، وهو يحاول تقليد فيفى :
ـ وامبارح أسألها عن الأستاذ أمين ٠٠ تقول لى ما أعرفش٠
وقالت فيفى فى حدة : من فضلك بلاش تريقة ٠٠
وعاد أحمد يلتفت الى أمه ، ولاحظ أن دموعها لا تزال بين عينيها ، وقال : مش تضحكى بقى يا ماما ٠٠ حد يعيط علشان فيفى اتخطبت ٠٠ ؟
وضحكت الأم ٠٠
وقالت فيفى : أنا بختى كده ٠٠ والبركة فيك ٠
ثم اتجهت الى غرفتها فى خطوات عصبية ٠٠
وقالت نبيلة كأنها تساعد أحمد فى موقفه الحرج :
ـ اتعشيت يا آبيه ؟ ٠٠
وقال أحمد : وانتى اتعشيتى ؟ ٠٠
قالت وهى تبتسم له : لا ٠٠
قال ضاحكا : طيب نتعشى سوا ٠٠ وماما معانا ٠٠
وجذب أمه برفق الى حجرة الطعام ، وهو لا يستطيع أن ينظر اليها ٠٠ فاذا التقت عيناه بعينيها ، ارتعشت عيناه ٠٠ كان يحس أن هناك شيئا جديدا يقف بينه وبين أمه ٠٠ ويحس أنه فى حاجة الى كل ارادته ، وكل عقله ، حتى يزيل هذا الشىء الذى يقف بينهما ٠٠ الشىء الذى ينطلق من نفسه ٠٠ أنانيته التى تأبى عليه أن يقتنع بأن من حق أمه أن تتزوج ، وجلس الثلاثة حول مائدة الطعام : أحمد ، ونبيلة ، والأم ، وفيفى وحدها فى غرفتها ٠٠

★ ★ ★

كانت فيفى قد تحركت عقدتها من جديد عقب زواج ليلى ٠٠ عقدة الأخت الكبرى ٠٠ العقدة التى تجعلها تثور لكرامتها وتثور على حظها في الحياة ٠٠ وتثير فيها الاحساس بأنها اقل جمالا من

أختيها ، وأقل أنوثة ·· وقد حاولت أن تقاوم عقدتها ·· حاولت كثيرا ·· ولكن الفراغ الذى تعيش فيه ·· فراغ الاجازة الصيفية لم يساعدها على المقاومة ·· واشتد بها الاحساس بالنقص ·· بالتعاسة ·· ودفعها هذا الاحساس الى اعادة التفكير فى موقفها من الأستاذ أمين عبد السيد ·· كأن ليس لها ملجأ من احساسها بالنقص الا اليه ·· كأن ليس فى حياتها رجل غيره ·· ولا يمكن أن يكون فى حياتها غيره ·· وهى لم تنس أمين عبد السيد أبدا ·· ولكنهـا كانت تحاول أن تتناســاه ·· ثم ·· لم تعـد تحاول ·· بالعكس انها بدأت تفكر في أن تستعيده ··

وذهبت الى كلية العلوم لعلها تلقاه ·· ذهبت أكثر من مرة ·· وفى كل مرة لا تجده وتحاول أن تقنع نفسها أن ذهابها الى الكلية خير من بقائها فى البيت ·· تحاول أن تقنع نفسها أنهـا لا تذهب بحثا عنه ، بل ترفيها عن نفسها ··

الى أن التقت به ··

وتقدمت نحوه فى خطى ثابتة ·· كأنها أقوى منه ·· انها فعلا تحس بأنها أقوى منه ، واستقبلها بعينين مترددتين ترتعشان خلف زجاج نظارته السميك ·· وهو لا يدرى ماذا تريد ·· ؟ !

وطلبت منه فى برود مهذب أن يقرضها ـ لو سمح ـ مذكرات العام الدراسى القادم ، حتى تقضى اجازتها فى مراجعتها ··

واستمهلها الى اليوم التالى ··

وعادت اليه في اليوم التالى ·· وقضيا فترة فى حديث حائر ·· كان كلا منهما يحاول أن يخفى نفسه عن الآخر ·· واعطاها كراسة المذكرات ، وقال لها ان للمذكرات بقية سيعدها لها فى اليوم التالى ·

واخذت الكراسة وذهبت الى البيت ·· وما كادت تقلب فيها ، حتى سقطت منها ورقة صغيرة ، قرأت فيها بخط أمين الذى تعرفه

جيدا : « لقد سبق أن قلت ان العلاقات بين النـاس كالمعـادلات الكيميائية ، تحتاج الى عدة تجارب ، قبل أن تتحدد نتائجها ·· اما حب ·· أو صداقة ·· أو عداء ·· وأعتقد أننا لم نقم بتجارب كافية حتى نحدد علاقتنا » ··

ولم تكن الكلمة موجهة الى أحد ·

ولم تكن موقعة بامضاء أمين ··

ورغم ذلك فقد عرفت أنه كتب هذه الورقة لها ·· عرفت أنه لم ييأس منها ·· انه لا يزال يحبها ··

وعادت اليه فى اليوم التالى ·· واتصل بينهما الحديث الحائر فترة ·· ثم فجأة أخرجت الورقة الصغيرة من حقيبتهـا ، ومدت يدها اليه بها ، قائلة فى برود مهذب :

ـ اتفضل ·· أنا لقيت الورقة دى فى الكراسة ··

وأخذ منها الورقة ، وقال فى تردد : قريتيها ؟ ··

قالت وهى تشيح عنه بوجهها فى دلال :

ـ أيوه ·· كنت فاكرة ان فيها ملاحظات ··

قال فى حياء : موافقة ؟ ··

قالت وهى تدعى الدهشة : موافقة على ايه ؟ ··

قال وهو يستعين بشجاعته : موافقة على اننـا نجرب كمان مرة ؟

قالت وابتسامة صغيرة تمر على شفتيها :

ـ مش فاهمة قصدك ايه ؟ ··

قال وقد استعاد كل شجاعته :

ـ قصدى نروح نقعد فى كازينو الحمام ··

وهزت كتفيها كأنها لا تبالى ، وقالت : ما فيش مانع ··

وذهبا الى هناك ·· وجلسا على نفس المائدة التى جلسا عليها أول مرة ·· وأخذت فيفى تنظر اليه كأنها تنظر الى ثوب تفكر فى

اصلاحه ·· فى اعادة تفصيله على طراز جديد ·· ترى هلتستطيع أن تغير من أمين ؟ ·· أن تجعل منه رجلا آخر تتباهى به أمام كل البنات ·· ؟

وأخذت ترقبه وهو يرفع قطعة الجاتوه بالشوكة ، ثم وهو يقربها من زجاج نظارته لينظر فيها بعينيه الجاحظتين ، قبل أن يأكلها ·· ثم انطلقت فجأة قائلة :

ـ انت لازم يا أمين تبص فى الجاتوه قبل ما تاكله ؟!

وبوغت أمين بسؤالها ·· وارتعشت يده الممسكة بالشوكة · ثم قال فى بلاهة : أبدا ·· مش لازم أبدا ! ··

ووضع قطعة الجاتوه فى فمه دون أن ينظر فيها ··

وقالت فيفى مباشرة :

ـ ومش ضرورى تاكل الجاتوه كله كفاية حتة واحدة والا حتتين ··

وقال فى استسلام : حاضر ··

وأحست فيفى بالزهو ·· أحست أنها تملكه ·· تملك هذا الرجل ·

وتعودت بعد ذلك أن تقابله ·· كانا يلتقيان كل يومين وأحيانا كل يوم ·· وتعودت أن تتصرف فيه كشىء تملكه ·· وهو مستسلم ·· جعلته يبدل اطار نظارته ويشترى اطارا جديدا · وجعلته يشترى بدلة من اللون الذى يعجبها ·· واشترت له ثلاث كرافتات هدية بمناسبة البدلة الجديدة ·· واحساسها بأنها تملكه يزداد ، وتزداد زهوا بهذا الاحساس ·· ان احساسها بالتملك يطغى على حبها ··

ثم ···

ثم أخيرا وافقت على أن يتقدم مرة ثانية الى خالها لاعلان خطوبتها ·· وافقته كأنها توافق على كتابة عقد ابتدائى بالتملك··

.. وهى التى أشارت عليه بأن يذهب ويقابل خالها ، لا أخاها .. فان أخاها فى نظرها لا يعتبر ربا للعائلة ولا وليا لأمرها ..

ولكن بقى شىء ..

رواسب من احساس قديم ..

احساسها بأن هذا الرجل الذى اختارته ، شؤم ..

وقد قاومت هذا الاحساس .. قاومته بكل ارادتها .. انها فتاة مثقفة ولا يجب أن تؤمن بهذه الخرافات ..

ورغم ذلك ..

ففى اليوم الذى ذهب فيه أمين للقاء خالها ، حدثت الضجة التى أثارها أحمد ، وقضت العائلة ليلتها فى جزع ودموع .. بدل أن تقضيه فى فرحة اعلان خطوبتها ..

انه شؤم .. هذا الرجل ..

ولكنها قاومت احساسها .. وصبت كل سخطها على أخيها أحمد لا أمين .. كأن أحمد يتحالف ضدها ليفسد خطبتها .. ليقنعها أن أمين شؤم .. !

وأصرت .. أصرت على أن تسير بجانب أمين مهما حدث ..

وجاء يوم الخميس ..

يوم اعلان خطبتها رسميا .. يوم تضع الدبلة فى أصبعها .. كأختها ليلى .. ككل البنات ..

وارتدت ثوبا رماديا .. فى لون الفضة المطفأة .. لم يبق فى العائلة من يرتدى السواد الا الأم ، ونبيلة ..

وعدد الحاضرين قليل .. خالها وزوجته وبناتهما ، وصديقة واحدة لها .. لم يكن لها أبدا كثير من الصديقات .. ثم أمها وأخوها ونبيلة .. وجاء الأستاذ أمين عبد السيد وحده .. مرتديا حلته الجديدة .. ان أهله فى القرية ، وأبوه مريض ، وأمه متوفاة ، وأخته متزوجة فى المنصورة ، وستأتى فى كتب الكتاب ، باذن الله

·· ان علاقة أمين بأهله كانت دائما علاقة غامضة كأنه يستنكف أن يرى الناس أهله ·· لا يهم ·· ان ذلك يرضي فيفى أكثر ·· يزيد احساسها بتملكه ·· كله لها وحدها ·

ووضع الدبلة فى أصبعها ··

والوجوه تبتسم من حولهما ·· كلهم سعداء لأن فيفى خطبت ·· ربما كانوا أكثر سعادة بخطبتها مما كانوا بخطبة ليلى ·· ان الأم مطمئنة الى أن فيفى هى التى اختارت خطيبها ·· لم يفرضه أحد عليها كما فرض عريس ليلى عليها ·· وأحمد أكثر سعادة كأنه يهنىء نفسه بذكاء أخته التى استطاعت أن تجد لنفسها زوجا من أساتذة الجامعة ·· ونبيلة سعيدة كأنها اطمأنت الى أن مشكلة فيفى قد حلت ··

ووزعت أكواب الشربات ··

ثم ····

ثم سمع الجميع صوت عم عبد الله البواب ، وهو يقول :

ـ تلغراف جه لسى أحمد بيه ··

وزحف الصمت على الجميع ·· كأنهم انتبهوا الى دبيب الشر يقبل عليهم ··

وأمسك أحمد بالبرقية ، وفضها بيد تهتز ، وقرأها بينه وبين نفسه ، ثم ترجمها بصوت عال : « نصل فى منتصف الليل ، طائرة سويس اير ، رقم س ٢٤ ـ ليلى » ·

والتفتوا كل منهم الى الآخر ·· ·· كل منهم يسأل الآخر سؤالا صامتا ·· ودق قلب الأم ، وارتفع الجزع فى عينيها ·· وتجهم وجه فيفى كأنها على وشك البكاء ·· وبين شفتى نبيلة ابتسامة لا معنى لها ·· وأحمد يفكر ·· وقال الخال :

ـ دول ما لحقوش يقعدوا ·· مش كانوا بيقولوا حايقعدوا شهرين ·· ؟

وقال أحمد وهو يحاول أن يحتفظ بالجو المرح الذى يحيط بخطبة فيفى :

ـ لازم وحشناهم ؟ ·· احنا نقعد كلنا مع بعض ، لغاية ما نروح نستقبلهم فى المطار ·· ايه رأيك يا أستاذ أمين ؟ ··

وقال أمين وهو حائر لا يفهم ماذا دهى العائلة : موافق ··

ورفعت الأم رأسها وابتسمت كأنها تذكرت أنها فى حفلة خطوبة ابنتها ·· ثم سكتت ··

وقالت نبيلة : يا ترى ·· و ··

ولم تتم كلامها ·· ! ؟

وقالت فيفى كأنها تحادث نفسها :

ـ ده أنا كنت حا أقوم أبعت لها تلغراف أقول لها انى اتخطبت

ثم نظرت الى خطيبها كأنها تتهمه ·· تتهمه بأنه شؤم ··

١٩

ظلت العائلة مجتمعة فى انتظار موعد وصول الطائرة التى تحمل ليلى وزوجها ·· والوساوس تضج فى صدر كل منهم ·· لعل ليلى مرضت ·· لعلها اختلفت مع زوجها ، خلافا وصل الى حد تمزيق شهر العسل ·· ؟ !

وفيفى جالسة ساهمة ، ولكنها لا تفكر فى ليلى ·· انها تفكر فى نفسها ·· تفكر فى فرحتها التى لا تكاد تشرق حتى تختفى ·· وتقاوم احساسها بأن خطبتها شؤم ·· وتحاول أن تقنع نفسها انه ليس شؤما ·· لا ·· ما ذنب أمين ؟ لماذا لا تكون هى شؤما على نفسها ؟ بل لماذا تفكر فى التشاؤم أصلا ؟ انها ظروف لا حيلة لها

فيها ‥ ويجب ألا تترك هذه الظروف تغلبها ، وتثير فى نفسها أوهاما تحطم مستقبلها ‥ ونظرت الى أمين نظرة ثابتة كأنها تعده بأن تتمسك به ‥ وطغى عليها احساس بالغيظ من أختها ليلى ، لأنها أفسدت فرحتها فى ليلة اعلان خطبتها ‥

وقام الخال واقفا ، وقال وهو يزفر :

ـ أنا مضطر أنزل دلوقت ‥ ورايا ميعاد ‥ وبكره نبقى نيجى نسلم على ليلى ‥

ثم أخذ زوجته وبناته ، وخرجوا ‥

ولم يكن الخال على موعد ‥ كل ما هناك أنه لم يعد يطيق أن يبقى طويلا فى مكان واحد مع أحمد ، منذ فاتحه فى زواج أمه ‥

والتفت العائلة حول مائدة العشاء ، ومعهم أمين عبد السيد ‥ جالسا دائما بجانب فيفى كأنه يخشى أن تفر منه مرة ثانية ، أو كأنه يحتمى بها من الحوادث التى تلم بالعائلة ‥

وقام أحمد وتحدث فى التليفون ليتأكد من موعد وصول الطائرة.

وفى الساعة الحادية عشرة ، نزلوا جميعا من البيت ، وركبوا سيارة أحمد ‥ الأم فى المقعد الأمامى بجانب أحمد ‥ وفى المقعد الخلفى نبيلة ، وفيفى ، وأمين ‥

وقاد أحمد السيارة فى الطريق الى مطار القاهرة ‥ وكل منهم يحاول أن يقول كلاما يخفف به عن الآخرين ‥ وأحمد أنشطهم فى الكلام ، كأنه يحمل نفسه مسئولية الترفيه عن العائلة ‥ ولكن الكلام يمر بآذانهم ولا يسقط فى قلوبهم ، ولا يشغل عقولهم . عقولهم وقلوبهم مشغولة بلحظة لقاء ليلى ‥ كل منهم يعد الكلمة التى سيقولها ، والابتسامة التى سيرسمها على شفتيه ويتصور وجه ليلى وهى تنزل سلم الطائرة ‥ والأم صامتة ، طوال الطريق، وتستعين بكل ارادتها لتحبس دموعها ‥ ثم كأنها لم تعد تستطيع أن تكتم وساوسها فزفرت زفرة حادة ، وقالت كأنها تخاطب نفسها :

يا ترى ايه اللى رجعهم قوام كده ·· ؟ !
والتفت اليها أحمد بسرعة كأنه يسارع باطفاء النار قبل أن تندلع ، وقال وهو يبتسم ابتسامة حانية :
ـ ولا حاجة ·· تلاقى أبو عصـام بعت له تلغراف علشان يرجع ·· ما تنسيش ان عصام هوه اللى ماسك المصنع ··
وابتسمت الأم ابتسامة حزينة ·· انها لا تصـدقه ، ولكنهـا تشكره على محاولته التخفيف عنها ··
ووصلوا الى المطار ··
باق على موعد وصول الطائرة ربع ساعة ··
وجلست الأم على مقعد فى الاستراحة وهى تسأل :
ـ هم حاييجوا من هنا ؟ ··
وقال أحمد : لا ·· دول لازم يفوتوا من الجمرك ·· وبعدين يخرجوا من هنا ··
وسكتت الأم ··
وفيفى ، وأمين ، انتحيا مكانا بعيدا يتحادثان ··
ونبيلة وأحمـد يتسكعان بين مكاتب شركات الطيران المنتشرة حول الاستراحة ·· ثم ذهبت نبيلة وجلست بجانب أمها ·· وقالت لها هامسة : يعنى ماحدش من عيلة عصام جه ·· ؟ !
وقالت الأم بلا اهتمام : لازم ما يعرفوش ··
وبقى أحمـد يقلب بعينيـه فى اعلانات شركات الطيران ، ويتصور نفسه طائرا ذات يوم الى أوربا ، حتى يشغل نفسه من ضيق الانتظار ··
ومضت الربع ساعة ·· ولم تصل الطائرة ··
ونصف ساعة ··
وبدأ الجميع يملون الانتظار ·· وبدأ احسـاسهم بالملل يطغى على لهفتهم للقاء ليلى والاطمئنان عليها ·· انهم يريدونها أن تصل

والسلام ، حتى ينتهوا من هذا الضيق ·· ضيق الترقب والانتظار·
وقام الأستاذ أمين وسأل مندوب شركة الطيران ، وعرف منه ان الطائرة سيتأخر وصولها ساعة ··
وشربوا قهوة ، وكازوزة ·· وخفت حماسهم ··
وانطفأت ابتساماتهم ··
وكفوا عن الحديث ·· لم يعد هناك شيء يصلح للحديث ·· وأحمد ينتقد شركات الطيران بعنف ، ولا يجيبه أحد ، فيسكت ·
والأم يزداد تفكيرها فى ليلى وما يمكن أن يحدث لها ·· ان الانتظار الطويل يزيد من وساوسها ، ويطلق خيالها وراء كل المصائب التى يمكن أن تحدث لابنتها ·· ثم تنتبه من هذه الوساوس فجأة ، وفى عينيها نظرة جزع وخوف ·· لماذا تأخر وصول الطائرة ؟ ربما حدث لها حادث ؟ ربما تكون قد سقطت ؟ قد احترقت ؟ وتتلفت حولها كأنها تهم بأن تفصح عن مخاوفها ·· ثم تستجمع ارادتها وتكتم جزعها فى صدرها ، اشفاقا من أن تنقل عدوى عذابها الى الآخرين ··
وفجأة ····
انطلق صوت غليظ محشرج من الميكروفون ، يعلن وصول الطائرة ·
وهبت العائلة كلها واقفة ، ووضع أحمد ذراعه فى ذراع أمه . ثم هرعوا جميعا الى شرفة الاستراحة المطلة على مهبط الطائرات وأخذوا يبحثون فى السماء بعيونهم ·· وقلوبهم تدق ·· وابتسامات خافتة بين شفاههم ·· وكل منهم يسأل الآخر · هيه فين ؟ ·· فين الطيارة ؟ ··
وأشار أحمد الى طائرة تهبط من بعيد على أرض المطار ، وقال كأنه اكتشف شيئا ثمينا : أهى ·· نازلة هناك ··
وأخذ الجميع يتتبعون الطائرة فى صمت ·· والأستاذ أمين

عبد السيد يحاول عبثا أن يرى من خلف زجاج نظارته ما يرونه ·· والطائرة تقترب ·· وقلوبهم ترتعش ·· وقد بدأ كل منهم يستعيد الكلمة التى سيقولهـا ·· ويعد الابتسـامة التى سيضعوهـا على شفتيه ·· ويعد عينيه لملاقاة وجه ليلى ··

وبدأ الركاب ينزلون من الطائرة ··

وامتدت أعناق العائلة فوق السـور الذى يفصـلها عن مهبط الطائرات ·· وانطلقت العيون تبحث عن ليلى ··

وصرخت نبيلة وهى تقفز وتهز ذراعها فى الهواء : ليلى ·· ليلى ··

وقال أحمد : هيه فين ؟ ·· فين ؟ ··

وقالت نبيلة وهى لا تزال تقفز وتشير بذراعها لتلفت نظر ليلى

ـ أهى هناك يا آبيه ·· لابسة فستان أزرق ··

وعادت تصرخ وتنادى أختها وهى تقفز فى الهواء : ليلى ·· ليلى ·

ورأى أحمد أخته ، ورفع ذراعه يهزها فى الهواء ··

ورأتها فيفى ، ورفعت ذراعها تهزها هى الأخرى ··

وأمين عبد السيد اعترف بعجزه عن أن يرى شيئا على هـذا البعد ، فوقف ساكتا ، وعلى شفتيه ابتسامة بلهاء ··

والأم ساكتة ·· وعينـاها مغرورقتان بالدموع ·· وقد كانت أول من رأى ليلى وهى تنزل من الطائرة ، كأن فى قلبها بوصـلة تتجه بها الى حيث يكون أولادها ·· وقد رأتها وسكتت · لم تصح باسم ابنتها ، ولم ترفع ذراعها فى الهواء ·· هدير عواطفها شل كل حركاتها ، وأطلق الدموع من عينيها ··

ونزلت ليلى من الطائرة وخلفها زوجها عصام ·· كانت ترتدى ثوبا فى لون السماء ، وفوق كتفيها بلوفر فى لون قشر البرتقال ، وفى يدها حقيبة مربعة كالصندوق الصغير ·· ولون بشرتها باهت

هربت منه الدماء ·· والكحل حول عينيها باهت فى لون التراب ·· وقد لفت ضفيرتها حول مؤخرة رأسها ، وتناثرت خصلات من شعرها وطارت فى الهواء ·· كانت كأنها استيقظت من نوم أرق ، راودتها خلاله أحلام مزعجة ·· وجهها مريض ·· يكسوه الاعياء ·· اعياء مشوب بالحزن واليأس ·

ووقفت برهة على سلم الطائرة ، تتطلع الى جموع المستقبلين الذين تراهم من بعيد ·· وتبحث بعينين متلهفتين عن أمها واخوتها ·· ونزلت من السلم وسارت بجانب زوجها فى طابور الركاب ، وهى لا تزال تتطلع الى جموع المستقبلين ·· ثم فجأة انطلقت الفرحة فوق وجهها ، وهمست : ماما ·· ماما ·

وحاولت أن تصيح ، ولكن فرحتها حبست صوتها ، وعادت تهمس : ماما ·· ماما ··

ثم اندفعت خارجة من طابور الركاب ، تحاول أن تصل الى أمها واخوتها ، ولكن الجندى الواقف هناك ، فتح ذراعيه أمامها ليصدها ، وهو يقول فى صوت مهذب : ممنوع يا هانم ··

ولحق بها زوجها عصام وشدها من ذراعها ، وهو يقول :

ـ اصبرى يا ليلى ·· لازم نفوت على الجمرك ··

وعادت الى طابور الركاب ·· والفرحة تهز قلبها ·· وابتسامة صغيرة فوق شفتيها كأنها قطرة ندى فوق الوردة الحزينة ··

وسارت فى الطابور وهى لا تزال ملتفتة بكل رأسها الى أمها واخوتها ، وترفع ذراعها بين الحين والحين وتلوح لهم ··

ودخلت مبنى الجمرك ·· ووقفت أمام موظف الجوازات ، وهى تتعجل الاجراءات ·· وكل قطرة من دمها تقفز فى عروقها ·· وما كادت تمر من أمام موظف الجوازات ، حتى لم تعد تستطيع أن تنتظر · تركت زوجها يكمل اجراءات الجمرك ·· واندفعت نحو الباب · ·نحو أمها ·· واستوقفها الجندى ليفحص علامة الجمرك

فوق الحقيبة التى تمسك بهـا فى يدها ·· فلم تقف ·· تركت له الحقيبة واندفعت خارجة ·· وألقت نفسها بين ذراعى أمها ··

وهمست كأنها تتنهد : ماما ·· وانهمرت الدموع ··

دموع الأم ، ودموع الابنة ··

واندفعت نبيلة تقبل أختها وهى لا تزال بين أحضان أمها ··

واندفعت فيفى تقبلها من الناحية الأخرى ··

ورفعت ليلى ذراعها من حول أمهـا ، ووضعت ذراعها حول نبيلة ، وهى تصيح من بين دموعها : بلبل ··

ثم التفتت الى فيفى واحتضنتها بذراعها الأخرى وصاحت :

ـ فيفى ··

وانهمرت دموع الأختين ، وهما يتجاذبان أختهمـا ، وينهالان عليها تقبيلا ··

وأحمد واقف ينتظـر ، ورعشة قلبـه تنطلق فى شـفتيه ·· ابتسامته ترتعش ·· وعيناه ترتعشان ·· والتفتت اليه ليلى ، ثم اندفعت اليه وتعلقت بعنقه وهى تصيح : آبيه ··

وأخذت تقبله وهى تردد : وحشتنى يا آبيه ·· وحشتنى !

وضمها الى صدره ·· وأحس وهو يضمها ، كأنه استردها ·· كأنه يحميها ·· وعواطفه تخنق صوته ، فلا يتكلم ·· وفتحت ليلى عينيهـا وهى بين ذراعى أخيهـا ، فلمحت أمين عبد السـيد ·· فاكتسى وجهها بالدهشة ·· دهشـة مضخمة بالفرح ·· وانتزعت نفسها من فوق صدر أحمد ، ولم تتجه الى أمين ، بل اندفعت نحو فيفى ، واحتضنتها ، وهى تصيح :

ـ مبروك يا فيفى ·· كده تعمليها وانا مسافرة ؟ ··

ثم اتجهت الى الأستاذ أمين ، ومدت له يدها ، وهى تقول :

ـ مبروك يا أستاذ أمين ·· ألف مبروك ··

وهز الأستاذ أمين يدها فى ارتباك ، وقال :

ـ الحمد لله على السلامة ·· الله يبارك فيكى ··

والفرحة تطوف بالجميع ·· والأم لا تزال تكفكف دموعها ·· ونسوا جميعا وساوسهم ·· نسوا فى هذه اللحظة أن يسألوا لماذا عادت ليلى ؟ ·· يكفيهم أنها عادت ··

وخرج اليهم عصام ، وعلى شفتيه ابتسامة مرسومة ، وخلفه الشيالون يحملون الحقائب ··

وما كادوا يرون عصام حتى تذكروا ·· تذكروا أن ليلى قد عادت قبل أن تتم رحلتها ·· قبل أن ينتهى شهر العسل ··

واهتزت فرحتهم ·· كأنهم بدأوا يفيقون ··

وسادهم صمت مرتبك ··

وقال عصام وهو يقترب منهم : ازيكم يا جماعة ؟ ··

ثم مد يده يصافح الأم ، واستطرد قائلا : ازيك يا طنط ؟ ··

وجذبته الأم اليها ، وقبلته فوق وجنته ، وقالت كأنها تنبه كل من حولها الى واجبهم :

ـ الحمد لله على السلامة يا حبيبى ·· ألف حمدلله على السلامة ! ··

ونظرت اليه فيفى وهو يصافحها ، كأنها تبحث فى وجهه عن السر ·· وارتعشت يد نبيلة فى يده ، وارخت عنه عينيها كأنها تخشى أن يرى نفاقها فى عينيها ·· وشد أحمد على يده فى قوة ، ونظر اليه نظرات ثابتة ، كأنه يحاول أن يقنعه بأنه قوى ، وأنه يستطيع أن يحمى أخته ، وصافحه أمين بلا مبالاة ، كأنه غريب عن كل ما حوله ··

ولم تلتفت ليلى الى زوجها ·· وقفت مع أختيها حول أمها ·· وأسئلة كثيرة يتبادلنها ·· كل منهن تسأل سؤالا ، ولا تكاد تسمع الجواب حتى ينطلق سؤال آخر ·· أسئلة ·· عشرات الأسئلة ·· ولا أجوبة ··

وقال أحمد : ياللا بينـا يا جماعة ‥ يظهـر العربيـة مش حاتساعنا كلنا ‥

وقال عصام فى هدوء : العربية بتاعتى مستنيانى ‥

وقالت الأم : انما ده ما حدش جه من عندكم ؟ ‥

وقال عصام وهو يبتسم ابتسامة متغطرسة يقول بها انه متعود على السفر ، الى حد أن أحدا لا ينتظره حين عودته ، وقال :

ـ أصلهم متعودين يبعتوا لى العربية ، ويستنونى فى البيت ·

وخرج الجميع الى فناء المطار ‥ ووقفوا حائرين ينظرون الى ليلى ‥

وقالت ليلى وهى تتشبث بفرحتها حتى لا تضيع منها :

ـ أنا حاركب معاكم ‥ وحابات الليلة فى أودتى ‥

وساد الجميع الصمت والحرج ‥ والتفتوا الى عصـام ·

ولكن عصام لم يتكلم ‥ نظر الى زوجته نظرة ساخرة ، وسكت ‥

وقالت الأم :

ـ وماله يا حبيبتى ‥ فيفى ونبيلة يناموا معايا ‥ ويسيبوا لك الأودة انتى وعصام ‥

وردت ليلى بسرعة وتصميم :

ـ حرام عليكى يا ماما ‥ ده أنا عايزة أقعـد أتكلم معاكى للصبح ‥ عصام ينام فى بيتهم ، علشان كمان عمى مستنيه ‥ احنا اتفقنا على كده ‥

ثم التفتت الى مجمـوعة الحقائب الموضـوعة على الأرض ، وقالت وهى تشير الى احداها :

ـ دى شنطتى ‥ خليهم يحطوها فى العربية يا آبيه ‥

وسكت الجميع ‥

وارتفعت الحيرة على وجه الأم ، وهمت أن تتكلم ، ثم عدلت وسكتت ‥

وأدار أحمد عنقه بين ليلى وعصـام ، ولاحظ أنهما يتجنبان أن ينظر أحدهما الى الآخر ..

وقالت نبيلة فى صوت مبحوح : طيب ماتروحى مع عصام ونيجى كلنا نقعد معاكى هناك للصبح ..

وقالت ليلى وهى تضحك ضحكة مفتعلة : باين عليكى استوليتى على سريرى .. اوعوا تكونوا شلتوه من الأودة ..

وقالت نبيلة وهى تتنهد : لا .. ما فيش حاجة انشالت .. كل ماتوحشيني أروح أنام عليه شوية ..

وعصام مشغول بالاشراف على تحميل حقائبه داخل سيارته .

وقال أحمد كأنه ينفض الجرح :

- يا للا يا جماعة .. الساعة بقت اتنين ..

ثم تقدم الجميع نحو السيارة .. ووضع حقيبة ليلى .. ثم جلس فى مقعد القيادة ، ولحقته الأم وجلست بجانبه .. وجلست البنات الثلاث فى المقعد الخلفى .. ليلى فى الوسـط .. ووقف الأستاذ أمين عبد السيد حائرا .. الى أن قال له أحمد :

- تعال اقعد جنب ماما يا أستاذ أمين ..

ولكن أمين وقف مترددا .. ولاحظ عصام حيرته ، فصاح به :

- تعال اركب معايا يا أستاذ أمين ..

ونظر أمين الى فيفى كأنه يسـألها رأيها ، وقالت فيفى وهى تبتسم له فى دلال : بكره الصبح اضرب لى تليفون ..

وقالت الأم :

- ماتنساش يا أستاذ أمين .. بكره حانتغدى كلنا سوى ..

وقال أمين : ان شاء الله .. تصبحوا على خير ..

وهم أحمد أن ينطلق بسيارته ، فاستوقفته الأم قائلة :

- استنى يا أحمد ..

ثم التفتت من نافذة السيارة ، ونادت عصام ، وقالت له وهى

تبتسم له ابتسامة كبيرة : قول لماما وبابا ان الغدا بكره عندنا ·· والحمد لله على السلامة كمان نوبة ··

وقال عصام من خلال ابتسامته المرسومة : باذن الله يا طنط ·

وقطعت ليلى حديثها مع أختيها ، ونظرت الى عصام ومطت شفتيها فى قرف ، ثم تنبهت الى الدور الذى تمثله ، فعادت تتحدث ··

وظلت تتحدث طوال الطريق كأنها لا تريد أن تسكت ، حتى لا يفاجئها أحد بسؤال ·· وحتى لا تترك الفرصة لعواطفها الحبيسة نتنطلق ·· حتى تهرب ·· تهرب من نفسها ·· ولاحظت أمها وأختاها محاولتها الهرب ، فساعدنها عليه ·· وهى تتحدث ·· تتحدث عما رأته فى أوربا ·· المدن ·· والفساتين ·· والناس ·· وتضحك ·· وتحاول أن تقنعهم بأنها سعيدة ·· سعيدة ·· وأحمد يقود السيارة ويستمع اليها صامتا ·· ثم قطع حديثها فجأة وسألها كأنه يسأل نفسه ·· كأن السؤال انطلق رغما عنه انطلق من عقله الباطن : انما ايه اللى رجعكم بدرى كده ؟!

وسكتت ليلى برهة ·· وسكت الجميع من حولها ··

ثم قالت وهى تفتعل ضحكة :

ـ أصل عصام جاله تلغراف من أبوه ·· كان لازم يرجع مصر ·· مش عارفة حصل ايه فى المصنع ··

وظل الجميع سكوتا كأنهم يحاولون أن يبتلعوا هذه الكذبة ··

وقال أحمد كأنه يؤكد كذبتها : مش قلت لك يا ماما ·· أنا استنتجت كده من أول ما وصلنا التلغراف بتاعك ··

وقالت نبيلة : خسارة ·· مالحقتيش تشوفى باريس ··

وقالت ليلى : نبقى نشوفها سوا ·· انما كفاية جنيف ، وبرلين ، وفينا ·· يجننوا اللى ما يتجننش ·· !

وعادت تتحدث ·· تتحدث كثيرا ··

ووصلوا الى البيت ..

ونزلت ليلى من السيارة ، وألقت نظرة سريعة الى آخر الشارع .. ناحية بيت فتحى .. ثم سبقتهم فى الدخول .. وقام عم عبد الله البواب يستقبلها وينحنى ويحاول أن يقبل يدها ، وقالت فى فرحة وهى تشد يدها من تحت شفتيه :

ــ ازيك يا عم عبد الله .. وحشتنى .. وحشتنى موت .. وازاى صحتك ..

وقال عم عبد الله : الله يخليكى ويسعدك يا ست ليلى .. نورت مصر .. ده انتى كنتى وحشانا قوى ..

وسبقها على السلم ليفتح لها الباب ..

ودخلت ليلى الى البهو ، وهى تصيح : ازيك يا بيتنا ..

ثم طافت تقبل الجدران وقطع الأثاث بعينيها .. وقفزت فجأة وجرت نحو غرفتها كأنها طفلة صغيرة .. وألقت بنفسها فوق سريرها ..

وما كاد جسدها يرتاح فوق السرير ، حتى تنهدت وهمست :

ــ الله ! ..

ولحقت بها نبيلة ، وحاولت أن تتكلم ، فأشارت لها ليلى بالسكوت قائلة : اسكتى شوية لغاية ما اتمتع بسريرى .. تعرفى حتة الفحمة المولعة لما تحطيها فى المية وتعمل تش .. أهو أنا جسمى كله دلوقت بيعمل تش ..

وقالت نبيلة : ده اللى بيعمل تش السست الخسرانة ..

وقالت ليلى فى حرارة :

ــ حتى لو كانت مكسرة .. حتى لو كان السرير مليان دبابيس .. عمرك ما حاتستريحى فى سرير الا سريرك .. واسألينى أنا يا بنتى .. انا مجربة وعارفة ..

وقالت نبيلة ضاحكة :

ـ طب قومى غيرى ، والبسى قميص نوم من عندى ··
وقالت ليلى فى مرح : ليــه بأه يا ســتى ·· أنا سايبة تلات قمصان نوم ·· عملتى فيهم ايه ·· اوعى تكونى شحتيهم ··
وجاءت الأم ووراءها فيفى ، وأطلت على ليلى من الباب قائلة :
ـ نامى بأه يا ليــلى ، والصــبح نتكلم ·· زمانك هلكانة من الطيارة ·
وقالت ليلى وهى تقفز واقفة من فوق السرير :
ـ أنام !! مش ممكن ·· لازم أوريكى الأول أنا جبت لك ايه ·· تعالى معايا يا بلبل ··
وخرجت الى البهو وتعاونت مع بلبل فى حمل حقيبتها الكبيرة الى حجرة أمها ·· ووضعتها على الأرض وجلست بجانبها والأم جالسة فى سريرها وأختاها يطلان عليها ·· وجاء أحمد بعد أن وضع السيارة فى الجاراج ، وانضم اليهن ·· والجميع يتطلعون الى الحقيبة بعيون متلهفة الى المفاجأة ··
وفتحت ليلى الحقيبة ·· وأخرجت منها علبــة صغيرة أنيقة فتحتها فظهرت بداخلها ساعة صغيرة فى لون الفضــة ·· وقالت وهى تعطيها لأمها : دى علشانك يا ماما ··
وأخذت الأم الساعة وهى تقول :
ـ الله ·· حلوة قوى ·· مرسى يا حبيبتى ··
وقالت فيفى : ورينى كده يا ماما ··
ونبيلة لا تزال تنظر فى داخل الحقيبة ··
وأخرجت ليلى ساعة أخرى رجالى فى لون الفضــة أيضـا ، وقالت وهى تناولها لأخيها :
ـ ودى علشانك يا آبيه ·· من سويسرا ·· يونيفرسال ··
وقال أحمد : مرسى ·· ده أنا كنت عايز ساعة فعلا ·· ايش عرفك انى عايز ساعة ·· ؟

وقالت ليلى فى دلال : قلبى ··

ثم أخرجت بلوفر وجاكت من الصوف « الاورلون » وأعطتهما لفيفى ومثلهما لنبيلة ··

وقالت الأم : ده انتى جبتى حاجات حلوة قوى يا ليلى ··

وقالت ليلى : أبدا ·· ما لحقتش ·· وما كانش معايا فلوس ·

وقال أحمد : طبعا حاتقعدوا تتكلموا للصبح ، أنا حادخل أنام·

ثم التفت الى ليلى قائلا :

ـ ومش حافتح عينى الصبح ، الا اذا جيتى وبوستينى ··

وقالت ليلى ضاحكة :

ـ بس كده ·· أنا مستعدة أبوسك من دلوقت للصبح ··

وألقى اليها أحمد قبلة فى الهواء ، وخرج ··

وعاد الحديث يتجاذب بين البنات والأم ، الى أن قالت الأم كأنها لم تعد تستطيع أن تكتم وساوسها :

ـ انتى عارفة ان بنترمولى خلص أودة النوم ، وبعتها الشقة بتاعتك ، بكرة الصبح نروح هناك وتشوفيها ، طلعت حلوة خالص·

وسكتت ليلى برهة كأنها فهمت ماذا تريد أن تقوله أمها ·· وسكتت ابتسامتها ·· وانطفأت نظرتها ·· وقالت فى صوت خفيض يفيض بالاصرار : أنا مش حاروح شقتى ·· أنا حاقعد هنا على طول ·· مش حارجع لعصام ··

وقالت فيفى وهى تضع يدها على قلبها : يا خبر !!

وقالت نبيلة : ايه الكلام ده يا ليلى ·· انتى لحقتى ·· !

وقالت الأم : ازاى يا بنتى ·· ايه اللى حصل ·· ومهما كان حصل مايصحش تقولى كلام زى ده ، ولا تفكرى فيه ··

وقالت ليلى وراسها منكس :

ـ ما فيش فايدة يا ماما ·· أنا خلاص صممت ··

وقالت الأم : ايه بس اللى حصل يا ليلى ·· فهمينى !

وقالت ليلى فى صوت محشرج : عصــام اللى كان خاطبنى ، مش هو عصام اللى اتجوزنى ·· انسان تانى خالص ·· انســان مش طايقاه ·· ما اقدرش أعيش معاه ··

وقالت الأم : كل اللى بيتجوزوا بيقولوا كده فى الأول ··

وقالت ليلى كأنها تصرخ :

ــ لأ ·· مش كلهم ·· لو كنت أعرف ان عصام كده كان مش ممكن أتجوزه ·· كنت موت نفسى قبل ما اتجوزه ·· ده بخيل ·· نتن ·· حد منكم كان فاكر ان عصام بخيل ·· ده مش بس بخيل ·· ده يكسف ·· تصوروا انه مارضيش يدينى فلوس علشان أشترى لكم الحاجات دى ، لغــاية ما اضــطريت أبيع البروش بتاعى فى سويسرا علشان أشترى ·· و ··

وقاطعتها أمهــا : وماله يا بنتى ·· ما يمكن ماكانش معاه فلوس ··

وقالت ليلى : كان معاه ·· وحتى لو ما كانش معاه ·· طريقته لما بيحاسب الجرســون ، والا اللوكاندة ·· طريقتــه وهو بينقى الأكل ·· طريقته واحنا بنتفسح ·· نتن ·· نتن ··

وقالت فيفى : يعنى حاتسيبيه علشان الفلوس ··

قالت ليلى : لا ، مش بس علشان بخيل ، انما علشان أخلاقه ·· تصوروا اننا نوبة اتعزمنا وكان معانا موظف من السفارة ·· موظف صغير ·· قام رقص معايا مرتين ، وبعد الحفــلة رجعنــا البيت ، وده هات يا خناق ·· ازاى ترقصى مع واحد هلفوت مرتين ·· وازاى ترقصى معاه بالشكل ده ·· واتهيأ لى انه ناوى يضربنى ·· قلت معلهش يا بت ، يمكن يكون غيــور ·· اســتحملى ·· واستحملت ·· وبعد أسبوع واحد رحنا برلين ، واتعزمنــا على العشا مع موظفين المصنع اللى راح يتفاوض معــاه ·· وطلبنى

واحد منهم للرقص ·· بصيت لسى عصام أستأذنه فسمح لى ·· قمت رقصت مع الراجل ، وكان قليل الأدب ·· سافل ·· وبقيت خايفة عصام يعمل فضيحة ·· لكن عصام ما تحركش ·· وخلصت الرقصة ·· وبعد شوية طلب الراجل نفسه انه يرقص معايا مرة تانية ·· فاعتذرت ·· بص لى عصام وقال لى بالعربى : « خليكى لطيفة ·· قومى ارقصى معاه » وقمت رقصت معاه ·· الراجل زودها ·· لدرجة انى كنت حاضربه بالقلم ·· وبعد ما رجعنا البيت قلت لعصام كل حاجة ·· قلت له ان الراجل ده سافل وقليل الأدب ، وما يصحش نخرج معاه تانى ·· تفتكروا قال ايه سى عصام ·· قال لى : يا شيخة ما تقوليش كده ·· ده مدير الشركة ·· وشغلنا كله معاه !! وفهمت ·· فهمت ان عصام أسفل مخلوق فى الدنيا دى كلها ··

وقالت نبيلة : الحكايات دى صحيح ، والا بتألفيها ؟ !

وقالت ليلى وهى ترفع رأسها اليها ، وقد احتقن وجهها :

ـ صحيح ·· ورحمة ممدوح صحيح ··

وتجمعت الدموع فى عينيها ثم انسابت على خديها ، دموع صامتة ·

وجلست نبيلة بجانبها ، ولفت ذراعها حولها ، واحتضنتها الى صدرها ، وهى تقول : طيب بس يا ليلى ·· بلاش عيط ·· مش تستنى لما نتهنى بيكى وبعدين تعيطى ·· !

وأسندت ليلى رأسها على صدر أختها ، ثم أجهشت بالبكاء ·· بكاء حادا عنيفا ··

وفيفى واقفة تنظر اليها ، وقلبها يتمزق حسرة على أختها ، وعقلها يرفض أن يصدقها ·· يرفض أن يصدق كل ما قالته ليلى ·

وظلت الأم تنظر الى ابنتها صامتة ، وهى جالسة فوق سريرها ، وفى عينيها ألم صامت ·· وفى عقلها دوامة من الفكر ·· ثم قالت

وهى تتنهـد : اننى تعبانة يا ليـلى ·· قومى نامى يا حبيبتى ·· وبكره الصبح نتكلم ··

ورفعت ليلى وجهها المبلل بالدموع وقالت وهى تنشج : يا ماما·

وابتسمت لها الأم ابتسامة نصفها حزم ونصفها رجاء وقاطعتها قائلة : بكره يا ليلى ·· ما حدش فيه دماغ دلوقت يتكلم ولا يسمع ،

وجذبت نبيلة أختها ليلى ، وقامتا من جلستهما عى الأرض ·· وهمتا بالخروج ·· فهتفت الأم فى صوت خفيض : ليلى ··

والتفتت اليها ليلى ·· فمدت لهـا ذراعيهـا ·· صامتة ·· وألقت ليلى بنفسها بينهما ، وقبلتها أمها وضمتها الى صدرها فى حنان ، وقالت ووجهها غارق فى سحابة من اللوعة والحيرة :

ـ تصبحى على خير يا حبيبتى ··

وغادرت البنات حجرة الأم ·· وأبدلن ثيابهن ··

ورقدت كل منهن فى فراشها ·· وكل منهن ساهمة فى مصيبتها·

ودار بينهن حديث متقطع ، كل منهن تخشى أن تستطرد فيه ··

وأطفىء النور ··

وعينا ليلى مفتوحتان فى الظلام ·· جسـدها هامد متعب ·· كل شىء فيها هامد متعب ·· ما عدا عقلها ·· انه عقل يقظان نشط ·· لا يريد أن يهدأ ويرحمها حتى تنام ·· وهى تستعرض كل ما مر بها فى هذه الأيام منذ تزوجت عصام ·· انها ليست أياما ·· انها شهور ·· سنين ·· أجيال ·· والليالى السود التى قضتهـا بجانبه فوق فراش واحد ·· وجسدها يقشعر كأنما تجرى فيه دماء من ذوب الثلج ·· ورائحة أنفاسه تملأ أنفها ·· كرائحة الزحام فى الأتوبيس ·· ثم بخله ·· نتانته ·· وكلماته الثقيلة ·· ونفاقه ·· و ·· و ·· وأفكارها تتدافع حتى تصل الى فتحى ·· لا ·· انها لا تريد أن تفكر فى فتحى ·· حتى لو كانت لا تزال تحبه ، لا تريد

أن تفكر فيه ‥ انها تطلب الطلاق لأنهــا لا تســتطيع أن تعيش مع زوجها‥ لا تستطيع ‥ لقد حاولت ، ولم تستطع‥ لقد استسلمت، حتى لم يعــد هناك مزيد من الاستســلام ‥ استسلمت الى حد أن احتملت صفعاته ‥ انها لا تزال تحس بصفعته كوصمة الذل على خدها ‥ لقد كانت ســـاعتها مستسلمة له ‥ كانت قد تركت له جسدها ‥ هامدا ‥ وكتمت أنفاسها حتى لا تشم رائحة أنفاسه ‥ وأغمضت عينيها حتى لا ترى وجهه ‥ وضغطت على أعصابها حتى تحتمل ثقله فوق صدرها ‥ وفجأة صفعهــا وهو يصرخ : « انتى ما تنفعيش ست ‥ انت باردة » ‥ السافل ‥ المجرم ‥ ولكنهــا صمتت ‥ تحملت الصفعة ‥ ولم تحاسبه عليها فى اليوم التالى ‥ كتمت آلامها وعذابها ‥ لعلها تستطيع أن تقنع نفسها بأن تعيش معه ‥

وتنهدت ليلى وهى راقدة فى سريرها ، وعقلها يضج ‥ ويؤلمها ‥ انها لا تستطيع أن تنام ‥ ولا تستطيع أن تكف عن التفكير ‥ انها تتعذب ‥ ولن يريحها الا أن تطمئن الى أنها لن تعود الى عصام ‥ لن تعود أبدا ‥

وفجأة قفزت من فوق فراشها ‥ وسارت على أطراف قدميها فى الظلام ‥ واتجهت الى غرفة أمها ، وفتحت الباب فى هدوء ‥ والغرفة غارقة فى ظلام لا يبدده الا شعاع خافت ينطلق من فانوس الشارع ، ويتسلل من النافذة ‥

ووقفت مترددة عند باب الغرفة ، تنظر الى أمها ‥

ورفعت الأم رأسها بغتة ، وقالت : مين ؟ ‥

وقالت ليلى فى صوت خافت : انتى نمتى يا ماما ‥ أصلى مش جاى لى نوم ‥ مش قادرة أنام ‥

وقالت الأم وهى تفســح مكانا بجانبها : تعــالى نامى معــايا يا حبيبتى ٠

وخطت ليلى ، وعلى وجهها فرحة مسكينة كفرحة طفلة يتيمة وجدت لها أما ·· ورقدت بجلنب أمها ، وقبلتها فوق خدها ··

وقالت الأم وهى تربت على ابنتها : حاولى تنامى يا حبيبتى ··

وقالت ليلى وهى تنكمش فى صدر أمها : ماما ·· وحياتى عندك ، ورحمة أخويا ممدوح ·· ماترجعنيش لعصام تانى ··

واعتدلت الأم راقدة على ظهرها ·· وصمتت برهة كأنها تراجع نفسها قبل أن تتكلم ·· ثم قالت وهى تتنهد كأنها تستعين بالله فيما تقوله : انتى كبرتى دلوقت يا ليلى ، بقيتى ست ، يعنى أقدر أقول لك على حاجات ماكنتش أقدر أقولها لك وانتى صغيرة ··

وسكتت الأم برهة أخرى . وليلى تبحث بعينيها عن وجهها فى الظلام ، ثم قالت : انتى عارفة انى ما كنتش باحب أبوكى ··

وسكتت أنفاس ليلى كأنها تكتم شهقة ··

واستطردت الأم قائلة فى صوت خافت متعب كأنها تجذبه من بعيد : اتجوزته من غير ما أحبه ·· من غير ما اعرفه ·· وأكتر من كده ·· كنت باحب واحد تانى ·· واتهيأ لى بعد ما اتجوزته انى مش حا أقدر أعيش معاه ·· ما كنتش باطيقه ·· ما كانش فيه حاجة تجمعنا احنا الاتنين ·· وفكرت واحنا لسه فى شهر العسل انى أنتحر ·· والا أهرب ·· انما استحملت ·· استحملت لأنى كنت عارفة ان ده نصيبى ·· وان الواحدة مش بتختار نصيبها بنفسها ·· كل اللى تقدر تعمله انها تعمل من نصيبها حاجة تعيش بيها مستريحة ·· وكنت أيامها أقعد أفكر ·· يا بت لو اطلقتى حا تعملى ايه ·· كنت عارفة انى مش حا أقدر أتجوز الشخص اللى باحبه ·· وكنت حارجع بيت بابا ، واستنى لما يجيلى عريس تانى ·· يمكن يبقى أوحش من الأول ·· وعلشان كده استحملت ·· وفضلت أتعذب لغاية ما خلفت أخوكى أحمد ·· ومن يوم ما خلفت مابقاش أبوكى جوزى ، انما بأه أبو أحمد ·· أبو ولادى ·· وبقيت استحمله

وأتعب له زى ما بستحمل ولادى ·· وأتعب لهم ·· وبقيت أخاف عليه زى ما باخاف على ولادى · مش علشـان خاطر نفسى ، ولا علشان انه جوزى ·· انما علشان انه أبو ولادى ·· ودخلت حياتى السعادة ·· سعادة من نوع تانى مش ممكن الواحدة تعرفها الا لما تخلف ، ويبقى عندها أولاد ··

وتنهدت الأم وهى تستطرد قائلة

ـ ودلوقت لما بافكر فى حياتى ، بالاقى نفسى كنت سعيدة ·· سعيدة ببيتى وولادى ·· ولولا انى استحملت عذابى فى أول ما اتجوزت ، ما كنتش بقيت سعيدة ··

وظلت ليلى ساكتة ، كأنها تتمعن فى كلام أمهـا ·· ثم عادت تنكمش فيها ، وقالت وهى تحتضن ذراعيها بين يديها : يا حبيبتى يا ماما ·· ما كنتش فاكرة ان كل ده حصل لك ··

واستطردت الأم كأنها لم تسمع كلام ابنتها :

ـ أنا باقول لك الحكاية دى ، علشان تعرفى انى فاهمة انتى مضايقة قد ايه ·· وحاسة باللى انتى حاسة بيه ·· ومش ممكن حاظلمك ولا حاقف ضد سعادتك ··

وقالت ليلى : بس يا ماما انا حاولت كتـير ومش قادرة مش قادرة ··

وقالت الأم كأنها تنطق بلسان القدر : ده نصـيبك يا بنتى ·· وزى ما قلت لك ، الواحدة ما تقدرش تختار نصيبها بايدها ··

وقالت ليلى فى اصرار : أنا مش راضية بنصيبى ·· واذا كنتى بتقولى انك اتعذبت يبقى حرام عليكى تسيبينى أتعذب زيك ·· لازم أطلق ·· ولازم تساعدينى على الطلاق وما تفتكريش انى لو خلفت من عصام حا اقدر أستحمله ·· حا اكرهه أكتر ·· وحا اكره ولادى علشان خاطره ··

وقالت الأم وقد أحست بأنها فشلت فى اقناع ابنتها ، وندمت على رواية قصتها :

ـ ما تقوليش كده يا ليلى ·· لو كنتى أم ما كنتيش قلتى الكلام ده ·· ومش كفاية انك تفكرى فى الطلاق ·· فكرى كمان حاتعملى ايه بعد الطلاق ··

قالت ليلى بسرعة : مش حا اعمل حاجة ·· حاشتغل ! ·

وقالت الأم : مش كفاية انك تشتغلى ·· لازم تتجوزى ··

وقالت ليلى : واتجوز ليه ·· خلاص حرمت ··

وقالت الأم : كل بنت لازم تتجوز ·· لأن كل واحدة محتاجة لراجل وما فيش طريقة علشان يبقى لها راجل ·· الا الجواز ·· ما دامت بنت شريفة ··

وقالت ليلى فى حدة : حتى لو كنت حاتجوز تانى ·· أى واحد أتجوزه ، حايكون أرحم من عصام ·

واستدارت الأم ورقدت على جنبها ، ووضعت ذراعها تحت رأس ليلى ، واحتضنتها الى صدرها ، وقالت فى حنان :

ـ لو كان لازم تطلقى تأكدى انى حاشيل الدنيا وأحطها لغاية ما تطلقى ·· انما لازم أتأكد الأول من ان ما فيش فايدة ·· ان ما فيش غير الطلاق ··

وقالت ليلى وهى تهم بالبكاء :

ـ تأكدى يا ماما ·· أنا حاولت كتير ·· حاولت ··

وقالت الأم وهى تربت على ظهر ابنتها :

ـ طيب نامى يا حبيبتى ·· نامى ··

وساد بينهما الصمت ·· واغمضت الأم عينيها على ماضيها وأغمضت الابنة عينيها على مستقبلها ·· !

٢٠

لستيقظت الحياة فى البيت صباح اليوم التالى ، والبنات وأمهن يحرصن على ألا يثرن موضوع ليلى بينهن ·· ويحرصن أكثر على ألا يصل منه شيء الى أحمد ·· ويحاولن أن يتركن فرحتهن بعودة ليلى تطغى على جزعهن على مستقبل زواجها ·· والبنات مجتمعات فى غرفتهن ، ونبيلة وفيفى كل منهما تروى ما فات ليلى من حكايتها ·· وليلى تروى لهما مزيدا من مشاهداتها فى أوروبا ، ثم لا تكاد تعود الى الحديث عن زوجها حتى تشغلها أختاها بحديث آخر ·· والأم تتردد على بناتها ثم تعود وتطوف بأنحاء البيت تشرف على أعمال الخدم ، وتوصى الطباخ بأصناف الطعام التى ستقدم لضيوفها على مائدة الغداء وهى دائما تعلق على شفتيها ابتسامة كبيرة ، وتفتعل نشاطا كبيرا ، كأن لا شيء آخر يشغلها ·· كأنها مطمئنة على مستقبل ابنتها ··

واجتمعت العائلة ، لأول مرة منذ زمن طويل ، على مائدة الافطار ·· ثم قام أحمد وطاف على أخواته البنات يقبل كلا منهن فوق رأسها ، وهن فرحات بحقانه ، ثم نظر الى أمه نظرات مترددة ، كأنه لم ينته من تحديد موقفه منها ، وانحنى يقبل يدها ، وخرج وأمه تصيح وراءه :

ــ ما تتأخرش يا أحمد ·· احنا عندنا ضيوف النهاردة ··

وقال أحمد وهو عند الباب : حاضر ··

وعادت البنات الى حديثهن ·· ثم قمن الى غرفتهن ، وفتحت

ليلى حقيبة يدها ، وأخرجت منهـا علبة سجائر ، وبدأت تشـعل سيجارة ·· وصاحت نبيلة فى دهشة :

ـ انتى بتشربى ·· والله عال ··

وقالت ليلى وهى ترفع أحد كتفيها ، وتمثل دور الفتاة المتعالية فى حركة مضحكة :

ـ وماله ·· انتم فاكرنى لسه بنت مفعوصة زيكم ·· ماتنسوش انى خلاص ، كبرت ·· بقيت مدام ·· متجوزة ··

وقالت فيفى ساخطة : وهى اللى تشرب سجاير تبقى كبيرة ·· والا تبقى قليلة الأدب !! ··

وقالت ليلى ضاحكة : والنبى تسكتى يا فيفى ·· بكره تتجوزى وتعرفى ان أحسن حاجة فى الجواز ، شرب السجاير !!

وجذبت نفسا كبيرا من سيجارتها ، ونفثت الدخان فى الهواء وأختاها تنظران اليها فى دهشة ، كأنهما تنظران الى أحد الحواة ··

وقالت فيفى وهى مبهورة :

ـ شوفى يا اختى ·· ده انتى شكلك زى الحشاشين ·· !

وقالت ليلى ضاحكة : تاخدى نفس !!

وقالت فيفى وهى تشيح عنها بوجهها : ده لعب عيال ··

وقالت نبيلة وهى تمد يدها الى أختها : وريني كده ··

وأخذت السيجارة ، وجذبت منها نفسا ·· ثم انتابتها نوبة من السعال الحاد ، وأعادت السيجارة الى أختهـا وهى تخبط على صدرها لتوقف سعالها ··

وقالت ليلى وهى تستعيد سيجارتها :

ـ ما ينفعش ·· لازم تتجوزى الأول ··

وقالت نبيلة وسعالها يهدأ

ـ لو كانت اللى تتجوز لازم تشرب سجاير ·· مش حاتجوز !

وقالت فيفى : يعنى حضرتك بقيتى كبيفة خلاص ؟ ·

وقالت ليلى فى بساطة وهى تهز كتفيها : أبدا ·· بس قنزحة !
وجاءت الأم ، وأطلت على البنات ·· وارتبكت ليلى ، واحتارت أين تختبىء سيجارتها ، ثم أخفتها فى باطن يدها ، وأخفت يدها تحت ملاءة السرير ·· وشمت الأم رائحة الدخان ·· وظلت ابتسامتها معلقة بين شفتيها ·· ثم قالت :

ـ مش تقوموا تلبسوا بأه يا بنات ·· وتيجوا تساعدونى شوية ··

وقالت بلبل بسرعة كأنها تريد أن تتخلص من أمها : حاضر ··
ونظرت الأم الى ليلى ، وقالت وهى تبتسم وتنسحب من الغرفة : حاسبى تحرقى الملاية يا ليلى ! ·

وخرجت الأم ··
واحمر وجه ليلى ·· وضجت أختاها بالضحك ·· ثم قالت ليلى وهى تضع السيجارة فى فمها

ـ بايخين ·· أصلكم لسه بنات صغيرين ! ·

وأخذت نفسها واحدا من السيجارة ، كأنها تعاند أختيها ·· ثم أطفأتها فى نعل شبشبها ، وألقت بها من النافذة ، وهى تقول :

ـ الحق على ·· ما كانش لازم أشرب سجاير قدام بنات لسه ما اتجوزوش ! ·

وضحك الثلاث ··
وقامت نبيلة وفيفى ، ترتديان ثيابهما ·· ثم خرجتا لتساعدا أمهما ·· وليلى لا تزال جالسة فوق سريرها ، بقميص النوم والروب دى شامبر ·· وأختاها تترددان عليها ، ليتبادلا معها كلمة وضحكة ، ثم تعودان الى أمهما ··

لم يدع أحد ليلى للمساهمة فى اعداد البيت ، كأنها منذ تزوجت أصبحت غريبة عنه ·· أصبحت ضيفة ·· أصبح لها بيت آخر غير هذا البيت ··

وفى الساعة الحادية عشرة ، دق جرس الباب ٠
وجاء محمد السفرجى يعلن وصول عصام ٠٠
وسقطت الابتسامات من فوق الشفاه ٠٠
وقالت نبيلة : ابتدينا ٠٠
وقالت ليلى فى اصرار وهى تضم ساقيها بين ذراعيها جالسة فوق السرير وقد عقدت ما بين حاجبيها ، واحتدت نظراتها ، وبدأ قلبها يضرب بشدة كأنه يقرع لها طبول الحرب :
ـ اعملوا حسابكم ٠٠ أنا مش حاشوفه ٠٠
وجاءت الأم على عجل ، وقالت وهى تنظـر الى ليـلى كأنها تؤنبها على تراخيها : قومى يا ليلى شوفى جوزك ٠٠
وقالت ليلى لأ ٠٠ مش حاشوفه ٠٠ مش عايزه أشـوفه ولا اشوف خلقته ٠٠ شوفيه حضرتك ، وقولى له انى مش حارجع له ٠٠ و ٠٠
وقالت الأم فى رجاء :
ـ يا ليلى مش ممكن ٠٠ مش ممكن نبتدى بالعنـاد ٠٠ انتى تقومى تقعدى معاه ، وأنا أكون معاكم ، ونتفاهم ٠٠
وقالت ليلى والدموع تنبثق من عينيها :
ـ مش عايزة أتفاهم ٠٠ ما بقاش فيه حاجة نتفاهم عليها ٠٠
وقالت الأم وقد اشتدت رنة توسلها :
ـ علشان خاطرى يا ليلى ٠٠ ما تعبيش قلبى يا بنتى ٠٠
وقالت نبيلة وهى تجلس بجانب أختها :
ـ ماما لها حق ٠٠ لازم تقابليه ٠٠
وقالت فيفى :
ـ أهو انتى دلوقت اللى زى البنات الصغيرين ٠٠
وظلت ليلى ساهمة برهة ، ثم انطلقت دموعهـا ، وقالت فى حدة تمزقها الدموع :

ـ طيب ·· حا أقابله ·· أما أشوف آخرتها ايه ··

وقامت من فوق السرير ، وفتحت دولابهـــا ، وبدأت ترتدى ثيابها ، كأنها ستقابل غريبا لا يصح أن تقابله بقميص النوم ·

وقالت الأم : أنا حاروح أقابله دلوقت ، وانتى حصـــلينى ·· وعايزاكى تبقى عاقلة ·· فاهمة ··

ثم التفتت الى فيفى قائلة : وخليكى يا فيفى انتى ونبيلة ·· ما تدخلوش الا بعد ما نصفى الموضوع ··

وانسحبت الأم وعلى وجهها ملامح الحزم تطل من خلال سحب تفكير عميق ، وما كادت تصل الى باب حجرة الصـــالون ، حتى علقت ابتسامتها فوق شفتيها وشدت قامتها ، ورفعت رأسهـــا ودخلت مهللة : أهلا عصام ·· وحشتنا ··

وصافحها عصام فى حركة رسمية ، وقال فى لهجة باردة :

ـ صباح الخير يا طنط ··

وجلست الأم وهى تقول : وازاى مامتك وباباك ·· مش قلت لهم علشان يتغدوا معانا ·· !

وقال عصام فى اختصار : أيوه ··

وبدأت الأم تبحث عن موضوع تبدأ به حديثها ·· فتحدثت عن الشقة التى يعدها بنترومولى للعروسين ، وما تم منها وما لم يتم ·· وعصام يبادلها الحديث ·· وكلاهما يطيل فيه بلا مبرر ، كأن كلا منهما يبحث لنفسه عن ثغرة يصل منها الى الموضـــوع الآخر الذى يهمه ·· الى أن قالت الأم :

ـ دى ليلى من ســاعة ما وصــلت وهى ما بطلتش كلام مع اخوتها عن اللى شافته فى أوروبا ·· أمال لو كنتم طولتم شوية كانت عملت ايه ؟ ··

وتنهد عصام ، كأنه أدخل فى خطته أن يتنهد قبـــل أن يتكلم وقال : والله أنا عايز أشتكى لك من ليلى يا طنط ··

واعتدلت الأم فى جلستها ، وضاقت ابتسامتها ، وازداد انتباه عقلها ، وقالت : ليه يا عصام ·· حصل ايه ؟ ! ·

وقال عصام : ما حصلش حاجة ·· انما مش قادر أتفاهم معاها ·· عنيدة ومتعبة ·· وساعات بيتهيأ لى انها بتكرهنى ··

وقالت الأم وهى لا تزال محتفظة بهدوئها :

ـ لأ يا عصام ·· ماتقولش بتكرهك ·· ده انتم قعدتم شهور مخطوبين ، وعمرك ما قلت كده ··

وقال عصام

ـ أيوه ·· بس ليلى بعد ما اتجوزنا بقت حاجة تانية ·· بتعاملنى زى ما أكون غريب عنها ·· وساعات كان بيتهيألى انها فاكرة نفسها ضحية ·· ضحية لى أنا ·· كل حاجة أطلبها منها تديهالى زى ما تكون بترميها فى وشى ·· ولو طلبت منها تطلع لى قميص من الشنطة ·· تطلعه وهى قرفانة ··

وسكتت الأم قليلا ، ثم قالت :

ـ ما تنساش يا عصام ان ليلى لسه صغيرة ·· دى ما كملتش تمنتاشر سنة ·· وكل البنات لما بيتجوزوا بيبقوا كده فى الأول ·· ده أنا قعدت تلات أشهر أول ما اتجوزت وأنا مش قادرة أرفع عينى فى عين جوزى ·· واسأل مامتك كمان ·· وانت الكبير يا عصام وبرضه لازم تستحملها وتاخدها على عقلها لغاية ما تتعود عليك ·

وقال عصام فى حدة :

ـ يا طنط الكلام ده كان زمان ·· البنات دلوقت حاجة تانية ·· ثم انى حاولت كتير ·· بالذوق ، بالخناق ، ما فيش فايدة ·· زى ما تكون مصممة على انها تفضل بعيدة عنى ··

وقالت الأم وهى تنظر فى وجه عصام كأنها تضعه فى مكانه :

ـ ماهى ليلى كمان بتقول انك اتغيرت عن أيام ما كنتم مخطوبين ··

وصاح عصام : أنا اتغيرت ·· أنا ·· أنا زى ما أنا ·· أنا اتجوزتها لأنى باحبها ، ولسه باحبها ·· انما هى ·· و ··

وابتلع ريقه ثم استطرد فى صوت خطير :

ـ تصدقى يا طنط انها لغاية دلوقت مابستنيش بوسة واحدة بنفس ·· أنا اللى بابوسها ، وأستنى انها تبوسنى ·· أبدا ·· تبقى مطبقة شفايفها زى ما أكون بابوسها غصب عنها ·

وأحنت الأم رأسها كأنها خجلت من هـذه الصراحة ، وقالت وهى تنظر الى قدميها

ـ الحاجات دى تيجى مع الوقت يا عصام ··

وقال عصام وهو يزداد احتدادا :

ـ وقت ايه يا طنط ·· دى بتنـام جنبى زى لوح الثلج ·· مافيش روح ·· ما فيش احساس ·· مش ممكن تكون طبيعتها كده ·· ولو انى فكرت آخدها لدكتور ·· و ··

ورفعت الأم رأسها فى حركة مباغتة كأنها أهينت ، وقاطعته محتدة كأنها تدافع عن نفسها :

ـ انت ما اتجوزتش رقاصة يا عصام ·· انت متجوز بنت من عيـلة ·· ولازم تعـرف ان الحاجات دى عايزة وقت ·· ولازم تستحمل ·· وأنا شايفة ان الموضـوع ده ما يصحش تتكلم فيه بالشكل ده ··

وخفض عصام صوته ، وقال كأنه يتراجع :

ـ أنا آسف يا طنط ·· أصلك ماتعرفيش ليلى ضايقتنى أد ايه ·· وأنا ماكلمتش حد فى الموضوع ده ، حتى ماما وبابا مايعرفوش حاجة ·· مافيش حد أقدر أشكيله الا حضرتك ··

وقالت الأم كأنها أشفقت عليه :

ـ أنا عارفة ان بنتى عنيدة يا عصام ·· انما اذا كانت عنيدة فهى رقيقة فى الوقت نفسه ·· وانت شاب ، وطول عمرك تسافر

أوروبا .. يعنى تقدر تضحك عليها .. وتقدر تاخدها على عقلها .. لغاية ما تاخد عليك وعلى حياتها الجديدة .. وماتنساش ان مافاتش عليكم أكتر من عشرين يوم .. يعنى لسه مالحقتوش .. وكل حاجة بالتفاهم .. وشوية شوية حاتتفاهموا على كل حاجة .

وقال عصام :

ـ ما هو اللى مجننى انها مابتحاولش تتفاهم .. تصورى اننا يوم كنا فى جنيف وسبتها فى اللوكاندة علشان أروح أشوف واحد من بتوع الشركة ، واتفقت معاها نتقابل بعد ساعة فى قهوة هى عارفاها ، وسبت معاها خمسين فرنك ، يعنى خمسة جنيه .. واحت أكلت حتة جاتوه وسابت عشرة فرنك بقشيش .. يعنى جنيه بحاله .. وركبت تاكسى وسابت للسواق جنيه تانى بقشيش .. وأكتر .. وبعد ساعة جت ومافيش معاها الا خمسة فرنك .. يعنى صرفت الخمسة جنيه فى نص ساعة من غير ما تشترى حاجة .. ولما عرفت كده ، قعدت أفهمها قيمة الفلوس .. أفهمها ان الفرنك يسوى عشرة صاغ .. وان كان ممكن ما تركبيش تاكسى وتيجى ماشية .. والمسافة ماتزدش عن ربع ساعة مشى خصوصا وانها تقدر وهى ماشية تتفرج على البلد .. زعلت منى علشان قلت لها الكلام ده .. وفضلت مبوزة .. ومن ساعتها ماتطلبش منى حاجة ، ولما آجى أديها فلوس ماترضاش تاخد منى .. دى لو كان عمرها عشر سنين ماكانتش تبقى عنيدة ، ومدلعة بالشكل ده ..

وقالت الأم وهى تبتسم لعصام :

ـ برضه استحمل يا عصام انت ف ..

وقاطعها عصام قائلا :

ـ مش بس كده يا طنط .. حكاية تانية .. طبعا حضرتك عارفة ان الغسيل والمكوة فى أوروبا غاليين نار .. غسل القميص ومكوته بأربعين قرش .. وماحدش بيبعت قمصانه تتغسل فى أوربا

الا المجانين ·· كل الناس حتى أصحاب الملايين بيغسلوا قمصانهم بايديهم ·· وطلبت من ليلى نوبة انها تغسل لى قميص ·· وعلى اللى حصل ·· وشها اصفر ·· وارتعشت ·· وقامت تغسل القميص ، ودخلت عليها لقيتها بتعيط ·· تصورى ·· تصورى يا طنط ·· وطبعا قعدت بعد كده يومين مبوزة ·· واضطريت انى أغسل قمصانى بايدى ·· خفت ليغمى عليها والا يحصلها حاجة لو طلبت منها تغسل قميص تانى ·

والأم تستمع بهدوء ، ثم قالت :

ــ كل حاجة فى ايدك انت يا عصام ·· دى بيبى صغيرة وزى العجينة ، تقدر تعمل منها اللى انت عايزه ·· والرك عليك ·· ويمكن تكون تعبت معاها فى أوروبا ، انما دلوقت وانتم معانا وجنبنا ، حاتبقى متونسة باخوتها ، وحاتقدر تتفاهم معاها أكتر ·

وقال عصام كأنه يخاطب نفسه :

ــ مش عارف ·· مش عارف أقدر والا مش حا اقدر

ودخلت ليلى ··

وجهها ممتقع ، وعيناها مكفهرتان ··

ومدت الى عصام يدا باردة ، وقالت فى فتور وهى تشيح بوجهها عنه : ازيك ··

وقام عصام يصافحها ، وهو ينظر اليها كأنه يبحث فى وجهها عن مصيره ·· ثم عاد وجلس صامتا ··

وجلست ليلى قريبة من أمها ، كأنها تحتمى بها ··

وقالت الأم وهى تنظر الى ابنتها فى تردد : خلاص يا ليلى ·· أنا اتفقت مع عصام ان كل اللى فات يتنسى ··

وقالت ليلى فى صرامة مش مهم اللى فات ، المهم اللى جاى ·

وانطلق عصام يقول وهو ينظر الى الأم : اتفضلى يا ستى ابتدينا ·

وقالت ليلى بنفس الصرامة : ما ابتديناش ٠٠ احنا انتهينا ٠٠
وقال عصام وهو ينظر اليها كأنه قرر أن يتحداها :
ـ قصدك ايه ؟ ٠٠
قالت وقد بدأ صوتها يعلو : قصدى اللى فهمته ٠٠
وصاحت الأم : بس يا ليلى ٠٠ أنا ما اسمحلكيش انك تكلمى جوزك بالشكل ده ٠٠
وقا عصام : لو كانت معتبرانى جوزها ماكانتش كلمتنى كده ٠٠ انما أنا بالنسبة لها راجل غريب ٠٠ أكتر ٠٠ أنا راجل بتكرهه٠
وقالت ليلى : ولما انت عارف انى باكرهك ، مخلينى ليه ٠٠ ماتطلقنى يا أخى ٠٠
وقال عصام وقد امتلأ وجهه بالعناد :
ـ ولما انتى بتكرهينى اتجوزتينى ليه ؟ ٠٠
قالت وفى صوتها تردد ، كأنها ووجهت بحقيقة تحاول أن تهرب منها : ماكنتش فاكراك كده ٠٠
قال : أنا اللى ماكنتش فاكرك كده ٠٠ انتى اتغيرتى يا ليلى ٠
وصرخت : أنا ٠٠ أنا اللى اتغيرت ٠٠ ماتخلنيش أتكلم ٠٠ أنا ماقلتش لماما على كل حاجة ٠٠ ماقلتش لها انك ضربتنى ٠٠
وكانت الأم قد سكتت وهى واضعة رأسها فوق كفها ، ثم رفعت رأسها بغتة ، وقالت والدهشة تملأ عينيها :
ـ انت ضربتها يا عصام ؟ ٠٠
وقال عصام فى صوت خافت :
ـ أيوه ضربتها علشان تحس بى ٠٠ علشان أخليها تتحرك ٠٠ علشان أسيح التلج ٠٠ أكسر الفريجيدير ٠٠ وللأسف ماحصلش ٠٠ لانى فى الواقع ماضربتهاش ٠٠ يدوبك صوابعى لمست الخد الكريم ٠٠
وقالت ليلى ووجهها يزداد غيظا :

ـ لأ يا سى عصام ·· حضرتك مافهمتنيش ·· أنا مش باردة ·· أنا قرفانة منك ·· قرفانة ·· قرفانة ··

وأجهشت بالبكاء ··

وقالت الأم فى صوت عميق وهى تنظر الى عصام فى قوة :

ـ اسمع يا عصام ·· أنا قلت لك الموضـوع السخيف ده ، مش عايزه أسمعه منك ·· وقبل ما نكمل كلامنا ، لازم توعدنى انك ماتمدش ايدك على ليلى تانى ·· فاهم ··

وسكت عصام ··

وارتفع صوت الأم فى حدة : حاتوعدنى ، والا مش ناوى ···

قال وهو ينظر بين يديه : حاضر ·· أوعدك ·· وأنا آسف ··

والتفتت الأم الى ليلى ، وقالت بنفس الحدة :

ـ وانتى يا ليلى ·· مش عايزة أسمع منك كلمة الطلاق دى تانى ·· فاهمة ·· مافيش حد فى عيلتنا كلها اتجوز وطلق ·· كلنا بنتخانق واحنا قاعدين فى بيوتنا ··

ودق جرس الباب ··

وانتبه الثلاثة على صوت الرنين ، وجففت ليلى دموعها بسرعة ثم قالت الأم :

ـ دول لازم بنات خالك ·· نبقى نكمل كلامنا بعدين ··

ودخلت زوجة الخال وابنتاها ، وهن يصحن :

ـ الحمد لله على السلامة يا ليلى ··

ووضعت ليلى ابتسامة على شفتيها وقبلت زوجة خالها وبنتيها·

ومر يومان وليلى مصرة على طلب الطلاق ·· وأمها وأختاها لا يوافقنها عليه ·· وكان يجب أن يعرف أحمد بالقصة كلها ·· فأخته مقيمة فى البيت لا تريد أن تغادره الى بيت زوجها . ولا تقبل أن يأتى زوجها ويقيم معها ··

وعندما عرف أحمد أن أخته تطلب الطلاق ، لم يفاجأ ·· لقد

كان ينتظر شيئا كهذا ·· ورغم ذلك فقد فوجىء بالعبء الذى سقط على كتفيه ·· لم يكن يعتقد أنه عبء ثقيل الى هذا الحد ·· لم يكن يعتقد أنه سيحتار كل هذه الحيرة ·· انه لا يستطيع أن يلوم أخته على طلب الطلاق ما دامت لا تحب زوجها ·· وهو يعلم انها لا تحبه ·· يعلم أنها تزوجته رغم ارادتها ·· ولكنه فى الوقت نفسه لا يستطيع أن يقرها على الطلاق ·· لا يدرى لماذا ·· كل ما يدريه أن كلمة الطلاق لها وقع رهيب فى أذنيه ، وقع مخيف ·· وربما لم يكن ما يخيفه هو طلاق أخته ، بل حمل مسئولية أخته بعد طلاقها ·· انه يخاف على نفسه ، لا على أخته ·· انها أنانية منه ·· أنانية منه أن يجبر أخته على أن تعيش مع رجل لا تحبه ، بحجة أن الطلاق كلمة رهيبة ·· وأنه أبغض الحلال عند الله ··

ورغم ذلك فهو يستطيع أن يبرر هذه الأنانية أمام نفسه ·· يبررها بأن أخته لم ينقض على زواجها مدة كافية حتى تيأس ·

وعاد الى البيت فى المساء المبكر ، واتجه الى ليلى وقال وهو يحتضنها بابتسامته :

ـ انتى عارفة اننا ماقعدناش مع بعض من يوم ما جيتى ·· قومى ·· تعالى ·· حاقولك كلام سر ··

وجذبها من يدها فى رقة ··

ولم تغتر ليلى بابتسامته ولا برقته ·· كانت تعلم أنه يريد أن يقنعها بالعودة الى زوجها ·· وكانت مصرة على أن تواجهه بالحقيقة ·· انها لن تعود ·· ورغم ذلك فاصرارها يشوبه نوع من الحياء ·· انها لم تتعود أن تبدو أمام أخيها بكل عنادها الذى تبدو به أمام أمها وأختيها ·· ولا تزال تحس تجاه أخيها برواسب من الخوف منذ ضربها عندما حاولت أن تهرب مرة من البيت ·· أو هو احترام يبلغ حد الخوف ··

واتجها الى غرفة المكتب ، وجلس أحمد على المقعد العريض ،

وجلست هى قبالته ، لا تنظر اليه ، ولا تبتسم ·· وقال أحمد وهو يبتسم كأنه يطمئنها : قررتى ايه ؟ ! ··

وقالت فى صوت هادىء كأنها توحى اليه باليأس :

ـ مافيش فايدة يا آبيه ·· لازم أطلق ··

وقال أحمد وهو يطرق برأسه كأنه يفكر :

ـ لك حق ··

ورفعت ليلى رأسها فى دهشة ، وقالت :

ـ انت موافقنى يا آبيه ؟ ·

قال فى هدوء :

ـ طبعا ·· ما دام مابتحبهوش يبقى لازم تطلقى ·· ولو أن ماحدش حايصدق انك مابتحبيهش ··

وقالت : ليه ·· ؟ !

قال : لأنك قعدت مخطوبة له سنة وشوية ، وماقلتيش انك مابتحبيهش ··

وسكتت قليلا ·· هل تقول لأخيها أنها لم تحتمل فترة الخطوبة الا لأنها كانت تقابل خلالها حبيبها فتحى ·· هل تقول له انها لم تستسلم لاعلان خطوبتها الى عصام الا لتتخذ منه ستارا تخفى وراءه حبها ، وتتخلص به من مراقبة عائلتها ··

وقالت وهى تنهد

ـ أنا ماكنتش عايشة معاه لما كنا مخطوبين ·· كنت باشوفه وباخرج معاه زى ما أكون باخرج مع واحد قريبى ، والا مع صديق ، ما عرفتوش وماكرهتوش الا بعد الجواز ··

وقال أحمد وهو لا يزال يبتسم :

ـ برضه الناس مش حاتصدق ··

قالت فى حدة :

ـ أنا ما يهمنيش الناس ·· ما اقدرش أعيش متعذبة علشان خاطر الناس ··

قال كأنه يلقى عليها درسا :

ـ بس الناس من حقها تتكلم ·· ما هو الجواز والطلاق حاجتين لازم يتموا قدام الناس ·· علشـــان كده بيعملوا فرح فى الجواز وبيعملوا محزنة فى الطلاق ·· الجواز والطلاق عبارة عن تنظيم اجتماعى ·· يعنى تنظيم علاقة الست والراجل بالمجتمـــع كله ·· بالناس كلهم ·· علشان كده النـــاس حتتكلم يوم ماحاتطلقى ·· وحايســـألوا اطلقت ليـــه ، مع ان مافاتش على جوازها أكثر من عشرين يوم ·· مش حايلاقوا سبب معقول ·· وحيضطروا يدوروا على سبب مش معقول ·· وفى العادة بيكون سبب سخيف ·· يعنى يقولوا انك ماكنتيش بنت يوم ما اتجوزتى ، والا يقولوا عليه انه مش راجل ··

وارتفع الذعر فى عينى ليلى ، وخيل اليهـــا برهة أن أخاها يقصد اتهامها ·· وقالت وقد علا صوتها كأنها تدافع عن نفسها :

ـ ما حدش يقدر يقول كده ··

وقال أحمد فى هدوء :

ـ ده اللى حايتقال ··

وقالت وهى أكثر حدة

ـ يقولوا اللى عايزين يقولوه ·· مايهمنيش ··

وقال أحمد فى هدوء :

ـ ولا أنا يهمنى ·· حـــتى لو كان الـــكلام ده يهم ماما والا اخواتى والا بقية العيلة ·· مايهمنيش أنا ··

ونظرت ليلى الى أخيها فى تعجب ··

هل هو خبيث الى هذا الحد ·· الى حد أن يقطر الســـم فى أذنيها بهذه الرقة وهذا الالتواء ·· ؟ !

وسكت أحمد برهة ، ثم قال :

ـ انتى عايزة الحق ·· أنا اذا كنت مقتنــع انك مابتحبيش عصام ، مش مقتنع انك لازم تطلقى دلوقت ·· من رأيى انك تحاولى كمان نوبة ·· تستحملى كمان شهر والا شهرين ·· وبعد كده يوم ما تطلبى الطلاق ماحدش يقدر يلومك ··

وقالت وهى تنظر اليه كأنها تسخر منه :

ـ انت بتتكلم دلوقت زى ماما ··

قال فى هدوء :

ـ لا ·· ماما بتضحك عليكى ·· انما أنا مابضحكش عليكى ·· أنا عارف ومتأكد انك لازم تطلقى ··

قالت تقاطعه وهى تنظر اليه كأنها حائرة فيه :

ـ لكن مش موافق ·· مش كده ! ·

قال : مش موافق دلوقت ·· ولو صممت على الطلاق دلوقت حاعتبرك غلطانة ·· ومش حاساعدك فيه ·· ولا حد حايساعدك ·· انما بعد شهرين والا تلاتة ·· أنا اللى حاروح بنفسى وأطالب عصام بأنه يطلقك ··

قالت وهى تهم بالبكاء :

ـ يعنى أهون عليــك يا آبيــه ·· أعيش شــهرين مع واحد مابحبوش ·· !

قال وهو يمسك بيدها :

ـ احنا كلنا غلطنا يوم ما صممنا على انك تتجوزى ·· ولازم نستحمل كلنا لغاية ما نصلح غلطتنا ··

قالت وهى تذرف دمعها :

ـ أنا لوحدى اللى حاستحمل ··

قال : انتى حاتستحملى أكتر منا كلنا ·· انتى حاتتعذبى ، واحنا بنتعذب بعذابك ··

وقامت ليلى واقفة كأنها الشبح .. وتحركت صامتة كأنها تسير فى ضباب .. وقام أحمد وأمسك بكتفيها .. وقال فى حنان :

ـ خلاص .. اتفقنا ؟ !

وقالت وهى تتخلص من بين يديه ، وتتجه نحو الباب :

ـ اعملوا اللى انتم عايزينه ..

وخرجت ، وأحمد ينظر وراءها ، وقلبه يتمزق .. يمزقه احساس بأنه جنى على أخته مرة ثانية .. ضحى بها لأنه أضعف من أن ينقذها من حياة تتعذب فيها .. أضعف من أن يحمل مسئوليتها ويواجه الناس ويتحداهم بهذه المسئولية ..

وعادت ليلى الى غرفتها صامتة ، واجمة .. وليس فى الغرفة أحد .. وجلست فوق سريرها مستسلمة للضجيج الذى يملأ رأسها .. انها تعرف الآن مصيرها .. ستعود الى زوجها .. مهما قاومت فسيجبرونها يوما على العودة اليه . الى العذاب .. ومرت بخيالها صور من عذابها .. أنفاسه الكريهة كرائحة الزحام فى الأتوبيس .. وجسده الثقيل .. وكلماته السخيفة .. وبخله .. وسفالته .. وتفاهته .. ونفاقه .. وتحريضه لها على أن تكون منافقة سافلة مع رجال الشركات .. و .. و .. ونظرت الى الدبلة الذهبية التى تحيط بأصبعها .. انها دبلة فتحى .. دبلة الرجل الذى لا تريد أن تطلقه ، ولا تستطيع أن تتزوجه .. وأطالت النظر اليها ، وارتفعت الى شفتيها ابتسامة ساخرة فى سخريتها حنان .. كأنها تنظر الى صورتها وهى طفلة صغيرة .. وقد كانت طفلة صغيرة عندما فكرت أن تستبدل دبلة زواجها بدبلة أخرى تكتب فى داخل اطارها اسم حبيبها .. ان هذه الدبلة الجديدة لم تغير من وضعها شيئا .. انها كما هى .. زوجة لرجل لا تحبه .. وتحب رجلا لا تتزوجه .. بل ربما زادت هذه الدبلة فى عذابها .. كانت

تذكرها دائما بالنعيم الذى فقدته ·· وكانت تربطها بالجحيم الذى تقيم فيه ·· فلم تكن تستطيع أن تخلعها وترمى بها فى وجه زوجها لتعلنه بخلاصها منه ·· ولم تكن تستطيع أن تبقيها وتصدق أنها فى الجنة لمجرد أن دبلة حبيبها فى أصبعها ··

لقد بلغ بها العذاب الى حد أنها آمنت بأن الله يعاقبها على حبها لفتحى ·· يعاقبها على حب ليس له مكان من قوانين السماء ·· وبلغ عذابها الى حد أن قررت بينها وبين نفسها ألا تعود لفتحى ·· أن تقاوم حبها الى أن تصرعه ·· لعل الله يغفر لها ، ويرحمها ، ويعفيها من العذاب ··

وعندما كانت فى أوروبا أرسلت لفتحى بطاقة بريد واحدة ·· ثم امتنعت عن ارسال بطاقة أخرى ·· بدأت تقاوم ·· وبعد أن عادت استمرت فى المقاومة ·· لم تحاول أن تتصل به ·· بل لم تحاول أن تسأل عن أخباره ·· ولكن الآن ·· لماذا تستمر فى المقاومة ··

انه ليس الله الذى يعاقبها ·· انهم الناس ··

الله شرع الطلاق ليعفيها من العذاب ··

ولكن الناس لا يريدون لها شرع الله ··

انهم يجبرونها على أن تستمر زوجة ··

وهى لا تستطيع أن تكون الا زوجة خائنة ··

وستكون زوجة ·· مرضاة للناس ··

وستكون خائنة ·· مرضاة لحقها فى الحياة ··

وقامت من فوق فراشها تسير فى خطوات زاحفة ، كأن يدا أقوى منها تدفعها ·· وحملت التليفون ، وعادت به ·· وأدارت الرقم ·· انها لم تنس أبدا هذا الرقم ··

وسمعت صوت فتحى : آلو ··

قالت كأنها تتنهد فى نوم هادىء : آلو
وسمعت شهقة فتحى :

ـ ليلى ‥ ليلى ‥ كلمتينى ليه يا ليلى ‥ من يوم ما رجعتى وأنا باحاول أهرب من جنب التليفون ‥ ومن يوم ما رجعتى ، وأنا مش قادر أقوم من جنب التليفون ‥ و ‥

وتتبعت صوته كأنها تترك قطرات الندى تسقط فوق عودها الجاف العطشان ‥ ثم تمالكت نفسها وقاطعته قائلة فى بساطة :

ـ بكره الساعة حداشر ‥

ووضعت سماعة التليفون من يدها دون أن تستمع الى بقية حديثه ‥ ودون أن ترسل له تحية ‥

ورقدت فوق فراشها ‥ عيناها مفتوحتان ، تنظران الى السقف ‥ كأنها تنظر الى سمائها ‥ سماء واطئة ‥ تكاد تقع عليها ‥

وقضت الليل لا تبادل أحدا كلاما ‥ ونام البيت ، وعيناها لا تزالان مفتوحتين تنظران الى السماء الواطئة ‥

وجاء الصباح ‥

ووقفت أمام مرآتها ترتدى ثيابها ‥ ووجهها نحيل ‥ ولونها باهت ‥ وعيناها مكدودتان ‥ وعلى شفتيها ابتسامة ساخرة جريئة ‥ كأنه لم يعد يهمها شىء ‥ ولم يعد يهمها فيما تفعله أحد ‥ والتقطت حقيبتها وأخرجت منها كيس نقودها الصغير ، ونظرت فيه الى مفتاح الشقة ‥ واتسعت ابتسامتها ‥

وخرجت من البيت بعد أن قالت لأمها انها ذاهبة الى الحلاق لتغسل شعرها ‥ قالت كذبتها فى بساطة ، كأنها تؤدى واجبا يقتضيه الأدب ‥ لا كأنها تكذب ‥

خرجت ، ونبيلة تنظر اليها بعينين ملؤهما الشك ‥
ووضعت نفسها فى سيارة أجرة ، وقالت للسائق

– شارع الانتكخانة يا أسطى ..

وجلست فى السيارة دون أن تحاول أن تختبىء . .انها لم تعد فتاة صغيرة .. انها سيدة كبيرة تملك أمرها .. فلماذا تختبىء .

ووقفت بها السيارة أمام باب العمارة ..

ونقدت السائق أجره ..

وخطت الى داخل العمارة .. وأحست وهى تدخلها أنها بدأت تفيق من تحديها للدنيا .. كأنها خرجت من الدنيا التى تتحداها الى دنيا ليس فيها تحد .. فيها استسلام . .وحب .. وراحة .. وصعد بها المصعد كأنه يصعد بها الى شبابها .. كأنه يرفعها من وسط عذابها .. وبدأ قلبها يخفق كأنه استرد الحياة .. وبدأت تستعيد الاحساس بلذة الارتباك .. ولذة الوجل .. ولذة اللهفة .. ولذة الترقب المجهول ..

وفتحت الباب بيد مرتعشة .. ورأته أمامها .. فتحى ..

لقد ازداد جسده نحولا .. ووجهه ممصوص .. وعيناه ازدادتا اتساعا ، وازداد سوادهما دكنة ، وبياضهما نصوعا واشتد فيهما بريق القلق .. والشعرات البيض بدأت تزحف فى فوديه وتأكل من شعره الأسود فى نهم .. وشعره كله قد زحف الى الخلف لينحسر عن مساحة أكبر من مقدمة رأسه .. وشفتاها جافتان مرتعشتان . .

ووقفت أمامه صامتة تنظر فيه كأنها غابت عنه أجيالا ..

وهمس : ليلى ...

ثم مد اليها ذراعيه ، وألقت بنفسها بينهما ، ونامت على صدره وأحست أنها عادت ..

لم تعد عندما هبطت بها الطائرة الى أرض القاهرة ..

ولم تعد عندما دخلت بيتها ..

ولكنها الآن عادت ..

عادت •• عندما وصلت الى صدر حبيبها ••
وتنهدت فى راحة ، كأنها تستريح من مشقة الطريق الطويل الذى قطعته حتى عادت ••
وخده على خدها ••
وأنفاسه تتردد لاهثة فى أذنها •• ثم ••
تحركت شفتاه •• وتحركت شفتاها •• والتقت الشفاه ••
وشربا •• كم كانا عطشانين ••
وشربا أكثر •••
والحياة ترتد •• ناعمة •• هادئة •• حلوة •• لا شىء يقف فى طريقها •• لا شىء ثقيل •• ولا شىء سخيف •• ولا شىء يقبض أعصابها ••• ولا شىء يكتم أنفاسها •• انها لا تدرى أين أنفاسها من أنفاسه • ولا تدرى أين صدرها من صدره •• ولا تدرى أين جسدها من جسده •• ولا تدرى من فك ضفيرتها •• ولا تدرى ماذا تعرى من جسدها •• وماذا لم يتعر ••
ذابا •• رجل وامرأة •••
لم تكن تعلم أن هذا هو الرجل ، وأن هذه هى المرأة ••
وهدآ •• تعب هادىء •• واسترخاء مريح ••
وأصابعه مختبئة فى شعرها المنسدل كأشعة الشمس • وهو يضغط رأسها اليه كأنه يحرص عليها حتى لا تفر منه مرة ثانية ••
وخطر لها سؤال •••
واحمر وجهها للسؤال الذى خطر لها ••
ثم فتحت عينيها لتواجهه بسؤالها ، ولكنها عادت وأرخت عينيها فى نوبة حياء •• ومدت أصابعها تعبث بخصلات الشعر الخشن الذى ينطلق فوق صدره ، ككومة من الدخان الأسود ••
وقالت فى صوت هامس كأنها تشغل نفسها عن السؤال الذى لا تستطيع أن تبوح به :

ـ عملت ايه وأنا مسافرة يا فتحى ؟
قال وشفتاه تتحركان فوق جبينها :
ـ عملت كل حاجة ماكنتش ممكن أعملها وانتى هنا ··
ورفعت اليه رأسها وقالت فى غضب مفتعل :
ـ اوعى تكون جبت حد هنا فى الشقة ··
قال وهو يعيد رأسها الى صدره :
ـ ما حدش جه هنا ··ولا أنا ··كنت باهرب من هنا ، كان متهيأ لى ان جيت حالقيكى مستنيانى وانى لو مالقيتكيش حاتجنن ·
وسكتت برهة تبحث عن كلام آخر يشغلها عن السؤال الذى يلح عليها ··ولكنها لم تجد كلاما ··ليس فى رأسها شىء ·· الا هذا السؤال ·· وانطلقت كأن السؤال انطلق رغما عنها
ـ أسألك حاجة ؟ ·
قال وهو يقبلها فوق جبينها ثم يطوف بشفتيه فوق خدها :
ـ اسألى ··
قالت : لأ ·· أصله سؤال صعب قوى ··
قال : معلهش ·· اسألى ··
قالت وهى لا تزال تعبث بشعرات صدره : لأ ·· مكسوفة ··
قال : طيب حاغمض عينى ، واسألينى ··
قالت : لأ ··
قال وهو يقرب أذنه من شفتيها : اسألينى فى ودنى !
قالت ووجهها غارق فى سحابة حمراء من الحياء :
ـ لأ ·· لأ ·· ياى ·· مش ممكن ··
قال وقد ازداد تلهفه :
ـ علشان خاطرى ·· اسألينى !
قالت ورأسها مختبىء فى صدره :
ـ أنا ·· أنا ·· أنا باردة ؟ !

وضحك ضحكة مرحة ، ثم ضمها الى صدره ، كأنه يضم طفلة صغيرة :

ـ انتى ·· يا خبر ! ··

قالت : أنا باسألك بصحيح ·· ماتضحكش ! ·

ووضع راحته تحت ذقنها ، ورفع وجهها اليه ، وقال وهو ينظر فى عينيها :

ـ ربنا ما خلقش ست باردة وست سخنة ·· انما فيه ست بتحب ، وست مابتحبش ··

وانظرت اليه مبهورة كأنها تريد أن تصدقه ··

ثم ·· أغمض شفتيه بين شفتيها ··

وأغمضت شفتيها بين شفتيه ··

٢١

انتهى أحمد من تناول طعام الغداء ، ودخل غرفته ، وجلس على المقعد المريح الموضوع بجانب فراشه ، وأخذ يراجع كشف مشاكله المنشور فى خياله ·· وحاجباه معقدان فوق عينين مهمومتين ··

لقد عادت ليلى الى زوجها بعد أن تم تأثيث شقتها الجديدة ·· وفرح الجميع بعودتها ، واعتقدوا أن مشكلتها قد انتهت ·· ولكنه ـ هو وحده ـ كان يعرف أن مشكلتها قد بدأت ·· انه لا يزال يذكر نظرات التحدى والاستهتار التى كانت تطل من عينيها يوم انتقلت الى بيت زوجها · ·وأحس أن هذا التحدى لم يكن موجها الى زوجها ·· بل اليه ·· والى أمه ·· والى أختيه ·· والى الناس

كلهم ·· ان ليلى تتحداهم لأنهم لم يقفــوا بجانبها عنــدما طلبت الطلاق · ·وأحس أحمد وهو يودع أخته الى بيت زوجها ، أنها ذاهبة الى بيت آخر ·· غير بيت زوجها ·· بل أحس كأنه يلقى بها فى الشارع ·· ربما كانت ذاهبة الى رجل آخر ·· ربما قررت بينها وبين نفسها أن تعود الى حبيبها القديم ·· الى فتحى ·· ورغم ذلك فهو لم يستطع أن يفعل شيئا ·· كل ما فعــله أن أخذ يكذب احساسه ·· وأخذ يحاول أن يقنع نفسه بأن يثق فى أخته ، وفى تصرفاتها ··

ونبيلة لا تزال مشكلتها معلقة ·· لقد سألها مرة ومرتين عن أحوال حبيبها محمود ·· ان محمود لم يستقر فى عمل بعد ، ولم يؤد امتحان الاذاعة ·· وبدأ يحس بالحرج فى أن يوالى السؤال عنه ·· أحس كأنه لو سأل عنه مرة أخرى ، فانه سيبدو كأنه متلهف عليه ·· سيفقد احترامه أمام أخته ·· وسيدخل معها فى نقــاش قد يثور خلاله على محمود ، ويفقد بثورته ثقة أخته التى اكتسبها أخيرا ··

وفيفى لا تزال ساخطة متبرمة بعــد أن أعلنت خطوبتها الى الأستاذ أمين عبد السيد ·· ولكن رغم قناع السخط الذى تضعه على وجهها ، فهو يحس أنها أسعد أخواته وأكثرهن استقرارا ·· كل ما هنالك أنها تخجل من أن تبدو سعيدة ·· كأن ليس من كرامتها أن تسعد برجل ·· ومظهــر ســعادتها الوحيــد هو اقبالها على مذاكرة علومها استعدادا للالتحاق باحدى جامعات أمريكا ، عندما تسافر اليها برفقة زوجها ·· وأمين عبد السيد دائما معهــا ·· يذاكر معها · ·ويتناول الغداء مع العائلة كل يوم تقريبا ، وأحيانا يبقى ليتناول طعام العشاء ·· وهو لا يبقى دائما بارادته بل غالبا يبقى بارادة فيفى ·· انها تريده دائما معها ·· شىء تملكه ولا تريد أن تطلق له حرية البعــد عنهــا ·· ورغم ذلك فهمــا دائما

يتشاجران ، ومشاجراتهما تثير جوا من المرح فى العائلة ٠٠ فأمين تعود ألا يقابل ثورات فيفى بثورة مثلها ٠٠ انما يحنى رأسه للعاصفة ٠٠ ثم لا يلبث أن يرفع رأسه ، ويلقى بكلمة تثير فيفى ، فتهب العاصفة من جديد ٠٠ كأنه لا يحب خطيبته الا ثائرة ساخطة عليه ٠ ٠وقد اتفقا على أن يعقدا قرانهما قبل سفرهما الى أمريكا بأسبوع ٠٠ والى أن يحين موعد عقد القران ، يذاكران ، ويتشاجران ٠٠

وأمه ٠٠

انه لم يستطع بعد أن يرفع هذا الظل الثقيل الذى يقف بينه وبينها ٠٠ انه لم يفاتحها فيما قاله له خاله عن رغبة عبد السلام فى الزواج بها ٠٠ ولكنه يحس كلما التقت عيناه بعينيها ، انه سيهم بمفاتحتها ٠٠ يهم بأن يفرج عن هذا الكبت العنيف الذى يبذله لاخفاء سر أمه فى صدره ٠٠ ولكنه لا يستطيع ٠٠ ويرخى عينيه عنها ٠٠ ويحادثها وهو متشاغل بالنظر الى شىء آخر ٠٠ لم يعد يستطيع أن يكون معها كما تعود أن يكون ٠٠ الظل الثقيل قائم بينهما دائما ٠٠ وأمه حائرة فيه لا تدرى ماذا جرى له ٠٠ ولا تدرى ماذا يشغل باله ٠٠ وهى تستطيع أن تحس بهذا الشىء الذى يقف بينها وبينه ولكنها لا تستطيع أن تفسره أو تخمنه ٠٠ وأحيانا تبذل جهودا مفتعلة لتصل الى قلب ابنها ٠٠ تتودد اليه الى حد أن تدلله كأنه طفل صغير ٠٠ فيقابل تدليلها بابتسامات لا تكفى لاخفاء ضيقه وحرجه ، ثم ينصرف عنها دون أن يتفتح قلبه ٠٠ وهو لايزال يحبها ٠٠ ولكنه لا يستطيع أن يتجاهل الحقيقة التى فوجىء بها وهى أن أمه امرأة ، وأن رجلا يريد أن يتزوجها ٠ هذه الحقيقة التى لا يعرفها كل الأبناء الى أن يفاجأوا بها ٠٠ وكل ما يفعله هو أن يسكت ، ويترك الأيام تداوى جرحه الذى فتحه خاله فى قلبه ٠٠ لعله ينسى فى يوم من الأيام ٠ ٠ينسى الحقيقة ٠٠ و ٠٠

وكل هـذه المشـاكل فى جانب ، ومشكلته الكبرى فى جانب آخر ..

مشكلة البحث عن عمل .. البحث عن طريق ينجح فى السير فيه ..

وكانت المشكلة قد أصـبحت أكثر الحاحا عليـه منذ قرر أن يتزوج شـهيرة ، وهو منـذ أن فاتحها فى الزواج وهو سكران غاضب ، لم يستطع أن يفاتحها مرة أخرى .. انه لا يستطيع أن يتزوجهـا وهو عاطل .. لا لأنه لا يستطيع أن يوفر لها بيتا .. ربما استطاع أن يوفر لها البيت ، ويدفع المهر والشبكة .. ونفقات الفرح أيضا .. ولكن المشكلة أنه لا يستطيع أن يتقدم اليها وهو عاطل .. ان العمل هو العنصر الذى تتم به شخصية الرجل .. هو البطاقة التى يتقدم بها للناس .. وما دام لم يجد عمـلا فهو لا يزال ناقص الشخصية ، لا يزال بلا بطـاقة .. وهو يعلم أن شهيرة قد تقبله زوجا الآن .. وهو عاطل .. انها تحبه ، ويستطيع أن يرى حبها فى عينيها ، وفى لفتاتها ، وفى همساتها .. ولكنه لا يريد أن تقبله زوجا وهو ناقص الشخصية .. يريد أن يثبت لها شخصيته الكاملة ، حتى تتزوج انسانا كاملا ..

وقد حاول كثيرا ..

حاول أن يحدد هذه الطاقة الهائلة التى يحس بها تملأ نفسه .. أن يمسك هذه الطاقة بيديه ، ويحاول أن يشكل منهـا عمـلا منتجا ..

وهو لا يزال يكتب المقالات على أمل أن ينشرها فى الصحف .. ولكنه لم يجرؤ على أن يرسل منها شيئا الى أى صحيفة .. انه لم يعد يمزق ما يكتبه .. ولم يعد يضيق بما يكتب قبل أن يتمه .. أصبح يكتب مقالا كاملا .. ويراجعه ، ويعيد كتابته .. ثم .. ثم يحتفظ به فى درج مكتبه .. انه يخاف أن يبعث به الى صحيفة

من الصحف ، رغم أنه واثق أن ما يكتبه خير ألف مرة من معظم ما تنشره الصحف .. ربما كان أسلوبه فجا معقدا ليس فيه رشاقة أساليب كبار الكتاب .. ولكن دراسة الموضــوع ، والآراء التى يسردها ، لا يستطيع كاتب من الكتاب الذين يقرأ لهم أن يصــلوا اليها .. انه ليس مغرورا ، ولكن هذا ما يحسه ، ورغم ذلك فهو يخاف .. لا يدرى مم .. ربما يخاف على كرامته من أن تخدش اذا رفضت الصحيفة أن تنشر مقاله .. ربما لم يكن الخوف أصلا ، انما هو التردد ، والحيرة ، والجبن ..

ولم يكتف بالاستمرار فى محاولة الكتابة ..

لقد أقدم على تجربة أخرى ..

تجربة كان يهرب منها دائما .. وقد أقدم عليها لمجرد أنهــا تجربة .. أقدم عليها لأن شهيرة أقنعته بأن يجرب كل شىء الى ان يجد ما يريد .. لقد جرب .. جرب أن يكون محاميا ..

وكان قد التقى بأحد زملائه خريجى كلية الحقوق ، وعلم منه انه يتمرن لدى الأستاذ بركات عبد الله المحامى .. وألح عليه زميله ان يأتى ويتمرن معه فى نفس المكتب ، ما دام لا يعمل شــيئا .. ولكنه رفض .. ثم بدأ يفكر .. وبعد يومين سعى بقدميه الى زميله .. ذهب اليه فى المكتب ، وهو مغمض العينين ، كأنه يلقى بنفسه فى البحر .. وطلب منه أن يسعى له لدى الأستاذ حتى يقبله محاميا تحت التمرين ..

وفرح به زميله قائلا :

ـ على الأقل الواحد يشوف خلقة عدلة فى المكتب ..

ودخل به الى الأستاذ .. وكان أحمد قد سمع عن الأستاذ من قبل ، وقرأ اســمه فى بعض القضــايا التى تنشرها الصحف .. ولكنه عندما التقى به ، لم يحس أنه أمام محام .. لم يحس بهيبة القانون ، ولا بعــدالته .. أحس أنه أمام تاجر شــاطر .. تاجر

خردوات يبيع بضاعته بضعف الثمن بعد أن يخدع عقول الزبائن ٠
ولم يتردد الأستاذ كثيرا فى قبول أحمد تحت التمرين ٠٠ أخذ يتفحصه كأنه يتحسس بعينيه قماش بدلته ، ونوع رباط عنقه . ثم قال : والأستاذ أحمد متخرج فى دفعة كام ؟ ٠

وقال أحمد : دفعة ٥٤ ٠٠

وقال الأستاذ : عال يعنى لسه بشوكك ٠٠ على كل حال انت باين عليك من عيلة ٠٠ وأنا يعجبنى الشاب اللى يعتنى بمظهره ٠٠ خلاص ٠٠ اعتبر نفسك واحد من المكتب ٠٠ وزميلك الأستاذ جمال حايبقى يطلعك على أسرار المهنة ٠٠

وهم أحمد أن يغادر الغرفة ، عندما صاح به الأستاذ :

ـ بس أحب أقول لك ٠٠ المكتب مابيدفعش حاجة للى بيتمرنوا كفاية ٠٠ اننا مابناخدش حاجة ٠٠

وقال أحمد وهو يحس كأنه أهين : أنا مش عايز حاجة ٠٠

وقال الأستاذ بوقاحة : ماهو كلكم بتقولوا كده الأول ٠٠ وبعد ما عنيكم تتفتح ، تبتدوا تطالبوا وتشتكوا للنقابة ٠٠

ووقف أحمد صامتا ، ينظر الى الأستاذ فى دهشة وحيرة ٠٠

وعاد الأستاذ يقول وهو يخفف من حدته :

ـ انما انت باين عليك من عيلة ٠٠

وأصبح أحمد محاميا تحت التمرين ٠٠

وبدأ يواظب على الذهاب الى المكتب كل مساء ، ويواظب على الذهاب الى المحكمة كل صباح ٠٠ وهو لا يفهم من كل ما يدور أمامه شيئا ٠٠ لا يفهم شيئا مما يجرى فى المكتب ، ولا يفهم شيئا مما يدور فى المحكمة ٠٠ وقد حاول أن يستعين بكل ما درسه فى كلية الحقوق ، ولكنه لم يفهم شيئا أيضا ٠٠ الى أن عرف أن كل ما يدور حوله ليس له علاقة بما درسه فى الحقوق ٠٠

وزملاؤه فى المكتب ، والكتبة ، بدأوا ينادونه بلقب « أحمد

بيه » ·· منذ أن عرفوا أنه يمتلك سيارة ·· والأستاذ الكبير بدأ يطلب منه أن يمر عليه فى البيت كل صباح ليحمله فى سيارته الى المحكمة ·· وعبد البارى أفندى خليل الكاتب يمر عليه ، ويسأله :

ـ ما معكش سيجارة يا أحمد بيه ؟ ·

ويرد أحمد : آسف ·· مابدخنش ! ·

ولكن عبد البارى أفندى لا يكف عن طلب السيجارة ·· حتى اضطر أحمد أن يشترى علبة سجاير ·· وما كاد يضعها أمامه حتى اكتشف أن عبد البارى أفندى كان مندوبا عن كل الكتبة وزملائه المحامين فى طلب السيجارة ·· ثم ··

عهدوا اليه بأول عمل فى المكتب ·· جاء اليـه وكيل الأستاذ يحمل دوسيها ضخما وأبلغه أن الأستاذ يطلب منه أن يكتب مذكرة بالدفاع فى هذه القضية ··

وقضى أحمد ليلته ساهرا يراجع الدوسيه ··

ثم قضى يومين يعد مذكرة قانونية ، وضع فيهـا كل علمه ، واستند فيها الى كثير من المراجع ، وبذل فيها كل ذكائه ·· وعاد بالمذكرة الى الأستاذ ··

وقرأها الأستاذ ثم استدعاه اليه وقال وهو يبتسم له ابتسامة كبيرة ··

ـ أنا أهنيك يا أستاذ أحمد ·· المذكرة دى ماحدش يقدر يكتب زيها الا أنا ، والأستاذ نجيب الهلالى ·· أنا أهنيك من كل قلبى ·· ومن هنا ورايح انت اللى حاتكتب كل المذكرات فى القضايا المهمة بتاعتنا ·· والمذكرة دى حاشيلها علشان أقدمها فى الاستئناف ··

وقال أحمد فى بلاهة : بس دى القضية لسه فى ابتدائى ·

وقال الأستاذ وهو ينظر اليه كأنه يتهمه فى ذكائه

ـ وماله ·· ما هى حاتروح الاستئناف برضـه ·· أمال الاستئناف عملوه ليه ؟ ! ··

وفهم أحمد ..

فهم أن كل قضية يجب أن تحال الى الاستئناف .. حتى لو استطاع المحامى أن يكسبها فى الابتدائى .. حتى يستدر منها أتعابا أكثر .. وأكثر ..

وسكت .. وهنأ نفسه لأنه فهم شيئا ..

ولكنه لم يعد يتعب نفسه فى كتابة المذكرات .. ثم ..

عهدوا اليه لأول مرة أن يذهب الى المحكمة ليترافع فى قضية وحاول أن يعتذر .. انه لم يقف أبدا أمام محكمة .. ولا يحب الوقوف أمام محكمة .. انه سيرتبك .. ويتلعثم .. وقد يغمى عليه . .وحتى فى المرات القليلة التى أرسلوه الى المحكمة ليطلب التأجيل ، ويقول كلمتين اثنتين : « أنا حاضر عن الأستاذ بركات عبد الله ، وأطلب التأجيل للاستعداد » .. حتى فى هذه المرات كان يرتبك .. ويتلعثم .. ويقضى ليلته ساهرا يردد الكلمتين .. ويقف أمام المرآة ليعيد ترديدهما .. وينام فيحلم بترديدهما ..

ولكن زملاءه ألحوا عليه .. وشجعوه .. وذكروه بأنه يجب أن يترافع فى عدد من القضايا لا يقل عن خمسة وعشرين قضية اذا أراد أن يجتاز فترة التمرين .. وتشجع .. بدأ يلح على نفسه ، حتى لا يعود ويتهمها بالضعف والتردد .. وأمسك بدوسيه القضية ، وبدأ يتصفحه .. يا الله .. انها قضية رفعها تاجر دخان صغير ، على شركة دخان كبيرة ، يطالبها بأربعة جنيهات فرق حساب .. والقضية مؤجلة منذ سنتين !!

أربعة جنيهات ، تؤجل سنتين ؟ !

لا بد أن صاحبها قد مات من الجوع ..

وتحمس للتاجر الصغير ..

أحس انه لن يترافع عن شخص .. بل عن مبدأ .. عن ملايين الصغار الذين يأكل الكبار حقوقهم ..

ولأول مرة يجد شيئا هاما يقوم به ·· شيئا يقنعه بأنه يستطيع أن يكون ذا نفع ··

ودرس القضية ·· حفظها صم ·· وأعد دفاعه فيها ·· يا حضرات القضاة هذه ليست قضية عبد الصمد محمد عبد الصمد الدخاخنى ضد شركة الدخان الوطنية ·· ولكنها قضية ملايين الصغار ، ضد فئة الكبار الذين يمتصون الدم ، ويقطعون الرزق ·· و ·· و ··

وكتب دفاعه على الورق ·

وأعاد كتابته مرة ثانية ·· وحفظه ··

ثم وقف أمام المرآة يلقيه وهو يشوح بيديه ·· ثم قرر ألا يشوح بيديه · وألقاه مرة ثانية ·· أمام المرآة ·· وهو ينظر الى تعابير وجهه ، ويشكلها بحيث يجعلها أكثر تأثيرا ··

ولم ينم ليلتها ··

لم ينم أبدا ··

وذهب الى المحكمة فى اليوم التالى ·· محكمة الموسكى ·· وكان أول محام دخل قاعة المحكمة ·· وبصمات الأرق تحت عينيه ·· وأعصابه ترتعش من الرهبة ·· ولا يزال فى صدره كلمات دفاعه ··

وتأخر القاضى فى فتح الجلسة ··

وشرب أحمد فنجان قهوة ··

والساعة العاشرة والقاضى لم يفتح الجلسة ··

وخرج يسير فى فناء المحكمة المهدم ·· ويلقى عينيه فوق باعة الفول والطعمية والطرشى ·· كيف يمكن أن تعيش العدالة وسط هذه القاذورات ·· وكيف يستطيع القاضى أن يرفع الظلم ، ومنصته قائمة على عمد من الظلم ·· ظلم هؤلاء الناس العجاف الذين يفترشون الأرض وينشون الذباب من فوق قطع الطعمية ··

والساعة الحادية عشرة ..

و .. فتحت الجلسة فى الساعة الحادية عشرة ونصف .. ووجد أحمد نفسه وسط عالم من المحامين والمتقاضيّن يتزاحمون أمام القاضى . ورؤوسهم تمتد من فوق كتفه .. وأنفاس كريهة تخنقه . .والدفاع الذى أعده يكاد يتبخر من ذاكرته ..

لا بأس .. ليحتمل ..

انه هنا لينصف المظلوم .. وهذا الرجل الجالس أمامه هو العدالة .. فليحتمل ما دامت العدالة تحتمل ..

ولكن العدالة لا ترفع رأسها ، انها تنظر فى أوراق أمامها ، وتتمتم بكلمات مبهمة لا يسمعها أحد ، والقضايا تفر من أمامها .

ورقم قضية أحمد فى الرول « ٢٥ » ..

فلينتظر ساعة أخرى أو ساعتين الى أن يأتى دور النظر فى قضيته .. ولكن .. لم تنقض ربع ساعة ، حتى نادى الحاجب على القضية .. ولم يصدق أحمد أذنيه .. لا يمكن أن يكون القاضى قد انتهى من نظر أربع وعشرين قضية فى ربع ساعة .. ولكن الحاجب ينادى على القضية . .وتقدم أحمد الى المنصة ، وهو يحاول أن يتمالك كل أعصابه ، وشد قامته ، والتفت الى كاتب الجلسة ، وقال فى صوت يحاول أن يكون صافيا رنانا :

ـ أحمد زهدى المحامى ..حاضر عن الأستاذ بركات عبد الله .. و .. وفجأة ارتفع صوت لم ير أحمد صاحبه ، وصاح :

ـ نطلب التأجيل لتقديم المستندات ..

والتفت أحمد يبحث عن صاحب الصوت ، وما كاد يلتفت حتى سمع القاضى يقول :

ـ تأجيل .. جلسة ٢٥ اكتوبر ..

والتفت أحمد الى القاضى فى دهشة حادة ، وقال :

ـ سيادتك أمرت بالتأجيل ؟ .

وقال القاضى فى هدوء

ـ أيوه ·· غيره ·· نادى على القضية الثانية ··

وقال أحمد والقاضى غير ملتفت اليه :

ـ بس أنا المدعى ·· وأنا لسه ما اتكلمتش ··

ولم يرد عليه القاضى ، وبدأ يفتح دوسيه القضية الجديدة ··
وعاد أحمد يلح :

ـ سيادتك لازم تسمعنى ·· **أنا المدعى** ··

ونظر القاضى الى أحمد فى اشمئزاز وقرف ، وقال .

ـ خلاص يا أستاذ ·· المحكمة قررت التأجيل

وقال أحمد وقد بدأ يرتعش ويفقد أعصابه

ـ يا أفندم دى قضية قيمتها أربعة جنيهات ، وبقى لها سنتين فى المحكمة ·· مش ممكن تتأجل أكتر من كده ··

وقال القاضى : يا أستاذ أنا قدامىماية خمسة وخمسين قضية ·· اعمل معروف خلينا نعرف نشتغل ··

وصاح أحمد : ما هو ده شغل ·· القضية لازم تنظر فى الجلسة دى ·· التأجيل يبقى ظلم ··

ونظر اليه القاضى فى امعان ، وقال ساخرا :

ـ حضرتك متخرج بقالك قد ايه ؟ ·

وقال أحمد بلا وعى : سنتين ··

وقال القاضى وهو أشد سخرية : طيب اتفضل اقعد ··

وبدأ بقية المحامين يشدون أحمد من أطراف سترته ليجلس ·· خلاص يا أستاذ ، اقعد بأه يا أستاذ ، دى مش أصول يا أستاذ ·

وصرخ أحمد :

ـ اذا كنت سيادتك فاكرنى صغير لأنى متخرج بقالى سنتين ، فانا كبير لأنى باطالب بحق ·· باطالب بعدل ·· القضية دى مش

ممكن تتأجل • •ومش ممكن تتأجل قبل المحكمة ماتسمع أقوالى ••
القانون بيقول كده •• مواد قانون المرافعات بتقول ان ••

وقاطعه القاضى وهو يضرب بيده على المنصة وقد ازدرد وجهه :

ـ يا أستاذ اقعد •• يا أقول لك اقعد •• أنا أقدر أحبسك لأنك تعديت على المحكمة •• انما عذرك انك لسه بتتمرن •• اتفضل يا أستاذ خلينا نشتغل ••

وأحمد منفعل •• كله يرتعش •• والدماء محتقنة فى وجهه وفى رأسه •• وحاول أن يتكلم •• ولكنه أحس بعشرات الأيدى تشده من أمام المنصة •• ووجد نفسه يتراجع الى الوراء وأصبح أمامه عشرات المحامين واقفين أمام القاضى ، يؤدون مهمتهم ، فى بساطة •• كأن شيئا لم يحدث ••

وخرج أحمد وهو يكاد يجرى •• وركب سيارته وقادها بأقصى سرعتها ، الى مكتب المحامى •• سيروى للأستاذ بركات ما حدث •• وسيجعله يتصل بوزير العدل •• ونقيب المحامين •• لا ليشكو القاضى فحسب ، بل ليعقد جلسة خاصة تنظر فيها قضية هذا الرجل المظلوم الذى يطالب الشركة الكبرى بأربعة جنيهات ولا يستطيع أن يحصل عليها ، منذ سنتين ، واندفع الى داخل المكتب ، كالعاصفة •• ولكن الأستاذ لم يكن قد عاد من المحكمة بعد • لم يكن فى المكتب الا أحد المحامين •• محام قضى فترة التمرين منذ سنوات ، واشتغل فى المكتب •• ورأى حالة أحمد ، فاقترب منه قائلا : مالك يا أستاذ أحمد •• ؟ !

وروى له أحمد القصة والدموع ـ من غيظه ـ تكاد تطفر من عينيه •• وقال زميله فى بساطة : وزعلان ليه ؟ •

وقال أحمد : أنا مش زعلان •• أنا ثائر •• ثائر على الظلم •• دى مش عدالة •• ده ظلم رسمى ••

وقال الزميل فى هدوء :

ـ لو كان صاحب القضية مظلوم ‥ القاضى مظلوم أكتر ‥ ده راجل حاطين قدامه ماية وخمسين قضية علشان ينظر فيهم فى جلسة واحدة ‥ حينظر فى ايه والا فى ايه ‥ لو أجل ماية وحكم فى خمسين ، يبقى كتر خيره ‥ ولو ظلم من الخمسين دول نصهم، وعدل فى النص التانى ، يبقى كتر خيره برضه ‥

واستمع أحمد الى زميله ، وبدأت المعركة المحتدمة فى صدره تتخذ اتجاها آخر ‥ ان زميله على حق ‥ ان القاضى معذور از ظلم ‥ القاضى مظلوم ، والمتقاضون مظلومون ‥ وهو ‥ المحامى ‥ اما أن يساير الظلم ، ويستسلم له ‥ أو يجد طريقا آخر لتحقيق العدالة ‥ وهو لا يستطيع أن يكون محاميا ‥

وجاء بقية الزملاء الى المكتب ، وسمعوا بقصة أحمد ، فأخذوا يتندرون بها ، ويضحكون عليها ‥ لم يحاول أحد منهم أن يبحث ما جرى أو يناقشه مناقشة جدية ‥ كان أحمد فى نظرهم لا يزال جديدا على المحاماة ‥ لا يزال متعلقا بالمثل العليا التى تملأ رؤوس الشباب خلال سنوات دراستهم فى الجامعة ، ثم تحطمها الحياة يوما بعد يوم عندما يواجهونها عقب تخرجهم ‥ كلهم كانوا مثل أحمد عندما بدأوا الاشتغال بالمحاماة ‥ كلهم كانوا يحلقون بأفكارهم وضمائرهم فى السماء ، ثم هبطوا مع الأيام الى الأرض ‥ وهم يعلمون ذلك لذلك فهم لا يستطيعون أن يعتبروا ما جرى لأحمد فى المحكمة ، مشكلة ‥ أو هى مشكلة تحل نفسها بنفسها مع الأيام ‥ ويوما ما سيصبح أحمد مثلهم ‥ يخضع للحياة بكل ما فيها من ظلم ‥ بل ويتكسب من الظلم ‥

وسمع الأستاذ بركات بما جرى قبل أن يبلغه له أحمد ، فاستدعاه إلى مكتبه ، وقال له فى لهجة حازمة غاضبة :

ـ أنا سمعت باللى حصل النهاردة فى المحكمة ‥ واحب أنبهك الى انك بتروح المحاكم باسمى ‥ وانا أحب ان علاقاتى

تكون كويسة مع القضاة ٠٠ ولما تتخانق مع القاضى ، القاضى مش حايزعل منك انت ، انمـــا حايزعل منى أنا ٠٠ وقاضى الموسكى حايقول لقاضى الأزبكية ، وقاضى الأزبكية يقول لقاضى الاستئناف ٠٠ ونادى القضاة كله يبتدى يتكلم عنى ٠٠ وبعد كده ما اقدرش أقف قدام محكمة ٠٠ ما اقدرش أكسب قضية ٠٠ سـمعتى تضيع ٠٠ ورغم كده أنا حاسامحك الدور ده ٠٠ لأنك لسه جديد فى المهنة ٠٠ مع انى مضطر دلوقتى انى أتصل بالقاضى واعتذر له ٠٠

وأحمد يستمع وهو ساهم ٠٠

وخرج من مكتب الأستاذ وهو لا يزال ساهما ٠٠

ورغم ذلك لم يعتزل المحاماة ٠٠ ولم يستقل من مكتب الأستاذ بركات ٠٠ كانت المحاماة تعطيه مظهر العمل ٠٠ وهو محتاج الى هذا المظهر ليبدو به أمام شهيرة ، وأمام عائلته ٠٠ ولكنه قرر بينه وبين نفسه أنه لا يصلح محاميا ٠٠ ولا يريد أن يكون محاميا ٠٠ وأصبح لا يحرص كثيرا على مواعيد المكتب ٠٠ ولا يتحمس لكتابة مذكرة ، أو الذهاب الى محكمة ٠٠ وباعد بينه وبين الأستاذ بركات ٠٠ وبينه وبين زملائه ٠٠ ولم يكن الأستاذ بركات يهمه كثيرا أن يسأل عنه ، فهو لا يدفع له أجرا حتى يحرص على أن يأخذ منـه بقدر ما يعطيه ، ثم ان وجود محام فى المكتب ، حتى لو لم يفعل شيئا ، يعطى المكتب مظهر الزحام ٠٠ ومن يدرى ، لعل أحمد يعثر يوما على قضية يأتى بها الى المكتب ، خصوصـا وأنه من عائلة كبيرة ، وله أصدقاء من النـاس الأثرياء ٠٠ لذلك سكت الأستاذ بركات على اهمال أحمد ٠٠ كما سكت عنه زملاؤه ٠٠ انه سواء عمل أو لم يعمل ، فهو انسان لطيف ، يملك سيارة ، ويوزع عليهم كل يوم علبة سجائر ٠٠ ثم ان اهماله وتكاسله يطمئنهم الى أنه لن يكون منافسا لهم ٠٠ الى أن كان يوم ٠٠

وذهب أحمد الى المكتب فى الساعة الخامسة والنصف مساء ·· كان فى السينما ، وخرج من السينما ولم يجد مكانا يذهب اليه ، فذهب الى المكتب ··

ولم يكن أحد من زملائه أو من الكتبة قد حضر بعد ، فمواعيد العمل تبدأ من الساعة السادسة ·· ودخل الى غرفته التى يشاركه فيها أربعة من المحامين الجدد ، فوجد سيدة جالسة ·· سيدة تبدو فى الخامسة والأربعين ·· بيضاء ·· بياضها كالح ·· وشعرها مصبوغ بالحناء ·· ولعلها على جانب من الثراء ، ففى معصمها سوار ذهبى عريض ·· الذهب فيه فاقع اللون ، حتى ليبدو كأنه ذهب قشرة ·· وفى أصبعها خاتم به فص أحمر حوله فصوص صغيرة من الماس ··

وحياها أحمد بهزة من رأسه ، وجلس الى مكتبه صامتا ، وبدأ يتشاغل بقراءة بعض الدوسيهات التى وجدها ملقاة أمامه ·· فهو لم يتعود أن يتصل بزبائن المكتب أو يحادثهم ، بل انه فهم منذ الأيام الأولى أن الاتصال بزبائن المكتب محرم على الأساتذة المحامين الا بأمر الأستاذ الأكبر ·· بركات عبد الله ··

وظلت السيدة تنظر اليه فترة منتظرة أن يرفع اليها رأسه ·· وهو يحس بنظراتها موجهة اليه ، ولكنه لا يرفع رأسه ·

وقالت السيدة كأنها ضاقت بصمته حضرتك محامى ··

ورفع أحمد رأسه وقال فى اختصار : أيوه ··

قالت : يعنى محامى هنا فى المكتب ده ؟ ··

وقال أحمد وهو يعود وينظر فى الدوسيه : أيوه ··

وقالت السيدة وهى تمد ساقيها أمامها وتضع يديها فوق حقيبتها كأنها تتأهب لحديث طويل :

ـ انا جاية أقابل الأستاذ بركات أصله محامى العيلة من زمان·

وقال أحمد فى برود : زمانه جاى يا أفندم ··

وعادت السيدة تقول

ـ ده أنا عايزاه فى قضية مهمة قوى ·· حاخليه يرفع قضية على أخويا الباشا ·· خلاص ·· ما اقدرش أستنى أكتر من كده بأه الحكاية يا سيدى ان عندى خمسين فدان فى الشرقية ·· كان لازم يبقوا ميه ·· انمـا معلهش ربنا يجازى أولاد الحرام اللى قسموا تركة أبويا ·· وأخويا الباشا حاطط ايده على الخمسين فدان دول من يوم ما مات بابا ·· مأجرهم منى ·· تفتكر بيدينى كام على الفدان ؟ ··

وسكت أحمد · ·لم يرد ··

وعادت السيدة تقول كأنها تنهره على صمته :

ـ ما ترد يا أستاذ ·· خليك معايا ، تفتكر مأجر الفدان بكام ؟

وقال أحمد دون أن يحسب الرقم فى رأسه : عشرين جنيه ··

قالت : يا ريت يا اخويا ·· كنت بوست ايديه ورجليه ·· انزل لتحت يا أستاذ ··

وقال أحمد : تمنتاشر ··

وقالت السيدة وقد بدأ صوتها يعلو وينطلق :

ـ يا ريت ·· لا تمنتاشر ، ولا خمستاشر ، ولا حتى عشرة ·· ستة جنيه مافيش غيرهم ·· ستة جنيه ايجار الفدان فى الشرقية ، بادفع منهم عوايد اتنين جنيه على الفدان ··

وانتبه أحمد وقال : طيب ما تأجرى لحد تانى ··

وقالت : يا ريت يا اخويا ·· مش راضى يسلمنى الأرض ، ولا يزودنى مليم واحد ·· ياما اتحايلت عليه ·· مابقاش قدامى الا انى ارفع قضية ·· قضية مكسوبة ميه فى المية ··

وقال احمد ساخرا :

ـ بس حاتكسبيها بعد اد ايه ·· دى قضية تاخد وقت ··

وقالت : لا ·· ده أنا مستعجلة قوى ·· لازم الأستاذ يرفعها لى بالمستعجل ··

وقال أحمد وهو ينظر اليها مشفقا :

ـ لو كنتى مستعجلة قوى يبقى قدامك عشر سنين على الأقل ·

وخبطت السيدة على صدرها ، وصاحت ·

ـ يا خبر ·· عشر سنين ازاى ··

وقال أحمد فى حماس :

ـ شوفى يا ستى ·· قدامك شهرين تأجيل للاستعدادات ·· وبعدين ست أشهر تأجيل لتقديم مستندات ·· وست أشهر تانيين لتعيين خبير ·· وسنة تأجيل لغاية ما يقدم الخبير تقرير ·· وسنة تانية لمناقشة تقرير الخبير ·· وبعدين الطعن فى التقرير ·· وتفضلى من تأجيل لتأجيل ·· خمس سنين ·· عشر سنين ·· انتى وبختك ·· وطبعا أخوكى فى المدة دى يمكن مايدفعش لك الايجار لغاية ما يتحكم فى القضية ··

وانطلق الذعر من عينى السيدة ، وصرخت :

ـ ده مستحيل ·· ده أنا أموت من الجوع ·· ده أنا حاجوز بنتى بعد شهرين ومحتاجة للفلوس ، أعمل ايه يا أستاذ ، دبرنى ·

وقال أحمد وهو يمد عنقه نحوها كأنه يحاول التأثير عليها :

ـ ما ترفعيش قضية · اتفقى مع أخوكى بأى شكل ·· حتى لو تنازلتى شوية ، وهو اتنازل شوية ··

وفكرت السيدة قليلا ، وقالت كأن حماسها تبخر منها :

ـ بس ده مش راضى يتفق أبدا ··

وقال أحمد وحماسه يتزايد :

ـ مش ممكن ·· لازم فيه طريقة لاقناعه ·· وأنا مستعد أقوم معاكى دلوقت ، وأكلمه ، وأجيب لك منه حقك ··

وقالت السيدة فى فرح :

ـ صحيح والنبى ·· طيب ياللا بينا ·· انت باين عليك ابن حلال ·

وقام أحمد واقفا كأنه ينقض للثورة ··

ولكن السيدة ظلت جالسة ، وهى تفكر ، واليأس يملأ وجهها ، وتمتمت : بس يا خسارة ··

وقال أحمد كأنه يخاف أن يضيع أمله : خسارة ايه ·· ؟

وقالت السيدة : أصلك ماتعرفش الحكاية ·· المهم مش أخويا المهم مراته ·· ومراته تكرهنى عمى ·· بتغير منى ·· و ··

وقاطعها أحمد وهو يقترب منها :

ـ برضه نحاول مش حانخسر حاجة ، هو أخو حضرتك اسمه ايه ؟ ··

قالت : اسمه محمد باشا سرور ··

وقال أحمد كأنه يطمئنها : ده صاحب خالى قوى ·· ومش ممكن حايكسفنى ·· قومى بينا ··

وخرج مع السيدة من المكتب ·· وصحبها معه فى سيارته ·· وهو يحس احساسا عارما بأنه ينتقم لنفسه ·· ينتقم من الاهانة التى لحقته فى المحكمة ·· ينتقم من القضاء كله ·· ومن المحاماة ·· انه يأخذ من بين أنيابهم ضحيــة جديدة ·· ولم يكن يشــعر بالتردد ، ولا بالخوف ، كان مندفعا فى حماسه ، وفى ايمانه ، وفى احساسه بأنه يقوم بعمل عظيم ·· عمل يحطم به الظلم ··

ووصل الى قصر محمد باشا سرور ، فى الزمالك ·· وما كاد يسير فى أبهائه الفخمة الرطبة الخافتة الضوء ، حتى شعر بحماسه يهرب منه ·· كأنه عطر يتبخر ·· وبدأ يشــعر بالتردد ·· وشىء كالخوف ·· وعرق يتصبب من تحت قميصه ··

وجلس فى غرفة الصــالون المذهبة بجانب الســيدة · وهى

لا تكف عن الكلام ·· تروى له تفاصيل حياتها منذ ولدت ·· وهو مشغول عن سماعها بالتأهب لمقابلة الباشا ··

وجاء الباشا ·· رجل فوق الستين يرتدى جلبابا فوقه روب دى شامبر ، وعلى رأسه طاقية ·· رجل لا يتلاءم شكله مع الفخامة التى تملأ القصر ··

وانحنى أحمد وهو يصافحه ··

ثم اتجه الباشا الى أخته قائلا :

ـ ازيك يا جلسن يا اختى ·· وازاى البنات ··

ثم قبلها فوق رأسها ·· وقبلته فوق خده ··

ونظر اليها أحمد فى تعجب ·· وقالت جلسن وهى تجلس :

ـ أنا جبت لك محامى يا أخويا علشان يتفاهم معاك ·· أصلى خلاص غلبت ·· و ··

وقال أحمد يقاطعها وهو يفرك احدى يديه بالأخرى :

ـ والله أنا مش جاى كمحام ·· أنا أصلى قابلت الهانم فى المكتب ·· كانت جاية ترفع قضية ·· ولقيت ان الموضوع مايستاهلش قضية ·· وقلت لها ان كل حاجة ممكن يحلها الباشا ·· وخصوصا انى أسمع عن سيادتك من خالى عزت بيه راجى ·· دايما يتكلم عنك بالخير ··

وجذب أحمد نفسا عميقا من صدره كأنه يستريح ··

وقال الباشا وقد تهلل وجهه :

ـ انت ابن الله يرحمه عبد العزيز بيه زهدى ·· أهلا وسهلا ·· ده أبوك كان راجل عظيم ·· وانت باين عليك حتبقى عظيم زيه ·· من شابه أباه فما ظلم ··

ثم التفت الى أخته وقال فى عتاب رقيق :

ـ برضه كده يا جلسن ·· عايزة ترفعى على قضية ··

ثم عاد يلتفت الى أحمد قائلا :

ـ الموضوع طبعا موضوع الايجار ·· شوف يا سيدى ·· بأه أختى · ·تمتلك خمسين فدان ، منهم اتنين وتلاتين فدان رمل مابتدفعش عليهم ضريبة أصلا ·· وتمنتاشر فدان كويسين بتدفع عليهم ضريبة اتنين جنيه للفدان ·· احسب الحسبة تلاقى ان ايجار الفدان فى المجموع مايحصلش خمسة جنيه ، وأنا باديها ستة ·· أبقى غلطان ··

وصاحت جلسن هانم : يا اخويا ده الفدان اللى جنبى لزق بيتأجر بعشرين وبتلاتين ··

وقال أحمد : طيب نحسبها بالورقة والقلم ·· علشان الهانم تقتنع · ·والمسألة بسيطة ، ما دام الايجار يساوى سبعة أمثال الضريبة ··

وأخرج أحمدمفكرته من جيبه ، وأخذ يحسب ·· ويناقش ·· والباشا هادىء ·· وأخته تثور حينا ، وتهدأ حينا ·· ومضت ساعة ·· وساعتان ·· وأحس أحمد بالتعب ·· رأسه لم يعد يحتمل مزيدا من الكلام والنقاش ·· ولكنه لا يزال مستمرا ·· ويبذل مجهودا كبيرا ليحتفظ بأدبه وهدوئه أمام الباشا ·· وأخيرا استطاع أن يصل مع الباشا الى اتفاق أن يرفع الايجار الى سبعة جنيهات للفدان ، فى مجموع الخمسين فدانا ، واقتنعت جلسن هانم ·

وقام أحمد لينصرف ·· واقترب منه الباشا وقال فى صوت خفيض : الاتعاب كام بأه يا أستاذ أحمد ؟ ··

وقال أحمد مبتسما :

ـ لا مافيش أتعاب ·· أنا لسه تحت التمرين ! ··

وابتسم الباشا ولم يلح ·· وخرج أحمد وهو فرح ··

أحس لأول مرة أنه يستطيع أن يكون انسانا ناجحا ··

وعاد الى بيته يروى القصة لأمه ، وأخواته ·· ثم أمسك

بالتليفون ورواها مرة أخرى لشهيرة ·· كان يرويهـا وهو يكتم زهوه وفرحته ، كأنه يروى قصة عادية تصادفه فى عمله كل يوم · وذهب الى مكتب المحاماة فى اليوم التالى ··

ذهب يملؤه الحماس ، وعينـاه تشعان بذكائه ، كأنه يتربص لفريسة أخرى ينتشلها من بين أنياب القضاء ·

وما كاد يخطو داخل المكتب ، حتى همس الباشكاتب فى أذنه ، وهو ينظر اليه نظرات غريبة :

ـ الأستاذ بيسأل عنك من الصبح يا أحمد بيه ··

ومر بين زملائه وهو فى طريقه الى مكتب الأستاذ ·· ولاحظ أنهم يحيونه فى تردد وفتور وينظرون اليه نفس النظرات الغريبة التى أطلقها عليه الباشكاتب ··

ولم يهتم ·· كذب نفسه ··

ودخل الى الأستاذ وابتسامة كبيرة مفتعلة تملأ شـفتيه ·· وما كاد الأستاذ يراه ، حتى نظر اليه نظرات ساخطة ، كأنه يصفعه بعينيه ، ثم قال :

ـ غريبة ·· ولا كأنك عملت حاجة ·· يا سلام على البراءة ··

ودهش أحمد وقال وهو يبتلع ابتسامته :

ـ قصد حضرتك ايه ·· مش فاهم ·· !

وارتفع صوت الأستاذ محتدا :

ـ طبعا مش فاهم ·· ومش ممكن تفهم لأنك فاكر انى بريالة ·· انى حمار ·· انى مغفل ·· انى فاتح المكتب علشان ييجى واحد زى حضرتك يسرق الزباين ، ويروح يتقاول معاهم من بره بره ··

وقال أحمد والدماء تتدافع الى وجهه : أنا ماسرقتش حاجة ·· و ··

وقاطعه الأستاذ صارخا :

ـ لا يا شيخ ·· أمال خدت جلسن هانم تعمـل بيها ايه ··

تتفسح معاها ٠٠ ناوى تتجوزها وتلطش القرشين اللى معاها ٠٠ فهمنى ٠٠ أنا أصلى عمرى ماتغشيت فى حد الا فى حضرتك يا ابن العيلة ٠٠ !

وصاح أحمد وهو يرتعش من الانفعال :

ـ أنا ماأسـمحش لحد يكلمنى كده ٠٠ لا انت ولا غيرك ٠٠ فاهم ٠٠ !

وتراجع الأستاذ فى مقعده كأنه خاف أن يعتدى عليه أحمد ثم قال : خش فى عينى خش ٠٠ طيب يا سيدى ٠٠ أنا آسف ٠٠ أنا الحق على ٠٠ الحق على اللى أشغل واحد وجيه من عيلة ٠٠ بس أرجوك ٠٠ من فضلك ٠٠ قول لى عملت بالسـت ايه ٠٠ علمنى يا حبيبى ٠٠ أنا صحيح بقالى عشرين سنة محامى ٠٠ انما أروح فين جنبك ٠٠ !

وضبط أعصابه ، وقال :

ـ جلسن هانم جت المكتب امبارح علشان ترفع قضـية على أخوها ٠٠ وحكت لى حكايتها من غير ما اطلب منها انها تحكيها ٠٠ ولقيت ان الموضوع يمكن يتحل من غير قضية ٠٠ يعنى بالتفاهم مع أخوها الباشا ، وفعلا ، رحت معاها لاخوها وصفينا الموضوع ٠

ونظر اليه الأستاذ فى دهشة وقال فى تعجب : انت بتتكلم جد ؟

وقال أحمد وهو ينظر اليه فى تحد واحتقار : ده اللى حصل ٠

وصرخ : عال ٠٠ يبقى حضرتك بقى تتفضـل تدفع مصاريف المكتب ٠٠ وتيجى تصرف على بيتى وولادى ٠٠ وبلاش قضايا ولا محـاكم ولا وجع قلب ٠٠ ونروح أنا وحضرتك نقعـد فى جـامع الحسين نصالح الناس مع بعض ٠٠ مش كده والا ايه ٠٠ !

وقال أحمد فى ثبات : أنا عملت اللى يرضى ضميرى ٠٠

قال الأستاذ : ضميرك ٠٠ طبعا ٠٠ ما انت عندك عزبة وعمارة ٠٠ مايبقاش عندك ضمير ليه ٠٠ مستغنى ٠٠

ثم هدأ صوته واستطرد : أرجوك يا أستاذ أحمد ·· أنا مش هاتخذ ضدك أى اجراء ·· وأكتر من كده أنا مش حازعل منك ·· بس أرجوك ·· ماتشرفش مكتبنا تانى ·· احنا ناس غلابة ماعندناش ضمير ·· اتفضل ·· من غير مطرود ··

وظل أحمد واقفا يحلق فى الأستاذ ، ويرتعد ·· ثم قال وصوته يرتطم بخفتيه : أنا كان لازم أضربك دلوقتى ·· على الكلام اللى قلته ·· انما انت أكبر منى ·· وأنا قعدت فى مكتبك مدة ·· و ··

وضغط الأستاذ على الأجراس بجانبه فى حدة فدخل الوكيل والكاتب وأحد المحامين ··

وأحمد لا يزال واقفا يرتعد من الحنق وقال الأستاذ ساخرا :

ـ اتفضل يا أحمد بيه ·· آنست ··

وخرج أحمد دون أن يصافح أحدا ··

وسار فى خطوات غاضبة ·· والدماء تتدافع الى رأسه ·· وما كاد يصل الى الباب الخارجى ، حتى رأى جلسن هانم داخلة·

ووقف مشدوها ·· وتمتم كأنه فى غيبوبة : جلسن هانم !!

وقالت جلسن هانم وهى تشيح عنه بوجهها :

ـ من فضلك ·· أنا عايزة أقابل الأستاذ بركات ··

وأسرع وكيل المكتب لاستقبالها والترحيب بها ··

ونزل أحمد السلم ، وهو يكاد ينكفىء على وجهه ··

وهكذا انتهت تجربة شهرين فى المحاماة ·· انتهت أمس ··

ومنذ أمس ، وهو يهرب ·· يهرب من الناس ·· ويهرب من شهيرة ·· ويهرب من عائلته ·· ويهرب من فشله ··

ونظر فى ساعته ·· انها الرابعة ··

وهو على موعد مع شهيرة فى الرابعة والنصف ·· وسيذهب ·· يجب أن يذهب اليها ·· ويجب أن يعلنها بفشله الجديد ·· انها تعرف أنه فشل كموظف ·· وفشل كمندوب تأمين ·· وفشل

ككاتب .. وفشل كأخ .. وكابن .. وهو الآن يقدم لها فشلا جديدا .. فشله كمحام .. لعلها تقتنع أنه يستطيع أن يكون أيضا حبيبا فاشلا .. وزوجا فاشلا .. لأنه انسان فاشل ..

وهز كتفيه بلا مبالاة ..

وقام يرتدى سترته ، وينظر الى وجهه فى المرآة ، وأطال النظر الى وجهه ، ثم أخرج لسانه للوجه الذى يراه أمامه ، كأنه يغيظه ويعانده .

٢٢

كانت الساعة الحادية عشرة مساء .. والبيت هادىء .. الهدوء الذى يسبق النوم .. وأحمد جالس فى غرفته ، وبين يديه جريدة الصباح ، يستعيد ـ للمرة الثالثة ـ قراءة خطاب جمال عبد الناصر .. لقد أعلن الرئيس فى خطابه أن مصر قررت استيراد السلاح من روسيا .. وأحمد يستطيع أن يقدر خطورة هذه الخطوة .. انها تحد لبريطانيا ، وللغرب كله .. انه انقلاب فى وضع مصر الذى استمر قائما قرنين من الزمان .. وهو يستطيع أن يقدر ما يمكن أن يحدث بعد ذلك .. ان دول الغرب لن تسكت .. حوادث هامة خطيرة ستقع بلا شك .. ان المستقبل عنيف زاخر بالأحداث .. ومصر تتحرك بسرعة ومجازفة .. ورغم ذلك فهو جالس فى مكانه لا يتحرك .. لا يستطيع أن يفعل شيئا .. ولا يستطيع أن يجازف بشىء .. لا يزال يبحث عن نفسه ..

واستطرد يقرأ خطاب الرئيس كأنه يبحث فيه عن نفسه .. عن سطر يتسلل منه الى معرفة مكانه من كل هذه الأحداث ..

وكلما استمر فى القراءة ، شعر أكثر بتفاهة شأنه ٠٠ وسرت فى عروقه قشعريرة ٠٠ فيها نشوة وفيها خوف ، وفيها حيرة ٠٠ كأنه يشاهد الموكب الضخم الذى يهز الأرض بين دق الطبول الكبيرة ٠٠ ولا يستطيع أن يشترك فيه ٠٠

ثم فجأة ألقى الجريدة من يده ، وقفز الى فراشه ، وأطفأ النور ، وبدأ يحاول النوم ، ولم يكن يحاول النوم ٠٠ كان يحاول الهروب ٠

وفيفى ونبيلة فى حجرتهما ٠٠ كل منهما فى فراشها ٠٠ وكل مهنما مستغرقة فى استعراض حياتها ، ورسم مستقبلها ٠٠

والأم فى حجرتها ٠٠ واقفة أمام دولابها ، تعيد ترتيب محتوياته ٠٠ وهى تعلم لماذا هى واقفة أمام الدولاب ، ولماذا تفتعل اعادة ترتيبه ٠٠ انها تبحث عن شىء ٠٠ وبعد لحظات ستصل يدها الى هذا الشىء ٠٠ كل ما هنالك أنها تريد أن تقنع نفسها بأنها التقطت هذا الشىء صدفة ، وبلا تعمد ٠٠

ووصلت يدها الى ما تريده ٠٠

الى صندوق الخطابات التى أرسلها لها عبد السلام ٠٠ الخطابات التى كانا يتبادلانها من ثمانية وثلاثين عاما ٠٠ عندما كانت فى السابعة عشرة ٠٠

وجذبت الصندوق من تحت أكوام الثياب ٠٠ وحملته بين يديها فى رفق كأنها تحمل وليدها ، وجلست فوق فراشها ٠٠ ووجهها صامت ٠٠ لا تبتسم ٠٠ ولكن شفتيها منفرجتان بلا ابتسام ، كأنها تتنهد ٠٠

وفتحت الصندوق فى رفق ٠٠ وأخذت تنظر الى حزمة الخطابات بعينين حزينتين ٠٠ وعقلها سارح فى عبد السلام ٠٠ لا عبد السلام الذى كانت تحبه وهى صغيرة ٠٠ ولكن عبد السلام العجوز الذى لا تزال تحبه حتى اليوم ٠٠ لقد تغير عبد السلام منذ مدة ٠٠ لم

يعد يأتى لزيارتها مع أخيها كما تعود ·· ليقضيا فترة من المساء ·· وقد كانت حازمة معهما عندما بدآ يحييان السهرة بشرب كؤوس الويسكى ·· منعتهما من شرب الويسكى فى بيتها ، حرصا على المظهر العائلى أمام بناتها ·· وخصوصا بعد أن بدأ أحمد يعود الى البيت مبكرا ·· ولم يغضبا ·· لا عبد السلام غضب ، ولا أخوها ·· بل اعتقدت أنهما قدرا فيها هذا الحزم ·· وأصبحا بعد ذلك يترددان على البيت ، دون أن يطلبا تناول كؤوس الويسكى

وظل عبد السلام يلح عليها فى الزواج ، وبدأ أخوها يلمح لها الى موافقته على هذا الزواج ·· وكانت ترفض دائما ·· ترفض وهى تبتهل اليه أن يستمر فى الحاحه ·· انها فى حاجة الى هذا الالحاح ·· انه الحاح يشعرها بأنه لا يزال فى حياتها شىء لها وليس لأولادها · ·يشعرها بأنها لا تزال امرأة ·· وليست مجرد أم ·· يشعرها بأنها لا تزال تحيا ، وأن الدنيا لم تلق بها جانبا ·· ان عبد السلام لا يدرى كم هى فى حاجة اليه ·· انه يغضب عندما تصده ، تريده ·· تريده لتصده ·· تريده ليشعرها بحقها فى الحب ، ثم يتركها تتنازل عن هذا الحق ·· تريد كلماته ·· لمساته ·· ضغطة من يده وهو يصافحها ·· انها القطرات التى ترطب حياتها الجافة الذابلة ·· انها النبض الذى يدفع الدماء الى أطرافها ··

ولكن عبد السلام لم يعد يأتى الى البيت ·· وزيارات أخيها لها أصبحت متباعدة ·· لا تدرى لماذا ؟ ·

وقد حادثت عبد السلام فى التليفون لتسأل عن صحته ·· وتسأله لماذا غاب عنها ·· ولم يقل لها أكثر من انه مشغول ·· أو انها الظروف ·· أو ان شاء الله ·· ورنة يأس فى صوته ·· يأس أكبر مما كانت تحسه فى صوته أحيانا ··

وحادثته فى التليفون أكثر من مرة ·· ودائما نفس الأسباب

التى يبديها اعتذارا عن عدم زيارتها ·· واليأس فى صوته ·· انه لم يعد يلح عليها فى الزواج ·· ولا يلمح اليـه ·· بل انه يبذل مجهودا كبيرا حتى لا تنطلق من بين شفتيه كلمة تشعرها بحبه ·· وهى لا تصدق أسبابه ولا تعرف سر يأسه ·· وقلبها يتعذب ·· ويضمر ·· كأنه يموت ·· وكأن دنياها الخاصة تموت معها ·· الدنيا التى لا يدخلها أولادها ·· وهى تقاوم هذا الموت ·· تحاول ان تسترد حقها فى حياة لا تطلب فيها الا كلمة حب برىء ، وحبيبا يلح عليها فى الزواج ، وترفضه ··

وعرفت مرة أن عبد السلام سيقضى سهرة المساء عند أخيها ·· فذهبت ·· وتظاهرت أنها ذهبت صدفة ·· وجلست معه ·· عيناها بين عينيه ·· ولكنه يائس ·· منتهى اليأس ·· ويأسه فيه رنة سخط ·· وقضيا المساء فى حديث عائلى ممل ، الى أن قال لهـا عبد السلام : هو أحمد ما بيفكرش فى الجواز ؟

ورفعت عينيها اليه ، وقالت :

ـ هو حد مابيفكرش فى الجواز ·· يا عبد السلام ··

وقال عبد السلام كأنه لا يريد أن ينساق الى المعنى الذى فهمه منها : حقك تجوزيه بأه ·· قبل ما يكبر ، وتروح عليه ·· ويبقى زى حالاتى !

وقال أخوها كأنه يقطع مناجاة عاشقين :

ـ مش بس لما يلاقى له شغلة الأول ··

وقالت الأم فى حماس كأنها تدافع عن نفسها :

ـ ما هو بيشتغل محامى يا أخويا ، عايزه يعمل ايه أكتر من كده ! ··

وانتقل الحديث الى المواضيع العائلية مرة أخرى ·· وانصرفت عنايات هانم ، وهى تسائل نفسها : لماذا يريد عبد السلام أن يزوج ابنها أحمد ·· لعله يريد أن يتخلص منه ·· هل حدث بينهما شىء

لا تدريه ٠٠ هل بلغ أحمد شىء عن رغبة عبد السلام فى الزواج بها ٠٠ ؟

ولكن أحمد لم يقل لها شيئا ٠٠ ولا أخوها ولا عبد السلام ٠٠ ورغم ذلك فهى تحس بأن أحمد له يد فى التحول الذى طرأ على سلوك عبد السلام حيالها ٠٠ وربما كان أحمد هو سبب يأسه ٠ ٠وعادت بذاكرتها الى اليوم الذى اختلى فيه أخوها بأحمد ٠٠ فيم حادثه ؟ ٠٠ لقد قال لها أخوها انه كان يحادثه فى ايجاد عمل له ٠٠ ولكن أحمد غضب يومها غضبا كبيرا ، الى حد أن خرج ٠٠ مندفعا وكاد يوقعها فى طريقه ٠٠ الى حد أن خافت أن يخرج ولا يعود ٠٠ وهو غضب لا يثيره مجرد التحدث فى البحث عن عمل له ٠٠ هل كان أخوها يحدثه عن رغبة عبد السلام فى الزواج بها ٠٠ انها لا تدرى ٠٠ لا تدرى ٠٠

لا تدرى الا أن قلبها يضمر ، وحياتها الخاصة تضيق وتختنق وحقها فى نفسها يذوب ٠٠

ومدت أصابعها والتقطت خطابا من الصندوق ، وفضته وأخذت تقرأ فيه ٠٠ ووجهها تائه فى أحلامها ٠٠

وقرأت خطابا ثانيا ٠٠ والدموع تلمع فى عينيها ، ولا تسقط على وجنتيها ، كأنها تسقط خلف عينيها ، تبكى شيئا مات ، شبابا مات ٠

وأعادت الخطابات الى الصندوق ، ووجهها كله يتنهد ٠٠ ثم حملته برفق ، وأخفته فى دولابها تحت كوم الثياب ٠

وعادت الى فراشها ٠٠ وأطفأت النور ٠٠ وحاولت أن تنام ٠٠ ومرت الساعات ٠٠

والبيت هادىء ٠٠ ساكن ٠٠ غارق فى الظلام ٠٠ وفجأة ٠٠ ارتفع رنين جرس الباب فى فزع ٠٠ رنين متواصل ٠٠ وخبطات عنيفة عنيفة على الباب ، كأنها خبطات مستجير من وحش يلاحقه ٠

وانتفض أحمد من نومه ·· وأضاء النور ، ونظر فى ساعته ·· انها الواحدة والنصف ··

وأضاءت نبيلة النور الذى يجاور فراشها ·· وقامت جالسة الجزع يطل من عينيها ·· ثم التفتت الى أختها هامسة :

ــ فيفى ·· فيفى ·· سامعة الخبط على الباب ·· !

وقامت فيفى من النوم تفرك عينيها بأصابعها ··

وأضيىء النور فى غرفة الأم ·· وقامت من فراشها ، ووجهها تنعكس عليه ضربات قلبها ·· ورنين الجرس يملأ البيت فزعا ·· الخبطات العنيفة لا تكف عن الباب ··

وخرج أحمد من غرفته مهرولا ·· وأضاء نور البهو الخارجى·

وقبل أن يصل الى الباب ·· فتح ·· فتحه عم عبد الله البواب بالمفتاح الذى يحمله ·· واندفعت منه ليلى ، وشعرها مهوش فوق رأسها ، متدل فوق وجهها ·· وعيناها مذعورتان ·· ولونها باهت ، وجرح فوق شفتها يسيل منه الدم ··

وهتف أحمد فى صوت مبحوح : ليلى ·· ؟

وهى تصرخ : ماما ·· فين ماما ·· ماما ··

ثم هرولت الى الداخل ، دون أن تتوقف لتنظر الى أخيها ··

واستقبلتها أمها على باب غرفتها ، وما كادت ليلى تراها حتى عادت تصرخ :

ــ ماما ·· أنا لازم أطلق ·· دلوقتى حالا ·· طلقونى دلوقتى ·· دلوقتى حالا ··

ثم ألقت بنفسها بين أحضان أمها ، وأجهشت بالبكاء ··

وضمتها أمها الى صدرها ، ثم سحبتها الى داخل الغرفة ·· وأحمد يسير وراءها مكفهر الوجه ·· وفيفى ونبيلة خرجتا من غرفتهما حافيتى الأقدام ، وسارتا مع الموكب الحزين فى صمت ·

وجلست الأم على فراشها وأجلست ليلى بجانبها ، وهى تقول

فى صوت يقطر أسى : بس يا حبيبتى ·· حد يعمل فى نفسه كده ؟!
ورفعت ليلى وجهها الى أمها ، قائلة ونشيجها يمزق كلماتها
ـ خلاص يا ماما · ·مش قادرة أستحمل أكتر من كده · مش قادرة ! ··
ورأى الجميع الجرح الذى يشق شفتها ·· والتفتوا الى بعضهم متسائلين فى صمت ·· وقالت الأم :
ـ ايه ده يا ليلى ·· ايه اللى جرحك ··· ؟ !
وقالت ليلى ونشيجها يرتفع :
ـ ضربنى ·· ضربنى ، المجرم ، السافل ··
ثم لمعت عيناها ببريق قاس ، واستطردت :
ـ اذا ما كنتوش حاطلقونى ·· حاهرب ·· حاروح أسكن فى بنسيون ، وأشتغل أى حاجة ··
وأحمد ينظر اليها ، وكل أحاسيسه قد تجمعت فى زوبعة تملأ صدره ، وتئز فى أعصابه ·· لقد ضربها السافل ··· ضرب أخته ·· وأحس أن السافل قد ضربه هو ·· قد أهان كرامته ·· وان الجرح الذى يعلو شفتى ليلى ، انما هو جرح فى كرامته ·· جرح على رأس عائلته كلها ··
وأدار ظهره صامتا وهم أن ينصرف ، فصاحت وراءه ليلى
ـ آبيه ! ·
والتفت اليها ·· وقبل أن تتكلم ، وضع على شفتيه ابتسامة كأنه يطمئنها وقال فى هدوء : خلاص ·· حاتطلقى ··
وخرج ·· وليلى تنظر وراءه ، وقد هدأت دموعها ··
وصاحت فيفى : تنقطع ايده ، هو فاكر نفسه مين ، فاكر نفسه فين ، فى أى عصر ·· وسكتى له ليه ، ماقلعتيش الجزمة واديتى له بيها على دماغه ليه ·· ؟ !
وجلست نبيلة بجانب أختها ، ولفت ذراعها حولها ، وقالت فى حنان : يا حبيبتى ··· !

وقالت الأم وهى تضع يدها على صدرها ·· ووجهها مكفهر :
ـ ضربك ازاى يا بنتى ·· وعلشان ايه ؟ ··
وقالت ليلى وهى تمسح دموعها بكف يدها :
ـ ولا حاجة يا ماما ·· كنا راجعين من السـينما ·· وكنت تعبانة ·· هلكانة ·· خلانى باقلع هدومى ، وجه يبوسنى ·· قلت له : أنا تعبانة يا عصامّ ·· حب يبوسنى بالعافيـة ·· قلت له : حرام عليك يا عصام ·· أنا تعبانة ·· راح ضربنى بكف ايده ·· ضربنى بكل قوته ·· والدبلة اللى فى صـباعه جرحت شفتى ·· ما استحملتش ·· جـريت من قـدامه ، وخرجت مـن البيت ·· ماحاولش يحوشنى ·· قعد يزعق ورايا . وقال لى : فى سـتين داهية ·· وخدت تاكسى ·· وجيت على هنا ··
وقالت فيفى وعيناها تشتعلان بالغيظ : لو كنت منـك ، كنت خليته هو اللى يطفش من البيت ·· مش أنا ·· !
وقالت الأم وهى تتنهد :
ـ طيب يا بنتى ·· ماتزعليش ·· احنا الحق علينا كلنا ·· ماكناش نعرف انه بالشكل ده ·· قومى اغسلى وشك ·· وحطى مرهم على شفتك ·· وبكره يحلها ربنا ··
وقالت ليلى فى اصرار : ربنا لازم يحلها دلوقت ·· لازم أعرف انى حا اطلق ·· والا أخرج من البيت ده كمان ·· !
وقالت نبيلة : طبعا حاتطلقى ·· مين يقدر يرجعك له تانى ·· ده لو باس الرجلين · ·مابقاش الا الضرب كمان ·· !
وقالت ليلى وهى لا تزال تنظر الىأمها :
ـ ماما ، قولى يا ماما قولى لى انك مش حاترجعينى تانى له ·
وقالت الأم وهى تحنى رأسها :
ـ خلاص يا ليلى ·· اللى انتى عايزاه حايتعمل !
ونظرت ليلى الى أمها كأنها لا تصدقها ·· ثم قامت صامتة ، وخرجت من الغرفة ، ومعها أختاها ··

وفيفى ونبيلة لا تكفان عن الكلام ·· وعشرات الأسئلة ·· وليلى تجيبهما ·· وثورتها على عصام لا تهدأ ·· ورغم ذلك فهى تحس أن ثورتها فيها شىء من الافتعال ·· وأن اللوم لا يمكن أن ينصب كله على عصام وحده ·· انه انسان سافل ·· منافق دنيىء ·· بخيل ·· نتن ·· كل هذا صحيح ·· ولكن هى ·· انها زوجة خائنة ! ··

ومنذ عادت من أوربا وهى تحاول أن تستسلم لوضعها كزوجة خائنة ·· وتحاول أن تسعد فى حدود هذا الوضع ، كمئات الزوجات السعيدات اللاتى يقمن بأدوارهن فى الرواية المشهورة ·· الزوجة، والزوج ، والعشيق ·· وكانت تعتقد أن من السهل عليها القيام بهذا الدور ·· ان المجتمع يريدها زوجة لهذا الرجل ·· وقلبها يريدها عشيقة للرجل الآخر ·· فهى تستطيع أن تكون زوجة محترمة مادامت ترضى قلبها ·· وأكثر من ذلك ، لقد كانت تعتقد أن خيانتها لزوجها ، ستعينها على احتماله ·· بل قد تدفعها الى محاولة ارضائه ، ولو تكفيرا عن جريمتها ··

ولكن ، لا ·· لقد عجزت عن القيام بهذا الدور ··

أصبحت أكثر شقاء ··

ومنذ عادت الى فتحى وعلاقتها به قد أصبح لها لون آخر ·· أصبحت أكثر عمقا ·· وأكثر جدية ·· انها الآن امرأة ، وليست فتاة ·· وما كان يرضى الفتاة ، لم يعد يرضى المرأة ·· لم يعد يرضيها أن تقابله هذه المقابلات الخاطفة ، التى تتسم بطابع المغامرة ·· انها لم تعد فى حاجة الى المغامرة ·· ولم تعد فى حاجة الى احساسها بالحرية والانطلاق ·· لقد أصبحت فى حاجة الى الاستقرار ·· والهدوء ·· أصبحت فى حاجة الى أن تجمع عقلها وقلبها فى مكان واحد ·· فى رجل واحد ·· والاحساس بالمغامرة ، والاختباء يعكر سعادتها ·· انها تذهب الى فتحى وهى مقبوضة الصدر لانها تحس بالتسلل والاختباء وتحس أن هذا البيت ليس

بيتها ، وهذا الرجل ليس رجلها ٠٠ انما هو بيت لحظات ، ورجل لحظات ٠٠ لحظات تمر سريعة ٠٠ ثم تترك البيت والرجل ، الى بيت آخر ورجل آخر ٠٠

وتعود الى زوجها ٠٠ وتحاول أن تبتسم له فلا تستطيع ٠٠ تحاول أن ترضيه فلا تستطيع ٠٠ انها تعود اليه وأعصابها مقبوضة ٠٠ واللحظات التى قضتها مع عشيقها مرتسمة فى خيالها وفى قلبها ٠٠ وتبعدها عن الزوج ٠٠ فلا يبقى له منها الا صورة تتحرك أمامه ٠٠ وجسد بارد يعبث به ٠٠ .

وقد حاولت ٠٠ حاولت كثيرا أن تضع فى هذه الصورة ، بعض الحياة ، وأن تضع فى جسدها بعض السخونة ؛ من أجل متعة الزوج المخدوع ٠٠ ولكنها فشلت ٠٠ فشلت فى أن تكون امرأة مخادعة منافقة ٠٠ بل انها فشلت فى أن تعيش فى المجتمع الذى أحاطها به زوجها ٠٠ وكانت تعلم أن زوجها فى حاجة الى هذا المجتمع ٠٠ مجتمع مديرى الشركات وأصحاب الصناعات ٠٠ وكانت تعلم أنه فى حاجة اليها لتعينه فى نفاقه لهذا المجتمع ومحاولة استغلاله ٠٠ وكانت قد قررت بينها وبين نفسها أن تعينه ، تكفيرا عن خيانتها ٠٠ ولكنها فشلت ٠٠ كانت تجلس بين هؤلاء الناس ، وهى سارحة فى شقائها ٠٠ شقائها مع زوجها ، وشقائها مع حبيبها ، وشقائها مع نفسها ٠٠ وعرفت فى هذا المجتمع بأنها صامتة ٠٠ باردة ٠٠ صورة بلا روح ٠٠ اذا أقامت حفلة فى بيتها تركت زوجها يعدها ، وتركته يتولى وحده مهمة الاحتفاء بضيوفه والترفيه عنهم ٠٠ واذا دعيت الى حفلة معه ، تركته وحده يشترك فى أحاديث الناس ، وجلست هى صامتة ٠٠ لا تقدر على أن ترد لرجل ابتسامة ، ولا تقدر على أن تكتسب صداقة امرأة ٠٠ لا تقدر على أن تبدو بينهم منافقة كنفاقهم ٠٠ سافلة كسفالتهم ٠٠

وأكثر من ذلك ٠٠

ان فى شقائها نوعا من الخوف ٠٠ ليس الخوف من أن يعلم

زوجها بخيانتها ... لا .. ان الأزواج لا يعلمون عادة ، ومن السهل دائما أن تجد الغطاء الذى تخفى تحته سرها .. ولكنها تخاف من نفسها .. تخاف أن تنفجر يوما فتعلن خيانتها .. أن تضيق بكل هذا الشقاء ، فتنفجر ..

انها شقية .. كل من حولها فى شقاء .. زوجها شقى بها ..

وفتحى أيضا شقى بها ... وبزوجته .. انه هو الآخر قد اتخذ حبه طابعا جديدا بعد أن أصبحت امرأة .. ان حبه لم يعد حادا منطلقا كما تعودته .. ان فى حبه رنة الخطيئة .. رنة الاعتداء على رجل آخر .. وهو يصر فى كل مرة على أن تحكى له عن زوجها .. أن تشكو له منه .. كأنه يبحث لنفسه عن مبرر لحياتهما معا .. وهو يسألها عنه أسئلة محرجة دقيقة .. يسألها وفى عينيه شهوة الشماتة والتشفى .. انه يريد أن يطمئن دائما الى أنها لا تطيق قبلاته .. ويريد أن يطمئن الى أن الجسد الذى تعطيه للزوج لا يزال باردا .. فاذا أجابته .. ثار .. ثار لأنه لا يطيق أن يتصورها مع رجل آخر ولو كان زوجها .. ولو كانت باردة .. اذا لم تجبه ثار أيضا .. ثار لأنه يعتقد أنها تخفى عنه متعتها .. وثار لأنها تحرمه من الشماتة فى زوجها ، وتحرمه من أن يجد مبررا لحياتهما معا ..

وعواطف .. زوجة فتحى .. انها أشقى الجميع .. لقد أحست أن زوجها قد عاد الى ليلى ... لم يخبرها أحد .. ولم تضبط شيئا .. ولكنها أحست .. ان احساسها كأشعة اكس ، يستطيع دائما أن يكشف ما فى عقل زوجها وما فى قلبه .. وهى أيضا تعلم أن ليلى قد أصبحت امرأة .. لم تعد فتاة يغريها شهرة زوجها وفنه .. لم تعد فتاة طائشة تندفع فى مغامرة .. مغامرة تبرق أمام عينيها ، وتفرح بها كما تفرح بانطلاق الصواريخ فى ليلة العيد .. ثم تنطفىء ... لا .. ان ليلى لم تعد مراهقة .. وعلاقتها بزوجها ، علاقة امرأة برجل .. علاقة قد تكون خطرا على بيتها .

فبدأت تدافع ·· بدأت تدافع بكل قوتها ·· وفتحى ينقاد اليها حينا ·· وينقاد الى ليلى حينا ·· وهو شقى فى كلتا الحالتين ·· شقى بحبه لزوجته ·· وشقى بحبه لليلى ·· وكلتاهما شقيتان ·· عواطف شقية بحب زوجها لليلى ·· وليلى شقية بحب حبيبها لزوجته ·· وقد حاولت كثيرا أن تنكر هذا الحب ·· حاولت أن تقنع نفسها أن فتحى لا يحب زوجته ·· ولكن مستحيل ·· انه يحبها ·· وأكثر من ذلك أنه يطلب منها أن تحبها ·· وهى لاتستطيع أن تكرهها ·· ولكنها لا تستطيع أن تحبها ·· هذا فوق طاقتها ·· يا رب ·· ما كل هذا الشقاء ··

لماذا تخلق الناس ، ثم تشقيهم ··

واذا كان للناس نظم يتبعونها فى حياتهم حتى يتجنبوا الشقاء ، فلماذا يضعف بعض الناس عن اتباع هذه النظم !

ومر شهر ·· وليلى تحتمل شقاءها ·· وشهر آخر ·· الى أن كان هذا المساء ·· وعادت مع زوجها من السينما ·· وهى تذهب الى السينما كثيرا ، لأنها مكان تستطيع أن تستريح فيه من زوجها ·· تستطيع أن تستريح من رؤية وجهه ·· وتستطيع أن تستريح من كلامه الثقيل ·· وتستطيع أن تشغل نفسها عنه بمتابعة الفيلم ···

وخرجا من السينما ، وعادا الى بيتهما ، وهى متعبة ·· كانت فعلا متعبة ·· كانت قد قضت الصباح مع فتحى ·· وتركته وأعصابها ضعيفة ·· أضعف من أن تحتمل ثورة قلبها وعقلها ··

وجاء زوجها يقبلها ، وهى تخلع ثيابها ··

وكان هذا آخر ما تستطيع أن تحتمله فى تلك الليلة ··

وصدته ·· وألح فى محاولته ·· وصدته ··

ثم فقد أعصابه وصفعها ·· وارتطم خاتم زواجه بشفتها فشقها ·· وانفجرت ·· انها تعلم أنه لم يصفعها لأنها ترفضه هذه الليلة

·· ولكن لأنها ـ فى الواقع ـ كانت ترفضه منـذ زواجهما ·· لم تقبله يوما ، ولكنها كانت تترك له شفتيها ·· ولم تعطه شيئا ولكنها كانت تترك له جسدها ·· انه يصفعها غلا من كل هذه الأيام التى قضاها معها ·· ورغم ذلك انفجرت ·· وأحست فى انفجارها كأنها تهم بأن تعلن خيانتها أمامه ·· كانت تريد أن تقول له انها تكرهه ·· انها تخونه ·· انها تحب فتحى ·· وانها تذهب للقائه ، وتمنحه ما تبخل به عليه ·· و ·· ولكنها حبست صوتها ·· وجرت من أمامه ·· هربت ··

لم تهرب من الصفعة ·· ولكنها هربت من اعترافها بخيانتها ·

وهى تحس الآن وهى تصر على الطلاق ·· أن دوافعها ليست كراهية عصام فحسب ، بل الدافع الأول هو كراهيتها لدور الزوجة الخائنة ··

الدور الذى فشلت فيه ·· لعلها تخفف عن نفسها بعض شقائها ، و ·· وأغمضت عينيها ·· ونامت ··

لم تنم ·· ولكنها راحت فى غيبوبة ·· وكلها متعبة ·· منهكة · وفى رأسها صداع يمزق نومها ··

وجاء الصباح ·· وقامت الأم ، وبصمات الأرق تحت عينيها ·· وخطوط الفكر مرتسمة فوق جبينها ·· وسحابة قاتمـة تلف وجهها ·· وخرجت من غرفتها ، وجاءت بالتليفون ، ثم عادت به ، وجلست فوق فراشها ، واتصلت بعصام فى البيت ·· بيت ابنتها ·

وسمعت صوته ·· واعتدلت فى جلستها ، واغتصبت ابتسامة وضعتها فوق شفتيها ، وقالت فى لهجة تحاول أن تكون هـادئة ، وهى تنتقى كل كلمة : صباح الخير يا عصام ·· أنا صحيتك من النوم ·· آسفة ·· أصلى خفت لتخرج قبل ما ألحقك ··

ورد عصام فى لهجة باردة : أهلا وسهلا ··

وفوجئت الأم بلهجته ، ولكنها ظلت تحاول أن تبدو دبلوماسية ، وعادت تقول : ممكن تفوت علينا شوية ··

وقال عصام فى نفس اللهجة الباردة : آسف ·· النهاردة مشغول ·

وقالت الأم فى توسل رقيق : معلهش يا عصام ·· خمس دقايق بس ·· أقول لك فيهم كلمتين ·· وقال عصام فى تحد : ما بقاش فيه فايدة من الكلام يا عنايات هانم ·· غلبنا كلام ··

وعادت الأم تقول ·· أكثر توسلا : برضه كل حاجة تتحل يا بني ·· وبرضه الأصول اننا نتكلم ونتفق أو نختلف بالمعروف ·· ومش حاتخسر حاجة لو فت علينا ·· وسكت عصام برهة ، ثم قال : علشان خاطرك يا عنايات هانم ·· حافوت ··

وقالت الأم بسرعة ، كأنها تخشى أن يعدل عن رأيه : الساعة كام ؟ قال وهو يزفر أنفاسه فى ضيق : الساعة عشرة ونص ··

وقالت الأم : كتر خيرك يا ابنى ·· وألقت سماعة التليفون ··

وسقطت ابتسامتها المفتعلة ·· وتجهم وجهها ·· وعادت تفكر·

والبنات صامتات ·· يتحركن فى البيت كالأطياف النائمة ·· وكل منهن تسائل نفسها ، ماذا يحمل اليوم من أحداث ·· وكل منهن تنظر الى الأخرى فترى على وجهها نفس السؤال ··

ودخل أحمد الى غرفة أمه ، وقد ارتدى ثيابه ، وقال فى حدة :

ـ أنا حاروح أقابل عصام فى مكتبه ··

وقالت الأم وهى تتنهد : هو جاى دلوقت ·· أنا كلمته فى التليفون ·· وسكت أحمد برهة كأنه صدم فى حماسه ، ثم قال :

ـ أنا شايف ان مافيش فايدة ·· لازم يطلقها ··

وقالت الأم وهى تنظر اليه كأنها ترطب ثورته بأهدابها :

ـ برضه نحاول يا أحمد ، يمكن فيه أمل ، واذا لقينا ان مافيش فايدة ، نبعت نجيب خالك يصفى الموضوع مع والد عصام ··

وقال أحمد فى حدة ، وكأن أمه جرحت كرامته : اللى يقدر يعمله خالى ، أقدر أعمله أنا ·· وأنا حا اقعد أستناه لغاية ما ييجى ··ومش حايخرج من هنا الا بعد ما يطلق ··

وقالت الأم فى جزع : بس يا أحمد ..
وقاطعها أحمد ثائرا : يا ماما دى مش أول مرة يضربها .. ومش ممكن أسيب أختى لواحد يضربها .. ده أنا متهيألى ساعة ما اشوفه انى أنزل فيه ضرب لغاية ما أموته
وقالت الأم وهى أشد جزعا : اعمل معروف يا أحمد .. بلاش فضايح .. اذا ماكناش خايفين عليه من كلام الناس ، لازم نخاف على ليلى . وسكتت قليلا ، وأحمد واقف وصدره يتهدج ..
وعادت الأم تقول كأنها تطلع ابنها على خطتها : انت تقابله معايا .. وتقعد هادىء .. ونفضل نتكلم لغاية الكلمة ما تيجى منه .. نبقى عملنا اللى علينا .. ومين عارف ، يمكن ربنا يسترها ، ونلاقى حل ..
وقال أحمد وهو لا ينظر الى أمه : مابقاش فيه حل الا الطلاق .
ثم التفت الى أمه ، فرأى دموعها تسيل على خدها .. فقال فى دهشة : بتعيطى دلوقت ليه يا ماما ؟ .. وقالت الأم وهى تنشج : ماكنتش فاكرة ان أول بنت من بناتى تتجوز ، حاتطلق بعد تلات اشهر .. ده مافيش حد فى عيلتنا اتطلق أبدا ..
وقال أحمد وهو يبتسم ابتسامة حزينة يرفه بها عن أمه
ـ الطلاق دلوقت مابقاش حاجة .. كل الناس بتطلق .. ده أنا متهيأ لى ان لولا الطلاق ماكانش حد اتجوز .. واستطردت الأم فى بكائها .. وخرج أحمد ، وكأنه اقتنع بأنه يجب أن يتركها تبكى .. والبنات صامتات .. يتحركن كالأطياف النائمة .. كل منهن تحس بأن شيئا خطيرا سيحدث .. ان الطلاق سيقع .. ولكن لماذا يكون الطلاق شيئا خطيرا .. لا يدرين .. وفى عينى ليلى نظرات مبتهلة ، توجهها الى أخيها ، والى أمها ، والى أختيها .. تبتهل اليهن ألا يتخلين عنها ..
وجاء عصام .. جاء فى الساعة الحادية عشرة ، لا فى العاشرة والنصف .. جاء وبين شفتيه ابتسامة ساخرة .. وفى عينيه

نظرات تحد .. واستقبله أحمد ببرود ، وقد قرر بينه وبين نفسه أن يتبع نصيحة أمه .. وصافحه كأنه يستنكف أن يضع كفه في يده .. ثم قاده الى غرفة الصالون .. كأى غريب .. وجلس معه صامتا .. ثم دخلت الأم .. وعلى وجهها ابتسامة وصافحت عصام في حرارة .. وأحمد ينظر اليها دهشا .. ويحسدها على قوة أعصابها ..

وجلست الأم وهى تقول : ايه الكلام ده يا عصام .. انتو عاملين زى العيال الصغيرين .. كل ساعة خناق ..

وقال عصام وهو ينظر فى وجه حماته كأنه يتحداها : مافيش فايدة يا عنايات هانم .. مابقيناش نقدر نعيش مع بعض .. واذا كان لازم نتكلم فمافيش الا اننا نتكلم فى الطلاق ..

ونكست الأم رأسها .. كأنها هزمت .. لم تكن تتصور أن يأتى عصام اليها بكل هذا التحدى ..

وقال أحمد ، كأنه يقابل تحدى عصام : مافيش مانع .. اتفضل اتكلم فى الطلاق .. وارتعشت رموش عصام ، كأنه لم يكن ينتظر أن يقابل أحمد تحديه بتحد مثله .. كأنه كان ينتظر أن تتوسل اليه العائلة حتى لا يطلق .. وربما كان فى قرارة نفسه لا يريد الطلاق ، ولكنه فقط يريد أن يسبق بالهجوم ، حتى لا يهجم عليه أحد .. وقال عصام ، وقد خف تحديه :

ـ بس أحب أقول لكم انى مش غلطان .. أنا حاولت كتير .. واستحملت كتير .. انما مافيش فايدة ..

وقال أحمد فى هدوء مفتعل : وضربتها كتير .. مش كده ..

وقال عصام وقد بدأ يرتبك : والله .. برضه بيحصل ان الراجل يضرب الست بتاعته .. وربنا نفسه أباح للزوج ضرب زوجته .. مافيهاش حاجة .. وأنا اذا كنت ضربت ليلى ، فغصب عنى .. أى راجل فى مطرحى كان ضربها ..

وقال أحمد : انما مافيش راجل كان يسيبها تنزل لوحدها من البيت بعد نص الليل ·· و ··

وقال عصام بسرعة وقد بدأ يخاف أحمد : والله أنا مش جاى هنا أتخانق ·· اذا كان فيه حاجة تنقال ، نقولها ونخلص ··

واسترد أحمد هدوءه بسرعة ، وقال فى خبث كأنه يطمئن عصام حتى لا يفر : لك حق ·· أنا آسف ·· نتكلم فى الطلاق ··

ورفعت الأم رأسها قائلة : مش نسيب الحكاية دى للكبار ، خالك يا أحمد يقعد مع والد عصام ، ويتفقوا على اللى يشوفوه ··

وقال أحمد بسرعة : ما احنا كبار يا ماما ·· انتى نسيتى انى محامى ·· وعصام بيه من رجال الشركات ·· ثم التفت الى عصام بسرعة ، واستطرد : أظن أقوم أجيب المأذون بالتليفون ··

وقال عصام وهو محرج ، يتململ فى جلسته كأن كرامته تشكه فى جنبه ، حتى لا يتراجع : مافيش مانع ·· بس فيه حاجات لازم نتفق عليها ·· المؤخر ، والنفقة ·· وشوية حاجات زى دى ··

ورفعت اليه الأم رأسها ونظرت اليه باحتقار ، وقالت فى حدة : احنا لا عايزين مؤخر ولا نفقة ، احنا عايزين سعادة بنتنا ··

وقال أحمد وهو يبتسم ابتسامة ساخرة : احنا حانبريك من المؤخر والطلاق ·· فيه حاجة كمان ··

وقال عصام وهو يتململ ويشد رقبته من بين ياقة قميصه :

ـ وفيه الشبكة ·· والهدايا ·· الواقع انى كأنى ما اتجوزتش ·· ده ما فاتش تلات اشهر ·· و ·· وقال أحمد مقاطعا : وحتاخد الشبكة ·· والهدايا ·· فيه حاجة كمان ·· ؟

وقال عصام وهو ينظر الى أحمد فى كراهية : لا ·· مافيش حاجة ·· وهم بالقيام ، وهو يقول : حابقى أبعت لكم المحامى بتاع الشركة يتفق معاكم ·· ونظر اليه أحمد فى تحد وتحفز ، وقال :

ـ مافيش لازمة لمحامى يا عصام بيه ·· أنا أقوم أطلب المأذون دلوقت ·· واللى انت عاوزه يتعمل ··

وصرخ عصام كأنه لم يعد يطيق هذا التحدى :
ـ انت فاكر انى مش عاوز اطلق ·· اتفضل يا سيدى ·· مراتى ليلى طالقة منى بالتلاتة ·· طالقة ·· طالقة ·· طالقة ··

ووضعت الأم رأسها بين يديها ، وانهمرت دموعها فى صمت ·
وقال أحمد فى هدوء : كفاية كده ·· بس لو سمحت تستنى ربع ساعة كمان لغاية ما أجيب المأذون ··
وعاد عصام يصرخ : شىء غريب يا أخى ، انت حاتملى على ارادتك والا ايه ، وقال أحمد فى أسف حقيقى : أنا آسف يا عصام ، تأكد انى آسف ·· طلاق أختى مش شوية ·· واذا كنت باعمل كده ·· فعلشان أحتفظ بصداقتك ·· غرضى نتمم كل حاجة بيننا وبين بعض من غير زعل ولا دوشة ·· لو سمحت يا عصام ·· اقعد أرجوك ·· وسكت عصام ·· وجلس ··
وقامت الأم تجر دموعها ، ومنديلها فوق عينيها ·· وأخرج عصام منديله ، ووضعه فوق أنفه ، وضغط عليه ، كأنه يحاول أن يحبس دموعا فى عينيه ، ويخجل من أن يحبسها أمام أحمد ··
ونادى أحمد السفرجى ، وطلب منه التليفون ودفتر الأرقام واتصل بالمأذون ، واستدعاه على عجل : خد تاكسى وتعال قوام ··
ومرت فترة طويلة وهما صامتان ·· كل منهما منكس الرأس ينظر بين يديه ·· وكل منهما تائه فى أفكاره ··
ثم قال عصام فجأة : أنا حبيت ليلى يا أحمد ·· ولسه باحبها ·· يمكن هى ماحبتنيش ·· انما أنا باحبها ·· ورغم انى طلقتها ·· انما حافضل أحبها ·· ومش عارف ·· يمكن نكون اتسرعنا ·
ورفع أحمد رأسه اليه ·· ونظر فى وجهه ·· وأحس أنه يصدقه ·· واحس انه فعلا تسرع ·· وأنه ربما كان هناك حل آخر ·· وأشفق على عصام ·· واشفق على نفسه ·· ولكنه يعلم أن أخته لا تحب عصام ·· يعلم هذا ·· فلا أمل فى سعادتها ·· حتى لو كان عصام يحبها ··

وقال أحمد كأنه يؤدى واجب العزاء : كل اللى يجيبه ربنا كويس .. ومين عارف ، يمكن يكون كده أحسن ..

وجاء المأذون .. وبدأت اجراءات الطلاق .. وفجأة ..انقلب عصام الى انسان آخر غير هذا الانسان الذى كان يعترف بالحب منذ لحظات .. انه يدقق فى ورقة التنازل .. وهو يذكر الهدايا واحدة واحدة .. لا يريد أن يترك لها الشقة التى اشتركت فى تأثيثها .. ورضى أحمد بكل شروطه ..

وحمل أحمد ورقة التنازل الى ليلى لتوقيعها .. ووقعتها ليلى دون أن تنظر فيها .. وتمت الاجراءات .. وخرج عصام ..

وعاد أحمد الى أخته ، وقال لها وهو يبتسم ابتسامة حزينة :

ـ مبروك .. وردت ليلى وهى ساهمة .. ثم بكت .. لم تدر لماذا بكت .. ربما كانت تبكى فشلها كزوجة .. ولكنها بكت كثيرا .. وأختاها بجانبها ، يحاولان تهدئتها .. ثم بكتا معها .. والأم تبكى فى غرفتها .. وأحمد لا يستطيع أن يبكى .. فخرج من البيت وهو شارد النظرات .. والبيت حزين ..

وسقطت عينا ليلى على الدبلة الذهبية فى أصبعها .. وارتفع حاجباها كأنها فوجئت بشىء لم تكن تحسب حسابه .. انها يجب أن تخلع هذه الدبلة الآن .. ولكنها ليست دبلة زواجها انها دبلة حبها .. انها لا تحمل اسم الزوج ، ولكنها تحمل اسم الحبيب .. ورغم ذلك يجب أن تخلعها .. وأغمضت عينيها .. ونزعت الدبلة من أصبعها فى بطء .. وأحست وهى تخلعها كأنها تخلع من رأسها وهما كبيرا كانت تعيش فيه .. أحست أنها لم تطلق من زوجها ، بل طلقت من حبيبها .. واحتفظت بالدبلة فى يدها ثم أسقطت رأسها عادت تبكى .. والبيت حزين .

واجتمعت العائلة ساعة الغداء ، على مائدة حزينة .. لم يستطع أحد أن يأكل شيئا .. وليلى لا تزال فى فراشها تبكى .. لم تجلس معهم على مائدة الغداء .. ثم قامت فى الساعة الرابعة

•• وغسلت وجهها ••• ووقفت أمام مرآتها تنظر فى وجهها الباهت
•• ومرت يعود الكحل على عينيها ، لعل الظل الأسـود يبرز لون بشرتها •• وصبغت شفتيها بأحمر غامق •• وارتدت ثوب الخروج
•• ثم سارت فى خطوات منهارة الى أمها ، وقالت :
ـ أنا نازلة يا ماما •• رايحة لعيشة صاحبتى ! ••
وصرخت أمها صرخة حادة : لا ••• مافيش نزول ••
ودهشت ليلى •• ووقفت واجمة أمام أمها •• كأنها رأت شيئا جديدا فى حياتها •• انها فعلا ذاهبة الى صديقتها عائشة ، فلماذا تحرمها أمها من الخروج •• ؟
وظلت الأم ناظرة اليها بكل عينيها الغاضبتين •• ثم قالت :
ـ تعالى يا ليلى •• اقعدى •• وجلست ليلى بجانب أمهـا صامتة ••• وتنهدت الأم نهدة عميقة ، تستجمع بها أعصابها ، ثم قالت فى هدوء صاخب ولهجة خطيرة :
ـ اسمعى يا بنتى •• لازم تعرفى انك دلوقت لا انتى بنت •• ولا انتى متجوزة •• انتى مطلقة •• عارفة مطلقة يعنى ايه •• ؟
ولم ترد عليها ليلى •• ظلت ناظرة اليها فى وجوم ••
واستطردت الأم قائلة : يعنى كل ما تروحى حته الناس كلهـا حاتكلم عليكى ••• الناس مش حاترحمك •• ومن هنا ورايح مافيش خروج من البيت لوحدك •• فاهمة •• اعملى معروف يا بنتى •• كفاية فضايح •• ونكست ليلى رأسـها •• وقامت الى حجرتهـا صامتة ، وبدأت تخلع ثيابها •• وفى رأسها دوى ••• وكلمة تطن فى أذنيها : مطلقة ، مطلقة ، ترى كيف تعيش المطلقات ؟ ••
ونظرت الى وجهها فى المرآة ، كأنها كانت تنتظر أن ترى فيه شيئا جديدا بعد أن طلقت •• ربما كان أنفها قد طال أو ضـاقت عيناها أو أصبح شعرها لونه أسود •• لا شىء ولكنها مطلقة ! ••

٢٣

كان كل من فى البيت يحاول أن يرفه عن ليلى ·· كأنها مريضة يحاولون التخفيف من آلامها ·· وهى تحس فعلا كأنها مريضة ، واهتمام اخوتها بها ، ومراقبة أمها لها ، يزيد من احساسها بالمرض ·· ولكنها لا تدرى سر مرضها ·· ولا تدرى لماذا هى مريضة ، ولماذا يعتبرها أهلها مريضة ·· لماذا يجب أن تكون مريضة ، ألأنها طلقت ؟ ! ولكنها طلقت لتشفى لا لتمرض ··

ورغم ذلك فهى تحس بأنها أصبحت انسانة أخرى ·· مريضة أو ليست مريضة ، انها انسانة أخرى ! ··

انها لم تعد الى حياة البنات ، كما كانت تعيش فى بيتها قبل أن تتزوج ·· ان هناك ستارا كثيفا يفصلها عن أختيها ·· ان عقليتها · ·ومزاجها لم يعد يتفق مع مزاجهما ·· بل ان رنة صوتها لم يعد فيها رنة صوتهما ·· رنة صوت البنات ··

وعلاقتها بأمها تغيرت أيضا ·· ان أمها تعاملها معاملة تختلف عن معاملتها لأختيها · ·انها تنظر اليها كأنها مثلها ·· وفى عقلها وفى تجاربها ، بل وفى سنها ·· كأنها هى الأخرى أرملة مثل أمها ·· وهى من ناحيتها لم تعد تستطيع أن تتدلل على أمها كما كانت تفعل ·· ولم تعد تستطيع أن تصل الى عاطفتها بنفس الأسلوب الذى كانت تصل به ·· ان حديثهما دائما جاد حزين ·· حديث كبير ·· وأكثر من ذلك ··

انها تحس أنها غريبة فى بيت أهلها ·· غريبة ·· ليس هذا البيت بيتها ·· ليس هو مستقرها ·· وأخوتها وأمها يعاملونها كأنها ضيفة عليهم ·· وهذا الاهتمام الكبير بها ، وبراحتها ، يزيد

من احساسها بأنها ضيفة عليهم ·· ليس هذا البيت بيتها ·· وليس لها بيت آخر ·· لقد عرفت الآن معنى : مطلقة ! ··

المطلقة ·· معناها مشردة ! ·· ليست مشردة فى الشارع ·· ولكنها مشردة فى بيت أهلها ! ··

وليست مشردة فى بيتها وحسب ·· انها تحس بأنها مشردة فى كل مكان تذهب اليه ·· عندما تزور صديقاتها ·· وعندما تزور العائلات ·· انها تحتار مع من تجلس ·· هل تجلس مع البنات ، أم تجلس مع الزوجات ·· اذا جلست مع البنات أحست كأنهن يتحفظن معها فى حديثهن ·· وكأن كلا منهن تهم أن تناديها بيا « ابلة » رغم أنها أصغر منهن سنا ·· واذا جلست مع المتزوجات أحست كأنهن يخفن منها ، كأن فيها شرا ينطلق منها ، ويحاولن أن يتقينه ··

والرجال ·· الرجال الذين تلتقى بهم فى المجتمعات العائلية التى تتردد عليها بصحبة أهلها ·· ان فى عيونهم شيئا جديدا لم تكن تلحظه وهى بنت ، أو وهى متزوجة ·· وفى ابتساماتهم شىء جديد ، كأنها ابتسامات مبللة بريقهم ·· وفى حديثهم وكلماتهم معنى جديد لا تستريح له ·· لم يعد فيهم - فى الرجال - هذه الرقة التى كانوا يعاملونها بها وهى بنت ·· ولم يعد فيهم هذا الاحترام الذى كانوا يعاملونها به وهى زوجة ، ان رقتهم مصطنعة ، واحترامهم مصطنع ·· وهى مشردة ، مشردة فى المجتمع وليست بنتا ·· ولا متزوجة ·· ليس لها مكان فى المجتمع ·· وليس لها وضع ·· ليس لها كيان ·· انها مشردة ·· أو - كما يسميها الناس - مطلقة ! لم يعد لها الا حبها ·· حبها لفتحى ··

وقد حاولت مرة أخرى أن تقاوم هذا الحب ·· كفاها ما جرى لها بسببه ·· ولكن كيف تقاومه وهو كل ما تملكه ·· وماذا يبقى لها ان قاومته وانتصرت عليه ··

واتصلت بفتحى فى التليفون ·· استطاعت أن تغافل عيون

أمها وأخوتها وتحادثه ·· وسمعت صوته ·· وسمعت فى صوته رنة جديدة ·· رنة حزينة ·· كأنه يعزيهـا ، ويعزى نفسـه ·· وصوته خافت متردد كأنه حائر لا يستطيع أن يستقر على رأى ·· ربما كانت تنتظر منه أن يكون فرحا بطلاقها ·· ألم تطلق لتكون خالصة له ·· ولكنه ليس فرحا ·· انه حزين كأن زوجهـا كان صديقا عزيزا له ، وتوفاه الله ·· وأكثر من ذلك ·· ان فى صوته رنة لوم يحاول أن يخفيها ، كأنه يلومها على قتل صديقه العزيز ·· يلومها على طلاقها ··

وكانت تنتظر منه لهفة على لقائها ، ولكن حديثهما طال دون أن يعبر عن لهفته ، ثم قال فى برود كأنه يؤدى واجبا مفروضا عليه : حاشوفك امتى ؟ ··

وتغاضـت عن بروده ، وقالت كأنهـا تتباهى أمامه بحيـاتها الجديدة ·· كأنها تعرض عليه عقدة جديدة من عقد حياتها ، كما تعرض ثوبا جديدا من ثيابها :

– مش ممكن يا فتحى ·· مش ممكن قبل ما تفوت العدة ·· لازم يفوت تلات اشهر من يوم ما اطلقت ، وبعدين أبقى أشوفك ، أحسن لو عصام شافنى قبل كده يمكن يرجعنى ، والا يعمـل لى فضيحة ·· وانت عارف انه متغاظ قوى ··

وقال فتحى بلا حماس ، كأنه يوصيها أن تستمر فى حرصها : وهو حايشوفنا ازاى ؟ ·· وقالت وهى تدعى الجزع :

– يا خبر ·· مين عارف هو بيعمل ايه دلوقتى ·· ده زمانه حاطط واحد يمشى ورايا ويراقبنى ·· عصام مش سهل أبدا ·· و ·· ورغم ذلك ذهبت الى لقائه قبل أن تنتهى شهور العـدة ·· ذهبت لأنها ضاقت باحساسهـا بالتشرد ·· التشرد فى بيتهـا ، فى المجتمع ·· ضاقت لأن الناس كلهم يتألبون عليها حتى لا تنسى أنها مطلقة ·· ذهبت لأن الشىء الوحيد الذى أصـبحت تملكه ·· هو حبها ··

وقالت انها ذاهبة الى صديقتها عائشة ·· وطلبت منها أمها أن تنتظر حتى يوصلها أخوها أحمد بسيارته ، ثم يعود اليها فى الساعة التاسعة بعد انتهاء السينما ، ويصحبها الى البيت ··

ووافقت ليلى ·· وصحبها أحمد بالسيارة الى بيت صديقتها عائشة ·· ودخلت ·· وصعدت السلم ·· ولكنها لم تضغط على الجرس ·· انتظرت قليلا الى أن اطمأنت الى أن أخاها قد ابتعد بسيارته ·· وعادت تنزل السلم بسرعة ، وركبت سيارة أجرة ، وذهبت الى شارع شامبليون ، واتصلت بفتحى من تليفون البقال ، وطلبت منه أن يوافيها فى الشقة ، وسبقته اليها ··

ماذا يحدث لو سألت عنها أمها بالتليفون عند عائشة ؟ ·· يحلها ربنا ·· وجاء فتحى ·· وواجهها بنظراته وقد اشتد فيهما القلق ·· قلق ، وحيرة ، وتردد ، وخوف ·· لم يكن فىلقائهما فرحة ·· ولا شوق ·· كل منهما نكس رأسه ، وبقى ساهما لحظات ·· ثم أخذها بين ذراعيه فى رفق كأنه يواسيها ·· وتركها تحكى قصة طلاقها من جديد ··

وقال بعد أن انتهت قصتها ، وهو ساهم : وناوية تعملى ايه دلوقت ؟ ·· قالت : ولا حاجة ·· حافضل زى ما انا ·· خلاص مش حاتجوز بعد كده ، ولو قطعوا رقبتى ··

وسكت ·· ساهما ·· ونظرت اليه كأنها تبحث فى وجهه عن شىء جديد ، واستطردت قائلة : انت مالك يا فتحى ؟ ··

وابتسم ابتسامة ساخرة يسخر بها من الأفكار التى تدور فى رأسه ، وقال : تعرفى انك يوم ما اطلقتى ، اتهيألى انى أنا اللى اطلقت ·· وقالت ليلى فى دهشة : ازاى ؟ ··

وقال وهو لا ينظر اليها : مش عارف ·· انما ده اللى أنا حسيته ·· ويمكن ده اللى حست بيه مراتى كمان ·· ومن يوم ما سمعت انك طلقتى وهى بقت واحدة تانية ·· مابقتش تستحملنى زى زمان ·· مابقتش تسكت لى ·· وبقت تفتش ورايا ·· اذا رحت

المعهد تضرب لى تليفون ٠٠ واذا رحت لواحد صاحبى تسأل على عشر مرات ٠٠ متهيألى انها خايفة ٠٠ خايفة ان حاجة كبيرة تحصل لنا ٠٠ صحيح انها كانت زمان بتتخانق معايا من تحت راسك ٠٠ انما مش بالطريقـة اللى بتتخانق معـايا بيها دلوقت ٠٠ دلوقت حاجة تانية ٠٠ خناقهـا جد ٠٠ مافيهش رحمة ٠٠ زى ما تكون بتدافع عن نفسها ٠٠ عن بيتها ٠٠ وكل ما اخرج تبقى زى ماتكون مش مصدقة انى حارجع تانى ٠٠ ومتهيأ لى انها يوم ما حاتعرف اننا اتقابلنا ، حاتقتل ٠٠ يا تقتلنى ٠٠ يا تقتلك ٠٠ يا تقتل نفسها ٠

وأحست ليلى بالزهو وهى تسمع هذا الكلام ٠٠ أحست كأنها ارتفعت الى صف عواطف ٠٠ وأنها أقوى منها ٠٠ وأنهـا وجدت مكانها فى المجتمع ٠٠

وقالت وهى تهز كتفيها بلا مبالاة : قول لها ماتخافش ٠٠

وقال فتحى كأنه يدافع عن زوجته : هى لها حق ٠٠ من حقها انها تدافع عن بيتها ، وصرخت ليلى وهى تنتفض من جانبه : وأنا اللى غلطانة مش كده ، أنا المجرمة وهى ملاك ، مش كده ؟ ٠٠

وقال فتحى وهو لا يزال يهمس كأنه يحادث نفسه : مش عارف ٠٠ يمكن أنا وانتى غلطانين ٠٠ انما و ٠٠ وقاطعته وهى لا تزال تصرخ : خلاص ما دام غلطـانين يبقى نسـيب بعض ٠٠ بتيجى تقابلنى ليه لما انت حاسس انك غلطان ٠٠ بتشجعنى على حبـك ليه ، لما انت عارف انه غلط ٠٠ اتفضل روح للملاك اللى مستنيك فى البيت ٠٠ وانتصبت واقفة أمامه ٠٠

وظل هادئا ٠٠ لا ينظر اليها كأنه لا يأبه بثورتها ٠٠ وقال كأنه أيضا لا يزال يحادث نفسه :

ـ أنا ما باشجعكيش على حبى ٠٠ وانتى ما بتشجعنيش ٠٠ حبنا مش محتاج لتشجيع ٠٠ واذا كانت مراتى ملاك ٠٠ انتى كمان

ملاك ٠٠ وده اللى تاعب عيشتى وحياتى ٠٠ لو كانت واحدة فيكم شيطان كنت استريحت لأنى ما اقدرش أحب شيطان ٠٠

وظلت تنظر اليه بكل عينيها ٠٠ كأنها تبحث عن شىء يشجعها على أن تكرهه ٠٠ على أن تتخلص منه ٠٠ وفجأة قفز الى رأسها خاطر ٠٠ لماذا لا تتزوجه ٠٠ لماذا ؟٠٠ لماذا ؟٠٠ انه يستطيع أن يتزوجها حتى لو ظل محتفظا بزوجته ٠٠ انه بذلك يريحها من كل مشاكلها ٠٠ انه بذلك يصحح وضعها فى المجتمع ٠٠ انه بذلك يرفعها الى مستوى عواطف ٠٠ زوجته ٠٠ واذا كان يقول انها وزوجته كل منهما ملاك ٠٠ فلماذا يرفع أحد الملاكين الى مصاف الزوجة ، ويخفض الملاك الثانى الى مرتبة العشيقة ٠٠

وهى لا تزال تنظر اليه بكل عينيها ٠٠ وحاولت أن تطرد من رأسها فكرة الزواج ٠٠ لقد قاومت هذه الفكرة من قبل كثيرا ، لأنها لا تستطيع أن تكون شريرة الى هذا الحد ٠٠ الى حد أن تخرب بيتا ٠٠ وتطعن امرأة بريئة فى قلبها ٠٠ ولكن ما ذنبها ٠٠ ماذنبها اذا كانت تحبه ، ولا تستطيع أن تتخلص من حبه ٠٠ ؟

وقالت وهى لا تزال تنظر اليه : اذا كنا احنا الاتنين ملايكة ٠٠ فلازم تعرف ان فيه فرق ٠٠ فيه ملاك ضحى من غير ما ياخد حاجة ٠٠ وفيه ملاك خد كل حاجة من غير ما يضحى ٠٠ تسمح تقول لى مراتك عملت لك ايه ٠٠ وضحت بايه ؟ ٠٠

وقال وكأنه يقرر حقيقة واقعة : عملتنى ٠٠ عملت مستقبلى ٠٠ وضحت بحياتها وأعصابها علشان تستحملنى ٠٠

قالت : وأنا ٠٠ طبعا ما عملتش حاجة ٠٠ خربت بيتى بايدى علشان خاطرك ، وبرضه ما عملتش حاجة ٠٠

قال فى حدة كأنه يصد حجرا تحاول أن تلقيه عليه :

ـ انتى ما اطلقتيش علشان خاطرى ٠٠ اطلقتى علشان ما اقدرتيش تعيشى مع جوزك ٠٠

قالت وهى تنهار جالسة على المقعد : أنا كنت منتظرة انك تقول كده ·· وانهمرت دموعها فى صمت ··

وحاولت أن تصد دموعها فلم تستطع ·· ألقت رأسها بين كفيها ·· وأجهشت بالبكاء ·· وقام اليها ·· وجهه تعلوه سحابة من الاضطراب ·· وعيناه تشعان بالقلق ·· وانحنى يمسح على رأسها بيده ·· وقال فى صوت يقطر حيرة : ليلى ·· حاولى تفهمينى يا ليلى ·· كل اللى بيجرالك بيجرالى ·· يمكن انتى تكونى أسعد منى ·· انتى تقدرى تعملى اللى انتى عايزاه ، تقدرى تعيشى زى ما انتى عايزة ·· أنا ما اقدرش ·· أنا خايف ·· عارفة الخوف اللى كنت باكلمك عنه زمان ·· الخوف من كل يوم جديد ·· الخوف من حبى ·· الخوف من نفسى وعلى نفسى ·· الخوف ده باحس بيه اليومين دول أكتر من زمان ·· و ··

ورفعت وجهها الندى بدموعها ، وقالت فى حدة : اذا كنت خايف انى حا أقول لك اتجوزنى ·· اطمن ·· أنا مش عايزة أتجوزك ·· انت لك حق ، أنا ما اطلقتش علشان خاطرك ، أنا اطلقت علشان نفسى ·· ولو كان جوزى قدر ينسينى حبك كنت بعدت عنك ·· أنا عايزة أنساك ·· عايزة أخلص منك ·· عايزة أخلص من دنيتى ·· وعادت تبكى ·· وركع بجانبها ، ومد ذراعه وأحاط كتفيها ، ثم أسند خده على خدها ، وقال :

ـ أنا كمان عايز أخلص من حبك ·· انما لا أنا ولا انتى قادرين نخلص منه ·· مافيش قدامنا الا اننا نستسلم ·· نستسلم للحب وللخوف ·· وقالت فى صوت خافت تمزقه دموعها :

ـ انت ضعيف يا فتحى ·· ضعيف ·· انت أكبر منى وكان لازم تكون أقوى ·· كان لازم تعلمنى ازاى انساك ·· كان لازم تكرهنى فيك ·· وابعد خده عن خدها ·· ونكس راسه بجانب راسها ، وقال فى يأس :

ـ يا ريت أقدر أحس انى أكبر منك ·· أنا عمرى ماحسيت

اني باكبر ‥ اللى كنت باحس بيــه وأنا عندى عشر ســنين والا اتناشر سنة ، لسه باحس بيه لغاية دلوقت ‥ تفكيرى لســه زى ما هو ‥ نفسيتى لسه زى ما هى ‥ ما فيش حاجة بتكبر فى الا فنى ‥ والســنين اللى بتمر بى هى ألحانى ‥ ما اعــرفش أنا عمرى كام سنة ، انما أعرف عمرى كام لحن ‥ وحاولت كتير أقنع نفسى انى كبرت ‥ وانى لازم أبقى راجل كبير ، أتصرف تصرفات الكبار وأحمل مسـئولية النــاس الكبار ‥ مراتى عايزانى أبقى كبير ، وأسيبك وانتى عايزانى أبقى كبير وأسيب مراتى والا أعلمك ازاى تكرهينى ‥ انما مش قادر ‥ مش قادر أكبر ‥ أنا عارف انى ضعيف ‥ وعارف انى طفل ‥ فى ضعف الطفل ، وأنانيــة الطفل ‥ وعارف انك مظلومة معايا ، ومراتى مظلومة ‥ انمــا مش قادر أعمــل حاجة ‥ مش قادر أكون قاسى عليكى ولا على مراتى ، ولا على نفسى ‥ ما استحملش القسوة ‥ لأنى طفل ‥ عيل صغير ‥ ويمكن ده سبب الخوف اللى أنا عايش فيه ‥ خايف أفضل طفل ، ماتستحملنيش لا انتى ولا مراتى ‥ وخايف أكبر ‥ يضيع فنى منى ‥ لو كبرت حا اخرج من الدنيــا اللى أنا عايش فيها ‥ الدنيا اللى بلاقى فيهــا ألحانى ‥ و ‥ ورفعت اليــه وجهها ونظرت اليه كأنها تنظر الى طفل كبير ، ثم كأنها تذكرت ‥ فانطلقت قائلة وهى تزيح عن قلبها رجفة الحنان التى أصابتها :

ـ انت دايما تتكلم عن نفسك ‥ وأنا أعمل ايه ؟ ‥

قال : انتى مظلومة بحبى ‥ ومراتى كمان مظلومة ‥ و ‥

وقاطعته فى حدة : مراتك مش مظلومة ‥ تســمح تقول لى ناقصها ايه ‥ عايزة ايه أكتر من كده ‥ ؟ !

قال : مراتى يمكن تكون مظلومة أكتر منك ‥

قالت وهى تعود تجهش بالبكاء : انت ما بتحبنيش يا فتحى ·

قال وهو يحاول أن يضمها اليه ، ويعود ويضــع خده على خدها : لو كنت مابحبكيش ما كنتش بقيت ضعيف بالشكل ده ‥

قالت وهى تبعد خدها عن خده ، وتنشج بالبكاء : ابعد عنى ·· مش عايزاك ·· ما تلمسنيش ··

قال وهو يقترب بشفتيه : ليلى ·· وأشاحت بوجهها تحاول أن تفر من شفتيه ·· وفى فرارها التقت بهما ·· وحاولت أن تتملص منهما ·· ولكنها كانت ضعيفة ·· وكانت محتاجة ·· بعد كل هذه الأيام ·· وبعد كل هذا العذاب ··

وذابت ·· ذابت الأيام ، وذاب العــــذاب ، ووجهها مندى بالدموع ·

وخرجا من الشقة صامتين ·· كل منهما يتحاشى النظــر الى الآخر ·· وكل منهما قد اســتعاد احساسه بمأســاته ·· انهمــا لا ينسيان مأساتهما الا فى هذه اللحظات التى يذوبان فيها ، ثم لا يلبثان أن يستعيداها أعنف وأوضح مما كانا يحسان بها ··

وقبل أن يخرجا من العمارة ، قالت ليلى وعيناها تضطربان أمام عينيه : أنا حاسيبك هنا يا فتحى ·· أوريفوار ··

قال وهو ينظر اليها كأنه يعتذر لها عما يعــانيه : مش آجى أوصلك ··

قالت وهى تستدير له : لا اعمل معروف أحسن حد يشوفنا ··

قال كأنه يبتهل : وحاشوفك امتى ؟ ··

قالت على عجل : حا ابقى أضرب لك تليفون ·· وابتعدت ··

ووقف فتحى برهة ينظر خلفها وهو صــامت ·· كل ما فيــه صامت ·· ثم أفاق من صمته وأحس بثورة عنيفة تئز فى صدره ·· ثورة على نفسه ·· على ضعفه ·· واندفعت الدماء الى رأسه ·· ولمعت مقدمة رأسه التى ينحسر عنها شعره ، كأنها اشتعلت بالنار ·· وضم قبضتيه كأنه يريد أن يضرب بها أحدا ·· يضرب بهــا نفسه ·· ثم خرج من العمارة ·· واصطدمت قدمه بحجر صغير ، فشاطه ·· شاطه بكل قوته ·· واستمر فى سيره وهو يخبط الأرض بقدميه ·· وأخذ يطوف فى الشوارع ·· بلا هدف ·· وبلا توقف

•• وبنفس خطواته السريعة الغاضبة ، كأنه يبحث عن شخص ليقتله •• شخص لا يستطيع أن يجده الا فى داخل نفسه •• ودخل الى بار فى شارع محمد فريد •• بار شعبى •• وجلس فوق المقعد العالى ، وطلب كأسا من الويسكى •• ولكنه ما كاد يرفع الكأس الى شفتيه ، حتى لاحظ أن زبائن البار قد عرفوه •• وبدأوا يتهامسون عليه •• ثم جاء بعضهم يرحبون به ، ويسألونه عن آخر ألحانه •• وهو يجيبهم وبين شفتيه ابتسامة كأنها قطعة من الكاوتش المشدود •• وشرب كأسه بسرعة وخرج من البار ، وهو نادم •• انه ينسى دائما أنه فنان مشهور •• والفنان المشهور يجب أن يبتعد فى حياته الخاصة عن الجمهور ، حتى يظل محتفظا بهيبته، وبهذه الصورة الغامضة التى ترتسم له فى أذهان الجمهور ••

وعاد يضرب شوارع القاهرة بقدميه •• وهو حائر فى أحاسيسه •• شىء واحد متأكد منه فى كل هذه الحيرة التى تجتاحه، وهو أنه لا يستطيع أن يعود الآن الى بيته •• لا يستطيع أن يعود قبل أن يتأكد من أن زوجته قد نامت •• والا قرأت على وجهه كل أحاسيسه •• انها تقرأ وجهه كما تقرأ كتابا مفتوحا ••

ودخل الى فندق سميراميس •• ان الجمهور هنا يعرفه •• ولكنه جمهور يترفع عن الفنانين وعن حياتهم الخاصة ••

وجلس الى البار •• وشرب كأسا أخرى •• وكأسا ثالثة ••

وبدأت الخمر تتعب معدته •• تنصب فيها كأنها تكوى جدرانها •• انه لا يستطيع الليلة أن يستمر فى الشراب •• انه يعرف معدته •• انها معدة لها أخلاق المرأة الرخيصة ، تتدلل عندما تحتاج اليها ، وتحتمل كل ما تصبه فيها ، عندما لا تحتاج اليها •• ونظر فى ساعته •• انها الثانية عشرة ••

لا بد أن عواطف قد نامت الآن •• وخرج من سميراميس •• شفتاه ثقيلتان ، ورأسه ثقيل ، ولكنه ليس سكران ولا نشوان •• انه يحس بصداع اليم ، من اثر الخمر على معدته المتأبية ••

وسار على كوبرى قصر النيل ، لعل الهواء يمسح عن رأسه الصداع ، ثم أوقف سيارة أجرة وركبها .. متجها الى بيته ..

ودخلت السيارة فى شارع الاخشيد ، وأطل من نافذة السيارة، ورفع عينيه الى بيت ليلى كما تعود أن يفعل كلما مر به .. ثم وقفت به السيارة فى آخر الشارع ، أمام بيته ..

ونقد السائق أجره .. ودخل .. وما كاد يصعد بضع درجات من السلم ، حتى توقف برهة ، وقد ملأ وجهه الجزع ..

ان الصالة الخارجية مضاءة .. معنى ذلك أن زوجته لم تنم بعد .. وهى لا تظل ساهرة حتى هذه الساعة .. ولا تجلس فى الصالة الخارجية ، الا اذا كانت فى انتظاره ..

وهى لا تنتظره الا اذا كانت ثائرة ..

وعاد يصعد درجات السلم ، كأنه خشى أن تراه زوجته وهو متردد فى الصعود .. ورأسه يدور بسرعة ، باحثا عن الكذبة التى سيواجهها بها .. انها ستسأله أين كان .. ولا بد أن يدعى أنه كان فى مكان لا يخطر لها على بال ، خشية أن تكون قد سألت عنه بالتليفون فى الأمكنة التى تعرف أنه يتردد عليها ..

وبدأ يحاول أن يتذكر صديقا قديما .. أو مكانا .. أو حادثة .. ولكن عقله يدور بسرعة ، ولا يصل الى شىء .. ان كل أسماء أصدقائه القدامى قد اختفت عن ذهنه فجأة .. وكل القاهرة قد ضاقت عن مكان معقول يمكن أن يدعى أنه كان فيه .

وفتح الباب بمفتاحه الخاص ، ودخل وهو لم يستقر بعد على الكذبة التى سيطلقها ..

وواجه زوجته ، وهى جالسة فوق الأريكة ، وقد رفعت ساقيها وضمتهما تحتها .. وعيناها محمرتان من أثر الدموع .. دموع كثيرة .. وفى يدها منديل صغير ..

ووقف قبالتها مرتبكا كالأبله .. وهى تنظر اليه بكل عينيها .. كأنها تقرأ الكتاب المفتوح .. تقرأ وجهه ..

وقال وهو يفتعل لهجة حانية ، كأنه يحاول أن يطفىء ثورتها قبل أن تنفجر ، وابتسامة مترددة فوق شفتيه :

ـ صاحية لغاية دلوقت ليه ؟ .. دى الساعة واحدة .. !؟

وقالت فى صوت هادىء يرتعش بثورتها المكبوتة :

ـ انت كنت فين يا فتحى ؟ ..

وقال فتحى ، وهو يحاول أن يكتسب مزيدا من الوقت حتى يعثر على كذبة :

ـ بقى صاحية لغاية دلوقت علشان تسألينى أنا كنت فين ؟

وقالت فى حدة ، وقد بدأت ثورتها تنطلق :

ـ من فضلك جاوبنى .. ريحنى وجاوبنى ..

وقال بسرعة كأن خاطرا عبقريا قد خطر له :

ـ كنت عند الأستاذ عبد الوهاب .. أصل يا ستى العقد بتاعى مع شركة كايرفون ، خلص .. وأنا مصمم ان ..

وقاطعته فى مرارة :

ـ انت بتكذب يا فتحى .. وللأسف ان الكذب بيبان على وشك .. وأنا عارفة كويس انك ماكنتش حاتقول لى انك كنت فى المعهد ولا فى أى حتة ممكن أكون سألت عليك فيها ..

وبدأت أعصابه تنقبض .. بدأ يعاوده الاحساس بأنه ليس حرا .. انه مقيد .. ان هناك سيدا يحاسبه .. وانه لكى يتنسم بعض حريته ، يجب أن يكذب .. وأن ينافق .. هذا الاحساس الذى يدفعه الى الجنون .. يدفعه أحيانا الى محاولة تحطيم كل ما حوله حتى نفسه ..

وكبت احساسه ، وقال كأنه يعتبر الكذب مظهرا من مظاهر حبه لزوجته ، وحرصه على سعادتها :

ـ أنا مش كداب يا عواطف .. وما تقوليش من فضلك انى كداب .. اذا ما كنتيش مصدقانى قومى اسألى عبد الوهاب ، وخلى كل الناس تعرف ان مراتى مابتصدقنيش ، وانها بتحاسبنى و ..

وقالت وقد انفجرت ثورتها ، وارتفع صوتها

ـ انت كداب ·· انت كنت مع واحدة ·· ولو قربت منك دلوقت حاشم ريحة البارفان بتاعها فى هدومك ·· تحب أقول لك كمان اسمها ايه ؟ ·· اسمها ليلى ·· ! ؟

وصرخ فتحى ·· ان الصراخ أحيانا أحسن وسائل الدفاع ، وقال :

ـ انتى مجنونة ·· انتى عايشة فى أوهام ·· أوهام اسمها ليلى ·· قلت لك ميت مرة انى خلاص ماباشوفهاش ·· و ·

قالت وهى ترفع صوتها على صوته :

ـ ما تزعقش من فضلك ·· انت مش من حقك انك تزعق ·· أنا استحملتك كتير ، ومن حقى انى أحاسبك ·· من حقى انى أعرف انت ناوى تعمل ايه ؟ ولازم تطمنى ·· اذا كنت لسة بتحبنى يبقى لازم تطمنى ·· لازم أعرف مصيرنا ايه ؟ ··

وبدأت دموعها تنساب على خديها ··

ونظر اليها فى حنان صادق ، وهو واقف بعيدا عنها ، كأنه يخشى ان اقترب أن تشم فى ثيابه رائحة ليلى ، وقال فى صوت مرتعش : ـ انتى عارفة انى باحبك ··

قالت وهى منساقة مع دموعها :

ـ لا مش عارفة ·· كنت زمان عارفة انك بتحبنى ، وكنت مستحملة كل البلاوى اللى بتترمى عليك ، لأنى كنت متأكدة انك بتحبنى ·· انما دلوقت مش متأكدة ·· مش عارفة ··

قال والالم يكسو وجهه :

ـ واعمل ايه يا عواطف ··أعمل ايه علشان تعرفى انى باحبك ؟

ورفعت رأسها اليه ، وقالت فى حدة :

ـ تعمل ايه ؟ مش عارف تعمل ايه ! ؟ تسيب البت المفعوصة اللى انت داير بيها ·· واللى حاتخرب علينا ·· تسمح تقول لى اطلقت ليه ؟ ··

قال ورأسه منكس فوق صدره : والله ما اعرفش ..
قالت وحدتها تشتد :

ـ لأ أعرف .. اطلقت لأنها عاملة خطة علشان تتجوزك .. واذا كنت عايز تتجوزها قول لى وريحنى .. اتكلم .. ساكت ليه ؟

وفتحى واقف قبالتها صامتا .. واحساسه بالضيق يشتد .. احساسه بالقيد الذى يكبله .. واستطردت عواطف صارخة :

ـ أظن فاكر انها بتحبك ؟ مافيش واحده تحب واحد متجوز ويبقى اسمه حب .. لو كانت بتحبك صحيح كانت بعدت عنك .. انما دى طمعانة فيك .. طمعانة فى شهرتك .. وفى اسمك .. زى ما بتحبك ممكن تحب عبد الحليم حافظ ، والا عماد حمدى ، والا يوسف وهبى والا عبد الوهاب اللى كنت حضرتك عنده دلوقت .

وأحس فتحى أن زوجته تطعنه فى كبريائه .. تسلبه حقه فى أن يكون رجلا محبوبا حبا صادقا من امرأة أخرى .. وأحس أنه يهم بأن ينطلق مدافعا عن ليلى .. وعن حبها له .. بل احس بأنه فى حاجة لأن يعترف لزوجتـه بكل شىء .. بكل حيرته .. وكل ضعفه .. لعلها تعينه .. لعلها تنقذه .. ولكنه لم يستطع .. كل ما يستطيعه هو أن يستمر فى كذبه ، حرصا على زوجته .. زوجته التى يحبها أيضا .. وقال وهو يتنهد :

ـ انا ما يهمنيش اذا كانت أى واحـدة بتحبنى ، والا ما بتحبنيش .. كل اللى يهمنى انك تصدقى انى باحبك .. ما فيش يوم ما حبتكيش فيه ..

ونظرت فى وجهه كأنها تحاول أن تصدقه ، ثم قالت :

ـ انت مش حاسس انك اتغيرت يا فتحى .. فاكر انك علشان بترجع البيت كل يوم تبقى بتحبنى ، مش حاسس انك بقى لك تلات أسابيع مابستنيش ولا بوسة .. مابقتش طايق تبوسنى ولا تلمسنى .

قال مقاطعا وهو ينظر اليها فى دهشة :

ـ والله احنا مش عاملين جدول للبوس زى جدول الحصص ..

أنا عمرى ما بستك وأنا حاسس انى بأدى واجب ٠٠ عمرى مابستك لأنك مراتى ولازم أبوسك ٠٠ أنا بابوسك لأنك حبيبتى ٠٠ ولما أقعد جمعة والا شهر ما أبوسكيش ، مش معنى كده انى ماباحبكيش ٠٠ معناه انى سرحان ٠٠ ان فكرى مشغول ٠٠ ومش بعد أربعتاشر سنة تيجى تحاسبينى بستك كام بوسة ٠٠

واضطربت عينا عواطف ٠٠ وزحفت حمرة الحياء على وجنتيها ٠٠ أحست أنها أخطأت ٠٠ وأنها تمادت فى البوح بأحاسيسها حتى تناست كرامتها ٠٠

ولمح فتحى نوبة الحياء التى تعانيها زوجته ، فأراد استغلالها ليستمر فى موقف الهجوم بعد أن كان يقف موقف الدفاع ، فقال :

ـ انتى بقيتى زى الستات البلدى ، اللى قاعدين يحاسبوا أجوازهم باسوهم كام بوسة ٠٠ ويا سلام لو جوز الواحدة من دول ضربها علقة ٠٠ يبقى بيحبها موت ٠٠

ورفعت عواطف رأسها وقد استعادت سيطرتها على نفسها وقالت فى حزم ، ونظراتها ثابتة فى عينى زوجها كأنها تأمره باحترامها :

ـ اسمع يا فتحى ، أنا مش حاسكت الا لما اطمن انك سبت البنت دى ٠٠

وقال فتحى : واعمل ايه علشان تصدقى انى سبتها ؟ ٠٠

قالت وهى لا تزال محتفظة بحزمها : سبها ٠٠

قال : سبتها ٠٠

قالت فى ثبات : لا ماسبتهاش ٠٠ يوم ما حاتسيبها حا اعرف٠

وصرخ فتحى ٠٠ صرخ صراخا حادا كأنه جن ٠ انه لم يعد يحتمل ٠٠ لم يعد يحتمل أن تكذبه زوجته حتى وهو يعرف أنه كاذب ٠٠ واستمر يصرخ :

ـ انتى حاتجننينى ٠٠ انتى قاسية ٠٠ ما فكيش رحمة ما فيش حاجة تريحك الا انى أدبح نفسى تحت رجليكى ٠٠ و ٠٠

وخبط المائدة الصغيرة بقـدمه فأطاحها ·· وأمسـك بزهرية الورد وقذفها فى الحائط فتحطمت ·· ومد كلتا يديه الى الراديو وهم أن يرفعه ، ثم تركه ، وحمل منفضة السجائر ، وألقى بها على الأرض وحطمها ··

انه كالطفل الذى يبكى ، ويحطم ، الى أن تجاب طلباته ··

وعواطف جالسة ثابتة لا يهتز لها رمش ، ثم قالت فى صوت حاسم :

ـ اسمع يافتحى ، اذا ما كنتش حاتسيب البنت دى أنا حاسيبك·

وكف عن الصراخ ·· وشهق ·· واتسعت عيناه فى ذهول ··

انها المرة الأولى التى تهدده فيها زوجته بأن تتركه ·· المرة الأولى التى ينطلق فيها لسانها بهذا المعنى ··

وأحس أنها تهدده بأن تسحب منه حياته ··

تهدده بأن تسحب روحه من جسده ··

وقامت عواطف ، ورأسها مرفوع فى عناد ، وخطت أمامه دون أن تنظر اليه ودخلت الى غرفتها ·· وهو لا يزال واقفا ينظر اليها ، وشهقته بين شفتيه وعيناه متسعتان فى ذهـول ·· ثم أفاق من ذهوله ··

وخبط المائدة الصغيرة الواقعة على الأرض ، بقدمه مرة أخرى وعيناه تلمعان كأنه جن ·· وشفتاه ترتعشان ·· ومقدمة رأسـه تزداد لمعانا وعرق أزرق انتفض بين حاجبيه ·· ماذا يفعل الآن ؟·

هل يجرى فى الشارع الى أن يصل الى كوبرى عباس ، ثم يلقى بنفسه فى النيل ؟ ·· هل يعود الى البار ويسكر ؟ ··

هل يدخل الى زوجته ويضربها ؟ ·· أم يدخل ويتوسل اليها الا تتركه ، حتى لو لم يترك ليلى ؟ وأخذ يدور فى الغرفة والجنون يستبد به ·· والقلق والخوف يعصفان فى صدره ··

ثم دخل الى غرفة البيانو ، وخلع سترته ، وألقى بهـا على الأرض ·· وجلس أمام البيانو ومد أصابعه فوق مفاتيح النغم ··

وأخذ يعزف .. انه لا يدرى ماذا يعزف ؟ .. ربما لم يكن يعزف شـيئا .. انمـا فقط يضرب مفاتيح النغم .. والأنغام تختلط فى أذنيه ، ولا يستطيع أن يميز منها شـيئا سوى أنهـا ضجيج .. وأصابعه ثقيلة فوق البيانو .. ثقيلة .. ثقيلة .. انه يحركهـا بصعوبة كأنها أصابع من حديد ، وكأن وزن كل منها طن .. وهو متعب .. مكدود .. يريد أن يبكى .. لن ينقذه الا البكاء ..

وقام من أمام البيانو .. وألقى بنفسه على الأرض ..

رأسه مستند على ذراعه .. وعيناه مغمضتان ..

ومضت فترة وهو راقد على الأرض ، وعيناه مغمضـتان .. والصمت يغطيه ، والضجة تملأ رأسه .. وقلبه ينز الدموع .. دموع قلقه ، وحيرته ، وخوفه ..

وجاءت عواطف ، ووقفت عند الباب ، تنظر اليه .. كأنهـا تنظر الى طفلها .. الطفل الشقى .. وأحس بها دون أن يرفع اليها رأسه ، ودون أن يفتح عينيه .. أحس بها تنظر اليه ..

ثم ابتعدت عواطف .. لعلها ذهبت الى غرفتها .. والضجيج لا يزال يملأ رأسه .. والقلق والحيرة والخوف ، تمزق صدره ..

وعادت عواطف ، وفى يديها ملاءة بيضاء .. واقتربت منه على أطراف أصابعها .. وجلست عند قدميه تخلع عنه حذاءه ..

وهو صامت .. عيناه مغمضتان .. كأنه نائم ..

وخلعت حذاءه وجوربه .. ثم لفت حوله ووضعت الوسـادة تحت رأسه .. ثم فردت ملاءة السرير وغطته بها ..

وهو لا يزال مغمض العينين .. كأنه نائم ..

وهمت أن تقوم واقفة .. فمد يده وأمسك بمعصمها ، وجذبها اليه جذبة قوية ، وأسقطها بين ذراعيه .. وشهقت ..

ــ انت صاحى ؟ ! .. وهمس : يا حبيبتى ..

ثم دفن رأسه فى صدرها كأنه يحتمى فيه من قلقه وحيرته وخوفه .. كأنه يستمد منه القوة على ضعفه ..

واستسلمت عواطف ·· ومدت يدها وضمت رأسه الى صدرها·
وانهمرت دموعها صامتة ·· ونامت بجانبه ··
بجانب زوجها ·· وحبيبها ·· على الأرض ··

٢٤

كان أحمد عائدا من الاسكندرية ، يقود سيارته فى الطريق الصحراوى ، وابتسامة هادئة تطل من بين شفتيه ··

وقد تعود أن يذهب الى الاسكندرية بين حين وآخر ، منذ سافرت اليها شهيرة بصحبة أهلها ·· وكان ينزل هناك فى بنسيون صغير بسيدى بشر ، ويقضى اليوم كله على الشاطىء بصحبة شهيرة وأخيها ووالدها وأمها وشلة من الأصدقاء ، فى كابينهم الخاص ·· وكان قد تعرف لأول مرة الى والدى شهيرة فى الكابين ·· واستقبلاه استقبالا طبيعيا ·· مجرد واحد آخر من شلة الشبان أصدقاء ابنهما وابنتهما ·· وربما لاحظ أن الأم تهتم به أكثر مما تهتم ببقية شبان الشلة ·· وأنها تتعمد أن تقربه اليها أكثر من غيره ··

وقد أحرج فى أول الأمر عندما عرف الأم والأب ·· ولازمه احراجه مدة طويلة كلما جلس معهما لتناول الشاى فى الكابين مع بقية أفراد الشلة ·· أو كلما دعى دعوة خاصة لتناول طعام الغداء معهما ·· ولكن احراجه بدأ يخفت أمام البساطة الطبيعية التى يعاملانه بها ، والجو المرح البرىء الذى يحيط بالعائلة كلها وبأصدقاء العائلة ·· وكان يعتقد أنهما لابد يعرفان شيئا من حبه لشهيرة ·· ان أخاها يعرف ، وأمها تعرف ·· ولابد أن أباها أيضا يعرف ·· ولكن أحدا منهم لم يحادثه بشأن هذا الحب ·· ولم

يســألـه عن نتائجه ·· كأن الأمر طبيعى أن يكون لابنتهما شــاب يحبها ·· وكأنهما واثقان أن ابنتهما اذا أحبت فلن يكون فى حبها ما يشين ·· بل كأنهما يتعمدان أن يحيطا هذا الحب برعايتهما ، ويمنحاه بركتهما ·· ثم يتركا ابنتهما وحبيبها يقرران ما يشاءان بشأن حبهما ··

ولكن أحاسيس أحمد ـ منذ عرف الأمّ والأب ـ لم تكن بمثل هذه البساطة ·· لقد أحس أنه مسئول أمامهما عن حبه لابنتهما ·· مسئول أمامهما لا أمام شهيرة ·· وأنه يجب أن يطمئنهما على هذا الحب ·· يطمئنهما الى أنه يستحق أن يحب شهيرة ، وأن تحبه شهيرة ·· وأن يقنعهما بالثقة به ·· وأن يقنعهما بأن هــدفه هو الزواج ·· الزواج ·· ليس هناك أب وأم يمكن أن يطمئنــا على مستقبل ابنتهما الا اذا ضمنا لها الزواج ·

وبدأ يفكر أكثر من الأول فى أن يسرع بطلب شهيرة للزواج ·· ولكنه لا يزال مصرا على ألا يطلبها للزواج قبل أن يستقر فى عمل ·· قبل أن يستكمل شخصيته ·· انه لا يريد أن يتقدم اليها وهو عاطل ·· حائر ··

وزاد من احساسه بالمسئولية أن أحدا من أفراد عائلة شهيرة لا يريد أن يعينه على فكرته ·· لا يريد أن يساعده فى بحث موضوع الزواج ، ولا يلمحان اليــه ·· وشــهيرة نفسهــا لا تحادثه فى زواجهما ·· كأنهم جميعا قد اتفقوا على أن يتركوا هذا الموضوع له وحده ·· يقرر فيه ما يشاء ··

وقد استطاع خلال الأيام التى يتردد فيها على الاسكندرية أن يكتسب صداقة الأب ·· كان أحمد أهدأ شبان الشــلة وأرزنهم ، وكان لا يشاركهم فى لهوهم كثيرا ، ولا ينزل البحر اطلاقا ·· لأنه لا يجيد السباحة ·· ولا يجيد ارتداء المايوه ·· فكان يكتفى بأن يجلس على الرمال طول اليوم مع شهيرة يبادلها الحديث ··

وأحيانا يجلس وحده عندما تنزل شهيرة مع أخيها وأصدقائه الى

البحر ·· وفى هذه الفترات كان أبوها يدعوه الى داخل الكابين ليلعبُ معه الطاولة أو الشطرنج ·· ويتبادلان خلال اللعب حديثا هادئا ·· وكان أحمد يحس أحيانا خلال هذه الأحاديث كأن والد شهيرة يمتحنه ·· يمتحن عقليته ، وتصرفاته ، وأخلاقه ·· ثم بدأ يحس أن الوالد بدأ يحدثه كثيرا عن أعماله ·· عن كيفية ادارته لعزبته ، وعن المشروعات الزراعية التى حققها ·· وعن مهنتــه كطبيب وكيف فشل فى أن يكون طبيبا ومزارعا فى وقت واحد ·· فاختار أن يكون مزارعا ناجحا ·· وأن يتردد على عيادته لعلاج حالات قليلة يعطيها كل ما بقى من اهتمامه ووقته ··

وكان أحمد يستمع صامتا كأنه يتلقى درسا فى تجارب الحياة ·· لم يحاول أن يعرف كم يملك والد شهيرة ، ولكنه كان يحاول أن يعرف كم تجربة مر بها ·· كانت ثروة الأب ، آخر ما يهم أحمد أن يعرفه ·· ولكن الوالد كان يتحدث عن ثروته ويفيض فى تفاصيلها، كأنه يهم أن يضعها أمانة بين يدى أحمد ·· ! ؟

وفى آخر مرة كان أحمد يزور فيها العائلة ، قال والد شهيرة وهو يلاعبه دور شطرنج : تعرف انى قررت انى أفتح مصنع ؟ ··

وقال أحمد فى دهشة : مصنع ايه يا عمى ؟ ··

وقال الوالد فى بساطة وهو مستمر فى تحريك قطع الشطرنج :

ــ أصل الحقيقة أنا عندى قرشين ماكنتش عارف أعمــل بيهم ايه ؟ ·· ماكانش ممكن أشترى أرض لأن عندى ٢٠٠ فدان ، وما أقدرش أمتلك أكتر من كده ·· وماكانش ممكن أشترى أسهم لأنى ما احبش أحط فلوسى فى حاجة ما اشتغلتش فيها ·· أنا مايهمنيش انى اكسب ، انما يهمنى انى أشتغل ··

وقال أحمد : وزيرك يا عمى ··

وحرك الوالد « الوزير » فوق رقعة الشطرنج وهو مستمر فى حديثه :

ــ والســنة اللى فاتت أما كنت فى أوربا ·· اتصــلت بشركة

أدوية ، وعرضوا على انى آخد توكيلها .. ووعدتهم انى أفكر فى الموضوع .. انمـا بينى وبينـك ماكنتش متحمس للفكرة ، لأنى ما احبش التجارة .. ما احبش شغلة وكلاء الشركات .. انما لما رجعت مصر قعدت أفكر .. وقلت لنفسى ليه الشركة دى ماتجيش تفتح مصنع فى مصر وأساهم معاها فيه ؟ .. وبدل ما نستورد منها الأدوية ، تيجى تعملها لنا هنا ؟ .. ونقدر نوزعها على منطقـة الشرق الأوسط كلها ؟ .. وبعت لهم جواب بالفكرة دى .. وردوا على ، وطلبوا بيانات ، واحصائيات ، وقوانين .. وبعت لهم كل حاجة .. واستمريت أناقشهم بالمراسـلة ييجى تسعة أشـهر .. وأخيرا وافقوا على المشروع .. وباذن الله حاسافر الشهر الجاى، علشان نوقع العقد ..

وقال أحمد : دى فكرة عظيمة قوى يا عمى ..

وقال الوالد : بس عايزة شغل كتير ..

وقال أحمـد كأنه يحذره : والحالة الدوليـة .. مش تفتكر يا عمى ان الظروف دلوقت تخلى رؤوس الأموال الأجنبية تكش .؟!

وقال الوالد : أنا فكرت فى الظروف دى ، انما الواحد لو حسب حساب كل حاجة ، عمره ماحايشتغل .. احنا نمشى فى المشروع واذا ما تمش .. ماخسرناش حاجة ..

ثم رفع الوالد رأسه عن رقعة الشطرنج ، واستطرد وهو ينظر فى وجه أحمد : ايه رأيك لو اشتغلت معايا فى المشروع ده ؟ ..

وارتعشت عينا أحمد امام عينى الأب وقال كأنه فوجىء : أنا ؟!

وقال الوالد مبتسما : أيوه .. أنا الحقيقة واثق فيك يا أحمد ، وباعتبر انك شاب ممتاز ..

وقال أحمد كأنه يحاول أن يهرب : بس أنا ماعنـديش فلوس أقدر أساهم بيها فى مشروع كبير بالشكل ده ؟ ..

وقال الوالد وابتسامته تتسع :

ـ أنا مش عايزك تساهم بفلوس .. أنا عايزك تساهم بمجهودك

وأنا محتاج لواحد يقف جنبى ويساعدنى وأثق فيه ·· الحقيقة انى باعتقد ان الشبان يقدروا يشتغلوا أحسن من العواجيز اللى زينا ·· ثم ان مشروع زى ده محتاج لثقافة قانونية ·· وانت راجل محام ·· ؟ !

وفجأة امتلأ صدر أحمد باحساس غريب ·· احساس بأن والد شهيرة يريد أن يساعده ·· انه لا يثق فيه ، ولكنه يشفق عليه ·· أو ربما أراد أن يساعده حتى يسرع فى طلب الزواج من شهيرة ··

وقال كأنه يدافع عن كرامته ، ويتعمد أن يكون صريحا كأنه لا يخجل من فشله ، ورعشة فى صوته تعبر عن المعركة الدائرة فى صدره :

ـ والله يا عمى أنا ما اعتقدش انى أنفع فى أعمال الشركات ·· أنا حاولت أشتغل فى شركة تأمين ومانفعتش ·· وحاولت أشتغل محامى ، مانفعتش ·· وأفضل انى أشق طريقى بنفسى لغاية ما انجح فى حاجة ·· ويمكن بعد كده أقدر أعرف اذا كنت أستحق ثقة سعادتك ، والا لأ ·· ؟ !

وامتلأت عينا الوالد بنظرة حنان ، واتسعت ابتسامته أكثر ، وقال : ده يخلينى أعجب بيك أكتر يا أحمد ·· وأثق فيك أكتر ·· كش ملك ··

وحرك أحمد الملك ، والمعركة لا تزال محتدمة فى صدره ··

وعاد الى القاهرة وهو لا يستطيع أن يتخلص من هذه المعركة ·· ان والد شهيرة يعرض عليه عملا ·· لماذا ؟ ربما أراد أن يختبره ·· ربما اعتقد أنه لا يحب شهيرة الا طمعا فى أن يساعده والدها على أن يجد عملا ·· أو طمعا فى ثروتها ؟ ·· وربما أراد أن يشعره بأنه عاطل ، وأنه يجب أن يجد عملا اذا أراد أن يتزوج شهيرة ؟ ·· وربما لم يقصد بعرض مساعدته عليه الا أن يستحثه على تحديد علاقته بشهيرة ·· ؟

يجب أن ينتهى من تحديد هذه العلاقة ·· وأن يوضحها للناس ·

انه سيحادثها فى الموضوع ·· بصراحة ·· ومن يدرى لعلها تقنعه بأنه يستطيع أن يتزوجها حتى قبل أن يجد عملا ·· المهم أن يقطع محاولة الهروب من مواجهة موضوع الزواج ·· فهو لم يحادثها فيه منذ أن ذهب اليها ليلا وهو شارد النفس ، ضائع ، يفكر فى الهروب من أمه ··

وعاد الى الاسكندرية فى الأسبوع التالى ··

وانفرد بشهيرة ساعة الغروب وكانا جالسين على الرمل أمام الكابين ·· والشمس مخضبة بلون الخفر ، تحاول أن تخفى وجهها فى البحر ، وقال أحمد وهو يحاول أن يخفى انفعاله وراء ابتسامته:

ـ شهيرة ·· أنا باين على انى عايز أنتحر النهاردة ؟ ··

وقالت شهيرة وهى تبتسم : ورينى كده ··

ونظرت فى عينيه ·· ثم مدت أصابعها وجست نبضه كأنها طبيب يفحصه ·· ثم قربت رأسها من صدره ، وقالت وهى تفتعل لهجة جادة : سمعنى قلبك ··

وركنت رأسها على صدره ·· وضمها اليه ضمة خفيفة سريعة ثم رفعت رأسها ، وقالت مبتسمة : لا ·· ماعندكش انتحار !

وضحك أحمد ضحكة خافتة ·· ثم أحنى رأسه ، وقال وهو يعبث بأصابعه فى الرمل :

ـ أنا أصلى نوبة كلمتك فى الجواز ، قلتى لى انى با اتكلم زى ما اكون عايز أنتحر · حبيت أتأكد النهاردة انى مش عايز انتحر·

وقالت شهيرة ، وقد بدأت وجنتاها تتوردان :

ـ انت ناوى تتكلم فى الجواز ؟ ··

ورفع أحمد رأسه ، والتقط يدها فى يده ، وقال وهو يشرب بعينيه من عينيها :

ـ احنا لازم نتكلم فى الجواز ·· مش ممكن نفضل ساكتين كده على طول ·· وأنا كل يوم أصمم انى أكلمك ، وبعدين أرجع وأقول خلى الموضوع ده بعدين · ·انما خلاص ·· ما بقاش فيه

بعدين ·· أنا متهيأ لى كل ما أشوف ماما والا بابا انى حا ازعق
واقول : عايز أتجوز ·· ! ؟
وقالت شهيرة مبتسمة فى خفر :
ــ انت عايز تتجوز علشان خاطر ماما وبابا ؟!··
قال فى حماس :
ــ لا ·· مش قصدى ·· انما انتى ممكن تفهمينى ·· انما بابا
وماما مش ممكن يفهمونى ·· على الأقل مايقدروش يفهمونى زيك·
وقالت شهيرة وهى تدلله بعينيها :
ــ بابا وماما فاهمينك أكتر منى ··
وقال أحمد مستطردا فى حماسة :
ــ المهم اننا لازم نتكلم فى الموضوع ·· ولازم ناخد قرار ··
أنا ماكنتش عايز أتكلم فى الجواز الا بعد ما ألاقى شغل واستقر ··
لغاية ما انجح فى حاجة ·· علشان تبقى اتجوزتى انسان ناجح ،
مش عاطل ·· ولازم بابا وماما يفهموا كده ·· و ··
وقاطعته شهيرة قائلة : بلاش تجيب سيرة بابا وماما ·· احنا
اللى حانتجوز ·· لا بابا ولا ماما ··
وقال أحمد كأنه أحرج : طيب ·· انتى رأيك ايه ·· ؟
وقالت فى براءة : فى ايه ؟ ··
وقال أحمد : فى جوازنا ؟ ··
وقالت شهيرة : زى ما قلت لك ·· أنا مايهمنيش امتى نتجوز
·· انما المهم انى أثق من اننا حانتجوز ·· وانا واثقة ··
وسكت كأن مشكلته قد حلت فى كلمتين ·· ثم عاد يقول فى
تردد : مش تفتكرى اننا ممكن نتخطب ·· وبعدين نستنى لغاية ما
·· وقاطعته وعلى شفتيها ابتسامة كبيرة :
ــ امال احنا ايه دلوقت ·· ؟
قال : قصدى علشان الناس ··
قالت : الناس اللى يهمونا معتبرينا مخطوبين ··

وعاد أحمد يسكت محرجا ٠٠ وضغطت شهيرة على يده وقالت في هدوء : اسمع يا أحمد ، احنا مابنحبش بعض علشان نتجوز ، احنا حانتجوز علشان بنحب بعض ٠٠ وما دام بنحب بعض ، يبقى ما فيش مشكلة ٠٠ ويبقى ضرورى حانتجوز ٠٠ وانت عايز تخطبنى لأنك فاكر ان ماما وبابا متضايقين ٠٠ اطمن ٠٠ ماما وبابا عارفين اننا بنحب بعض ٠٠ وعارفين اننا حانتجوز ٠٠ النهاردة والا بكره مش مهم ٠٠ المهم انهم واثقين منك ٠٠ انت عملت ايهفى بابا ٠٠ ده معجب بيك خالص ٠٠ بيحبك أكتر منى

وأحس أحمد بالزهو ، كأن حب والدها وسام يعلقه على صدره وقال ضاحكا : وأنا كمان باحبه ، انما مش أكتر منك ٠٠

وقالت شهيرة : لو حبيته أكتر منى ، مش حا اغير ٠٠

وقال أحمد : وانتى لو حبتيه أكتر منى ٠٠ حا اغير !

وانحنى وقبلها قبلة سريعة على خدها ٠٠ ثم اعتدل ونظر الى الشمس وهى تغسل نفسها بماء البحر ٠٠ وتنهد كأنه يحمد الله ٠٠ ثم التفت اليها فجأة وقال كأنه تذكر موضوع الزواج مرة أخرى :

ـ بس أنا شايف ان مش ممكن بابا وماما يستحملوا اننا نفضل كده ٠٠ ؟ !

وقالت شهيرة فى حزم :

ـ أحمد ٠٠ مافيش مشكلة قدامك دلوقت الا انك تلاقى الشغلة اللى تعجبك ٠٠ دى مشكلتك ومشكلتى ٠٠ ويوم ما حاتلاقى شغل حا تتحل مشكلتك ومشكلتى ٠٠ ومشاكل العالم كلها ٠٠ وأنا مش عايزاك تفكر دلوقتى الا فى شغلك ٠٠ وتأكد أننا لو اتخطبنا والا اتجوزنا قبل كده ، مش حاتكون سعيد ٠٠ لأن المشكلة حاتفضل زى ماهى ٠٠ وأنا مابقولش كده علشان عايزاك تشتغل ، انما لأنك انت عايز تشتغل ٠٠ ومش ممكن حا اقدر أخليك سعيد ، من غير ما تشتغل ٠٠ صدقنى يا أحمد ٠٠ دى مشكلتك ٠٠ وده اللى تاعبك ٠٠ وأنا واثقة انك حا تشتغل قريب ٠

قال وهو ينظر الى بعيد : أنا مش واثق ..
قالت مبتسمة : تراهن .. ؟
قال : أراهن على ايه ؟ .. اذا كنت أنا نفسى مش عارف أنا عايز اشتغل ايه ؟ ..
قالت : حا تعرف ..
قال : وايه اللى مطمنك كده ؟ ..
قالت : انى باحبك .. وانى عارفة انك بتحبنى ..
قال وهو يمسك بكلتا يديها ، وينظر فى عينيها كأنه يقبل كل سنتيمتر فى وجهها : تراهنينى ..
قالت : على ايه ؟ ..
قال مبتسما :
على انى حا اشتغل .. واننا حانتجوز قبل الصيف مايخلص.
قالت وهى تلتقط ابتسامته : ما انا عارفة ..
وقفز واقفا ، وجذبها من يدها لتقف بجانبه ، وقال فى حماس :
ـ تيجى ناخد العربية ونطلع أبو قير .. ؟
قالت ضاحكة .
ـ لا .. حضرتك معزوم معانا على السينما .. بابا هوه اللى عازمك .. علشان تحرم تلاعبه شطرنج لغاية ما يحبك ! .
ووصل أحمد الى القاهرة فى الساعة السادسة مساء .. وابتسامته الهادئة تطل من شفتيه ، وفرحة كبيرة فى قلبه ..
واحس بالجوع .. لقد ترك الاسكندرية فى الساعة الثالثة دون أن يتناول غداءه ..
وقاد سيارته ناحية شارع سليمان باشا ، قاصدا محل الاكسلسيور ليتناول فيه بعض قطع الساندويتش .. ودخل من شارع شامبليون ، حتى يصل الى شارع فؤاد ، ومن هناك يدخل فى شارع شارع سليمان باشا من أوله ..

وفجأة اهتزت عجلة القيادة فى يده بعنف ، كأنه أصيب برصاصة فى ظهره ·· لقد رأى ليلى ·· أخته ليلى ·· !

رآها خارجة من عمارة فى شارع شامبليون ومعها فتحى ··

وهى لم تره ، ولا فتحى ·· انه متأكد أنهما لم يرياه ··

وبحركة لاارادية ضغط بقدمه على ضاغط البنزين ·· فانطلقت السيارة كأنها جنت ·· وكأنه يحاول أن يهرب بهـا ·· يهرب من شبح أسود بشع يطارده ·· وعيناه غائمتان ·· لا يكاد يرى أمامه وأزيز حاد يضج فى رأسه ·· ونار تنطلق من صدره وتلفح وجهه وعجلة القيادة تتحرك بين يديه حركات تلقائية لا يقصدها ·· وهو لا يستطيع أن يفكر ·· انه محموم ·· لا يستطيع أن يسيطر على تفكيره ، ولا على أعصابه ·· لا يدرى ما يفعـلـه ، ولا ما يمكن أن يفعله ··

وفجأة أحس بالسيارة ترتطم ارتطاما عنيفا ·· وأحس بنفسـه يندفع فوق عجلة القيادة ، فتنغرز فى صدره ، وتكاد تحطم ضلوعه · ورأسه يصطدم بزجاج السيارة الأمامى ، صدمة عنيفة ·· وصرخ : آى ·· ثم انتبه ··

أفاق من الحمى ·· وانزاحت الأشباح التى تطارده ·· ونظر حوله ·· لقد اصطدم بسيارته فى عربة يد ·· ودقق النظر ليتأكد من أن أحدا لم يصب ·· لا ·· لم يصب أحد ·· انه لا يرى أحدا ملقى على الأرض ·· ولا يرى دما يسيل ·· الا الدم الذى يسيل من جرح صغير فى جبهته بعد أن ارتطم بزجاج السيارة الأمامى ··

وأخرج منديله يمسح دمه ·· ورجل يطل عليه من نافذة السيارة ويصرخ فى وجهه :

ـ جرى ايه يا أفندى ·· ما تفتح ·· ما تبص قدامك ··

ورجل آخر يشوح بقبضة يده ويصيح :

ـ انتم فاكرين نفسكم ايه ؟ ما خلاص ·· أيامكم انتهت ·· انتم فاكرين الناس اللى فى الشارع دول ايه ؟ ·· بهايم ·· ! ؟

وتمتم أحمد فى صوت خفيض : أنا آسف ··

ورجل يطل عليه من الناحية الأخرى للسيارة :

– دى سواقة دى يا أستاذ ؟ ما تبقى تتعلم السواقة قبل ما تدوس الناس ·· !

وعاد أحمد يتمتم : أنا آسف ··

ورجل يصيح : وحانعمل بأسفك ايه ؟ ·· كنت حاتموت الراجل ·· الله ياخدكم ويريح البلد منكم ··

وصاحب العربة يهجم على السيارة وهو يصرخ :

– خربت بيتى ·· الله يخرب بيتك ··

وعينا أحمد تدوران بسرعة ·· والناس يتكاثرون حول السيارة وهو جالس فيها والأفكار مختلطة فى رأسه ·· ومنديله فوق الجرح الذى يشق جبهته ·· وضجيج كبير ·· والخوف يزحف على صدره ·· الخوف من أن يعتدى عليه كل هؤلاء الناس ·· ولا يدرى كيف يواجه هذا الخوف ·· ولا كيف يواجه غضب كل هؤلاء الناس ·· هل يواجههم معتذرا آسفا ؟ ·· أم يواجههم ثائرا متحديا ، مدعيا أن عربة اليد هى التى اعترضت طريقه ؟ ··

وصاحب العربة يصرخ ·· ويولول ·· ويشوح بيديه ··

وناس يصيحون : فين العسكرى ؟ ·· اندهوا العسكرى ·· ؟

واقترب رجل يرتدى الزى الافرنجى ، وأدخل رأسه داخل السيارة ، وهمس فى أذن أحمد : اديله قرشين واخلص ··

وقال أحمد للرجل الذى أدخل رأسه اليه : أنا مستعد ··

وسحب الرجل رأسه من السيارة وصاح فى صاحب العربة :

– بس يا راجل ايه اللى حصل لك ؟ ما العربية سليمة اهيه !··

وصرخ صاحب العربة :

– سليمة ·· سليمة ازاى يا حضرة ؟ الخضار وقع كله على الأرض ·· القوطة اتفعصت كلها ؟ وعجلة العربية انكسرت ··

وهجم على أحمد داخل السيارة يحاول أن يعتدى عليه ·· وهو يصرخ : ده أنا بيتى اتخرب ·· ! ؟

وصده الرجل المتطوع ، وهو يقول :

– تاخد خمسين قرش ·· ونحل الاشكال ؟ ··

وصاح صاحب العربة : خمسين قرش ؟ ·· دى العربية عليها خضار باتنين جنيه ·· ؟ !

وقال الرجل : يا راجل اعقل ·· مش أحسن ما تروح للبوليس ، وما تطلعش بحاجة ؟ ! ··

ومد أحمد يده فى جيبه ، وأخرج جنيهين ·· ومد يده بهما للرجل ·· قائلا فى هدوء : خد ·· اتنين جنيه ·· أهم ··

وصرخ الرجل : مش ممكن ·· لازم أوديك البوليس ··

وأخذ الرجل المتطوع الجنيهين ، ووضعهما فى يد صاحب العربة قائلا : خد ·· بلاش غلبة ··

وضحك أحد الواقفين ضحكة عالية ، وخبط على ظهر صاحب العربة قائلا : حلال عليك يا عم ··

وارتفعت ضحكات من حول العربة ·· وصاح واحد فى وجه أحمد : مع السلامة يا أستاذ ·· ابقى خدبالك ؟ ··

وصاح آخر مقهقها : ابقى امشى على الرصيف ··

وهمس الرجل المتطوع : اطلع انت بقى يا أستاذ ··

وأدار أحمد محرك السيارة ·· وقال دون أن ينظر الى أحد ، وابتسامة بلهاء بين شفتيه : السلام عليكم ··

وقاد السيارة فى بطء ·· وارتفعت فى خياله صورة أخته ليلى وهى خارجة من العمارة بصحبة فتحى ··

وأحس بيد قاسية تخنق قلبه ··

أحس بأمواس حادة تشرط كرامته وتمزقها ··

وأحس بموجة من الخجل تغرقه وتبلل ثيابه ·· الخجل من أخته ·· والخجل من نفسه ··

ماذا يفعل ؟·· هل كان يجب أن يفاجئهما ويضربهما ·· يقتلهما·
ولكنه لم يفاجئهما ·· لم يستطع ·· هرب ·· هرب من الموقف البشع ·· وماذا يفعل ؟
هل يذهب الآن الى البيت وينتظر أخته الى أن تعود ·· ويضربها ·· لقد سبق أن ضربها ·· وظلت على علاقتها بفتحى ·· هل يسجنها فى البيت ·· لقد سبق أن سجنها ·· وهربت ·· هل يزوجها رغم انفها ·· لقد زوجها ·· فلم ينسها الزواج علاقتها بفتحى ·· ماذا يفعل ·· يا رب ·· ماذا أفعل ·· ؟ !

وتذكر أنه سبق أن رأى أخته الأخرى نبيلة مع محمود ·· ولكن نبيلة ومحمود كانا يسيران على النيل ، وليسا خارجين من عمارة ·· ومحمود شاب ·· وليس رجلا متزوجا كفتحى ·· انه لم ير ليلى وفتحى ، كما رأى نبيلة ومحمود ·· لم يرهما فى موقف حب ·· لقد رآهما فى موقف خطيئة ·· رأى أخته خارجة من عمارة مع رجل ·· كأنه رآها عارية على فراش رجل ··

ورغم ذلك لا يستطيع أن يفعل شيئا ·· لا يستطيع ··

ودخل بسيارته فى شارع سليمان باشا ، ولم يتوقف عند محل الاكسلسيور ·· نسى أنه جائع ·· واستمر فى طريقه ·· واستمر يناقش نفسه ··

ربما كان كل ما يستطيع أن يفعله الآن ، هو أن يجتر عذابه ·· أن يحمل فى صدره هذا السيخ المحمى فى النار ، ويعيش به ·· وأن يحمل أخته ليلى مسئولية اندفاعها فى حبها ·· أن يتركها فى اندفاعها الى أن تتحطم ، أو تنقذ نفسها فى اللحظة الأخيرة ·· وليلى لم تعد صغيرة الآن ، انها فتاة كبيرة ·· انها امرأة ·· وتستطيع أن تتحداه اذا حاول أن يفرض عليها رأيه ·· والتحدى قد يدفعها الى التهورأكثر ·· لا ·· انه لن يحاول أن يفرض عليها رأيه ·· ولن يعطيها فرصة لتحديه ·· سيتركها تحمل مسئولية نفسها ·· المسئولية كلها ·· وسيتركها تنقذ نفسها ·· وتكتب

نهاية قصتها بيدها ·· ولن يتدخل الا اذا كانت فى حاجة اليه ·· وهى لن تكون فى حاجة اليه الا اذا جاءته وطلبت منه أن يتدخل ·

وتقلص وجهه من الألم ·· وازداد قلبه انقباضا ··

ثم وجد نفسه يفكر فى شهيرة وعائلتها ، ويقارنها بأخواته وعائلته ·· ان شهيرة تذهب الى النادى ·· وتختلط بالشبان ·· وترقص ·· وأهلها ·· يمنحونها حق الحب ، ويضعون حبها فى رعايتهم ·· وأخواته البنات لا يذهبن الى النادى ·· لا يرقصن·· ولا يستطعن أن يعلن حقهن فى الحب ·· ورغم ذلك فشهيرة أكثر استقرارا ، وأكثر تحصنا من الخطيئة من أخواته البنات ··

ترى لو أن ليلى قد نشأت فى مجتمع آخر ·· مجتمع مفتوح صريح كمجتمع شهيرة ، هل كانت تنقاد الى حب خاطىء ·· ؟

وأحس بنفسه كأنه يغار من شهيرة ومن عائلة شهيرة ·· ثم أحس كأنه بدأ ـ بينه وبين نفسه ـ يدافع عن أخته ليلى وعن تصرفاتها ، حتى لا تكون أقل من شهيرة ·· ان أخته معذورة ·· فقد فقدت أباها وهى صغيرة ·· أباها الذى كان يحبها أكثر مما يحب أى فرد آخر من أفراد العائلة ·· وكان يدللها ·· يدللها أكثر مما يجب ·· الى حد أن جعل منها ملكة على البيت ·· ثم تركها ·· ذهب ·· ولم تجد غيره ·· لم تجد من يدللها ويصنع منها ملكة ·· فقدت عرشها ·· وكبرت وهى فى حاجة الى مثل هذا الأب ·· وربما كانت هذه الحاجة هى التى دفعتها الى فتحى ·· وهى التى جعلتها تندفع كل هذا الاندفاع لتعوض ما تحس به من نقص ··

انه يستطيع أن يقول هذا الدفاع أمام شهيرة ، اذا سألته عن قصة ليلى ·· ولكن ·· انه ليس مقتنعا ··

انه فقط يتصور الناس يسألونه ، وانه ـ دفاعا عن كرامته ـ يقف ليدافع عن أخته ·· يدافع عن قضية ليس مقتنعا بها ·

ولن يستطيع أن يقتنع ··

ليس فى ملايين الأسباب والمبررات ما يمكن أن يقنعه ··

فالاقتناع مركزه العقـل ·· وعذابه ليس فى عقـله ·· ولكن فى عاطفته ·· عاطفة الأخ ··

ووصل الى البيت ·· ووجهه يكسوه الألم ··· شفتاه مقلوبتان وعيناه ساخطتان ·· وقابلته أخته نبيـلة فى البهو الخارجى ، وصاحت مهللة : آبيه ·· الحمد لله على السلامة ·· !

وهز رأسه ، وتمتم تمتمة خفيضة واسـتمر فى طريقـه الى غرفته ·· وقالت نبيلة ، وهى تجرى وراءه :

ــ ما عرفتش يا آبيه ·· أنا حاشتغل ·· !

والتفت اليها لفتة سريعة ، ومر بعينيه بريق خاطف ، ما لبث أن انطفأ ·· ولم يرد عليها ·· واستطردت نبيلة وهى تدخل معه فى حجرته :

ــ أبو صاحبتى زينب شغلنى سكرتيرة عنده فى الشركة ومرتبى خمستاشر جنيه فى الشهر ·· انما مارضتش أوافق الا لما آخد رأيك الأول ··

ونظر اليها أحمـد نظرة سـاخرة وقال كأنه لم يعـد يبالى :

ــ اشتغلى ··

قالت نبيلة وهى تقفز فرحة :

ــ مرسى يا آبيه ·· بس عليك بأه تقنـع ماما ·· مش راضية وعايزانى أفضل لغاية ما خلص الجامعة ··

قال وهو لا ينظر اليها : ولا يهمك ··

واستطردت نبيلة كأنها لا تكف عن الكلام ، وكأن أحمد ليس اخاها فحسب ، ولكنه صديقها ··· أعز أصدقائها :

ــ ومحمود كمان ماكانش عايزنى أشتغل ·· كان مصمم انى افضل فى الجامعة لغاية ما يلاقى شغل وبعدين نشـوف حانعمل ايه ، انما قدرت اقنعه ·· تصور يا آبيه انهم أجلوا امتحان الاذاعة ·· ده محمود حا يتجنن · و ··

ولاحظت نبيلة أن أخاها لا يستمع اليها ·· ولمحت خطوط الألم

التى تشق وجهه والجرح الصغير فوق جبينه ، وقطعت حديثها ، ونظرت اليه فى جزع ، وقالت فى حنان : مالك يا آبيه ٠٠ ؟

وقال دون أن ينظر اليها : ماليش ٠٠

قالت وهى تقترب منه : حصل حاجة ؟ ٠

قال فى ضيق : لأ ٠٠ ما حصلش حاجة ٠٠

قالت : ده انت متعور !! ٠٠

قال : أصلى اتخبطت فى باب العربية ٠٠

قالت : أجيب لك صبغة يود ٠٠ ؟

قال : لأ ٠٠ ماتستاهلش ٠٠

قالت : بس و ٠٠

وقاطعها فى حدة :

ـ نبيلة ٠٠ من فضلك تسيبينى دلوقت ٠٠

وانهارت ملامح وجهها ، وأدارت ظهرها ، وسارت فى خطى بطيئة ، وقبل أن تصل الى الباب ، صاح بها أحمد : نبيلة ٠٠

والتفتت اليه ٠٠

وابتسم لها ابتسامة صغيرة مسكينة ، وقال

ـ مبروك على الوظيفة ٠٠ ابتدى اشتغلى من بكره ٠٠

وأشرق وجه نبيلة ، ثم خفت شروقها مرة واحدة ، كأنها تذكرت أن أخاها يعانى شيئا تجهله ، وقالت :

ـ مرسى يا آبيه ٠٠ ربنا يخليك لى ٠٠ وخرجت ٠٠

وانهار أحمد على المقعد ٠٠ ووضع رأسه المنهك بين يديه ٠٠ وازداد تقلص وجهه كأنه يهم بالبكاء ٠٠

٢٥

كان جمال عبد الناصر يخطب فى الاسكندرية ·· وأحمد فى بيته الجالس بجانب الراديو يستمع اليه ·· ويحس بقشعريرة تهز جسده ·· يحس كأن صوت جمال ينفذ من مسام جلده ويسرى فى دمه ·· يحس به كأنه ضربات سياط تستنهضه ، وتصيح به أن يهم ويؤدى واجبه ··

وسر شقائه أنه لا يعرف ما هو الواجب الذى يجب أن يؤديه ·

وفجأة انتفض أحمد فى جلسته ، وهب واقفا ·· وعيناه مبهورتان ·· وأنفاسه متلاحقة ·· ووجهه محتقن كأن النار اشتعلت فيه فجأة ·· لقد أعلن جمال تأميم القنال ··

أممنا القنال ·· نحن الذين أممناها ··

نحن الشعب كله ·· الذى ينطق جمال بلسانه ··

ودار أحمد فى غرفته كالمجنون ، وعاطفته الوطنية تكاد ترفعه من الأرض ·· وحماس طاغ يملأ صدره ، ويتصاعد الى رأسه ··· لا بد أن يفعل شيئا ·· لا بد أن له دورا يقوم به فى كل هذه الأحداث الخطيرة التى تدور حوله ·· ان الأحداث أحداث الشعب ، وهو واحد من الشعب ·· ويجب أن يشترك ·· أن يساهم ·· انه لا يستطيع أن يعيش الا اذا عاش هذه الأحداث ··· ولكن ماذا يفعل ؟ ·· ما هو دوره ·· ؟

واستمر يدور فى الغرفة ، وهو يضرب قبضة يده اليمنى فى راحة يده اليسرى ·· وفى هذه اللحظات تلاشى احساسه بمشاكله الخاصة ·· لم تعد له مشكلة خاصة ·· ليست فى حياته مشاكل

عائلية ، ولا مشكلة البحث عن عمل ‥ فى حيـاته مشـكلة أهم وأكبر ‥ مشكلة تبتلع كل المشاكل الأخرى ‥

مشكلة المساهمة فى الحدث الخطير ‥

مشكلة البحث عن شىء يقوم به ، ليرتفع الى مستوى احساسه الوطنى ‥ ماذا يفعل ‥ ؟

وسقطت عيناه على آلة التليفون ، وقال مبحلقا فيها برهة ، كأنه ينتظر أن يسمع رنينها ويرفع السماعة فيسمع صوت جمـال عبد الناصر يأمره بأن يتوجه الى أداء واجبه ، ويحدد له هـذا الواجب ‥

وشد عينيه من فوق آلة التليفون ‥ وعاد يدور فى الغرفة ٠ والهتاف الذى ينبعث من الراديو كأنه ينبعث من صدره ‥ كأن فى صدره ملايين من الناس كلهم يهتفون لجمال ‥ يهتفون لتأميم القنال ‥ ثم لم يعد يطيق البقاء فى البيت ‥

انه يريد أن ينضم الى الناس ‥ يريد أن يجد نفسه بين الملايين ‥ ليسير معهم فى طريق الحدث الكبير ‥ وخرج ‥

وقاد سيارته الصغيرة ، وهو لا يدرى أين يتجه بهـا ‥ ثم تركها فى شارع قصر النيل ، وأخذ يسير على قدميه ‥ وينظر فى وجوه الناس ، كأنه يسأل كلا منهم الى أين يذهب ‥ وخيل اليه أنه يرى الناس فى الطريق ، أطول قامة مما تعود أن يراهم ‥ وأن عيونهم أشد لمعانا ‥ وأن وجوههم أكثر صلابة ‥

وتمنى أن يلتقى بصديق ليتحدث اليه ‥ ليبادله الرأى ‥ ليناقشه فيما يفعلان ‥ لينفس عن حماسـه ‥ انه والنـاس لا يستطيعان أن يتركا جمال وحده فى هذه الأيام ‥ ان جمال قوى به ‥ قوى بالشعب ‥ ويجب أن يتجمع الشعب ليضع نفسه فى قبضة جمال ، ليضرب بها أعداء الشعب ‥

ولكنه لم يجد صديقا يتحدث اليه ‥ وعاد الى بيته ‥ ودخل

الى أخواته البنات وهن مجتمعات فى غرفة أمه ، وقال وحماسه يزغرد من خلال ابتسامته : سمعتم خطبة جمال ؟ ··

وأجابت فيفى ونبيلة فى صوت واحد : أيوه ··

قال : احنا أممنا القنال ··

وقالت نبيلة :

ـ الحقيقة الريس بتاعنا جرىء قوى ·· أنا جسمى كله كان بيقشعر وأنا باسمعه ··

وقالت الأم وهى تنظر الى أولادها نظرات جزعة :

ـ انما تفتكر حايحمل ايه بعد كده يا أحمد ·· ؟

وقال أحمد وابتسامته بين شفتيه : ولا حاجة ··

وقالت ليلى وهى جالسة خلف أحمد بحيث لا يراها :

ـ انما متهيألى ان الانجليز مش حايسكتوا ··

ولم يلتفت اليها أحمد ·· كأنها أضعف وأصغر من أن تساهم فى هذا الحديث ·· ومنذ أيام وهو لا يلتفت اليها ·· منذ رآها خارجة من العمارة مع فتحى ·· وعاد يقول موجها الكلام الى أمه :

ـ ومهما حصل ·· المسألة تستاهل ·· انتى مش متصورة يا ماما تأميم القنال يعنى ايه ·· يعنى خنقنا الامبراطورية البريطانية ··

وقالت فيفى : متهيألى ان هم اللى حايخنقونا ··

وقالت الأم : بس المهم ماتحصلش حرب ··

وقال أحمد فى حماس :

ـ وفيها ايه لو حاربنا ·· حد كان يصدق ان الانجليز حايخرجوا من مصر ·· حد كان يصدق ان الملك حاينطرد ·· حد كان يصدق ان الثورة حاتقوم ·· وكل ده اتحقق ·· يبقى ليه ما يتحققش تأميم القنال ·· وليه مانحاربش الانجليز وننتصر ·· ؟

وسكت برهة ثم قال كأنه يطمئن أمه :

– انما الانجليز مايقدروش يحاربونا ‥ اللى كان بيحصل من سبعين سنة ، مش ممكن يحصل دلوقت ‥

وأحس أحمد بأهميته وهو يشرح لعائلته الصغيرة الأحداث التى يمكن أن تترتب على تأميم القنال ‥ ولكنه بعد أن عاد الى غرفته زايله الشعور بالأهمية ، وعاد تائها يحاول أن يتصور الأحداث المقبلة ، ويحدد دوره فيها ‥ ورقد فى فراشه ، وهو يراجع كل دراساته السياسية ، وكل آرائه فى السياسة الدولية ‥ هل يحارب الاستعمار ليسترد القنال ‥ ان الاستعمار لا يزال بكامل قواه رغم الضربات التى يتلقاها ‥ انه يحارب فى الجزائر ‥ وقد حارب فى الهند الصينية ‥ وحارب فى كوريا ‥ هل تصبح معركة القنال ، كوريا أخرى ‥ هل نستعين بروسيا على انجلترا ‥ و ‥

وصحا فى اليوم التالى متلهفا على الصحف ‥ وقرأ خطاب جمال عبد الناصر مرة ثانية ‥ وقرأ التعليقات ‥ واستغرق فى محاولة تحليل الموقف السياسى ‥ ثم نزل من بيته ‥ وخيل اليه أن القاهرة قد ارتفع ضجيجها عما تعوده ‥ وقرأ الخبر المثير فى عيون الناس ، وفى دقات أقدامهم فوق الأرض ‥ ودخل جروبى ‥ وجلس يتلفت حوله باحثا عن صديق ‥ ولكن لم يكن حوله الا فريق من العجائز ، وسمع الرجل الذى يجلس على المائدة المجاورة يقول لزميله :

– والله البلد حاتروح فى داهية ‥

وقلب أحمد شفتيه ‥ وأحس أنه هنا – فى جروبى – كأنه فى بلد آخر ‥ بلد لا ينتمى اليه ‥ وكان كل من يجلسون حوله يكونون شعبا آخر ‥ ليس شعبه ‥ ويتحدثون لغة أخرى ليست لغته ‥ وخرج من جروبى سريعا كأنه يهرب ‥

انه يريد أن يلتقى بالشعب ‥ يريد أن يضم حماسه الى حماس الآخرين ‥ يريد أن يضع خواطره بجانب خواطر الآخرين ‥

أين يذهب ٠٠ ؟

ولأول مرة يحس أن ليس له أصدقاء ٠٠ يحس أنه عاش حياته بين ناس يرقبهم من بعيد ولا ينضم اليهم ٠٠ أحس أنه كان يش فى طبقة لا تشاركه حماسه ، وانفعالاته ، وأفكاره ٠٠ كان يش غريبا فى طبقته ٠٠

وقادته قدماه الى مكتب صديقه مدحت ، لعله يسمع لديه خبرا جديدا ٠٠ ودخل على صديقه واللهفة تفسح طريقه وقال :

ـ ايه الأخبار يا مدحت ؟

ورفع اليه مدحت عينين مضطربتين ، ووجه أضناه التفكير ، وقال : الجنيه نزل ٠٠ بأه بخمسين قرش ٠٠ تصور !

وتهاوت لهفة أحمد ٠٠ لقد نسى أن صديقه تاجر ٠٠ يستورد ويصدر ٠٠ ولن يهمه من كل هـذه الأحداث الا أن قيمـة الجنيـه ستهبط ٠٠

وقال أحمد وقد خفتت لهفته : إنما تفتكر ايه اللى حايحصل ؟

وقال مدحت وعيناه مكفهرتان : حايحصل كتير ٠٠ ربنا يستر٠

وقال أحمد كأنه يطمئنه :

ـ انما لازم جمال حسب حساب كل حاجة ٠٠ مش ممكن يكون أمم القنال من غير ما يعمل حسابه ٠٠

وقال مدحت فى يأس : ادحنا حانشوف ٠٠

ولم يمكث أحمـد طويلا فى مكتب مدحت ٠٠ أحس كأنه يكاد يلتقط عدوى يأسه ٠٠ وقام وتركه ٠٠

وأخذ يطوف فى الشوارع ٠٠

ما حاجته الى صديق ٠٠ ان كل هؤلاء الناس أصدقاؤه ٠٠ كل الذين يسيرون فى الشارع ٠٠

انه يكاد يسمع حماسهم يتجاوب فى صدورهم ٠٠ ويكاد يرى افكاره تنطلق مع نظراتهم ٠٠ وعاد الى بيته ٠٠

ومرت الأيام ، وهو يتتبع الصحف ويسمع الاذاعات الخارجية .. ويكون رأيه كل يوم ..

أن الانجليز لن يسكتوا على تأميم القنال ..

لقد فرضوا الحصار الاقتصادى منذ صفقة الأسلحة الروسية .. وبدأوا يشددونه بعد تأميم القنال .. وجمال واقف أمامهم كالمارد لا يلين ، ولا يتراجع .. وينطق بالحق .. ولا يخاف شيئا والحق معه .. وعرف أحمد ما يفعله .. !

وقام من فراشه فى الصباح الباكر .. وأخذ يرتدى ثيابه .. والتقت به نبيلة وهى متجهة الى عملها فى مكتب الشركة ، وقالت وهى دهشة : انت نازل بدري رايح فين يا آبيه ؟ ..

وقال أحمد وهو يبتسم لها ، ووجهه هادىء ، كأنه التقى مع نفسه واستراح : عندى مشوار .. تعالى أوصلك فى سكتى ..

وركبت نبيلة بجانبه ، وأخذ يحادثها فى الحدث الكبير .. لاشىء يشغل باله هذه الأيام سوى هذا الحدث الكبير ..

وأوصلها الى مقر الشركة فى شارع ٢٦ يوليو ، ثم قاد سيارته ناحية الجامعة ونزل منها .. وتلفت حوله ، وابتسم ، كأنه يلتقى بصباه .. ثم رأى طالبا يمر من بعيد فاتجه اليه ، واستوقفه وسأله :

– من فضلك .. فين الحرس الوطنى .

وأجابه الطالب وهو يشير بذراعه دون أن يتوقف عن سيره :

– هناك .. فى المدينة الجامعية ..

وهمس أحمد : متشكر ..

ثم ركب سيارته وقادها الى المدينة الجامعية ، ورأى من بعيد مجموعة من الخيام فاتجه اليها ، وفكره تائه .. لقد قرر أن يتطوع فى الحرس الوطنى ، وهو لا يؤمن بأن هذا هو دوره فى المعركة ، ويحس أنه يستطيع أن يرى من خلال قراءاته الكثيرة ما لا يستطيع أن يراه الشخص العادى .. ويحس أن المعركة فى حاجة الى من

يخاطب الناس ويشرح لهم مواقفهم .. يشرح لهم لماذا رفض البنك الدولى المساهمة فى بناء السد العالى .. ولماذا اممنا القنال .. ولماذا ثارت الدول لتأميمها .. ولكن .. كيف يخاطب الناس .. كيف يطلق ما فى رأسه ليصل الى رؤوس الناس .. انه لا يدرى . كل ما يدريه هو أنه لا يستطيع أن يبقى جامدا ، والمعركة تدور من حوله .. انه على الأقل يستطيع أن يساهم فيها بذراعه .. ولذلك قرر أن يتطوع فى الحرس الوطنى ، دون أن يحس بطمـوح الى البطولة .. بطولة القتال .. بل دون أن يحس أنه يستطيع أن يكون جنديا له فضائل الجنود ..

ووقف أمام الخيمة الصغيرة .. وفرد طوله .. وشد نفسـا عميقا من صدره .. ثم انحنى ودخل من فتحة الخيمة ..

ورأى جنديا برتبة شاويش جالسا الى مكتب ، يحادث صديقا له .. ولم يأبه الجندى بدخول أحمد عليه .. ظل يحادث صديقه .

وتنحنح أحمد ، ثم قال فى أدب : صباح الخير ..

ورفع اليه الشاويش رأسه ، وقال فى فتور :

ـ صباح الخير .. أفندم .. أى خدمة ؟ !

وقال أحمد وهو يبتسم فى تواضع وارتباك :

ـ والله .. أنا عايز أتطوع !

ونظر أحمد فى وجه الشـاويش كأنه كان ينتظـر منه أن يهب واقفا ويرفع له يده بالتحيـة العسكرية .. ولكن الشـاويش ظل جالسـا فى مكانه دون أن يتحرك وجهـه .. ثم مد يده فى درج المكتب ، وأخرج استمارة ، وناولها لأحمد ، قائلا بلا حماس :

ـ اتفضل املا الاستمارة دى ..

ثم عاد الشاويش يلتفت الى صديقه ، ويكمل حديثه معه ..

وأخرج أحمد قلمه ، وانحنى فوق المكتب يسجل البيانات التى تطلبها منه الاستمارة .. اسمه .. وعنوانه .. وسنه و .. و ..

والتفت اليه الشاويش فجأة كأنه تذكر شيئا ، ونظر اليه نظرة طويلة ، ثم قال له : حضرتك طالب ؟ ..

وقال أحمد وهو مستمر فى استكمال البيانات : لا .. متخرج .

واعتدل الشاويش فى جلسته ، وقال كأنه يتباهى بمعلوماته :

– بس الكتائب اللى هنا خاصة بالطلبة ..

ورفع أحمد رأسه ، وفى عينيه نظرة جزعة كأنه لم يكن يحسب حساب هذا التعقيد ، وقال : واالله أنا افضل أتطوع مع الطلبة ..

ونظر الشاويش فى وجهه ثم قال :

– ليه .. اشمعنى اخترت الطلبة يعنى .. ماهو احنا لازم نعرف كل حاجة ..

وقال أحمد :

– واالله .. ما فيش سبب .. انما أنا باحس بنفسى أكتر وأنا فى الكلية بتاعتى اللى اتخرجت منها .. باحس انى اتربيت هنا ، وانى لازم أؤدى واجبى الوطنى هنا ..

وابتسم الشاويش وقال : معاك صورتين ..

وقال أحمد : أيوه ..

وقال الشاويش : طيب اتفضل أملا الاستمارة ..

وتنهد أحمد كأنه اجتاز أولى العقبات .. وانحنى يتم بقية البيانات .. ثم أعاد الاستمارة الى الشاويش ومعها الصورتان .

وقرأ الشاويش البيانات بسرعة ، حتى كأنه لم يقرأها ، ثم ختمها بخاتم أمامه .. وسكت ..

وظل أحمد واقفا أمامه وفى عينيه نظرات متسائلة ، وهم الشاويش أن يعود الى الحديث مع صديقه .. وقال له أحمد بسرعة : أعمل ايه دلوقت ؟ ..

والتفت الشاويش اليه مبتسما وقال :

– تيجى بكره الساعة سابعة ، علشان تحضر الطابور .. وتفوت على المخزن تاخد المهمات ..

ثم هم الشاويش أن يعود الى حديث صديقه ، ولكنه ما لبث ان رفع رأسه الى أحمد وقال كأنه يطمئنه :

ـ ما هو فيه أساتذة كتير زى حضرتك اتطوعوا عندنا ··

ورفع أحمد يده الى رأسه يحيى الشاويش ، وقال فى صوت مخنوق : متشكر ··

ثم خرج ·· وتنهد كأنه انتهى من تردده الذى طال به ·· واتجه الى فناء الجامعة ووقف ينظر الى بناء كلية الحقوق بعينين مبتسمتين كأنه يقبل جدرانه ·· كأنه يقبل أيامه التى قضاها فيها ·· ثم سار على قدميه يطوف حول البناء يتعرف على ذكرياته ، كأنه يطوف حول بناء مقدس ·· كل شىء هادىء ·· ساكن ·· فالجامعة فى اجازة ·· ولكن رأسه ملىء بضجيج أصوات زملائه الذين كانوا معه ·· ويكاد يراهم بعينيه ·· يراهم واحدا واحدا ويرى أساتذته ، ويرى نفسه جالسا فى المدرج يستمع الى المحاضرة·

وشبع من ذكرياته ··

وعندما عاد الى بيته ساعة الغداء ، لم يقل لأمه أو لأخواته انه تطوع فى الحرس الوطنى ·· ربما لم يرد ازعاجهم ··

ربما أراد أن يحتفظ بالسر الى أن يختبر نفسه ، ومدى صلاحيته لأداء واجبه الوطنى ··

وقضى يومه وهو يتصور نفسه فى طابور عسكرى ·· ويتصور نفسه حاملا بندقيته ·· ويقاتل ·· ولم ينم ·· صاحبته تصوراته حتى الصباح ··

وفى الساعة السادسة صباحا كان فى ميدان التدريب داخل المدينة الجامعية ··

ودخل الخيمة الصغيرة ، والتقى بالشاويش الذى رآه صباح الأمس ، وابتسم ابتسامة كبيرة ، وهو يحييه :

ـ صباح الخير ··

ولم يرد الشاويش ابتسامته ، قال ووجهه صارم :

– انت مش اتطوعت امبارح ؟
وقال أحمد وقد صدمته صرامة الشاويش : أيوه ..
وقال الشاويش بسرعة ، وكلماته تنطلق من بين شفتيه كأنها طلقات رصاص : اتفضل ، فوت على المخزن ، وقدم نفسك لحضرة الضابط فى الطابور ..
وخرج أحمد حائرا .. وطاف بعينيه يبحث عن المخزن .. ورأى خيمة كبيرة يدخلها ويخرج منها عدد كبير من الشبان ، فاتجه اليها، والنداءات العسكرية المنبعثة من ميدان التدريب تأتى اليه من بعيد ، وتملأ أذنيه ، وتثير فى صدره الرهبة ..
ودخل الخيمة ، ورأى حوله شبانا يستبدلون ملابسهم ، واثنين من الجنود واقفين خلف مائدة مستطيلة .. وتقدم يسير حائرا كالأبله .. ووقف أمام أحد الجنود ، وهم أن يتكلم .. ولكن الجندى نظر اليه نظرة سريعة كأنه يقيس طوله وعرضه .. ثم ناوله بدلة « أوفرول » مطبقة .. وفوقها طاقية .. وحمل أحمد البدلة والطاقية بين ذراعيه ، ثم مر أمام الجندى الآخر ، فوضع فى يده بندقية .. وضعها فى يده بكل بساطة .. كأنه يناوله قلم رصاص ، أو قطعة شيكولاتة .. وارتعشت يد أحمد فسقطت منها البندقية .. وساد الصمت لسقوطها .. والتفت اليه كل الطلبة المتجمعين فى خيمة المخزن .. وقلب الجندى الواقف خلف المائدة ، شفتيه .. ثم صرخ فيه :
– امسك سلاحك كويس يا أستاذ .. تبت عليه بايديك ..
واحمر وجه أحمد ، وازداد ارتباكه .. وانحنى يلتقط البندقية من فوق الأرض .. ثم سار وانزوى فى ركن من الخيمة .. ووقف يتلفت حوله بعينين مضطربتين ، يحاول أن يرى ما يفعله الباقون ، حتى يفعل مثلهم .. ثم أسند البندقية الى عمود الخيمة .. ووضع الأوفرول والطاقية على الأرض .. واخرج نقوده من جيب سترته ووضعها فى جيب بنطلونه .. ثم خلع سترته ، والقى بها على

الأرض ، ثم ارتدى « الأوفرول » فوق ثيابه ·· ونظر الى نفسه ··
ان ساقى « الأوفرول » قصيرتان ·· يكشفان عن جوربه ·· لا بد
أن منظره مضحك · والتفت الى الجندى الواقف خلف المائدة كأنه
يستنجد به ·· ولكن الجندى لم يأبه به ·· فأكمل أحمد ارتداء
الأوفرول ، ثم وضع الطاقية على رأسه ·· انها ضيقة ·· لا يهم
·· وثبتها فى مؤخرة رأسه ·· ثم حمل بندقيته ·· وخرج من
الخيمة ·· واتجه الى ميدان التدريب ·· وهو يقبض على البندقية
بقوة ، حتى عرقت يده فوقها ·· وأحس وهو يقبض عليها أنه يزداد
قوة ·· أحس كأنه يستطيع أن يقتل ·· انه احساس جديد عليه ··
لم يجربه من قبل ، لم يمسك فى يده سلاحا من قبل ·· ولم يكن
يعتقد أن مجرد حمل السلاح يثير فى النفس كل هذا الاحساس
بالقوة ·· احساس يجعله يشعر أنه فى حاجة الى كل عقله وكل
أعصابه ، حتى يسيطر عليه ، فلا يندفع فيه ، الى حد أن ينقلب الى
احساس بالغرور ، ورغبة فى الشر ··

ورأى ضابطا شابا واقفا على رأس الميدان ، يشرف من بعيد
على التدريب ·· فتقدم اليه وهو حائر ، هل يتقدم اليه مبتسما أم
يستغنى عن الابتسام ·· وظل فى حيرته الى أن وصل اليه وعلى
شفتيه رعشة لا هى ابتسامة ، ولا هى تجهم ، وقال فى ارتباك
ورهبة : أنا لسه متطوع النهاردة ··

وأشار له الضابط بيده ، وقال فى صوت حاد :

ـ انضم للطابور اللى هناك ··

واتجه أحمد فى خطى مهزوزة ناحية الطابور الذى أشار اليه
الضابط ·· واحد من ضمن الطوابير الكثيرة المنتشرة فى الميدان
وهو طابور صغير لا يتجاوز عدد أفراده الثمانية ·· ونظر أحمد
فى وجوه أفراد الطابور من بعيد ·· انه لا يعرف أحدا منهم ··
وكلهم أصغر منهم سنا ·· ووقف فى أول الطابور ··

وأمام الطابور جندى برتبة أومباشى ·· يمسك ببندقيته ، ويعلم المتطوعين الحركات العسكرية ··

والتفت أحمد الى زملائه ، ثم التفت الى المدرب الواقف أمامه . وحاول أن يقف مثل وقفتهم ، وقد بدأ عرق بارد يتصبب تحت ثيابه ، كأنه يخجل مما يفعل ·· كأن ما يفعله هو من شأن الصغار وحدهم·

ونادى المدرب نداء عسكريا : صفا ··

وفتح أحمد ساقيه ، ومد ذراعه التى تحمل البندقية أمامه ·· كما يفعل المدرب ··

وصاح المدرب : انذ ·· تباه ··

وشد أحمد ذراعه التى تحمل البندقية وضم قدميه ··

وعاد المدرب يصيح :

ـ صفا ·· انتباه ·· صفا ·· انتباه ·· صفا ·· صفا ··

وأحس أحمد وهو يؤدى هذه الحركات بشىء يتكون فى نفسه ·· أحس كأن سحبا تملأ صدره ، بدأت تنقشع ويبدو من خلالها ضوء جديد ·· ضوء لا يستطيع أن يتبينه بعد ·· ثم لم يعد يحس بشىء فى نفسه ·· لم يعد يفكر فى نفسه ·· أصبح كل احساسه وكل تفكيره مركزا فى الحركات التى يؤديها ··

وصاح الأومباشى : انت يا أستاذ ·· اقف كويس ··

وأطلت الدهشة من عينى أحمد ·· هل الأومباشى يخاطبه هو ؟ نعم ·· انه يخاطبه هو ·· وارتبك أحمد ·· ولم يدر كيف يعتدل فى وقفته ··

وعاد الأومباشى يصيح فيه : صدرك لقدام ··

وأبرز أحمد صدره الى الأمام ··

وصرخ الأومباشى : اشفط بطنك ··

وشفط أحمد بطنه ··

وتقدم اليه الأومباشى ، ووضع يده على ظهره ودفع صدره الى

الأمام ، ثم وضع يده الأخرى على بطنه وضغطها ، ثم عـدل من وضع أصابع يده التى تقبض على البندقية ..

وقال فى لهجة آمرة : تقف كده .. خد بالك ..

وتململ أحمد .. ان تلقى الأوامر يحتاج الى طبيعة خاصة ، وهو لم يتعود على تلقى الأوامر .. طول حياته لم يلق اليه أحد أمرا .. ولم يطع أحدا الا بمحض رغبته .. والتفت الى زميـله الذي يقف بجانبه كأنه يريد أن يستدرجه ليسخر معه من الأومباشى ولكن الأومباشى عاجله بصرخة :

ـ بص للأمام .. صفا .. اذ .. تباه .. صفا ..

والتفت أحمد أمامه ، وأطاع النداءات العسكرية كأنه مسير بقوة كهربائية .. ثم صـاح الأومباشى كأنه سـيطلعهم على سر عسكرى خطير :

ـ كله ياخد باله كويس .. خد بالك ..

ثم سكت برهة الى أن تأكد من أن كل أفراد الطابور منتبهون اليه ، ثم استطرد صائحا :

ـ كتفا سلاح .. واحد اتنين .. تلاتة ..

وارتبك أفراد الطابور وهم يحاولون تقليد الأومباشى فى حركته .. وعاد يصيح فيهم :

ـ تانى ، كتفا سلاح ، واحد ، اتنين ، تلاتة ، هب ..

ثم صرخ فى أحمد :

ـ خد بالك كويس .. ارفع دراعـك لفـوق .. الدراع تكون زاوية قايمة ، تسعين درجة ..

وابتسم أحمد ، والأومباشى يناديه ، ثم أخفى ابتسامته سريعا .. ورفع ذراعه ..

وظل يتتبع تعاليم الأومباشى بكل حواسه ، الى أن انتهت ساعة التمرين .. وصاح الأومباشى : انصراف ..

وتنهد أحمد ، وأرخى صدره البارز ، وأراح بطنـه المشفوط ودلى ذراعه التى تحمل البندقية ·· والتفت الى زملائه فى الطابور مبتسما ·· وأحس أنه يعرفهم ·· انهم زملاؤه ·· أحس أنهم قريبون منه جدا ·· قريبون الى قلبه ·· وأحاسيسه ·· وايمانه ·· لا أحد منهم يحس بأن البلد رايحة فى داهية ·· ولا أحد منهم يحس أن الجنيه قد انخفضت قيمته ·· ولا أحد منهم يخاف ··

وقال واحد منهم لزميل له : ده أومباشى صعب قوى ··

ورد عليه زميله ضاحكا :

– ده مش أومباشى ·· ده باشا ·· ماعندوش الا الشخط

وتدخل أحمد فى الحديث دون أن يتعمد ، وقال :

– انما بيعلم كويس ··

وقال الزميل : هو حيلته الا الكلمتين دول ·· صفا ، انتباه ، صفا ··

وقال الآخر : ما هو اسمه الأومباشى صفصف !

وارتفعت الضحكات ·· وضحك أحمد ·· ثم وجد كل أفراد الطابور يتجهون الى الأومباشى ويلتفون حوله ، ويتسـابقون فى توجيه الأسئلة اليه ، وفى كسب صداقته · وهم ينظرون اليه ·· كانسان كبير ·· انسان يعلمهم ··

وعاد أحمد الى المخزن ·· وسلم البندقية ·· وخلع الأوفرول ووضعه فى أحد الدواليب الصغيرة ، وارتدى سـترته ·· وهو يحس بانتعاش ·· يحس بدم جديد يتدفق فى عروقه ·· ويحس بقوى جديدة تتجمع فى عضلاته ·· ويحس بالجوع ··

وقاد سيارته الى شارع سليمان ·· ثم نزل منها وسار فى الشارع ، وصوت الأومباشى يرن فى أذنه ·· الى الأمام معتـادا مارش ·· وأحس أنه يسير فعلا فى خطوات عسكرية ·· ثم وقف أمام نافذة أحد الدكاكين ، ورن فى أذنه صوت الأومباشى ·· صفا

·· وفتح قدميه فعلا ·· ثم ابتسم بينه وبين نفسه ·· وهز رأسه متعجبا من نفسه ·· وسار حتى دخل محل الساندويتش ··

★ ★ ★

وفى اليوم التالى ، خرج أحمد من البيت فى الساعة السادسة صباحا · وأمه متعجبة أين يذهب فى هذا الوقت المبكر ·· ثم خرجت بعده نبيلة متجهة الى عملها فى الشركة ، فى الساعة الثامنة · وفى الساعة التاسعة خرجت فيفى لتلتقى بخطيبها الأستاذ أمين عبد السيد ويذهبان سويا الى معامل كلية العلوم ·

وليلى لا تزال فى فراشها ··· استيقظت ولكنها لا تترك الفراش · لماذا تتركه ·· لا شىء تعمله ·· ولا شىء تتحرك من أجله ·· وهى تنظر الى كل من أختيها وهما خارجتان نظرات مسكينة كأنها تتوسل اليهما ألا يتركاها وحدها ·· وهى منذ طلقت وهى وحدها ·· تعيش فى عالم خاص تبنيه من حبها لفتحى ومن فراغ حياتها ·· وكلما مرت بها الأيام ، اتسع الفراغ من حولها أكثر ·· وكلما اتسع الفراغ حاولت أن تملأه بالتفكير فى فتحى ·· وكلما فكرت فى فتحى ، احتاجت اليه أكثر ·· وكلما احتاجت اليه تعقدت حياتها أكثر ··

وقد أصبحت أكثر جرأة على لقاء فتحى ·· وانساقت فى خداع أمها وأخوتها لتلقاه ·· وقد أغضبت أمها كثيرا ·· وأغضبت أختيها ·· وهى تحس بابتعاد أخيها أحمد عنها ، وتعمده تجاهلها ·· ولم تحاول أن تعرف سبب تباعده ·· ولم تعد تهتم بغضب أمها أو أختيها ·· انهن لن يستطعن أن يملأن حياتها ·· لن يملأ حياتها الا فتحى ، وهى تصرخ فيهن : ما حدش له دعوة بيه ·· انا حرة ·!

وهى بينها وبين نفسها تشعر بأنها ليست حرة ·· وتعلم أنها مندفعة فى طريق لا تعرف نهايته ·· ولكنها منقادة ·· منقادة الى الهرب من الفراغ ، يعميها حبها عن الطريق الذى تسير فيه ··

وقد كانت مع فتحى ليلة أمس حتى منتصف الليل ·· تحججت بحجة أنها ذاهبة الى حفلة عيد ميلاد احدى صديقاتها ثم ذهبت اليه ·· ولكن اليوم ·· ماذا تفعل ؟ ··

انه يوم طويل ·· ممل ·· فارغ ·· وليس أمامها الا أن تقضيه بجانب أمها ·· ثم تعزف على البيانو قليلا ·· وقد تذهب فى زيارة عائلية ·· أف ·· ما أسخف الحياة ، وما أبردها ··

وقامت من فراشها متكاسلة ·· وغسلت وجهها ، وارتدت ثوبا بسيطا لتبقى به فى البيت ·· وصنعت لنفسها ساندويتش بالجبنة والزبدة ، ودارت تأكل فيه وهى تطوف بغرف البيت ·· ثم طاف برأسها خاطر خبيث ·· واتجهت الى التليفون ، وحملته الى غرفتها ، وأدارت رقم فتحى ··

انها تعلم أن زوجته هى التى سترد عليها ·· وهى تذكر أن فتحى توسل اليها أكثر من مرة ، ألا تدق له التليفون فى البيت ، حتى لا تتسبب فى تعاسة زوجته ، ولا تثيرها عليه وعليها ··

وهزت كتفيها بلا مبالاة ·· كأنها تتحدى ··

وقبل أن تقول : آلو ·· سمعت صوت فتحى ·· سمعته يصيح كالمجنون : عواطف ·· عواطف ·· انتى فين ·· لازم ترجعى دلوقت ·· ماتسيبينيش يا عواطف ·· عواطف ·· !

وظلت ليلى صامتة وسماعة التليفون على أذنها ، وقد انبهرت أنفاسها ، وفى عينيها نظرات دهشة ، تبدو من شدتها كأنها ذعر ·· وفتحى يصيح فى صوت باك محشرج :

ـ عواطف ، ردى على ، ماتعمليش فى كده ، خلاص ·· أوعدك ··

وقالت ليلى تقاطعه وهى تحاول أن تضبط نبرات صوتها المرتعش : أنا ليلى يا فتحى ·· وصرخ :

ـ ليلى ·· عواطف سابتنى ·· سابتنى ·· أنا حاتجنن ·· مش عارف اعمل ايه ··

ثم سمعت صوت سماعة التليفون تلقى بعنف ، كأنهـا القيت على الأرض ·· وأزيز حاد يخرق أذنها ··

وأعادت سماعتها الى مكانها ··

ووقفت برهة حائرة ··· ثم اندفعـت خارجة من البيت ·· وسارت فى الشارع فى خطى سريعة ، كأنها تجرى ، متجهة الى بيت فتحى ·· لعله يحاول الانتحار ·· لعله يرتكب جنونا ·· يجب أن تكون بجانبه ·· يجب أن تنقذه ·· وصوت آخر فى صدرها ·· صوت خبيث ·· يصيح ·· لعله يطلق زوجته ·· ويتزوجها ··

ووصلت الى بيت فتحى ·· ودخلت الى الحديقة فى جرأة ··

وما كادت تهم بأن تصعد السلم حتى رأته نازلا منه ·· يالله ·· كم تغير ·· ان عينيه مجنونتان شاردتان ·· قد اتسعتا حتى غرق فيهما وجهه كله ·· وجهه الممصوص الأصفر ·· وخصلات شعره القليلة مهوشة فوق رأسه ·· وذقنه نابت كأنه زرقة ليل أرق تلطخ صدغيه ·· ونظر اليها نظرات مجنونة ·· وابتعد الى الوراء ·· وشفتاه ترتعشان ·· وهمس : انتى السبب ·· !

ثم صرخ بأعلى صوته : انتى السـبب ·· انتى السـبب ·· ابعدى عنى ·· ابعدى عن حياتى ··

وظل ينظر اليها بجنون ·· واحست كأنه طعنها بسكين ·· وتحاملت على نفسها ، وكتمت الطعنة فى صدرها ، وقالت فى صوت ضعيف :

ـ ما تعملش فى نفسك كده يا فتحى ·· دلوقتى عواطف ترجع·

وقال بجنون : مش حاترجع ·· أنا عارفها ·· مش حاترجع · حاتسيبنى أموت ··

قالت وهى تصعد السلم اليه :

ـ روح صالحها ·· أول ما حاتشوفك حاترجع معاك ··

قال وهو يبتعد عنها أكثر ، وفى عينيه عناد الأطفال :

ـ مش حاروح لها ·· ماحـدش بيروح لحيـاته ، والحيـاة

مابتجيش لحد ·· يا اما الواحد ·· حى ·· يا ميت ·· وأنا ميت ·· انتى اللى موتينى ··

قالت وهى تقترب منه أكثر : اعقل يا فتحى ·· ماتقولش الكلام ده ·· انت مش عارف انت بتقول ايه ··

وصرخ بأعلى صوته ، وهو يحتمى منها بسور السلم ، كأنها تريد أن تقتله :

ــ ابعدى عنى ·· ماتلمسينيش ، ماتلمسينيش ·· كفاية ·· كفاية ··

ثم قفز قفزات سريعة ·· ومر من أمامها كومضة مجنونة ·· وأخذ يجرى فى الشارع ··

وصرخت بأعلى صوتها : فتحى ·· فتحى ··

ثم استندت على جدار البيت ، وبكت ، وارتفع نشيجها وهى تهمس همسات ممزقة : فتحى ·· فتحى ··

واستجمعت ارادتها ، وتحاملت على نفسها ·· ثم خرجت من البيت ، وهى تدارى دموعها بمنديلها ، وتسير وتكاد تقع فى كل خطوة تسيرها ·· ووصلت بيتها ·· ودخلت حجرتها ·· وانكفأت على سريرها تبكى ·· تبكى كل دموعها ··

انه يحب زوجته ·· انها حياته ·· ولم يشعر بحياته الا عندما فقدها ·· وهى ·· هى لا شىء ·· انها عشيقة تلهمه الألحان ·· وقد كانت له ألحان قبلها ·· وألحان بعدها ·· انها ليست حياته ·· انها مجرد لون من ألوان حياته ·· وهو يستطيع أن يستغنى عنها ·· أن يعيش بدونها ·· ولا يستطيع أن يعيش بدون زوجته ·

وأحست بكل شىء ينهار ··

البيوت تنهار ·· والكبارى تنهار ·· والجبال تنهار ·· والحياة كلها تنهار ·· حياتها ··

ولا أمل فى النجاة ·· لا أمل فى راحة القلب ·· ولا أمل فى استرداد كرامتها ·· ولا أمل فى أن تعيش ··

لماذا تعيش .. لتتعذب ؟ كفاها عذابا ..

ورفعت رأسها من فوق وسادتها ، وفى عينيها نظرة خطيرة .. وقامت الى المطبخ وملأت كوبا من الماء عادت به الى غرفتها .. وأغلقت باب الغرفة وراءها بالمفتاح .. وشدت درجا فى الدولاب الصغير ، وأخرجت أنبوبة اسبرين ، وأنبوبة أخرى لدواء منـــوم كانت تستعمله عندما كانت زوجة .. وجمعـــت كل الأقراص فى يدها .. ثم تلفتت حولها .. كأنها تبحث عن انسان ينقذها .. ثم أغمضت عينيها .. وقذفت بالأقراص كلها فى فمها .. أكثر من عشرين قرصا .. وشربت كوب الماء .. ثم أسرعت وألقت نفســـها على فراشها ..

لم تعد تبكى ..

عيناها مفتوحتان ساكنتان ، كأنها ترقب بهما مقدم الله ..

ومضت فترة طويلة وهى لا تشعر بشىء .. ولكنها خائفة .. وخوفها مشرب بخيوط من الندم .. ولكن الندم لا يلهيها عن ترقب الله .. كأنها مدفوعة بحب الاستطلاع .. كأن كل ما فى الأمر أنها تريد أن ترى شيئا جديدا ، حتى لو كان مخيفا ..

ثم بدأت تشعر بأطرافها تبرد ..

انها تبرد أكثر .. البرودة تسرى فى جسدها كله .. برودة كالثلج . لا .. انها شىء غير الثلج .. انها برودة حادة .. !

وهى تريد أن تشد الغطاء على جسدها ليحميها من البرد .. ولكنها لا تستطيع .. انها أضعف من أن تتحرك .. ان ضعفهـــا يزداد .. وهى تريد أن تستغيث .. تريد أن تنادى أمها لتحميها من هذا الضعف الذى يزحف عليها .. ولكنهـــا لا تســـتطيع .. لا تستطيع أن تحرك شفتيها .. ولا تستطيع أن تبعث صوتها ..

وسقط جفناها فوق عينيها .. وسقط ذقنها فوق صدرها ..

ومالت رأسها على وسادتها .. ولم تعد تشعر بشىء ..

لم تعد تتعذب ٠٠ وأنفاس هزيلة خافتة تتردد بين شفتيها ٠٠

★ ★ ★

كانت الأم جالسة فى غرفتها تطرز فى قطعة قماش ٠٠ وأحست بصمت غريب يملأ البيت حولها ٠٠ كأنه صمت له رائحة تشمهـا بأنفها ٠٠ تشمها بقلبها ٠٠ قلب الأم ٠٠ وحاولت أن تكذب قلبها ٠٠ حاولت أن تقنع نفسها بأن هذا الصمت ليس غريبا ٠٠ انه الصمت الذى يسود البيت عادة فى مثل هذا الوقت ٠٠ ولا بد أن محمـد السفرجى جالس فى المطبخ يشرب الشاى كعادته ٠٠ وليـلى فى الصالة الخارجية تقرأ احدى المجلات كعادتها ٠٠

ولكن قلبها لا يستريح ٠٠ وهذا الصمت يزعجها ٠٠

وقامت وخرجت من غرفتها ، ومرت على غرفة بناتها ، ورأت بابها مغلقا ٠٠ فلم تقف قبالته ٠٠ واندفعت نحو الصالة الخارجية ٠٠ ولم تجد ليلى ٠٠ وفتحت حجرة المكتب وأطلت فيها ٠٠ ثم أطلت فى حجرة الصالون ٠٠ ثم عادت الى الداخل وخفقات قلبها تزداد اضطرابا ٠٠ والتقت بمحمد السفرجى خارجا من المطبخ ، فانطلقت تسأله وهى لا تستطيع أن تخفى نبرة الانزعاج من صوتها :

ـ هى ستك ليلى خرجت يا محمد ؟ ٠

وقال محمد فى هدوء : أنا شفتها دخلت أودتها يا ست هانم ٠

واندفعت الأم ناحية الغرفة ، وحركت أكرة الباب ، وحاولت فتحه ٠٠ ولكن الباب مغلق ٠٠ مغلق من الداخل ٠٠

واتسعت عينا الأم دهشة ٠٠ ان بناتها لم يتعودن أن يغلقن باب غرفتهن من الداخل ٠٠ بل لم يتعود احد فى العائلة كلها ان يغلق بابه بالمفتاح ٠٠ وخبطت على الباب بيدها ٠٠

وأعادت الخبط اشد عنفا ، وهى تصيح :

ـ ليلى ٠٠ ليلى ٠٠ افتحى ! ولم يجبها أحد ٠٠ لعلها نائمة ٠ لا ٠٠ لا يمكن أن تكون نائمة ، وهى ليسـت فى حاجة لأن تغلق الباب بالمفتاح اذا ارادت أن تنام ٠٠

وسقط قلبها ·· وبهت لونها ··
وانهالت على الباب تخبطه بكلتا يديهـا وهى تصرخ ·· كل شىء فيها يصرخ ·· عيناها ·· قلبها ·· أعصابها ·· شفتاها :
ـ ليلى ·· ليلى ··
واندفعت فوق الباب بكل جسمها تحاول أن تحطمـه ·· ثم التفتت والصراخ فى عينيها ، وقالت :
ـ تعال يا محمد اكسر الباب ·· اكسر الباب ··
وتردد السفرجى برهة ، فعادت تصرخ فيه :
ـ باأقول لك اكسره ··
واندفع محمد يزق الباب بكتفه ·· بكل قواه ·· وهى تساعده بكلتا يديها ·· بكل قواها ·· وأحست فى هذه اللحظة ، انها قوية ·· أقوى مما تعتقد ·· انها تستطيع أن تكسر الباب ··
وانفسخ قفل الباب ·· وفتح ··
وانطلقت الأم نحو ابنتها ·· وفى لحة واحدة عرفت كل شىء ·
راتها راقدة فوق سريرها بكامل ثيابها ·· وحذائها ·· ولونها باهت فى لون ملاءة السرير ·· وراسها مائل ·· وجفونها مسـدلة ·· وشفتاها منفرجتان كأنها تشهق ··
وانتبهت الأم ·· أصبحت كلها انتباها ··
وعيناها ملؤهما الخوف ، والجزع والتفكير ··
وانحنت تتسمع قلب ابنتها ·· انه لا يزال ينبض ·· لعلهـا آخر نبضاته ·· والتفتت فرأت أنبوبة الاسبرين الفارغة ، وزجاجة الدواء المنوم ·· وجرت ناحية التليفون ، وهى لم تقرر بعد بمن تتصل ·· والدموع تتجمع فى عينيها ، وهى تكبتها ·· ليس هذا وقت الدموع ·· وصرخة معلقة بين شفتيها وهى تكتمها ·· ليس هذا وقت الصراخ ·· وعقلها يدور بسرعة ·· أسرع مما تستطيع أن تلاحقه ·· هل تتصل بالاسعاف ؟ ··
وفجأة ارتفعت الى رأسها كلمة : الفضيحة ·· الفضيحة !!

كيف تفكر فى الفضيحة وابنتها على وشك الموت ·· ؟
ورغم ذلك فعقلها لا يزال يفكر فى الفضيحة ·· فضيحة ابنتها ·· وفضيحة العائلة ·· وكل تفكيرها متجه الى انقاذ ابنتها مع تجنب الفضيحة ··

وقررت بسرعة ، ألا تتصل بالاسعاف ·· فرجال الاسعاف سيبلغون البوليس ·· والبوليس سيسأل عن أسباب الانتحار و ·· وتكون الفضيحة !!

واتصلت بمستشفى الروضة القريب من البيت ، لتسأل عن الدكتور رؤوف ·· انها تعرفه ·· لقد احتاجت اليه من قبل مرتين أو ثلاثا ·· لعلها تجده فى المستشفى ·· يا رب ·· انجدنى بدكتور·

ورد عليها الدكتور رؤوف ، وصاحت بسرعة :

ـ أنا عنايات يا دكتور ·· حرم المرحوم عبد العزيز زهدى ·· عايزينك قوام يا دكتور ·· قوام اعمل معروف ··

وقال الدكتور فى هدوء كأن الحياة ليس فيها موت :

ـ خير يا عنايات هانم ··

وقالت وهى فى تعجلها تكاد تلومه :

ـ بنتى ليلى يا دكتور خدت أنبوبة اسبرين ·· أنبوبة بحالها·

وقال الدكتور وهو لا يزال هادئا : ممكن تنقلوها المستشفى ·

وقالت الأم : بلاش يا دكتور ·· ارجوك تجيلها دلوقت ··

وقال : حاضر ·· انا جاى حالا ··

وقالت : حالا يا دكتور ·· حالا ··

والقت سماعة التليفون ·· وظلت واقفة مكانها ··

وانتبهت الى أنها وحدها فى البيت ·· ليس معها احدى بنتيها فتساعدها فى مصيبتها ··

انها وحدها ·· وأنهمرت دموعها ··

وأحست وهى تبكى أنها لا تبكى على ابنتها ·· ولكنها تبكى

على نفسها ٠٠ تبكى حظها ٠٠ وتبكى على ما يصنعه أولادها بها ٠٠ انهم قساة ٠٠ لا يرحمونها ٠٠ وليلى أقساهن ٠٠

وجفت دموعها بسرعة ٠٠

وعادت الى ابنتها ملهوفة ٠٠ ووقفت أمامها لا تدرى ماذا تفعل ٠٠ ولكنها يجب أن تفعل شيئا ٠٠ وأمسكت يدها وأخذت تدلكها كأنها تستطيع أن تعيد اليها الحياة بلمساتها ٠٠ ثم تركت يدها ٠٠ وأخذت تخلع عنها حذاءها ٠٠ وهى تتعمد ألا تنظر الى وجهها ٠٠ الوجه الباهت فى لون ملاءة السرير ٠٠ كأنها تخشى ان نظرت اليه الا تجده ٠٠ ثم انحنت مرة ثانية تتسمع قلبها ٠٠ ثم لم تستطع أن تقاوم ، فنظرت الى وجه ابنتها ٠٠ وانهمرت دموعها مرة ثانية ٠٠ وشدت غطاء السرير وغطت به جسدها ٠٠

ثم خرجت من الغرفة فى خطوات سريعة ٠٠ ومحمد السفرجى واقف فى الطرقة صامت وعلى وجهه تعابير بلهاء ٠٠ ثم دخلت غرفتها تبحث عن زجاجة الكولونيا ٠٠ وهى تعلم أن الكولونيا لن تفيدها بشىء ٠٠ ولكنها يجب أن تفعل شيئا ٠٠ وعقلها يدور بسرعة٠

لماذا صنعت ليلى بنفسها ما صنعته ؟ ٠٠ لا بد أنه فتحى ٠٠

وارتفع صراخ حاد من صدرها يحمل لعنة مدمرة ويصبها على رأس فتحى ٠٠ ثم خافت فجأة من لعنتها ٠٠

لا ٠٠ يا ربى ٠٠ انى لا ألعنه ٠٠ سامحه ٠٠ فقط انقذ ابنتى ٠٠ انقذها يا رب ٠٠ انك لا تستطيع أن تأخذ منى اثنين ٠٠ كفاك أن أخذت ممدوح ٠٠ وانهمرت دموعها أكثر ٠٠

ونشجت بالبكاء ٠٠ وارتفع صوت نشيجها ٠٠ كأنها تنتهز فرصة وجودها وحدها فى غرفتها ، لتنفس عن نفسها ٠٠

وعادت الى ابنتها تدلك يديها وجبينها بالكولونيا ٠٠ وتعود تتسمع قلبها ٠٠ يخيل اليها أنه توقف ٠٠ وتتحسس يديها ٠٠ انهما أكثر برودة ٠٠ لعلها ماتت ٠٠ يا رب ٠٠ يا رب ٠٠ يا رب ٠٠ !

لو أخذتها ، خذنى معها ٠٠ خذنى قبل أن تأخذها ٠٠

وفى خلال عشر دقائق حضر الدكتور ومعه ممرضة ، تحمل بعض زجاجات الدواء ، وقمعا زجاجيا ، وخرطوما من الجلد ٠٠

وقاده السفرجى بسرعة الى حجرة ليلى ، ودخل وابتسامته بين شفتيه كأنه جاء يحمل الحياة ، ورفعت الأم وجهها الباهت المخضب بالدموع ، وهمست فى ضعف :

ـ الحقنى يا دكتور ٠٠ دى خلاص ٠٠

وتعقد وجه الدكتور برهة خاطفة ، ثم انحنى فوق ليلى يتسمع قلبها بسماعته ٠٠ ثم رفع رأسه مبتسما وقال : اطمئنى ٠٠

وحقن الدكتور ليلى فى ذراعها ، ثم بدأ يجرى لها عملية غسيل المعدة ٠٠ وهى بين يديه جثة تتردد فيها أنفاس هامدة ٠٠ وأمال رأسها الى الخلف ، وفتح فمها الى آخره ووضع فى فكيها كماشة معدنية ليحتفظ به مفتوحا ، ثم أدلى فيه بخرطوم رفيع طويل ٠٠ وتأوهت ليلى كأنها تتعذب فى حلم ٠٠ والأم واقفة ووجهها غارق فى سحابة من الخوف ، واللهفة ، والجزع ٠٠ وفى عينيها دعاء صامت الى الله ٠٠ وتنظر حينا الى ابنتها ثم تستدير عنها لتترك دمعة تنساب ٠ وتحاول أن تساعد الطبيب حينا ، ثم تكتشف انها تعرقل عمله أكثر مما تساعده فيه ٠٠ فتكف ٠٠ وتعود تغرق فى الخوف ، واللهفة ، والجزع ٠٠ والدعاء ٠٠

ثم بدأ الدكتور يجرى لليلى عملية التنفس الصناعى ٠٠ وتركزت عينا الأم على وجه ابنتها ٠٠ ترقب انفاسها وتعدها ٠٠ انها تتنفس ٠٠ نعم ٠٠ تتنفس ٠٠ الحمد لله ٠٠ الحمد لله ٠٠

وترك الدكتور الممرضة تستمر فى اجراء التنفس الصناعى ٠٠ والتفت الى الأم وقال وهو يخرج أوراقه وقلمه :

ـ بكره الصبح حاتبقى كويسة ٠٠ بس مش لازم تتحرك من السرير ٠٠ وحاتفضل ضعيفة كام يوم ، وحاكتب لها دواء مقوى ٠٠ ومش لازم تاكل حاجة الا شوربة ٠٠

وقالت الأم وهى تنظر الى الطبيب بعينين شاكرتين :

ـ ربنا يخليك يا دكتور ··

وبدأ الدكتور يكتب أسماء الأدوية ·· وقالت الأم :

ـ اقدر أنقلها فى أودتى يا دكتور ·· ؟

وقال وهو مستمر فى الكتابة : مافيش مانع ··

وتعاونت الأم والممرضة فى حمل ليلى ·· وأرقداها فى سرير الأم ·· ثم عادت الأم الى الطبيب بسرعة كأنها تذكرت شيئا ، وقالت فى جزع :

ـ بس يا دكتور ·· أرجوك ·· أصل انت عارف ان الناس و ··

وقاطعها الطبيب وقد فهم ما تعنيه : أنا فاهم ·· اطمنى ··

وابتسم ابتسامة كبيرة مريحة ، كأنه يزيدها اطمئنانا ··

وعادت الأم تقول : ربنا يخليك يا دكتور ··

وناولها الطبيب الورقة التى سجل فيها أسماء الأدوية ، وجمع أدواته وهم بالانصراف ، فصاحت الأم كأنها تذكرت شيئا آخر نسيته : دقيقة واحدة يا دكتور ··

ثم اسرعت الى غرفتها ، وفتحت دولابها ، وأخرجت حقيبتها ·· واحتارت كيف تحدد أجر الطبيب ·· وقررت أولا أن تعطيه عشرة جنيهات ·· ولكنه بقى بجانب ليلى اكثر من ساعتين ·· وأنقذ حياتها ·· وأخرجت من الحقيبة عشرين جنيها ·· ثم وضعت الحقيبة فى الدولاب وأغلقته ·· وعادت مسرعة الى الطبيب ، ودست النقود فى يده : فأخذها دون أن ينظر فيها ، ووضعها فى جيبه ·· وعادت تقول :

ـ انا مش عارفة اشكرك ازاى يا دكتور ·

وقال الد كتور : الحمد لله على سلامة ليلى ·

ثم استطرد مبتسما كأنه يخفف عنها :

ـ كل البنات اليومين دول طالعين فى موضة الاسبرين ··

وابتسمت الأم ابتسامة مسكينة ، وقالت ·

– ممكن الممرضة تفضل معايا شوية ، لغاية ما غير لليلى هدومها ؟ ٠

وقال الدكتور وهو يلتفت الى الممرضة :

– قوى ٠٠ خليكى مع الهانم يا تحية ٠٠ وخرج ٠٠

وعادت الأم مع الممرضة الى ليلى ٠٠ وبدءا يغيران ثيابها التى ابتلت من أثر عملية غسيل المعدة ٠٠ وليلى بين أيديهما لا تزال تائهة ٠٠ ولكنها تتنفس ٠٠ تتنفس بانتظام ٠٠ وضعف ٠٠ وألبساها قميصا شتويا من قمصان النوم ٠٠ ودلكا وجهها وأطرافها بالكلونيا ، ثم أحكما حولها غطاء السرير ٠٠

وأعطت الأم للممرضة جنيهين قبل أن تنصرف ٠٠

وبقيت وحدها مع ليلى ٠٠

أغلقت النوافذ الخشبية ، فساد الحجرة ضوء خافت مريح ، ازداد خلاله وجه ليلى بياضا ، وهى راقدة مسبلة العينين ٠٠ ملاك مريض ٠٠ روح بعيدة تتنفس كطيف هائم ٠٠

جرت الأم مقعدها وجلست بجانب السرير ، وهى تنظر الى وجه ابنتها تنتظر اللحظة التى تفتح فيها عينيها ٠٠ ثم تضيق بالانتظار فتنصرف الى أفكارها ٠٠ وتراجع قصة ليلى من أولها ٠٠ من يوم أن ولدت ٠٠ ثم يقفز فى مخيلتها وجه فتحى ٠٠ ويجتاحها شعور بالغيظ ٠٠ غيظ حاد يمزق أحشاءها ٠٠ انه هو الذى أفسد حياة ابنتها ٠٠ هو الذى دفعها الى الموت ٠٠ وقد حاولت أن تنقذها منه ٠٠ راقبتها ٠٠ وحبستها ٠٠ وزوجتها ٠٠ لعلها تنساه ٠٠ لعلها تبرأ منه ٠٠ ولكنها كانت تزداد تعلقا به ٠٠ فتركتها له ٠٠ تركت لها حريتها ، لعلها تفيق الى مصيرها ٠٠ ولكن ٠٠ ماذا كانت نتيجة الحرية ٠٠ انتحرت ! ٠

واشتد بها الغيظ الحاد ، وأحست أن يديها تمتدان الى عنق فتحى لتخنقاه ٠٠ أحست أنها تهم بأن تقوم من مكانها وتجرى فى

الشارع باحثة عن فتحى لتقتله ·· انه هو الذى عذب ابنتها ·· هو الذى أفسد حياتها ·· هو الذى دفعها الى الانتحار ··

ثم أحست بثورتها تشمل ابنتها أيضا ·· لماذا لم ترحم أمها ·· لماذا تسبب لها كل هذا العذاب ·· هذه البنت الأنانية ·· هذه البنت الفاسدة ·· انها تريد أن تنتحر لترتاح ، حتى لو خلفت وراءها أما تتعذب ·· انها لا تدرى أنها عندما تقرر قتل نفسها فهى تقرر أيضا قتل أمها ··

وأحست الأم وهى فى ثورتها أنها تريد أن تنهال على وجه ابنتها صفعا ·· وتظل تصفعها الى أن تفيق من أنانيتها ، الى أن تنتبه الى أنها ليست ملكا لنفسها ، انها قطعة من انسانة أخرى ·· قطعة من أمها ·· ويجب أن تحسب حساب هذه الأم فى كل تصرفاتها ··

وصدر صوت ضعيف خافت ، كأنه آخر التنهدات :

ـ ماما ·· ماما ··

وتنبهت الأم ·· وأطلت فى وجه ابنتها ··

لقد فتحت عينيها ·· وهى تنظر حولها كأنها عمياء ·· ثم ادارت رأسها فى ضعف ، والتقت عينا الابنة بعينى الأم ··

وعادت ليلى تهمس : ماما ··

وانحنت الأم كأنها تحاول أن تسكب حياتها بين شفتى ابنتها ، وقالت : الحمد لله على السلامة يا ليلى ·· نامى يا حبيبتى ··

وابتسمت ليلى ابتسامة ضعيفة ، وهمست :

ـ أنا ·· و ·· وقاطعتها الأم :

ـ ماتتكلميش ·· الدكتور بيقول لازم تنامى ··

وعادت ليلى تبتسم ابتسامة ضعيفة ·· وعيناها غائمتان ثم كأنها لم تعد تقوى على الابتسام ·· فانسدلت جفونها على عينيها ·· وضاعت الابتسامة من فوق شفتيها ··

ونامت ·· وظلت الأم تنظر اليها برهة ··

ثم انهمرت دموعها .. دموع صامتة .. كأنها تخشى أن تقلق ابنتها بدموعها ..

وارتفع صوت نبيلة من خارج الغرفة ، وهى تصيح فى مرح :

ـ مامى .. ليلى ..

ثم انفتح باب الغرفة بقوة .. وصدمت نبيلة بالضوء الخافت ، وبالدموع فوق خدى أمها ، وأختها راقدة فى الفراش ووجهها فى لون الموت .. وانطفأت فرحتها وهمست فى جزع :

ـ ايه اللى حصل .. ؟

ووضعت الأم أصبعها فوق شفتيها توصى نبيلة بالصمت ثم قامت من مقعدها ، وخرجت من الغرفة على أطراف أصابعها ، وهى تسحب نبيلة معها ، ثم أغلقت باب الغرفة فى هدوء .. وسارت فى خطوات ضعيفة الى الصالة الخارجية .. ونبيلة وراءها تسألها : حصل ايه يا ماما .. ما تتكلمى .. ليلى مالها ..

ولم ترد الأم .. سارت فى طريقها ، حتى جلست على الأريكة فى الصالة ، ثم رفعت وجها هرما شائخا الى ابنتها وقالت :

ـ أختك ليلى بلعت أنبوبة اسبرين ..

وسقطت نبيلة على المقعد ، وقالت فى فزع : يا خبر ..

وقالت الأم كأنها تجد فى صدمة ابنتها ما يعينها على صدمتها

ـ كانت عايزة تموت نفسها .. تنتحر ..

وقالت نبيلة : ليه ؟ ..

وقالت الأم :

ـ ما اعرفش .. أنا قمت لقيتها قافلة الأودة على نفسها بالمفتاح .. كسرت الباب .. ولقيتها راقدة زى ما تكون ماتت .. ولولا ان الدكتور رؤوف لحقنا .. كانت زمانها راحت ..

وسكتت نبيلة فترة وهى تائهة فى أفكارها ، ثم قالت كأنها تخاطب نفسها : وازيها دلوقت ؟ ..

وقالت الأم :

ـ الحمد لله ·· الدكتور بيقول بكره حاتبقى كويسة ··
وعلا صوت نبيلة كأنها لم تعد تطيق السكوت :
ـ لازم فتحى هو السبب ·· ما هى لسه بتحبه ·· ولسه بتقابله ·· انما حصل ايه بينهم ، يا ترى ··
وقالت الأم وهى تتطلع الى وجه ابنتها :
ـ هى مش بتحكيلك ··
وقالت نبيلة فى كمد :
ـ أبدا ·· من يوم ماأتجوزت واطلقت وهى مابتجبليش سيرته ابدا ··
وقالت الأم وهى تتنهد فى يأس : ربنا يسامحه ··
وقالت نبيلة :
ـ دى مجنونة ·· أنا مش عارفة واحدة زيها تحب واحد زى ده ازاى ·· وتحبه لدرجة انها تنتحر ·· بس لو كان فيه طريقة نخلصها منه ··
وقالت الأم وهى أشد يأسا :
ـ مافيش طريقة يا بنتى ·· مايخلصهاش الا ربنا ··
وانكمش وجه نبيلة ، وسقطت مع أمها فى هوة اليأس ··
وأخذتا تتحادثان حديثا مقطعا تروى خلاله الأم تفاصيل ما جرى ·· الى ان قالت وقد تذكرت شيئا :
ـ قومى يا نبيلة غيرى بياضات سرير أختك ليلى ·· قبل ما أخوكى ييجى ! ··
وقامت نبيلة ·· وأبدلت الملاءات المبتلة من أثر عملية غسيل المعدة ، ثم عادت وجلست مع أمها ··
وفتح الباب ودخلت فيفى ، ودارت بعينيها بين أمها وأختها ثم قالت : مالكم قاعدين كده ؟ ولم يرد عليها أحد منهما ··
وعادت فيفى تقول كأنها تحاول أن تستنتج بذكائها ما حدث :
ـ فين ليلى ؟ ·

وقالت الأم وهى تتنهد : نايمة ··
وقالت نبيلة كأنها توفر على أمها عبئا :
ـ ليلى حاولت تنتحر ·· أخذت أنبوبة اسبرين
وصرخت فيفى :
ـ ايه ·· تنتحر ·· ليه ؟ دلعنا مش كفاية ·· عايزانا نعمل ايه أكتر من كده ·· نبوس رجليها يعنى ··
ثم سكتت كأن عواطفها غلبتها وقالت فى لهفة :
ـ وحصل لها ايه ؟ ··
وقالت نبيلة :
ـ ولا حاجة ·· الدكتور جه ، وعمل لها غسيل معدة · ودلوقت نايمة ··
وعادت فيفى تصرخ كأنها اطمأنت :
ـ البنت دى مش حاتجيبها البر ·· لازم نشوف لها حل · أنا متهيأ لى أقوم أضربها ، والا أخلى آبيه أحمد يضربها ·· مش ممكن نسيبها تعمل فينا وفى نفسها كل ده ··
ونظرت الأم الى وجه ابنتها ·· انهما لم يريا أختهما وهى فى لون الموت ، والا لما تحدثا كأنهما يتحدثان عن خطأ يمكن تصحيحه ·· عن غلطة يمكن أن تحدث كل يوم ·· ان صورة الموت تظل باهتة أمام كل من يراها ·· وهما لم يرياها ·· هى وحدها التى رأتها ·
وقالت نبيلة متسائلة فى تردد : احنا حانقول لآبيه أحمد ؟
وقالت فيفى بسرعة :
ـ طبعا ·· لازم نقول له ·· ولازم يشوف له حل ·· أنا عارفة السبب ·· السبب هو فتحى ·· ولازم أخويا أحمد يعرف ، ويروح يوقفه عند حده ··
وقالت الأم كأنها تصدر حكما لا نقض له :
ـ أحمد مش حايعرف حاجة ·· ماحدش فيكم حايقول حاجة ·
وقالت فيفى فى سخط :

ـ ليه ·· احنا حانفضل نداری علیها لغاية امتى ؟ ··
وقالت الأم فى حدة :
ـ خلاص يا فيفى ·· أنا قلت أحمد مش حايعـرف ·· ومش عايزه حد يعرف أبدا ··
وقالت نبيلة : أمال حانقول له ايه ··
وقالت الأم : حانقولله انها عيانة ··
وسكتت فيفى ··
وجلست الفتيات الثلاث يعددن أنفسهن للكذبة التى يستقبلن بها احمد .. وفيفى أشدهن سخطا ... وقلبها يهيب بها أن تقوم لترى اختها ليلى ، وتطمئن عليها ، ولكنها تعاند نفسها ·· وتصمم على ان تعاقب أختها باهمالها ، وفى الوقت ذاته تحس أنها تعاقب نفسها.. ونبيلة تفكر بين مقاطع الحديث فى علاقة فتحى بليلى ، وتحاول أن تستنتج ما جرى بينهما ، وتحاول أن تجد مخرجا لأختها من حبها ·· والأم تتقاذفها عواطفها ·· أحيانا تستسلم للثـورة وأحيـانا تستسلم للجزع ·· ثم تتصور نفسها وقد تأخرت فى انقاذ ابنتها ·· او لو كانت خارج البيت فى الوقت الذى تناولت فيه ليلى أقراص الموت · ماذا كان يحدث ·· كانت تموت ·· ويرتفع فى صدر الأم دعاء حار ·· الحمد لله ·· الحمـد لله ·· شكرا يا رب ·· وجاء احمد ··
وجنتاه موردتان من أثر التدريب العسكرى ·· وعيناه لامعتان ·· وقامته مشدودة كأنه ازداد طولا ·· وبين شفتيه ابتسامة قوية ·· وطاف بعينيه بين أمه وأخواته ، ثم قال وابتسامته تتسع :
ـ ما لكم مبوزين كده ؟ ··
وهم الثلاث أن يتكلمن فى نفس واحد ثم سكت الثلاث دون أن يقلن شيئا ·· ثم قالت الأم كأنها تولت زمام القيادة ·· قيادة الكذبة الكبيرة : أصل ليلى تعبانة شوية ··
وسقطت ابتسامته وتعكر وجهه ، وقال فى جمود : مالها ؟ ··

وقالت الأم بسرعة : جت لهـــا أزمة ·· وداخت ·· وجبت الدكتور ، وقال ان عندها التهاب فى المرارة ··

وأحس أحمد أنه يبذل مجهودا ليصدق ما تقوله أمه ، وقال :

ـ هيه فين ؟ ··

وقالت الأم : نايمة فى أودتى ··

وحاول أحمد ألا يهتم ··· ·· ووقف قليـلا منتصبا أمام أمه وأختيه ·· ثم سار متجها الى غرفته ·· وقلبه يتململ فى صدره ·· وريح الجزع على أخته تهز عواطفه ·· ولم يدخل غرفته ·· اتجه الى غرفة أمه ·· وفتح بابها بهدوء ·· ووقف ينظر الى وجه أخته وهى راقدة ··· تائهة ·· وقد اشتد الجزع فى عينيه ·· ان وجهها باهت فى لون ملاءة السرير ·· انها أشد مرضا مما تصور ·· انه لم ير ابدا أحدا مريضا الى هذا الحد ·· ولانت قسـمات وجهه كأنه يناول أخته جرعة من حنـانه ، لعلها تسـاعدها على الشفاء ·· ونسى فى لحظة غضبه منها ، وثورته عليها ، وقراره الذى اتخذه بأن يهملها ·· ثم أدار وجهه عنها ،وخرج من الغرفة ، وأغلق الباب فى حرص ·· ثم سار فى خطوات سريعة الى الصالة الخارجية ، وانطلق يسأل أمه فى لهفة :

ـ الدكتور قال ايه ؟ ··

وقالت الأم وهى تتعمد أن تخفف من لهفته بعينيها :

ـ كتب لها الدوا ··· وعمل لها رجيم ·· وقال انهـا حاتبقى كويسة بعد يومين ·· انما مش لازم تقوم من السرير ··

ثم نظرت الى ابنتيها كأنها تسألهما رأيهما فى اجادة الكذب ··

وظل أحمد واقفا وقلبه يتململ ·· واحساس عميق يجترفه بأن هناك شيئا تحاول أمه وأختاه أن يخفينه عنه ··

ثم قال : جبتى الدكتور مين ؟ ··

وقالت الأم وهى تدعى الهدوء : الدكتور رؤوف ··

وسكت أحمد ···

وفيفى ونبيلة كل منهما متشبثة بمقعدها ، وكل منهما مستجمعة لكل ارادتها ، كأن كلا منهما تخشى أن تنطلق الحقيقة رغما عنهما .

وألقى أحمد نظرة أخرى على أمه وأختيه ، ثم تركهن ودخل غرفته ، وأغلق بابها وراءه .. وجلس يحاول ألا يفكر .. ولكن الأفكار .. تدهمه .. ان أمه تكذب عليه .. انه يحس بكذبها .. ولكن لماذا تكذب عليه ؟ .. ماذا يمكن أن يكون قد حدث لليلى .. هل ؟ .. هل ؟ .. وظل يحاول أن يبعد خياله عما يمكن أن يكون قد حدث لأخته ؟ .. ولكن خياله أقوى منه .. وهو يستعيد صورة ليلى عندما رآها خارجة من العمارة مع فتحى .. ثم يبنى خياله على هذه الصورة .. هل ؟ .. هل ؟ .. هل يمكن أن تكون أخته قد حملت سفاحا ، واضطرت أن تفشى سرها لأمها ، فساعدتها على أن تجهض نفسها ؟ ..

هل هذا هو ما حدث ؟ ..

وألقى رأسه بين يديه ، وقلبه يضمر حتى يكاد يختنق ، وأصابعه تشد فى خصلات شعره ..

انه لا يريد أن يعرف .. لا يريد أن يعرف الحقيقة ..

يريد أن يكتفى بالكذب الذى نطقت به أمه ..

يريد أن يخمد هذه الصور والخيالات التى تطوف برأسه ..

ولو عرف الحقيقة ، وتأكد منها ، ماذا يستطيع أن يفعل ؟

هل يقتل أخته ؟ ..

وارتفعت فى خياله صورة أخته وهى راقدة ووجهها أبيض فى لون ملاءة السرير .. ومرت به لمسة من الحنان .. كأنه يخاف عليها مما هى فيه ، ويخاف عليها من أفكاره .. يخاف عليها من أن يقتلها .. لا .. انه لا يستطيع أن يقتلها .. لا يستطيع شيئا .

انها عاهة فى جسده ، ولا يستطيع أن يقتل نفسه ليتخلص من عاهته ..

انه لا يستطيع حتى أن يحادثها فيما جرى لها ، ما دامت تضع

بين عقلها وعقله هذا الحجاب ٠٠ ما دامت تعتقد أنه لن يستطيع أن يفهمها ، ولا يستطيع أن يعذرها ٠٠ لماذا يضع البنات هذا الحجاب بينهن وبين اخوتهن الصبيان ٠٠ ؟ لماذا يعشن فى دنيا بعيدة ، وحيدات ، ولا يسمحن للأخ أن يشاركهن دنياهن ٠٠ ؟ لماذا لا تبوح له ليلى بسرها ، وتحتمى من أخطائها فى صدره ؟ ٠ وتضع يدها فى يده ليسيرا فى طريق واحد ، مستندة عليه ٠٠ لماذا ؟ ٠٠

وقام يطوف بالغرفة ، ويدق الأرض بقدميه ، وأفكار كثيرة تتجاذبه ، وصور كثيرة تطوف بخياله ٠٠ صور من حياته كلها ٠٠ ثم ارتفع فى أذنيه فجأة ، صوت أومباشى الحرس الوطنى ، وهو يصرخ : كتفا سلاح ٠٠ واحد ٠٠ اتنين ٠٠ تلاتة ٠٠ هب ٠٠

وتشبث بهذا النداء ٠٠ وقف أمام المرآة جامدا ٠٠ يتصور نفسه فى طابور التدريب العسكرى ٠٠ وصور الحركات العسكرية تتوالى فى خياله ٠٠

لماذا يخصصون للتدريب العسكرى ساعة واحدة فى الصباح ؟

لماذا لا يستمر التدريب طول النهار ، وطول الليل ؟ ! ٠

★ ★ ★

ومرت الايام ٠٠

وأفاقت ليلى ٠٠ ولكنها لا تزال ضعيفة ٠٠ وهى تستسلم لضعفها ٠٠ لا تريد أن تقاومه ٠٠ بل تمعن فيه ٠٠ انها لا تريد أن تقوى ٠٠ ولا تريد أن تسترد عافيتها ٠٠ ولا تريد أن تغادر الفراش ٠٠ ليس فى دنياها شىء يستحق أن تصح له ، أو يدفعها الى مقاومة ضعفها ٠٠

وأمها واختاها لا يحاولن أن يثرن أمامها موضوع محاولتها الانتحار ٠٠ ولا يحاولن أن يسألنها عن الأسباب ٠٠ انهن يعاملنها كأنها اناء رقيق من الزجاج يخفن عليه من الكسر ، كل ما هناك أن أمها قالت لها بعد أن افاقت :

ـ أنا مش عايزة أعرف انتى عملتى كده ليه فى نفسك ·· انما احب أقولك ان اللى بتعمليه فى نفسك بتعمليه فينا · يعنى لما تحاولى تموتى نفسك ، كأنك بتحاولى تموتينى ··

وقالت ليلى فى ضعفها ، والندم يرخى عينيها ، فلا تستطيع أن تواجه بهما أمها :

ـ أنا آسفة يا ماما ·· ماكنتش عارفة أنا باعمل ايه ·· !

وعادت الأم تقول :

ـ واعملى حسابك ان أخوكي مايعرفش ·· ومش لازم يعرف·

وقالت ليلى كأنها استراحت من عبء كبير :

ـ مرسى يا ماما ··

رغم ذلك فانها لم تكن تستطيع أن ترفع عينيها الى اخيها وكانت تشعر كلما دخل اليها ليطمئن على صحتها أنه هو الآخر لا يستطيع أن يواجهها بنظراته ·· كأنه يعرف ·· كأنه قرفان منها ·· قرفان الى حد أن يهرب منها ·· وهى تحس بالتباعد بينهما وبينه ·· وتحس أن هذا التباعد يزداد يوما بعد يوم ·· وتحاول أن تقنع نفسها بعدم الاهتمام ، ولكنها لا تستطيع ·· انها تحس وهى تفقد أخاها كأنها تفقد آخر ما بقى لها ·· تحس أن الحياة أمامها مخيفة ، وأن طريقها طويل ·· طويل ·· ستقطعه وحدها ·· فى والعذاب ! ··

وقد ارادت أن تقنع نفسها بالندم على محاولتها الانتحار ولكنها فى قرارة نفسها ليست نادمة ·· انها سعيدة لأنها أنقذت ·· ولكنها ليست نادمة على محاولتها ·· بل هى تعتقد أن هذه المحاولة أنقذتها من محاولات أخرى أقسى وأمر ·· محاولات لا تدريها ·· من يدرى ماذا كان يمكن أن تفعله بعد ما جرى لها مع فتحى ·· لقد كانت أعصابها تحمل كبتا عنيفا ·· وكان يمكن أن تنفس عن هذا الكبت فى اية محاولة ·· وليست محاولة الموت

هى أشر المحاولات ·· ان محاولة الحياة تكون أحيـانا أقسى من محاولة الموت ··

ونبيلة تقبل عليها تحاول ان ترفه عنها بكثير من الحكايات ·· وتحاول فى الوقت نفسه أن تجرها للحديث عن نفسها ·· عن حكاية محاولتهـا الانتحار ·· ولكن ليلى تتجـاهل ·· وتتشبث بالصمت ·· كأن عذابها قطعة من الحلوى تمتصها وحدها ، ولا يستطيع أحد أن يشاركها فيها ··

وضاقت بها نبيلة ، وقالت لها بصراحة ، وهى تبتسـم لهـا كأنها تغريها : مش حاتحكى لى ··

وقالت ليلى وهى مستسلمة لضعفها :

- على ايه يا بلبل ·· ماانتى عارفة كل حاجة ··

وقالت نبيلة : لأ ·· مش عارفة آخر الأخبار ··

وقالت ليلى : بعدين يا بلبل ·· أصلى تعبانة ·· مش قادرة أحكى ··

وقالت نبيلة : أحكيلك أنا ؟ ··

وقالت ليلى كأنها تتنهد : احكى ··

وقالت نبيلة ضاحكة : شوفى يا ستى ·· الرئيس بتاعى فى الشركة معجب بى قوى ·· انما للأسـف مش معجب بشغلى ·· والجمعة اللى فاتت عزمنى على الشاى ·· ورفضت ·· قلت له مانعطلكش ·· والجمعة دى بعت لى انذار لأنى مهملة ، وبتأخر فى مواعيدى ، ودمى تقيل ، ومش راضية آخد معاه الشاى ··

وضحكت ليلى ضحكة ضعيفة ، وقالت : وحاتعملى فيه ايه ده ؟

وقالت نبيلة : ولا يهمك ·· بكره ييأس منى ·· ويتعدل ··

وعادت ليلى تسأل : ومحمود ·· عاملة معاه ايه ؟ ··

وقالت نبيلة فى مرح :

- من يوم ما إشـتغلت واحنـا بنتخانق أربع مرات فى اليوم

ونصطلح مرتين ·· تعرفى ·· أنا متهيألى انه متغاظ انى اشتغلت ·· زى مايكون بيغير منى ··"

وقالت ليلى : ما يمكن بيغير عليكى ··

وقالت نبيلة : ولا بيغير على ولا حاجة ·· المهم انى لا أنا ولا هو حانستريح الا يوم مايشتغل ! ··

وقالت ليلى : هو لسه ما اشتغلش ؟ ·

وقالت نبيلة : لسه ·· بيدى دروس خصوصية ·· وبيشتغل كومبارس فى السينما ·· ومستنى امتحان الاذاعة ·· ومن مدة يومين جاله دور كبير فى فيلم ورفضه ، خاف أحسن لو اشتهر فى السينما بتوع الاذاعة ماياخدهوش ··

وسكتت ليلى كأنها تعبت من الحديث ··

واستطردت نبيلة وهى تتعمد أن توجه سؤالا مباشرا الى ليلى كأنها تفاجئها به :

ــ واخبار فتحى ايه ؟ ·

وارتعدت ليلى لسماعها اسم فتحى ، ثم قالت وهى تدير رأسها فوق الوسادة الى الناحية الأخرى :

ــ ولا حاجة ·· سابنى ! ··

واتسعت عينا نبيلة دهشة ، كأنها صدمت فى كرامتها ، وقالت :

ــ هوه اللى سابك ، والا انتى اللى سبتيه ؟ ·

وقالت ليلى وهى تتنهد فى ضعف ، كأنها استسلمت لمصيبتها :

ــ لا ·· هو اللى سابنى ··

وقالت نبيلة كأنها مغتاظة من ضعف أختها : ليه ؟

وقالت ليلى وهى تتنهد :

ــ علشان ماقدرش يسيب مراته ·· ولا قدرش ان مراته تسيبه ! ··

وهمت نبيلة بان تصرخ لاعنة فتحى ، ثم كتمت صرختها كأنها

خشيت أن تكسر الاناء الزجاجى الرقيـق ، ومدت يدها وضغطت بها على يد ليلى فى حنان كأنها تهبها قوتها ، وقالت :

ـ يمكن كده أحسن يا ليلى ..

وقالت ليلى وهى تدفن وجهها فى وسادتها : يمكن ..

وساد بينهما صمت ..

وجاءت فيفى وانضمت الى الأختين ، ووجهها أكثر تعقيدا وسألتها نبيلة : مالك ؟

وانطلقت فيفى كأنها تهم بالبكاء :

ـ البعثة اتلغت .. انما مش عارفة أنا بختى أسود ليه دايما . مافيش حاجة أعملها الا وتنسد فى وشى .. وبعد ما ذاكرت وتعبت نفسى علشان أدخل الجامعة فى أمريكا تقوم تتلغى البعثة .. كان لازم القناة تتأمم ، والدنيا بحالها تقوم وتقعد علشان ما أسافرش ولا اتجوزش ..

وسكتت فيفى مرة واحدة كأنها ندمت على ذكر زواجها فى هذا المعنى ، وقالت لها نبيلة وهى تشفق عليها :

ـ والبعثة مالها ومال الجواز يا فيفى ..

وقالت فيفى فى تردد :

ـ مش كنا حانتجوز الشهر الجاى ونسافر ..

وقالت نبيلة : وماله .. اتجوزوا ولا تسافروش ..

وقالت فيفى وهى تصرخ :

ـ نتجوز ازاى .. حد عارف الدنيا حايحصل فيهـا ايه يعنى نتجوز والحرب قايمة ..

وقالت نبيلة :

ـ يا ستى بكره الدنيا تروق .. وتتجوزوا .. وتسافروا أمريكا .. ولا يمكن البعثة يحولوها لروسيا .. يبقى أحسن .

وقالت فيفى وهى تخرج غاضبة :

ـ لا أنا عايزه أسافر ، ولا عايزه أتجوز ·· واذا كانت فيه واحدة لازم تنتحر فى البيت ده ، فهى أنا ··

وانتفضت ليلى انتفاضة خفيفة كأن أختها صفعتها ·· ثم هدات ·· وادعت النوم حتى تتركها أختاها وحدها ··

وعادت الى أفكارها ··

ولم تكن تفكر فى نفسها ·· ولا فى اخوتها ·· ولا فى مستقبلها ·

كان كل تفكيرها محصورا فى فتحى ··

وكان كل تفكيرها فى فتحى محصورا فيما يمكن أن يفعله عندما يعلم بمحاولتها الانتحار ··

ماذا يفعل ؟ !

وينبض قلبها بالأمل ·· وتتصور فتحى وقد علم بأنها حاولت الانتحار ، فيكاد يجن لهفة عليها ·· ويهرع اليها ·· ويقتحم البيت وهو يصرخ باسمها ، دون أن يأبه بأمها واخوتها ·· ثم يدخل الى حجرتها ويركع على ركبتيه بجانب فراشها ، يقبل يديها ، ويعتذر لها ، ويتوسل اليها أن تتزوجه ··

وكانت تتغذى على هذا الأمل ··

كان هذا الأمل هو كل ما بقى لها ··

وكانت تزيد من ضعفها ، حتى تطيل مدة مرضها ، وتترك وقتا اكبر ليعلم فيه فتحى بالخبر ··

ولكن كيف يعلم ؟ ··

وتصورت أن أمها قد اتصلت به ، وأبلغته الخبر ، ورجته أن ياتى اليها ليكون بجانبها ، ما دامت لا تستطيع الحياة بغيره ·

وتصورت أن أختها نبيلة تسللت اليه ـ دون علمها ـ واتفقت معه على أن يعود اليها ··

ولكنها كانت تفيق أحيانا لتكتشف أن أختها لم تتصل بفتحى ·· ولا أمها ··

لن يعلم فتحى بمحاولتها الانتحار ، الا اذا أبلغته به هى نفسها ..

وقاومت هذا الخاطر ..

انها لا تريد أن تتصل به ..

يجب أن تصون كرامتها ..

ولكن كرامتها بدأت تذوب مع الأيام .. ثم وجدت نفسها تمسك بالتليفون .. وهمت أن تدير الرقم .. رقم بيت فتحى .. ثم عدلت .. وفى اليوم التالى أمسكت بالتليفون أيضا ، وأدارت الرقم فعلا .. انها لن تحادثه .. فقط ستسمع صوته ..

وتوالى الرنين دون أن يرد عليها أحد ..

انه ليس فى البيت ..

لا أحد فى البيت ..

وشجعتها المحاولة الأولى .. فاتصلت بالبيت مرة ثانية .. ولكن لا أحد يرد .. وأعادت الاتصال فى أوقات متفاوتة بالنهار والليل ..

ولا أحد يرد ..

وأمها ترقبها من بعيد وهى تستعمل التليفون ، ولا تعلق بشىء .. سوى أن تتنهد فى حسرة ..

واتصلت ليلى بمعهد الموسيقى ، وقال لها عامل التليفون :

ـ والله الأستاذ بقاله جمعة ما حدش شافه ..

واتصلت بالاذاعة ..

لا أحد يعلم عنه شيئا ..

وبدأت تتبع أخباره فى المجلات الفنية .. انها لا تنكر عنه شيئا .. واحدى المجلات قالت انه كان على موعد لتسجيل أحد ألحانه فى الاذاعة ، ولم يذهب فى الموعد ، فالغى التسجيل .. واضافت المجلة أن جميع أصدقاء فتحى يبحثون عنه ، بلا جدوى .

وانخلع قلب ليلى ..

ماذا جرى له ؟ ..
لعله انتحر هو الآخر .. ولكن لو كان قد انتحر لنشرت الصحف الخبر .. حتى لو كان قد انتحر وأنقذ كما حدث لها ..
لعله سافر ..
هل سافر هو وزوجته ؟ .
أم سافر وحده ..
ولكن لو كان سافر ، لما كان هناك داع لاخفاء أخباره عن الناس ..
ماذا جرى له ؟ .
انه يتعذب ..
يتعذب أكثر منها ..
وجرى ضعفها دموعا على خديها ..
وقضت أياما تجرى وراءه بخيالها .. وتتصوره فى كل مكان .. وتتصوره دائما معذبا شقيا .. لا تريد أن تتصوره سعيدا مستقرا ..

★ ★ ★

وعادت نبيلة من الشركة ووجهها مضطرب ، ودخلت الى ليلى توا ، واغلقت الباب وراءها ، ونظرت اليها كأنها تهم بكلام خطير ، ثم سكتت ، وفتحت حقيبتها واخرجت منها خطابا ناولته لها بيد مرتعشة ، وهى تقول :
ـ فتحى قابلنى وادانى الجواب ده علشانك ..
وصرخت ليلى : شفتيه .. ؟
وقالت نبيلة وهى تحاول أن تبدو هادئة :
ـ أيوه قابلنى فى أول الشارع ..
وقالت ليلى فى لهفة والخطاب يرتعش فى يدها : وقال لك ايه ؟
وقالت نبيلة :
ـ ما قاليش حاجة .. كان شكله غريب .. ذقنه طالعة ..

وشعره منكوش ·· ومبهدل ·· وعنيه بتلمع ·· لدرجة انى خفت منه ··· وادانى الجواب من غير ما يتكلم ·· حتى ماحاولش يسلم على ولا يسألنى عن صحتك ·· قال لى : خدى الجواب ده اديه لليلى ·· وفى دقيقة واحدة مالقتوش قدامى ··

واستمعت اليها ليلى كأنها تشرب من شفتيها ·· وكلها ترتعش ·· ولم تتكلم ·· بدأت تفتح الخطاب بأصابع ملهوفة ·· وبدأت تقرأ كأنها تأكل السطور بعينيها :

« ليلى ··

« انى أكتب اليك فى لحظة من لحظـات صحوى ·· اللحظات
« التى أتلفت فيها فأرى الشقاء الذى سببته لكل من أحببتهم ··
« وأنا قد أحببتك ·· وأحببت زوجتى ·· وأحببت نفسى ·· وشقينا
« نحن الثلاثة بحبى ·· بل انى أعود الى بعيد ·· الى قبـل أن
« نلتقى ··· فأجد أن كل روح مستها أنفاسى أحالتها روحا شقية ··
« نعم ·· لقد التقيت قبلك ببنات ، كنت أسميهن نزوات ·· وكنت
« أحيلهن الى شقاء ·· وأنت لست نزوة ·· أنت حب ·· حب كبير
« وقد أشقاك حبى أكثر مما كان يمكن أن تشقيك نزوتى ·· وكلما
« كبر حبى ، كبر به شـــقاؤك ·· لست أنت وحدك ··· زوجتى
« أيضا .. وأنا ···

« وقد احتملت زوجتى شـقاءها طويلا ، وأنت أيضـا وكان
« يمكن أن تحتملى أكثر ·· وأنا ·· احتملت ·· ولم أعد أحتمل
« ·· لم أعد أحتمل لانى بدأت أتساءل : لم كل هذا الشقاء ؟ وكنت
« أجيب نفسى بأننا نحن الثلاثة نشقى ، لأعتصر من شقائنا فنى ··
« ولكن ·· هل يستحق الفن كل هذا الشقاء ··· وهل من حقى لأنى
« فنان أن أشقيك ·· وأشقى زوجتى ·· وأشقى نفسى ؟ ! ولنفرض
« أن الفن يستحق ·· فلماذا اكون فنانا وأشقى نفسى ·· وأشقى
« معى كل من احبهم ·· لا ·· لن اكون فنانا ·· كفانى فنا وشقاء
« ·· سأرحمك ، وأرحم زوجتى ، وأرحم نفسى من الفن والشقاء ··

« ولكن كيف أتخلص من الفن ‥ كيف أتخلص من هذا الطنين
« الذى يملأ رأسى ، والذى يمتص عواطفى ، وعواطفك وعواطف
« زوجتى ؟ ! ‥

« انى لن أستطيع أن أتخلص من فنى إلا اذا تخلصت من
« نفسى ‥ لا تنزعجى ‥ لن أقتل نفسى ‥ لن أموت ‥ ولكنى
« فقط سأقتل فنى ‥ ولا أدرى ماذا يبقى منى بعد هذا ‥ ولكن
« هذا ما يجب أن أفعله اذا أردت أن أتخلص من عذابى ‥
« وعذابك ، وعذاب زوجتى ‥

« وبعدها لن يكون أحد منا شقيا ‥ سأصبح أنا انسانا آخر
« لا يتعذب ‥ وانسانا آخر لا تحبينه ، ولا يشقيك بحبه ‥
« وانسانا آخر تستطيع زوجتى ـ اذا أرادت أن تسترده ـ أن تصنع
« به ما تشاء ، وتشكله كما تريد ‥

« حاولى أن تفهمينى يا أعز أيامى ‥ ان المعركة التى
« صاحبتنى طول عمرى ، فى داخل نفسى ، هى معركة بين الانسان
« والفنان ‥ الانسان لا يرضى عن تصرفات الفنان ، والفنان يسخر
« من الانسان ويتحداه ‥ الانسان يريد أن يستقر ويهدأ ويراعى
« حقوق الله وحقوق الناس ، ويبنى لنفسه بيتا كبيوت الناس ‥
« بيتا من معانى الحب ، والشرف والزوجية ، التى اتفق الناس
« عليها ‥ ولكن الفنان لا يطيق كل هذا ‥ انه يندفع فى غروره
« وأنانيته ونهمه ‥ يحطم نفسه ويحطم كل شىء حوله ‥ كما
« يحطم الحطاب فروع الشجر ، ليوقد فيها النار ، ويتدفأ بها ‥
« لعل الدفء يجتذب الالحان ‥

« وهذه المعركة هى سر شقائى وشقاء من أحببتهم ‥ لو كنت
« انسانا فقط لما تعذبت ولما تعذب احد ‥ ولو كنت فنانا فقط لما
« أبهت بالعذاب ‥ لما شعرت به أو حسبت له حسابا ‥ لاستهترت
« به ، وتماديت فى قسوتى على من أحبهم ‥ ولكننى انسان فنان
« والمعركة مستمرة بينهما ‥ معركة تشقينى ‥

« وكان يجب أن أضع حدا لهذه المعركة اذا أردت أن أستريح
« وأريح ‥ كان يجب أن أقتل أحدهما ‥ الانسان أو الفنان ‥
« ولم أكن أستطيع أن أقتل الانسان ، لأن الانسان شيء ضعيف ‥
« وبقى أمامي الفنان ‥ المارد الشره الأناني المغرور ‥

« والطريق أمامي طويل ‥ مضن ‥ ان الفن لا يقتل بسكين
« ولا بالسم ‥ ولكنه يقتل بانتزاعه قطرة قطرة ، كانتزاع الضرس
« بدون بنج ‥ وأنا أتألم ‥ أتألم كثيرا ‥ أتألم وأنا أقتلع
« قطرات الفن من روحي ‥ وأحيلها روحا هتماء ليس لها أسنان
« تأكل بها عواطفي وتحيلها ألحانا ‥ ولكني أحتمل الألم لأني
« أعلم الطريق ، وأرى في نهايته سعادتك ‥ وأراك وقد استحال
« حبك ذكرى تعزفها لك ألحاني القديمة التي تباع على اسطوانات
« بمائة قرش الاسطوانة ‥ واستحال شقاؤك نعيما تنعمين به في
« حب جديد يزدهر خلاله شبابك وتزهين به في وجه الدنيا ‥

« لا تيأسي ‥ انك ستنسين ‥ وستجدين في دنياك سعادة
« تعوضك عن الشقاء الذي سببته لك ‥ وابتسمي ‥ وافردي
« ضفيرتك ، واتركي شعرك ينساب فوق كتفيك ‥ فهكذا أراك
« دائما ، وأنا أهم أن أغرق نفسي في كأسي ‥ الكأس التي أسكب
فيها قطرات فني التي أقتلها من روحي ‥

« وداعا ‥ يا أعز ألحاني ‥ وآخرها ‥

(فتحي ، أو ما بقي من فتحي)

ورفعت ليلى عينيها عن الخطاب ‥ ونظرت الى أختها نظرات مبهورة ‥ كأنها تسألها عن مصيرها ‥ ثم ابتسمت ابتسامة تائهة ‥ كأنها تبحث بها عن فتحي ‥ ثم بدأت تفك ضفيرتها ‥ وتركت شعرها ينسدل على كتفيها ‥ ثم ‥ انكفأت على وسادتها ‥ وبكت ‥ بكت كل دموعها ‥

والخطاب يرتعش في يدها ‥ كأن فتحي يبكي معها ‥ !

٢٦

قضى أحمد مدة التدريب فى الحرس الوطنى .. وتعلم ضرب النار .. لم تعد البندقية فى يده حملا ثقيلا يتعب ذراعه .. ولم تعد شيئا يخافه .. لم تعد وحشا مخيفا يحمله فى يده ويخشى فى كل لحظة أن ينطلق منه رغم ارادته .. لقد تعلم كيف يستأنس الوحش .. وكيف يخضعه لارادته .. وكيف يطلقه كأنه يطلق كلب الصيد على فريسته .. ولم يتعلم بسهولة .. بذل مجهودا عنيفا حتى استأنس الوحش .. كان ينبطح على الأرض ، ويصوب البندقية نحو « الشاخص » الذى يتدرب على اصابته .. ثم يسمع صوت الأومباشى وهو يصيح « اضرب » .. فاذا بجفونه تنسدل فوق عينيه ، وذراعه الذى يرتكز عليه يرتعش .. ويطلق البندقية وهو مغمض العينين مرتعش اليد .. ثم لا يدرى أين ذهبت الرصاصة .. وصوت الأومباشى يصرخ : « الطالب اللى بيضرب وهو مغمض .. فتح عينك يا أستاذ » .. واحتاج أحمد الى كل ارادته حتى يبقى عينيه مفتوحتين وهو يطلق بندقيته .. كأنه يشد جفونهما بحبال من أعصابه .. وأطلق .. أطلق كثيرا من الرصاص .. وثبت ذراعه .. لم يعد يرتعش .. وبدأ وهو يصوب بندقيته الى الشاخص يحاول أن يتصور أنه يطلقها على عدوه .. على الانجليز .. على اليهود .. على أعداء وطنه .. ولكن .. لا .. انه كلما هم بأن يتصور أمامه عدوا أجنبيا .. ارتفعت أمام عينيه صورة نفسه .. لقد كان يصوب بندقيته على نفسه .. على أشياء فى نفسه .. كان يصوبها على تردده ، وعلى حيرته ، وعلى ضياعه .. هذا ما كان يحدث له فعلا .. كان كلما هم باطلاق بندقيته ،

ارتفعت، فى خياله النواحى التى لا يحبها فى نفسه .. نواحى النقص .. وكان عندما يفلح فى أصابة الهدف ، يشعر بفرحة .. لا فرحة النجاح فى اصابة الهدف ، ولكن فرحة أكبر .. كأنها فرحة الانتصار .. الانتصار على العدو الذى يعيش فى نفسه .. وكان يشعر براحة نفسية بعد أن ينتهى من هذه التدريبات .. ويبتسم لهذه الراحة كأنه يتعجب منها .. انه يحس كأنه انتهى من جلسة مع طبيب نفسانى أراحه من متاعبه .. ترى هل فكر أحد من الأطباء النفسانيين فى أن يوصى مريضه بالتدريب على ضرب النار كعلاج لحالته .. وتتسع ابتسامة أحمد .. وتزداد راحته النفسية .. كأنه اكتشف نظرية جديدة فى علم النفس .. ثم يغادر المعسكر ، ولا يلبث أن تصادفه مشاكل حياته .. ويشعر أنه فى حاجة الى جلسة جديدة مع طبيبه النفسى .. مع بندقيته ..

وقضى مدة التدريب فى الحرس ..

وأعطوه شهادة تسلمها من يد قائد المعسكر ، وهو يرفع يده أمامه بالتحية العسكرية ..

والعالم كله يغلى ، وتتصاعد الأبخرة الساخنة من كل مكان وتتجمع كلها فى سحب كثيفة فوق القاهرة .. والناس فى القاهرة يقرأون الصحف ، ويستمعون الى الراديو .. وتتوالى عليهم أصوات أعدائهم .. صوت ايدن فى لندن .. وصوت موليه فى باريس .. وصوت بن جوريون فى تل أبيب .. وصوت دالاس فى نيويورك .. أصوات تهدد .. وتندد .. وهيئة تكونت اسمها هيئة المنتفعين بالقنال .. ومشروع بسحب مرشدى القنال .. ووفد يتكون لمفاوضة جمال عبد الناصر .. وجمال عنيد .. والخطر يقترب .. والناس فى القاهرة تتناقش .. وتبرق عيونهم .. وتطول قاماتهم .. ثم يضحكون .. ويذهبون الى السينما .. ويستمعون الى أغنية : « انا قلبى اليك ميال .. وما فيش غيرك عالبال .. انت وبس اللى حبيبى » .. والناس يتزوجون .. وتقام

حفلات الزفاف ·· ويقبل المدعوون ·· ويصـيح واحد من أهـل العريس : دول هيئة المنتفعين ·· وتضج الضحكات ·· ضحكات عالية ·· والناس عيونهم تبرق وقامتهم تطول ··

وأحمد يذهب الى السينما ·· والى نادى الجزيرة ·· ويأكل الساندويتش فى محل الاكسلسيور ·· ويعيش فى مشاكل أخواته ·· ويحس بالمعركة تقترب ·· وهو لا يشعر بالخوف من المعركة ·· انه يترقبها كأنه فى انتظار موعد مع صاحب العمل ، ليذهب ويتسلم عمله الجديد ·· وقد أصبح أكثر ايمانا بدوره فى المعركة ·· كجندى من جنود الحرس الوطنى ·· ان الساعات القليلة التى قضاها فى الحرس الوطنى قد أقنعته بأنه يستطيع أن يكون شيئا نافعا ·· انه على الأقل يستطيع أن يطلق بندقيته ، ويصيب العدو ·

ولكن ·· انه يستطيع أن يفعل أكثر من ذلك ·· يستطيع أن يكون أكبر من عدوه ·· يستطيع ، بدل أن يكتفى بانتظار المعركة ، أن يزداد استعدادا لها ··

لماذا لا ينضم الى الفدائيين ؟ ··

ولم يشعر بمعنى الفداء ، عندما خطرت له فكرة الانضمام الى الفدائيين ·· لم يتصور أن الفدائى هو انسان يذهب الى الموت فى سبيل وطنه ·· كان احساسه أبسط من ذلك بكثير ·· كان احساسه كأنه يرى زملاءه يلعبون ويريد أن يلعب معهم ·· ويراهم يتفوقون ، ويريد أن يتفوق معهم ·· كان احساسا لا يشوبه معنى الخطر أو معنى الموت ·· بقدر ما يثيره الحماس ·

ورغم ذلك تردد ··

تردد لأنه كان يعلم أنه لو تطوع ضمن الفدائيين ، فسيضطر أن يبلغ أمه ·· ويضطـر أن يعيش خارج البيت ·· بعيـدا عن أخواته ·· خلال فترة التدريب ·· وهو يخاف ألا تفهمه أمه ·· أن تجزع عليه ·· أن تتصوره ذاهبا الى الحرب ، وأنه سيموت ··

وهو لا يريد أن يزعجها الى هذا الحد ·· وفى الوقت نفسه يضيق صدره وهو يشعر أنه مقيد الى أمه بحنانها الجارف ··

وظل مترددا يومين ، الى أن قابل فى الطـريق أحد زملائه فى الحرس الوطنى ·· عبد المجيـد ·· طالب فى التاسعة عشرة ·· وصافحه عبد المجيد فى قوة الجندى الذى يحس بجنديته ، وسأله :

– يظهر انهم حايودونا كلنا معسكر الهرم ؟ ! ··

وقال أحمد : هى كل الدفعة اتطوعت ··

وقال عبد المجيد مبتسما : لغاية دلوقت أربعة بس ··

وقال أحمد كأنه يطيب خاطره : وأنا الخامس ··

ولم يكن أحمد ولا عبد المجيد فى حاجة الى ذكر « الفدائيين » فكل منهما يعلم أنه يعنى الفدائيين ·· ولم يحاول أحمد أن يستفسر من زميله عن دوافع تطوعه ·· خاف أن يبدو أقل منه حماسا ·· فى الوقت الذى يحاول أن يبدو فيه ، بصفته أكبر منه ، أستاذا فى الحماس ·· وأستاذا فى معرفة دوافع التطوع واجراءاته ··

وترك زميله ، وعاد الى بيته ، واتجه توا الى أمه ، كأنه كان يخشى ان تأخر قليلا ·· أو ان خلا بنفسه فى حجرته أن يعدل عن مواجهتها ··

كانت ليلى راقدة فى فراش أمها مستسلمة لضعفها ، وذبولها ·· والام جالسة على حافة الفـــراش ·· وفيفى جالســـة على الشيزلونج ··ونبيلة جالسة على المقعد الموضوع تحت النافذة ·· وهن جميعا فى انتظار أحمد لتناول طعام الغداء ··

وابتسم أحمد ابتسامة كبيرة يحيى بها أمه ·· وانحنى يقبل يدها ·· ثم وجه ابتسامته الى أخواته قائلا : ازيكم يا بنات ··

ثم كأنه أراد أن يرشو أمه ، فمال على ليلى يسألها فى حنان ، كأنه صفح عنها : ازيك دلوقت يا ليلى ·· أنا متهيأ لى انك خدت على النومة دى ·· وابتديتى تدلعى ··

وقالت ليلى وهى تتنهد وتنظر الى أخيها نظرات مرتعشة :

ـ لسه تعبانة يا آبيه ·· انما بكره حابقى كويسة ··

ونظر أحمد الى أمه نظرة سريعة ، ثم حول عينيه عنها ، وشمل خواته جميعا بنظرته ، وقال : أقول لكم خبر جديد ·· ؟ !

وقالت الأم وابتسامتها الطيبة تقفز من بين شفتيها كأنها تقبل بها وحيدها : خير يا أحمد ··

وقال أحمد ببساطة كأن الخبر ليس فيه ما يزعج :

ـ أنا اتطوعت فى الفدائيين ··

وغاصت ابتسامة الأم ·· ونظرت الى ابنها بعينين مبهورتين ·· وقالت نبيلة فى فرح : والنبى جد يا آبيه ·· ؟

وقال أحمد وهو يضحك ويقلد صوت نبيلة :

ـ والنبى جد يا بلبل ··

وقالت الأم وقد اكتسى وجهها بأمارات الجد :

ـ ازاى ده يا أحمد ·· تطوع ازاى وأنا ماعنديش غيرك ·· يعنى نقعد لوحدنا لو حصل حاجة ·· من غير راجل معانا ·· ؟

وقال أحمد وهو لا يزال متشبثا بابتسامته :

ـ أولا مش حايحصل حاجة ·· ثانيا لو حصل حاجة ، حاطلب انى اتعين ديدبان على بيتنا ··

وقالت فيفى : يعنى الفدائيين ناقصينك يا آبيه ! ··

ورد أحمد ضاحكا : لو جيتى للحق ، هم مش ناقصينى ·· انما أنا اللى ناقص من غيرهم ··

وقالت الأم فى حدة : أحمد ·· أنا ماسمحتلكش تطوع ·· لا فدائيين ، ولا غير فدائيين ·· انت مسئول عنى وعن اخواتك ·· ولازم تقعد جنبنا ··

وقال أحمد : يا ماما ده أنا حاروح أتمرن ·· رياضة ·· مجرد رياضة ·· زى ما أروح ألعب تنس ··

وقالت ليلى فى ضعف : ده الحرب حاتقوم يا آبيه ··

وقال أحمد : لو قامت يبقى أحسن أن يكون معاكم واحد

متمرن ، بدل ما أقعد معاكم وأنا ما اعرفش أشيل بندقية ..
وقالت نبيلة : وماله يا ماما .. ما كل الشبان اتطوعوا . أنا كمان عايزة أتطوع فى الحرس الوطنى ..
وقالت الام كأنها لم تسمع كلام نبيلة : يا أحمد ماتتعبنيش . أنا مش ناقصة .. مش ناقصة أقوم كل يوم الصبح وأنا مش عارفة اذا كان ابنى عايش والا مش عايش ..
وجلس أحمـد على حافة السرير بجانب أمـه ، ورفع ذراعه وأحاطها بها ، وضمها اليه ، وقال كأنه يدللها :
– انتى مش واثقة فى يا ماما ؟..
وقالت الأم كأنها طفلة على وشك البكاء : واثقة ..
وقال أحمد وهو يضع شفتيه فوق خدها :
– تفتكرى انى أعمل حاجة تزعلك ؟
وقالت الأم : بس يا أحمد ..
وقاطعها قائلا : أنا كنت أقدر أروح أتطوع من غير ما تعرفى ، وأقول لك انى مسافر اسكندرية .. انما مارضيتش .. لأنى عارف ان مافيهاش حاجة ، وانك مش ممكن تعارضى .. تحبى أقول لك حاجة كمان .. أنا اتدربت فى الحرس الوطنى .. قعدت خمستاشر يوم أدرب ، وخدت شهادة ..
وصاحت نبيلة : مبروك يا آبيه ..
وقالت فيفى : أنا ماكنتش فاكراك غاوى الحاجات دى ..
وقال أحمد : أنا مش غاوى .. انما مضطر ..
وابتسمت ليلى .. كأنها تفخر بأخيها ..
وساد الأخوات البنـات نوع من الزهو بأخيهن .. كأنه قد استرد شبابه .. كأنه قد اقترب منهن أكثر .. والام وحدها يشتد بها الجزع ، وقالت وهى تضع يدها على قلبها :
– بس لازمة العمايل دى ايه يا أحمد .. ؟
وقال أحمد :

ـ لها لازمــة قوى ·· المهم دلوقت انك تبوســينى ، وتقومى علشان نتغدى ·· أحسن أنا جعان موت ·· انتى موش ملاحظة انى باكل كتير اليومين دول ·· البركة فى التدريب العسكرى ··

وألصق أحمد خده فوق شفتى أمه ، كأنه يجبرها على أن تقبله ·· ثم قام وشدها من يدها ، لتقوم الى مائدة الغداء ··

وخرج بها من الغرفة ·· وخرجت وراءهما فيفى ونبيلة ·· وبقيت ليلى فى الفراش تنظر وراءهم ، وفى عينيها نظرة تجمع فيها الضعف ، والحسرة ، واليأس ·· كأنه لم يعد لها نصيب فى هذه الحياة ·· الحياة التى يعيشها اخوتها ··

وهمست نبيلة فى أذن أحمد وهى تجلس الى المائدة :

ـ تعرف ان محمود كمان اتطوع ··

ومال أحمد على أذنها وهمس يقلد همستها : مبروك ··

وابتسمت نبيلة ابتسامة واسعة كذيل لضحكة خافتة ، وجلست وهى تنظر الى أخيها فى زهو وحب ·· انها تحس أنهــا أخــيرا استطاعت أن تجمع بين أخيها وحبيبهــا فى مكان واحد ·· فى مستوى واحد ·· فى صــف واحد ·· تحس كأن هــذه الفوارق الكبيرة بينها وبين حبيبها قد زالت عندما رأت أخاها يتطوع معه فى ·· الطابور ··

وفيفى تنظر الى أخيها فى دهشة ·· انها تراه أصغر ســنا مما كانت تعتبره ·· وهى تحس أن التطوع فى كتائب الفدائيين ليس من واجب الرجال الكبار ·· ان خطيبها أمين عبد السيد لن يتطوع مثلا ، لأنه رجل ·· وليس شابا صغيرا ، كأخيها أحمد ··

والأم ساهمة ، تبحث فى عقلها عن وسيلة تجبر بها أحمد على أن يعدل عن تطوعه ·· وتحاول أن تخفى تفكيرها وراء ابتســامة ضعيفة توجهها اليه حتى لا يكشف سرها ·· وانتهت العائلة من تناول الغداء ، وقام أحمد ليحادث شهيرة فى التليفون ··

لقــد عادت منذ يومين من الاسكندرية ·· عادت تحت ضغط

الحوادث وأنباء اقتراب المعركة .. وهو يريد أن يقابلها ليودعها قبل أن يغيب عنها فى معسكر الفدائيين ..

واتفقا على أن يتقابلا الساعة الرابعة فى النادى .. وذهب اليها .

وجلسا فى الشرفة المطلة على حمام السباحة يتناقشان فى آخر تطورات الأزمة السياسية .. وكانا يحاولان أحيانا أن يحرج من حديث السياسة الى حديث حبهما ، ولكنهما يجدان نفسيهما يعودان مرة أخرى الى حديث التطورات السياسية .. وهى تحس أنه على وشك أن يعلنها بخبر جديد .. وقلبها يرتجف ارتجافة خافتة فى انتظار هذا الخبر .. وهو يفكر خلال حديثه فى المناسبة التى سيعلنها خلالها بالخبر .. خبر تطوعه فى كتائب الفدائيين .. ويطيل فى كلامه عن تطور الأزمة السياسية كأنه يمهد للمفاجأة.

وأخيرا انطلقت المفاجأة رغما عنه ، كأنه ضاق بحبسها فى صدره وقال وهو يبتسم فى مرح : تعرفى انى اتطوعت ف الفدائيين؟

وسكتت شهيرة برهة ، ثم قالت وفى عينيها نظرات غير مستقرة:

ـ خلاص اتطوعت ؟ ..

وقال أحمد كأنه يقطع عليها أى محاولة لتثبيط همته :

ـ بكره حاروح أقدم نفسى ..

وقالت شهيرة : ماهو أخويا اتطوع كمان ..

وقال كأنه يحاول أن يقنعها بأن الأمر أخطر من ذلك :

ـ أخوكى اتطوع فى الحرس الوطنى .. وأنا خلصت تدريب الحرس الوطنى .. الفدائى حاجة تانية ..

وقالت شهيرة وهى تبتسم كأنها تحاول أن تخفف عن نفسها :

ـ اتدربت فى الحرس الوطنى من غير ما تقول لى .. !

وقال أحمد : الحقيقة انى رحت الحرس الوطنى وأنا مش متأكد من نفسى .. ماكنتش متأكد من نفسى .. ماكنتش متأكد انى حاقدر أستمر فى التدريب .. علشان كده ماقلتش لك .. ولا قلتش لحد .

قالت وهى تبتسم : ودلوقت اتأكدت ·· ؟ !
قال : اتأكدت لدرجة انى حاتطوع فدائى ··
قالت : وايه الفرق بين الحرس الوطنى والفدائيين ··
قال : تدريبات أعنف ·· وحانعيش فى معسكر ·· ومفروض اننا نشترك فى المعركة ، اذا حدثت معركة ··
قالت : وفيه فرق كمان ·· قال : ايه ؟ ··
قالت وهى تبتسم ابتسامة صغيرة : اننا مش حانشوف بعض·
وارتفعت فى عينيه نظرة مترددة كأنه فوجىء بشىء لم يحسب حسابه وقال فى صوت خافت : حانشوف بعض فى الاجازات ··
وابتسمت شهيرة ابتسامة واسعة وقالت :
ـ تعرف ·· أنا نفسى أغمض عينى وأفتحها ، وأشوفك لابس لبس الفدائيين ، وشايل بندقية على كتفك ·· متهيأ لى شكلك يتغير خالص ·· ده أنا من دلوقت شايفاك متغير ·· زى ماتكون كبرت وطولت وعرضت ··
وقفزت قطرات حمراء الى وجنتى أحمد كأنه أحس بنفسه أنه كبر فعلا وازداد طولا وعرضا ·· وقام واقفا وهو يقول :
ـ قومى بنا نتمشى بالعربية شوية ··
وقامت شهيرة كأنها تلقت أمـرا عسكريا ·· وسـار أحمـد بجانبها فى خطوات عسكرية ، لا يتعمدها ··
وعندما خرجا من باب النادى رأى أحمد صديقه مدحت قادما وهو يرتدى زى الحرس الوطنى ·· ووقف مذهولا كأنه لا يصدق عينيه ·· انه يذكر أنه قابل مدحت يوم أعلن جمـال عبد الناصر تأميم القنال ، ووجده مبتئسا ، لان قيمة الجنيه المصرى قد انخفضت ·· فماذا حدث له ؟ ·· ما الذى أثار حماسه الى حد أن يتطوع فى الحرس الوطنى ؟ ·· وقال أحمد ولسانه يرتجف بالدهشة : انت اتطوعت ؟ ·· وقال مدحت فى ثقة :
ـ احنا عملنا كتيبة فى النادى ، مش حاتطوع معانا ·· ؟

وقال أحمد والابتسامة تملأ وجهه : أنا اتطوعت من زمان ، فى كتيبة تانية ·· انما قول لى ·· الجنيه بأه سعره كام ؟ ··
وقال مدحت ضاحكا : لسه بينزل ·· يظهر ان مافيش طريقة الا انى أرفعه بنفسى ·· عن اذنك ··
وصافح مدحت صديقه ، وصافح شهيرة ، وابتعد فى خطوات سريعة ·· وقال أحمد وهو يركب سيارته :
ــ آخر واحد كنت أنتظر انه يتطوع هو مدحت ·· !
وقالت شهيرة فى بساطة : ليه ·· مدحت كويس ! ··
وقال أحمد : يظهر ان كلنا كويسين ··
وقاد أحمد سيارته فى طريق مدينة المقطم ·· وقالت شهيرة
ــ بابا عايز نسافر العزبة ونقعد هناك لغاية الحالة ما تهدا ··
وقال أحمد : معقول ··
وقالت شهيرة وهى تهز كتفيها : أخويا مش راضى ·· قال لبابا انه ما يقدرش يقعد فى العزبة ، وكل أصحابه متطوعين ·· وأنا كمان مش حارضى ·· علشان أستناك لما تيجى فى الاجازة وأشوفك ·· وماما مش حاترضى لأنها ماتقدرش تسيبنا ·· وبابا مش حايرضى لأنه مايقدرش يسيب ماما ··
وضحكت شهيرة ·· وعيناها تلمعان فى مرح وحماس ··
وضحك أحمد ·· وهو يطل عليها بعينيه كأنه يريد أن يتزود منها بذخيرة تكفيه مدة غيابه ··
ووقفا فوق الجبل ·· جبل المقطم ·· وتحادثا طويلا ·· وضحكا كثيرا ·· وشىء مهتز فى حديثهما وضحكاتهما ·· انهما لا يستطيعان أن يرسما فى خيالهما صورة الأيام المقبلة ·· أحيانا يرسمان لها صورة ضاحكة مليئة بمرح الشباب وحماسه ·· لا شىء خطير ، ولا شىء يدعو للخوف والجزع ·· مجرد أيام يتدرب فيها الشباب تدريبات رياضية ·· وأحيانا تضطرب هذه الصورة ، وتزحف عليها صور أخرى ·· صور قاتمة ·· صورة الحرب ··

والرصاص .. والقنابل .. والقتـل .. والخوف والجزع ، ثم لا يلبث حماسهما أن يعود بهما الى الصورة الأولى ..

واقترب أحمد من شهيرة ، وهمس : حاتوحشينى ..

وقالت شهيرة وهى تختبىء فى صدره :

ـ اوعدنى انك حتاخد بالك من نفسك .. ماتستهترش ..

وقال هامسا وهو يبتلع ريقه : حاضر ..

ثم لمس بشفتيه خصلات شعرها .. وزحف بهما الى خدها .. وهى مستسلمة .. ساكنة .. ثم وصل بشفتيه الى شفتيها .. وغابا .. وطال بهما الغياب ..

وهما لا يدريان كيف ينتهيان .. انه يريد أن يأخذها معه .. وهى تريد أن تبقيه معها .. وأى شىء دون ذلك لا يكفيهما .. وقبلتهما يعكرها احساسهما بأنها ستنتهى ..

ونزعت شفتيها من شفتيه ، وقالت وأنفاسها مبهورة :

ـ نروح بأه يا أحمد ؟ !

وقبل أن يجيبها عادت بشفتيها الى شفتيه .. انها لا تريد أن تتركه .. تريد أن تعطيه ما يكفيه وأكثر .. من يدرى .. من يدرى .. من يدرى متى يعود .. وهو لم يعد يفكر فى ذهابه ولا فى عودته .. انه يريد مزيدا منها .. يريدها كلها ..

وعادت تستجمع ارادتها وتنزع شفتيها من شفتيه وهى تقول :

ـ نروح بأه يا أحمد ؟

ولم يرد عليها .. كأنه كان يخشى ان تكلم أن تسقط قبلات شهيرة من فوق شفتيه .. واعتدل أمام عجلة القيادة وقاد سيارته نحو القاهرة .. والحديث بينهما بطىء .. حزين .. يتخلله صمت طويل .. وسحابة من الضيق تطوف فوق رأسيهما .. والشمس تغيب ..

وقالت قبل أن تنزل من السيارة أمام بيتها وبين شفتيها ابتسامة وفى عينيها بريق دموع :

ـ انت وعدتنى يا أحمد انك حاتاخد بالك من نفسك ··

قال وعيناه حزينتان : اطمنى ··

قالت : وتبقى تبعتلى أخبارك ، ياتكتب لى يا تكلمنى فى التليفون ·

قال : على قد ما أقدر ·

وانحنت وقبلته قبلة سريعة ، وقالت كأنها تتنهد : ربنا معاك ·

ونزلت من السيارة ، ودخلت البيت دون أن تلتفت خلفها ·· وظل أحمد يتبعها بعينين يرتسم فيهما وداع حزين ·· حتى اختفت ·· وقاد سيارته فى بطء كأنها تسير بدموعه ، الى أن وصل بيته ·

وفوجىء بخاله جالسا مع أمه وأختيه فى الصالة الخارجية ·· ونظر الى أمه كأنه يسألها عن سر هذه الزيارة المفاجئة ، ثم تقدم اليه مصافحا وهو يقول : ازيك يا خالى ··

وقال الخال وهو يقوم من على مقعده : أهلا بالبطل ·· أنا قاعد مستنيك بقالى ساعة ·· تعال ·· تعال ··

وسار الخال الى غرفة المكتب ·· وأحمد يسير وراءه ويتلفت فى كل خطوة ناحية أمه ، وعيناه تحملان اليها اتهاما ··

وجلس الخال على المقعد الجلدى العريض ، وأراح كرشه فوق ساقيه ، كعادته عندما يستعد لمناقشة أحمد ، وقال فى هدوء :

ـ ايه الحكاية اللى بتقولها والدتك دى ؟ ··

وقال أحمد وهو يتجمع ليضبط أعصابه : حكاية ايه يا خالى ؛

وقال الخال كأنه يعطى أحمد فرصة للانكار :

ـ بتقول انك اتطوعت فى الفدائيين ·

وقال أحمد بسرعة : ده صحيح يا خالى ··

وقال الخال : وده اسمه كلام ·· تسيب والدتك لوحدها ·· حد عارف البلد حايحصل فيها ايه ؟ ··

وقال أحمد كأنه يتعمد اغاظة خاله :

ـ البركة فيك يا خالى ما حضرتك حاتقعد معاها ومع اخواتى

وقال الخال وهو يتجاهل رنة الاغاظة فى صوت أحمد :
ـ لا يا أحمد ·· صحيح انى دايما معاكم ·· انما انت برضه مسئول معايا ·· ووالدتك مالهاش غيرك ·· دى خايفة عليك قوى ·· وانت ماترضاش تضايقها ··
وقال أحمد : باذن الله مش حايحصل حاجة ··
وقال الخال :كأنه لم يسمعه : ثم اللى بدى أفهمه ·· انت اتطوعت ليه ·· انت فاكر اننا حانحارب انجلترا وفرنسا ·· ؟
وقال أحمد فى هدوء : لو البلد حاربتهم يبقى لازم كلنا نحارب·
وقال الخال فى تهكم : حاتحاربوهم بايه ·· بشوية البنادق اللى فى ايديكم ·· يا ابنى كان غيرنا أشطر ·· وخليك عاقل ·· واقعد جنب والدتك ·· ماتعذبهاش ··
وقال أحمد وقد بدأ وجهه يحتقن :
ـ يا خالى ·· مش مسألة حانحارب بايه ·· المسألة ان لو حصل اعتداء يبقى لازم نحارب ·· نحارب ببنادق ·· نحارب بالطوب ·· نحارب بصوابعنا ·· المهم اننا نحارب ·· ندافع عن البلد ·· ولو كنت حضرتك من سنى كنت قدرت تقدر الروح دى ·
وقال الخال فى حدة : انت فاهم أنى علشان أكبر منك ، أبقى أقل منك وطنية ·· المسألة عقل يا سى أحمد ·· ومافيش عاقل يقول اننا نقدر نقف ونحارب انجلترا وفرنسا وأمريكا ، والدنيا دى كلها ·· دى مش شجاعة ··
ونظر أحمد الى خاله نظرة طويلة صامتة ، ثم قال وهو يبذل مجهودا كبيرا ليضبط أعصابه :
ـ يعنى لو رجعوا الانجليز ، نسيبهم يدخلوا ·· !
وقال الخال وقد علا صوته كأنه أهين : أنا ماقلتش كده ·· انما ·· وقاطعه أحمد قائلا : يبقى اتفقنا يا خالى ·· أنا حاروح أتدرب علشان لو رجعوا الانجليز ، مانسيبهمش يدخلوا ··
وسكت الخال ، كأنه هزم ·· كأنه تعود على الاستسلام ·· ثم

قال وهو يزفر أنفاسه : وحا أقول ايه لوالدتك دلوقت ؟

وقال أحمد وهو يبتسم كأنه يحاول أن يرفه عن خاله :

ـ سيادتك تطمنها وتقول لها ان مافيش حاجة حاتحصل ، ولا حرب حاتقوم ·· وسكت الخال ··

وقام واقفا ، ونظر الى أحمد كأنه يهم بالكلام ، ثم عدل عن الكلام ·· يائسا ·· واستدار وخرج من الغرفة ·· وأحمد وراءه ·

وترك أحمد خاله يحادث والدته ودخل حجرته ·· وبدأ يبدل ثيابه ، ويرتدى بدلة أخرى ·· انه لن يستطيع أن يبقى فى البيت ·· انه لن يحتمل أن يقضى طول هذا الوقت وهو فى حالة وداع لأمه وأخواته ··

وانتهى من ارتداء ثيابه ، وخرج الى الصالة ، وقال لأمه وقد انصرف خاله : أنا رايح السينما يا ماما ··

وقالت الأم وهى تنظر اليه بعينين يتحفزان للبكاء :

ـ انت حاتروح تطوع امتى يا أحمد ؟ ··

وقال أحمد وهو يضحك وينحنى يقبلها : لسه بدرى ·· فين على بال ما يقبلوا طلبى ·· ويمكن ما يقبلونيش ··

وارتفعت الى شفتى الأم ابتسامة خافتة ، كأنها اطمأنت ··

★ ★ ★

وفى اليوم التالى قام أحمد من نومه فى السادسة صباحا ·· وارتدى القميص والبنطلون ·· وعقله مشحون بصور كثيرة عن الحياة التى يقبل عليها ·· حياة الفدائيين ·· وأعد حقيبة صغيرة ، وضع فيها طاقمين من ثيابه الداخلية ، وفوطة وجه ، ومنديلين ·· وثلاثة أزواج من الجوارب ·· ومشطا وفرشاة ·· وعدة الحلاقة ·· و ·· لقد كان يعلم ما يحتاجه الفدائى داخل المعسكر ··

وترك الحقيبة الصغيرة فى غرفته ·· وخرج وتناول افطارا خفيفا سريعا ·· كانت أعصابه منفعلة الى حد لا يستطيع معه أن يتناول افطاره وهو هادىء ··

ثم دخل الى أمه ·· وليلى نائمة بجانبها ·· وقبل يدها ·· ووقف أمامها صامتا ، يختار الكلمة التى يقولها ··

وقالت أمه والجزع فى عينيها : رايح فين يا أحمد بدرى كده·

قال وهو ينحنى عليها ويقبلها : رايح الجامعة أشوف الحكاية ايه ·· وقالت الأم كأنها تطمئن عليه : وراجع ؟ ··

وقال أحمد : طبعا يا ماما ··

ثم انحنى يقبلها مرة ثانية ·· وضمها ضمة خفيفة ·· والأم تنظر اليه كأنها تكذبه ، كأنها لا تستطيع أن تطمئن ··

ونظر أحمد الى أخته النائمة نظرة طويلة ·· ثم نظر الى أمه نظرة خاطفة ، وانسحب من أمامها بسرعة ، ثم عاد الى غرفته وحمل حقيبته الصغيرة ، وخرج باحثا عن أخته نبيلة ، وقال لها هامسا :

ـ لو جيتى الضهر مالقيتينيش ، ابقى قولى لماما انى اتطوعت خلاص ·· وانى نايم فى المعسكر ··

وقبلها فتعلقت برقبته وقبلته وهى تقول : خد بالك يا آبيه ·

فضمها الى صدره قائلا : وانتى خدى بالك من ماما ··

ثم دخل الى فيفى وهى لا تزال فى فراشها ، وقبلها ، وهو يهمس : ماتقوليش حاجة لماما الا ساعة الغدا ·· باى باى ··

ونظرت اليه فيفى نظرات ملهوفة ، وقبل أن ترد عليه ·· خرج ·· خرج من البيت ··

ولم يركب سيارته ·· تركها فى الجاراج ·· وسار نحو مبنى الجامعة فى خطوات عسكرية سريعة ، دق بها الأرض كأنه يحاول أن يوقظها ·· ودخل الى مكتب التطوع ··

انه يحس هنا باقتراب المعركة أكثر مما كان يحس بها ·· كل شىء حوله يضج بالحماس والقوة ·· المتطوعون يقفون صفا ·· وجوهم قوية ·· عيونهم لامعة ·· ويبتسمون ·· ويتبادلون نكات خافتة حتى لا يسمعها الشاويش الجالس خلف المكتب ·· وطلبات التطوع تقبل بسرعة ·· كأنها حق يمنح لأصحابها بلا مجادلة ··

الشاويش ينظر الى كل متطوع نظرة واحدة ثم يختم الأوراق ..
لا وقت عنده لنظرة ثانية ..

وانتظر فى الصف مع بقية الفدائيين ..

لا يدرى ماذا ينتظر ، ولكنهم قالوا له : انتظر ..

وفى الساعة الحادية عشرة ، أركبوهم سيارة لورى عسكرية
أنه يعلم الى أين يأخذونه .. الى معسكر التدريب بمنطقة الهرم ..

والسيارة تمر بهم فى شوارع الجيزة .. وهو وزملاؤه واقفون
فوق سطحها .. ويحاولون أن يحتفظوا بوجوههم جادة قوية ، ثم
يضيقون بالجد فيتبادل كل منهم ضحكة أو ابتسامة مع زميله ..
وخلفهم سيارة عسكرية أخرى تحمل فريقا آخر من المتطوعين ..
والناس فى الشارع ينظرون اليهم فى فرح . ثم يعودون الى حالهم
.. والحياة فى الشارع عادية .. لا شىء جديد .. ولا شىء يتوقف
.. وأحمد ينظر الى الناس حينا .. ثم يداهمه احساسه بأن الناس
تنظر اليه .. ويحس كأنه فى استعراض عسكرى .. فيرفع عينيه
وينظر بهما فى الفضاء .. ثم لا يلبث أن يعود وينظر الى الناس
فى الشارع .. وتسقط عيناه على فتاة فيحول عينيه بسرعة ..
ليس هذا وقت الفتيات ! .

ووصلوا الى معسكر التدريب ، تحت سفح الهرم ، فى بداية
طريق الاسكندرية ، وقفز المتطوعون من فوق حافة السيارة الكبيرة .

ولم يتردد أحمد .. لم يفكر أن ينزل من السيارة فى هدوء ..
قفز من فوق حافتها هو الآخر .. ووقف برهة يدير عينيه بين الخيام
المنتشرة حوله .. خيام كثيرة .. صفراء .. فى لون الرمال ..
ومجموعات كبيرة متفرقة من المتطوعين تدرب .. وأصوات نداءات
عسكرية .. وطلقات رصاص .. طلقات مدافع .. وبنادق ..
وحركة .. كل شىء يتحرك .. بقوة .. وسرعة .

وتقدم اليهم شاويش .. صارم التقاطيع له شارب كث ..
ونظر اليه أحمد طويلا وخيل اليه أنه يرى تحت شاربه ، ابتسامة ،

وقاده الشاويش الى المخزن ·· وناوله الجندى الواقف خلف المائدة الطويلة ·· أوفرول ·· وحذاء عسكريا ·· وطاقية ·· وناوله جندى آخر بطانيتين ·· وناوله جندى ثالث بندقية ، قبض عليها فى قوة كأنه كان فى شوق اليها ··

ووقف يبدل ثيابه ، ويرتدى الزى العسكرى ·· زى الفدائيين ·· ثم استأذن الجندى فى أن يحتفظ فى المخزن بثيابه المدنية الى ان يعود ويستردها ··

وخرج يحمل بندقيته بيد ، وتحت ذراعه البطانيتان وحقيبته الصغيرة باليد الأخرى ، ويسير وهو يشعر بثقل الحذاء العسكرى فى قدميه ·· انه حذاء ثقيل ·· جامد ·· يستطيع أن يسير به اميالا ·· ويستطيع أن يضرب به أعداءه ·· انه يحس أنه أقوى ·· لم يكن يعتقد أن الحذاء الثقيل يمكن أن يزوده بقوة أكبر ··

وسار الشاويش بجانبهم يوزعهم على الخيام ·· وبقى أحمد ·· كان فى آخر الطابور ·· ولم يجد له الشاويش مكانا فى الخيام التى مر بها ·· فطاف به على مزيد من الخيام ·· ثم دخل به خيمة متوسطة الحجم ، يجلس فيها أحد المتطوعين ، وسأله :

ـ فيه كام واحد هنا ؟ ·· وقال المتطوع : تلاتة ··

وأفسح الشاويش الطريق لأحمد وهو يقول : اتفضل يا حضرة !

وألقى أحمد نظرة سريعة داخل الخيمة ·· ان بها أربعة ألواح من الخشب ملقاة على الأرض ·· وشاب يبدو فى التاسعة عشرة جالس على أحدها ، وبندقيته بين يديه ··

وقال الشاب فى مرح وهو يستقبل أحمد : أهلا ··

وقال أحمد وهو يبتسم : أهلا بيك ··

وهم الشاب بالقيام ، ولكنه لم يقم ، وقال فى بساطة

ـ أنا اسمى كمال ·· كمال صالح ··

وألقى أحمد حقيبته من يده وصافح الشاب قائلا : أحمد زهدى·

م استطرد : السرير الفاضى فين

وقال كمال ضاحكا : قصدك اللوح .. اللوح اللى عندك هناك.
وابتسم ، واستدار له .. وركن بندقيته على جدار الخيمة ثم انحنى يضع البطانيتين فوق اللوح الخشبى ..
وقال كمال : خدت كام بطانية ؟
وقال أحمد دون أن ينظر اليه : اتنين ..
وقال كمال : كنت تقدر تاخد تلاتة ..
وقال أحمد وهو مشغول باعداد فراشه : ازاى .. ؟
وقال كمال : بعدين أقولك .. ده البرد بالليل .. يا مغيث !
وسكت أحمد ..
وبدأ كمال يحرك زناد بندقيته ، وينزع خزانتها ثم يعيد تركيبها .. ثم قال : تفتكر البندقية من دول تسوى كام ؟
وقال أحمد وهو مدير ظهره : تلاتين ، أربعين جنيه ..
وقال كمال : تعرف لو كان عندى ورشة .. كنت أقدر أعملها وماتكلفنيش جنيه ..
واستدار اليه أحمد بسرعة .. خيل اليه أنه سمع صوت أخيه ممدوح .. ونظر الى كمال نظرة مبهورة .. كأنه لا يصدق عينيه .. ورأى كمال نظرته ، فابتسم ابتسامة حلوة ، وقال :
– صدقنى .. دى فكرتها بسيطة خالص ..
وأفاق أحمد من دهشته ، وقال وهو يرد ابتسامة كمال :
– بكره يبقى عندك ورشة وتورينا شطارتك ، انت فى الهندسة
وقال كمال : لا .. حقوق .. انما بينى وبينك مش ناوى أكمل .. تسمح تقول لى حا اعمل ايه بالليسانس .. ؟
وقال أحمد وصورة ممدوح تتجسد فى خياله :
– لك حق .. الليسانسات راحت عليها ..
وسد باب الخيمة شاب طويل عريض مفتول العضـل ، داكن السمرة ، يقضم فى رغيف ساندويتش ، وقال مخاطبا كمال ، وهو يمضغ اللقمات بين شدقيه :

ــ احنا لازم نشوف لنا حل فى الكنتين ده ·· الراجل أقول له ادينى ساندويتش أنشوجة ·· يدينى و ··

وقطع كلامه عندما رأى أحمد ، وقال : أهلا وسهلا ··

وقال كمال يقدمه لأحمد : زميلنا محمد عبد الهادى الدباغ والدباغ دى من عندى !

ومد أحمد يده مصافحا ، وهو يقدم نفسه : أحمد زهدى

ودخل الزميل الرابع ·· شاب رفيع ، ملون العينين ، ناعم الشعر ، يبدو كأنه فنان ·· أتلف الفن أعصابه ·· وقدمه كمال ··

ــ خالد رحمى ··

وتبادل خالد بضع كلمات مع زملائه ·· ثم ابتعد ، وجلس على اللوح الخشبى الخاص به ، وأخرج من حقيبته ورقا وقلما واخذ يكتب ·· وصاح محمد عبد الهادى :

ــ ما انت لسه كاتب جواب امبارح بالليل ؟

وقال خالد فى حدة : وانت مالك يا أخى ··

وقال كمال لعبد الهادى وهو يضحك :

ــ طيب ما انت لسه واكل ساندويتش من ربع ساعة ··

وقال محمد عبد الهادى : فكرتنى الساعة بقت اتنين ·· الجماعة اتأخروا علينا بالتموين النهاردة ··

وأحمد جالس على فراشه يبتسم ·· ويتحفظ فى الحديث الى أن يعرف زملاءه أكثر ·· وينظر الى كمال نظرات مختلسة ·· ويلتقى بعينيه المرحتين النشطتين ، وشعره المنكوش فوق رأسه ·· فتتسع ابتسامته ، ويتذكر ممدوح !

وصاح كمال : ايه رأيكم ·· كل واحد فينا يروح يجيب أربع طوبات ، ونرفع عليها اللوح ·· ويبقى سرير مدهش ··

وتجسمت صورة ممدوح أكثر فى مخيلة أحمد وقال : فكرة ··

وقال عبد الهادى : خلى عبقريتك تستريح شوية لغاية ما نتغدى·

وبدأ أحمد تدريبه فى نفس اليوم ·· ليس هناك وقت ليضيع

.. ان المعركة تقترب .. واحساس أحمد باقترابها يزداد .. والحركة لا تهدأ داخل المعسكر .. وصوت طلقات المدافع والبنادل .. والأسلاك الشائكة المنصوبة ، انه فى وسط المعركة .

وتلقى أحمد تدريبا سريعا فى حراسة الموقع .. وطاف عليهم الشاويش قبل أن يحل المساء ، يحدد لكل منهم نوباتشيته فى الحراسة .. البرنجى .. والكنجى .. والشنجى .. و .. و .. كل واحد منهم تستمر نوباتشيته ساعتين .. ونوباتشية أحمد من الساعة الثانية حتى الساعة الرابعة .. وهو يعلم تماما واجبه .. سيقف منصوب القامة وبندقيته فى يده .. واذا أحس باقتراب غريب رفع سلاحه وصاح : قف .. من أنت ..

وعلى القادم أن يصيح بكلمة سر الليل .. والا صرخ فيه أحمد : اركع .. صفق .. خلفا در .. و ..

وأخذ أحمد يستعيد التدريب الذى تلقاه ، كأنه يذاكر دروسه .. وجاء الشاويش وأبلغهم كلمة سر الليل « نصر ٢١ » وعلى القادم أن يقول : « نصر » .. فيرد الحارس « خمستاشر » فيقول القادم : « ستة » ليكمل الرقم « ٢١ » ..

وفرح أحمد بكل هذه المعلومات .. أحس كأنه اؤتمن على سر عسكرى هام .. بل على خطة حربية كاملة ..

وقام هو واثنان من زملائه كمال وعبد الهادى .. والثلاثة من « سرية الخدمة » .. وكل منهم يحمل بطانيته .. وسلاحه وناموا .. ناموا على الأرض ، وأحذيتهم فى أقدامهم .. فى العراء بجانب الموقع الذى كلفوا بحراسته ..

ونام أحمد نوما قلقا .. نام فى انتظار أن يصحو ..

وصحا قبل موعد دوره فى الحراسة ، واستعد الى أن انتهت نوبتشية زميله ، وقام يتولى الحراسة ..

ووقف منتصبا فى الليل ..

سلاحه فى يده .. وعيناه تنقبان الظلام ..

وأذناه منتبهتان ..

وقلبه ملىء بالحماس ، والاحساس بواجبه ..

والدقائق تمر .. والدنيا تزداد صمتا .. والصمت يزحف على أحمد .. صمت أسود رهيب .. وبدأ حماسه يهتز .. بدأ قلبه يرتعش رعشات خفيفة .. كأنه يخاف .. لا .. انه لا يخاف .. ويبحلق فى الظلام بعينين عصبيتين كأنه يتحدى الليل .. ولكن قلبه لا يزال يرتعش .. رعشة خفيفة .. وبدأ يحاول أن يشغل نفسه عن رعشة قلبه .. فسرح يتذكر أمه .. ترى كيف حالها .. ماذا فعلت بعد أن اكتشفت غيبته .. وشهيرة .. وابتسم ابتسامة خفيفة لشهيرة .. ونبيلة .. وفيفى .. وليلى .. وتقلص وجهه وهو يتذكر ليلى .. ثم أفاق من تأملاته فجأة .. خيل اليه أنه سمع صوتا .. وارتفعت ذراعه بالبندقية .. وركز كل احساسه فى أذنيه .. لا .. انه واهم .. انه لا يسمع شيئا .. وكتل الظلام كأنها تتحرك أمام عينيه .. وتتشكل .. تتخذ أشكالا عجيبة .. كأنها أشكال العفاريت .. ويبحلق بعينيه .. يركز كل احساسه فى عينيه .. لا .. انه ليس عفريتا ، انه مجرد ظل الخيمة القريبة منعكسا على ضوء النجوم . ورفع رأسه يعد النجوم ..

ثم سمع صوتا .. صوت أقدام ..

انه ليس واهما .. انه يسمع فعلا صوت أقدام .. وبسرعة حاول أن يستعيد التدريب الذى تلقاه .. وخيل اليه أنه نسيه .. ونسى أيضا كلمة سر الليل .. ثم رفع سلاحه تلقائيا ، وصرخ :

ــ قف .. من أنت ؟

ورد القادم : أمين ..

وعاد أحمد يقول : سر الليل ..

وقال القادم : نصر ..

وبسرعة قال أحمد : اتناشر ..

ورد القادم : تسعة ..

وبسرعة حسب أحمد مجموعة الأرقام ·· انهـا تكون فعـلا مجموع الرقم ٢١ ··

وهدأ ·· وبرز أمامه الشاويش يعلنه بانتهـاء نوبتشيته ·· وأخلى مكانه للحارس الجديد ·· وعاد يرقد على الأرض ··

وبحث بعينيه فى الظلام عن كمال ·· ورآه نائما ملتصقا باللوح الخشبى ·· وابتسم ·· كأنه اطمأن عليه ··

٢٧

الساعة الخامسة صباحا ·· ومعسكر الفدائيين سـاكت ·· وابتسامة الفجر تقترب من بعيد ، وكل شىء نائم ، سـوى أشباح الحراس تتحرك فى هدوء وتربص ··

وفجأة انطلق البروجى يعـلن « نوبة صحيان » ·· وصـوت النفير يقول فى قوة وتفاؤل ·· يا صباح الخير ·· يا صباح الخير·

وكان الأربعة نائمين فى خيمتهم ·· ناموا بملابس التدريب وقد اتخذ كل منهم من حذائه وسادة له ··

وفتح أحمد عينيه ، ورفع رأسه من فوق حذائه ، ثم حول نظره توا ناحية زميله كمال ، وقال وابتسامة كبيرة بين شفتيه :

ـ صباح الخير ··

وقال كمال وهو يرد ابتسامة أحمد بابتسامة أكبر منها :

ـ صباح الخير يا أحمد ·· ياللا بينا على الشغل ··

وفتح الزميل الثالث خالد عينين مبتسمتين ، كأن فيهما بقيـة حلم سعيد ، وقال وهو يمد ذراعيه فى الهواء ويتمطى :

ـ يا أخى الواحد يدوبك يبتدى يحلم ، يروحوا مصحيينا ·· متهيألى انهم بيعملوها فينا بالعند ··

وقال أحمد : زق عبد الهادى خليه يصحى ··
وقال كمال : شمموه علبة سردين وهو يصحى هوا ··
: [illegible]
ـ اصحى يا أخينا ، الشاويش ادن ··
وهمهم عبد الهادى بكلمات غير مفهومة ، ثم استدار ورقد على جنبه الثانى ، وعاد يستغرق فى النوم ··
وقال كمال وهو يقوم واقفا : مافيش الا المية ··
ثم مد يده الى زمزمية المياه ، واستطرد وهو يصيح كجرسون المقهى البلدى : واحد ميه للأستاذ عبد الهادى يا جدع ··
وقال أحمد : استنى ··
ثم قام ووقف فوق رأس عبد الهادى ، وصاح بأعلى صوته مقلدا نداء الشاويش : اذ ·· تباه ··
وقفز عبد الهادى من فوق فراشه ، ووقف على قدميه منتصبا متخشبا ، وعيناه مغمضتان ·· وعاد أحمد يصرخ بلهجة الشاويش:
ـ افتح عينك ··
وفتح عبد الهادى عينيه ، وتلفت حوله فى ذهول ، ثم صرخ محتجا : جرى ايه يا جماعة ·· ده احنا لسه فى نص الليل ·· !
وتجاوبت الضحكات ··
وبدأ كل منهم يرتدى حذاءه ·· ثم خرجوا يتزاحمون مع بقية المتطوعين حول دورات المياه ·· وكانت لحظة التزاحم حول دورات المياه من أحرج اللحظات التى يمر بها أحمد ·· كان يشعر كأنه يتعرى أمام زملائه ·· كان يشعر بنوع من الحياء المصحوب بالضيق والسخط ، ولكنه تعود ، أصبح يزاحم كما يزاحم الباقون ·
وعادوا الى خيمتهم بعد دقائق ·· ثم علق أحمد مرآة صغيرة فى عامود الخيمة وبدأ يحلق ذقنه ·· ولكنه ترك المرآة لخالد بعد قليل ، وأخذ يحلق دون مرآة ·· ثم بدأ كل منهم يعد فراشه ·· واشتركوا فى تنظيف الخيمة ·· ثم خرجوا ينظفون الأرض التى

تحيط بهم ، ويرفعون من عليها قطع الحجارة المتناثرة ، والأوراق المهملة .. ثم عادوا وأمسك كل منهم ببندقيته ينظفها ، ويلمعها فى حرص ، واهتمام ، كأنها أعز ما يملك ..

ودخل اليهم الأومباشى بعد قليل .. ووقف كل منهم منتصبا فى وقفة عسكرية أمام فراشه .. وقال الأومباشى فى ابتسامة صغيرة :

– صباح الخير ..

وأجال نظره فى الخيمة يفتش نظافتها ، ثم أمسك بندقية كمال ، ونظر فى فوهتها ، وقال : لسه شوية .. نضف كمان ..

ثم خرج .. ونظر كمال خلفه ، وقال كأنه يخرج له لسانه :

– آل لسه شويه آل .. طيب يورينى بندقية أنضف منها فى الجيش كله ..

وصاح عبد الهادى : الفطار يا اخوانا ..

وخرج الأربعة الى المطبخ .. وعادوا أحمد وكمال يحملان قروانة كبيرة مليئة بالعدس .. وعبد الهادى يحمل قروانة صغيرة مليئة بالشاى .. وخالد يحمل أربع قروانات صغيرة ..

ووضعوا قروانة العدس فى وسط الخيمة .. وبدأ أحمد يوزع العدس عليهم فى القروانات الصغيرة .. وشد كل منهم رغيفا من « الجراية » التى صرفت له أمس والتى احتفظ بها بجانب فراشه .. وشد عبد الهادى رغيفا من صدره ، وهو يقول :

– أنا لطشت رغيف صابح ..

وقال كمال : بالعدل .. كل واحد ربع رغيف ..

وقال عبد الهادى : اللى ايده خفيفة يروح يلطشله رغيف .. ده يدوبك يصبرنى ..

قالها وهو يمزق الرغيف الى أربعة أجزاء ، ويعطى كلا من زملائه جزءا ..

وأخرج كل منهم كعب زمزميته ، وملأها بالشاى ، وقال خالد :

ـ تعرفوا ‥ أنا اكتشفت انهم بيحطوا لنــا دوا مهدىء فى الشاى ‥ مش ملاحظين ان طعمه متغير ‥ !

وقال أحمد : ولا تصدق ‥

وقال عبد الهادى : يهدونا ليه ‥ احنا عملنا ايه ‥

وقال كمال : افهم يا أخينا ‥ يهدونا علشان خالد مايكتبش جوابات غرامية كتير ‥ وقال عبد الهادى كأنه فهم ، وهو يزق لقمة كبيرة من الرغيف فى فمه :

ـ آه ‥ بأه كده ‥ واالله فيهم الخير ‥ طيب ايه رأيك نقوم نشترى من الكانتين علبتين سردين ، وبيض ، وعلبة جبنة نسله ‥ و ‥ وقاطعه أحمد :

ـ مافيش وقت ‥ زمان بروجى التمام حايضرب ‥

وأخذ الأربعة يتناولون طعــامهم فى شهية ، وسرعة ، كأنهم سيأكلون الأوعية نفسها ‥ ويضحكون ‥ وأحمد ينظر اليهم فى حب ‥ انه يحس كأنه كان معهم طول عمره ‥ انهم ليسوا مجرد أصدقاء ، ولا زملاء ‥ انهم أكثر من ذلك ‥ كأنهم كانوا يعيشون فى بيته ‥ كلهم فى بيت واحد ‥ يأكلون معا ‥ وينامون معا ‥ انهم عائلته ‥ بينهم خيــوط تربط أحدهم بالآخر ‥ خيوط من الشجاعة والخوف ‥ من الاقبال بجرأة على مصير مجهول ‥

وقال كمال : هم مش حايدربونا على سواقة العربيات ‥ ده أنا اتطوعت علشان نفسى أسوق عربية جيب ‥

ونظر أحمد اليه كأنه ينظر الى أخيه ممدوح ‥ لو كان ممدوح قد تطوع ، لكان أول ما يفكر فيه هو أن يقود سيارة جيب ‥

و ‥ دوى صوت البروجى يدعوهم الى طابور التمــام ‥ صوت سريع صارخ كأنه ينزع كلا منهم من مكانه ‥

وازدرد كل منهم لقمته ‥ وأزاحوا آنية الطعام فى جانب من الخيمة ، ثم حمل كل منهم بندقيتــه ، وخرج يجرى نحو الطابور وعبد الهادى تأخر قليلا ليضع لقمة أخرى فى فمه ، وجرى خلفهم .

ووقفوا فى الطابور ..

واختفت ضحكاتهم وابتساماتهم .. ولمعت عيونهم .. واكتست وجوههم بصور القتال .. وقاماتهم مشدودة كأنها أعمدة الحديد .. وبدأت الحركة تسود المعسكر ..

وارتفعت أصوات النداءات العسكرية ...

وأصوات طلقات الرصـاص تنطلق هنـا وهناك .. أصوات بنادق .. ورشاشات .. وقنابل يدوية .. وتفجير دينـاميت .. وتكتيك عنيف .. تدريبات قاسية عنيفة .. كانوا يزحفون على الأرض .. زحف القردة .. على أيديهم وركبهم .. وزحف التمساح .. على كيعانهم ، وكل منهم محتفظ بسلاحه فى يديه ويجر جسده وراءه .. وكانوا يزحفون فوق ألواح من نبات الصبار .. والشوك يغرز فى صدورهم .. لا تتأوه .. ولا تشك .. انك .. انك فدائى .. ويقتحمون الموانع .. كل الموانع .. لا شيء يقف فى سبيلهم .. كان الواحد منهم يلقى بنفسه فوق الأسلاك الشـائكة .. ويظل فوقها .. وزملاؤه يمرون فوقه .. يتخذون من جسده معبرا .. كوبرى .. ويدوسـون فوقه بأحذيتهم .. والأسلاك المدببة تنغرز فى صدره .. وينبثق الدم .. لا تتأوه .. لا تصرخ .. تحمل الى أن يمر أفراد الكتيبة كلهم .. انك جندى .. انك فدائى .. وكانوا يزحفون أحيانا من تحت الأسلاك .. أسلاك شـائكة نصبت على الأرض فى شكل مربعات ولا يزيد ارتفاعها عن قدمين .. ويزحفون .. والشوك الحديدى يمزق قمصانهم ، ويشق ظهورهم .. وينبثق الدم .. لا تتأوه .. لا تصرخ .. انك جندى .. انك فدائى ..

وأثناء الزحف يطلقون عليهم الرصاص .. رصاص حقيقى .. رصاص يقتل .. يطلقونه فوق رؤوسهم مباشرة .. لو رفع أحد رأسه وهو يزحف .. فسـيقتل .. لا تعترض .. فهـذا هو جو المعركة .. اذا كنت خائفا ، فمن الخير لك أن تقتل خوفك الآن ، قبل أن تواجه به أعداءك .. أعداء وطنك .. ويزحفون .. وأسنان

الحديد تشق ظهورهم والرصاص يطير فوق رؤوسهم ويزحفون ..

وليست هذه هى كل الموانع .. انهم يدفعون لاجتياز النار .. نار حقيقية يشعلونها تحت أقدامهم وفى وجوههم .. اقتحم .. لا تتردد .. انك لو ترددت فستلتهمك النار .. لا تتردد .. انك فدائى .. انك تستهين بكل شيء .. تستهين بالموت .. و ..

وقد تصادفك هاوية ، كيف تجتازها ؟

وعلموهم كيف يتعلقون بالحبال ثم يلقون بأجسادهم فى الهواء .. وكيف ينصبون سلما بين ضفتى الهاوية ويتعلقون الى الضفة الأخرى .. هل رأيت طرزان فى أفلام السينما .. ان طرزان ليس خرافة .. ان ما يفعله تستطيع أن تفعله أنت ، بل يجب أن تفعله .. واعتبر نفسك اذا أردت .. طرزان ..

وأحمد يقبل على هذه التدريبات ، يدفعه احساسه بواجبه وشهوة التظاهر بالبطولة بين زملائه .. ويشده الخوف .. نعم .. انه خائف .. لعله عاش طول عمره خائفا .. ربما كان سر حياته هو الخوف .. لقد كان يخاف دائما .. يخاف أن يقدم على عمل .. يخاف أن يحدد رأيه .. يخاف أن يبرز شخصيته ، فيطويها .. انه مضطر الآن الى أن يقاوم الخوف .. ومقاومة الخوف تكون بتركيز الذهن .. ان الشجاعة ليست تهورا .. وليست انسياقا وراء خيال .. انها تركيز الذهن فيما يفعله ..

وقد عرف هذا .. عرف أنه يجب أن يركز ذهنه فى التدريب الذى يقوم به .. وعرف كيف يتخلص من خياله .. انه لا يتخيل الانجليز عندما يقوم بالتدريب .. ولا يتخيل نفسه طرزانا .. ان كل قواه مركزة فيما يفعله .. مركزة فى انتباهه .. انه يصوب المدفع الرشاش ، وكل ما هو منتبه اليه هو اصابة الهدف .. سواء كان جنديا من جنود العدو ، أو مجرد شاخص من الخشب .. وهو يزحف وهو منتبه الى كل قطعة من جسده .. حتى يصل الى الهدف

·· لقد جرح أكثر من مرة ·· ولكن لا يهم ·· المهم أن يصل الى الهدف ·· وأن يصل حيا ··

ولكنه كان أثناء التدريب ينقاد الى احساس آخر ·· احساسه بزملائه ·· انهم معه ·· انه ليس وحده ·· انه قوة كبيرة ·· انه آلاف الأشخاص ·· كل يحمل نفس سلاحه ، ويحاولون أن يصلوا معه الى الهدف ·· وكان أقرب من يحس بهم من زملائه ، هم زملاء الخيمة ··

وهو يذكر أنه كان فى تدريب الزحف ·· والرصاص ينطلق فوق رؤوسهم ·· وزحف ·· وزحف ·· ثم التفت خلفه فجأة ·· كأنه أحس بشىء ينقصه ·· ورأى خالدا باركا على الأرض فوق كفيه وركبتيه ·· لا يتحرك ·· وقد اصفر وجهه ·· واتسعت عيناه من الخوف ·· ويرتعش ·· كله يرتعش ·· ولا يريد أن يزحف ·

وهمس أحمد : خالد ·· ازحف ·· ازحف يا خالد ··

وخالد يزداد ارتعاشا ·· ثم بدأت أسنانه تصطك ·· ثم صرخ ·· صراخا حادا ·· وقام واقفا ·· وصرخ أحمد صرخة حادة :

ـ ارقد ·· الرصاص حاييجى فيك ·· ارقد ··

ثم زحف بسرعة ·· بسرعة كبيرة ·· كأنه تمساح ضخم ·· وشد خالد من قدمه وأوقعه على الأرض ··

وتوقف اطلاق الرصاص ··

وجاء الشاويش ، وصرخ فى وجه أحمد :

ـ يا حضرة خد بالك من التمرين مالكش دعوة بغيرك ··

ودهش أحمد ·· هل كان الشاويش يريده أن يترك زميله يقتل ·· والتفت الشاويش الى خالد ، وعاد يصرخ :

ـ جزى ايه يا أستاذ يا خرع ·· ماتجمد قلبك أمال ·· تعرف لو قصيت شعرك المسبسب ده قلبك يبقى حديد ، يبقى قلب راجل ·

ورفع الشاويش ذراعه ، اشارة بدء التمرين من جديد ··

وعاد اطلاق الرصاص ··

وابتلع خالد ريقه ·· وبدأ يزحف من جديد ··

وزحف ·· ووصل ··

وزحف أحمد بجانبه ، وهو ينظر اليه بين حين وآخر ·· ودوى صوت الشاويش : بص قدامك يا حضرة ··

وفى مرة ، تشاجر كمال مع الأومباشى أثناء التدريب ·· ولم يكن أحمد يدرى بالضبط سبب المشاجرة ·· ولكنه سمع كمال يصيح : انتم بتعلمونا والا بتذلونا ·· !

والأومباشى يصرخ : وطى صوتك بلاش ميـاعة ·· دول ايه العيال اللى جايبينهم لنا دول ··

وازدرد وجه كمال ·· وتصاعدت الدماء الى وجهه حتى كادت تصبغ شعره ، ورفع بندقيته ، كأنه يهم أن يضرب الأومباشى بكعبها ·· فهجم عليه أحمد ، وخطف البندقية من يده ، ودفعه بيده دفعة قوية أوقعته على الأرض ··

ونظر كمال الى أحمد فى غضب وهو واقع على الأرض ·· واعتقد أحمد أنه سيقوم ويهجم عليه ·· لينتقم لنفسه ·· ولكن كمال أطفأ غضبه بسرعة ثم قام وجذب بندقيته من يد أحمد دون أن ينظر فى وجهه ، وحملها ، وابتعد ··

والتفت أحمد الى الأومباشى قائلا وهو يتابع كمال بعينيه فى نظرة مختلسة : معلهش يا أومباشى ·· حقك على ··

وقال الأومباشى : ولا يهمك يا سى أحمد ·· احنا متعودين على الحاجات دى ·· بكره ياخد على العسكرية ··

وظل أحمد يتبع كمال بعينيه ·· وملأت خياله صورة أخيه ممدوح ، عندما تشاجر مع أمه يوما وهو صغير ، فصفعه ·· لقد أحس أحمد يوم صفع أخاه ، ولم يرد أخوه صفعته ·· انه أصبح رب العائلة ·· وهو الآن يحس بنفس الاحساس ·· انه أصبح رب العائلة الصغيرة التى تعيش فى الخيمة ·· أصبح مسئولا عنها ··

وسار فى خطى بطيئة نحو الخيمة ، ودخلهـا وكمال جالس على فرشته يعبث ببندقيته ، وقال فى صوت خفيض :

ـ أنا آسف ·· أصلك كنت متنرفز قوى ، وخفت انك تضرب الأومباشى بصحيح ··

ورفع اليه كمال وجها مبتسما ، وقال :

ـ بينى وبينك ، كنت حاضربه بصحيح ·· على كل حال بعد الهوجة دى ماتخلص ، نبقى نضربه احنا الاتنين ··

★ ★ ★

وأنباء تطورات الأزمة السياسية تصل الى داخل المعسكر عن طريق الراديو والصحف ·· وأحمد يتتبعها وهو ساكن النفس ·· هادىء التفكير ·· انه لم يعد يناقش هذه التطورات من ناحيتهـا السياسية والاقتصادية ·· فات وقت المنـاقشة وهو يعـرف الآن الطريق ·· يعرف أن الحل الوحيد هو أن تدافع اذا وقع اعتداء ·· يعرف أن الأفضل له فى هـذه الظـروف أن يركز تفكيره فى سلاحه ·· فى بندقيته ·· انه بهذه البندقية يستطيع أن يحل الأزمة ·· يستطيع أن يجتاز الفترة الحرجة ·· وبعدها ·· بعد أن يطمئن الشعب الى مصيره ، والى حريته ، والى حقه ·· يعـود ليناقش مشاكله الاقتصادية والاجتماعية ··

وانقضت خمسة عشر يوما منذ التحق أحمد بكتائب الفدائيين ·· وأتم تدريبه ·· أصبح فدائيا ··

وفى ظهره جرح عميق أصيب به وهو يزحف تحت الأسـلاك الشائكة ·· وفوق ذراعه شريط ، يعلن عن رتبتـه العسكرية ·· وكيل أومباشى ·· وفى أعلى كتفه شارة حمراء كأنها بقعة الدم ، مرسوم عليها جمجمة وعظمتان متقاطعتان ·· شارة الفدائيين ·· شارة الموت ·· الموت للأعداء ·· و ·· ووقع الاعتداء ··

وزأرت القاهرة ·· وتجاوب زئيرها فى أنحاء القطر كله ·· وتعداه الى كل البلاد العربية ·· وخرج الناس الى الشوارع ··

عيونهم لامعة ·· ووجوههم تنبض بحمـــاس يبدو كأنه فرحة ·· وحناجرهم تضج بالهتـاف ·· سـنحارب ·· سننتصر ·· نحن وراءك يا جمال ·· ويسقط الاستعمار ··

وهم لا يدرون لماذا خرجوا الى الشارع ·· كل ما يدرونه أنهم لا يستطيعون أن يبقوا فى بيوتهم ·· وأن عليهم دورا كبيرا يؤدونه ·· وكل منهم يبحث عن دوره ·· وقد لا يعلمون بالضبط ما هو هذا الدور ·· ولكنهم يعـلمون أن المعـركة قد بدأت ·· وأنهـا معركتهم ·· ليست معركة جمال وحده ·· وليست معركة الحكومة وحدها ·· وليست معركة الجيش وحده ·· وليست معركة المتطوعين وحدهم ·· انها معركة الشعب ·· كل النـاس ·· وكل النـاس ستحارب ·· ستحارب فى كل شـارع ·· ووراء كل بيت ·· لن يعود الانجليز ·· ولن يدخل الفرنسيون ·· ولن تنتصر اسرائيل ··

والأطفال يمرحون فى الشوارع وسط الزحام ، وينظرون الى السـماء باحثين عن طائرات الأعـداء ، وهم يلوحون بقبضـاتهم الصغيرة ··

والشبان قمصانهم مفتوحة ، وأكمامهم مشـمورة ، ونظراتهم جادة ·· والذين فاتهم الالتحاق بفرق الحرس الوطنى ، وكتائب الفـدائيين ، يتسـاءلون عن اجراءات التطوع ·· ويهرعون الى مراكز التدريب ·· وتوضع فى يد كل منهم بندقية ·· لا وقت الآن للتدريب ·· صوب هذه البندقية الى صدر عدوك ، وحاول أن تقتله قبل أن يقتلك ·· قبل أن يدخل بيتك ·· والبنات والنساء خرجن الى الشارع ·· وفى عيونهن نظرات حائرة ·· يبحثن بهـا عن مصير البيت ، ومصير الزوج ، ومصير الابن والأب ·· ثم تعلو شفاههن ابتسامة تندفع من أعماقهن ·· ابتسامة ايمان ·· ابتسامة ثقة ·· لن يحدث شىء ·· ويتخذ الجمال صورة جديدة ·· صورة القوة ·· والايمان ·· والاستهانة بالخطر ··

والعجائز فى عيونهم جزع ·· ينظـرون الى الشـباب كأنهم

يتوسلون اليهم ، وفى توسلهم اشفاق عليهم .. ثم يهزون رؤوسهم كأنهم يذكرون أيامهم .. أيام أن كان العدو يستعمرهم وكانوا هم أيضا يجاهدون ، ويندفعون ، ويحملون العبء .. ان المعركة الجديدة ، معركة أخرى من سلسلة المعارك التى بدأوها .. معارك يجب أن تستمر .. ويرفعون الرؤوس ، وتعلو شفاههم ابتسامات .. كأنهم استردوا شبابهم .. ويميل الواحد منهم على الآخر قائلا : « أنا فى سنة تسعتاشر ، خرجت فى مظاهرة ، وقابلونا الانجليز عند باب الحديد ، و .. » وتضيع قصته وسط ضجيج الزحام .. !

والحياة تسير .. لا شىء يتوقف .. عربات الترام تسير فوق القضبان ، والسائق يصرخ فى بائع فجل يجر عربته .. والاتوبيس يجرى ويكاد يدهم الناس .. ودور السينما مزدحمة .. وآلات الراديو مفتوحة على آخرها تذيع الأغانى الوطنية ومؤذن الجامع اعتلى المئذنة يدعو الناس للصلاة .. وأجراس الكنائس تدق .. ورجل ذهب الى وزارة الأوقاف يستعجل اجراءات تصفية الوقف المستحق فيه .. ومحل الساندويتش لا يهدأ .. وبائع الملوخية يصيح : خضرا يا ملوخية ! ..

ثم .. الليل .. والليل ظلام .. وشبان الحرس الوطنى يطوفون فى الشوارع .. ويصرخون .. أطفىء النور .. والناس قد أطفأوا الأنوار فعلا .. ولكنهم واقفون فى الشرفات والنوافذ .. يتطلعون الى السماء ، باحثين عن طائرات الأعداء .. وفجأة تهتز السماء والأرض بأصوات المدافع المضادة للطائرات .. ويسكت الناس كأنهم فوجئوا .. ثم يصرخون وهم يشيرون بأيديهم الى الطائرات المغيرة .. أهه هناك أهه .. ويصوبون اليها عيونهم .. كأن عيونهم مدافع أخرى .. ولا ينزلون الى المخابىء .. لا .. ان العدو أضعف من أن يصيبهم .. ويصيح بائع الملوخية بأعلى صوته : خضرا يا ملوخية ..

وأحس أحمد وزملاؤه فى المعسكر أنهم أصبحوا وسط المعركة ٠

منذ اليوم لن يصوبوا بنادقهم الى شاخص من خشب ، سيصوبونها الى صدور أعدائهم ٠٠

ومنذ اليوم لن يكون الرصاص الذى يطلق عليهم ، رصاصا يطلق من يد مدربيهم ، بل سيطلقه عليهم الأعداء ٠٠

واشتدت قبضاتهم فوق أسلحتهم ٠٠ وضجت صدورهم بانفعالات مختلفة ٠٠ الحماس ، والتحدى ، والعناد ، والنداء ٠٠ والخوف ٠٠ والجزع على الأهل ٠٠ وقل الحديث بينهم ٠٠ انهم ينظرون بعضهم الى بعض ، ويسكتون ٠٠ ثم يقاومون الصمت ويتحدثون ٠٠ حديثا مفتعلا ٠٠ ويلقى أحدهم بنكتة يعقبها بضحكة هستيرية ٠٠ ثم يعودون الى الصمت ٠٠ وتزداد قبضاتهم التصاقا بأسلحتهم ٠٠

وصدرت اليهم الأوامر بأن يستعدوا للقيام باستعراض عسكرى فى شوارع القاهرة ٠٠

انهم يعلمون ٠٠ بعد هذا الاستعراض سيذهبون الى القنال ٠

وسار أحمد فى مقدمة فصيلته ، سلاحه فوق كتفه ٠٠ والشريط يحلى ذراعه ٠٠ وبقعة الدم الحمراء فوق كتفه ، مرسوم عليها جمجمة وعظمتان متقاطعتان ٠٠ الموت للأعداء ٠٠ هناك عند ضفة القنال ٠٠ والعرق يتفصد من جبينه ٠٠ ودقات الطبول تملأ أذنيه ٠٠ دقات قوية ٠٠ طبول الحرب ٠٠ وهتافات الناس على الجانبين ٠٠ وزغاريد ٠٠ وورود تلقى عليهم من النوافذ ٠٠ وبجانبه صبى صغير يسير مقلدا الخطوة العسكرية ٠٠ والناس على الجانبين لا يكتفون بالوقوف ٠٠ انهم يزحفون مع الموكب ٠٠ كأنهم يذهبون الى حيث يذهب الفدائيون ٠٠ حتى عجائز جروبى خرجوا يلوحون للموكب ٠٠ وقد نفضوا اليأس ، وتعلقوا بالأمل ٠٠ أمل كبير ٠٠ لن يعود الانجليز ٠٠

وأحمد لا يهتز ٠٠ ولا يشعر بالارتباك وهو يواجه كل هؤلاء

الناس ·· ان الذى قرر أن يواجه أعداءه ، لا يرتبك وهو يواجه أصدقاءه ·· انه لا يتردد ، ولا يرتبك ·· لقد عرف الآن نفسه ·· وجدها فى أعماقه بعد أن غسل عنها الأتربة التى رسبت فوقها أتربة الماضى ، أتربة البيئة التى نشأ فيها ، أتربة العقد التى مزقت شخصيته ·· وجدها قوية ، مستقرة ·· تعرف ما تريد ··

وبين الجموع الصاخبة التى تقف على الجانبين ·· كان يقف انسان ذاهل ·· عيناه غائرتان وقد اشتد فيهما بريق القلق ·· ووجهه ممصوص أصفر · ·وشفتاه جافتان مرتعشتان ·· مات جلدهما فوقهما ·· وشعره مهوش فوق مؤخرة رأسه ·· وثيابه رثة مكرمشة ، وقد رفع ياقة سترته فوق قفاه ، ودس يديه فى جيوبه ·· ودقات أقدام الجنود تملأ أذنيه الحساستين ·· وأصوات الطبول ·· وهتاف الجماهير ·· و ·· وأسنة السونكى تلمع فى عينيه ·· والوجوه القوية الصارمة تمر أمامه ·· والزغاريد ·· والابتسامات ·· و ·· ويحس بالدماء تجرى فى عروقه أسرع مما تعود ·· ويتحول انفعاله الى لحن ·· لحن قوى يملأ صدره ، ويتصاعد الى رأسه ، ويضج فى أذنيه ·· لا ·· انه لا يريد أن ينقاد الى اللحن ·· لقد وعد نفسه أن يهجر فنه ·· أن يهرب من الألحان ·· ولكن هذا اللحن يلح عليه ·· انه يتزاحم فى صدره كأنه أبخرة تريد أن تنطلق ·· ويحس أنه يريد أن ينحدف نحو طابور الاستعراض ليختبىء بين الجنود هاربا من اللحن ·· ولكن الأبخرة تزداد تكاثفا ·· وشىء يدغدغ أعصابه ·· انه يرتعش ·· يرتعش بحماسه ·· وبدأ حماسه يطغى على احساسه بنفسه ·· على احساسه بمشكلته ·· ذابت مشاكله ·· ليس فى حياته زوجة هجرته ·· وليس فى حياته ليلى يتعذب بها ·· فى حياته احساس واحد ·· احساس بوطنه ·· وبالخطر ·· وبالمعركة ·· والوطن نغم ·· والخطر نغم ·· والمعركة نغم ·· وتتجمع هذه الانغام فى صدر الفنان وتكون لحنا صاخبا ينتفض فوق أعصابه ··

وأخرج يديه من جيوبه ·· وأخذ يزاحم بهما الناس الواقفين ·· وينتقل بينهم فى سرعة ·· ويقف قليلا وهو مبهور الأنفاس ·· ويبلل شفتيه بريقه كأنه يسقيهما بالحياة ·· ثم يعود يندفع ويزاحم الناس ·· واللحن يصخب فى صدره ويملأ أذنيه ·· انه يريد أن يصل الى حيث يستطيع أن يفجر هذا اللحن ·· يريد أن يصل الى سلاحه ·· الى البيانو ··

وخرج فتحى من الزحام ·· وقفز فى سيارة أجرة . وصرخ فى السائق : شارع الاخشيد يا أسطى ·· قوام ·· قوام من فضلك ·

ووصل الى شارع الاخشيد ·· ولم يرفع عينيه الى بيت ليلى كما تعود ·· ثم وقفت السيارة أمام بيته ·· ونقد السائق أجره · وصعد السلم وثبا ·· وفتح الباب بمفتاحه الخاص ·· ولم يتوقف داخل البيت ·· كأنه لم يغب عنه أكثر من شهر ·· ولم ينتبه الى السكون المخيم ·· ولم يفاجأ بالضوء الخافت ·· ولم يشم رائحة الأتربة المتراكمة فوق قطع الأثاث ·· ولم يتذكر زوجته عواطف ·· ولم ينتبه الى أنها ليست فى البيت كما تعود أن يجدها دائما ·· واندفع نحو البيانو ·· وجلس أمامه ·· وفتح غطاءه بيد ترتعش بانفعاله ·· ثم مد أصابعه فوق مفاتيح الأنغام ·· وتوقف برهة كأنه يستجمع خيوط اللحن ·· ثم بدأت أصابعه تتحرك ·· عصافير سمراء تقفز فوق أغصان النغم ··

وبدأ اللحن هادئا ·· هدوء السلام ·· هدوء الفلاح فى حقله ·· وهدوء الجاموسة وهى تقتلع أعواد البرسيم ، ثم ترفع رأسها الكبير وتتلفت حولها كأنها تبتسم للدنيا ·· وهدوء آلاف الموظفين فى مكاتبهم ·· والعمال فى مصانعهم ·· والطلبة فى المدارس يمرحون ويلعبون البلى ·· وهمسات الحب على طريق الكورنيش ودفوف العوالم تزف الناس الذين يتزوجون ، وصرخة طفل مولود·

وبدأ اللحن يصخب ·· صخب ساسة أوروبا وهم يصرخون

فى وجهنا ·· وصخب صفافير البواخر وهى تمر فى القنال ·· وصخب العناد والتصميم على بناء السد العالى ··

ويزداد الصخب ·· ويضج اللحن ·· ويتفجر ·· كالقنابل ·· كأزيز الطائرات ·· كوقع أقدام الجنود ·· كبريق أسنة السونكى ·· كالحرب ·· وطفل يصرخ فى فزع ·· وصوت جرح يتفجر بالدم ·· وصوت ضحكات ساخرة ·· تسخر من الحرب ، ومن الاستعمار ، ومن الموت ·· وتنطلق الضحكات فى وجه العدو ·· وتتقدم وتكتسح ·· وتقتل ··

ويعلو اللحن مرة واحدة ·· كأنه يهتف ·· انتصرنا انتصرنا ·· وأقدام الجنود المنتصرين العائدين ·· والبنات ترقص ·· وتغنى ·· يا سالمة يا سلامة رحنا وجينا بالسلامة ·· والزغاريد ·· ووجوه الأطفال تضحك ·· والسلام ·· الجاموسة تقتلع أعواد البرسيم ، ثم ترفع رأسها الكبير وتتلفت حولها كأنها تبتسم للدنيا·

وسجل فتحى لحنه على ظهر علبة سجائره فى حروف موسيقية قليلة ·· وقام مندفعا ·· وحماسه يملأ صدره ·· وخرج من البيت · انه يريد أن يذهب الى معهد الموسيقى ·· ليضع لحنه فى صيغته النهائية ، ويوزعه على الآلات الموسيقية ·· ويسجله ·· ويذيعه ·· ويجب أن يتم كل ذلك اليوم ·· حالا ·· ان الحرب لا تحتمل التلكؤ ··

وسار فى الشارع يدق الأرض بقدميه كأنه ذاهب الى المعركة ·

وانتهى الاستعراض العسكرى ·· ومنح أفراد كتائب الفدائيين اذنا بالتغيب لمدة ساعتين ، يعودون بعدها الى التجمع ··

ساعتان فقط ··

وأحمد يحس أنه بعد ساعتين سيذهب الى القنال ··

أين يقضى الساعتين ؟ ··

ان المفروض أن يذهب لوداع أهله ، ولكنه لا يريد أن يذهب ·· انه يستطيع احتمال مواجهة عدوه ، ولا يستطيع مواجهة أهله فى

لحظة وداع ·· لماذا سمحت لهم القيادة بهاتين الساعتين ·· لماذا لا يرسلونهم توا الى ميدان القتال ·· وما جدوى وداع الأهل ، سوى أن يجبروهم على لحظة ألم ودموع ·· !

وقرر ألا يذهب لوداع أحد ، سيقضى هذه الفترة مع بعض زملائه الذين ليس لهم أهل فى القاهرة ·· ولكنه بعد لحظات وجد نفسه يتجه الى أهله ، كأنهم يشدونه اليهم رغم ارادته ··

هل يذهب الى والدته وأخواته أولا ·· أم يذهب الى شهيرة ؟

وخيل اليه أنه سيحتار ·· ولكن حيرته لم تدم طويلا ·· وجد نفسه يتجه الى أمه ·

وذهب الى بيته وهو فى زيه العسكرى ، وسلاحه فى يده وفوجىء بنبيلة تستقبله فى البهو الخارجى ، وهى ترتدى زى متطوعات الحرس الوطنى ·· وصرخ فى فرح :

ـ بلبل ·· ايه اللى عاملاه فى نفسك ده ·· !

وصرخت نبيلة : آبيه ··

ثم اندفعت نحوه ، وألقت نفسها فوق صدره وتعلقت برقبته ·· وضمها اليه فى حنان ، وهو يشعر بنفسه كبيرا ·· أكبر مما تعود أن يشعر بنفسه ·· ويشعر بأخته كأنها ابنته ·· ثم ابعدها عن صدره ، ونظر اليها فى حب واعجاب ، وقال : وريني كده ··

ودارت نبيلة أمامه تعرض عليه زيها العسكرى ، وقالت وهى تبتسم فى فرح : دلوقت بقيت زيك تمام ··

وقال أحمد ضاحكا :

ـ مش ممكن ·· أولا ، بصفتى راجل فأنا أساوى اتنين زيك ·· ربنا بيقول كده ·· وبصفتى فدائى فأنا أساوى عشرة من الحرس الوطنى ·· القيادة بتقول كده ··

وشد قامته ووقف وقفة عسكرية ، وصاح فى أخته : انتباه ··

وشدت نبيلة عودها فى وقفة عسكرية وهى تضم شفتيها على ابتسامتها ·· وعاد أحمد يصيح : صفا ··

وأطاعت نبيلة الأمر العسكرى .. وصاح أحمد :

- انتباه .. يمين در .. الى أودة ماما معتادا مارش ..

وسارت نبيلة أمامه فى خطوات عسكرية ، وهى تضحك ، وألقى أحمد بندقيته فوق الأريكة ، وسار خلفها فى خطوات عسكرية أيضا ، وهو يقول فى لهجة الشاويش :

- بلاش ضحك يا آنسة .. مافيش ضحك فى العسكرية .. اللى عايزه تضحك تروح تضحك فى بيتها ..

وفيفى فى حجرة الطعام ، واقفة فوق المقعد ، تلصق الورق الأزرق فوق زجاج النافذة ، كتعليمات الوقاية من الغارات الجوية ، وبجانبها محمد السفرجى يساعدها .. وسمعت صوت أخيها .. فألقت الورق من يديها .. ونزلت من فوق المقعد .. وجرت نحو أخيها ، وهى تصيح : آبيه .. آبيه أحمد ..

واستدار لها أحمد ، وتلقاها بين ذراعيه ، وانهال عليها تقبيلا .. انه لم يقبلها أبدا من قبل كل هذه القبلات ، وبهذه الجرأة ..

وسمعت الأم صوت ابنها ، وهمت أن تخرج من غرفتها ، عندما وصل اليها .. وضمها اليه .. وضمته اليها .. وابتسامة تخفق بين شفتيها .. وفرحتها تكاد تشد الدموع من عينيها .. وهمست :

- يا حبيبى .. وحشتنى يا أحمد ..

ثم ابتعدت عنه وأخذت تنظر اليه وهو فى زيه العسكرى .. فى اعجاب وزهو . .كأنها تنظر الى شىء جميل صنعته بيديها .. ثم ارتفعت فى عينيها نظرات جزعة ، كأنها تخاف على هذا الشىء .. تخاف عليه أن يتحطم .. والتفت أحمد الى ليلى .. كانت واقفة بجانب أمها تنظر اليه فى تردد .. كأنها تسأله : هل من حقها أن تقبله هى الأخرى .. ووجهها لا يزال باهتا مجهدا .. والهزال لا يزال يسيطر عليها ..

وظل أحمد ينظر اليها برهة .. انه لا يحول عينيه عنها كما تعود أن يفعل فى الأيام الأخيرة .. ثم اتسعت ابتسامته .. وفتح

لها ذراعيه ·· وقال فى حنان : ليلى ·· وألقت ليلى نفسها بين ذراعيه ·· وانهمرت دموعها ·· بكت ·· ثم رفعت رأسها وأخذت تقبله فى كل مكان من وجهه ·· وهو يتلقى قبلاتها ، ويربت على ظهرها ، وقال وهو يبتلع ريقه كأن حنانه فاض به : لزوم العياط ايه دلوقت ؟ ··

وأشرقت ابتسامة ليلى من بين دموعها ، وقالت ونشيجها يقطع كلماتها : أصلك كنت واحشنى قوى يا آبيه ·· متهيألى انك بقالك سنة غايب عنى ··

وقال أحمد وهو لا يزال ممسكا بها : وأنا متهيألى انى كنت غايب عنك طول عمرى ··

ثم استطرد وهو لا يزال مركزا عينيه فى وجهها ، كأنه يحاول ان يقنعها بأنه يهتم بها أكثر من أخواته ·· يحاول أن يقنعها أنه صفح عنها : وازى صحتك دلوقت ، عاملة ايه ؟ وردت نبيلة ضاحكة : راحت اتطوعت ممرضة ، وشافت واحد ايده مقطوعة اغمى عليها ، ورجعوها شايلنها ··

وردت ليلى كأنها ثائرة على ضعفها : فيها ايه مش كل واحدة تقدر تستحمل منظر الدم ·· على كل حال أنا اتفقت معاهم انى أشتغل فى لف أربطة الشاش ··

وقال أحمد مبتسما : ده عمل ضخم ما هو لولا الشاش ، ما يعرفش الدكتور يشتغل ·· ولا المرضات ·· ولا كان حد رضى يحارب ، ولا يتجرح ··

وقالت فيفى : احنا المعمل بتاعنا فى الكلية بقى معمل حربى ·· وعندنا أستاذ اخترع نوع جديد من زجاجات مولوتوف يفجر أى دبابة ··

وجلس أحمد بجانب أمه ، وأخواته حوله ·· يتحدثون ·· وأحيانا يتحدثون جميعا فى نفس واحد ·· والفرحة تسودهم ·· كأنهم فرحون بالحرب ··

وقالت الأم : قوم يا أحمد ، اقلع هدومك واستريح لك شوية ٠

وقال أحمد : ما اقدرش يا ماما ٠٠ أنا ماعنديش أجازة الا ساعتين ٠٠ واشتد الجزع في عيني الأم ، وقالت في صوت مبهور:

ــ ساعتين ٠٠ وبعد كده حايودوك فين ؟ ٠٠

قال : والله ما أنا عارف ٠٠

قالت : اوعوا يكونوا حايودوك القنال ٠٠ اسمع يا أحمد ٠٠ أنا ماليش غيرك ٠٠ وماحدش يرضى انك تسيبنى وتروح القنال ٠

وقال أحمد وهو يقبلها قبلة سريعة : ولا قنال ولا حاجة ٠٠ غايته حايخدونا نحرس الكبارى ٠٠

ثم قام واقفا ، واستطرد قائلا ، كأنه يفر من جزع أمه واضطراره الى الكذب عليها : أنا نفسى فى حاجة واحدة ٠٠ نفسى آخد دش ٠٠ دش بصحيح ٠٠ مش دش المعسكر ، اللى عامل زى عربية الرش ٠٠ وقام ودخل غرفته ٠٠ وأجال فيها بصره ، كأنه يقبل بعينيه كل قطعة فيها ٠٠ كأنه يستعرض ذكرياته ٠٠ ذكريات العمر كله ٠٠ ذكريات تردده وحيرته وضياعه ٠٠ ثم انتبه الى نفسه ٠٠ وخلع ثيابه بسرعة ٠٠ ودخل الحمام ٠٠ وتنهد والماء ينزلق فوق جسده ٠٠ كأنه يطفىء به نارا تتأجج فى أعصابه ٠٠ وخرج من الحمام وهو يشعر برغبة فى النوم ٠٠ نوم مريح ٠٠ على سرير مريح ٠٠ وخيل اليه أنه لم ينم أبدا طول الليالى التى قضاها فى المعسكر ٠٠ لقد كان يرقد ٠٠ وكان يغمض عينيه ٠٠ وكان يفقد وعيه ٠٠ ولكنه لم يكن ينام ٠٠ وقاوم رغبته فى النوم ٠٠ وعاد يرتدى ثيابه العسكرية ٠٠ ثم اتجه الى أمه وهو يتعمد أن يودعها وداعا سريعا ٠٠ وقالت الأم ، وهى تتشبث به : ده لسه الساعتين مافاتوش ٠٠

وقال أحمد متعجلا : معلهش يا ماما ٠٠ أصلى لسه حاشترى شوية حاجات ٠٠

وقالت الأم : وحاترجع امتى ؟ ..
وقال وهو يقبلها : يمكن بكره والا بعده ..
وقالت الأم وهى تنظر اليه بعيبين مبتهلتين :
- صحيح والا بتضحك على زى النوبة اللى فاتت ..

وقال أحمد وهو يستدير لها : صحيح يا ماما .. الدور اللى فات كان لازم أقعد فى المعسكر ، علشان أتدرب .. انما دلوقت التدريب خلص .. وظلت الأم تنظر اليه كأنها لا تصدقه .. انها فعلا لا تصدقه .. قلبها يكذبه ..

وانحنى أحمد يقبل ليلى ، قائلا : خدى بالك من نفسك واوعى تعملى حاجة تزعلنى ..

وقبل فيفى .. ونبيلة .. قبلات سريعة .. انه يحاول أن يسبق احساسه ، حتى لا يخضع له .. ويتألم .. وقد يبكى .

وخرج الى البهو . وأمه وأخواته معه .. وعند الباب التقى بخاله .. ونظر اليه خاله نظرة مبهورة وهو يراه فى زيه العسكرى، وبندقيته فى يده ..

وقال الخال : رايح فين يا أحمد .. ما تستنى نقعد مع بعض شوية .. !

وقال أحمد وهو ينظر الى خاله فى ثبات : ما اقدرش يا خالى .. لازم أقدم نفسى دلوقت .

وقال الخال وهو يشد على يديه فى حرارة : شد حيلك يا أحمد .. اوعى تخللى الانجليز يدخلوا .. ونظر أحمد الى خاله فى تعجب .. وشده خاله اليه وقبله فوق جبينه ، وقال فى صوت هامس محشرج بانفعاله كأنه يكاد يبكى : شد حيلك .. أنا عمرى ما اتمنيت انى أرجع شاب ، زى اليومين دول ..

ونظر اليه أحمد فى تعجب .. ثم استدار كأنه نسى شيئا .. وانحنى يقبل يد أمه .. وهمس : ادعى لى يا ماما .. وهمست

الأم : ربنا معاك يا بنى ‥ ونزل السلم ‥ والجميع يتبعونه بعيونهم ، ويكتمون الدموع ‥ ثم انفجرت الدموع ‥

وخرج أحمد الى الشارع ، وسار فى خطى سريعة الى أن وصل الى موقف سيارات الأجرة ، ووضع نفسه فى احداها ‥

وصاح فى السائق : الزمالك يا أسطى ‥ ووصل الى بيت شهيرة ‥ واستقبلته وحدها ‥ وهى ترتدى زى الممرضات ‥ ووقفا قبالة بعضهما صامتين ‥ ويداها بين يديه ‥ وعيناها تقبلان عينيه ‥

وقال كأنه يجب أن يقول شيئا : انتى اتطوعت ‥ ؟

قالت : وخدت شهادة في التمريض ‥ بس اوعى تفكر تجرح نفسك علشان أمرضك ‥ لو اتجرحت حازعل منك ، ومش حاقرب لك ‥ ثم انكمشت ابتسامتها ، وقالت فى صوت خافت :

ـ انت حاتروح القنال ‥ ؟

وقال وهو يحاول أن يبتسم : ما اعرفش ‥ كل تحركاتنا سر ، ما حدش منا يعرفه ‥ كل اللى أعرفه انى لازم أكون دلوقت حالا فى مركز التجمع فى النادى الأهلى ‥

قالت : وأنا لازم أكون فى المستشفى ‥

وسكت كلاهما مرة واحدة ‥ وكل منهما يفكر فى أن يرتمى فى أحضان الآخر ‥ فى أن يلتقيا فى قبلة ‥ ولكنهما مترددان ‥ كأنهما يخافان قبلتهما ‥ يخافان أن تلامست شفاههما أن ينفجر حبهما ‥ وأن يحسا أكثر بعذاب الفراق ‥

وقال وهو يخفى عنها عينيه : توصلينى فى سكتك ‥

قالت ووجهها محتقن فى خفر : حاضر ‥

وخرجا دون أن يمكث فى البيت سوى دقائق ‥ وركب بجانبها فى سيارتها التى تقودها بنفسها ‥ وتبادلا أثناء الطريق حديثا حاولا ان يكون حديثا عاديا ‥ كأن لا شىء جديد يحدث لهما ‥

كان الخطر لا يحيط بهما ·· حدثته عن أخيها ·· وعن أمها وأبيها ، وعن عملها فى المستشفى ·· وحدثها عن الجانب المرح من حياة الفدائيين فى معسكر التدريب ··

ووصلا الى النادى الأهلى ·· وتعلقت عيناه بعينيها ·· فى لحظة صمت ·· وفتح الباب ·· وهم أن ينزل ·· وقالت تستمهله :

ـ أحمد ·· ونظر اليها ·· وخلعت مصحفا فى علبة ذهبية معلقة فى رقبتها ·· وناولته له ·· قائلة له : خللى ده معاك ·· وخذ بالك منه ·· ولازم ترجعلى بيه سليم ·· ده المصحف بتاعى من يوم ماتولدت ··

وأطبق أحمد أصابعه على المصحف ·· صامتا ·· وعادت تهمس : مع السلامة ·· ربنا معاك ·· ومد يده وضغط على يدها ، وقال : استنينى ··

ثم استطرد ضاحكا : كلها يومين ·· أروح أطرد الانجليز والفرنسويين ، وارجع لك تانى ··

ونزل من السيارة ، ودخل النادى الأهلى دون أن يلتفت خلفه ·

★ ★ ★

وأركبوهم فى سيارات كبيرة ·· واعتقد كل الفدائيين أنهم ذاهبون بهم الى القنال ·· ونظر أحمد خلفه ·· كأنه يتطلع الى معالم الطريق ·· فالتقت عيناه بعينى شاب فدائى واقف فى السيارة الثانية من قافلة السيارات ·· انه يعرف هذا الشاب ··

لقد سبق أن رآه ·· لكنه لا يذكر اسمه ، ولا يذكر المناسبة التى رآه فيها ·· ونظر أحمد أمامه ، وهو لا يزال يحاول أن يتذكر ، من يكون هذا الشاب ! ··

٢٨

وسـارت قافلة السيارات فى شوارع القاهرة ، والنـاس فى الشارع تصفق ·· وتهتف ·· وعجوز يلوح بيـديه فى الهواء ، ويصرخ فى صوت مرتعش : شد حيلكم يا شباب ·· وامرأة ملتفة بملاءة لف ، تنظر الى الأجساد المنتصبة فوق السـيارات بعينين مبهورتين ، ثم تضع طرف ملاءتها أمام شفتيها ، وتطلق زغرودة ·· والتفت أحمـد مرة ثانية الى السـيارة التى تتبع سـيارته ، واختلس نظرة أخرى الى هذا الشاب ·· وعاد يحاول أن يتذكره ·· انه متأكد أنه يعرفه ·· ان صورته تملأ مخيلته ، واسمه على طرف لسـانه ·· ورغم ذلك فهو لا يستطيع أن يتذكر ·· وقرر أن يكف عن محاولة التذكر ·· وعاد يتصور المعركة التى يتأهب لها ·· واحساسه كله مركز فى ثوبه العسكرى وفى سلاحه الذى يقبض عليه ·· وهتافات الناس فى الشارع تملأ أذنيه ، ولكنه لا يلتفت اليها ·· كأن ليس عنده فائض من وقته للاستماع الى الهتاف ·· ووجهه متجهم ·· وعيناه صـارمتان ·· ثم ، بعد قليـل ، بدأت تتسلل اليه ذكريات عائلته ·· بدأ يتصور أمه ·· وأخواته البنات ·· ثم مد يده فى جيبه وقبض على المصحف الذى أهدته له شهيرة ، وخاف أن يضيع منه هذا المصحف أثناء المعركة ، فقرر أن يعلقه فى رقبته ، ويتركه يتدلى فوق قلبه ، وهم فعلا بأن يخرجه من جيبـه ليعلقه فى رقبته ، ولكنه عاد وعدل ·· خجل من زملائه ·· والتفت الى كمال يحادثه ·· أى كلام ، يشغل به نفسه ·· وقال كمال :

ــ تفتكر حايودونا على بورسعيد على طول ؟ ··

وقال أحمد وهو يبتسم ، دون أن يدرى لماذا يبتسم :

ـ ياريت ‥ ووقفت قافلة السيارات فى أحد شوارع حدائق القبة ، ريثما يتم تجمعها ‥ والناس تطل من الشرفات والنوافذ ‥ بنات وسيدات ورجال ‥ كلهم يبتسمون ، وكلهم مستبشرون ‥ ورفع بعض الفدائيين أيديهم الى شرفة مزدحمة بالبنات ، وقالوا :

ـ ابعتوا لنا كوباية ميه من فضلكم ‥

ولم يكن أحـــد منهم فى حاجة الى ماء ‥ ولكنهم كانوا فى حاجة الى مزيد من ابتسامات البنات ‥

وصاحت أم البنات كأنها تزغرد : من عنيه ‥

ثم أشارت الى بناتها ‥ واختفت البنــات من الشرفة ، وقال أحد الفدائيين لزميله الذى طلب الماء

ـ عاجبك كده أدى انت طفشتهم ‥

وبعد قليل نزل خادم الى الشارع يحمل صينية كبيرة محملة بأكواب الشربات وزجاجات الكوكاكولا ‥ ورفعها الى الفدائيين الواقفين فى سياراتهم ‥ وتخاطفوها ، وعادت البنات الى الشرفة.

ورأى الجيران ما فعله البيت الأول فتباروا فى تقديم الهدايا الى الفدائيين ‥ برتقال ‥ وموز ‥ وحلوى ‥ ووجم الشبان أمام هذا الشــعور الذى يفيض عليهم ‥ وأرخوا عيــونهم عن النوافذ والشرفات ‥ واتخذت وجوههم سمات جادة ‥ وترددت بين شفاههم كلمات ‥ متشكرين ‥ ده كتير قوى ‥ متشكرين ‥ ثم كأنهم ضاقوا بهذا الاحساس ‥ احساسهم بمسئوليتهم أمام مواطنيهم ‥ فبــدأوا يتخاطفون الهدايا بعضـــهم من بعض ‥ ويضحكون ‥ ويصخبون ‥

وعادت السيارات تتحرك ‥ وخرجت الى طريق الحقول ‥ والشمس بدأت تغيب ‥ والفلاحون عائدون من حقــولهم يجرون وراءهم بهائمهم ‥ ويقفون ، ويلتفتون ، ثم يستمرون فى طريقهم وبين شفاههم ابتســامات كبيرة ‥ والفدائيون يزداد احساسهم باقترابهم من المعــركة ‥ ويتسلل الى قلوبهم نوع من الخوف ‥

خوف لا يشـــدهم الى الوراء ، ولكن يدفعــهم الى الأمام ، انهم يريدون أن يصلوا ، وأن يقاتلوا ·· وينتهوا ·· ثم يحاولون أن يتحرروا من هذا الخوف ·· فيضحكون ·· ضحكات عصبية حادة ·· ويتبادلون نكات جافة ثقيـــلة ·· وخـــالد جالس علي حافــة السيارة يتابع الحقول بعينيه ، وهو صامت ، كأنه شاعر يبحث عن الوحي ·· وعبد الهادى يأكل برتقالة ، وهو لا يحس بجوع ، ولا يريد أن يأكل ، ولكنه لا يجد شيئا آخر يفعــله ·· وكمال يتحدث كثيرا ، وأحمد يتظاهر بالاستماع اليه ، ولكنه سارح ·· سارح فى لا شيء ·· ثم انطلق فريق من الفدائيين يغنى فى صوت بدأ خفيضا مهزوزا :

حانحارب ، حانحارب ·· كل الناس حاتحارب ··
مش خايفين ·· م الجايين ·· بالملايين حانحارب ··
حانحارب حتى النصر ·· تحيا مصر ، تحيا مصر ··

ويعلو الصوت ، وتتجاوب الكلمات فى الصدور ، وتنفعل بها الأعصاب ·· وينضم كل الفدائيين فى الغناء ·· ويصبح الغناء زئيرا ·· والأيدى تلوح ·· والبنادق تهتز فى الهواء ··

ويحس الجميع أن اشتراكهم معا فى الغناء هو أعظم اكتشاف للتحرر من الخوف ··

ويتردد النشيد مرة ، واثنين ، وثلاثا ·· عشرات المرات ·· والوجوه من فرط حماسها كأنها تضحك ·· والشفاه من فرط قوتها كأنها تقهقه ·· وترتفع الحناجر بنشيد آخر ، كأنهم قرروا أن ينتقلوا الى معركة أخرى :

الله أكبر ·· الله أكبر ·· إن الله أكبر فوق كيــد المعتدى ·
والله للمظلوم خير مؤيد ·· أنا باليقين وبالسلاح سأفتدى ··
بلدى ونور الحق يسطع فى يدى ·· قولوا معى ·· قولوا معى
الله أكبر ·· الله أكبر ··

والليل يزحف ·· والقمر يرتفع كأنه يطمئنهم الى أنه معهم ··

والسيارات تسير ببطء ، وقد أطفأت أنوارها الكاشفة ، ولم يبق منها الا الضوء الخافت ·· والفدائيون يشعرون بحاجتهم الى الغناء أكثر ·· فيرفعون أصواتهم ·· يرفعونها أكثر ، كأنهم يبددون الليل من حولهم بحناجرهم ·· وفجأة توقفت السيارات على جانب الطريق وتلفت كل منهم الى الآخر فى صمت ·· وأزيز صاخب يشق السماء من بعيد ، كأنه طنين الزنابير ·· ونزل قائد السرية من السيارة الأولى التى كان يركب فيها ، وجرى بين السيارات وهو يصيح :

ـ انزل انت وهوه ·· اتفرقوا فى الغيط ·· انبطحوا على الأرض ·· وقفز الفتية من فوق السيارات ·· وسلاح كل منهم فى يده ·· وجروا الى الحقول ، وانبطحوا بين المزروعات ·· وقد كتموا أنفاسهم ·· انهم يعرفون ماذا يصنعون ··

ورفع أحمد رأسه ، وهمس : كمال ·· وهمس كمال من مسافة قريبة : أنا هنا ··

وخفض أحمد رأسه كأنه اطمأن على أخيه ··

ثم بدأ صوت طائرات الأعداء يقترب ·· ثم ·· ان الأزيز يملأ السماء ·· وشدد أحمد قبضته على سلاحه ·· ودفن عبد الهادى رأسه بين أعواد البرسيم الخضراء ·· ورفع خالد رأسه الى السماء فى سخط ··

وابتعد أزيز الطائرات ·· ثم ارتفع من بعيد صوت طلقات المدافع المضادة ·· وارتفع صوت القائد يأمرهم بالعودة الى السيارات ·· وعادوا يعتلون السيارات ·· وهم صامتون :· لا يتكلم أحدهم مع زميله ·· وعيونهم تبرق فى ضوء القمر ··

وعادت السيارات تتحرك ·· ثم خرجت من الطريق العمومى ، ودخلت فى طريق جانبى ·· وسارت ·· سارت طويلا ·· ثم توقفت ·· وأطفأت كل أنوارها ·· ونزل الفدائيون يتلفتون حولهم ·· انهم ليسوا فى بور سعيد ·· وليسوا على ضفة القنال ··

وقريبا منهم خيال بلدة صغيرة ، تبدو فى ضوء القمر كمجموعة من الأشباح العمالقة جالسين القرفصاء ..

واجتمع بهم قادتهم فى حلقات ، يبلغونهم التعليمات ..

انهم فى مكان يسمى « الخصوص » .. والخصوص هى هذه البلدة الراقدة هناك .. وسينشئون هنا موقعا لمقاومة جنود البراشوت .. وبدأ العمل فورا ..

بدأوا يحفرون الخنادق .. كل خندق على شكل الرقم « ٧ » .. وكانوا يحفرون وسط حقول البرسيم .. وأحس أحمد وهو يهوى بفأسه كأنه يشفق على أعواد البرسيم .. ويشفق على الفلاح صاحب البرسيم ولكن .. انها الحرب .. ورفع فأسه وهوى بها على الأرض .. على البرسيم .. ثم أدار رأسه .. كأنه لا يريد أن يتأذى بمنظر الأعواد التى تنكسر تحت فأسه .. والتقت عيناه بوجه الشاب الذى لا يستطيع أن يتذكره .. وتوقف برهة ، برهة عابرة ، ثم رفع فأسه وعاد يهوى بها على الأرض كأنه يحفر بها فى ذاكرته ليكشف أين رأى هذا الشاب من قبل ..

وسمع صوت عبد الهادى يقول للشاب وهو بجانبه من الناحية الأخرى : شد حيلك يا محمود .. يمكن بعد ما ترجع تشتغل فاعل .. ورن اسم محمود فى أذن أحمد .. رن رنينا صاخبا كأنه جرس يدق على باب ذاكرته .. انه محمود ..

لقد تذكره الآن .. انه محمود الذى تحبه أخته نبيلة ، وتحدثه عنه ، والذى سبق أن رآه معها على شاطىء النيل ويده فى يدها .. والتفت أحمد الى محمود لفتة سريعة ، وعيناه تخرقان الظلام الى وجهه ، كأنه يريد أن يتفرج عليه يريد أن يكتشف ماذا تحب أخته فيه .. واحتار برهة فى أحاسيسه .. ثم عاد يرفع فأسه ويهوى بها على الأرض .. على أعواد البرسيم .. وانتهى حفر الخنادق .. ورتبت نبوتشيات الحرس .. ، اختيرت داورية تخرج للاستكشاف ..

ونام الفدائيون داخل الخنادق التى حفروها ·· وكل منهم معه بطانيتان ·· يفرشهما ويتغطى بهما ·· والبرد شديد ·· برد حاد يخترق البطاطين ، ويخترق اللحم ، ويصل الى العظام ليفريها ·· واضطروا أن يلتصقوا بعضهم ببعض ·· ليستمدوا الدفء بعضهم من بعض ·· ورقد أحمد وبجانبه كمال ·· وعندما استدار على جانبه الآخر ، وجد أمامه وجه محمود يكاد يلتصق بوجهه ·· والتقت عينا كل منهما بعينى الآخر ·· فى نظرة طويلة صامتة ·· ثم ·· ابتسم أحمد ، وهمس : ازيك يا محمود ·· أنا اسمى أحمد ·· أحمد زهدى ! ··

وهمس محمود : فرصة سعيدة يا أستاذ أحمد ·· وضحك أحمد ضحكة خافتة : فعلا مافيش أسعد من كده ·· نايمين فى خندق ·· وميتين من البرد ·· حايبقى أسعد من كده ايه ··

وقال عبد الهادى وهو راقد بجانب محمود فى الناحية الأخرى

ـ ماكانش عاجبكم النوم فى معسكر الهرم ·· اشربوا بأه ··

ولم ينم واحد منهم ·· والصمت يخيم عليهم ·· ولا يكاد التعب يرخى جفونهم حتى يفتحها البرد والحذر ، الحذر من العدو·

وتنهد الفجر ·· وبدأ فريق من جنود الموقع ييأسون من النوم ، فقاموا وخرجوا من خنادقهم وجلسوا على الأرض ملتفين ببطاطينهم ، يتحادثون ·· وفجأة انطلق فى السماء صوت هدير ··

انها طائرات تقترب ·· طائرات العدو ·· وهى تطير منخفضة ·· منخفضة جدا ·· تكاد تلامس الأرض ، حتى تتجنب بانخفاضها طلقات المدافع المضادة ··

وقفز الفدائيون من خنادقهم ·· وانبطح الجميع على وجوههم فوق الأرض ·· وأخذوا يزحفون بسرعة ، كالتماسيح ، وسلاح كل منهم فى يده ·· وتفرقوا فى الحقل القريب ، وكل منهم يحرص على أن يخفى جسده بين أعواد البرسيم ·· والطائرات قريبة جدا من

رؤوسهم ·· انهم يستطيعون أن يروا وجه الطيار ·· وجه أحمر كريه ··

وصرخ كمال ما يسيبونا عليهم ، ولاد الكلب دول ·· رصاصة واحدة فى خزان البنزين توقع الطيارة ·· والا رصاصة فى نافوخ الطيار تجيبه الأرض ··

وصاح أحمد كأنه ينهره : اعقل يا كمال ·· وطى راسك ··

ثم أخذ يدير رأسه ، ووجهه يتمرغ فى الطين ، ليطمئن على باقى زملائه ·· ويطمئن على تنفيذ الأوامر ·· والأوامر تقضى بالاختباء من طيارات العدو ، وعدم اطلاق النار عليها ·· حتى لا يكتشف موقعهم ·· والطائرات لا تزال تروح وتجيء فوق الموقع منخفضة جدا ·· وكل من الفدائيين راقد فى الحقل ·· ووجهه مدفون بين أعواد البرسيم ·· وشعور جارف من النقمة والخوف يهدر فى صدره ·· وقد تقلصت عضلات ظهر كل منهم ، كأنه يتأهب لتلقى قنبلة تسقط عليه من السماء ·· لو سقط حجر صغير فوق ظهره ، فى هذه اللحظة ·· لاعتقد أنه قنبلة ·· والنقمة والخوف يتفاعلان فى أعصاب كل منهم ، فيثور ·· يثور على العدو ، ويثور على الأوامر التى تحرمه من القتال ·· ويشدد قبضته على سلاحه ·· وكل لحظة تمر به يكاد ينقاد فيها الى ثورته ، ويرفع رأسه ، ويقف على قدميه ، ويصوب مدفعه الى الطائرات المغيرة ·· وكل لحظة تمر به يقاوم فيها هذه الثورة حتى لا ينقاد لها ·· فقد علموه كيف يحترم الأوامر ··

وكفت الطائرات عن التحليق فوق الموقع ·· وانتصب الفدائيون واقفين بين أعواد البرسيم ، وقد تلوثت ثيابهم ووجوههم بالطين ·· وزادت عيونهم احتدادا ، ووجوههم تجهما ·· وخالد ·· وخالد قد اصفر وجهه النحيل ·· وشفتاه ترتعشان ·· وعيناه تومضان ببريق ثورة مكبوتة ·· واقترب منه أحمد ، وقال مبتسما كأنه يرفه عنه : ياللا بينا ندور على حاجة ناكلها ··

وقال خالد فى صوت مرتعش وهو لا ينظر اليــه : مش عايز اكل ·· مش جعان ·· وقال أحمد : كله الا كده ·· أنا مستعد أموت بقنبلة ، انما مش مستعد أموت من الجوع ··

والتفت خالد اليه فى حدة ، وصرخ فى وجهه : يا أخى ابعد عنى ·· انت عامل نفسك كبير علينا ·· مالكش دعوة بيه ·· انت مالك ومالى ··.وبهت أحمد ·· وقال وهو ينظر الى خالد كأنه يرثى له : احنا اخوات يا خالد ··

وصرخ خالد وبندقيته تهتز فى يده كأنها تعانى معــه حالته العصبية : ما احناش اخوات ·· ومن هنا ورايح مالكش دعوة بى ·· وأحنى أحمد رأسه صامتا ، وابتعــد ·· وهمس كمال فى اذنه : ما تزعلش منه ·· انت عارف انه عصبى ! ··

وابتسم أحمد قائلا : أنا مازعلتش منه مش ممكن أزعل منه ··

وبدأ الفدائيون يعملون فى تنظيف الموقع ، ويرتبون حاجياتهم، ويعيدون تنظيم الخنادق التى حفروها بالليل ··

ومع طلوع الشمس ، جاءت اليهم وفود الفلاحين والفلاحات ·· وأهالى قرية الخصوص ·· يحملون سلال البيض ، والخبز والفطير المشلتت ·· وكان المفروض أن يشترى منهم الفــدائيون ما يحتاجون اليه من الطعام ·· ولكن الفلاحين رفضوا أن يأخذوا منهم الثمن وقال عمدة البلد : الغدا عندنا النهاردة يا جماعة ·

وقال الشاويش : يا ريت والله يا عمــدة ما نقــدرش نسيب الموقع ··· !

وقال العمدة : خلاص الغدا يجيلكم لغاية عندكم ·· ده كل أهل البلد مشتركين مع بعض ·· كل بيت حايطلع مقدوره ·· ده احنا فى حماكم يا رجالة ··

واصر العمدة على أن تستضيف بلدته سرية الفدائيين كلها ·· والفلاحة التى كانت تبيع البيضة بقرش أصرت على أن تبيع الثلاث بيضات بقرش ·· والرغيف مجانا ··

وألقى الشاويش الأوامر العسكرية على عمدة البلدة ·· لا تطلقوا الرصاص على طائرات الأعداء حتى لا يكتشفوا موقعنا ·· اننا هنا لنقاوم جنود الباراشوت ·· راقبوا المنطقة جيدا ·· اذا رأى أحدكم جنديا من جنود العدو ، فليقبض عليه ·· أو يقتله ·· ويبلغ الموقع فورا ·· والتجول ممنوع بعد الغروب سيكون المتجول معرضا للخطر ·· ساعدونا ·· اننا نعتبركم محاربين مثلنا ·· وطالت قامة العمدة ، وقال فى صوت قوى : اطمن يا حضرة الباشاويش ·· كل كلامك ماشى ··

وقال أحمد وهو يشترى فرخة من احدى الفلاحات ، وزوجها بجانبها : احنا آسفين ·· خسرنا لكم الزرع ··

وقال الرجل : وهو الزرع يساوى ايه فى الأيام اللى زى دى ·· بأه انتم تضحوا بأرواحكم ، ومستكتر علينا نضحى بالزرع ··

ولم ينتقل الفلاحون من جانب الموقع ·· باعوا ما يحملونه للفدائيين ، أو أهدوه لهم ثم تجمعوا جالسين على حدود الموقع ··

وبدأ الفدائيون يوقدون نيرانا خافتة يطهون عليها طعامهم ·· وجلس أحمد مع كمال وعبد الهادى يتناولون افطارهم ·· وخالد جالس على بعد ، سارح ، ووجهه مقطب ·· ثم قام مرة واحدة وانضم الى زملائه الثلاثة ، ونظر الى أحمد بعينين صامتتين كأنه يعتذر له ·· ثم بدأ يأكل ··

ومحمود جالس مع اثنين من زملائه ، فى مكان قريب ·· ويلتفت بين الحين والحين الى حيث يجلس أحمد ·· والتقت عيناه بأحمد ·· واحس كل منهما بالحرج ·· ثم صاح أحمد كأنه يبدد حرجه : ماتيجوا تقعدوا معانا ··

واستطرد وهو يشير الى عبد الهادى : احنا معانا طباخ ··

وانتقل محمود وزميلاه ، وانضموا الى شلة أحمد ·· وتناولوا افطارهم ، وهم يضحكون ·· ضحكات عصبية ، كأنهم يخلعونها خلعا من صدورهم ··

وصاح كمال : ايه رأيكم ، بدل ما ننام فى الخنادق ونموت من البرد ، نعمل أخصاص من البوص ننام فيها •• والطيارات مش ممكن حاتكشفها •• حاتفتكرها أخصاص بتاعة فلاحين ••

ونظر أحمد اليه فى اعجاب •• انه يتكلم كممدوح ••

وقال أحمد : فكرة •• أما أقوم أقولها للشاويش ••

وقام أحمد ، وهو يختلس نظرة لمحمود •• وبدأت الساعات تمـر •• والفدائيون يجمعون أعواد البوص ويبنـون لأنفسـهم الأخصـاص التى ابتكرها كمال •• وبعضـهم يقف فى مواقع الحراسة •• والبعض يخرج فى دوريات استكشاف حول الموقع ثم يعودون وتخرج داورية أخرى •• وعبد الهادى جالس ينتف ريش الفرخة التى اشتراها أحمد ، ويعدها للطهو •• وأحمد يتبادل مع محمود نظرات مختلسة •• ويراقبه من بعيد كأنه يريد أن يكون رأيا فيه من خلال تصرفاته •• وتلتقى عيونهما ، فيعودان ويحسان بالحرج •• كل منهما يحس أنه مشدود الى الآخر •• وكل منهما لا يستطيع أن يواجه الآخر ••

وجاء الفلاحون مرة ثانية يحملون أوانى الطعام الذى دعوا اليه الفدائيين •• جاءوا كأنهم فى طريقهم الى المولد •• الفلاحات فى ثيابهن الزاهية الملونة •• والفلاحون فى ثياب العيد •• والأولاد والبنات يجرون من حولهم •• والابتسامات تملأ الوجوه ••

ووضع الطعام فى وسط الموقع •• وتخاطفته الأيدى فى مرح •• وتعالت الضحكات •• وعبد الهادى يصيح من بعيد : استنوا يا جماعة •• الفرخة ابتدت تستوى ••

ثم ترك الفرخة على النار ، وهجم ، وأزاح زملاءه بعضلاته ، وحمل فطيرة كاملة وضعها تحت ابطه ، وملأ كفيه من لحم الخروف، ثم عاد وجلس بجوار الفرخة ••

واسترخى الجميع بعد الغداء •• وساد الموقع صمت ووجوم ،

يشوبه الملل ·· ودوريات الحرس تتبدل ·· ودوريات الاستكشاف تخرج وتعود ··

وخالد جالس يكتب خطابا ، والتفت اليه عبد الهادى قائلا فى تكاسل : ما تسمعنا شوية من اللى بتكتبه ده ··

والتفت اليه خالد فى حدة كأنه أهـين ، وقال فى حدة : من فضلك لم لسانك ·· وقال عبد الهادى فى فتور : لميته ··

وكمال جالس بجانب أحمد ، وقال كأنه يحلم : تعرف أنا كنت باكسب كام فى اليوم ·· كنت باشتغل فى ورشة تصليح عربيات فى العباسية ، وكنت باخد خمسين قرش فى اليوم ·· أدفع منهم نص ريال فى الأسبوع لفراش الكلية علشـان يمضى لى فى دفتر الحضور ، والباقى أحوشه ·· وساعات كنت باخد عربيات أصلحها لحسابى ، وكنت باكسب جنيـه ، وسـاعات اتنين جنيه ، فى كل عربية ·· انما لو فضلت أحوش طول عمرى مش حا أقدر أفتح ورشة من اللى نفسى فيها ·· ورشة بالكهربا ··

وقال أحمد كأنه يحلم معه : اطمن ·· حاتفتح ورشة ··

وقال كمال فى دهشة : ازاى باه ·· وقال أحمد فى هـدوء :

ـ شركة معايا ·· أصلى أنا كمان ناوى أفتح ورشة ·· ولى واحد صاحبى اسمه أسطى عفيفى ، حادخله شريك معانا ··

وقال كمال فى فرحة : صحيح ·· انما ده انت محامى ··

وقال أحمد : وماله ·· ما انت كمان حاتبقى محامى ··

وقال كمال بسرعة : أنا مش حاكمل فى الجامعة ، انما ··

وقاطعه أحمد فى لهجة الأخ الكبير : التفاصيل بعد ما ننتهى من الحرب ·· دلوقت ماحدش فينا عارف مصيره ايه ··

ورقد كمال على ظهره وأطلق عينيـه فى السـماء يبحث عن مصيره ·

وجاء الليل ·· ووقف أحمد فى موقع الحراسـة على حدود الموقع ·· وزملاؤه راقدون بعضـهم فى الخنـدق ، وبعضهم فى

الاخصاص التى بنوها ·· والصمت يحيط بهم ·· صمت له ضجيج ·· والظلام له ضجيج ·· وأعواد البرسيم تهتز مع الهواء ، فيصدر لها ضجيج ، كأنه ضجيج عشرات الأعداء يزحفون نحوه ·· وهو لم يعد يخاف ·· ولكنه لا يستطيع أن يتخلص من هذا الضجيج الذى يملأ رأسه ·· ولا من هذه الأوهام التى تتحرك أمام عينيه كأنها قطع من الظلام تهجم عليه ·· وهو يركز كل انتباهه فى أذنيه ، وفى عينيه ، حتى يفرق بين أوهامه وبين ما يدور حوله·

وسمع صوت أقدام تتقدم نحوه ·· ورأى أشباحا تتحرك من بعيد ·· انه ليس واهما ·· انه فعلا يسمع صوت أقدام ، ويرى أشباحا ·· لعلها داورية الاستكشاف عائدة الى الموقع ·· وصرخ ، وهو يرفع بندقيته ويركزها فى كتفيه : قف ·· من إنت ؟ ·· وسمع صوت عبد الهادى يرد : أنا يا أحمد ·· وصرخ أحمد كأنه لم يسمعه : سر الليل ·· ورد عبد الهادى من بعيد : يا أخويا ماتحبكهاش قوى ·· يعنى مش عارفنى ·· ؟

ومرت برهة قصيرة تردد فيها أحمد ·· انه فعلا يعرف عبد الهادى ·· من صوته ·· ولكن الأوامر تحتم عليه أن يطلق النار على كل قادم لا يحمل كلمة سر الليل · ·

وصرخ أحمد : اركع ·· صفق بايديك ··

وقال عبد الهادى وهو يضحك : يا واد يا جامد ··

وفى لحظة أطلق أحمد بندقيته ·· أطلقها على زميله عبد الهادى ·· تعمد أن يطلقها تحت قدميه حتى لا تصيبه ·· وظل رافعا بندقيته متخذا موقف الهجوم ·· وأصبعه على الزناد ··

وصرخ عبد الهادى بكلمة سر الليل : فراخ ··

وقال أحمد بسرعة : اتناشر ·· ورد عبد الهادى : تمانية ··

وجمع أحمد الرقمين فى ذهنه ، انهما يكونان الرقم « ٢٠ » المتفق عليه ، وأنزل بندقيته الى جانبه ، وصاح : تقدم ··

وتقدم عبد الهادى ومعه زميل له ، وصرخ فى وجه أحمد :

– يا أخى انت ماتعرفش الهزار .. عايز تموتنى .. تقتلنى ..
وقال أحمد فى هدوء : أنا آسف .. دى أوامر .. تانى مرة ماتستهونش بالأوامر .. وقال عبد الهادى : يا سلام علىك يا أخى .. العسكرية واخده حدها معاك قوى ..

وقال زميله : ده الأستاذ أحمد باين عليه جد خالص ..

وقال أحمد : أنا ضربت تحت رجليكم .. لو كان واحد غيرى يمكن كان ضرب فى المليــان .. وقال عبد الهادى : لو كان واحد غيرك ، ماكنتش هزرت معاه .. أنا الحق على ..

ورفع الفدائيون رؤوسهم من داخل الخنـدق عنـدما سمعوا صوت الرصاصة ، وأطل الباقون من داخل الأخصاص .. وضحكوا عندما سمعوا الحكاية .. ضحكات عصبية .. وكل منهم ينظر الى أحمد ويحسده .. يحســده لأنه أطلق رصــاصة .. ان كلا منهم يتمنى أن يطلق رصاصة ، ولو فى الهواء ..

وجاء الصباح التالى .. ومرت الساعات بطيئة .. وبدأ الملل يتسرب الى قلوب الفدائيين ، ويكسو وجوههم ، ويسود حركاتهم . لقـد تطوعوا ليقاتلوا .. وتحملوا التدريب العنيف ، ليواجهـوا الأعداء .. وجاءوا وقلوبهم مليئة بصور القتال .. صور البطولة .. صور المغامرة .. وقبضاتهم تنطبق على سلاحهم ، فى انتظار اللحظة التى يطلقونه فيهـا .. ولكنهم وجدوا أنفسهم هنـا .. بعيدا عن خطوط القتال .. ليحرسوا السماء والأرض من جنود البراشوت .. وجنود البراشوت لا يظهرون .. والطائرات التى ظهرت فى سمائهم لم تظهر مرة أخرى .. انهم ليسوا جنود حراسة .. انهم جنود مقاتلون .. ولو كانت القيادة فى حاجة الى حراس، فلماذا تسميهم فدائيين ..

واستبد بهم الملل والســأم .. وبدأت مظاهر الحيـاة المدنية تعاودهم .. ذهب بعضهم الى القرية واقترضوا راديو ببطارية من العمدة ، وعادوا به ووضعوه وسط الموقع ، وفتحوه على آخره ..

والبعض الآخر صنع قطع الشطرنج من لباب الخبز ، وجلسوا على الارض يلعبون ·· والبعض جلس يلعب السيجا بقطع الحجارة ·· وواحد احتد على زميله ، وتشاجرا ، الى أن تدخل الشاويش وفرق بينهما ·· وعبد الهادى بدأ يفكر فى أن يطهو لنفسه ولزملائه اصنافا دسمة من الطعام ·· برام رز بالحمام ·· وصينية بطاطس·

وانتفض خالد من جلسته وتقدم من زملائه ، وبندقيته ترتعش فى يده ، وقال كأنه يصرخ : هى فين الحرب اللى بيقولوا عليها ·· هم فاكرينا اتطوعنا علشان نقعد فى الشمس ·· مايودوناش ليه على بور سعيد ، ما هو يا يسيبونا نحارب ، يا كل واحد يرجع بيته·

ورفع أحمد رأسه عن الخطاب الذى يكتبه ، وقال لخالد وهو يبتسم له كأنه يرطب ثورته بابتسامته : طول بالك يا خالد ·· لو كان الموقع ده مش مهم ما كانوش جابوا فيه الفدائيين ·· مين عارف ، يمكن تلتفت وراك دلوقت تلاقى بتوع البراشوت نازلين عليك من السماء ··

والتفت خالد خلفه فعلا ، بحركة تلقائية ، ولم ير جنود البراشوت هابطين من السماء ·· فاشتدت ثورته ، وألقى بندقيته على الأرض ، وصرخ : أنا ما افهمش الكلام ده ·· الحرب فى بور سعيد ، يبقى لازم يودونا بور سعيد ·· و ··

وسكت خالد مرة أخرى وهو ينظر الى بندقيته الملقاة على الارض نظرات طويلة كأنه يعتذر لها ·· ثم انحنى والتقطها وابتعد·

وتبعه أحمد بعينين جزعتين ·· انه يعرف أن انتظار القتال أشق من القتال نفسه ·· ويعرف أن حمل السلاح أشق من اطلاقه ·· ان ضبط الأعصاب أشق من اطلاقها ·· انه هو نفسه يعانى ما يعانيه خالد ·· ولكنه يصبر ··

وعاد أحمد يكمل الخطاب الذى كتبه ·· ومحمود جالس على مسافة قريبة منه ·· وقال كأنه يتودد الى أحمد :

ـ ده خالد باين عليه عصبى جدا ··

وابتسم أحمد وقال : كلنا عصبيين فى اليومين دول ..
ثم ظل ناظرا الى محمود كأنه يبحث عن كلام يقوله ، فلم يجد كلاما .. ولا محمود وجد كلاما .. سكتا ..

وعاد أحمد ينحنى فوق الخطاب الذى يكتبه .. ولكنه لايستطيع أن يكتب شيئا .. انه يفكر فى محمود .. وهو يحس بأنه يسعى اليه بقلبه ويحس أن محمود أيضا يحاول أن يسعى اليه .. يحس أنهمـا يجب أن يقتربا من بعض أكثر .. أن يكونا أصـدقاء .. ولكن بينهما حاجزا من الجليد ، يتردد كل منهما فى اجتيازه .. وقرر أحمد فى لحظة أن يجتاز حاجز الجليد .. أن يحطمـه .. ورفع رأسه فجأة ، وقال لمحمود كأنه يباغته :

ـ أنا باكتب جواب لنبيلة .. مش عايز تقول لها حاجة ..

وبوغت محمود ، وتعقد حاجباه المقرونان الكثيفان ، ثم قال وهو يحنى رأسه كأنه خجل من أحمد : سلم لى عليها ..

وقال أحمد وهو يطمئنه بابتسامة كبيرة : أقولك .. بعد ما اكتب الجواب ، ابقى اكتب لها كلمتين معايا .. دى حاتفرح قوى لما تعرف اننا اتقابلنا وبقينا أصحاب ..

وقال محمود : والله أنا كان نفسى أعرفك من زمان يا أستاذ أحمد .. وقال أحمد : أنا اسمى أحمد بس .. واذا حبيت تجاملنى قول لى يا أومباشى أحمد ..

وابتسم محمود ، واسـتراح حاجباه فوق عينيه ، واسـترد وجهه لونه ، ورفع رأسه قائلا : أنا كنت باغلط وأنا باكلم نبيلة ، وأسميك ، أبيه أحمد .. وقال أحمد ضاحكا : لا .. بلاش آبيه دى .. مش لايقـة على .. تصـور لو كل اللى فى المعسكر سمونى الأومباشى آبيه أحمد .. تبقى حالتى ايه ..

ثم سكت قليلا ، واستطرد قائلا كأنه يحاول أن يقنع محمود بأنه يعرف كل شىء : وعملت ايه فى حكاية الاذاعة ؟ ..

وقال محمود : أجلتهـا لغـاية ما تخلص الحرب ·· واقترب أحدهما من الآخر ·· وفى عينى كل منهما ابتسامة ··

وأحس قائد الموقع باسـترخاء الجنـود ·· وبمظاهر الحياة المدنيـة التى تدب بينهم ·· فأصـدر أمرا بالتجمع فى طابور ·· ووقفـوا ·· بعضهم استعاد وقفتـه العسكرية ، وبعضهم لا يزال مسترخيا ، وابتسم واحد منهم وهو واقف فى الطابور ·· فصرخ فيه الشاويش : اطلع بره الطابور يا طالب يا خرع ·· انت فاكر نفسك جاى تدلع هنا ·· اطلع بره ··

وسـحب الطالب ابتسـامته ، وخطا خطـوة عسكرية خارج الطابور ، وعاد الشاويش يصرخ فى وجهـه : لف الموقف عشرين مرة ، اللى زيك مايستهلوش البدل اللى لابسينها ، سريعا مارش ·

وأحنى الفدائى رأسه ثم بدأ يجرى فى خطوات سريعة ويطوف حول الموقع عشرين مرة ··

ودبت الحياة العسكرية فى الطابور ·· وتوالت الأوامر عليهم ·· أوامر التدريب ·· تدريب عنيف ·· أقسى ما تعرضـوا له من تدريب ·· واستردت عيونهم لمعانها ·· واسـتقامت قاماتهم ·· واشتدت قبضاتهم فوق أسلحتهم ·· والفلاحون والفلاحات أحاطوا بالموقع ، يشاهدون التدريب ، وأفواههم فاغرة ، وعيونهم مبهورة ·· وانتهى التدريب ساعة الغروب ··

وسمح الشاويش بفتـح الراديو من جديد ·· وأعلن المذيع اذاعة لحن جديد ·· لحن « النصر » الذى وضعه فتحى ··

والتف الفـدائيون حول الراديو يسـتمعون الى اللحن ·· والأنغام تتسلل الى أعصـابهم ·· وتثير حماسـهم ·· وانطلقت الشفاه تصـفر اللحن مع الراديو ·· وانتهى اللحن ·· ولا يزال على شفاه الفدائيين يصفرون نغمـاته ·· كأنهم يسـتمدون منه حماسـهم ·· كأنهم يستمدون منه الصبر ·· كأنهم يتأهبـون به للمعركة الكبرى ··

وأحمد يلوى شفتيه ·· انه لا يريد أن يسمع اللحن ··

انه يكره فتحى ·· ويكره ألحانه ·· يكرهه كما يكره الانجليز، والفرنسيين ، واليهود ·· وهو لن يضع على شفتيه لحنا من وضع قوم يكرههم ، حتى ولو كانوا فنانين ··

ولكن الزملاء كلهم يترنمون باللحن ·· هل يصرخ فى وجوههم أن يسكتوا ·· هل يقول لهم ان صاحب هذا اللحن ، قد جنى على أخته ليلى ، ودفعها الى الانتحار ·· لا ·· انه لا يستطيع الا أن يزم شفتيه حتى لا ينطلق من بينهما اللحن رغما عنه ··

وزحف الليل ·· ووقف أحمد فى موقع الحراسة ·· وعيناه تشقان الظلام ، وأذناه تخترقان حفيف أعواد البرسيم ·· واستراحت شفتاه المزمومتان ·· ونسى كراهيته لفتحى ·· ثم ·· رغما عنه ·· انطلق يدندن باللحن فى صوت خافت ، كأنه يستعين به على وحدته ، وعلى الظلام ، وعلى حذره ·· ثم انتبه فجأة الى نفسه ·· وسكت عن دندنة هذا اللحن ·· واختار لحنا آخر يدندنه ·· وعاد الصباح ، واكتشف جنود الموقع غياب واحد منهم ·· انه خالد ·· لعله ذهب الى القرية ·· ولكنه لا يستطيع أن يذهب الى القرية ، قبل التمام ··

وجاء أحد الفدائيين يعلن أنه وجد بندقية خالد ملقاة فى الخندق ··

والتفت الجميع كل منهم الى الآخر ·· فى صمت ·· وفى خجل ·· كأن كلا منهم قد أصابته اهانة ·· كأن العدو ·· اغتصب واحدا منهم ·· عدو أكبر من الانجليز ، ومن الفرنسيين ، ومن اليهود ·· الخوف ·· هل هرب خالد خوفا ؟ ! ··

وصاح أحمد : مش ممكن ·· مش ممكن خالد يهرب ·· ده لسه امبارح كان هايج وعايز يروح بور سعيد ··

ونكس الزملاء رؤوسهم ··

٢٩

وظل أحمد ينظر الى زملائه كأنه يصرخ بعينيه فى وجوههم ·· ان خالدا لم يهرب ·· انه ليس جبانا ·· قد يكون عصبيا ، رقيقا ، ولكنه ليس جبانا ·· وربما ذهب الى مكان ·· ربما أقدم على أى عمل جنونى ·· ولكنه لم يهرب ·· انه متأكد أنه لم يهرب·

ولكن الزملاء لا يصدقون ·· ورؤوسهم منكسة ·· كأنهم فجعوا فى واحد منهم ·· وأحمد واقف وبجانبه كمال ، وعبد الهادى ، وعيونهم مضطربة ، كان الاتهام موجه اليهم · لقد كان خالد واحدا منهم لم يفترق عنهم منذ تطوعوا فى كتائب الفدائيين ، والثلاثة يحسون بمسئوليتهم عنه ·· ويحسون أنهم مشتركون معه فى فعلته ·· ويحسون بأن الاهانة قد لحقتهم ··

وقال عبد الهادى : ماكانش حق خالد يعمل كده من غير مايقول لنا ·· ماكنش لازم يتطوع خالص · ·فاكر يوم ماخاف من الرصاص فى التدريب ·· وقال احمد فى ثقة : أنا متأكد انه ماهربش ··

وقال كمال : يعنى حايكون راح فين ؟ ··

وقال أحمد وهو أشد ثقة : ماعرفش انما متأكد انه ماهربش·

وقال عبد الهادى : أنا مش متأكد ··

وفجأة قدم أحد الفدائيين يعلن أنه اكتشف اختفاء مدفع برتا رشاش ··

ولمعت عينا احمد وقفزت ابتسامة الى شفتيه ·· وبدأت الضجة تشمل الموقع بحثا عن المدفع الرشاش ·· والشاويش يصرخ ، ويبحث بنفسه فى الخنادق ، ويفتش فى الأخصاص ·· ان اختفاء

قطعة سلاح ، ليس أمرا هينا ·· انها مسئولية كبيرة ·· واخيرا قرر الشاويش أن يفتش بيوت الفلاحين الذين يسكنون القرية المجاورة ··

وقال أحمد فى هدوء : مافيش لازمة يا شاويش ·· أنا عارف مين اللى خد الرشاش ·· وقال الشاويش : مين ؟ ··

وقال أحمد بسرعة وفرح : خالد ··

وانهارت قسمات وجه الشاويش وقال فى قرف : ايه عرفك ؟·

وقال أحمد : خالد ساب بندقيته وأخد الرشاش ·· وأنا متأكد انه راح بور سعيد ·· أنا متأكد ··

وقال الشاويش والقرف لا يزال بين شفتيه : هو قال لك كده ؟·

وقال أحمد : لأ ·· انما امبارح كان قاعد طول النهار يتكلم عن بور سعيد ·· ماكانش مستحمل يقعد هنا من غير ما يحارب ·· ولازم طلعت فى دماغه وخد بعضه وراح على هناك علشان يحارب·

وقال الشاويش : ودى تبقى عسكرية دى ، يعنى لما كل واحد يعمل الى يطلع فى دماغه ·· تبقى عسكرية دى ·· ؟

وقال أحمد وهو يبتسم تملقا للشاويش : خالد شاب متحمس ·· وأحيانا الحماس بيغلب النظام ··

ولوى الشاويش شفتيه وقال : أنا ما أقدرش أصدقك ، حكاية خالد دى مش داخله دماغى ·· ولازم أفتش البلد لغاية مالاقى الرشاش ··

وقال أحمد : بلاش يا شاويش بلاش تجرح احساس أهل البلد·

وقال الشاويش : دى اجراءات لازم تتخذ ··

واستدعى قائد الموقع ، عمدة البلدة ، وأبلغه خبر اختفاء قطعة السلاح ، وطلب منه أن يتولى البحث عنها فى بيوت البلدة ·· وقال العمدة وقد احتدت نظراته كأنه أهين : عيب يا حضرة ·· مايصحش تفكر كده أبدا ·· ده احنا لو كان عندنا سلاح كنا اتبرعنا بيه ··

ولكن القائد أصر ·· وابتعد العمدة ممتعضا ، وهو يضرب

الأرض بقدميه ويثير التراب من تحتهما فى وجه القائد ·· وعادت الحياة الى الموقع ·· بطيئة مملة ·· ونوبتشيات الحرس تتبدل ، ودوريات الاستكشاف تخرج وتعود ·· والفدائيون ينظـرون الى السماء بحثا عن جنود الباراشوت ، ثم ينكسون رؤوسهم فى يأس وملل ··

وارتفع صوت يغنى : يا شاويش الفصيلة ·· على بور سعيد ودينا ·· صبرنا كتير ·· والصبر طال بينا ··

وانضمت أصوات كثيرة الى صوت المغنى ، والجميع يصفقون بأيديهم ، ويضـحكون ، أو يحاولون الضحك ·· وفجـأة ·· فى الساعة الثالثة بعد الظهـر ، أقبلت نحو الموقع سـيارة جيب من سيارات البوليس الحربى ·· وتجمع كل الفدائين فى انتظارها ·· وفى عيونهم تطلع ·· تطلع نحو جديد ·· أى شىء جديد ··

واقتربت السـيـارة ·· واقتربت أكثر ·· واتسـعت عيـون الفدائيين دهشة ·· لقد رأوا زميلهم فى داخل السيارة ·· رأوا خالدا ··

رأوه جالسا بين اثنين من رجال البوليس الحربى ·· ووجهه متجهم وعيناه محتدتان ·· وعرفت القصة كلها ·· لقد قرر خالد أن يذهب الى بور سعيد وحده ، وينضم هناك الى الفدائيين المندسين بين الأهالى ·· أو يقاتل على حدود المدينة ·· أن يقاتل فى أى مكان ·· أن يطلق الرصاص ·· أن يفرج عن الطاقة الهائلة المحتبسة فى صدره ·· طاقة الحماس لوطنه ، وكراهية أعدائه ·· واستطاع أن يأخذ المدفع الرشاش ·· وتسلل من الموقع فى الليل أثنـاء تغيير احدى دوريات الحراسة وزحف بين أعواد البرسيم حتى ابتعد ·· ثم سار على قدميه بين القرى حتى وصل الى طريق المعاهدة ·· وأوقف احدى سيارات اللورى المتجهة الى القنـال محملة بالمؤن ، وركبهـا ·· و ·· وضبطه البـوليس الحربى ·· وعادوا به الى

الموقع ·· وتنهد الفدائيون فى ارتياح كأنهم استردوا شرفهم ·· ولكن أحدا منهم لم يحادث خالد ·· لم يلمه ·· أو يعاتبه ·· أو يستزيده من قصته ··

وسلم البوليس الحربى خالد الى قائد الموقع ، وانصرف ·· ووقف خالد أمام القائد متجهما ·· ووجهه الوسـيم قد ازداد نحولا ·· وشعره الناعم مهوش فوق جبينه ·· وظل القائد ناظرا اليه ، نظرات ثابتة غاضبة ·· دون أن يتكلم ·· ثم أخيرا قال :

ـ اتفضل يا حضرة انضم لسريتك ·· واحتقن وجه خالد ·· لقد كان ينتظر أن يحاكمه القائد ·· كان ينتظر أن يأمر بتسريحه من الكتيبة واعادته الى القاهرة ·· كان ينتظر ـ على الأقل ـ إن يؤنبه ·· ولكن القائد اكتفى بأن ينظر اليه هذه النظرات الثابتة الغاضبة ·· ربما كانت هذه النظرات أقسى عليه من تقديمه الى المحاكمة ·

وقال خالد وصوته يتهدج بانفعال : أنا كنت ناوى أن ··

قاطعه القائد صارخا : باأقول لك انضم لسريتك ··

واحنى خالد رأسه ، واستدار فى حركة عسكرية متهـافتة ، وهم أن يبتعد ·· وصرخ فيه القائد : سيب الرشاش اللى فى ايدك ده هنا ·· والتفت خالد الى القائد كأنه يتوسل اليه ·· ثم نظر الى المدفع الذى يحمله فى يده ·· ثم القاه من يده فى رفق ، كأنه يتنازل عن أعز أمانيه ·· وسار بين زملائه منكس الرأس ، لا ينظر الى أحد منهم ·· والقى بنفسه الى أحد الخنادق ، وجلس صامتا ·· تائها ··

ولحق به أحمد وجلس بجانبه ، وقال وهو يبتسم له ابتسامة كبيرة : الحمد لله على السلامة ··

وجاء عبد الهادى ، وهو يقضم بين أسـنانه رغيفا محشـوا بالجبن ، وقال وهو يجلس بجانب خالد من الناحية الأخرى :

ـ كنت عايز تحارب لوحـدك ·· باه دى أخـوة ·· باه دى صداقة ·· مش كنت تاخدنا نحارب معاك ·· والا تستتى لما نحارب

سوا ·· ويانعيش سوا يا نموت سوا ··

وقال خالد : اعملوا معروف ابعدوا عنى ·· سيبونى لوحدى ·

وقال كمال وقد انضم الى الشلة : الا نسيبك لوحدك ·· ده مستحيل ·· من هنا ورايح اعتبر نفسك مقبوض عليك ··

وظل خالدا صامتا ، وزملاؤه من حوله يحاولون أن يشدوا الكلام من بين شفتيه ·· وفجأة انطلق صارخا : طيب أهم رجعونى ·· حايعملوا بى ايه هنا ·· يا عالم احنا فى حرب والا فى رحلة ·· احنا فدائيين والا كشافة ·· مايسيبونا نحارب ··

وارتفع صوت عبد الهادى وكمال مرة واحدة ينشدان وهما يضحكان : حانحارب حانحارب ·· كل الناس حاتحارب ··

مش خايفين ·· م الجايين ·· بالملايين ، حانحارب ··

وخالد يصرخ فى وجوههم ، وهم ينشدون فى وجهه ويضحكون ·· حتى يئس منهم ، وجلس صامتا ، ثم التفت الى عبد الهادى وهو يأكل الرغيف المحشو بالجبن ، وقال فجأة : هات لقمة ! ··

وهم عبد الهادى أن يقطع لقمة من الرغيف ليعطيها لخالد ، ولكن خالد شد منه الرغيف كله ، قائلا : حرام عليك ·· أنا ماكلتش من الصبح ·· وترك عبد الهادى الرغيف له ، وهو يهز كتفيه قائلا: اتفضل يا سيدى ·· بالهنا ·· وهدأت أعصاب خالد ·· وبدأت الشمس تغيب وبدأ الفدائيون يستعدون لليل آخر ··

وفجأة ، انتصب الشاويش فى وسط الموقع وأخذ ينادى أسماء بعض الفدائيين ·· نادى على خمسة عشر اسما بينهم أحمد ، وكمال ، وعبد الهادى ، ومحمود ·· واصطفوا أمامه فى طابور ·· ثم أصدر اليهم أمرا بالاستعداد للتحرك والانتقال الى موقع آخر ·

والتفت الفدائيون الخمسة عشر ، بعضهم الى بعض فى دهشة · الى اين ؟ لا أحد يدرى ·· ولا أحد يقول له شيئا ·· ان تحركاتهم سر عليهم ··

وبدأوا يجمعون مهماتهم من الخنادق أو من الأخصاص التى

كانوا يقيمون فيها ٠٠ وخالد ينظر حوله بعينين كأنهما عينا مجنون ٠٠ انهم سيأخذون زملاءه الى القتال ٠٠ انه يحس أنهم ذاهبون الى القتال ٠٠ وهو ٠٠ ان الشاويش لم يناد اسمه ٠٠ سيتركونه هنا ٠٠ فى هذا الموقع البارد بعيدا عن الخطوط الأمامية ٠٠ انهم يعاقبونه بحرمانه من القتال ٠٠ انه فى نظر القادة لا يستحق شرف القتال ٠٠ انه سيجن ٠٠ سينتحر ٠٠ سيهرب من المعركة كلها ٠٠ من القادة ٠٠ ومن الفدائيين ٠٠ انه لن يتحمل ٠٠ وعيناه تتبعان زملاءه وهم يستعدون ٠٠ وتتبعانهم وهم يهمون باعتلاء ظهر السيارة الكبيرة التى ستحملهم الى حيث لا يدرون ٠٠ ورأى أحمد وعبد الهادى وكمال وقد حملوا مهماتهم ، ووقفوا يتلفتون حولهم باحثين عنه ليودعوه ٠٠ وأحنى رأسه فى يأس ٠٠ وأدار ظهره ٠٠ انه لا يريد أن يودعهم أو يودعوه ٠٠ ان الذهاب معهم القتال ، أخف عليه من وداعهم ٠٠ وسار مبتعدا ٠٠ وقد أطفأ اليأس ثورته وحنقه ٠٠ وشعر بشعور جارف من الاستسلام يجتاحه ٠٠ الاستسلام للقيادة ٠٠ ولنصيبه الذى حدد له فى المعركة ٠٠

ثم ٠٠ ارتفع صوت الشاويش يخرق أذنيه : خالد رحمى ٠٠

والتفت بسرعة ٠٠ وتقدم نحو الشاويش فى خطوات سريعة والتساؤل يملأ وجهه ، وقال الشاويش دون أن يغير لهجته :

- استعد للتحرك ٠٠

وفى لحظة كان خالد فى الخص الذى يرقد فيه ٠٠ وفى دقيقة واحدة كان قد جمع مهماته ، ورتبها ، وحملها بين ذراعيه ، ثم جرى وانضم الى زملائه واعتلى معهم ظهر السيارة الكبيرة ، وبين شفتيه ضحكة كبيرة تلتقى بضحكة أحمد وعبد الهادى وكمال ٠٠

وتحركت السيارة ٠٠ وكل من فيها يتطلع الى معالم الطريق ، ليعرف الى أين يأخذونه ٠٠

ان السيارة تتجه الى طريق المعاهدة ٠٠ الطريق الى بور سعيد ٠

وارتفع صوت الفدائيين يصفرون اللحن الذى وضعه فتحى ٠٠

لحن النصر ·· وابتسم أحمد ·· وبدأ يصفر معهم اللحن ·· انه الآن لا يحقد على فتحى ·· انه يحس أنه محتاج الى هذا اللحن ·· محتاج اليه فى المعركة ··

ووصلت السيارة الى فايد ·· ووقفت أمام مقر القيادة الذى اقيم فى منزل أمام نادى الضباط ، على شاطىء البحيرات المرة ·· ولم يلتفت الفدائيون الى مبنى القيادة ، التفتوا جميعا الى البحيرة، كانهم يبحثون فيها عن القنال ·· القنال الذى جاء العدو ليسطو عليه ، وجاءوا هم ليقتلوه بأرواحهم ··

ولم يكن أحمد قد رأى قنال السويس من قبل ·· وكانت صورتها دائما فى ذهنه ، صورة غامضة رهيبة ، رسمتها ألوان من المؤامرات الأجنبية ، والحروب ·· صورة بلون الدم ·· ولكنه ينظر الآن الى القنال فلا يرى فيها لون الدم ·· ولا يرى لها رهبة ، ولا يسمع من خلالها ضجة ·· ويمد بصره الى ما بعد البحيرة ، فيرى الخيط الرفيع من الماء الصافى ، يهتز فى هدوء ورفق ، كأنه صفحة ماء أعدت للعشاق ·· وكل شىء هادىء ·· الليل هادىء ·· والسماء هادئة والأرض هادئة ·· ليس هناك طلقات مدافع ·· ولا رصاص ·· ولا صرخات ·· كأن ليس هناك حرب ··

ورغم ذلك فأحمد يستطيع أن يشم رائحة الحرب ·· يستطيع ان يشم رائحة العدو ·· ان العدو هناك على الضفة الثانية ·· فى سيناء ·· لا يفصله عنه الا هذا الخيط الرفيع من مياه القنال ·· والعدو هناك فى بور سعيد ، لا يفصله عنه الا مسافة ساعة بالسيارة ·· والعدو له رائحة ·· انه يستطيع أن يشمها ·· انها رائحة ثقيلة ·· تجعل الهدوء الذى يحيط به هدوءا ثقيلا كأن الليل أطنان من الحديد الأسود تجثم فوق صدره ·· واستمر يحلق فى مياه البحيرة كأنه يبحث فيها عن شىء ·· عن جثث آلاف الفلاحين الذين حفروا القنال ·· عن مراكب الأسطول البريطانى التى اجتازت القنال واحتلت مصر بعد موقعة التل الكبير ·· عن سبائك الذهب

التى حملها الأجنبى معه ٠٠ عن ثورات الشعب ٠٠ عن تاريخ طويل مرير سجلته الضحايا ٠٠

وانتبه أحمد على صوت يأمرهم بالنزول من السيارة ٠٠ واستقبلهم قائد الفدائيين فى المنطقة ٠٠ ضابط شاب فى رتبة الملازم أول ٠٠ بين شفتيه ابتسامة قوية ، وفى عينيه نظرات ثابتة جريئة ٠٠

ونظر القائد فى وجوههم كأنه يتعرف اليهم ويعرفهم بنفسه وقال فى بساطة : الحمد لله على السلامة ٠٠

ثم صحبهم الى الموقع الذى سيحتلونه ٠٠ انه أحد البيوت الواقعة على شاطىء البحيرة فى منطقة تسمى « الليدو » ٠٠ وقد أخليت هذه البيوت من المدنيين منذ بدء الاعتداء ، واتخذت أوكارا للفدائيين ٠٠

وكان البيت عاريا ، ليس فيه شىء من قطع الأثاث ٠٠ ووزع الفدائيون أنفسهم بين الحجرات ٠٠ واحتل أحمد وكمال وخالد وعبد الهادى غرفة واحدة ٠٠ وفرش كل منهم بطانية فوق البلاط ، وأعدها لتكون فراشا له ٠٠ وجمعهم القائد وجلس بينهم على الأرض كأنه واحد منهم ، وأخذ يلقى بتعليماته ٠٠

ان مهمتهم اذا وصل الأعداء الى حدود فايد أن يرتدوا زى المدنيين ، ويندسوا بين الأهالى ٠٠ فاذا احتل الأعداء البلدة ، بدأوا ينظمون مع الأهالى حرب العصابات ٠٠ الا يتركوا العدو يهدأ فى البلدة ساعة واحدة ، وقاطع خالد القائد قائلا : واذا العدو ما وصلش لغاية هنا ٠٠

وضحك القائد قائلا : نصلى ركعتين شكرا لله ٠٠

وقال خالد فى حماس : طيب ما بدل مانستنا العدو ، مانروح نحاربه مطرح ماهو قاعد ٠٠ وقال القائد :

ــ العدو مش قاعد ٠٠ العدو بيحارب فى كل لحظة ٠٠ مش ممكن نخليه قاعد من غير حرب ٠٠

وسكت خالد ·· وتركهم القائد ·· وناموا على البلاط ··

وفى الصباح دبت الحركة فى البيت ·· والجميع يضحكون فى بشر ·· وعبد الهادى يجمع النقود من زملائه ليذهب لشراء الطعام، ويعدهم بأن يطهو لهم وليمة ·· وخالد يطل من النافذة وينظر الى بعيد كأنه يبحث فى الأفق عن الأعداء ·· وكمال يبحث عن وسيلة لمنع تسرب رطوبة البلاط الى ظهره أثناء النوم ، ويقترح أن يخلعوا أبواب البيت ويتخذوا منها ألواحا ينامون عليها ··

وخرج أحمد ومحمود ليطوفا بالبلدة ويتعرفا عليها ·· وذهبا الى « فايد البلدة » ، وهى منطقة عالية تقع على قمة تل يطل على البحيرة ، فوق منطقة « الليدو » ·· والناس من حولهم يسيرون فى حياة عادية ·· يبيعون ويشترون ·· ويفتحون آلات الراديو على آخرها ليستمعوا الى أنباء القتال ·· وأنباء الموقف الدولى الذى يحيط بالاعتداء ·· والى الاغانى الوطنية ·· والحرب تبدو بعيدة ·· بعيدة جدا ·· كأن العدو لا تفصله عن المدينة خطوات ·

وعرف أحمد أن فى فايد البلد ، حيا اسمه « الخنادق » محظور على الفدائيين دخوله ·· انها منطقة دعارة موضوعة تحت رقابة البوليس ·· وسمع قصة فتحية ·· لقد كانت فتحية احدى بنات حى الخنادق ·· كانت اجملهن وأوسعهن صيتا ، وأقواهن فى تحدى رقابة البوليس ·· منذ خمسة ايام بدأت فتحية تختفى من الحى كل مساء ·· ثم تعود فى الصباح ، وتقف فى وسط الحى ، وتطلق زغرودة حادة ، ثم تصرخ فى فرح :

ـ قتلت واحد من ولاد الكلب ·· وآدى دمه ! ·· ثم تفرد امام اهالى الحى منديلها مخضبا بالدم ·· وتقول : وادى نمرته ··

ثم تعرض امامهم قطعة من المعدن مما يعلقه جنود الأعداء فى رقابهم ، ويسجلون عليها أسماءهم وشاراتهم العسكرية ·· كانت فتحية تذهب من فايد الى نقطة الكاب ·· آخر نقطة وصل اليها الانجليز ·· وتغرى بنفسها احد الحراس ، ثم تختلى به بين المزارع،

حتى تتمكن منه فتقتله ٠٠ وتهرب بعد أن تنزع علامتـه ، وتغـرق منديلها فى دمه ٠٠ وذهبت فتحية فى اليوم الثالث ، ولم تعد ٠٠ ووجد بعض الأهالى جثتها ممزقة بالرصاص ٠٠

ورفع أحمد عينيه الى حى « الخنادق » كأنه يحيى فتحية ٠٠

وعاد هو ومحمود الى الليدو ، ورأى فريقا من زملائه يستحمون فى البحيرة ٠٠ ولم يكن ماء البحيرة نظيفا ، كانت تغطيه طبقة من الزيت المتخلف من السفن الغارقة فى القنال ٠٠ وكان ماؤها باردا ٠٠ كالثلج ٠٠ ورغم هذا فقد نزل زملاؤه ليستحموا فيها ٠٠ وهم يصرخون ويتضاحكون ٠٠ انهم فى حاجة الى أى شىء يطلقون فيـه شبابهم ، ويلهيهم عن انتظار المعركة ٠٠ وصرخ أحد الزملاء فى أحمد : انزل يا أحمد ٠٠ خد لك حمام زيت وسخ ! ٠٠

وضحك أحمد قائلا ، وهو يلوح بيديه : متشكر ٠٠ مانستغناش ٠

وظل أحمد يدور فى المنطقة ٠٠ ويتعرف على المواقع الأخرى وهو يلمح حركة كبيرة ٠٠ حركة صامتة ، تدور بلا صوت ٠٠ ان فايد مركز أمامى للمخابرات ٠٠ وهى نقطة تجمع الفدائيين ٠٠

وهو يلمح سيارات كثيرة تخرج من البلدة ٠٠ وسيارات تدخل ٠٠ ووجوها تظهر ٠٠ ووجوها تختفى ٠٠ ويحاول أن يفهم ما يدور حوله ٠٠ ولا يفهم شيئا ٠٠ كل ما يفهمه أن المعركة دائرة ٠٠ معركة هائلة ٠٠ ودوره فيها أن ينتظر الأوامر التى تصدر اليه ٠٠

وفى نفس المساء عين أحمـد فى مركز اللاسلكى بالمنطقة ٠٠ وكان المركز فى بيت آخر من البيوت المطلة على البحيرة ٠٠ وجلس بجانب جنود اللاسلكى ، وسلاحه فى يده ٠٠ ليس بندقية ٠٠ لقـد أعطوه مدفعا رشاشا ٠٠ ان مهمته الآن أكبر من البندقية ٠٠

ووقف منتصبا وعينـاه تتبعان شفاه الجنـود وهم يطلقـون الاشارات اللاسلكية ، ويتلقونها ٠٠ ويحاول أن يفهم كل شىء ٠٠ انه ثابت النظرات ٠٠ مركز العقل ٠٠ كامل الشخصية ٠٠ انه انسان

جديد لم يعرفه فى نفسه ، انسان فى حالة دفاع عن وطنه ودفاع عن نفسه ٠

وبرقت عينا الجندى الذى يتلقى الاشارات ٠٠ وتجهم وجهه ٠٠ ورفع يديه يثبت وضع سماعتى الالتقاط فوق أذنيه ٠٠

ثم قال فى همس : هجوم ٠٠

وبدأ يكتب نص الاشارة التى يتلقاها ٠٠ ان العدو يتحرك جنوبا من مواقعه فى مدينة الكاب ٠٠ ان الهجوم على فايد ٠٠

وسادت مركز اللاسلكى حركة غير عادية ٠٠ وأصدر الضابط أمرا بارسال عدة اشارات ٠٠ ثم استدعى أحمد اليه ، وكلفه بأن ينقل الاشارة ، الى بقية المواقع ٠٠ وفى فايد وحولها خمسة مواقع للفدائيين ، بين كل موقع وآخر كيلومترين ٠٠ وعليه أن يمر على هذه المواقع بسرعة ٠٠ فى نصف ساعة ٠٠ فى أقل ٠٠ وخرج يخوض فى الظلام وسلاحه فى يده ٠٠ ويجرى ٠٠ ثم تنقطع أنفاسه ، فيسير بخطوات سريعة ٠٠ وهو يتلفت حوله كأن العدو سيباغته فى كل لحظة ٠٠ وأبلغ الاشارة الى الموقع الأول ٠٠ وأبلغها الى الموقع الثانى ٠٠ والثالث ٠٠

وكان فى طريقه الى الموقع الرابع ، عندما التقطت أذناه صوتا كالهدير يأتى من بعيد ٠٠ وتوقف ٠٠ وكتم أنفاسه ٠٠ وركز كل انتباهه فى أذنيه ٠٠ ان الصوت يقترب ٠٠ انه صوت دبابات ٠٠ نعم ٠٠ انه صوت دبابات ٠٠ دبابات العدو ٠٠ واهتز فى وقفته ٠٠

وشىء كالخوف يئز فى صدره ٠٠ وتلفت حوله كأنه يبحث عن مكان يختبىء فيه ٠٠ ولكنه لا يفكر فى الاختباء ٠٠ انه فقط يريد أن يقرر كيف يتصرف ٠٠ هل يذهب الى الموقع الرابع ليبلغه الاشارة ٠٠ أم يعود الى موقعه لينضم الى زملائه ويشاركهم فى الدفاع ٠٠

ومرت فى مخيلته صور كمال وعبد الهادى وخالد ٠٠ كأنه لا يستطيع أن يحارب الا معهم ٠٠ كأنهم سلاحه ٠٠ ولكن ٠٠ ان الأمر الذى صدر اليه هو أن يبلغ الاشارة الى جميع المواقع ٠٠

ولكن ·· ولكن ·· هذا الأمر لم تعد له قيمة الآن ، فلا بد أن جميع المواقع قد سمعت صوت الدبابات ·· ولكن يجب أن يطيع الأمر ·· انه جندى مهمته أن ينفذ الأمر ·· وعقله يدور بسرعة ، وهو لا يزال يتلفت حوله ، وقبضته تشتد فوق المدفع الرشاش ··

ووجد نفسه يتقدم ·· يتقدم نحو الموقع الرابع ·· كأن الضابط الذى أصدر له الأمر يدفعه بيده ··

ثم ·· تنبه فجأة الى أنه كى يصل الى الموقع الرابع ، يجب أن يمر فى الطريق الذى يأتى منه صوت هدير الدبابات ··

لا يهم ·· سيحاول ·· وتقدم ·· وخطواته حذرة ·· لم يعد يجرى ، ولا يسير بسرعة ·· وصوت الدبابات يرتفع فى كل خطوة ·· وعرق يتصبب من جبينه ·· وشفتاه جافتان ··

ثم أصبح يرى الدبابات من بعيد ·· يراها كالأشباح الضخمة ·

وانبطح على وجهه ·· وزحف ·· وزحف ·· ومدفعه فى يده . وأنفاسه مكتومة ·· وزحف ·· انه لا يذكر الآن التدريبات التى تلقاها ·· انه يزحف كأنه يمشى ·· كأن من طبيعته الزحف ··

واقترب أكثر ·· انه يستطيع الآن أن يراها ·· ورفع رأسه ··

وأبتسم ·· ثم أسـقط رأسه مرة ثانيـة ·· وابتسم ابتسـامة واسعة كأنه يضحك على نفسه ·· يضحك على كل هذه الانفعالات التى ثارت فى نفسه ·· انها دبابات مصرية ·· !

وقام واقفا ·· ورفع يده التى تحمل المدفع ، ولوح بها لجنود الدبابات ·· الجنود المصريين ·· وردوا عليه ·· لوحوا له بأيديهم ·· ونزل الى الطريق وقفز على ظهر دبابة ، وجلس يلتقط أنفاسه ، وهو لا يزال يبتسم ·· لا يزال يضحك على نفسه ·· وعاد وقفز من الدبابة قريبا من الموقع الذى يقصده ·· ثم جرى الى الموقع الخامس ·· وأتم مهمته ··

وعاد الى موقعه وأنفاسه تتمزق ·· وقد أعلنت حالة الهجوم ··

ووقف مع زملائه فى انتظار تلقى الأوامر ·· وفى انتظار وصـول الانجليز ·· وانقضى الليل ·· ولم يصل الانجليز ··

وعرفوا أن التحريات التى قام بها العدو لم تتم ، وأنه عاد الى مواقعه عند نقطة الكاب ·· ومر يوم ··

يوم قضاه أحمد نائما ·· نوما مقطعا ·· ينام ساعة ، ويصحو ساعة ليجلس مع زملائه ، ثم يعـود وينام ·· وفى المسـاء التالى استدعاه الضابط الشاب ، واستدعى معه زملاءه ، محمود ، وكمال ، وعبد الهـادى ، وخالد ·· وأبلغهم أنه مطـلوب متطوعون لداورية استكشاف على الضفة الأخرى من القنال ·· وأنه قد اختارهم ليعرض عليهم المهمة ، وأن لهم الحق فى رفضـها ، ليبحث عن متطوعين آخرين ·· ولم يرفضوا ··

وبرقت عيونهم ، كأنهم قد انتقلوا الى الضفة الأخرى بخيالهم قبل أن ينتقلوا اليها بأقدامهم ··

ونظر اليهم الضابط طويلا كأنه يختبر شجاعتهم ، ثم قال

ـ يمكن تقابلوا هناك داورية من داوريات العدو ··

وقال عبد الهادى وهو ينفش عضلاته : وماله ··

وعاد الضابط يقول : ويمكن تشتبكوا معاهم ؟ ··

وقال خالد : يبقى أحسن ··

وقال الضابط بسرعة : لا ·· مايبقاش أحسن ·· الأحسن انكم ماتشتبكوش معاهم ·· لو قدرتم ترجعوا بمعلومات عن تحركات العدو من غير العدو مايشوفكم ، يبقى أحسن ··

المهم هى المعلومات ·· مش مهم انكم تقتلوا واحد والا اتنين ومش شجاعة انكم تسيبوهم يقتلوكم ·· وهز أحمد رأسه موافقا ·

وقال الضابط فى صراحة : الكلام اللى قلته ده ، تعليمات ·· مش عايزينكم تشتبكوا فى قتال ، الا اذا كنتم مضطرين للدفاع عن انفسكم ·· مفهوم يا خالد ··

وقال خالد : مفهوم يا افندم ··

وقال الضابط فى صوت خفيض : دى أول مهمة نكلفكم بيها ..
وطبعا انتم مش محتاجين انى أنبهكم لواجبكم .. وعارفين تتصرفوا ازاى ، اذا واحد منكم اتأسر مثلا ..

وهزوا رؤوسهم ، وهم يبتسمون كأنهم يطمئنون القائد .

وبدأ يشرح لهم تفاصيل مهمتهم .. سيستقلون سيارة جيب فى الساعات الأخيرة من الليل ، تحملهم الى نقطة معينة على ضفة القنال .. وسيجدون هناك زورقا صغيرا ، يعبرون به الى الضفة الأخرى .. الى أرض سيناء ويقومون بالاستكشاف فى دائرة معينة لمدة ثلاث ساعات ، ثم يعودون .. وعين لهم القائد على خريطة صغيرة ، الدائرة التى يستكشفونها .. وحدد لهم الوقت ، والمهمة، وطريقة استقصاء المعلومات ..

وانصرفوا على أن يناموا حتى منتصف الليل .. ولم يناموا .

ولم يتكلموا الا كلمات متفرقة .. وجلس كل منهم يعد المدفع الرشاش الذى سيحمله .. ثم انطلق عبد الهادى فجأة فى ضحكة عصبية وقال : واحد نوبة راح سينا .. لقاها سينا أونطة !! ..

وضحك معه كمال ضحكة عصبية أخرى .. وضغط خالد على حنجرته ليضحك هو الآخر .. كأنه يجب أن يضحك .. وقال محمود : حقنا كنا رحنا سينا من ثلاثة لستة !! ..

وتجاوبت الضحكات العصبية ، وأحمد يبتسم ابتسامة بلهاء ويحس أنه أيضا فى حاجة الى الضحك .. ولو هذه الضحكات العصبية .. ولكنه لا يستطيع .. انه مشدود بعقله وأعصابه الى المهمة التى كلف بها والتى يحمل مسئوليتها باعتباره أومباشى الداورية .

وكان الموعد المحدد فى الساعة الثالثة صباحا .. وخرجوا من الموقع ، واستقلوا السيارة الجيب التى خصصت لهم .. واتجهت بهم السيارة تشق الطريق المحاذى لضفة القنال .. وكلهم صامتون .. بدأ خالد يصفر بشفتيه لحن النصر .. صفيرا خافتا كأنه

مجرد أنفاس حادة وليس صفيرا .. ووقفت بهم السيارة فى الموقع المتفق عليه .. ونزلوا منها فى سكوت .. وهمس الجندى سائق السيارة : ترجعوا بالسلامة .. ربنا معاكم ..

وابتعد .. وغاب صوت السيارة .. وانطبق الصمت عليهم .. وبحركة غير ارادية مد أحمد يده ولمس المصحف المعلق فى رقبته .. المصحف الذى أهدته له شهيرة ..

وانبطحوا كلهم على الأرض .. وبدءوا يزحفون على الشاطىء باحثين عن الزورق الذى سيعبرون به .. ووجدوا الزورق الذى سيعبرون به .. وجدوه فى المكان المتفق عليه ..

ونظر أحمد الى ساعته.. انها الثالثة والنصف .. والأوامر الصادرة اليه ، أن يبدأ فى عبور القنال فى الساعة الرابعة ..

كان عليهم أن ينتظروا نصف ساعة .. وانتظروا راقدين على بطونهم .. يرفعون رؤوسهم بين الحين والآخر ، ويشقون بعيونهم الظلام .. حتى الضفة الأخرى .. وتتراءى لهم هناك أشباح ، كأنها جحافل من الأعداء .. ويدققون النظر ، ليتأكدوا أن هذه الأشباح ليست سوى قطع من الظلام ..

وسرح أحمد .. ومد يده مرة أخرى ولمس المصحف .. وتذكر شهيرة .. وابتسم .. ثم تذكر أمه .. وانطفأت ابتسامته ، خيل اليه أنه لم يودعها وداعا كافيا .. كان يجب أن يقول لها انه ذاهب الى القنال .. وأحس بشوق غريب الى أمه .. نوع آخر من الشوق غير ما يحس به نحو شهيرة .. ان أمه فى حاجة اليه أكثر من شهيرة .. انها أضعف من شهيرة .. وتمنى فى لحظة ، لو ترك كل هذا وعاد الى أمه .. ثم ارتفع فى صدره نوع من التصميم على أن يعود الى أمه .. لن يحدث له شىء .. لن يناله العدو .. لن يحرمه أحد من أمه ، أو يحرم أمه منه .. وتداعت أفكاره الى أخواته .. فيفى .. ونبيلة .. وليلى .. واتسعت ابتسامته كأنه يقبل كلا منهن .. ثم بحث بعينيه فى الظلام عن وجه محمود

وقال له هامسا : بكره الصبح نقعد نكتب جواب طويل للعيلة ..

وقال محمـود وهو يبادله الهمس دون أن يحس بحرج : أنا كتبت جواب لنبيلة قبل ما نقوم من فايد .. وسبته للشاويش ..

وهمس كمال : الساعة معاك كام يا أحمد ؟ .

ونظر أحمد الى ساعته ، وقال : أربعة الا عشرة ..

وقال خالد : ياللا بينا ..

وقال أحمد فى اصرار : لسه عشر دقائق ..

وهمس عبد الهادى : كان حقى جبت معايا ساندويتش .. أنا ابتديت أجوع ..

وسكتوا .. والثوانى والدقائق تنقر على أعصابهم .. وعاد أحمد ينظر الى ساعته .. ثم حرك يده باشـارة .. تقدموا .. وزحفـوا على بطونهم .. ثم أسـقطوا أنفسهم فى الزورق .. ورقدوا فيـه .. بجانب بعض وفوق بعض .. وظل أحمـد وحده جالسا ، وأمسك بالمجدافين .. وأخذ يجدف فى هدوء .. وبطء .. يحاول ألا يصدر عن المجدافين صوت .. والراقدون فى بطن الزورق قد كتموا أنفاسهم .. وجدف أحمد قليلا .. ثم توقف .. وأخذ يتسمع بأذنيه .. ثم عاد يجدف .. ثم توقف مرة ثانية .. وعاد يجدف .. والمسافة تطول .. لم يكن يعتقد أن القنال بهذا الاتساع .. لعل أوهامه قد زادتها اتساعا .. ووصلوا الى الضفة الأخرى .. والفجر يحاول أن يبدد الظلام .. والضوء فى لون الدخان ..

وتسلل الخمسة من الزورق .. ورفع محمود الهلب الصغير وركزه فى الأرض ، ليحتفظ بالزورق الى أن يعودوا اليه .. ثم رقدوا على بطونهم .. ونظـر أحمد فى ساعته .. انهـا الرابعة والنصف والظلام يتبدد ، ان كلا منهم يستطيع أن يرى ما أمامه ..

وتقدمهم أحمد زاحفا على بطنه .. وابتعد مسافة كبيرة عن شاطىء القنال .. وهو يتلفت حوله وينظر أمامه .. ثم قام واقفا .. وأشار اليهم أن يلحقوا به ..

وابتعدوا بعضهم عن بعض ·· أصبحوا يسيرون وهم يكونون شكل مروحة ·· ومدافعهم فى أيديهم ·· وأصابعهم على الزناد ·· انهم يسيرون على أرض وطأتها أقدام الأعداء ·· أقدام الانجليز والفرنسيين واليهود ·· انهم يحسون بأنفاس العدو ·· يشمون رائحته ·· يتخيلونه فى كل خطوة ·· ووجوههم جامدة ·· وعيونهم محتدة ·· وخوف ·· وحذر ·· وتحد ·· انفعالات تختلط ببعضها حتى لا يدرون أهم خائفون أم حذرون أم متحدون ·· ولكنهم يتقدمون ·· وأصابعهم فوق الزناد ·· ينظرون الى الأرض ليستكشفوا آثار تحركات العدو ·· آثار عجلات سيارات أو دبابات ، أو آثار أقدام ·· وينظرون أمامهم ·· وعلى يمينهم ·· وعلى يسارهم ·· لعلهم يرونه قادما ·· العدو ·· ثم يلتفت الواحد منهم بغتة الى الوراء ·· بلا سبب ·· ودون أن يسمع شيئا ·· لعله العدو يأتى من خلفه ··

ومرت سحلية سريعة بين قدمى كمال ·· وصوب اليها مدفعه ·· ولم يطلقه ·· وحاول أن يلحقها بقدمه ليدوسها ·· ولكنه عدل·

وتقدم خالد يسير فى خطوات سريعة ، يريد أن يسبق الجماعة ·· يريد أن يجد شيئا ·· وصرخ فيه أحمد صرخة خافتة :

ـ ارجع مكانك يا خالد ·· ماتتسرعش ·· وما تتهورش ·· دى مش شجاعة ·· ورجع خالد مكانه ·· ومرت الدقائق ··

الساعة الخامسة ·· الخامسة والنصف ·· السادسة ·· السابعة ·· وقد جمعوا فى أذهانهم كل ما رأوه من آثار العدو ·· وبدأ خوفهم وحذرهم يتبددان ·· وبدأ الاحساس بالاستهانة واللامبالاة يطغى عليهم ·· كأن ليس على هذه الأرض عدو ·· كأنهم نسوا العدو ونسوا المعركة ··

ووصلوا الى مجموعة التلال الصغيرة ، و « التبات » التى حددها لهم القائد كحدود للمنطقة التى يستكشفونها ··

وكان عليهم ان يعودوا ··

وقال كمال : ماتيجوا نشوف فيه ايه ورا التل ده ٠٠ ؟

وفكر أحمد قليلا ٠٠ ان القائد أمره ألا يجتاز هذه التلال ٠٠ ولكنه ولا شك يريد منه أن يرى ما وراء هذه التلال حتى تتم مهمة الاستكشاف ٠٠

وتقدموا نحو التلال ٠٠ ووقفوا عند سفحها ٠٠ وبدأوا يزحفون صاعدين الى قمتها ٠٠ لقد واجهوا قبلها تلالا أخرى ، وزحفوا الى قمتها ، ولم يروا وراءها شيئا ٠٠ وهم لن يروا شيئا هذه المرة أيضا ٠٠ ولكن ٠٠ لقد رأوه ٠٠ رأوا العدو ٠٠

وشدت عيونهم الى جماعة من الجنود ، جالسين بجانب سياره مصفحة ، يشربون الشاى ٠٠ انهم انجليز ٠٠ لا يهود ٠٠ لا ٠٠ انهم فرنسيون ، وبينهم جندى سنغالى ٠٠ أسود ٠٠

وظلت عيونهم مشدودة اليهم ٠٠ لا يستطيعون أن يرفعوها عنهم ٠٠ قوة هائلة تجعلهم يحلقون فى وجوه أعدائهم ٠٠

كم عددهم ٠٠ ثمانية جنود ٠٠ ومعهم شاويش ٠٠ ومسلحون بالمدافع الرشاشة ٠٠ والسيارة المصفحة بها مدفع ٠٠

وأحمد يكرر هذه المعلومات التى يلتقطها بعينيه ، ويختزنها فى ذهنه ٠٠ ماذا يفعل الآن ٠٠ يجب أن يعود سريعا ٠٠

لقد أوصاه القائد بعدم الاشتباك فى القتال ٠٠ ولكنه لو عاد الآن فقد يلحقه الأعداء ٠٠ ان معهم سيارة ، ويستطيعون أن يلحقوا بهم ٠٠ ولكن الأعداء قد لا يتقدمون ٠٠ قد يعودون أدراجهم ، أو يظلون حيث هم ٠٠ ما داموا لم يروهم ٠٠

ولكنه لا يستطيع أن يعطى أمرا بالعـودة ٠٠ انه يريد لحظة أخرى ينظر فيها الى وجوه أعدائه ٠٠

والخمسة منتشرون فوق التل راقدين على بطونهم ٠٠ ويحملقون ٠٠ كأنهم يتلذذون برؤية أعدائهم ٠٠ وفجأة ٠٠

انطلقت دفعة من رصاص مدفع رشاش ٠٠

ورفع أحمد رأسه بسرعة ٠٠

انه خالد الذى أطلق الرصاص ·· ولم يفكر فى أن يلوم خالد
·· انتقل تفكيره مرة واحدة الى المعركة ··
لقد بدأت المعركة ·· ورأى جنود العدو يلقون بأكواب الشاى
·· ويلتقط كل منهم مدفعه ··
وصرخ أحمد : ماتخلوش حد منهم يوصل للعربية ·
وبدأ يطلق مدفعه ·· وانطلقت المدافع الخمسة ··
وكلهم يحاولون أن يمنعوا الفرنسيين من الاقتراب من السيارة
·· ان السيارة بها مدفع ·· والمدفع يستطيع أن يبيدهم ··
وصرخ أحمد : ما تضربوش من حتة واحدة ·· انتقلوا وانتم بتضربوا علشان يفتكروا اننا كتير ··
وبدأ كل من الخمسة يطلق دفعة رصاص ·· ثم يقفز الى مكان آخر ·· ويطلق منه دفعة أخرى ··
وصرخ كمال : أنا خلصت على واحد ··
والفرنسيون الثمانية قد انبطحوا على وجوههم ، فى موقع مكشوف ، تحت رحمة مدافع الفدائيين ·· ويحاول كل منهم أن يزحف نحو السيارة ، فيواجه حاجزا من الرصاص ··
وضرب أحمد مدفعه الى عجلات السيارة ·· ومزقها ··
وصرخ خالد : أنا خلصت على التانى ··
والفرنسيون يطلقون الرصاص ·· ان رصاصهم لا يفنى ·· ان لديهم ذخيرة أكثر ·· ومدافعهم الرشاشة أقوى ··
ولاحظ أحمد أنهم يتراجعون الى الوراء ، زاحفين على بطونهم
·· لا بد أنهم يحاولون الاختباء خلف السيارة ··
وتلفت أحمد حواليه ·· ان هناك تلا آخر فى الجناح الأيسر لو استطاع أن يصل اليه فسيعتقد الأعداء أنهم محاصرون ·· ويستسلمون ·· ولكن كيف يصل الى هذا التل ·· ان بينه وبين التل مسافة مكشوفة ·· قد يصيبه من خلالها العدو ··
سيحاول ·· وصرخ :

ـ كمال ·· خالد ·· اضربوا طوالى ·· وأنا ومحمود حانروح ورا التل اللى هناك ·· وانت يا عبد الهادى شيل رمل باديك وارميه لفوق خليهم يفتكروا اننا كتير وان معانا عربيات ··

والتفت الجميع برهة الى أحمد كأنهم يشفقون عليه ·· وصرح عبد الهادى : أنا آجى معاك ··

وصرخ أحمد : لأ ·· اعمل اللى با أقولك عليه ··

وبدأ كمال وخالد فى الجناح الأيمن يطلقون الرصاص ، وقام أحمد نصف قومة ليبدأ فى الزحف الى التل الآخر ·· وشعر بشىء ينغرز فى كتفه ·· سائل ساخن يسيل تحت ثيابه ·· انه أصيب ·· ولكنه لا يشعر بألم ·· انه يستطيع أن يزحف ·· نعم ·· يستطيع ·· وزحف ·· وزحف ·· وطلقات الرصـاص تتجاوب حوله ·· ومحمود يزحف بجانبه ·· وجنود الأعداء متجهون بمدافعهم ناحية خالد وكمال ·· وعبد الهادى يثير الرمالا من تحت التل ، ويقذف بها فى الهـواء فتترك عمـودا من التراب ، كأنه آثار زحف مئات الجنود ·· ووصل أحمد ومحمود الى التل الآخر ··

ونظر محمود الى أحمد ، وقال فى هلع : انت اتجرحت ·· ؟

وقال أحمد : أنا مش حاسس بحاجة ·· اضرب ··

وبدأ محمود يطلق الرصاص ·· وأحمد بجانبه يطلق مدفعه ·· ان أمامه هذا الجندى الافريقى ·· انه يستطيع أن يقتله بسهولة ·· ولكنه لا يريد أن يقتله ·· أيها الافريقى ابتعد من أمام فوهة مدفعى ·· انك من بلدى ·· انك من أرضى ·· ان لونك بعـض لونى ·· دعنى أقتل هذا الآخر ·· انه عدوك كما هو عدوى ··

وأطلق أحمد الرصاص ·· وخر أحد الفرنسيين صريعا ··

واعتقد باقى جنود العدو أنهم محاصرون ·· وأصابهم الهلع ·· وهذا الافريقى لا يزال أمام عينى أحمد ·· ابتعد ·· ابتعد أيهـا البائس المسكين ·· أيها الغبى ·· انك تحارب مع أعدائك ·· انك تحمى الذين يمتصون دمك ·· وأطلق أحمد الرصاص ·· وهو يتعمد

الا يصيب الافريقى ·· وعبد الهادى تعب من اهالة الرمال ·· فالتقط مدفعه وصعد التل ·· وبدأ يضرب ··

واستبدت فرحة النصر بخالد فوقف على قدميه صارخا ·· ثم سقط ·· ورأى كمال صديقه يسقط بجانبه ، فجن جنونه ·· فزحف فوق التل ··· وأطلق الرصاص وقتل واحدا ·· ثم صرخ : آى ياولاد الكلب ، شيء انغرز فى جسده ، وألم حاد ، لحمه يتمزق ··

لم يبق من الأعداء الا اثنان ·· وهذا الافريقى ·· وقام الاثنان على أقدامهما واستدارا ·· وجريا ·· يحاولان الهرب ·· ولاحقهما رصاص عبد الهادى ·· ومحمود ·· وأحمد ·· وسقطا ··

ووقف الافريقى على قدميه رافعا ذراعيه فى الهواء ·· والدم ينزف من جسده ·· لقد استسلم العدو ··

وصرخ أحمد وهو يلتفت الى زملائه : بطل ضرب ··

وسكت صوت طلقات الرصاص ·· وساد سكون عميق رهيب ودخان من الرمال يتصاعد هنا وهناك ، كأنه آخر أنفاس المعركة ·

ورأى أحمد زميليه خالد وكمال ساقطين على الأرض ·· وتقلص وجهه ، وقال محمود وهو منبطح على الأرض : خالد وكمال انجرحوا ··

ولم يرد عليه أحمد ·· عاد ينظر الى الزنجى المنتصب أمامه رافعا ذراعيه ، ثم نادى زميله عبد الهادى من وراء التل الآخر والتفت الى محمود قائلا : روح شوف خالد وكمال ··

وزحف محمود ناحية التل الآخر ·· وقام أحمد واقفا فى بطء وفى حذر ·· والدم ينزف من كتفه ·· وقميصه ملوث بالدم والرمل ·· وعيناه تبرقان وسط وجهه المغبر ·· وشعر رأسه قد تراكمت عليه الرمال ، حتى بدا كأنه شعر أبيض ·· وهو لا يشعر بألم ·· ولكن كتفه ثقيل ·· ثقيل جدا ··

وقال لعبد الهادى : تعال معايا ·· وخللى بالك ليكون واحد منهم عامل ميت وهو صاحى ··

ونزل الاثنان من فوق التل واتجها في خطوات بطيئة نحو الزنجي .. وكل منهم مصوب مدفعه .. وأصبعه فوق الزناد .. واقتربا .. اقتربا أكثر ..

وقال أحمد في حزم وهو لا يحول عينيه عن الزنجي :

– شوف انت اللى راقدين ، واجمع سلاحهم .. وخد بالك ..

وسار عبد الهادى بين الجثث ، وكلما وصل الى جثة ضرب المدفع الرشاش الذى يجاورها ، بقدمه ، وأطاحه بعيدا عنها .. ومدفعه مصوب دائما .. مصوب الى الجثث .. ثم يقلب الجثة بقدمه ليتأكد أنها جثة قتيل ..

ومد أحمد قدمه وعيناه مركزتان على وجه الجندى السنغالى وضرب بقدمه السلاح الملقى تحت قدميه ، وقذفه بعيدا ثم خاطبه فى فرنسية مكسرة ، يأمره أن يفرغ ما فى جيوبه ..

وابتسم الجندى ، وبدأ يفرغ جيوبه ، ويلقى بما فيها على الأرض .. مطواة .. وعلبة سجاير .. وأوراق نقد فرنسية ، وحجاب ..

وعبد الهادى لا يزال يجوس بين الجثث .. وما كاد يصل الى احداها ويرفع قدمه ليقلبها .. حتى صرخ صرخة عالية .. لقد تحركت احدى الجثث وأطبقت على قدميه بيديها وأوقعته على الأرض .

وبحركة تلقائية استدار أحمد وأطلق على الجثة دفعة من الرصاص .. ثم خطا خطوات سريعة ، ووقف بحيث يكون فى موقع يستطيع منه أن يطلق الرصاص على الجثة المتحركة ، وعلى الجندى السنغالى فى وقت واحد .. وسكنت الجثة .. ولم يتحرك الجندى السنغالى ..

وقام عبد الهادى ، وأطلق دفعة اخرى من الرصاص على الجثة .. أطلقها فى حقد وغيظ .. ثم اتجه نحو الجثة الباقية ، وصاح :

– واحد لسه فيه الروح .. اخلص عليه ؟ !

وقال أحمد بسرعة وبلا تفكير : لأ ·· خذ سلاحه ·· وحاسب منه ··

وانحنى عبد الهادى فوق الجريح ونزع سلاحه الذى كان قابضا عليه بيده ، وبدأ يفتش جيوبه ويخرج ما فيها ··

والزنجى واقف منتصب وهو يبتسم ·· وبعد أن طاف عبدالهادى على الجثث بدأ يجمع الأسلحة ، ويضعها بجانب بعضها ··

ولوح محمود بيده من بعيد ·· ثم نزل من فوق التل ، وجاء يجرى ·· ووجهه متقلص ، وحاجباه الكثيفان قد طمستهما الرمال التى تكسو وجهه ·· وقال وهو يلهث :

ـ خالد حالته خطرة ·· وكمال مصاب فى جنبه ! ·

ونكس أحمد رأسه كأنه يفكر ·· وأشار الى الجندى الزنجى بفوهة مدفعه بأن يتقدمه ·· ثم سار وبجانبه محمود الى حيث يرقد كمال وخالد ·· وقال لكمال : مالك ؟ ··

وقال كمال وهو يحاول أن يبتسم والرمال تشرب دمه :

ـ يظهر خدت لى رصاصة ··

وقال أحمد : تقدر تمشى ؟ ·· قال كمال : أقدر ··

وتركه وذهب الى خالد ·· انه راقد مغمض العينين ·· تائه فى غيبوبة ·· والدماء تنزف من عنقه بغزارة ·· وحاول أحمد أن يكلمه ·· ولم يرد خالد ·· وانحنى فوقه وشىء من الدموع يلمع فى عينيه ·· ثم اعتدل وأخرج حافة قميصه من داخل بنطلونه ، ومزق منه شريطا ، بدأ يلفه حول الجرح ·· محاولة يائسة لايقاف النزيف ·· وتكلم الجندى السنغالى وقال وهو يشير بيديه : ان فى السيارة المصفحة أدوات اسعاف يستطيع أحمد أن يستعملها ·

وفكر أحمد بسرعة ··

ثم طلب من محمود أن يساعده على حمل خالد ·· ولكنه عاد وتذكر ·· من يحرس السنغالى اذا انشغل هو ومحمود فى حمل خالد ؟ ان كمال جريح وقد يقتله السنغالى اذا تركه معه وحيدا

وأخذ يتلفت الى السنغالى والى زميليه فى حيرة .. وكأنما فهم السنغالى حيرته .. فقال بفرنسـيته الزنجية انه يقترح أن يساعدهم فى حمل الجريح .. وسكت احمد قليلا ، ثم وافق ..

وحمل الجندى السنغالى خالد بمساعدة محمود ..

وقام كمال وحاول أن يقف على قدميه .. وصرخ .. آى .. ثم كتم صرخته وعاد يحاول أن يقف على قدميه ..

وساعده أحمد ، ولف ذراع كمال حول كتفه ليسـتند اليه ، وسار وراء السنغالى ومحمود ، وهو يشد كمال شدا .. وكتفه الآخر الجريح يزداد ثقلا .. انه لا يستطيع أن يحركه .. لا يستطيع أن يحمل مدفعه فى يده ، ووصلوا جميعا الى السيارة المصفحة ..

وعبد الهادى واقف وسلاحه مصوب الى الجثث ..

ووضعوا خالد على الأرض .. ورقد بجانبه كمال .. وأسرع السنغالى وأخرج صندوق الاسعاف من السيارة المصفحة .. انه يتصرف كأنه واحد منهم ، لم يعد فى حاجة ليستأذنهم كلما تحرك.

وبدأ السـنغالى ومحمود وعبد الهـادى ، يجرون الاسعافات لخالد وكمال .. اسـعافات سريعـة .. وحبوب قدمها السنغالى لتخفيف الالم .. ولتجميد الدم حتى لا ينزف .. واحمد جلس على الارض يفكر .. كيف يعودون ؟ .. ان أمامهم مسيرة ثلاث ساعات حتى يصلوا الى موقعهم .. كيف يسيرون كل هذه المسافة واثنان منهم جرحى ؟ .. وجريح فرنسى ، وهو نفسه جريح يحس بقواه تنزف مع دمه .. ؟ يجب أن يجد وسيلة ..

انهم لا يستطيعون أن يبقوا طويلا فى هذا المكان ..

قد تأتى داورية أخرى من دوريات الأعداء ، تقضى عليهم .. انهم فى أرض مشحونة بالأعداء ..

والتفت أحمد الى السيارة المصفحة .. سيارة الاعداء ..

وبرقت عيناه .. ثم أمر محمود وعبد الهادى بأن يحاولا ابدال

عجلة السيارة التى مزقها الرصاص : بسرعة ، بسرعة ، اننا فى خطر ..

وانتهى الجندى السنغالى من تضميد جراح خالد وكمال .. ثم جاء الى أحمد ليضمد جراحه ، فطلب منه أحمد وهو يبتسم له ابتسامة ضعيفة ، أن يتركه الآن .. ان التحرك من هذا المكان ، أهم لديه من تضميد جرحه ..

والتفت الجندى السنغالى الى محاولات محمود وعبد الهادى لتغيير عجلة السيارة .. محاولات يائسة .. فذهب اليهما .. وتولى بنفسه تغيير العجلة .. وفى دقائق كان قد نزعها ووضع مكانها العجلة الاحتياطية ..

وحملوا خالد وأرقدوه على أرض الجزء الخلفى من السيارة .. انه لا يزال غائبا عن الوعى ، ودقات قلبه ضعيفة .. لعل قلبه توقف ..

ثم ساعدوا كمال وأجلسوه بجانب خالد .. وهو يتألم .. ويحاول أن يكتم الألم .. فتنبثق الدموع من عينيه .. وأحمد ينظر اليه فى لهفة وهلع ، انه لن يموت ، لن يموت ، لن يموت ..

ثم حملوا الجريح الفرنسى ووضعوه أيضا بجانب خالد وكمال.

وجمعوا أسلحة الأعداء ، والأوراق والأشياء التى وجدوها فى جيوبهم .. وركب عبد الهادى فى الجزء الخلفى مع الجرحى ..

وركب أحمد أمام مقعد القيادة ، ومعه محمود ، وبينهما السنغالى ..

وحاول أحمد أن يقود السيارة .. انه لا يستطيع .. لا يستطيع أن يحرك ذراعه .. لا يستطيع أن يفتح عينيه .. لم يبق فيه شىء قادر على الحركة الا ذهنه ..

ومحمود لا يعرف قيادة السيارات .. وابتسم الجندى السنغالى ..

وتركه أحمد يقود السيارة ·· ومحمود يصوب اليه فوهة مدفعه ··

وقال أحمد للسنغالى وهو يدله على الطريق الذى يسير فيه :

ـ اننا نأخذك الى أصدقائك الحقيقيين ··

وابتسم الجندى ، وأخرج من جيبه منشورا مما كانت المخابرات المصرية توزعه بين صفوف الأعداء ، وتحض فيه الجنود السنغاليين على الانضمام الى شعب افريقيا فى مقاتلة أعداء افريقيا ··

وقال أحمد فى اعياء : أتدرى ؟ ·· لقد كنت أستطيع أن أقتلك ولكنى لم أفعل ··

وبرقت أسنان السنغالى وسط وجهه الأسود فى ابتسامة كبيرة ·

والسيارة تشق الأرض التى يحتلها الأعداء ، وتقترب من ضفة القنال ·· وفجأة تنبه أحمد الى شىء جديد ··

انهم ليسوا فى خطر من أعدائهم فحسب ··

انهم أيضا فى خطر من الجيش المصرى ·· فالجيش المصرى واقف على الضفة الأخرى ·· وسيرى سيارة فرنسية تقترب ·· وسيطلق عليها مدافعه ·· انهم محاصرون بالخطر ··

والتفت أحمد الى محمود ، وقال بسرعة : اقلع الفانلة البيضة اللى انت لابسها ·· قوام ! ·· وحاول محمود أن يتساءل ·· ولكنه لم يسأل ·· خلع قميصه ثم خلع فانلته البيضاء ··

وأمره أحمد أن يعلقها فى سارى الراديو الذى يعلو السيارة ·

راية السلام ·· لو صادفوا أعداءهم ، فستكون هذه الراية البيضاء ، خدعة يستغلونها ·· ولو رأى مواطنوهم السيارة الفرنسية ، فستحميهم الراية البيضاء ··

ووصلت السيارة الى ضفة القنال ، عند الموقع الذى تركوا فيه الزورق ·· وصلت فى سلام ·· ونزلوا منها ·· بسرعة ··

انهم لم يتوقفوا ليطمئنوا اذا كان خالد قد مات أم لا يزال حيا ·

وبسرعة جمعوا الأسلحة التى غنموها ·· والأوراق والأشياء التى وجدوها ·· ثم بدأوا يفكون المدفع المركب فى السيارة المصفحة وأخذوه ·· وأخذوا كل ما فى السيارة من خرائط واشارات ثم قلبوها ·· قلبوا السيارة ·· وأشعلوا فيها النار ··

محمود وعبد الهادى والسنغالى فعلوا كل ذلك ··

وأحمد جالس على الأرض لا يستطيع أن يتحرك ··

ونقلوا الجرحى ، والغنائم الى الزورق ··

وعبروا القنال ·· بسرعة ·· وصعدوا على الضفة الأخرى ·

وما كادوا يصعدون حتى أطبق عليهم جنود الجيش المصرى ·

ووقف أحمد يترنح فوق قدميه ·· وعيناه نصف مغمضتين ·· وصراخ ألم كبير بين شفتيه ·· ثم رفع يدا مهزوزة بالتحية العسكرية أمام ضابط القوة وهمس فى صوت ضعيف :

ـ أحمد زهدى ·· لواء الجامعات ·· كتيبة الحقوق ··

ثم سقط على الأرض ·· فاقد الوعى ··

٣٠

فتح أحمد عينيه كمن استيقظ من نوم هادىء عميق ، ومد بصره أمامه وهو راقد على جنبه ، وفوجىء برؤية صف طويل من الأسرة البيضاء ، وعلى كل سرير مريض ··

انه فى مستشفى ··

واهتزت رموشه فوق عينيه كأن ضوء الشمس يغمرهما ، ثم هم أن يستدير على جانبه الآخر ، فشعر بألم فى كتفه ·· ألم خفيف كوخزة دبوس ·· فرفع يده ووضعها على كتفه ، فاصطدمت بضمادات ··

انه جريح ••

واستدار على جانبه الآخر ، والتقت عيناه بوجه محمود يبتسم له ابتسامة كبيرة وهو جالس على حافة فراشه ••

وابتسم أحمد ابتســامة مشرقة ، وأحس بالاطمئنان كأنه وجد الارض التى يقف عليها ••

وقال محمود من خلال ابتسامته : صح النوم !

وقال أحمد فى صوت كسول وهو يطل خارج النافذة :

ـ احنا فين ؟ ••

وأجاب محمود : فى الاسماعيلية ••

وسكت احمد برهة كأنه يريد أن يشبع من وجه محمود ، ثم تعقد وجهه فجأة ونهض جالسا فوق فراشه كمـن تذكر شيئا ، وقال فى لهفة : كمال فين ؟ ••

وقال محمود وهو لا يزال يبتسم :

ـ كمال كان راقد جنبك على السرير ده ، والنهارده الصبح نقلوه على مصر ••

وقال احمد ولهفته لم تخمد : وازيه •• حصل له ايه ؟ ••

وقال محمود فى هدوء :

ـ حايعملوا له فى مصر عملية •• انما حالته كويسة ••

وقال أحمد وقد اتسعت عيناه : وخالد ؟ ••

وقال محمود وابتسامته ترتعش كأنه يبذل مجهودا كى يتجاهل سؤال احمد : انت عارف بقى لك اد ايه نايم ؟ ••

وسكت احمد وارتخت عضلات وجهه بعد أن لاحظ أن محمود لم يطمئنه على خالد ••

واستطرد محمود قائلا : بقى لك أربعة أيام •• كنت يادوبك تفتح عينيك ، وتروح نايم تانى ••

وقال احمد فى فتور : ياه ••

وعاد محمود يقول وصوته اكثر انطلاقا :

ـ وعارف ان الحرب خلصت ·· ؟

ورفع أحمد عينيه وقال فى دهشة : خلصت ·· خلصت ازاى ؟

وقال محمود : الانجليز أوقفوا القتال ·· وحاينسحبوا ·· ماقدروش علينا ··

ومد أحمد عنقه ناحية محمود ، وقال فى صوت يحشرجه انفعاله :

ـ مش معقول ··

وقال محمود فى حماس :

ـ مش معقول ليه ؟ هوه اللى عملناه شوية ·· تعرف حصل ايه ليلة العملية بتاعتنا ؟ ··

وقال أحمد وقد نسى خالد فى غمار انفعاله بالخبر المثير

ـ حصل ايه ؟ ··

وقال محمود وصوته يضج بالحماس :

ـ جت اشارة بأن الانجليز حايهاجموا ·· وصدرت أوامر بضرورة وقف الهجوم ولو لمدة أربعة وعشرين ساعة ·· وفى دقيقة واحدة كان كل الفدائيين متجمعين ·· وعارف عم أمين اللى كان فاتح دكان بقال فى فايد وكنا بنشترى منه السجاير ·· أتاريه يوزباشى مخابرات ·· وأتارى وراه تنظيم سرى من المتطوعين ، ماكناش نعرف عنه حاجة ·· وبصيت لقيت عم أمين البقال بقى قائد العملية ·· وخد معاه خمسين متطوع وراحوا على القنطرة ·· قنطرة غرب ·· ومعاهم تلات عربيات محملة بالديناميت ·· ورحت معاهم ·· حبوا يمنعونى ·· مارضيتش ·· ووصلنا هناك واخلينا البلد من الاهالى ·· لكن البوليس مارضيش يسيب البلد ، والمأمور اتخانق مع القائد ·· وقال له : انتم فاكرين ان دى شغلتكم لوحدكم ·· وجمع العساكر ، وانضموا للمتطوعين ، وبدأنا كلنا نكسر فى

أسفلت الطريق اللى بيفصل بين القنال والترعة الحلوة ·· ونحفر فيه ·· وحطينا فيه الديناميت ·· وكان معانا اتنين من سلاح المهندسين ·· ركبوا الفتيل ومشيوا بيه لبعيد ·· وحس الانجليز بينا وابتدوا يضربوا علينا ·· ولا همنا ·· فضلنا نحفر ·· ونحط الديناميت ·· واستشهد منا اتنين ·· تعرف عزوز صاحبى ·· الله يرحمه ·· استشهد ··

وتوقف محمود قليلا ريثما يبتلع ريقه وقال أحمد بصوت مبهور :

ـ وبعدين ؟ ··

واستطرد محمود قائلا وصوته يخفق بحماسه :

ـ وحطينا فى الأرض كميات من الديناميت تكفى لنسف بند بحالها ·· بقينا نحط الديناميت بالزكايب بتاعته ·· وابتعدنا ·· خدنا العربيات وجرينا بعيد عن منطقة الانفجار ·· وحصل الانفجار ·· ياهوه ·· عمرى ما سمعت صوت أقوى من كده ·· اتهيأ لى ان الدنيا اتزلزلت ·· حسيت انى انشلت من على الأرض وانهديت ··

وقال أحمد متعجلا : وبعدين ·· وبعدين ؟ ··

وقال محمود وهو يبتسم :

ـ تعرف حصل ايه ؟ الترعة ساحت على القنال ·· ورجعنا الى مكان الانفجار لقينا بحيرة غويطة ما تقدرش دبابات الانجليز ولا عربياتهم تعديها ·· وخدنا مراكزنا ورا البحيرة دى ·· وطبعا الانجليز كانوا سمعوا صوت الانفجار ، ووقفوا الهجوم ·· ما قدروش يعدوا ولا يهوبوا ناحية فايد ولا الاسماعيلية ·· وبقوا يبعتوا دوريات استكشاف وكل داورية تقرب ننزل فيها ضرب لما نطفشها ·· قعدنا طول الليل نضرب واحنا نايمين على بطوننا وسط الطين والمية ·· وبعد اربعة وعشرين ساعة بالضبط أعلن

قرار وقف القتال ٠٠ زى ما يكون الريس بتاعنا كان عارف ان القرار ده حا يصدر ، وان الانجليز حا ينسحبوا ٠٠

وصاح أحمد ووجهه متهلل : كفك على كده ٠٠

ومد ذراعه المجروحة ليخبط على يد محمود ، فآلمه الجرح ، وصاح ووجهه لا يزال متهللا : آى ٠٠

وقال محمود فى اشفاق : ما تحركش ذراعك يا أحمد ٠٠

وقال أحمد وهو يبتسم ابتسامة كبيرة : ولا يهمك ٠

وقال محمود : انت عارف انك شربت نص دم البلد ؟

وقال أحمد فى دهشة : ازاى ؟ ٠٠

وقال محمود وهو يضحك :

ـ فضلوا ينقلوا لك دم لغاية الدم اللى فى المستشفى ماخلص ، وحضرتك نايم ومستريح أربعة وعشرين قيراط ! ٠٠

وألقى أحمد رأسه فوق الوسادة ، وهو يتمتم :

ـ يا ترى دم مين اللى أخدته ؟ ٠٠

وقال محمود وهو يفتعل لهجة الجد :

ـ أنا سألت فى الموضوع ده ٠٠ اتضح انك خدت شوية من دم شكوكو ، على شوية من دم المعلم قورة بياع لحمة الرأس ، على شوية من دم الواد عوضين العلاف ٠٠ يعنى عملوا لك كوكتيل ٠٠ كوكتيل شعبى !

وضحك أحمد ضحكة خافتة ٠٠ ثم سرح خياله يتصور ملايين الناس وهم يزودونه بالحياة ٠٠ ورأى فى خياله ملايين الوجوه ٠٠ وخيل اليه أنه يعرف كل هذه الوجوه ٠٠ يعرفها معرفة شخصية ٠ يعرف شكوكو ، والمعلم قورة ، والواد عوضين ٠٠ و ٠٠ و ٠٠ كلهم يعرفهم ، ليس هناك شىء يفصل بينه وبينهم ٠٠ ليست هناك هذه الجدران التى كان يتصور أنها تقوم بين الناس بعضهم وبعض ، وتفصل بينهم ، تفصل بين عواطفهم وعقولهم ٠٠ ان دم النـاس يجرى فى عروقه ٠٠ ملايين من الناس ٠٠ كل الناس ٠٠ وأحس

بالدماء التى تجرى فى عروقه ·· أحس بها فعلا ·· أحس بها ساخنة متدفقة ·· أحس بها تبعث أنفاسه ، وتطلق نور عينيه وتثير عواطفه ، وتؤلف أفكاره ··

وتمتم كأنه يبتهل : كتر خيرهم ··

وقال محمود فى دهشة : مين هم دول ؟ ··

وقال أحمد وهو يبتسم : المعلم قوره ، والواد عوضين ··

وقال محمود : آه ·· العفو ··

وسكت أحمد ·· وعاد يسرح ·· أخذ يتصور المعركة كلها ·· لقد انسحب الانجليز والفرنسيون واليهود ·· وارتفعت فى نفسه دهشة ·· دهشة من هذا النصر ·· من كان يتصور أننا نستطيع أن ننتصر ·· ربما كان سر النصر ان قائد المعركة استطاع أن يتصور النصر ·· استطاع أن يؤمن بأن هذا الشعب يستطيع أن ينتصر على ثلاث دول تحاول الاعتداء عليه ··

وقال محمود كأنه يريد أن يشغل أحمد عن أفكاره :

ـ ده أتارينا كنا عاملين استعدادات ضخمة ·· تعرف استراحات شركة القنال اللى كنا بنفوت عليها ·· أتاريها كلها ملغمة ·· كل حتة فيها ملغمة ·· لو فتحت درج مكتب ينفجر لغم ·· لو قعدت على كرسى ·· ينفجر لغم ·· وكنت حاروح فى داهية وأنا راجع من القنطرة ·· دخلت أنا واتنين معايا استراحة من دول ·· ولقيت قلم حبر مرمى على مكتب ·· طلع فى دماغى انى ألطشه ·· تذكار ·· جيت أمد ايدى ، لحقنى الضابط ، وصرخ : ابعد ايدك ·· واتضح أن قلم الحبر عبارة عن لغم ·· يعنى كان زمانى دلوقت فى الجنة ·· وتعرف البيت اللى كنا عايشين فيه فى فايد ·· كان ملغم برضه ·· كنا بنام فوق ديناميت ·· ماكانش ناقص الا انهم يوصلوا الفتيل لأكرة الباب ·· وبعد كده اللى يدخل ·· الله يرحمه ··

وكان أحمد لا يزال سارحا ·· وصوت محمود يأتيه من بعيد

.. كان منطلقا بخياله وراء المعركة التى اشترك فيها .. المعركه التى قادها .. هل صحيح أنه استطاع أن يقود معركة ؟ أن يقتل ؟ وأن ينتصر على داورية من الفرنسيين تفوقهم عددا وسلاحا ؟ .. نعم .. لقد استطاع أن يقود معركة .. أى نوع من المعارك .. ولكنه لم يكن يدرى أنه يستطيع .. وأحس كأن فى داخله انسانا آخر ينظر اليه فى دهشة واعجاب .. لم يكن يحس بالغرور ، ولكنه كان يحس بالدهشة .. كأنه اكتشف نفسه .. اكتشف هذا الشىء الذى كان يحاول أن يكتشفه طول حياته .. الشىء الذى كان يرى بريقه ، ولا يدرى أين هو من نفسه ، ولا ما هى طبيعته ، كأنه جوهرة ثمينة فى منجم عميق مظلم .. لقد حفرت المعركة فى المنجم المظلم ، الى أن وصلت الى الشىء الذى يبرق ..

ورفع رأسه الى محمود فجأة ، وقال كأنه يريد أن يتأكد من أن المعركة التى خاضها لم تكن مجرد حلم :

ـ عملتم ايه فى العسكرى السنغالى ؟

وقال محمود فى بساطة :

ـ استلمته المخابرات .. ما اعرفش عملوا فيه ايه ؟ ..

وقال أحمد : والراجل الفرنساوى ؟ ..

وقال محمود وهو يهز كتفيه :

ـ نايم فى الأودة اللى جنبك .. وحالته خطرة ..

وقال أحمد : وعبد الهادى ؟ ..

وقال محمود : نزل مصر امبارح بالليل .. وبيسلم عليك ، وبيقول لك انه حايوصى أمه تعمل لك بيرام فيريك بالحمام .. عازمك عليه أول ما تنزل ..

وضحك أحمد ، وقال : ما تقوم بينا ننزل ..

وقال محمود : مش قبل ما يقول الدكتور ..

ودخل الضابط الشاب قائد الفدائيين ، يحمل تحت ابطه لفافة كبيرة ، وتقدم من فراش أحمد ووجهه متهلل .. وقام محمود واقفا،

ورفع يده بالتحية العسكرية ·· واعتدل أحمـد جالسا ·· وقال الضابط ووجهه متهلل : ازيك يا بطل ··

ورنت كلمة « بطل » فى أذن أحمد رنينا عجيبا ·· هل هو حقيقة بطل ·· انه لا يشعر بأنه بطـل ·· كل ما يشـعر به أنه هادىء مستريح ·· لا قلق ، ولا حيرة ، ولا ضياع ··

وعاد الضابط يقول وهو يشير الى محمود بالجلوس :

ــ الرياسة كلها بتتكلم عن الداورية بتاعتكم ·· اللى عملتوه ما كانش ممكن فرقة بحالها تعمله ·· و ··

وسكت الضابط كأنه اكتشف أن الكلام لن يسعفه فى الحديث عن بطولة الداورية ، ونظر الى محمود ثم عاد يقول لأحمد :

ــ محمود ما سبكش ولا دقيقة ·· من تانى يوم وهوه قاعد جنبك ·· ولما عرف ان الدم اللى فى المستشفى خلص ، مارضيش ان حد تانى يتبرع لك بدمه ·· اداك نص دمه ··

ونظر أحمد الى محمود فى دهشة ·· واحتقن وجه محمود وقال وهو يحاول أن يضحك :

ــ أصل كان دمى تقيل ، حبيت اخففه شوية ··

وظل أحمد ناظرا الى محمود فى دهشة ·· ثم تنهد ·· وسكت·

وقال الضابط : الدكتور بيقول انك تقدر تنزل مصر بكره ·· وجبت لك معـايا قميص وبنطلون وبلوفر ، على الله يطلعوا على قدك ·· وحا حضر لك بكره عربية ··

وقال أحمد فى صوت محشرج بانفعاله : متشكر ·· متشكر قوى ··

وقال الضابط : عندك سجاير كفاية ؟ ··

وقال أحمد : متشكر ·· ما بادخنش ··

وسادت برهة صمت ، لا تخلو من حرج ·· ثم ترددت الكلمات ثقيلة بطيئة ، كان عواطفهم وأحاسيسهم لا يكفيهـا الكلمات مهما بذلوا فى اختيارها ·· واخذ الضابط الشاب يروى لهم آخر الأنباء،

وقصصا من المعركة ، التى لا تزال دائرة فى داخل بور سعيد رغم قرار وقف القتال ٠٠ ثم قام واقفا ، وهو يقول :
ـ أسيبكم بقى ٠٠ بكره العربية حاتكون عندكم الساعة سابعة ٠
ثم مد يده وصافح أحمد وضغط على يده ، وقال وهو ينظر اليه كأنه يقيم له تمثالا بعينيه : أتمنى أشوفك فى مصر ٠٠
وتمتم أحمد : باذن الله ٠٠
ثم صافح الضابط محمود وشد على يده ، قائلا :
ـ خلينى أشوفك يا محمود ٠٠ وخرج ٠٠
وبقى محمود وأحمد وحدهما ٠٠ ومحمود يدير عينيه لايستطيع أن ينظر بهما الى وجه أحمد ٠٠ وأحمد ينظر اليه كأنه يبحث عن مكان فى وجهه يقبله منه ٠٠
ثم قال : أتارينى ٠٠
والتفت اليه محمود قائلا : أتاريك ايه ؟ ٠٠
وقال أحمد مبتسما : أتارينى من ساعة ما فتحت عينى ، وأنا نفسى فى الفطير المشلتت ٠٠ وقاعد أقول لنفسى ايه اللى خلا الفطير المشلتت يهف على ؟ ٠٠ أتارينى بقيت فلاح ٠٠ ودمى بقى دم فلاح ٠٠ !
وضحك محمود ، ووجهه يزداد احتقانا ٠٠
ومر اليوم وهما يتجادثان ٠٠ لا يفرغ حديثهما ٠٠ ولا تنتهى صور المعركة من خيالهما ٠٠ وقاما يتمشيان فى أروقة المستشفى ، وأحمد يسير فى خطى مهتزة ، ضعيفة ، وقد علق له الطبيب ذراعه فى رباط يتدلى من عنقه حتى لا يهتز أثناء سيره ولكن النشوة التى يشعر بها تشد خطاه وتبدد ضعفه ٠٠
وأخذا يطوفان ببقية الجرحى ، ويحييانهم ويتبادلان معهم القصص ٠٠
وقال محمود : تيجى نزور العسكرى الفرنساوى بتاعنا ؟ ٠٠
وفكر أحمد قليلا ، ثم قال : بلاش ٠٠

قالها فى حزم ·· لقد خاف أن تكون زيارتهما للأسير الجريح نوعا من الشماتة فيه ··

وأكل أحمد كثيرا ·· أكل طول اليوم ·· كان مدفوعا الى الأكل بشىء أكثر من شهيته ·· كان مدفوعا برغبة عارمة ليستعيد كل قواه كأنه يستعد لمعركة أخرى يريد أن يلحق بها قبل أن تفوته ··

وجاء المساء ··

وقال أحمد كأنه خجل من أن يسأل عن شىء يخصه :

ـ انا كان معايا مصحف ، ماتعرفش راح فين ؟ ··

وقال محمود : تلاقيه فى الدرج اللى جنبك ··

واندفع أحمد الى الدولاب الصغير الموضوع بجانب فراشه ، وفتح الدرج ·· وابتسمت عيناه ·· رأى المصحف وقد رسمت على علبته الذهبية خيوط من الدم ·· دمه ·· ورأى النقود التى كان يحملها وقد تجمد دمه فوقها ·· وبطاقته الشخصية ·· ومنديله مزينا ببقع حمراء غامقة ·· بقع الدم ·· وفرح ·· فرحة كبيرة ·· كأنه رأى صورته وهو فى ميدان القتال ·· ومد يده ، والتقط المصحف ·· واتسعت ابتسامته كأنه يقبل شهيرة ·· ثم وضع المصحف تحت الوسادة ·· ونام ··

ونام محمود على فراش بجانبه ·· تجمعهما ابتسامة واحده · وخيال واحد ··

★ ★ ★

واستيقظا فى الصباح الباكر ··

لعلها الساعة الخامسة ··

وخرج أحمد الى أروقة المستشفى ، وهو لا يزال بالجلباب الذى يلبسه الجرحى ، يبحث عن المطبخ ·· انه جائع ·· جائع جدا ·· ووصل الى المطبخ ، واستطاع أن يقنع الطباخين بأن يعطوه أكلا ·· أى ·· أكل ··

وعاد وهو يقضم بين أسنانه رغيفا محشوا بالجبن ..
وارتدى الثياب التى حملها له الضابط .. ان القميص ضيق قليلا ، لا يهم ..
وارتدى محمود ثيابه أيضا .. وراح الاثنان يتعجلان طعام الافطار .. ثم نزلا الى حديقة المستشفى فى انتظار السيارة التى وعدهما بها الضابط ..
وجاءت اليهما سيارة جيب يقودها جندى ..
وقال أحمد وهو يركب : خالد فين يا محمود ؟ ..
قالها بصوت طبيعى كأنه كان يضع سؤاله تحت لسانه منذ الأمس ..
وأجاب محمود وهو يتنهد : فى فايد ..
وقال أحمد للجندى السائق : فوت بينا على فايد يا شاويش .
وشوارع الاسماعيلية تستيقظ فى فرحة .. والناس تتجمع فى الشوارع ، وعلى وجوههم بشر ، وعيونهم تلمع .. ليس فى عيونهم غضب ، ولا تحد ، ولا حقد .. فى عيونهم نشوة .. فى عيونهم نصر .. فى عيونهم فرحة السلام .. ويتبادلون الضحكات .. وتتجمع الضحكات فى هتاف مدو .. انتصرنا .. انتصرنا .. ولحن النصر ينبعث من الراديو ..
وأحمد يطل على فرحة الناس ، ويحس بها فى صدره .. ويختلط احساسه بالفرحة مع ذكرى زميله خالد .. فيحس كأنه فرح به .. فرح بخالد .. وفرح له ..
ووصلت السيارة الى فايد ..
والناس فى فايد يسيرون فى مواكب هاتفة .. وزملاؤه الفدائيون الذين كانوا معه يضحكون ، ويهللون .. ورأى عم أمين البقال ، وهو فى ثياب مدنية ، فصاح به والسيارة تجرى :
ـ ادينى علبة هوليود يا عم أمين .. !
وضحك اليوزباشى أمين وهو يلوح له بيده ..

وصعدت السيارة الى فايد البلد ، ونزل منها أحمد ومحمود واتجها الى المقابر ..

وعند أطراف المقبرة .. نصبت لوحة صغيرة من الحجر ، كتب عليها بخط ساذج وباللون الأسود : « خالد عبد العظيم .. كتيبة الحقوق .. استشهد فى ٣ نوفمبر ١٩٥٦ » ..

ووقف أحمد ومحمود يقرآن الفاتحة .. وصورة خالد تملأ مخيلتهما .. ورآه أحمد وهو معه فى معسكر التدريب ، لا يكاد ينتهى من تدريبه حتى يسرع وينزوى بعيدا ليكتب خطابا غراميا . ورآه يوم خاف من الرصاص الذى كان يطلق فوق رؤوسهم أثناء التدريب .. ورآه يوم هرب من موقع الخصوص ليذهب وحده الى بور سعيد ، وظن زملاؤه أنه هرب خوفا .. ورآه وهو فى فايد يتعجل لقاءه بالعدو .. ورآه خلال داورية الاستكشاف وهو يتقدمهم فى جرأة كأنه فى رحلة صيد .. وعندما بدأ باطلاق الرصاص على الداورية الفرنسية ، كأنه خشى أن تفوته الفرصة .. ثم وهو منبطح على الأرض يطلق الرصاص ، ويقتل أعداءه .. ثم عندما تعجل النصر فوقف على قدميه ليتلقى الموت بصدره .. رأى وجهه الرقيق الوسيم ، وشعره الناعم المنسدل فوق جبينه .. ورآه رقيقا .. ورآه مقاتلا .. ورآه خائفا .. ورآه جريئا .. ورآه انسانا كاملا ، بكل ما فى الانسان من قوة وضعف .. بكل ما فى الانسانية من تردد واقدام ..

ورفع أحمد رأسه .. ولم يبك ..

ان احساسه ليس احساس الحزن على صديق مات .. انه احساس مختلف تماما .. كان خالد لم يمت .. انه فقط قام بدوره فى المعركة .. وكان بطلا ..

وقال محمود وهما يخرجان من المقبرة :

ـ سمعنا انهم حا ينقلوه مصر .. ويمكن يعملوا له مقبرة خاصة للشهداء فى بور سعيد ..

ولم يرد أحمد ·· ان أى مكان يرقد فيه خالد ، هو مكان البطل·
وعادا الى السيارة ·· وانطلقت بهما نحو القاهرة ··
وذراع أحمد مربوطة الى عنقه ··
والقاهرة تضج بالفرح ·· وكل الناس فى الشارع ·· تهتف ··
ولم يحاول أحمد أن يلتقط بأذنيه كلمات الهتاف ·· ان كل هتاف ينتهى الى معنى واحد ·· النصر ·· والراديو يذيع لحن النصر ·· اللحن الذى وضعه فتحى ·· ويتردد اللحن فى أذنى أحمد ·· ويقفز أنغاما علي شفتيه ·· ويحس أن هذا اللحن كان معه طول المعركة ·· كان صوت خطاه ·· وصوت مدفعه الرشاش ·· وكان مياه القنال ·· وكان رمال سيناء ·· وكان انفجار الديناميت ·· وكان ملايين الناس ·· وقد انتهت المعركة ·· وبقيت منهـا حريتنا ·· وهذا اللحن ··
وهز أحمد رأسه تعجبا ··
ان الفنان جندى من جنود المعركة ··
ان فتحى كان فدائيـا مثله ·· كان معـه ومع محمود وخالد وعبد الهادى ··
وتزاحم الناس حول السيارة الجيب التي يركبها أحمد ومحمود ويقودها الجندى ·· وقفزوا فوقها ·· لا أحد منهم يعرف أحمد ولا محمود ولا الجنـدى ·· ولكنهم يهتفـون ·· ويقفزون فوق السيارة ··.وأحمد يبتسم فى فرح ·· ويواجه عيون الناس بعينيه ، يبادلهم التهنئة بالنصر ··
وخرجت السيارة من الزحام ، وانطلقت فى شارع المنيل وقال محمود : أنا حانزل فى ميدان الجيزة ··
وقال أحمد : لأ ·· انت هاتيجى معايا ··
وقال محمود فى تردد : أصلى ·· و ··
وقاطعه أحمد : ماتعارضش ·· أنا لسه أومباشى ··
ووقفت السيارة أمام البيت فى شارع الاخشيد ·· ونزل منها

أحمد ، ونزل وراءه محمود ، وهو منكس رأسه لا يستطيع أن يرفعها الى البيت ·· وقال أحمد للجندى :

ـ اتفضل يا شاويش استريح واشرب فنجال شاى ··

وقال الشاويش مبتسما :

ـ متشكرين ·· أما أروح أشوف العيال ·· وحشونى ··

وانطلق الجندى بالسيارة ··

ودخل أحمد البيت ، واستقبله عم عبد الله البواب مهللا :

ـ سيدى أحمد بيه ·· الحمد لله على السلامة ··

ثم اندفع اليه واحتضنه الى صدره ·· وكلمة « سيدى أحمد بيه » ترن فى أذن أحمد وتنقله الى عالم آخر ، عالم غير الذى كان يعيش فيه ، انه كان هناك مجرد « أحمد » ·· جندى أومباشى ·· ولكنه هنا : أحمد بيه ··

وقال أحمد وهو يربت على ظهر عم عبد الله :

ـ ازيك يا عم عبد الله ، وحشتنا ··

وابتعد عنه عم عبد الله ، وقال منزعجا وهو ينظر الى الذراع المعلقة فى الرباط : مالك يا أحمد بيه ·· ؟ سلامة دراعك ·· !

وتنبه أحمد الى ذراعه المربوطة الى عنقه ، وقال : ولا حاجة ·

ثم نزع ذراعه من الرباط ، ورفع الرباط من حول عنقه ، وأعطاه لعم عبد الله قائلا : خللى ده عندك ··

ثم فرد ذراعه بجانبه ، والتفت الى محمود قائلا وهو يبتسم ويفتعل الوقار : اتفضل يا أستاذ محمود ··

وسار محمود بجانبه ، مرتبكا ، وبين شفتيه ابتسامة حائرة ، وحاجباه الكثيفان معقودان فوق عينيه ، كأنه يربط بهما ارتباكه ··

وهمس أحمد فى أذنه وهما يصعدان السلم :

ـ جمد قلبك ··

ودخل أحمد البيت ·· وصرخت نبيلة وهى تقفز من فوق المقعد الذى كانت تجلس عليه فى البهو الخارجى : آبيه أحمد ! ··

واندفعت اليه ، وتعلقت بعنقه ، والدموع تنبثق من عينيها وهى تردد :
ـ الحمد لله على السلامة •• ألف حمد لله على السلامة ••
وقال أحمد وهو يضمها الى صدره بكلتا ذراعيه ، وقد ضاع الألم من جرحه : وحشتينى يا بلبل ••
وفتحت نبيلة عينيها وهى لا تزال متعلقة بعنق أخيها ، ورأت أمامها محمود ••
وارتجفت ••
اهتزت رموشها فوق عينيها ، كأنها لا تصدق •
وأحس أحمد برجفتها ، فأطلقها من بين ذراعيه ، وقال وهو يضحك : أقدم لك الأستاذ محمود •• !
واحمر وجه نبيلة ••
وقال أحمد وهو يلتفت الى محمود وابتسامته الكبيرة بين شفتيه : أختى نبيلة ••
ومحمود لا يستطيع أن يرفع عينيه الى نبيلة •• ووجهه أشد احتقانا من وجهها •• ومد يدا مترددة يصافحها •• وصافحته •• لم تكن مصافحة •• مجرد ملامسة بالأيدى •• وكلاهما يحس بالحرج •• ويحاول أن يتخلص من حرجه ، فيدير عينيه عن الآخر ، ويلقى بهما فوق أحمد ، وبين شفتيه ابتسامة بلهاء ••
ونظر اليهما أحمد برهة ، ثم قال موجها الكلام الى نبيلة :
ـ أصل كان لازم أجيب لك هدية من القتال •• كنت حاجيب لك واحد سنغالى •• انما لقيت محمود أحسن ••
وضحك محمود ضحكة خافتة •• وأرخت نبيلة عينيها فى خفر ••
وصاح أحمد : فين ماما ••
ثم اندفع الى الداخل •• وظلت نبيلة واقفة مترددة برهة •• لا تدرى هل تبقى مع محمود أم تتبع أخاها •• وبلا تعمد منها

تبعت اخاها ‥ كأنها تريد أن تطمئنه الى أنها ليست وحدها مع محمود ‥ وقبل أن تخرج من البهو ‥ التفتت الى محمود ، وهمست : وحشتني ‥

ثم دخلت خلف أخيها ‥

وخرجت ليلى من غرفتها ، وصاحت : آبيه ‥ !

واخذها بين ذراعيه ‥ وقبلها ‥ قبلها كثيرا ‥ أكثر مما قبل أخته نبيلة ‥ ثم ابعدها عنه وهو يقول :

ـ وريني كده ‥

وأخذ ينظر فى وجهها مبتسما ‥ ان وجهها لا يزال نحيلا باهتا ‥ والحزن يملأ عينيها ‥ وفرحتها بلقاء أخيها تصبغ وجنتيها بحمرة خفيفة ‥

وقال احمد ضاحكا : تعالى بوسيني كمان ‥ أصل لما خدودك بتحمر بتبقى أحلى ‥ !

وانطلقت الدماء الى وجنتيها ، واندفعت مرة ثانية تقبل أخاها٠

ورأى أحمد أمه قادمة اليه من غرفتها ، وهى تهرول فى فرحتها ، وتردد : ابنى ‥ ابنى ‥

وترك احمد ليلى ، وأخذ أمه بين ذراعيه ‥ واحتضنها ‥ احتضنها بكل حبه لها ‥ واخذ يتأرجح بها كأنه يدللها ، ويردد وقد ألقى خده على خدها :

ـ وحشتيني يا ماما ‥ وحشتيني يا حبيبتى ‥ !

واحس وهو بين ذراعى أمه بالسلام ‥ أحس أن المعركة لم تنته الا الآن ‥ واغمض عينيه كأنه يريد أن ينام على خدها ‥

وابتعدت عنه أمه ، وقالت منزعجة وهى تتحسس كتفه بيدها :

ـ ايه ده يا أحمد ‥ ! انت متعور ؟ ‥

وقال احمد وهو يقبلها فوق خدها : دى حاجة بسيطة ‥

وقالت الأم : اتعورت ازاى ؟ ‥

وقال احمد : دى حكاية طويلة ‥ هى فين فيفى ‥ ؟

وردت ليلى : زمانها جاية ··
وسحب أحمد أمه الى غرفتها ·· وأجلسها فى مقعدها تحت النافذة ، وجلس قبالتها على الشيزلونج ، وأخذ يديها فى يديه وقال : خلينى أقعد أبص لك كده قد جمعة ·· !
وهمست نبيلة فى أذن ليلى ، وهما يسيران خلف أحمد :.
ـ آبيه جاب محمود معاه ··
وقالت ليلى فى فرح : والنبى ·· هو فين ؟ ··
وقالت نبيلة هامسة : قاعد بره ··
وقالت ليلى فى لهفة : أما أروح أشوفه ··
واتجهت ليلى الى البهو ، وتسللت بعينيها من خلال الباب المفتوح ، وألقت نظرة سريعة على محمود ، ثم عادت بسرعة الى أختها ، وهمست :
ـ ده قاعد مكسوف وحالته حال ·· انما ده شكله لذيذ قوى ·· ماكنتش فاكراه كده ·· ده مش باين عليه انه فلاح ··
وابتسمت نبيلة ، ورقصت ابتسامتها فوق وجنتيها ··
وانتبه أحمد الى همس أختيه ، والتفت الى نبيلة قائلا كأنه تذكر محمود : مش تروحى تقعدى مع محمود يا بلبل ·· مايصحش نسيبه لوحده ··
ووقفت نبيلة مترددة ، لا تستطيع أن تتحرك ··
وقام أحمد كأنه عدل عن رأيه ، وجذب أمه من يدها ، قائلا :
ـ تعالى يا ماما أعرفك بصاحبى ·· ده اللى أنقذ حياتى ·· ادانى دمه ·· نص دمى دلوقت من دمه ·· يعنى بأه أخويا وابنك ·
والتفت الى نبيلة وقال يداعبها ، وهو يبتسم :
ـ يعنى لو حب دلوقت يتجوز واحدة من أخواتى ·· ماتجوزلوش ·· الامام أحمد بن حنبل بيقول كده ! ··
وقالت نبيلة وهى تكور شفتيها فى دلال متزن : دمه ثقيل ··
وقال أحمد : مين ·· محمود ؟ ··

قالت : لا •• ابن حنبل ••

قال ضاحكا : الحمد لله مافيش حد فى عيلتنا حنبلى ! ••

وخرجوا كلهم الى محمود ••

وقدمه أحمد الى أمه وأخته ليلى •• والتفوا حوله •• ومحمود جالس بينهم وقد اشتد ارتباكه •• لا يعرف كيف يجلس •• يضع ساقا فوق ساق ثم يخفضها •• ويرتكز على مسند المقعد ثم يعتدل •• والعرق ينضح من كفيه •• وحاجباه الكثيفان يزدادان كثافة •• وأحمد يلحظ ارتباكه فيضحك فى سره •• ونبيلة تطل فى عيون أمها وأختها وأخيها ، كأنها تبحث عن آرائهم فى محمود •• والحديث يدور بينهم مقطعا •• أغلبه عن ذكريات المعركة ، وعن الرصاصة التى اصابت كتف أحمد ••

وقال محمود فى اخلاص : لولا أحمد ماكانش حد فينا رجع •• كان زمانا كلنا متنا ••

وقام أحمد واقفا وهو يقول ضاحكا :

ـ طيب أما أسيبك علشان تموت لوحدك ••

وعاد الى داخل البيت ، والتقط سماعة التليفون ، واتصل بشهيرة •• وسمع صوتها : آلو •• آلو ••

وسكت برهة وهو يحس أن الصوت الرقيق ينسكب فى أعصابه، كأنه يغسلها من تراب المعركة ، ثم قال وهو يبتسم :

ـ ازيك ••

وصاحت شهيرة : أحمد •• انت رجعت ؟

وقال أحمد وهو يضحك : لا •• لسه مارجعتش •• بعد عشر دقايق حا ارجع لك ••

وقالت شهيرة وصوتها يتهدج :

ـ كتير يا أحمد •• خليهم خمس دقايق ••

قال أحمد : برضه كتير خمس دقايق •• دقيقة واحدة بس

قالت كأنها تهمس : ما تتأخرش ••

ووضع سماعة التليفون ، ودخل غرفته ، وخلع ثيابه ثم دخل الحمام ·· وكان يشعر بالضعف ·· كأن فرحته أخذت منه كل قواه ·· ولكنه يقاوم ضعفه ·· انه يريد أن يستزيد من فرحته ·· يريد أن يشرب الكأس الحلوة كلها ، فى دفعة واحدة ·· وجرحه بدأ يؤلمه ·· ولكنه يحاول أن ينساه ·· ووقف تحت الدش ، وهو يبعد كتفه المجروحة عن الماء ·· وأحس كأنه انتقل الى النعيم ·· لم يكن يشعر من قبل بكل هذه المتعة وهو واقف تحت الدش ·· لم يكن يشعر بأن الحمام قطعة من النعيم ·· لم يكن يحس بمعنى كلمة « نعيما » التى يقولونها كلما خرج انسان من الحمام ·· ولكنه الآن يشعر بها ·· يشعر بكل شىء حوله ·· يشعر بقطعة الصابون المعطر ·· ويشعر بالمرآة المعلقة على الحائط ·· ويشعر بالبلاط القيشانى الذى يغطى الجدران حوله ·· ان كل شىء أصبح له لذة جديدة ·· ومعنى جديد ·· ومتعة جديدة ··

ولم يمكث طويلا تحت الدش ·· خرج بسرعة ·· وعاد الى غرفته ، وارتدى ثيابه ·· قميص وبنطلون وبلوفر ·· ثم خرج الى البهو ، والتفت الى محمود قائلا :

ـ خليك انت يا محمود ·· أنا نازل رايح مشوار وراجع تانى·

وقفز محمود واقفا وقال كأنه ينفى عن نفسه شبهة :

ـ لا ·· أنا جاى معاك ··

وابتسم أحمد ، وقال لوالدته :

ـ محمود حايتغدى معانا النهاردة يا ماما ··

وحاول محمود أن يعترض ، ولكن أحمد جذبه من يده قائلا :

ـ ياللا بينا ··

ونزل مع محمود ·· واتجها الى الجاراج ·· ونظر أحمد الى سيارته الصغيرة فى شوق وحنان ، وربت بكفه عليها قائلا .

ـ وحشتينى ··

وركب السيارة وبجانبه محمود ·· وأوصله الى ميدان الجيزة

.. واتفق معه على أن يعود اليه بعد ساعة .. ثم قاد سـيارته بسرعة الى الزمالك ... الى بيت شـهيرة .. ولم يتسـاءل خلال الطـريق كيف سيقابلها .. ولم يكن مترددا فى تصـوير موقف لقائهما .. لقد كان يعرف بالضبط كيف سيكون لقاؤهما ..

وأوقف سيارته أمام الباب ..

وشهيرة واقفة فى الشرفة تنتظره .

ولوحت له بيدها ، وجرت الى استقباله .. وفتحت له الباب وأخذها بين ذراعيه ..

وقبل أن تتكلم كانت شفتاه فوق شفتيها .

وقبلها .. انه لم يقبلها أبدا هكذا ..

قبلة ثابتة .. قوية .. فى قوتها رقة وحنـان .. قبلة رجل يعرف ما يريد ، ويستطيع أن يأخذ ما يريد ..

ورفعت شفتيها عن شفتيه ..

ونظرت اليه مبهورة الأنفاس .. وعيناها متسعتان .. كأنها تطل على عالم جديد ..

وهمست من خلال أنفاسها المبهورة : الحمد لله على السلامة .

ثم أعطته شفتيها ..

انها تريد شـفتيه كما لم تردهما من قبل .. هاتان الشفتان اللتان ذاقتهما الآن .. انه رجلها .. انها فتاته ..

وقالت وهى لا تزال ملتصقة به ، وذراعاها حول عنقه :

ـ أنا كنت خايفة عليك قوى يا أحمد ..

قال وهو يبتسم : ماكانش ممكن يحصل لى حاجة قبل مانتجوز .. تعرفى أنا قررت ايه ؟ .

قالت فى استسلام : ايه ؟ .

قال : قررت اننـا نتخطب الجمعة الجاية .. ونكتب الكتـاب الجمعة اللى بعديها ..

قالت وهى تختبىء فى صدره ، وترفع يدها فوق ظهره حتى

تصل بها الى أطراف شعره :
ـ زى ما انت عايز ·· زى ما انت عايز يا أحمد ··
وعادت الى شفتيه ··
وقال وهما يسيران الى داخل البيت ويدها فى يده :
ـ فين عمى وطنط ··
قالت وهى لا تزال تنظر اليه فى تعجب :
ـ زمانهم نازلين ·· أنا قلت لهم انك جاى ··
وجاء والد شهيرة وأمها ·· وجلسوا جميعا والفرحة تلمع على وجوههم ·· وشهيرة لا تزال تنظر الى أحمد فى تعجب ·· وكثير من الحب ·· انه انسان جديد ·· ليس فيه حيرة ، ولا تردد، ولا عذاب ·· انه الآن يعرف نفسه ·· انه ·· انه أقوى منها ·· وأحست بنفسها تنطوى تحت هذه القوة كأنها تتدفأ بها ·· أحست أنه يرفعها اليه ··
ولم يفاتح أحمد والدى شهيرة فى اعلان الخطبة ·· قرر بينه وبين نفسه ، أن يترك شهيرة تفاتحهما أولا ، قبل أن يتقدم اليهما رسميا ·· وقام ·· وهمس قبل أن يخرج فى أذن شهيرة :
ـ الساعة أربعة ·· فى النادى ··
وهمست : حاضر ··

★ ★ ★

وعاد الى محمود ·· ثم عادا سويا الى البيت ··
ووجد فيفى ·· واحتضنها ·· ثم أبعدها عن صدره ، وأخذ ينظر الى وجهها ·· انها أجمل مما كان يعتقد ·· لماذا كان يعتقد أن فيفى ليست جميلة ·· لا يدرى ·· ولكنه الآن يراها جميلة ·· وقال وابتسامته تتسع فوق شفتيه :
ـ فيفى ·· ايه الحلاوة دى كلها ؟
وابتسمت فيفى واصطبغ وجهها بلون الورد ، وقالت
ـ انت اللى باين عليك نظرك ضعف ··

وقال وهو يقبلها قبلة سريعة : بالعكس ·· أنا نظرى بأه أقوى·
ثم استطرد : فين أمين ؟ ··
وسحبت فيفى ابتسامتها وقالت فى غباء : ما اعرفش ··
وقال أحمد كأنه يلومها :
– مش كان حقه ييجى يتغدى معانا النهاردة !
وشعرت فيفى على الفور ان أمين كان يجب أن يكون موجودا · أحست كأنهـا قصرت فى حق أخيهـا لأنهـا لم تدع أمين الى استقباله ·· وقالت فى خفر لم يسبق أن بدا عليها ··
– ماكانش يعرف انك جاى ··
وابتسم أحمد كأنه صفح عنها ··
وجاء الخال ·· وصافح أحمد وهو ينظر اليه كأنه لا يصدق عينيه ·· ثم صافح محمود وهو أيضا كأنه لا يصدق عينيه ··
ان الدهشة دائما معقودة فوق وجه الخال ·· دهشة فيها نوع من الاستسلام ، كأنه لم يعد يستطيع أن يقاوم هؤلاء الشبان ··
وقال الخال وهو يستزيد أحمد من تفاصيل المعركة :
– مين كان يصدق أن الانجليز بعـد ما ينزلوا ينسحبوا ·· خللى بالك دول مش حايسكتوا ··
وقال أحمد : واحنا كمان مش حانسكت ··
والأم مشغولة فى الاشراف على المائدة ·· تروح وتغدو كأنها تعد فرحا ·· وقد لا يكون هناك ما يدعو الى كل هذا النشاط الذى تبديه ·· ولكنها لا تستطيع أن تهدأ ·· فرحتها أكبر من أن تدعها هادئة ··

ونبيلة جالسة تخالس محمود النظـر ، وتتبادل معـه بضـع كلمات ممزقة ·· انها لم تتعود بعد على لقائه وسط عائلتها ·· ولكنها تحس به أقرب اليها ·· تحس به كأنه داخل حياتها كلها ، بعد أن كان مستأثرا بناحية واحدة منها ·· وتحس بأن حبها يتخذ معنى جديدا ، وطعما جديدا ، ومسئولية جديدة ··

ومحمود يدير عينيه حوله ، يرقب كل شيء ·· وكل شيء جديد عليه ·· كأنه فى عالم مسحور ·· عالم كان يحلم به دون أن يراه ·· ثم يلقى عينيه فوق وجه نبيلة كأنه يحتمى بها ·· كأنه يسألها أن تقوده فى هذا العالم المسحور ··

وليلى جالسة بينهم ·· كأنها وجدتهم أخيرا ·· وجدت الزحام الذى يلهيها عن نفسها ·· عن المرارة التى تشعر بها ·· وهى لا تريد أن تتحرك من مقعدها · لا تريد أن تبتعد عن الزحام ·· تخشى أن تعود الى وحدتها ·· وتنقل عينيها بين أخيها ، ومحمود ونبيلة ، وخالها ، وفيفى ·· كأنها ترجوهم أن يظلوا دائما معها ·· وترجوهم ألا يكفوا عن الحديث لعل ضجيجهم يطغى على ضجيج عقلها وقلبها ··

وأحمد لا يتعب من ابتسامته ·· وينظر الى محمود ونبيلة فتتسع ابتسامته ·· ثم يتذكر أنه عاش حياته كلها لا يدعو أحدا من أصدقائه الى بيته ·· لقد كان بيته دائما عالما مغلقا ·· لا يسمح للحياة أن تدخل اليه ·· ولكنه يحس الآن كان نوافذ البيت كلها قد فتحت ، وتدفق النور ، وتدفق مع النور أصدقاؤه ··

والراديو يذيع أناشيد السلام ··

ثم ارتفع صوت جمال عبد الناصر يلقى خطابا · يعلن النصر ·

وسكتت العائلة تستمع الى خطاب الرئيس ·· وتدفق صوته الى أذنى أحمد ·· انه لا يحس بهذا الصوت كأنه يستنهضه ·· لا يحس به كالسياط ·· ولا يحس بالغيظ ·· انه يحس به كأنه هو الذى يتكلم ·· ويخيل اليه أنه لو فتح شفتيه فسيكون نفس الكلام الذى سيقوله جمال ·· انه قطعة من جمال ·· انه جمال ·· حارب نفس المعركة ·· وآمن نفس الايمان ··

وانتهى خطاب الرئيس ·· واجتمعت العائلة حول مائدة الغداء ··

ومحمود جالس بجانب نبيلة ·· ولم يستطع لا هو ولا هى أن يأكلا ·· وبعد الغداء قال أحمد لليلى :

ـ البسى يا ليلى علشان حاتنزلى معايا الساعة أربعة ··

وأشرق وجه ليلى ، وتلفتت الى أختيها كأنها لا تصدق ماسمعته، وقالت لأخيها : حانروح فين يا آبيه ؟

وقال أحمد مبتسما : حانتفسح ·· فسحة مدهشة ··

وقالت نبيلة : وأنا يا آبيه ··

وقال أحمد : لأ ·· ما اقدرش اخرج مع بنتين فى وقت واحد ·

وأشرق وجه الأم ، وهى تجمع كل أولادها فى نظرة واحدة ، وتفرح بفرحتهم ·· تحس بحياة جديدة تطرق باب البيت ··

وتلكأت ليلى بعد الغداء ، ثم اقتربت من أخيها وقالت :

ـ انت بتتكلم جد يا آبيه ·· حا اخرج معاك ··

قال : أيوه ··

ثم استطرد هامسا : حا اعرفك بشهيرة ··

قالت فى دهشة : شهيرة مين ؟ ··

قال : يا خبر ، ماتعرفيش شهيرة ·· تبقى ماتعرفينيش ·· !

وضحكت ليلى ·· كم مضى عليها دون أن تضحك ··

ونظرت الى أخيها كأنها تقبله بعينيها ، ثم دخلت غرفتها لتبدل ثيابها ··

٣١

وقفت ليلى أمام المرآة ترتدى ثيابها ، وبين شفتيها ابتسامة مرحة ·· انها أول مرة يدعوها فيها أخوها للخروج معه ·· وحدهما ·· انها لم تخرج معه من قبل الا فى صحبة أفراد العائلة ، ولزيارة بيت خالها ·· وهى فرحة ·· تحس انها ليست وحدها ··

تحس أن حياتها لا تزال مزدحمة ، وأن الدنيا لم تتخل عنها ·· وقد مرت عليها أيام طويلة كانت خلالهــا وحدها ·· وحدها مع العذاب ·· وقلبها المجروح ·· وكبريائها المحطم ·· وقد استسلمت فى تلك الأيام لليأس ·· اليأس من حبها ·· لم تعــد تحاول أن تسترد فتحى ·· أو تبحث عنه ·· لقد تأكدت أنه لن يكون لها أبدا ·· بل عرفت أنه لم يكن لها أبدا ·· كان شيئا مسروقا ·· لقــاء مسروقا ، وقبلات مسروقة ، وأحاديث مسروقة ·· ولم تكن تسرقه من زوجتــه فحسب ·· بل كانت تسرقه من المجتمع كله ·· من الناس ·· كأن حبها أشبه بمرض السرقة ·· وقررت أن تقاوم هذا المرض ·· ولم تعد تتساءل اذا كان فتحى يحبها أو لا يحبها ، واذا كان يحب زوجته أكثر أم أقل ·· لم يعد هذا يهمهــا ·· المهم أن حبهما مرض ، ويجب أن تقاوم هذا المرض ·· وساعدتها كبرياؤها المجروحة على المقاومة ·· ولكنها لم تكن تستطيع أن تستمر فى المقاومة الا اذا يئست ·· الا اذا أقنعت نفسها باليــأس ·· وقد اقتنعت باليأس من حبها ·· نفسها يائسة من الحيــاة كلها ·· وجدت نفسها غارقة فى ظلام ثقيل ممل ، يملأ عينيها ، ويملأ رأسها ويملأ قلبها ··

وقد حاولت كثيرا أن تبدد هذا الظلام ·· حاولت أن تعود الى الموسيقى ·· ولكنها لم تستطع ·· كانت تجلس أمام البيانو وتحاول أن تعزف عواطفها ·· ولكنها لم تكن ترى شيئا فى داخلها تترجمه أنغاما ·· ان فى داخلها شيئا أكثر من العذاب ·· ان العذاب شىء متحرك ، ولكن ما فى داخلهــا شىء لا يتحرك ، ولا ينبعث من خلاله ضوء ·· فى داخلها ظلام ·· ظلام اليأس ·· الظلام الثقيل الممل ·· فكانت أصابعها لا تكاد تتحرك فوق مفاتيح البيانو ، حتى تلهث ، وتحس بها تتراخى كأنها أشياء تموت وتذبل ·· فتضرب البيانو بعنف ، ويصدر عنه صوت كأنه صرخة منتحر ، ثم تقوم وتنزوى مع يأسها ··

وحاولت أن تتسلى بزيارة صديقاتها ، وأفراد عائلتهـا ·· ولكنهـا كانت لا تكاد تجلس بينهم حتى تجد نفسهـا تنزلق الى الظلام ·· وتسرح بعقلها بعيدا عنهم ·· وتزفر أنفاسا من الملل ثم لا تلبث أن تنصرف عنهم ·· لتنطوى فى وحدتها ··

وحاولت أكثر من ذلك ·· فكرت أن تبدد الظلام الذى يحيط بها بأن تفتعل علاقة مع رجل ·· أى رجل ، يلهيها عن يأسها ·· قد يعيد اليها بعض الأمل ·· قد يعوضها عن حب فتحى ·· وعن لمساته ·· وعن ·· قبلاته ·· رجـل يشغـل يومها ، ويشعـرها باهتمامه ·· يشعرها بأنها مخلوقة تستحق أن يهتم بها رجل ·· وكان من السهل عليها أن تقدم على هـذه المحاولة ·· يكفى أن ترفع سماعة التليفون وتتصل بأى شاب من الجيران أو من الطلبة الذين كانوا معها فى معهد الموسيقى ·· ولكنها لم تستطع ·· شىء أقوى منها يمنعها · ·كبرياؤها ، مبادئها ، نظافة قلبها ·· ثم ان فتحى لم يكن مجرد رجل ·· لم يكن أى رجل ، حتى تعوضه برجل آخر ·· كان فتحى حبا ·· حبا ينبعث من قلبها ·· فتحى لم يكن شيئا خارجا عنها ، كان شيئا فى داخلها ·· كقلبها ، كرئتيها ·· وهى لا تستطيع أن تستبدل قلبا بقلب ، ورئة برئة ··

وتمادت فى استسلامها لليأس ·· وامتص اليأس كل شبابها ، ومسح كل ابتساماتها وشل كل نشاطها ·· أصبحت فتاة عجوز ·· عجوز لم تتم التاسعة عشرة ·· أصبحت تجلس جلسة العجائز ، وتتنهـد تنهـدات العجائز ، وتتحدث حديث العجائز ، ولا يثـير انتباهها الا أخبار المصائب ·· كأنها تتعزى بمصائب الناس عن مصيبتها ·· كأنها تجد فى كل من تصيبه مصيبة واحدا من سكان عالمها ·· عالم اليأس ·· وأصبحت تتذكر أباها وتبكى ·· وتتذكر أخاها ممدوح وتبكى ·· ثم تتخيل أنه قد حدث حادث لأخيها أحمد وهو فى المعـركة ، فتبكى ·· تبكى بحرقة ·· كانت تتحدث عن أخيها وهو غائب فى القتال ، أكثر مما تتحدث عن أمها وأختيها ··

وكانت تسأل عنه أكثر مما يسألن عنه ·· وتشتاق اليه أكثر من شوقهن ·· وتبكى ··· تبكى كثيرا ·· ولم تكن تبكى أخاها ، ولكنها كانت تبحث فى أخيها عن شىء يثير عواطفها ، حتى يعينها على البكاء على نفسها · ·لعل البكاء يبدد بعض الظلام ، ويخفف بعض اليأس ··

وفرحت بعودة أخيها ··

فرحت فرحة صادقة ·· ولم يكن اطمئنانها عليه هو كل فرحتها ·· ولكن عودته أثارت فى البيت حركة ·· وعودته مع محمود أثارت حركة أكبر ··· وهى فى حاجة الى هذه الحركة ·· الى أشياء جديدة تراها ·· مواضيع جديدة تسمعها وتتحدث فيها ·· الى عواطف جديدة تعيش فيها ··

ودعوة أخيها لها لتخرج معه ، وليعرفها بشهيرة حركة جديدة أخرى ·· حركة مثيرة ·· انها تحس بدمائها تتحرك بعد أن جمدت طويلا ·· وتحس برئتيها تهتزان فى صدرها بعد صمت ·· وابتسامتها ··· لقد أوحشتها ابتسامتها ··

وأخذت ترتدى ثيابها وعيناها تبتسمان لابتسامة شفتيها ·· ووجدت نفسها تهتم بزينتها ·· ولم تكن تعتقد أن خروجها مع أخيها يمكن أن يثير فيها كل هذا الاهتمام بزينتها ··

وارتفع صوت أحمد من الممر الذى يفصل بين الحجرات صائحا : ياللا يا ليلى ·· الساعة بقت أربعة الا ربع ··

وقالت ليلى وهى تلقى نظرة أخيرة على المرآة :

ـ خلاص يا آبيه ·· جايه حالا ··

واطل أحمد عليها من باب الحجرة ، وقال هامسا وهو يبتسم ابتسامة كبيرة : شهيرة زمانها مستنيانا ·· لو كنت شفتيها ماكنتيش اتأخرت ده كله ·· كنتى بقيتى على نار زيى ··

وسكت فجأة وهو ينظر الى أخته فى اعجاب ·· الى شعرها الأصفر وقد جمعت ضفيرته خلف رأسها ·· وعينيها الملونتين وق

خطت حولهما بقلم الكحل فبرز لونهما وسط بياض بشرتها ·· وشفتيها الصغيرتين كوردة عذراء باهتة اللون على وشك أن تتفتح ·· ان أخته جميلة ·· أجمل البنات ·· انه يحس كأنه يزهو بها ·· كأنه يتحدى بها كل البنات ··

وقالت ليلى وهى ترى الاعجاب فى عينى أخيها ، فتحمر وجنتاها فى خفر : أنا خلصت خلاص ··

وخرجا من الغرفة ··

وخرجا من البيت ، والأم وفيفى ونبيلة يودعونهما ، كأنهن يرين أحمد وهو يفتح باب الحياة لليلى ··

وخرج معهما محمود ·· وركبوا جميعا السيارة ·· ونزل محمود فى ميدان الجيزة ·· وقاد أحمد السيارة الى نادى الجزيرة واحساسه بالزهو بأخته يزداد ·· ويلتفت اليها بين الحين والحين كأنه يريد أن يتأكد من أنه على حق فى زهوه ·· ويتصور شهيرة عندما ستفاجأ برؤية أخته معه ، فيزداد احساسا بالسعادة ، ولم يكن يتصور أن خروجه مع أخته يمكن أن يثير فيه كل هذه السعادة ··

لقد فوجىء بهذه السعادة ·· فهو لم يخرج معها ليكون سعيدا ، انما خرج معها لأنه قرر أن يساعدها على نفسها ·· وطوال الأيام التى قضاها بعيدا عنها وهو يفكر كيف يساعدها على نفسها ·· وقرر بينه وبين نفسه أنه لن يستطيع أن يساعدها الا اذا صفح عنها أولا ·· مهما كان ما فعلته ، فيجب أن يصفح ·· وما فعلته لا يمكن أن يسىء اليه أكثر مما يسىء اليها هى نفسها ·· فاذا بدأ بالصفح عنها فربما استطاعت أن تصفح عن نفسها ·· اذا تنازل عما أصابه فقد تتنازل هى عما أصابها ·· اذا نسى فقد تنسى ·· اذا فتح لها فى قلبه صفحة جديدة ·· فقد تفتح هى أيضا لنفسها صفحة جديدة ·· ولم يكن الصفح عن أخته سهلا عليه ، ولم يكن النسيان سهلا ·· بل انه لم يستطع أن يصفح الا عندما كشفت

المعركة عن قوة فى نفسه كان يجهلها ·· ولكن ماذا بعد الصفح ·· هل يتركها تخطىء فى الصفحة الجديدة التى فتحها لها ، كما أخطأت فى الصفحة القديمة ·· لا ·· يجب أن يكون معها فى كل سطر تكتبه من حياتها ·· ولكن كيف يكون معها وهو بعيد عنها ·· كل منهما يعيش فى عالم وحده ·· وكل منهما لا يرى الآخر فى عالمه ·· لا يراه فى عواطفه ، ولا تفكيره ·· انه لن يكون معها ، الا اذا عاش فى عواطفها وفى تفكيرها ·· الا اذا جمعهما عالم واحد ·· دنيا واحدة ·· مجتمع واحد ·· وربما كان هذا هو الخيط الذى يربط أفراد العائلة ، حتى تصبح عائلة ·· الخيط الذى كان يبحث عنه منذ شعر ــ بعد وفاة والده ــ أنه رب عائلة ·· ··

وقالت ليلى وهى تتودد اليه كأنها ليست متأكدة أن من حقها أن تتدخل فى شئون أخيها :

ــ أنت تعرف شهيرة من زمان ؟ ··

وقال أحمد وهو يفتح لأخته كل قلبه : متهيألى انى باعرفها من يوم ما اتولدت ·· ما اقدرش اقولك عرفتها امتى ، لأنى أنا نفسى مش عارف عرفتها امتى ·· ماكنتش عايش قبل ما اعرفها ··

وقالت ليلى وهى تضحك من كل قلبها : يا بختها ·· وبتقول لها الكلام الحلو ده ·· !

قال : لا ·· انما حاسة بيه ··

ثم استطرد يحدثها عن شهيرة فى حماس ·· عن كل شىء فى شهيرة ·· وهى تستمع اليه فى فرحة ·· مبهورة بفرحتها ·· انها لم تكن تعتقد أن أخاها يمكن أن يحب كل هذا الحب ·· لقد كانت تعتقد أنه يعيش فى دنيا لا يدخلها الحب ·· دنيا غير دنياها التى تعيش فيها هى وأختاها ··

ووصلا الى نادى الجزيرة ·· ودخلا الى الشرفة المطلة على حمام السباحة ، وأحمد ثابت الخطوات والنظرات ، يتلفت حوله فى

بشر وتفاؤل ، كأن الدنيـا كلها بين أصابعه يشكلها كما يريد ..
وليلى بجانبه مرتبكة .. لا تكاد ترفع عينيها حتى تخفضهما ..
وتحس بالعيون تنصب عليها ، فتزداد التصاقا بأخيها .. كأنهـا
تحتمى به .. انها المرة الأولى التى تدخل فيها نادى الجزيرة ..
فى خيالها طنين غريب .. طنين عالم مجهول محرم عليها .. انها
تجتاز الآن عتبة الباب المجهول .. وأعصابها منفعلة ، الى حد أن
يلهيها انفعالها عن نفسها .. عن عذابها ويأسها ..

وشهيرة جالسة مع اخيها ، ومدحت ، وبقية الشلة .. ورفعت
عينين دهشتين الى أحمد وليلى .. ورجحت أنهـا شـقيقته ..
ولكنها ليست متأكدة .. وركزت عليها عينيهـا .. ووجهها ..
وثوبها .. ومشيتها .. انها جميلة .. أجمل مما كانت تتصور
شقيقات أحمد ..

وأقبل عليهم أحمـد وبجانبه ليـلى .. وقام الشـبان وقوفا
وعيونهم المبهورة تنسكب فوق ليلى .. وقال أحمد يقـدم شهيرة
لأخته ضاحكا : شهيرة .. استريحتى بأه ..

ثم استطرد : أختى ليلى ..

ووقفت شهيرة تصافح ليلى ، ووجهها غارق فى الفرحة ..
وليلى تنظر اليها وابتسامتها لا تزال مهزوزة .. انها جميلة أنيقة
.. رقيقة .. لقد عرف أخوها كيف يختـار .. وكيف يحب ..
وهى ترى وجهها بجانب وجه أخيهـا ، كأنها تقيس كل وجه على
الآخر ..

واستمر أحمد يقدم لها بقية أفراد الشلة : منى .. مدحت ..
عصام ..

وجلست ليلى بجانب شهيرة .. وتعمد أحمد أن يجلس بعيدا
عنها .. بجانب شهيرة من الناحية الآخرى .. كأنه يعود أخته
كيف تقف على قدميها وحدها ..

والتفتت شهيرة بكل جسمها الى ليلى ، وقالت وهى تضمها

بابتسامتها : أنا كان نفسى أشوفك من زمان ··
وقالت ليلى ، وهى تحس بقلبها يهفو الى شهيرة : وأنا من ساعة ما قاللى آبيه انى حا اشوفك ·· وأنا قاعدة أتصورك ·· نوبه بلوند ، ونوبة سمرا ، ونوبة طويلة ، ونوبة قصيرة ··
ونظرت شهيرة فى عينى ليلى كأنها تحاول أن ترى نفسها فيها:
ـ ولقيتينى ايه ؟ ··
قالت وهى تبتسم ابتسامة كبيرة : أحلى من كل اللى اتصورته ··
وبدأ أحمد يتحدث ، وهو يرقب أصدقاءه وهم يحاولون التسلل بعيونهم الى أخته ·· ويبتسم ·· ان كلا منهم يحاول أن يثير اهتمامها ··
واستطرد أحمد فى حديثه حتى جذب اليه اهتمامهم كلهم ·· انه يتحدث فى ثقة ·· ثقة بلا غرور وبلا ادعاء ·· ولكنه فقط يستطيع أن يتحدث ·· ويستطيع أن يروى أفكاره فى هدوء ·· وأن ينتقى كلماته بلا حرج ·· انه هو نفسه ، لا أكثر ولا أقل ·· شخصية كاملة ·· ليست شخصية أحد غيره ·· انما شخصيته هو ·· انه يتحدث ويجذب اهتمام السامعين لأن موضوعه يستحق الاهتمام ·· ولأول مرة يلتف الاهتمام حول أحمد ، لا حول مدحت ·· ولأول مرة لا يشعر أحمد بغيرة من مدحت ، أو يعجز أمامه ··
وبدأ الحرج يزايل ليلى شيئا فشيئا ·· لقد جلست بينهم وهى لا تدرى كيف تجلس ·· لقد كانت تتصور أن بنات نادى الجزيرة لهن جلسة خاصة ، فأخذت تسرق النظرات الى شهيرة ومنى لترى كيف تجلسان ·· وبدأت تتكلم وهى تتصور أن بنات نادى الجزيرة لهن لهجة خاصة فى حديثهن ·· واحتارت ، هل تضمن حديثها كلمات انجليزية أم فرنسية ·· ولكنها شيئا فشيئا أخذت تسترد طبيعتها ، وصوت أخيها أحمد يرتفع بجانبها كأنه يطمئنها ·· وشعرت بالبساطة التى تحيط بها ·· وبدأت تجد فى نفسها الجرأة

لتتلفت حولها وترقب الوجوه ·· ثم وجدت نفسهـا تستطرد فى الحديث مع شهيرة كأنهما صديقتان منذ زمان طويل ·· ثم تنتبهان بعض الوقت الى حديث أحمد ·· ولا يلبثان أن يعودا الى حديثهما ·· وليلى تشعر بعينين تختلسان اليها النظر ·· عينان مهذبتان كأن صاحبهما يقدم لها نفسه ·· لقد قال لها أحمد اسمه ·· اسمه مدحت ·· ونظرت اليه ليلى بلا تعمد ·· مرة ، ومرتين ·· مش بطال ·· شكله لا بأس به ··

وقال أحمد بعد أن شرب الشاى : تيجى يا شهيرة نفرج ليلى على النادى ·· ؟

وقالت شهيرة : أنا كنت لسه حاقترح كده ·· بس كنت مستنية أما تخلص كلام ··

وقال أحمد ضاحكا : أنا عمـرى ما حاخلص كلام ·· ياللا بينا ··

وقام الثلاثة ·· وأحمد يسير بينهما ·· ومدحت يتبع ليلى بعينين مبهورتين ، وقد صمت على غير عادته ··

وشعر أحمد بالتعب ·· وجرحه يؤلمه أكثر ·· وسعادته تبدد ضعفه وألمه ·· ولكنه فى حاجة الى الراحة ·· كفاه مقاومة ·· وكفاه سعادة فى هذا اليوم ··

وعاد الثلاثة الى الشرفة ، وقال احمد لشهيرة هامسا : أول ما حاوصل حاضرب لك تليفون ··

وترك شهيرة مع أخيها ، وركب سيارته وبجانبه ليلى ، واتجه عائدا الى البيت ··

وقالت ليلى خلال الطريق ، والسعادة تمرح على وجهها :

ـ تعرف ان شهيرة مدهشة ·· لذيذة موت ·· !

وقال أحمد ضاحكا : اتفضلى ··

وقالت ليلى بحماس : احنا اتفقنا نبقى أصحاب ·· وأخذت نمرة تليفونها ··

ثم استدارت الى أخيها واستطردت : أقدر أعزمها عندنا يا آبيه ·· ؟

واتسعت ابتسامة أحمد كأنه وصل الى هدفه ، وقال بسرعة :

ـ طبعا ··

ثم التفت الى أخته ، واستطرد : حاتعزميها امتى ؟ ··

واعتدلت ليلى فى جلستها ونظرت أمامها بعينين مبتسمتين كأنها تتطلع الى عالم جديد يضمها هى وشهيرة ، وقالت كأنها تخاطب نفسها : بكره رب لها تليفون ، واتفق معاها ··

ووصلا الى البيت ··

ودخلت ليلى وهى تقفز فى خطواتها ، واستقبلتها أختاها بعيون متطلعة ، وصاحت نبيلة فى لهفة : رحتم فين ؟ ··

وأشارت لهما ليلى وهى تقفز نحو غرفتها ، ليلحقا بها · فجريا وراءها ، وقالت وهى تغلق الباب وراءهما ، كأنها تفاجئهما:

ـ شفت شهيرة ·· !

وقالت فيفى : شهيرة مين ؟ ··

وقالت ليلى كأنها تتهمها بالغباء : شهيرة بتاعة آبيه أحمد ··

وقالت نبيلة تتعجلها : شكلها ايه ·· ؟ احكى ··

وقالت ليلى فى حماس : جنان ·· شعرها شاتان ·· وعينيها تلحس ·· وشيك ·· شيك ·· تفضلى تقولى شيك لغاية بكره · وايديها تهوس ·· عمرى ما شفت صوابع أجمل ولا أرق من كده

وسكتت ليلى برهة لتلتقط أنفاسها ، وتعجلتها نبيلة قائلة

ـ وشفتيها فين ؟ ·

وقالت ليلى كأنها تتباهى على أختيها : فى نادى الجزيرة ··

وقالت نبيلة فى دهشة : رحتى نادى الجزيرة ؟ ··

وقالت ليلى : أيوه ·· وآبيه عرفنى بكل أصحابه ··

وقالت فيفى : تلاقيها من بتوع نادى الجزيرة المتقنزحين على الفاضى ··

وقالت ليلى كأنهـا تدافع عن نفسهـا : أبدا ·· دى بسـيطة ورقيقة ·· وبقت صاحبتى ·· واتفقت مع آبيه أحمد انى أعزمها عندنا ··

ثم استطردت هامسة : بينى وبينكم أنا شايفة ان آبيه أحمد واخد المسألة جد خالص ·· متهيـألى انهم خلاص اتفقـوا على الجواز ··

وقالت فيفى : يعنى يتجوزها من غير ما يقول لنا ، ومن غير مانشوفها ·· !

وقالت ليلى : بكره حاتشوفيها ، وحاتحبيها زى ماحبيتها ··

وقالت فيفى : وشفتى مين كمان ؟ ··

وقالت ليلى : واحدة اسمهـا منى ·· ماعجبتنيش قوى ·· وأصحاب آبيه ·· كلهم لطاف ومؤدبين · ·فيهم واحد اسمه مدحت شكله مش بطال ، انما عنيه جريئة شوية ··

وابتسمت ليلى كأنها لا تزال تحس بعينى مدحت فوق وجهها ·

وعادت نبيلة تسألها ·· وفيفى تسألها ·· والحديث لا يكف بينهن ··

ودخل أحمد غرفته ·· وبدأ يخلع ثيابه ويرتدى بيجامته ·· والتعب يفيض به ·· تعب لذيذ ·· يرخى كل أعصابه ·· واحس وهو فى البيجاما كأنه قد عاد ·· كأن الدنيا كلها قد هدأت ·· أحس بالسلام ·· منـذ متى لم يرتد بيجاما ·· منـذ تطوع فى الفدائيين ·· لقد كان ينام وهو فى معسكر التدريب ثم وهو فى المعركة ، بثيابه العسكرية ·· فرق كبير بين الثياب العسكرية ، والبيجاما ·· ليس فرقا فى الشكل ، لكنه فرق فيما يثيره كل منهما من احساس داخلى ·· انه الفرق بين الحرب والسلام ··

وخرج من الغـرفة ، وحمـل آلة التليفـون ، وعاد بها ·· واستلقى على فراشه ، ووضع التليفون على صدره ، ثم تنهد نهدة عميقة ·· الله ·· ما أجمل الفراش ·· انه لم يكن يعتقد أن فراشه

بمثل هذه النعومة ·· كأنه ينـــام على فراش من الحرير ·· من ريش النعام ··

ونفض عنه بعض تعبــه ·· وأدار قرص التليفـــون ، وقال لشهيرة ، دون أن يبدأها بالتحية ، كأنهما لم ينقطعا عن الحديث حتى يبدأه من جديد :

ـ قلتى لماما وبابا ؟ ! ··

وقالت شهيرة وصوتها يتدفق فى أذنيه رقيقا ناعما : على ايه

قال أحمد : على اتفاقنا ·· اننا نلبس الدبل الجمعة الجاية

وقالت شهيرة وحديثها يضج بابتسامتها : هم منتظرين اننـا نلبس الدبل فى أى وقت ·· انما قول لى ·· ايه اللى خلاك تغير رأيك ؟ ··

قال فى انكار : أنا عمرى ما غيرت رأيى

قالت : احنا مش كنا متفقين ما نلبسش الدبل الا بعد ما تلاقى شغل ·· !

وسكت أحمد قليلا ، ثم قال : انتى تفضلى الفساتين الجاهزة والا التفصيل ··

قالت فى دهشة : ايه مناسبة السؤال ده دلوقت ؟ ··

قال : بس جاوبينى ··

قالت : التفصيل طبعا ·· التفصيل أحسن من الجاهز ·

قال : والجواز كده برضـــه ·· لو اســتنيتى لغاية ما ألاقى شـــغل ، يبقى كأنك خدت جوز جاهز ، ولو اتجوزتينى من دلوقت تبقى بتتجوزى تفصيـــل ·· وأنا كنت غلطـــان ·· كنت فاكر ان الجاهز أحسن من التفصيل ·· انما عرفت ان التفصيل أحسن ·· عرفت اننا لازم نكون مع بعض من دلوقت ، علشان نكبر مع بعض من دلوقت ·· ونتعب مع بعض ·· تتعبى فى زى ما بتتعبى فى تفصيل الفستان ·· مش معنى كده انى فستان ·· انما أنا لقيت انك طول ما انتى بعيدة عنى ، وانتى واخده نص تفكيرى ·· يبقى

لازم نتجوز علشان تفكيرى يبقى كله معايا وأقدر أشتغل أحسن ·· أنا مش عايز أشتغل شغلة صغيرة يا شهيرة ·· عايز أشتغل شغلة كبيرة واكبر بيها ·· انما ضرورى أبتدى صغير ·· وما يصحش تسيبينى لوحدى وأنا صغير ·· لازم تكونى معايا ·· تساعدينى ·· لغاية ما اكبر ··

وقالت شهيرة فى صوت حالم : أنا عمرى ماحبيتك قد ماباحبك دلوقت ·· انت اتغيرت يا أحمد ·· انت حاجة تانية ·· انت لقيت نفسك اللى كنت تايه عنها ·· فاكر أما كنت بتقول لى انك مش لاقى نفسك ·· أنا متأكدة انك لقيتها ·· يا ترى لقيتها فين ·· ؟

وقال أحمد وهو يضحك ضحكة خافتة : لقيتها فى نفسى ·· بس كان لازم تقوم معركة علشان الاقيها ··

وقالت شهيرة : أنا حاروح دلوقت أقول لبابا وماما ··

وقال أحمد : لأ ·· استنى ·· كلمينى شوية ·· افضلى كلمينى لغاية بكره الصبح ·· احكيلى حكاية طويلة ·· قوليلى عملتى ايه من يوم ما سافرت ··

وقالت شهيرة وصوتها كرنين الفرحة : شوف يا سيدى ·· اتطوعت فى الهلال الأحمر زى ما انت عارف ·· وكنت ··

ثم استطردت قائلة :

ـ أحمد ·· انت نمت ؟ ··

وقال أحمد فى صوت خافت : لأ ·· لسه ··

واستطردت شهيرة تتكلم ·· تكلمت كثيرا ·· والتليفون فوق صدر أحمد ، والسماعة فوق أذنه ·· والتعب اللذيذ يرف فى أعصابه ·· وجفناه تسترخيان فوق عينيه ··

ودخلت أمه الى الحجرة لتدعوه الى العشاء ··

ووجدته نائما ·· والتليفون فوق صدره ، والسماعة فوق أذنه ·· وابتسمت ·· ورفعت التليفون ·· وسحبت السماعة برفق من يده ·· وسمعت صوتها ينبعث منها ·· فوضعتها على أذنها

برهة ‥ واستمعت الى صوت شهيرة ‥ وابتسامتها تتسع ‥ ثم قالت فى حنان : تصبحى على خير يا حبيبتى ‥ أحمد نام ! ‥

وألقت شهيرة السماعة بسرعة ، كأنها ضبطت متلبسة ‥

ووضعت الأم التليفون على الأرض ، ووجهها ينبض بالسعادة والطيبة ، ثم انحنت فوق ابنها ، تغطيه ، وتلمس جبينه بشفتيها ‥

٣٢

فتح أحمد عينيه بغتة ، وتلفت حوله فى ذعر ‥ ثم استراحت عيناه عندما وجد نفسه فى حجرته ، وابتسم وهو يعتدل جالسا فوق فراشه ‥ لقد رأى حلما مزعجا ‥ كان يحلم بالمعركة ‥ رأى خالد وهو يصرخ ثم يسقط صريعا ‥ ورأى كمال وهو يسقط مضرجا بدمه ‥ ورأى الجنود الفرنسيين وهم ينبطحون على الأرض وبنادقهم مصوبة اليه ‥ ورأى وجه الجندى السنغالى منتصبا أمامه ‥ ورأى نفسه يقتل ‥ ويقتل ‥ انه لا يستطيع أن يكف عن القتل ‥ ودماء غزيرة تحيط به وترتفع تحت قدميه ‥ وترتفع أكثر حتى تصل الى خصره ‥ وترتفع ‥ مزيد من الدم ‥ بحر من الدم يكاد يغرقه ‥

ولكن ‥ الحمد لله ‥ ان بحر الدم قد انسحب ‥ انه لم يعد فى حاجة الى القتل ‥ ان الدنيا سلام ‥ سلام فى بيته ‥ وسلام فى قلبه ‥

ومط جسده ، وشد ذراعيه الى أعلى ‥ ثم مرغ وجهه فى الوسادة ، كأنه يمسح ما بقى عليه من آثار المعركة ‥ ثم التقط ساعته ونظر فيها ‥ انها الخامسة والنصف صباحا ‥ وعاد يبتسم ‥

لقد تعود أن يستيقظ مبكرا كل هذا التبكير .. شيء اكتسبه من ميدان القتال ..

وأزاح الغطاء عن جسده ، وقفز واقفا .. انه يشعر كأن قوته كلها قد ارتدت اليه .. لم يعد يشعر بالضعف ، ولا بآلام جرحه .. وسار نشطا الى الحمام .. والبيت كله لا يزال نائما هادئا .. واغتسل .. ثم عاد وارتدى القميص والبنطلون .. ودخل المطبخ .. انه لم يدخل مطبخ البيت منذ وقت طويل .. منذ سنين .. كان المطبخ مكانا لا يشعر به داخل البيت ..

وبدأ يبحث فى المطبخ عن علبة الشاى والسكر .. قضى وقتا طويلا يبحث عنهما .. فتح كل الدواليب والأدراج .. وأخيرا وجدهما .. وأشعل موقد البوتاجاز .. ووقف يصنع لنفسه الشاى .. وعاد يبتسم .. لو دخلت أمه أو واحدة من أخواته الآن ، فلن تصدق عينيها . لن تصدق انه يستطيع أن يصنع الشاى لنفسه .

وحمل كوب الشاى وعاد الى غرفته ، وجلس الى مكتبه ، وأخرج حزمة من الأوراق البيضاء وضعها أمامه ، ثم امسك قلمه .. ورشف من كوب الشاى .. ثم كتب فى منتصف الورقة .. « كيف انتصرنا » .. وجر خطا تحت العنوان الذى كتبه .. ثم رشف رشفة أخرى من كوب الشاى .. وسرح فكره برهة .. انه يعرف تماما لماذا انتصرنا .. يعرف الأسباب الشعبية ، والسياسية ، والدولية ، التى أحاطت بالنصر ..

وانحنى فوق الورقة بكل ذهنه ، وبكل أعصابه ..

وجرى قلمه .. لم يتردد كما تعود أن يتردد كلما هم أن يكتب .. ولم يشعر بالكلمات تنبثق من تحت قلمه ثقيلة جافة .. انه يكتب فى سلاسة .. كأنه يتكلم .. وذهنه صاف مشرق .. يستطيع أن يرى من خلاله الى بعيد .. والمعلومات والدراسات التى جمعها خلال قراءاته الكثيرة تتكشف أمامه ، دون حاجة الى أن يرجع اليها فى كتاب .. كأنه تسلم مفتاح الخزانة التى كانت

فى ركن من نفسه ، وكان يختزن فيها قراءاته .. كأن السحب قد انقشعت .. وخرجت معلوماته وآراؤه تلعب فى الشمس ..

وهو يكتب .. ويكتب .. ويكتب فى ثقة .. وفى سرعة .. كأنه واجه أعداءه بغتة ، ولا وقت عنده للتردد .. ونسى كوب الشاى ..

واستطرد يكتب .. ولا يدرى كم مضى عليه من الوقت ، وهو يكتب .. ولكنه رفع رأسه على صوت أخته ليلى تقول كأنها تعزف له لحن الصباح : انت صحيت يا آبيه .. ده أنا كنت عاملة حسابى أصحى بدرى علشان أدخل أصحيك ..

والتفت اليها وجذبها اليه برفق وقبلها ، قائلا : صباح الخير .

وقالت ليلى وهى تنظر اليه فى فرحة : أعمل لك الفطار ؟ .

قال وهو يعود الى الورق : لا .. مش دلوقتى ..

وتلكأت ليلى وهى تراه ينشغل عنها ، وعادت تقول :

ــ أنا حاسيبك أودتك بنفسى ..

وقال وهو يعود الى الكتابة : بعدين يا ليلى .. بعدين ..

وظلت ليلى واقفة تنظر اليه فى رجاء ، كأنها تخشى أن تتركه وتعود الى نفسها .. الى عالمها الحزين .. كأنها تخشى أن تفقد العالم الذى فتح لها أبوابه .. عالم النسيان .. ثم خرجت فى خطوات متثاقلة ، كأنها لا تريد أن تبتعد عنه ..

وعاد أحمد يكتب ..

ودخلت أمه ، وانحنت فوقه تقبله ، قائلة :

ــ صباح الخير يا أحمد .. صباح الخير يا حبيبى ..

وقال أحمد وهو يبادلها قبلتها : صباح الخير يا ماما ..

وقالت الأم : متهيأ لى انى بقى لى سنة ما قلتلكش صباح الخير .. ولو انى كنت باقولها لك كل يوم فى سرى ..

ونظر اليها أحمد فى حب ، وابتسامته تقبلها ..

واستطردت الأم قائلة : مش تقوم علشان نفطر كلنا سوا ..

وقال أحمد : معلهش يا ماما ٠٠ أصلى مشغول شوية ٠٠

وارتفعت فى نظرات الأم نظرات تساؤل ، كأنها لا تدرى فيم يمكن أن يكون ابنها مشغولا ٠٠ ثم ألقت نظرة سريعة على الورق الذى يكتب فيه ، ثم قالت :

– طيب يا حبيبى ٠٠ أنا حاستناك نفطر سوا ٠٠

وقال أحمد كأنه يرجوها :

– لا ٠٠ لا ٠٠ افطرى انتى يا ماما ٠٠ أنا لسـه حا اشتغل كتير ٠٠

وابتسمت الأم كأنها تطمئنه ، ثم خرجت ٠٠

وعاد يكتب ٠٠

ودخلت نبيلة ٠٠ ثم فيفى ٠٠ وكل منهما تقبله وتلقى تحيـة الصباح ٠٠ وتتركانه ليكتب ٠٠ وساد البيت هدوء متعمد ، كان كل من فيه يحترم رغبة أحمد فى أن يعمل ، ويحرص على أن يوفر له هدوءا يعينه على العمل ٠٠

وانتهى أحمد من الكتابة ٠٠

ومال بجسمه على ظهر المقعد ، وهو يشـعر بتعب ٠٠ تعب لذيذ ٠٠ وجرحه يؤلمه قليلا ٠٠ ولكنه ألم لا يقلل من لذة التعب ٠

ونظر الى ساعته ٠٠ يا خبر ٠٠ !

الساعة العاشرة ٠٠ لقد قضى أكثر من ثلاث ساعات ونصف وهو يكتب ٠٠ انه لم يشعر بمرور الوقت ٠٠ انه لم يشعر أيضـا بمرور الوقت الذى استغرقته المعركة التى قادها ٠٠ ان العمـل كالمعركة ٠٠ كلاهما يشغل الانسان عن وقته ٠٠

وأخذ يقرأ ما كتبه ٠٠ ودهش ٠٠ لم يكن يعتقد أنه يستطيع أن يكتب كل هذا ٠٠ وبكل هذه البساطة ٠٠ انه أيضا لم يكن يعتقد أنه يستطيع أن يقود معركة وينتصر فيها ٠٠

واستطرد يقرأ ما كتبه ٠٠ وصحح بعض الأخطاء ٠٠ وهو يكاد يرى بين السطور شخصا آخر ، شخصا لم يكن يعرفه فى نفسه ٠

وهم أن يضع ما قرأه فى درج مكتبه ·· ولكنه فكر قليلا ··
ثم اتجه الى دولابه وأخذ يرتدى الكرافتة ، ثم ارتدى الجاكتة ··
ثم طوى الأوراق التى كتبها فى حرص ، ووضعها فى جيب السترة الداخلى ، وضغط عليها بيديه كأنه يطمئن الى سلامتها ··

وخرج من الغرفة ، واتجه الى مائدة الطعـــام ·· ولحقت به ليلى ، وقفت بجانبه تكاد تلتصـــق به وقد ارتكزت بكوعيها فوق المائدة ·· وجاءت فيفى ونبيـــلة وجلســـتا حوله ·· وجاءت الأم وجلست قبالته · ·وكلهن يتطلعن اليه كأنهن ينتظرن منه أن يروى لهن حكاية ··

وقال أحمد : فطرتم ؟ ·

وقالت نبيلة :

ــ أنا استنيتك للساعة تسعة ، وبعدين ما قدرتش ··

وقالت فيفى وهى تحاول أن تبتسم : انت عارف أنا مابفطرش·

وقالت ليلى فى فرح : أنا لسه مافطرتش يا آبيه ، مستنياك ··

ثم جلست بجانبه ··

ودار أحمد بعينيه ، فوق علب المربى ، وقطع الجبن ، وصحن البيض ، ثم قال ضاحكا :

ــ ما عندكمش عدس ؟ ·· أنا خلاص خدت على العدس ··

وقالت الأم دون أن تدهش : بكره أخلى الطبـــاخ يحضر لك عدس ·

وقال أحمد ضاحكا : ماينفعش·· لازم عدس من بتاع الجيش

ثم التفت أحمد الى ليلى قائلا : حا تعملى ايه النهارده ؟·

قالت ضاحكة : حاستناك لغاية ما ترجع ··

وقال : ماتتمحكيش فى ، قولى ان ما وركيش شغله ولا مشغله

ثم نظر فى وجهها ، واستطرد قائلا : ما تبتدى تروحى المعهد تانى ··

وارتعشت رموش ليلى فوق عينيها ، وقالت وهى تحاول أن تضحك : أنا كبرت بقى يا آبيه ..

وقال أحمد جادا : ما حدش يكبر على الموسيقى .. انت كسلتى مش كبرتى .. !

قالت ووجهها يحمر كأن أحمد مس جرحها :

ـ بس أنا نسيت كل اللى اتعلمته ..

وقال أحمد : وماله .. ابتدى من جديد .. خدى بعضك دلوقتى ، وروحى المعهد .. واذا مارضوش يقبلوكي ، قوليلى وأنا أروح أكلم الأستاذ تيجرمان ..

وقالت ليلى : انت تعرفه ؟ ..

وقال أحمد وهو يبتسم فى ثقة :

ـ هوه ضرورى أعرفه علشان أكلمه ..

وقالت نبيلة : لك حق يا آبيه .. لازم ليلى ترجع المعهد ..

وقالت فيفى وهى تبتسم ابتسامة صغيرة :

ـ علشان الدوشةترجع تانى .. وما اعرفش أذاكر .. !

ونظرت الأم فى وجه ابنها كأنها تسأله عن قصده .. هل يعرف أن الموسيقى هى التى جمعتها بفتحى ، وأفسدت كل حياتها ..؟ وقالت كأنها تضن بابنتها عن أن تجرب حظها مرة أخرى :

ـ ما بلاش المعهد ده يا أحمد .. ليلى دلوقت كبرت وما بقتش صغيرة .. اذا كان علشان تلاقى حاجة تشغل وقتها ، نجيب لها مدرس فى البيت ..

وقال أحمد فى حزم رقيق :

ـ المعهد أحسن يا ماما .. وليلى مش كبيرة .. ولا حضرتك.

واحمر وجه الأم من مداعبة ابنها لها ..

والتفت أحمد الى ليلى ، قائلا : حا تروحى النهاردة ؟ ..

وقالت ليلى فى صوت خافت ، وقد تعكرت نظرتها : حاضر .

ثم رفعت رأسها ، وقالت فى اصرار : حا روح ..

وابتسم أحمد فى مرح ، وقام بعد أن انتهى من طعامه ، وقال لأمه : أنا حا أقابل محمود ، ويمكن أجيبه يتغدى معانا ··

وقالت الأم ووجهها يضحك :

ـ أهلا وسهلا ·· ده أنا حبيته قوى ·· مؤدب ومتربى وباين عليه ابن ناس ··

واتسعت ابتسامة نبيلة ، وارتخت عيناها فى خفر ، والتفت اليها أحمد كأنه يضبطها متلبسة بخفرها ، وقال :

ـ انتى ما رحتيش الشركة ليه النهاردة ؟ ··

قالت : خدت أجازة ·· ضربت لهم تليفون ·· كنت فاكراك مش حاتخرج النهاردة ، وحا نقعد معاك ··

قال أحمد : دى باين الشركة مدلعاكى قوى ·· ؟ !

قالت نبيلة : يا ريت ·· ده الرئيس بتاعى لسه خاصم على يومين أول امبارح ، علشان نسيت سطرين فى جواب ··

قال أحمد : تستاهلى ··

وقالت الأم :

ـ مش حا تروح للدكتور علشان يشوف الجرح بتاعك ؟ ··

وقال أحمد كأنه يتباهى :

ـ حافوت على المستشفى العسكرى علشان يفكوا لى الرباط ·

وقالت الأم فى اصرار :

ـ لا ·· لازم تروح للدكتور اسماعيل محرز ·· أنا ما اطمنش الا اذا طمنى عليك محرز ··

وقال أحمد وهو يبتسم لها :

ـ حاضر ·· وحاروح للدكتور محرز كمان ··

ثم التفت الى أخته فيفى ، واستطرد وهو يستدير خارجا

ـ ما تنسيش تقولى للأستاذ أمين ييجى يتغدى معانا ··

ولوت فيفى شفتيها ، وقالت فى يأس ومرارة : لو شفته ··

وسار أحمد بضع خطوات ، ثم توقف كأنه قرر شيئاً وعاد

يلتفت الى فيفى وقال وهو يبتسم : فيفى ·· تسمحى كلمة ··
وجاءت اليه فيفى ، وأمسكها من يدها وسحبها الى ركن من البهو ، وقال هامسا : قوليلى ·· فيه حاجة مزعلاكى ؟ ··
ودهشت فيفى ·· كست الدهشة كل وجهها ·· ان أحدا من أفراد عائلتها لم يسألها أبدا عن سر غضبها ·· وأحمد بالذات ·· انهم جميعا يأخذون غضبها وتجهمها وسلاطة لسانها على أنه طبيعة فيها ·· ويتحملونها دون أن يحاولوا التخفيف عنها ·· ان أخاها قد فاجأها بسؤاله ·· سؤال لم تكن تنتظره ·· وفى برهة سريعة حاولت أن تكتشف سر غضبها ·· انها فعلا غاضبة ·· ولكن لماذا ؟ انها لا تدرى ·· أو على الأقل لا تستطيع أن تقنع نفسها بالأسباب التى تفتعلها لغضبها ··
وقالت وهى تخفى عنه عينيها : لا ·· أبدا ·· مش زعلانة ·
وقال أحمد وهو يتودد اليها بابتسامته :
ـ بتخبى عنى يا فيفى ·· أنا مش أخوكى ؟ وأخوكى الكبير كمان ·· !
وقالت فيفى : أبدا يا آبيه ·· مافيش حاجة ·· ما أنا كويسة أهه ·· !
وقال أحمد كأنه يساعدها : حصل حاجة بينك وبين أمين ؟
وقالت بسرعة : لا ·· ماحصلش حاجة ·· بس ··
وقال بسرعة : بس ايه ؟ ··
قالت همسا ، وهمسها كأنه دخان خشب يحترق :
ـ بس كل حاجة معقدة ·· مافيش حاجة أعملها الا وتتعقد ·· والنحس ملاحقنى ·· فاكر يوم ما أمين جه يخطبنى ·· حصلت حادثة ممدوح ·· ويوم ما كنا حانكتب الكتاب قامت الحرب ·· و ·· وقاطعها أحمد وقد ازداد رقة : وأمين ذنبه ايه ؟ ··
قالت فى حدة : قدمه شؤم ··

قال فى بساطة : ما تبقيش عبيطة •• انتى متعلمة وما يصحش تقولى الكلام ده ••

ولم ترد فيفى ، وراسها منكس ••

واستطرد أحمد قائلا : انتى مش بتحبيه ؟ ••

قالت كأنها تهم بالبكاء : مش عارفه يا آبيه •• مش عارفة • أنا زهقانة ، وطهقانة •• ومتهيأ لى أطفش من البلد دى ••

قال وهو ينظر اليها كأنه يمسح عذابها بعينيه :

ـ ما انتى حا تطفشى : وحا تسافرى مع أمين فى البعثة ••

قالت وهى تزفر أنفاسها : والبعثة كمان اتلغت ••

قال فى ثقة : بكره ترجع تانى •• صدقينى ••

قالت : مين عارف ، ما أظنش ، كل حاجة باتمناها مابتحصلش•

قال : انتى مش كنتى تتمنى ان الانجليز ينسحبوا ، وأخوكى يرجع بالسلامة ؟ ••

قالت وهى لا تنظر اليه : أيوه ••

قال : أهم الانجليز انسحبوا •• وأنا رجعت •• رجعت مجروح صحيح •• انما رجعت ••

وسكتت فيفى ، والدموع فى عينيها ••

واستطرد أحمد قائلا فى حنان : حاتقولى لأمين ييجى يتغدى معانا •• ولم ترد ••

واستطرد وهو يجذبها اليه : علشان خاطرى ••

وضمها الى صدره ، وقبلها فوق جبينهـا •• وهمست فيفى مبهورة بحنانه : حاضر ••

وابعدها أحمد عن صدره ، ووضع يده تحت ذقنها ورفع وجهها اليه ، وقال مبتسما : تسمحى تبتسمى ••

وابتسمت فيفى ابتسامة صغيرة ••

وقال أحمد : كمان •• عايز ابتسامة أكبر من دى

واتسعت ابتسامة فيفى ••

وقال أحمد : الله ·· اجرى ابتسمى قدام المرايا ، علشان تشوفى بتبقى حلوة أد ايه · ·دى ابتسامتك تهوس ··

وضحكت فيفى ملء قلبها ··

ونظر أحمد الى ساعته وقال : ياه ·· ده أنا اتأخرت قوى ··
وخرج فى خطى مسرعة ·· وفيفى تنظر وراءه كأنها تمسح على ظهره بعينيها ··

وركب سيارته وقادها الى ميدان الجيزة ، وهو ينظر الى الناس فى الطريق بعينين مبتسمتين ··

ووجد نفسه يسترجع فقرات كاملة مما كتبه فى الصباح ·· كأنه يرتلها ·· كأنه يحفظها عن ظهر قلب ·· ثم بدأ يناقش نفسه فيما كتبه ·· لعل من الأفضل أن يحذف هذه الفقرة ·· انها خارجة عن الموضوع ·· ولعل من الأفضل أن يغير هذه الكلمة ·· والعنوان : « كيف انتصرنا » ·· انه عنوان عادى ، لعله استعمل من قبل ·· لماذا لا يجعله : « طريق النصر » ·· انه يكون أوقع ·· لا ·· لا ·· سيترك المقال كما كتبه ·· لن يغير منه شيئا ·· انه لو بدأ يغير فيه ، فلن ينتهى ، وقد يعدل عنه كله ·· وسيحمله كما هو الى مجلة « الوعى » ويقدمه بنفسه الى رئيس التحرير ·· وهو لا يعرف رئيس التحرير شخصيا ، ولكنه يعرفه من كتاباته ·· انه من قراء مجلة « الوعى » منذ زمن طويل ·· وقد تلقى خيوط وعيه من فوق صفحاتها ·· وهو يفضل أن ينشر مقاله فيها ·· انه يتفق معها فى سياستها ·· ثم انه يعتقد أن نشر المقال فى مجلة أسبوعية أفضل من نشره فى جريدة يومية ·· ان المقال فى المجلة الاسبوعية يعيش أكثر فى ذهن القارىء ·· و ·· ولكن ·· هل يستطيع أن يقابل رئيس التحرير ·· ان من حقه أن يقابله ، لا بصفته الشخصية ولكن بصفته رئيس التحرير ·· على كل حال ، سيحاول ·· انه لم يكن متأكدا من النصر فى المعركة ، ولكنه حاول وانتصر ·· فليحاول أيضا أن يقابل رئيس التحرير ··

ووقف بالسيارة على جانب من ميدان الجيزة ‥ ونظر فى ساعته ‥ انها الحادية عشرة الا ربع ‥ وموعده مع محمود الساعة الحادية عشرة ‥ لماذا لا يذهب اليه فى بيته بدلا من انتظاره ربع ساعة ؟ ‥ انه يعرف العنوان ‥

وقاد سيارته الى شارع سعد زغلول المتفرع من ميدان الجيزة ثم سأل أحد المارة عن حارة الشوربجى ، فدله عليها ‥ وأوقف سيارته على باب الحارة ونزل منها ، وسار على قدميه ‥ يخطو خطوات قوية ‥ خطوات الناجحين ، كما كان يتصورها ويتمنى أن يخطوها ‥ يرفع قدمه وينزل بها على كعب حذائه ، ثم يضع بوز الحذاء برفق ‥ وحذر ‥ الناجح ليس فقط انسانا قويا ولكنه أيضا انسان حذر ‥

ورفع رأسه الى البيت القديم ، وأحاط به فريق من الأطفال يتطلعون اليه كأنهم يحاولون أن يتذكرونه ، ثم سأله واحد منهم :

ـ حضرتك عايز مين ؟ ‥

قال مبتسما : الأستاذ محمود عبد الفتاح

وأجاب طفلان فى نفس واحد :

ـ سى محمود فى الدور التانى ‥ الشقة اللى على اليمين ‥

ودخل أحمد فى فناء البيت ، وصعد درجات السلم المتآكلة الغارقة فى الظلام ‥ ولم يثر قدم البيت فى نفسه شيئا ، ولا مظاهر الفقر التى تحيط به ‥ مظاهر طبقة غير طبقته ‥

ووقف ينقر على باب الشقة بأصبعه ‥

وفتح له محمود وهو مرتد ثيابه الكاملة ، وما كاد يراه حتى صاح فرحا :

ـ أحمد ‥ ده انا كنت لسه نازل رايح اقابلك ‥ اتفضل ‥

وقال احمد وهو يدخل :

ـ انا أصلى خرجت بدرى ، قلت أفوت آخدك من البيت ‥

وتلفت حوله ‥ كنبه ومقعدين من القش المتآكل ، موضوعة

فوق بلاط الغرفة ·· وجلس على مقعد ، ومحمود يقول ووجهه غارق فى فرحته : أعمل لك قهوة ·· بس سادة ·· ما عندناش سكر ·· أصل ساكن معانا واحد بيسف السكر سف ··

وقال أحمد : بلاش قهوة ·· علشان ننزل قوام ··

ولم ينتبه محمود فى فرحته ، الى الفارق بين بيته وبيت أحمد ·· لقد اختفى هذا الفارق منذ عاشا سويا فى خيام المعسكر، وفى الخنادق ، وناما على الأرض فى فايد ·· ولكنه ما كاد يجلس بجانب صديقه حتى انتبه الى هذا الفارق ، وبدأت فرحته يشوبها نوع من الحرج ، والضيق ·· وحاول أن يتغلب على حرجه فلم يستطع ·· وبدأ يتكلف فى جلسته وفى حديثه ، ثم قال فجأة وبلا مناسبة :

ـ والله أنا بافكر انى أسيب البيت ده ·· أصلى ساكن فيه أنا وجماعة أصحابى من أيام ما كنت تلميذ لسه ··

وقال أحمد ضاحكا : يا شيخ ·· يعنى مش أحسن من الخص اللى كنا بنام فيه والفيران تعض فينا ··

وقال محمود كأنه يدافع عن نفسه أمام أحمد :

ـ بس برضه لازم أعزل ·· والحمد لله أقدر أسكن سكن أحسن من ده كتير ·· تعرف أنا باكسب كام من شوية الدروس الخصوصية ، وأدوار الكومبارس فى السينما ·· مش أقل من تلاتين جنيه فى الشهر ··

وقال أحمد وقد بدأ يحس بحرج صديقه :

ـ يا بختك ·· أنا لسه مش عارف اكسب ولا مليم ·· ولما كنت موظف كانت ماهيتى عشرين جنيه ··

ثم خبط على ساق محمود قائلا :

ـ قوم بينا نروح لكمال ·· أحسن اتاخرنا قوى ··

وبدت على محمود علامات الراحة كأنه كان مرهقا باستقبال صديقه فى بيته ·· وخرجا ·· وركبا السيارة ·· واتجها الى

مستشفى الجمعية الخيرية ·· واشترى أحمد فى الطـريق علبة حلوى ·· واشترى محمود علبـة حلوى أخرى ·· نفس الحجم والصنف الذى اشتراه أحمد ·· كأنه كان يتعمد ألا يبدو أقل منه ·

وسارا فى ممرات المستشفى ·· يطلان فى وجوه الجرحى ·· ان الجرحى يبتسمون ·· حتى الذين يتألمون منهم تبـدو تأوهاتهم كأنها أخف من آلامهم ··

وكان كمال راقدا فى فراشه ·· ووجهه الوسيم باهت ، متعب ·· ولكن عينيه لا تزالان نشطتان يطل منهما ذكاؤه ·· وابتسـم لهما ابتسامة ضعيفة ·· ووالدته وشقيقته الصغيرة واقفتان على رأس الفراش ·· يبتسمان فى اطمئنان ·· لقـد أجريت العمليـة لكمال صباح أمس ·· وطمأنهما الطبيب على صحته ··

وجلس أحمـد ومحمود بجانبه ولم يحاولا أن يواسياه . بل أخذا يستعيدان معه ذكريات القتال ·· ويضحكون ·· ثم قال أحمد :

ـ شد حيلك يا كمال علشان نبتدى المشروع بتاعنا ··

وقال كمال فى دهشة : مشروع ايه ؟ ··

وقال أحمد : مشروع الورشة ··

وقال كمال : انت كنت بتتكلم جد ؟ ··

وقال أحمد : طبعا كنت باتكلم جد ·· ده مشروع قديم كان أخويا الله يرحمه عايز يقوم بيه مع واحد اسمه الاسطى عفيفى ·· وفلوسه جاهزة ·· وأنا على أعرفك بالاسطى عفيفى ، وأجيب لك الفلوس والباقى عليك ··

واشرقت ابتسامة كمال ·· كأنه استـعاد كل قواه فجأة ·· وقال : أنا كنت ناوى أخف بعد جمعتين ·· انما علشان خاطرك حا اخف بعد جمعة واحدة ·· وعاد الثلاثة يضحكون ··

ثم استأذن أحمد ، وخرج يبحث عن طبيب المستشفى وهو يفكر فى مشروع الورشة · ·ورشة ممدوح ·· ان السوار الذى كان ممدوح يريد أن يبيعه ليشترى بثمنه مخرطة ، لا يزال موجودا ··

وسيبيعه أحمد ، ويضيف اليه قيمة بوليصة التأمين التى كانت مخصصة لممدوح ٠٠ ويفتتح الورشة مع كمال والاسطى عفيفى ٠٠ ولا يهم ما يكون نصيبه فيها ٠٠ المهم أن الورشة خير من السوار وخير من النقود الموضوعة فى البنك ٠٠

ووجد الطبيب ، وطمأنه على جرحه ٠٠ ورفع عنه الضماد الكبير ، ووضع مكانه ضمادا صغيرا مثبتا بشريط من المشمع ٠٠

وخرج هو ومحمود من المستشفى ٠٠

ان الساعة الثانية عشرة والنصف ٠٠ انه يستطيع أن يذهب لمقابلة رئيس تحرير مجلة الوعى ٠٠

وبقى محمود فى السيارة وصعد أحمد الى دار الجريدة ، وقابل سكرتيرة رئيس التحرير ، وقدم لها نفسه ٠٠ أحمد زهدى ٠٠ المحامى ٠٠ وقد أحس أنه مضطر الى أن يضيف الى اسمه صفة المحامى ٠٠ انه يجب أن تكون له صفة ٠٠ وهو لا يستطيع أن يدعى لنفسه الا صفة المحامى ٠٠ صحيح انه لا يشتغل بالمحاماة ٠٠ ولكنه لا يخدع أحدا ٠٠

ونظرت اليه السكرتيرة كأنها تقيس طوله وعرضه ، وقالت

ـ أقدر أعرف عايز تقابل رئيس التحرير ليه ؟ ٠٠

وقال أحمد دون أن يهتز : عندى معلومات عايز أقولها له بنفسى ٠٠ انه يكذب ، لا يهم ٠٠ انها كذبة بيضاء ، وربما كان المقال الذى كتبه أهم بكثير من المعلومات التى يمكن أن تهم رئيس التحرير

وعادت السكرتيرة تنظر اليه وتقيس طوله وعرضه ، ثم تركته ودخلت الى رئيس التحرير ، وخرجت تقول له : اتفضل ٠٠

ودخل الى الأستاذ محسن ٠٠ ووقف محسن يحييه كأنه يعرفه من زمن ٠٠ انه أكبر قليلا مما يبدو فى الصورة ٠٠ ووجهه مريح كأن كل شىء فيه مستقر ٠٠ عقله ، وقلبه ، ومكانه ، وصوته هادىء لا يبدو فيه أثر من حدة مقالاته التى ينشرها ٠٠ وهو متواضع ، أكثر تواضعا من سكرتيرته ٠٠

واستراح اليه أحمد ، انه يحس أنه هو الآخر يعرفه من زمن ·· معرفة شخصية ·· وقال مبتسما وهو يجلس على المقعد الذى أشار اليه الأستاذ محسن :

ــ الحقيقة أنا ما عنديش معلومات ، أنا عندى مقال ··

ووضع يده فى جيبه وأخرج المقال ·· وتناوله منه محسن وهو يبتسم فى استسلام كأنه تعود على كذب زواره ، وقال :

ــ حضرتك كتبت قبل كده ؟ ··

وقال أحمد فى بساطة : كتبت كتيز ، بس ما نشرتش ··

وقرأ الأستاذ محسن بضعة سطور من المقال ·· وأحمد جالس أمامه كأنه يؤدى امتحانا ويحاول أن يقنع نفسه بالنجاح فيه ·· ثم رفع محسن رأسه ، وقال :

ــ أسلوبك كويس ·· انما انت بتقول ان الاستعمار لا يمكن ان ينتصر فى عام ستة وخمسين زى ما انتصر عام ألف وتمنماية اتنين وتمانين ·· يا ترى معنى كده انك بتؤمن بنظرية الحتمية ·· حتمية التاريخ ·· وقال أحمد كأنه فتح خزانة علمه :

ــ لا ·· أنا أؤمن بحتمية الظروف ·· يعنى لو اتجمعت عدة ظروف معينة تبقى نتيجتها حتمية ·· زى معادلات الكيميا ·· نحط ده على ده نطلع بنتيجة معروفة ·· ومش ضرورى التاريخ يتطور الى ظروف تؤدى الى هزيمة الاستعمار ·· انما الظروف اللى تؤدى الى التحرر هى ظروف ارادية ·· ظروف تنبعث من ارادة الشعب جيلا بعد جيل ·· يعنى لو الشعب قعد ساكت واعتمد على انه حا يتحرر بفعل التطور التاريخى ، عمره ما حا يتحرر ·· الرأى ده مخالف للكلام اللى بيقوله الشيوعيين ··

ــ ده نفس الرأى اللى انا مقتنع بيه ·· انت متخرج سنة كام ؟

وقال احمد : سنة تلاتة وخمسين ··

وقال محسن ضاحكا : يعنى بعدى بعشر سنين ·· ! ؟

ثم أبدى حركة رقيقة كأنه يهم بالقيام ، وفهم منها احمد أن

المقابلة قد انتهت ، فقام واقفا ، وقام الأستاذ محسن يصافحه وهو يقول : على كل حال أنا حا أقرا المقال بنفسي وأوعدك انى أنشره لو كان يستحق النشر ٠٠ وتبقى تفوت على ، والا سيب نمرة تليفونك ٠٠ علشان أقول لك حا أعمل ايه فى المقال ٠٠

وازدحم صدر أحمد بالأمل ، وانحنى يكتب اسمه ورقم تليفونه ، على الورقة التى قدمها له الأستاذ محسن ٠٠ وخرج وهو يكاد يقفز فى خطواته ٠٠ ان الدنيا أسهل مما كان يتصور ٠٠

وقال له محمود وهو يركب فى السيارة : اتأخرت كده ليه ؟ ده أنا كنت عايز أفوت على واحد صاحبى فى الاذاعة ؟ ٠٠

وقال أحمد وهو ساهم فى حلمه : نفوت عليه دلوقت ٠٠

وقال محمود : ما ينفعش ٠ ٠زمانه خرج من مكتبه ٠٠ انت قابلت رئيس التحرير ؟ ٠٠

وقال أحمد : أيوه ٠٠ أنا ماكنتش فاكره كده ٠٠ !

ثم التفت الى محمود بغتة وقال :

ــ تفتكر حايلحقوا ينشروا المقال فى العدد الجاى ؟ ٠٠

وقال محمود : أنا عارف يا أخويا ٠٠ ده تلاقى عندهم مليون مقال ٠٠ ! ؟ وقال أحمد : انما أنا متأكد ان مقالى حايتنشر ٠٠

وعادا سويا الى البيت ٠٠

★ ★ ★

كانت فيفى قد قضت فى هذا الصباح فترة ــ بعد أن حادثها أخوها ــ حاولت فيها أن تنتهى من تحديد مستقبلها ، وتحديد عواطفها ٠٠ واكتشفت فى هذه الفترة انها لم تحاول أبدا أن تحدد مستقبلها بنفسها ٠٠ كانت عقدها تدفعها رغما عنها وبلا ارادة منها ٠٠ لقد عرفت أمين مدة طويلة ، ولاحقها شهورا طويلة ، ورغم ذلك فهى لم ترض بخطبته الا بعد أن خطبت ليلى ، وتحت الحاح شعورها بالنقص لأن أختها الصغرى خطبت قبلها ٠٠ ثم قررت فسخ الخطبة ٠٠ لا بارادتها ٠٠ ولكن لأن أخاها ممدوح مات فى

حادثة ‥ ثم عادت وقبلت اعادة الخطبة وحددت موعدا لعقد القرآن ، لا لأنها أرادت ، ولكن لأن أختها عقد قرانها ‥ ثم عادت وقررت أن تعدل عن القران ‥ لا بارادتها ، ولكن لأن الانجليز هاجموا مصر ‥ ولأن بعثة أمين ألغيت ‥ انها دائما منساقة ‥ دائما تترك ما يجرى حولها يقودها ‥ انها لم تكن لها أبدا ارادة ‥ انها على عكس ما تبدو ، وعلى عكس ما تحاول أن تقنع نفسها ، ضعيفة ‥ ضعيفة ‥ ويجب ان تتغلب على ضعفها ‥ يجب أن يكون لها ارادة ‥ وأن تحدد مستقبلها بارادتها ، لا بحسب ما يجرى حولها ‥ ويجب أن تجد جوابا أخيرا للسؤال الذى حيرها ، هل تريد أمين أو لا تريده ؟ ‥ وابتسمت ‥

انها تريده ‥ قد لا يكون هذا هو الحب كما كانت تتصوره ، وكما تتحدث عنه أختاها نبيلة وليلى ‥ ولكنها تريده ‥ تريد أن يكون دائما ملكا لها ‥ لا لأية فتاة أخرى ‥ وسواء سافرا فى البعثة أو لم يسافرا ، فهى تريده ‥ وربما كان هذا هو الحب ‥ من يدرى ! ‥

وجرت الى مرآتها ، وأطلت على وجهها فى المرآة وابتسمت ‥ انها فعلا تزداد جمالا عندما تبتسم ‥ كما قال اخوها ‥

كم تغير أخوها أحمد ؟ ‥ انها تحبه اكثر من أى وقت مضى ·

وأبدلت ثوبها ‥ ارتدت أجمل ثوب فى دولابها ‥ وخرجت مسرعة الى الجامعة ‥ وكانت الدراسة لا تزال متوقفة فى الجامعة ، ولكن أمين كان يذهب الى المعمل كل يوم ليعد أبحاثه ودراساته ‥ وبحثت عنه ‥

بحثت عنه بلا تردد ، دون أن تحاول أن تحدب على نفسها ‥ انها تبحث عنه ‥ ووجدته فى مكتبه

وقالت له بلهجتها الآمرة التى تعودت أن تحادثه بها ، وابتسامتها ترتعش بين شفتيها :

ـ ماجتش ليه تقول لأبيه أحمد ، الحمد لله على السلامة ؟ ·

وقال أمين وهو يخرج من وراء مكتبه ويقرب وجهه من وجهها، وعيناه الجاحظتان تطلان عليها من وراء زجاج نظارته السميك

ــ ما اعرفش انه جه ·· هوه جه امتى ؟ ··

قالت : امبارح ·· وسأل عليك ··

قال وهو ينظر الى ابتسامتها كأنه لا يصدقها :

ــ تحبى أروح أشوفه امتى ؟ ··

قالت وابتسامتها تتسع كأنها تشجعه بها :

ــ هوه بيقول انه عازمك على الغدا النهاردة ·· ؟

وابتسم أمين ، ورفع يده يعدل بها ذراع نظارته خلف أذنه ، وقال فى فرح : صحيح · ·طيب استننى لما نروح سوا ··

وخففت فيفى من لهجتها ، وقالت فى صوت ناعم :

ــ انت حا تتأخر ؟ ··

قال : لا ·· أنا ماعنديش حاجة ·· ايه رأيك لو نزلنا دلوقت ، ونروح نقعد فى أى حتة لغاية ما ييجى ميعاد الغدا ؟

وقالت فيفى فى استسلام : زى ما انت عايز ··

واتسعت ابتسامة أمين ·· وارتفع حاجباه فوق اطار نظارته ، دهشة ·· لقد مضى وقت طويل لم تبد له فيفى مثل هذه الرقة ومضت أيام طويلة منذ أن ابتسمت فى وجهه ·· وأيام طويلة منذ دعته الى بيتها ·· أيام طويلة تركته خلالها لليأس ، حتى اعتقد انها ستعود وتفسخ خطبتهما مرة أخرى ·· ماذا حدث حتى غيرت رأيها ؟ ·· لا يهم ·· المهم انها غيرت رأيها ··

وخرجا سويا ، وركبا سيارة أجرة ، وذهبا الى كازينو الحمام ·· وجلسا الى مائدة منزوية تطل على النيل ·· وطلب أمين شاى وقطعا من « الجاتوه » ··

وقالت فيفى فى لهجتها الآمرة :

ــ بلاش « جاتوه » ·· انت حا تتغدى دلوقت ··

وقال أمين : حاضر ··

ثم رفع رأسه اليها ، وتسلل اليها بعينيه كأنه يختبر مدى صدق رقتها التى تبديها له ، ثم قال :

ـ فيفى ·· احنا ما نقدرش نفضل معلقين كده على طول ·· لازم ننتهى على حل ؟ ·· احنا كنا مستنيين البعثة ، وآدى البعثة اتلغت ·· ويمكن يبعتونى بعثة فى موسكو ·· ويمكن مايبعتونيش يا ترى حا نفضل كده على طول تحت رحمة البعثة واللى بيقرروا البعثات ؟ ··

وقالت فيفى وهى تحاول أن تحتفظ بلهجتها الآمرة فتفضحها ابتسامتها ، وتطل من عينيها فرحة : يعنى قصدك ايه ؟ ··

قال فى جرأة : قصدى نتجوز ·· وبعد كده اللى يعمله ربنا كويس ··

وسكتت فيفى ، وهى تنظر فى يديها ··

وعاد أمين يقول : ايه رأيك ؟ ··

قالت وهى ترفع اليه طرف عينيها : بس لازم تاخد رأى آبيه أحمد ·· قال وهو يكاد يقفز من على مقعده :

ـ صحيح ·· يعنى انت موافقة ؟ ··

قالت وهى لا تنظر اليه : بس دلوقت الجامعة حا تفتح ·· و ··

وقاطعها قائلا كأنه يطلعها على خطة احتفظ بها طويلا فى صدره :

ـ وماله ·· احنا نكتب الكتاب فى أول خميس من الشهر الجاى ·· وندور على شقة ونجهز ·· ونروح بيتنا فى اجازة نص السنة ··

واحمر وجه فيفى كأنها رأت نفسها فى ليلة زفافها ، ثم قالت كأنها تدافع عن حياتها :

ـ وافرض انهم قرروا البعثة ·· حا نعمل ايه بالجهاز ؟ ··

قال فى حماس : وماله ·· نشيل الجهاز لغاية ما نرجع ·· والا بلاش نجهز الجهاز كله لغاية ما نتأكد من حكاية البعثة ·· احنا استنينا كتير قوى ·· وابتسمت فى خفر ·· وسكتت ··

وامسك أمين بيدها وقال وصوته يقطر حبا : أنا أسعد واحد فى

الدنيا .. أنا باحبك يا فيفى .. وكل يوم ماحبك أكتر .. وضغطت على يده .. وقاما الى بيتها

وهم أمين بمجرد دخوله أن يبلغ الأم باتفاقه مع فيفى ، فنهرته فيفى قائلة : استنى لما ييجى آبيه أحمد ..

كأنها تريد أن يكون أخوها أول من يفرح لها .. كأنها أصبحت تحس بأن أخاها قد أصبح رب العائلة ..

وابتسمت الأم ، كأنها تعرف مقدما ما يريد أمين أن يبلغه لها .

وظل أمين جالسا فى انتظار أحمد ، وهو لا يطيق فرحته .. كأنه لا يستطيع أن يحملها وحده .. ومال على أذن نبيـلة بمجرد أن عادت الى البيت ، وهمس : انتى حاتباركى لى قريب ..

ورفعت نبيلة رأسها قائلة : صحيح والنبى ؟ خلاص اتفقتم و .. و .. وقاطعها أمين وهو ينظر الى فيفى فى خوف :

– هس .. استنى لما ييجى آبيه أحمد ..

وضحكت نبيلة وهى تسمع أمين ينطق كلمة « آبيه أحمد » مقلدا فيفى ..

★ ★ ★

وجاء أحمد ..

وصافح أمين عبد السيد وهو ينظر الى أخته فيفى مبتسما ، كأنه يشكرها لأنها جاءت اليه بأمين .. واحمر وجه فيفى وأرخت عينيها ، ثم جرت نحو غرفتها كأنها عادت فتاة فى السادسة عشرة .. عادت منطلقة صافية النفس .. عادت فتاة تحس بأنوثتها ..

وما كاد أمين يصافحه ، ويتعرف الى محمـود ، حتى همس أمين فى أذن أحمد قائلا : تسمح كلمة يا أحمد ؟ ..

وجذبه من ذراعه ودخل به الى حجرة الصالون ، وأحمد ينظر اليه فى دهشة وابتسام ..

وقامت الأم لتشرف على مائدة الطعام ، ودخلت ليلى تبحث

عن فيفى ، لتسألها عن الأخبار التى ينتظرها كل من فى البيت ··
وبقيت نبيلة مع محمود ، وهمست فى أذنه : معاك جنيه ؟ ··
وابتسم محمود وقال متعجبا : ليه ؟ ··
وقالت نبيلة : بس معاك جنيه ؟ ··
وقال محمود وابتسامته تتسع : معايا ··
ثم وضع يده فى جيبه ، وأخرج اجنيها ، ناوله لنبيلة ، وهو يتلفت حوله كأنه يخشى أن يضبطه أحد ··
وأخذت نبيلة الجنيه بسرعة ، وهمست : مرسيه ··
وقال محمود ، وهو يشعر كأنه اقترب أكثر من نبيلة بعد أن أعطاها الجنيه ، كأنه أصبح رجلها المكلف بها :
ــ مش تقولى لى ايه الحكاية ؟ ··
قالت : بكره تستنانى على باب الشركة الساعة واحدة ونص وانت تعرف الحكاية ·· ! ؟
وخرج أحمد من حجرة الصـالون ووجهـه يتهلل بالفرحة ، ووراءه أمين يسير فى وقار مفتعل وفرحته تضج تحت شدقيه ··
والتفت أحمد الى نبيلة قائلا : فين فيفى ؟ ··
وقالت نبيلة : فى أودتنا ··
وقال أحمد وهو يتجه باحثا عن فيفى : تعرفى تزغردى ؟ ··
وقالت نبيلة ضاحكة : أجرب ··
وقال محمود : أنا أعرف ·· أزغرد أنا ··
والتفتت نبيلة الى أمين تسأله : امتى الكتاب يا أستاذ أمين ؟
وقال أمين وهو لا يزال يفتعل الوقار :
ــ أول خميس فى الشهر الجاى ·· باذن الله ··
والتقت عينا نبيلة ومحمود كأنهما يتساءلان عن موعد زواجهما ·
وانتشر الخبر بين أفراد العائلة ، واجتمعوا كلهم حول فيفى يهنئونها ويقبلونها ·· وهى فرحة ·· ليست فرحة بأمين ·· ولكنها فرحة بنفسها ·· فرحة بارادتها التى حققت بها ما تريد ثم انهـا

تستطيع الآن أن تعتبر نفسها قد تزوجت قبـل أختيها ‥ لأنهـا أكبرهن ‥ لا عقد ‥ ولا سخط ‥ ولا عذاب ‥

واجتمعت العائلة ومعها أمين ومحمود حول مائدة الغداء ، والفرحة تتراقص فى عيونهم ‥ وفوق خدودهم ‥ وأحمد ينظر الى أمه والى أخواته كأنه استطاع أخيرا أن يضمهم معه فى عالم واحد ‥ انه الآن يعرفهم أكثر مما كان يعرفهم ‥ يعرف ما فى قلوبهم وما فى عقولهم ‥ وخيوط البالونات الملونة كلها فى يده .

وقالت ليلى فجأة :

ـ ماما ‥ أنا عازمة بكره واحدة صاحبتى على الشاى .

وقالت الأم فى حنان : مين ‥ عيشه ؟ ‥

وقالت ليلى وهى تلتفت الى أحمد لفتة سريعة .

ـ لا ‥ شهيرة ‥ بس لازم نكون كلنا موجودين ، علشان عايزة أعرفكم بيها ‥

ونظـرت نبيلة وفيفى الى أحمـد وابتسمتا ‥ ولاحظت الأم نظراتهما ، فنظرت بدورها الى أحمد فى حيرة كأنها لا تفهم شيئا .

وقال أحمد لليلى وقد تضرج وجهه بحمرة خفيفة ، كأنه يحاول تغيير الموضوع : رحتى المعهد النهاردة ؟ ‥

وقالت ليلى فى فرح : رحت ‥ والأستاذ فرح بى قوى ‥ واتفق معايا انه حايدينى الدروس بنفسه من الجمعة الجاية ‥

وسكت أحمد ‥ ونكس رأسه فى طبق طعامه ، ثم عاد ورفع رأسه ، وبدأ يدور على وجوه أخواته ، ثم توقفت عيناه على وجه أمه ‥ وتعكرت عيناه ، كأنه يتألم وهو يواجه مشكلة أمه ‥

٣٣

لم يكن أحمد قد كف عن التفكير فى مشكلة أمه ، منذ جاء اليه خاله وأبلغه أن عبد السلام يريد أن يتزوجها ٠٠ وقد ثار يومها ٠٠ ورفض ٠٠ ثار على أمه ، وعلى خاله ، وعلى عبد السلام ٠٠ ثم هدأت ثورته وتركته حائرا ٠٠ حائرا لأنه لا يدرى لماذا رفض أن تتزوج أمه من عبد السلام ، وفى الوقت نفسه لا يستطيع أن يقر هذا الزواج ٠٠ وقد صحبته هذه الحيرة طول أيامه ٠٠ كانت دائما معه كلما رأى أمه ، وكلما اشتاق اليها ، وكلما ترددت سيرتها ٠٠ وكان كل ما يفعله هو أن يهـرب من حيرته ٠٠ أن يتجاهلها ٠٠ وكان يحاول أن يرضى نفسه بأن أمه لا تعلم عن موضـوع هـذا الزواج شيئا ٠٠ لقد قال له خاله انها لا تعلم شيئا ٠٠ ولكن من أدراه أن خاله لا يكذب عليه ٠٠ من أدراه أن أمه لا تحب عبد السلام فعلا ، وأنها اتفقت معه فعلا على الزواج ، ولم يكن انتظار موافقته الا نوعا من الشكليات ٠٠

المهم ٠٠

يجب أن يستقر على رأى ٠٠ انه لا يستطيع أن يستمر فى التجاهل ٠٠ ان هذا التجاهل قد يكون فيه قسـوة على أمه وهو لا يريد أن يقسو عليها ٠٠ ثم انه لم يعد يخشى أن يتخذ قرارا ٠٠ مهما كان هذا القرار ٠٠ ولكنه فى الواقع لا يستطيع أن يستقر على رأى ٠٠

وقضى ليلته يفكر ٠٠

كان فى نفسه شخصان لا يكفان عن النقاش ، ولا يريد أحدهما أن يسلم للآخر برأيه ٠٠

كان الشخص الأول يقول له فى حدة : ان أمك امرأة ، ومن حقها أن تتزوج ·· كل النساء فى حاجة الى الزواج ·· ان الزواج ليس مظهرا ، انه حاجة ·· انه ضرورة ··

ويرد الشخص الثانى : ان أمك ليست امرأة ·· انها أم ·· أمك ··

ويقول الأول : ان الأمهات أيضا نساء ·· لماذا ينسى الابن أن أمه امرأة ··

ويرد الثانى : اذا كانت أمك امرأة ، فهى ليست امرأة صغيرة ·· انها فى الخامسة والأربعين من عمرها ·· لقد فاتها سن الزواج ··

ويقول الأول : ان الزواج ليس له سن ·· ان أى سن يصلح للزواج ·· لماذا نصر على أن نحرم العجائز من حق الحياة ، ومن متعتها ·· لماذا نعتبرهن قد انتقلن الى حياة أخرى فى حين أنهن يعشن حياتنا ··

ويرد الثانى : ان أمك قد قضت كل هذا العمر الطويل بلا زواج ، وهى تستطيع أن تستمر بلا زواج بقية حياتها ··

ويقول الأول : اذا كانت قد تحملت الحرمان طوال هذه السنين، فليس هذا سببا لتستمر فى حياة الحرمان ، بل انه سبب لتعويض حرمانها ، وخصوصا أنها انتهت من تربية أولادها ·· فيفى ستتزوج ·· ونبيلة ستتزوج ·· وليلى قد تلحق بهما ·· وأنت أيضا ستتزوج ·· فكيف تعيش بعدكم ، وحدها ·· بلا صوت يملأ بيتها ، وأنفاس تدفئه ··

ويرد الثانى : أنت أنانى ·· أنت تفكر فى تزويج الأم حتى تعفى نفسك من مسئوليتها ·· حتى تتخلص منها ·· انك تريد أن تتزوج شهيرة ، وتخشى أن تقيم أمك معكما ، ولذلك تحاول أن تلقى بها الى رجل آخر ··

ويقول الأول : لا ·· لا ·· لست أنانيا ·· ولا أريد أن أتخلص

من أمى ، ان كل ما هنالك أنى أريد أن أعطيها حقها ·· حقها فى الحياة · حقها كامرأة ·· ثم انها تحب عبد السلام ·· انى واثق انها تحبه ··

ويرد الثانى : لا تخدع نفسك ·· صارح نفسك بالحقيقة ·· انك تريد أن تتخلص منها حتى لاتزحم بيتك مع شهيرة ·· ان قصة الحماة ، ومتاعب الحماة ، معروفة منذ الأزل ··

ويقول الأول : لا ·· ان أمى لن تكون كبقية الحموات ·· وانى أرحب بأن تقيم معى ·· وسأظل دائما ابنها ورجلها حتى بعد أن تتزوج ·· ولكن الموضوع هو موضوع حقها فى الزواج ··

ويقول الثانى : انها لو تزوجت ·· وهى فى هذا العمر فستكون فضيحة يتناقلها الناس ··

ويقول الأول : لا يهمنى الناس ·

ويصيح الثانى : ألا تغار على أمك ·· ألا تغار عليها من رجل آخر ·· رجل يأخذها ··

ويقـول الأول : انه لن يأخذها الا كما يأخذ كل الرجال كل النساء ·· والغيرة هنا ليس لها محل ·· انها أنانية ·· انها قسوة انها عاطفة بربرية متوحشة ··

وانقضى الليل وهو لا يزال يناقش نفسه ··

وقام فى الصباح وآثار المناقشة لا تزال عالقة بعينيه ، وفى جفاف شفتيه ، وترسم خطوطا عميقة فوق جبينه ·· وارتدى ثيابه بسرعة ، وتناول افطاره وهو واقف ·· وقرأ عناوين الصفحة الأولى فى جريدة الصباح ·· ثم تذكر المقال الذى كتبه وينتظر أن ينشر فى مجلة « الوعى » ·· وهز كتفيه ·· يجب أن يعود نفسه على الصبر ·· ان مجلة الوعى لن تصدر قبل ثلاثة أيام ·· ثم خرج من البيت وركب سيارته ، واتجه الى بيت خاله ··

واستقبله خاله دهشا فهو لم يتعود أن يزوره فى مثـل هذه الساعة المبكرة من الصباح ··

وقبل أحمد زوجة خاله ، وبنات خاله ، ثم استأذن خاله فى أن يحادثه على انفراد ٠٠

قال الخال ضاحكا وقد اختلى به فى غرفة الصالون :

– خير يا أحمد ٠٠ أنا متهيألى آنك ناوى تتجوز ٠٠

وقال أحمد وهو يضغط احدى يديه بالأخرى ، ويبتسم ابتسامة صغيرة : أنا فعلا ناوى اتجوز قريب ٠٠ بس أنا جاى أكلم حضرتك فى حكاية تانية ٠٠

وقال الخال وهو ينظر فى وجه ابن أخته : حكاية ايه ٠٠ ؟

وقال أحمد بسرعة كأنه يحاول أن يسبق تردده : ماما ٠٠

وقال الخال منزعجا : مالها ٠٠ حصل لها ايه ؟ ٠٠

وقال أحمد : ماحصلش حاجة ٠٠ بس حضرتك كنت قلت لى مرة ان عمى عبد السلام بيه طلب انه يتجوزها ٠٠

وضغط أحمد على كلمة « عمى » كأنه يعلن عن شعوره الجديد نحو عبد السلام ٠٠

وتلعثم الخال قائلا : أيوه ٠٠ ده صحيح ٠٠

وقال أحمد : ويومها أنا رفضت وزعلت ٠٠

وقال الخال وهو يفحص أحمد بعينيه : فعلا ٠٠

وقال أحمد وهو لا ينظر الى خاله : أنا كنت يومها غلطان ٠٠ أنا غيرت رأيى ٠٠ أنا شايف ان ما دام ماما موافقة يبقى مافيش مانع ٠٠

ثم رفع رأسه ، ونظر الى خاله قائلا : الكلام اللى قلته سعادتك يومها كان لك حق فيه ٠٠ وحبى لماما هو اللى خلانى أرفض يومها ، وحبى لها هو اللى خلانى النهاردة أوافق ٠٠

وطأطأ الخال رأسه كأنه يفكر ، ثم رفعها قائلا :

– انت اتغيرت خالص يا أحمد ٠٠ والحقيقة انى من يوم ما كلمتك وأنا اعتبرت الموضوع منتهى وخصوصا ان والدتك ماكانتش تعرف عنه حاجة ٠٠ أما من جهة عبد السلام ، فالراجل يئس وقرر

ان مافيش فايدة ومابقاش يجيب سيرة ، ولا يفتح الموضوع ··
وبدأ الخال يتحدث عن عبد السلام ·· عن أخلاقه ·· وعن ذكائه ·· وعن رجولته ·· وعن اخلاصه ·· وكيف أنه رفض أن يتزوج منذ فشل فى زواج الأم ··
وأحس أحمد أنه يرى عبد السلام فى صورة جديدة ·· انه لم يعد يكرهه ·· ربما لم يكن يكرهه أبدا ، انما كان يغار منه لاهتمام أمه به ·· غيرة مبعثها أنانية الابن ·· وهو الآن ليس أنانيا ، وهو يحس أنه اقترب من أمه أكثر بعد أن تخلص من أنانيته ··
وقال أحمد وهو يقوم مودعا خاله : أنا حاترك الموضوع لسعادتك تتصرف فيه زى ما انت عايز ··
وقال الخال وهو يبتسم ابتسامة تعبة ، كان مسئولية خطيرة القيت على عاتقه : ربنا يوفق يا ابنى ··
وخرج أحمد ·· وقاد سيارته الى بيت شهيرة ··
واستقبلته شهيرة وهى مرتبكة فى فرحتها ·· وعيناها غارقتان فى السعادة ، وحمرة خفيفة تلمع فوق وجنتيها ، وقالت وصوتها يزغرد :
ـ انا عمرى ما احترت أد النهاردة ·· مش عارفة حاروح أزوركم فى البيت ازاى ·· حالبس ايه ·· وحا اقعد ازاى ·· وحاتكلم فى ايه ·· متهيالى انى رايحة أمتحن ·· وخايفة ·· موت ·· أنا عمرى ماكنت كده ·· ولا كان متهيالى انى يوم ما حاشوف أهلك حابقى كده ··
وضحك أحمد ضحكة كبيرة ، وقال وهو يقبلها قبلة سريعة فوق خدها :
ـ بسيطة ·· شوفى يا ستى ·· اذا كنتى عايزة فيفى تحبك لازم تلبسى فستان مقفول ، بكمام طويلة ·· واذا كنتى عايزة ماما تحبك ، لازم تلبسى كل الصيغة اللى عندك وتحطى فى صوابعك تلات خواتم الماظ ، وتلبسى عقد لولى ، ودبوس زمرد ·· واذا كنتى

عايزة ليلى تحبك لازم تتقنزحى شوية وتتكلمى فى الموسيقى ·· واذا كنتى عايزه نبيلة تعجب بيكى لازم تهرجى ·· و ··

وضحكت شهيرة قائلة : يعنى قصدك تقول انى مش حاعجب حد · ·ولا حد منهم حايحبنى ·· !

وقال أحمد وهو ينظر اليها فى حب : تأكدى انهم حبوكى من قبل ما يشوفوكى ··

وقالت شهيرة : أنا مش عايزاهم يحبونى علشان خاطرك ·· لازم يحبونى علشان نفسى ··

وقال أحمد بسرعة : وأنا عايزهم يحبونى علشانك ··

ثم أخذ أحمد يحدث شهيرة عن عائلتــه ·· وعن أخلاق كل واحدة من أخواته ، وهى تستمع اليه باهتمام كأنه يساعدها فى التحضير للامتحان القريب ·· ثم قال فجأة : تعرفى كنت فين قبل ما اجيلك ؟ ··

قالت شهيرة : فين ؟ ·

قال : عند خالى ··

قالت بسرعة وفزع : هو حايكون موجود هو كمان ·· !

قال ضاحكا : لأ ·· ماتخافيش ··

ثم سحب ضحكته وقال فى صوت خفيض كأنه بدأ يشكو لها همومه : انتى فاكره انى قلت لك مرة ان فيه واحد عايز يتجوز ماما ·· وانى أنا رفضت ·· !

قالت وهى تمسح وجهه بعينيها : أيوه ·

قال : أنا رحت لخالى وقلت له انى غيرت رأيى ·· وانى موافق ·

وسكت قليلا وهى تنظر اليه وبين شفتيها ابتســامة حنان ، وقالت : ده أنا كنت عاملة حسابى اننا حانقعد معاها بعد ما نتجوز ·

قال وهو يرفع راسه اليها فى دهشة : ازاى ·· ؟

قالت فى بساطة : ما دام فيفى حاتتجوز ·· وبتقول ان نبيلة كمان يمكن تتجوز اليومين دول ·· يبقى لازم نقعــد مع مامتــك

وليلى ·· مش ممكن حايعيشوا لوحدهم هم الاتنين ··
وقال أحمد كأنه بدأ يفكر فى مشروع جديد :
ـ وحانقعد فين ·· فى بيتنا ؟ !
وقالت شهيرة فى خفر جميل : فى أى حتة ··
وفكر أحمد برهة ، ثم صاح كأنه وجد شيئا جديدا :
ـ فكره ·· اسمعى ·· أنا مش كنت باقول لك اننا بنفكر نبيع العمارة ·· بلاش نبيع العمارة ·· خسارة ·· انما نبيع بيتنا ·· البيت اللى احنا ساكنين فيه دلوقت ·· وناخد شقة كبيرة ·· فى عمارة حلوة ·· ونفرشها كلها من جديد ·· حتى ماما وليلى كل واحدة تشترى أودة نوم جديدة ·· تبقى الشقة كلها جديد فى جديد ·· ونعيش حياة جديدة ·· واخلص من عفش بيتنا القديم اللى طابق على نفسى ·· ايه رأيك ·· ؟ ! ··
وقالت شهيرة فى فرح :
ـ موافقة ·· دى فكرة مدهشة ·· أنا كنت حيرانة ·· يا ترى لو قعدنا فى بيتكم القديم حا اجهز أودة واحدة بس ·· والا أودتين ·· انما بالشكل ده نقدر نفرش كل البيت ··
وقال أحمد فى حماس : ومش بس كده ·· انما حا آخد الفلوس اللى حابيع بيهم البيت ، واشترك انا واخواتى مع باباكى فى مشروع مصنع الأدوية ·· ده مشروع ناجح ميه فى الميه ·· انا فكرت فيه كتير ··
وغمر الحماس أحمد ، وانساق هو وشهيرة ، يرسمان صورة حياتهما الجديدة ·· ونسى فى غمار حماسته موضوع زواج أمه ·

٣٤

خرجت نبيلة من مقر الشركة فى الساعة الواحدة والنصف ، وهى تحمل فى يدها كيسا كبيرا من الورق ·· ورأت محمود واقفا ينتظرها فى الشارع ··

وتقدمت منه وبين شفتيهـا ابتسـامة كبيرة ، ومدت له يدها بالكيس الذى تحمله ، قبل أن تحييه ، وقالت من خلال ابتسامتها :

ــ ده علشانك ··

وقال محمود وهو يفتح الكيس وينظر فيه بدهشة : ايه دول ؟

قالت ووجنتاها ترتعشان : قميص وكرافتة ·· أصل ماكانش فيه حاجة مضايقانى فيك الا كرافتتك ·· وكنت كل يوم الصبح أقوم أدعى لربنا انه يخليك تشترى كرافتة جديدة ··

قال وهو يضحك : أنا كنت عامل حسابى انى أشـتريها فى مشروع الخمس سنوات الجايين ··

وأخرج الكرافتة ونظر اليها باعجاب ، وقال :

ــ مدهشة ·· بس لازم أفصل لها بدلة جديدة ··

وضحكت نبيلة ضحكة صافية ·· وعاد محمود وأخرج طرف القميص من داخل الكيس ، وقال مبهورا :

ــ ده أنا عمرى ما لبست قميص بالشكل ده ··

ثم استطرد وهو أشد دهشة :

ــ انما كل ده بالجنيه اللى خدتيه منى امبارح ؟ ··

وقالت نبيـلة وهى تتعمـد الصراحة : لأ ·· القميص بمية وخمسين قرش ، والكرافتة بخمسين ·· أصلى كنت ناوية أجيب

لك هدية بمناسبة رجوعك من القنال ·· هدية بجنيه واحد ·· علشان كده خدت منك الجنيه التانى ·

وابتسم محمود كأن صراحتها قد قطعت عليه تفكيره ، وقال

ـ يبقى لازم أجيب لك كمان هدية ··

قالت بسرعة : بكام ··

وقال محمود وهو ينظر اليها بدهشة : ايه هو اللى بكام ؟

قالت فى بساطة : الهدية اللى حاتشتريها لى ··

قال بعد تفكير وهو لا يزال دهشا : باتنين جنيه ·· ما دام انتى اشتريتى لى هدية بجنيه ، يبقى أنا لازم أجيب لك هدية باتنين جنيه ··

وقالت نبيلة وهى تبتسم : هاتهم

واشتدت الدهشة فى عينى محمود

واستطردت نبيلة قائلة :

ـ ادينى الاتنين جنيه بدل ما تشترى لى بيهم حاجة ·· أولا لانى مش محتاجة اليومين دول انى أشترى حاجة ··

وقاطعها محمود قائلا : أيوه ·· بس ·· و ··

وقاطعته بسرعة :

ـ انت مش فاكر برنارد شو قال ايه فى كتابه ·· قال ان أحسن هدية ، هى الفلوس ·· لأن الورد بيدبل ·· ويمكن تجيب شيكولاتة ويكون اللى حاتجيبهاله مايحبش الشيكولاتة ·· ويمكن تجيب لواحد بالطو هدية مع انه مش محتاج لبالطو انما محتاج انه يدفع أجرة البيت ·· يبقى أحسن طريقة ان الهدية تكون فلوس، وتسيب صاحبك يشترى بالفلوس الحاجة اللى تعجبه ، واللى محتاج لها ·· مش فاكر يا محمود الكلام ده اللى درسناه فى الكلية ··

وقال محمود وهو يبتسم ويهز راسه مستسلما : فاكر

وقالت نبيلة : دا فيه سبب تانى ·

وقال محمود كأنه يعود نفسه على المفاجآت : ايه كمان ؟ .

قالت : أصلي باحوش ... من يوم ما اشتغلت وأنا باحوش .. تعرف حوشت كام لغاية دلوقت .. أربعين جنيه ..

ونظر اليها في اعجاب .. أحس أنها تدبر له حياته .. أحس أنها تشرح له الخطة التي سيتبعانها في حياتهما يوم يتزوجان .. وقال وهو يقبلها بابتسامته ..

ـ وأنا كمان باحوش .. حوشت ستين جنيه !

وزغردت الابتسامة على شفتي نبيلة ، وقالت صائحة :

ـ يبقى معانا ميت جنيه ...

وابتسم محمود والتقط يدها وضغط عليها .. ثم سارا سويا نحو موقف الأتوبيس .. ونزلا من الأتوبيس في شارع المنيل ، ثم اتجها الى الشارع المحاذى للنيل ، وسارا ويدها في يده ، وقالت وهي تنظر الى قدميها وقدميه ، وهما يخطوان سويا :

ـ فاكر يوم ما آبيه أحمد شافنا سوا واحنا ماشيين في الشارع ده .. أنا كنت حاموت من الخوف يومها ..

وقال محمود : أنا ماكنتش فاكر ان أحمد كده .. ساكنتش فاكر انه بسيط وراجل للدرجة دي ... كان دايما عندي فكرن انه منفوخ ، وطالع فيها ..

وقالت نبيلة : آبيه أحمد ماكانش كده ... ده اتغير خالص

وقال محمود : أنا من يوم ما عرفته وأنا حاسس اني بقيت واحد من العيلة .. متهيألي اني عرفتك أكتر من يوم ما عرفته .. وحبيتك أكتر ..

وقالت نبيلة وهي تفتعل الغضب :

ـ يعني كان ممكن تحبني أكتر وماحبتنيش ..

وقال محمود : أنا باحبك كل يوم أكتر من يوم .. وحافضل أحبك أكتر وأكتر لغاية ما يبقى عندك تسعين سنة وافرقع من الحب ..

والتقت نظرتهما لقاء سريعا ، واشتد ضغط يده على يدها
ثم قال فجأة : تعرفى أنا بافكر أعزل من الشقة اللى أنا فيها ..
وقالت نبيلة فى خفر وهى لا تنظر اليه :
ـ استنى شوية .. ماتعزلش دلوقت
وقال محمود وصوته ينبض بالأمل : ونعزل سوا ..
وسكتا كأنهمـا يشربان من سعادتهما .. ثم انطلق محمـود
كأنما دبت فى أعصابه قوى جديدة :
ـ أنا لازم أشتغل فى الاذاعة .. ولازم أعمل اللى انا عاوزه .
وقالت نبيلة : باذن الله ..

★ ★ ★

وعادت نبيلة الى البيت ..
وأختها ليلى مشغولة بالاستعداد لاستقبال شهيرة .. تروح وتجىء بين الغرف .. وتملأ البيت كله حركة وضجة ، ثم جرت الى أمها قائلة : يا ماما مش كفاية نقدم شاى .. لازم نقدم برتقان كمان ..
وقالت الأم وقد ضاقت بضجة ابنتها :
ـ جرى ايه يا ليلى .. ما كفاية كده ..
وقالت ليلى فى صوت خطير :
ـ انتى عارفة شهيرة دى تبقى مين ؟
وقالت الأم كأنها تضحك من سذاجة ابنتها : مين يا ستى ؟
وتلفتت ليلى حولها وقالت فى همس :
ـ دى اللى حايخطبها آبيه أحمد ..
ووقفت تعابير وجه الأم برهة كأنها فوجئت ، وقالت :
ـ وعرفتى منين .. ده ما اتكلمش عنها أبدا ..
قالت : انا عارفة .. وهو اللى عرفنى بيها ..
وقالت الأم كأنها بدأت تواجه مشكلة خطيرة :
ـ وتبقى من عيلة مين دى .. وقابلها فين .. ؟

وقالت ليلى : يظهر انه عرفها فى النادى ‥ وأبوها دكتور معروف قوى ‥ ومدهشة ‥ مدهشة يا ماما ‥ أنا متأكدة انك حاتحبيها قوى ‥

وصمتت الأم كأنهــا راحت فى تفكير عميق ‥ ثم قامت مرة واحدة ‥ وبدأت تشــارك ابنتها فى نشــاطها وفى اعداد البيت لاستقبال شهيرة ‥

واجتمعت العائلة على مائدة الغداء ‥ والسعادة تلمع على وجوه أفرادها ‥ وليلى لا تكف عن الحديث عن شهيرة ، كأنهــا تتباهى بصداقتها على أخواتها ‥ وكأنها تحاول أن تكسب أخاها ورضاءه عنها ‥ وأحمد ينظر الى أمه ويبتسم ، دون أن يطلعها على زيارته لخاله ‥ وكأنه يعد لها مفاجأة ستفرحها ‥ والأم تنظر اليه وتبتسم ، وفى ابتسامتها خيط من اللوم ، كأنه تلومه لأنه لم يطلعها على علاقته بشهيرة ‥

وبدأ البنات بعد الغداء يعددن أنفسهن للقاء شهيرة ‥ وكلهن يعلمن أنها فتاة أخيهن ‥ وكل منهن تحاول أن تبدو فى أحسن حالاتها ، وفى أكمل زينتها ‥ كأنهن اتفقن على تحدى شهيرة ‥ على أن يقنعنها بأنهن خير منها ، وخير من عائلتهــا ، وخير من بنات نادى الجزيرة ، وان خطبتها لأخيهن شرف كبير لها ‥

والأم فى حجرتها تحاول أن تختار أجمل ثيابها ‥ لا لترضى شهيرة ، بل لترضى أحمد ‥ وتحاول أن تفرح ‥ أن تفرح فرحة كبيرة لم تفرحها من قبل ‥ ولكن ‥ فى قلبها خيوط من الألم ‥ انها لا تستطيع أن تتجاهل أن ابنها ذاهب عنها الى امرأة أخرى ‥ الى زوجته ‥ وقد كانت تنتظر هذا اليوم طول عمــرها ‥ كانت تنتظره ، وتنتظر أن تفرح فيه ‥ وقد جاء اليوم ‥ ولكنها لا تستطيع أن تفرح ‥ وضغطت على أعصابها لتفرح ‥ حاولت أن تقنع نفسها ، ان أحمد لم يقرر بعد الزواج ‥ ثم حاولت أن تقنع نفسها بأن تحب شهيرة كما تحب ليلى أو نبيلة ‥ ولكن لا ‥

انها لا تستطيع أن تتصورها كابنتها ·· انها تتصورها امرأة كبيرة ·· مثلها ·· تنافسها ·· وتحاول أن تأخذ منها رجلها ·· ربما كان سر مشكلة الحموات أنهن لا ينظرن الى زوجات أبنائهن كبناتهن ·· كجيل آخر ·· انهن ينظرن اليهن كأنهن من نفس جيلهن ·· كأنهن نساء مثلهن ·· منافسات ·· بل ربما كانت نفس المشكلة أن الأم لا تنظر الى ابنها كابن ·· انها تنظر اليه كرجلها ·· كأنه زوجها ·· ان شعور كل أم نحو ابنها عندما يكبر يختلط بشعورها نحو الزواج ·· انه زوج صنعته بيديها ، وتريد أن تحتفظ به ليعوضها عن عذابها فى الزوج الآخر ··

وهزت الأم رأسها كأنها تنفض كل هذه الأحاسيس ، وعادت تهتم بزينتها وتحاول أن تفرح ··

وجاء أمين عبد السيد مبكرا ، وجلس مع فيفى ··

ثم ··

جاءت شهيرة ··

ووقفت العائلة تفحصها بعيون ثاقبة ، وهى تصافح كلا منهن بيد مرتعشة ، وابتسامة مرتبكة ·· وليلى تقدم أخواتها لها ، وتحاول أن تزيل جو التكلف والتحفظ ·· وجلست بينهن ·· وأحمد جالس قبالتها يضحك فى سره لارتباكها ·· وينظر الى أمه وأخواته وتتسع ضحكته فى صدره وهو يرى عيونهن تكاد تثقب صدر شهيرة ·· وشهيرة تنظر اليه كأنها تستنجد به ·· وأخواته وأمه ينظرن اليه ثم يعدن ينظرن الى شهيرة كأنهن يقسنها عليه ·

ومع الدقائق بدأ التكلف يزول ، وبدأ الحديث يسرى بين الجميع منطلقا مرحا ·· فيه فرحة الشباب وحماسه ·· والأم تخرج من الغرفة وتعود ·· ثم تخرج من الغرفة وتعود ·· لا لشىء الا أنها لا تستطيع أن تستقر ·· وهى فى رواحها وغدوها ترقب شهيرة ·· كل حركة من حركاتها ·· حركات يديها ·· ونظرات عينيها ·· ونبرات صوتها ·· انها جميلة ·· انها مهذبة ·· انها

رائعة .. انها فرحة بها .. ورغم ذلك فخطوط الألم تشق قلبها ..

وجاء محمود ودخل منطلقا كالقذيفة ، كأنه يدخل بيتــه .. وصاح قبل أن يحيى أحدا : تعرفوا حصل ايه النهاردة ؟ ..

وتلفت حواليه ثم جلس بجانب نبيلة وقال لأحمد بصوت عال يتدفق بفرحته : قابلت طاهر أبو زيد فى الاذاعة . وسجل لى حديث عن المعــركة .. وانبســـط منى خالص .. ووعدنى انه حايقــدمنى للمــدير ، وانه حايتكلم علشان يعمـــلولى امتحـــان مخصوص ، وأشتغل مذيع ..

وقام أحمد فرحا ومد يده وخبط على يد محمود فى قوة ، وهو يصيح : مبروك .. كفك على كده ..

وأخذ محمــود يروى لأحمــد تفاصيل الحديث الذى سجله ، ونبيلة تقاطعه : حايتذاع امتى يا محمود ... ؟

ومحمود لا يسمعها وهو مستطرد فى حديثه وحماسه ، وهى تردد : حايتذاع امتى .. ؟

والتفت ونظر اليها فى حب ، كأنه لم يعد يخشى أن يعلن حبه أمام العائلة كلها ، وقال وحبه يحشرج صوته :

– يوم الجمعة الساعة ستة ..

وشهيرة تنظر اليه وهى تبتسم ابتســامة كبيرة ، وقد عرفته قبل أن يقدمه اليها أحمد .. لا بد أنه محمود .. حبيب نبيلة .

وقال أحمد : نسيت أعرفك ..

ثم التفت الى شهيرة واستطرد : محمود .. أخويا فى الدم

ثم التفت الى محمود قائلا : شهيرة ..

وابتسم له ابتسامة صغيرة ، كأنه يريد أن يفهم من هى شهيرة .

وفهم محمود ، وقام يصافح شهيرة فى حماس :

– تشرفنا .. أهلا وسهلا .

ثم عاد يتحدث عن الحديث الذى سجله ، ونبيلة تستزيده منه .. ثم اشترك الجميع فى الحديث عن المعركة ..

وشدت ليلى شهيرة من يدها ، وهى تقول :

ـ تعالى نخليهم يسكتوا ··

ثم أجلستها بجانبها على مقعد البيانو ، وقالت :

ـ تحبى نلعب ايه ؟

وقالت شهيرة : أنا ما اقدرش العب معاكى على البيانو ·· ده أحمد بيقول انك مدهشة ··

وقالت ليلى هامسة وهى تضحك : أنا حاسيبك تلعبى أحسن منى ، علشان يعرف انك مدهشة أكثر منى ··

وأخذتا تعزفان معا على البيانو فى نفس الوقت لحنا راقصا ·· وأحمد ينظر اليهما كأنه يملك الدنيا كلها ··

ثم صاح محمود فجأة : اضربى لنا لحن النصر يا ليلى ··

وسكت الجميع مرة واحدة ·· وارتعشت أصابع ليلى على البيانو ·· واستطرد محمود قائلا دون أن يشعر بالحرج الذى سببه : ده أحمد وأنا كنا طول النهار نصفر اللحن ده ··

وقال أحمد كأنه يقف بجانب أخته ويمدها بشجاعته

ـ اضربى يا ليلى لحن النصر

ونظرت اليه نظرة مهتزة ·· ثم طافت بعينيها على وجوه أخواتها ·· ثم زمت شفتيها كأنها تجمع شجاعتها ·· ثم عادت واعتدلت أمام البيانو ·· ورفعت أصابعها ·· انها تستطيع أن تعزف لحن فتحى دون أن تضعف ·· تستطيع أن تعزف ألحانه دون أن تثير آلام قلبها ·· انها لو استطاعت أن تعزف ألحانه فكأنها برئت من حبها ·· كأنها تواجهه دون أن تستسلم ·· كأنها تتحدى حبا تريد أن تتخلص منه ·· وسقطت أصابعها على البيانو ·· وبدأت تعزف ألحانه دون أن تنهار ·· ان فتحى يبتعد ·· يبتعد ·· انها تشعر أن الحياة تبدأ من جديد ·· حياة ليس فيها من فتحى الا ألحانه ·· وتحس كأن قلبها ينبض من جديد ·· قلب جديد يتطلع حوله كأنه يشرب من الحياة ··

وصفق الجميع لليلى ··

والتفتت اليهم كأنها تتباهى أمامهم بقوتها ، بحياتها الجديدة ·· كأنها تعلنهم أنها قد شفيت ··

وبدأت تعزف مع شهيرة لحنا آخر ·· وهمست شهيرة وهى تشاركها العزف : تعرفى انك عملتى ضجة فى النادى ·· !

وقالت ليلى فى صـوت خافت وهى تضحك ، واللحن يخفى صوتها : وهو النادى بتاعكم ناقص ضجة ··

وقالت شهيرة وهى مستمرة فى العزف :

ـ وتعرفى مين اللى حايجنن عليكى ·· وقاعد يسأل عليكى من ساعة ما شافك ··؟ مدحت ·· !

وابتسمت ليلى وقالت فى دلال : اللى كان قاعد جنبى ·· ؟

قالت شهيرة كأنها تكشف دلال ليلى :

ـ لأ ·· اللى كان قاعد قصادك ··

وقالت ليلى وأصابع يدها تطير فوق البيانو :

ـ مش بطال ·· باين عليه مؤدب ··

★ ★ ★

وعاد الجميع يتحدثون ·· وأمين عبد السيد ينظر الى فيفى كأنه يستأذنها ، ثم يشترك فى الحديث ، ويروى آخر أنباء الجامعة ·· والمرح والبشر ينطلقان من فوق الوجوه ·· والشـباب يضج فرحا فى العيون ·· والأمل ·· الأمل الكبير يجمعهم كلهم فى خيط واحد ··

وقامت شهيرة لتعود ··

واقترح عليها أحمد أن تصرف سـيارتها ، وتعـود معه فى سيارته بصحبة أخته ليلى ··

وقبلت شهيرة ··

وركب الثلاثة فى المقعد الأمامى من السيارة ·· وشهيرة بجانب

أحمد ·· وطاف أحمد بالسيارة فى جولة كبيرة. ·· صعد حتى الهرم ·· ثم عاد ، وأوصل شهيرة الى بيتها ··

وقالت شهيرة وهى تنزل : بكره حانتقابل أنا وليلى فى النادى وتبقى تفوت علينا أول ما تخلص ··

وقال أحمد مبتسما : حاضر ··

ودخلت شهيرة بيتها وهى تلوح لهما بيدها ··

★ ★ ★

وعاد أحمد مع أخته الى البيت ··

واستقبلته أمه متجهمة ، وكأنها كانت فى انتظاره ، وعيناها معكرتان كأنها تهم بالبكاء ، وقالت فى حزم :

ـ تعال يا أحمد ·· عايزاك ··

وسبقته الى غرفتها ·· وألقت نفسها على مقعدها كأنها انهدت مرة واحدة ، وأسندت جبينها على كفها برهة ثم رفعتها وقالت وهى تتنهد : خالك كان هنا دلوقت ··

وجلس أحمد على الشيزلونج ، وقال وهو يتجاهل الموضوع الذى يعرف أنه يشغل تفكير أمه :

ـ ونزل بدرى ليه ؟ ··

وحدقت الأم فى وجه ابنها ثم قالت كأنها على وشك أن تثير زوبعة : انت قلت لخالك ايه ؟

وقال أحمد : ولا حاجة ··

وقالت الأم وقد ارتفع صوتها :

ـ كلمنى بصراحة يا أحمد ·· خالك حكالى على كل حاجة

وقال أحمد وهو يخفى عينيه عن أمه : أنا قلت له انى موافق ·

وقالت الأم كأنها تصرخ : موافق على ايه ؟ ! ·

وقال أحمد وهو لا ينظر اليها وصوته يتعثر فى ارتباكه : كان خالى قال ان عمى عبد السلام بيه طلب انه يتجوز حضرتك ··

وانطلقت الأم صارخة :

ـ أنا ما قلتش لخالك انه يقولك حاجة ·· وعمرى ما كلمت خالك نفسه فى حاجة زى دى ·· واذا كان عبد السلام عايز يتجوزنى فهو مش أول واحد اتقدم لى ·· انما انت ازاى توافق ·· ازاى تقبل انك تسيبنى وتتخلى ·· ازاى ·· ازاى ··

وألقت رأسها بين يديها ، وانطلقت تبكى ·· وترتعش فى بكائها ··

وسقط أحمد من جلسته ، وركع تحت قدميها ، وقال وهو يمد يديه ويحتضنها : أنا موافقتش الا علشان خاطرك يا ماما ·· علشان سعادتك ··

وصرخت الأم : مين قالك انى عايزة أتجوز ·· ازاى يهون عليك انى أتجوز ·· أنا فضلت عايشة طول عمرى متهيألى انك مش ممكن ترضى انى أتجوز ·· وكنت أتمنى انى أفضل طول عمرى عايشة فى الوهم ده ·· ولكن يا خسارة ·· ولادى مايهمهمش انى أتجوز ·· وانى أبعد عنهم ··

وقال أحمد وهو دهش : يا ماما مش كده ·· مش كده ابدا ·· أنا متهيألى انى حاكون أنانى لو عارضت فى جوازك ·· أنا كنت طول عمرى حاسس انك ضحيتى وحرمتى نفسك علشان خاطرنا ·· وماكانش ممكن يوم ما أعرف انك حاتتجوزى واحد يسعدك انى أحرمك من سعادتك ··

ونظرت الأم في وجه ابنها ، وكأنها تبحث فيه عن نفسها ·· ودموعها لا تزال تجرى فوق وجنتيها ·· وهى تحس أنها لا تبكى غضبا من ابنها ، ولكنها تبكى حيرتها ·· وهى تعلم أنها قضت سنوات طويلة وهى تتمنى أن تتزوج عبد السلام ، وكانت تقنع نفسها بأنها لا تستطيع أن تتزوجه لأن أولادها لا يمكن أن يقروا هذا الزواج ·· كانت تقنع نفسها دون أن تسألهم ·· ودون أن تحاول الزواج فعلا ·· وقد عاشت حياتها محرومة وهى تعلل حرمانها بحبها لأولادها ·· ولكن ، لا ·· لقد كانت تخدع نفسها ·· انها

لم تكن تريد الزواج أصلا • •لقد أدمنت حرمانها •• انه لم يكن حرمانا •• ولكنه كان حياة اختارتها •• اختارتها بمحض ارادتها •• وقد كانت تستطيع أن تختار حياة أخرى •• كانت تستطيع أن تتزوج حتى لو عارض أولادها • •ولكنها لم ترد •• ربما لأنها أجبن من أن تتزوج •• ربما لأنها أضعف من أن تبدأ حياة زوجية من جديد •• ربما لأنها تريد أن تتباهى بأنهـا أم مثاليـة تضحى بنفسها ، فى سبيل أولادها ••

وقد اكتشفت الآن نفسها ••

اكتشفتها وهى تواجه الزواج بلا حائل ••

وصعب عليها أن تكتشف نفسها •• صعب عليها أن يتركهـا ابنها •• لا أن يتركها للرجل الذى يريد أن يتزوجها ، بل يتركهـا لنفسها •• لترى نفسها على حقيقتها •• لترى أنها لا تريد الزواج •• لا من أجل أولادها ، بل لأنها لا تريد •• حتى لو كان الرجل الذى تقدم اليها رجلا تحبه •• أو لعلها لا تحبه •• انها تحب فقط ذكريات صباها ، ذكريات قديمة •• ربما لو كانت لا تزال تحبـه لتزوجته رغم معارضة أولادها ••

وهدأت دموعها ••

وأحمد لا يزال راكعا تحت قدميها ، يحتضنها بذراعيه ، ثم شب بوجهه وبدأ يلتقط بقايا دموعها بشفتيه ••

وضمته الى صدرها فى حنان وقالت فى صوت هادىء عميق كأنها تحادث به نفسها :

ـ أنا مش حاتجوز يا أحمد ••

ورفع أحمد رأســه عن صدرها ، ونظر اليهـا فى تعجب ، واستطردت قائلة فى صــوتها العميــق : أنا كنت فاكره انى مش باتجوز علشان خاطرك وخاطر أخواتك •• انما دلوقت عرفت انى ماتجوزتش ، لأنى ماكنتش عايزة أتجوز ••

وقال أحمد : لكن يا ماما و ••

وقاطعته وهى تبتسم فى هدوء
– صدقنى يا أحمد ‥ أنا مش عايزة أتجوز
وعاد أحمد يحاول أن يتكلم : بس ده خالى قال لى ان ...
وعادت تقاطعه قائلة فى هدوء
– خلاص يا أحمد ‥ قوم خد اخواتك واتعشوا سوا ‥
وقام أحمد واقفا ، ونظر اليها برهة فى تعجب ، ثم استدار وخطا نحو الباب ، ثم توقف والتفت اليها قائلا :
– تعرفى انى فرحان ان حضرتك مش حاتتجوزى ‥ أنا وافقت علشان خاطرك ، مش لأنى عايز ‥
وعاد أحمد واقترب منها ، وقال كأنه يحاول أن يفرحها
– ايه رأيك فى شهيرة يا ماما ‥ ؟
وقالت الأم وابتسامتها الحزينة تتسع : حلوة يا ابنى ‥ حلوة قوى ‥ وباين عليها عاقلة وبنت ناس ‥
وقال أحمد وهو يحاول أن يضحك :
– أصلى بافكر انها تيجى تقعد معانا
وقالت الأم وهى تشد قامتها كأنها ملكة تعرف واجبها تماما :
– لا يا أحمد ‥ أنا اللى حا أقعد معاها ‥
واندفع أحمد اليها ، واخذها بين ذراعيه وقبلها ، قائلا :
– ربنا يخليكى لى يا ماما ‥ ربنا مايحرمنيش منك أبدا ‥
ثم تركها وجرى الى غرفته ، كأنه لم يعد يحتمل مزيدا من عواطفه ‥ ووقف يخلع سترته وابتسامته تملأ وجهه ‥ ثم اتجه الى النافذة ووقف ينظر فى الليل ‥ انه يستطيع أن يرى فى الليل ‥ يستطيع أن يرى الى آخر أيام عمره ‥ انه يعرف حياته كأنها خطوط مرسومة على ورق ‥ ويعرف أن الشمس تشرق غدا ‥
الشمس تشرق كل يوم ‥
الشمس لا تنطفىء أبدا ‥

« تمت »